

إدجار آلان بو

الأعمال النثرية (1)

ترجمة: غادة الحلوانى

1815

سلسلة الإبداع القصصي

هذا هو المجلد الثاني من أعمال الكاتب الأمريكي الشهير إدجار آلان بو (١٨٠٩- ١٨٤٩)، يصدره المركز القومي للترجمة بعد أن أصدر في ٢٠١١ أعماله الشعرية تحت عنوان "وادي القلق".

يتضمن هذا المجلد ستًا وعشرين قصة من قصصه القصيرة المعروفة، مثل "الرسالة المسروقة" و"سقوط بيت أوشر" و"حكاية شهر زاد الثانية بعد الألف". وهي قصص متنوعة الموضوعات، لعبت بعالمها وبأسلوبها المميز، ولغتها الخاصة، دوراً رائداً في بلورة فن القصة القصيرة ، هذا فضلاً عن مقالاته النقدية التي نظّر فيها لنوع القصة القصيرة الناشئ.

إدجار آلان بو شاعر وقصاص وصحافي لعب خلال الأعوام الأربعين التي عاشها، أدواراً متعددة في أدب العالم الحديث، وتخطت شهرته حدود الأدب الأمريكي، وترجمت أعماله إلى معظم لغات الأرض. اشتغل بالصحافة والتحرير معظم فترات حياته القصيرة، وترك عدداً كبيراً من النصوص الشعرية والقصصية، فضلاً عن المقالات. وقد اشتهر بو بقصصه القوطية المرعبة، وقدم عوالمه وتحليلاته القصصية الغريبة منطلقًا من أرضية فن الشعر التي بدأ منها، ومركزًا على فكرته النقدية الأساسية عن وحدة الأثر أو وحدة الانطباع.

ليس في قصص بو ما يشير إلى حياته، فقد آمن أنه "مؤلف" و"صانع" يصنع عوالمه القصصية المتخيلة مستهدفًا إمتاع قرائه والتأثير فيهم على نحو معين، وليس التعبير المباشر عن آلامه وعن حياته الخاصة.



إدجار آلن بو
الأعمال النثرية (١)

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 1815
- الأعمال النثرية (١)
- إدجار آلان بو
- غادة الحلوانى
- اللغة: الإنجليزية
- الطبعة الأولى 2015

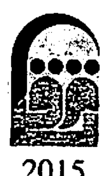
هذه ترجمة:
The Complete Tales and Poems of:
Edgar Alan Poe

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

إدجار آلن بو

الأعمال النثرية (١)

ترجمة: غادة الحلواني



2015

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

آلن بو ، إدجار
الأعمال النثرية (١) / تأليف: إدجار آلن بو،
ترجمة: غادة الحلوانى
ط ١ - القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٥
٦٦٠ ص، ٢٠ سم
١ - القصص
(أ) الحلوانى، غادة (مترجم)
(ب) العنوان ٨٠٨,٨٣

رقم الإيداع 4704 / ٢٠١١
الترقيم الدولى: I.S.B.N 978- 977- 704 - 586 -5
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

المغامرة الفذة للمدعو هانز فوول

بقلب من أخيلة جامحة

أحكمه؛

برمح متوهج وحصان طائر

أجول في البرية

قصيدة غنائية لتوم أوبدلام[1]

وفقًا للروايات الأخيرة الواردة عن روتردام، يبدو أن هذه المدينة تعيش حالة من الإثارة الفلسفية؛ فبالفعل وقعت ظاهرة فيها ذات طبيعة غير متوقعة تمامًا، جديدة كلية، وتختلف اختلافًا جذريا عن الآراء المكونة عنها سلفًا، بحيث لم تدع لعقلي مجالا للشك طويلا في أن أوروبا كلها قبل وقوع هذه الظاهرة بفترة طويلة تعيش حالة من الاضطراب؛ والفيزياء حالة من الثورة؛ والعقل مع علم التنجيم حالة من الخصام.

يبدو أنه في عام ـ يوم ـ (لست متأكدًا من التاريخ) اجتمعت جمهرة من الناس لأهداف لم تذكر بدقة في ساحة التبادل العظيمة في

(١) قصيدة مجهولة تعود إلى نحو عام ١٦٦٠.

مدينة روتردام التي تتميز بالأخلاق الحسنة. كان يومًا دافئًا- عادة ما يكون هكذا حتى هذا الوقت من الموسم- فبالكاد تتحرك نسمة في الهواء، ولم يكن الجمع في مزاج سيئ بسبب الزخات الودودة التي ترشهم وتسقط من الكتل البيضاء الضخمة من السحب الموزعة بغزارة في قبة السماء الزرقاء. مع ذلك، في الظهيرة تقريبًا، ثار هياج خفيف، لكنه غير عادي في الجمهرة، فقد تتابعت جلبة عشرة آلاف لسان، وبعد ذلك في لحظة، ارتفع نحو السماء عشرة آلاف وجه، وهبط عشرة آلاف غليون من زوايا عشرة آلاف فم، وتردد صدى صرخة لا تقارن سوى بزئير شلالات نياجرا، تردد صداها طويلاً وعاليًا وصاخبًا عبر مدينة روتردام وضواحيها.

سرعان ما اتضح مصدر هذا الهرج والمرج تمامًا؛ فمن وراء كتلة من كتل السحاب التي ذكرتها فعليا ذات الحجم الضخم المحددة تحديدًا دقيقًا، شاهد الجمع شيئًا غريبًا يتكشف ببطء في الأفق الممتد من الفضاء الأزرق، غير متجانس، لكنه - على ما يبدو - صلب، ذو هيئة غريبة جدًا، ومجمع رأسًا على عقب بحيث لم يتخذ أي هيئة مفهومة له، ولم ينل قط إعجاب جمهرة المواطنين الأقوياء الذين وقفوا فاغري أفواههم في الأسفل منه. ماذا يمكن أن يكون؟ باسم كل الشياطين في روتردام، بماذا ينذر؟ لم يعرف أحد، ولم يستطع أحد أن يتخيل. لا أحد، حتى عمدة المدينة مينهير سويريس فون أندردوك، لم يملك أدنى فكرة عن اللغز. هكذا، وبما أن ليس هناك شيء عقلانى أكثر من هذا يمكن

فعله، وضع كل رجل غليونه بحرص في زاوية فمه، وثبت عينيه على الظاهرة، مدخنًا، متوقفًا، متململاً في مكانه، ناخرًا نخرة قوية، ثم متحركًا رجوعًا، ناخرًا، متوقفًا، وأخيرًا مدخنًا مرة أخرى.

من ناحية أخرى، وفي الوقت نفسه، أخذ الشيء الذي بعث هذا الفضول الكبير والمثير لدخان كثيف يهبط أكثر وأكثر باتجاه المدينة الكبيرة. وفي دقائق معدودة وصل تقريبًا إلى الحد الذي يكفي لكي يميزه الجمع. يبدو أنه ــ نعم! كان بلا شك نوعًا من أنواع البالونات، لكنهم لم يروا واحدًا مثله من قبل في روتردام. اسمحوا لي أن أسأل: من سمع من قبل عن بالون مصنوع من الصحف القذرة كلية؟ ولا إنسان في هولندا بالتأكيد. غير أنه هنا، وتحت أنوف الناس، أو بالأحرى على مسافة ما فوق أنوفهم، كان الشيء نفسه الذي أتحدث عنه، مصنوعًا، وهذا من مصدر أثق به ثقة تامة، من المادة نفسها التي لم يصل إلى علم أحد من قبل أنها تستخدم في مثل هذا الغرض. إنها إهانة فظيعة للحس العقلاني لمواطني روتردام. ففيما يتعلق حتى بشكل الظاهرة، تستحق التوبيخ أيضًا؛ فهي لم تكن أفضل من قبعة أو طرطور مهرج مقلوبة رأسًا على عقب. كما لم يخفف من وطأة هذا التشبيه أبدًا، ما رآه الجمهور، حين قاموا بفحصه عن كثب، شرَّابة ضخمة تتدلى من قمتها، وحول حافتها العليا- أو قاعدة القمع- مجموعة من الأدوات الصغيرة تشبه أجراس الغنم التي استمرت في رنين متواصل شبيه

بنغمة بيتي مارتين[1]. لكن لا يزال هناك أسوأ من هذا، فقد كانت تتدلى من شرائط زرقاء في مؤخرة هذه الآلة العريضة - كما في العربات - قبعة من فرو القندس ذات لون أسمر فاتح، وبحرف عريض عرضًا مبالغًا فيه، وتاج شبه دائري بشريط أسود، وبوكلة فضية. ومن اللافت أن كثيرًا من مواطني روتردام أقسموا أنهم رأوا قبعة الفرو مرارًا من قبل. وفعليًا، بدا الجميع أنه ينظر إليها نظرة العين التي تألف شيئًا ما، في حين أن السيدة جريتيل فوول، صدر عنها عندما رأتها صوت يعبر عن دهشة فرحة، وأعلنت أنها القبعة ذاتها التي كانت ملك زوجها الطيب بعينه. والآن هذه واقعة ينبغي التعليق عليها؛ لأن فوول، بصحبة ثلاثة آخرين، اختفوا فعليًا من روتردام منذ خمس سنوات تقريبًا على نحو مفاجئ وغامض، وقد فشلت كل المحاولات حتى يوم وقوع هذه الظاهرة في الحصول على معلومات تتعلق بهم. وقد تم اكتشاف بعض العظام التي أُعتقد أنها بشرية، ممزوجة بكمية من النفاية غريبة الشكل في مكان أقصى شرق المدينة. وذهب البعض إلى حد تخيل وقوع جريمة شنيعة أُرتكبت في هذا المكان، وأن الضحايا على الأرجح هم هانز فوول ورفاقه. لكن لنا عودة إلى هذا الأمر.

البالون (لأنه بلا شك كان كذلك فعليًا) هبط الآن إلى ارتفاع مائة قدم تقريبًا من سطح الأرض، وبهذا أتاح للجمهور في أسفله أن يـــروا

---

(١) كلمات أغنية فلكلورية ذات نغمة فلكلورية أيضًا، على النحو التالي:
"High, Betty Martin"

الشخص الذي يشغله رؤية واضحة. كان – في الحقيقة – شخصًا ما فريدًا جدًّا، لم يبلغ طوله أكثر من قدمين، غير أن طوله هذا – على الـرغم من ضآلته – كان يمكن أن يكون كافيًا لإخلال توازنه مع انحنائه فوق حافة العربة الضئيلة لولا تدخل الحافـة الدائريـة (المـزودة بأحبـال البالون) التي يصل ارتفاعها إلى صدره. كان جسد الرجـل عريـضًا عرضًا لا يتناسب مع طوله، مضفيًا على هيئته الكلية استدارة سـخيفة جدًّا. وبالطبع لايمكن رؤية قدميه أبدًا. كانت يـداه ضـخمتين جـدًّا، وشعره رماديًا ومجمعًا في ضفيرة خلفية. كان أنفه ذا طول اسـتثنائي ومعقوفًا وملتهبًا، عيناه كبيرتين ولامعتين وحـادتين؛ ومـع أن ذقنـه ووجنتيه العريضتين امتلأتا بالتجاعيد، فقد كان سمينًا بلغد. أما أذناه فلم يكن من الممكن اكتشاف أضأل أثر لهما في أي جزء من رأسه. كـان يلبس هذا الرجل الصغير الغريب معطفا ضيقا من الستان بلـون أزرق سماوي مع بنطال إنقاذ يتماشى لونه مع لون المعطف، ومثبتا ببوكلتين فضيتين عند الركبتين. كانت صدرته مصنوعة من مادة صفراء لامعة إلى حد ما، وقبعة من التفتة البيضاء وضعها بأناقة على أحد جوانـب رأسه، ولكي يكمل زينته، طوق عنقه منديلٌ حريري بلون الدم، يتـدلى بأناقة على صدره بعقدة أنشوطية ضخمة جدا ذات أبعاد بالغة البروز.

وكما قلت من قبل، مع نزول البالون إلى ارتفاع مائة قدم عـن سطح الأرض، استـولت على الرجـل العجـوز الصغيـر فجـأة نوبة من الارتعاش، وبدا نافرا من أن يقترب أكثـر إلـى اليابـسة

(*teraa firma*)[1]. ولهذا عندما رمى كمية من الرمـــال مـــن حقيبـــة مصنوعة من الكنافاه التي حملها بصعوبة، أصبح ساكنا في لحظة. ثم، بسرعة وعصبية، أخرج من جيب جانبي في معطفه محفظة جيب مـــن جلد مراكشي. وازن هذه المحفظة في يده بحرص، ثم وازنهـــا بعينيـــه بسيماء من الدهشة المفرطة؛ كان مندهشا فيما يبدو مـــن ثقلهـــا. فـــي النهاية، فتحها وسحب منها رسالة ضـــخمة مختومـــة بالـــشمع الأحمـــر ومحكمة الربط بشريط أحمر، وإذ أسقطها تمامـــا عنـــد قـــدمي العمـــدة سوبريس فون أندردوك، خطـــا سعـــادته ليرفعهـــا. غيـــر أن المـــلاح الجوي الذي لا يزال يثير الاضطراب، وعلى ما يبدو لم يعد لديه عمل يبقيه في روتردام، انهمك في استعدادات نشطة للرحيل؛ وبما أنه كـــان من الضروري أن يتخلص من حصة من الصابورة، لكي تساعده على الصعود مرة أخرى، تدحرجت نصف دستة الحقائـــب التـــي رماهـــا، واحدة بعد الأخرى -بدون أن يكلف نفسه مشقة إفـــراغ محتوياتهـــا- للأسف على ظهر العمدة ودحرجته مرة بعد مرة لما لا يقل عن نصف دستة من المرات أمام الجميع في روتردام. مع هذا، لا يصح الاعتقـــاد أن أندردوك العظيم ترك هذا التصرف الوقح مـــن الرجـــل الـــصغير العجوز يمر بسلام دون عقاب؛ بالعكس، فقد قيل إنه خلال كل دحرجة من هذه الدحرجات، نفث مالايقل عن نصف دستة من النفخات القويـــة

---

(١) يستخدم (بو) كثيرا من الكلمات بلغات أخرى، سترد هنا في المتن إلى جانـــب ترجمتها العربية.

الكثيفة من غليونه الذي تمسك به سريعا طوال الوقت بكل قوته والذي ينوي أن يقبض عليه بإحكام (بمشيئة الله) حتى يوم وفاته.

في الوقت نفسه، بزغ البالون مثل قبَّرة وحلق بعيدا فوق المدينة، وانحرف في النهاية بهدوء وراء سحابة شبيهة بتلك التي ظهر منها على نحو غريب، واختفى إلى الأبد عن العيون المندهشة لمواطني روتردام الصالحين. تركز الانتباه كلية في تلك اللحظة على الرسالة "الهابطة" التي دمرت تدميرا قاتلا كلا من جسد وكبرياء سعادته، فون أندردوك. من ناحية ثانية، نجح هذا الموظف خلال دحرجاته الدائرية في إضفاء الأهمية على هدفه المهم وهو تأمين الرسالة، التي رؤى عند المعاينة أنها سقطت في أكثر الأيادي مناسبة، بما أنها موجهة في الحقيقة إليه وإلى البروفيسور روبادوب، بصفتيهما الرسمية رئيس ونائب رئيس كلية أمستردام لعلم الفلك. وبناء عليه، فتحها صاحبا المقام الرفيع في الحال، ووجدا أنها تحتوي الرسالة الخطية الاستثنائية والخطيرة جدا بالفعل، التالية:

"إلى سعادتي فون أندردوك وروبادوب، رئيس ونائب رئيس كلية علم الفلك في مدينة روتردام.

لعل سعادتكما تتذكران بسيطا اسمه هانز فوول، كانت مهنته نافخ كيِّر، اختفى مع ثلاثة آخرين في روتردام قبل خمس سنوات تقريبا، بطريقة اعتبرها الجميع غامضة. فإذا أسعد سعادتكما، أنا هو،

هانز فوول كاتب هذه الرسالة نفسه بذاته. يعرف معظم إخواني المواطنين جيدا أنني شغلت لمدة أربعين عاما مبنى طوبيا على رأس شارع اسمه سوركروت، حيث كنت أقيم به عند وقت اختفائي. وقد أقام أسلافي فيه أيضًا لردح طويل من الزمن. لقد امتهنوا مثلي على الدوام مهنة نفخ الكير المحترمة والمدرة للربح، وأصدقكم القول، كانت مهنتي من أفضل المهن التي يستحقها ويسعى إليها المواطنون الشرفاء، حتى أثار عقول الناس في السنوات الأخيرة الانشغال بالسياسة. كانت سمعتي جيدة والعمل وفيرا، ولم ينقصني المال ولا السمعة الطيبة للمحل. لكن كما كنت أقول، سرعان ما بدأنا نشعر بآثار الليبرالية والخطابات الطويلة الراديكالية، وكل هذه الأنواع من الأشياء. لم يعد الأفراد الذين كانوا في الماضي أفضل الزبائن في العالم يملكون لحظة للتفكير بنا أبدًا؛ فقد كان عليهم بقدر ما يستطيعون القراءة حول الثورات ومتابعة مسيرة الفكر وروح العصر. فإذا ما احتاجت النار إلى تزكيتها، فبصحيفة؛ ومع تزايد ضعف الحكومة، لم يخالجني الشك في أن متانة الحديد والجلد تتناسب طرديا مع ضعفها؛ ففي وقت قصير جدا، لم يتعرض زوج من منفاخ في روتردام بأسرها، إلى نقص في غرزة ما أو يحتاج إلى معونة مطرقة. لقد كانت حالة لايمكن احتمالها. وسرعان ما نما فقري كالفأر، وبما أن لدي زوجة وأطفالا أعولهم، أصبحت أعبائي في نهاية الأمر غير محتملة وأنفقت ساعة وراء ساعة في التفكير بأفضل الطرق ملاءمة لإنهاء حياتي. وفي الوقت نفسه، لم

يترك لي الدائنون الملحون فرصة ضئيلة للتفكير؛ كان بيتي محاصرا من الصباح إلى الليل. أقلقني على وجه الخصوص ثلاثة رفاق قلقا يفوق الاحتمال، لأنهم استمروا في مراقبة باب بيتي وتهديدي قانونيا. أقسمت بالانتقام من هؤلاء الثلاثة إذا ما أتيحت لي سعادة أن يقعوا في قبضتي في يوم من الأيام. وأعتقد أنه لم يمنعني عن تنفيذ خطة انتحاري، بتفجير رأسي ببندقية صغيرة فورا، أي شيء في هذا العالم سوى متعة هذا التوقع. ومع ذلك رأيت أنه من الأفضل أن أخفي غيظي وأن أمنحهم الوعود والكلمات الطيبة حتى تتاح لي فرصة الانتقام عندما يدير القدر دائرته لصالحي.

في أحد الأيام، وكنت قد أفلتُّ منهم وأشعر بوهن عزيمتي أكثر من المعتاد، واصلت تجوالي لفترة طويلة في أكثر الشوارع ظلمة بدون هدف، حتى تصادف في النهاية وتعثرت عند أحد الأركان بتندة بائع كتب. وبعد أن رأيت كرسيا قريبا متاحا لاستخدام الزبائن، رميت نفسي فوقه بعند، وفتحت، بدون أن أعرف لم، صفحات أول مجلد وصلت إليه يدي. اتضح أنه بحث صغير في علم الفلك الرؤيوي كتبه إما البروفيسور أنك من برلين أو رجل فرنسي يحمل اسما شبيها إلى حد ما. كنت أملك قدرا ضئيلا من المعلومات عن مسائل من ذات الطبيعة، وسرعان ما استغرقتني محتويات الكتاب أكثر وأكثر؛ فقد قرأته فعليا مرتين قبل أن أفيق لأستوعب ما يدور حولي. في تلك اللحظة كان الظلام يحل، وتوجهت إلى المنزل. غير أن البحث الذي له علاقة

باكتشاف في علم الخصائص الميكانيكية للهواء أرسله إليَّ مؤخرا ابن عم من مدينة نانتز باعتباره سرا مهمًا، ترك أثرا لايمحى في عقلي، وبينما أمشي الهويني في الشوارع المتربة قلبت في ذهني حجج الكاتب وبراهينه الخام والغامضة في بعض الأحيان. أثر على تفكيري بعض الفقرات المعينة تأثيرا استثنائيا؛ وكلما تأملت هذه الحجج زادت حدة الاهتمام التي أثارتها بداخلي. إن طبيعة تعليمي المحدود عامة وجهلي على الأخص بموضوعات تتعلق بفلسفة الطبيعة، لم يدفعاني للشك في قدرتي على فهم ما قرأت أو لم يدفعاني بالأحرى إلى الشك في المفاهيم الغامضة العديدة التي ظهرت لي بالتالي، بل أثارا خيالي على الأحرى. وكنت فارغا أو عقلانيا بما يكفي فلم ينتبني الشك في أن أيا من هذه الأفكار الخام، وقد انبثقت عن عقول فوضوية، تحمل هيئة الغريزة أو الحدس، أو حتى على الأحرى تحوز قوتها وحقيقتها وكل الصفات المتأصلة الأخرى للغريزة أو الحدس.

كان الوقت متأخرا حين وصلت إلى المنزل فذهبت فورا إلى السرير غير أن عقلي كان مشغولا جدا بحيث لم أستطع أن أنام، ورقدت الليل بطوله مدفونا في التفكير. وبما أنني استيقظت مبكرا في الصباح، ذهبت بلهفة إلى تندة بائع الكتب وأنفقت المال الضئيل أصلا، الذي أملكه، في شراء بعض مجلدات الميكانيكا وعلم الفلك العملي. وبعد أن وصلت إلى البيت آمنا مع هذه المجلدات، كرست كل دقيقة فراغ لدراستها، وسرعان ما حققت تقدما هائلا في دراسة هذه الطبيعة

-كمــا اعتقــدت- كافيــا لتنفيذ تصميم معين ألهمني إياه إما الشيطان أو أفضل عفاريتي. في هذه الفترة، قمت بكل المحاولات لتهدئة الدائنين الثلاثة الذين سببوا لي إزعاجا كبيرا. ونجحت في هذا أخيرا، جزئيا ببيع ما يكفي من أثاث بيتي لسداد جزء من الدين، وجزئيا بمنحهم الوعود بدفع الباقي فور انتهائي من مشروع صغير أخبرتهم أنني أدرسه وسعيا لمساعدتهم أيضًا. بهذه الطرق (لأنهم كانوا رجالا جهلاء) لم أجد صعوبة في كسبهم لتحقيق هدفي.

بعد أن رتبت هذه الأمور على هذا النحو، ناضلت بمساعدة زوجتي، وبأقصى سرية وحذر للتخلص مما تبقى في ملكيتي ولاستعارة كمية غير ضئيلة من المال الجاهز، بمبالغ ضئيلة تحت أعذار مختلفة وبدون أن أهتم أيما اهتمام (يخجلني أن أقول هذا) بالوسائل المستقبلية لرد الدين. وهكذا عن طريق الأموال التي تراكمت، واصلت تدبير (على فترات) قماش من نسيج كتاني ناعم، مقسم إلى قطع طولها ١٢ ياردة، وخيط مصنوع من نبات القنب، وكميات كبيرة من ورنيش المطاط، وسلة ضخمة وعميقة مصنوعة من الأماليد المجدولة بناء على تصميم وضعته، وأشياء أخرى متنوعة ضرورية في بناء وإعداد بالون ذي أبعاد استثنائية. وفي هذا وجهت زوجتي في طريقة صنعه بأسرع ما يمكن وأعطيتها كل المعلومات المطلوبة لتباشر العمل. في الوقت نفسه تابعت جدل خيوط نبات القنب إلى شبكة ذات أبعاد مناسبة، وزودتها بطوق وأحبال ضرورية واشتريت أدوات

متعددة ومواد للتجربة أو لإجراء التجربة في المناطق العليا من الغلاف الجوي العلوي. حينئذ انتهزت الفرص المتاحة لكي أنقل ليلا لمكان منعزل شرق روتردام خمسة براميل خشبية مطوقة بالحديد، بسعة ٥٠ جالونا لكل منها، وواحدا بسعة أكبر، وستة أنابيب من القصدير، يبلغ قطرها ٣ إنشات مصنوعة صناعة جيدة ويبلغ طولها عشرة أقدام، وكمية من المواد المعدنية أو شبه المعدنية التي لن أسميها، ودستة من الزجاجات الضخمة واسعة الجوف مليئة بحامض معروف جدا. إن الغاز الذي صنع منه هذا الحامض لم يصنعه بعد أي شخص آخر سواي - أو على الأقل لم يُجرب في غرض مشابه. أستطيع أن أقول إنه مكون من الآزوت[1]، الذي اعتبر طويلا عنصرا متعذرا اختزاله أو تحويله، وأن كثافته حوالي٣٧,٤ مرة أقل من الهيدروجين. هو بلا طعم لكنه ليس بلا رائحة، يحترق نقيا بشعلة خضراء، وقاتل فوري للحيوان. لا أجد مشقة في كشف سره الكامل (لكن هذا الحق يخص مواطنا من نانتز في فرنسا، كما ألمحت من قبل)، الذي أرسله إليَّ شخصيا تحت شروط. قدم لي الشخص نفسه، بدون أن يكون على علم بنواياي، طريقة لبناء البالونات من غشاء حيوان معين، من المستحيل تقريبا أن يتسرب من خلالها أي غاز. مع ذلك، وجدت هذه الطريقة مكلفة جدا ولم أكن متأكدا عامة من صلاحيتها، وإجمالا لم أشك في أن النسيج الكتاني الناعم مع طلائه بالورنيش الصمغي لن يصلح لهذا

(١) النيتروجين

الغرض أيضًا. إنني أذكر هذا الحدث لأنني أعتقد أنه من المحتمل أن يحاول الشخص المذكور (المعني) إطلاق بالون بالغاز الجديد و المواد التي تحدثت عنها ولا أود أن أحرمه من شرف نسب اختراع فريد جدا له.

في الأماكن التي اعتزمت أن أضع بها على التوالي كل برميل خشبي صغير خلال انتفاخ البالون، حفرت على الخصوص ٥ حفر صغيرة، شكلت هذه الحفر دائرة يبلغ قطرها ٢٥ قدما، وفي مركز هذه الدائرة، ولأن المكان مصمم للبرميل الخشبي الضخم، حفرت أيضًا حفرة بعمق أكبر. في كل حفرة من الحفر الخمس الأصغر وضعت علبية تحتوي ٥٠ باوندا من البارود، وفي الحفرة الأكبر وضعت برميلا صغيرا يحتوي مائة وخمسين باوندا من البارود. أوصلت البرميل الصغير والعلبيات بخيط من البارود، وغطيت الحفرة بعد أن تركت في واحدة من العلبيات طرف خيط فتيل بطيء الاشتعال يبلغ طوله حوالي ٤ أقدام، ووضعت البرميل الخشبي فوقها بعد أن تركت الطرف الآخر من الفتيل ناتئا إنشًا تقريبًا، ولا يمكن أن يلاحظه أي أحد خلف البرميل. ثم ملأت الحفر الباقية، ووضعت البراميل فوقها في مكانها المقدر!

إلى جانب الأشياء التي جهزتها بالأعلى، نقلت إلى المستودع، حيث أخفيت، جهازا لتكثيف الهواء الجوي محسنا قام به م. جريم. من ناحية ثانية، اكتشفت أن هذه الآلة تحتاج إلى إجراء تحويل مهم عليها قبل أن أخضعها للهدف الذي انتويته. لكن بالعمل الشاق والمثابرة

الدؤوبة حققت في النهاية نجاحا كليا في كل تجهيزاتي. سرعان ما اكتمل بناء البالون، ويمكن أن يحتوي على أكثر من ٤٠ ألف قدم مربع من الغاز، وقدرت أنه يمكن أن يحملني إلى الأعلى بكل عدتي بالإضافة إلى ١٧٠ باوندا وزن الصابورة إذا أحسنت إدارته. لقد طليت القماش الكتاني الناعم بثلاث طبقات من الورنيش الصمغي، ووجدت أنه يفي بأغراض الحرير نفسه في قوته تماما كما أن الكميات الكبيرة أرخص ثمنا.

وبعد أن أصبح كل شيء جاهزا الآن، انتزعت من زوجتي قسما بالتكتم على كل ما يتعلق بأعمالي من يوم أول زيارة قمت بها لتندة بائع الكتب، وأعطيتها ما تبقى من مال ضئيل، وودعتها واعدا إياها من جانبي بالعودة سريعا بقدر ما تسمح به الظروف. ولم أقلق عليها فعليا؛ فقد كانت من النوع الذي يسمونه الناس بـــ "امرأة فذة" وتستطيع أن تدبر أمور الحياة بدون مساعدتي. أعتقد في الحقيقة أنها اعتبرتني دوما جسدا عديم الجدوى- مجرد سد ثغرة ما- لا يصلح لشيء غير بناء قصور في الهواء، وكانت على الأحرى سعيدة بالتخلص مني. كانت ليلة حالكة عندما ودعتها، واصطحبت معي ليعاوننى الدائنين الثلاثة الذين سببوا لي الكثير من المشاكل، حملنا البالون مع العربة والعتـــاد، سالكين طريقا غيـــر مباشر باتجـــاه المكان الـــذي خزنت فيه الأشياء الأخرى. وجدناها في المكـــان سليمة وباشـــرت عملي على الفور.

كان أول شهر أبريل وكانت الليلة حالكة، كمـــا قلت من قبل، ولا نجمة ظاهرة في السماء، وانهمر مطر رذاذي على فترات متقطعة مسببا لنا الإزعاج. غير أن قلقي الأساسي كان يتعلق بالبالون الذي بدأ يزداد ثقله مع الرطوبة على الرغم من الورنيش الذي طليته به لحمايته. وكان البارود أيضًا عرضة للتلف. لهذا جعلت دائني الثلاثة يعملون بكد عظيم محيطين البرميل الأساسي بالثلج، ومحركين الحمض في البراميل الأخرى. مع ذلك لم يكفوا عن الإلحاح عليَّ بأسئلة تتعلق بما أنوي فعله بكل هذه الأدوات وأظهروا استياء كبيرا بسبب العمل الشاق الذي أخضعتهم له. لم يستطيعوا أن يفهموا (هكذا قالوا) ما المفيد من تبللهم حتى الجلد إلا المشاركة في هذه التعاويذ الرهيبة. بدأت أقلق وواصلت العمل بكل قوتي لأنني آمنت فعليا أن الحمقى افترضوا أنني دخلت صراعا مع الشيطان وأن هذا باختصار ما أفعله الآن. لهذا تملكني خوف عظيم من أن يتركوني كلية. مع ذلك، بذلت كل ما في وسعي في تهدئتهم بوعدهم بدفع الدين كاملا فور قدرتي على إنهاء هذا المشروع. وقد فسروا هذا الكلام تفسيرا خاصا بهم؛ فبلاشك تصوروا أنني على كل الأحوال، سأحصل على كميات هائلة من الأموال النقدية. وبافتراض أنني دفعت لهم كل ما أدين به لهم وأكثر قليلا، في مقابل خدماتهم، أجـــرؤ علـــى قول إنهم لم يهتموا بما سيحل سواء بروحي أو بجسدي.

في خلال أربع ساعات تقريبا ونصف الساعة، رأيت أن البالون انتفخ بما يكفي. بناء عليه وصلت العربة ووضعتُ كل عتادي فيها: تليسكوبا وبارومترا لقياس ضغط الجو مع بعض التعديلات المهمة وميزان حرارة وأداة لقياس القوة الكهربائية وبوصلة وإبرة مغناطيسية وساعات ثوان وموسى وبوقا إلخ... كذلك، وضعت كرة زجاجية وأنبوبًا عادما مغلقًا جيدا بأداة إيقاف بدون أن أنسى جهاز التكثيف وبعض الجير غير المطفأ وإصبعا من شمع الختم، وقدرًا وفيرًا من المياه، وكمية ضخمة من المؤن مثل اللحم المقدد الذي يحتوي على قوت كبير مقارنة بحجمه الضئيل. كما أمنت في العربة زوجا من الحمام وقطة.

كان النهار وشيكا، ورأيت أنه الوقت المناسب لأقوم برحلتي. انتهزت فرصة سقوط سيجارتي على الأرض، كما لو أنها صدفة، لالتقاطها بإشعال قطعة الفتيل- الطرف الذي تحدثت عنه من قبل البارز قليلا خلف الطرف السفلي لبرميل من البراميل الصغيرة - لم ينتبه الدائنون الثلاثة إلى هذه الحيلة أبدًا. وبعد أن قفزت إلى العربة، قطعت على الفور الحبل الوحيد الذي يربطني بالأرض. وابتهجت عندما وجدت أنني انطلقت إلى الأعلى بسرعة شديدة، حاملا بكل سهولة مائة وخمسا وسبعين باوندا من الصابورة الرصاصي، وقادرا على أن أحمل عاليا الكمية نفسها. حين تركت الأرض كان البارومتر يشير إلى ٣٠ ياردة والترمومتر المئوي إلى ١٩ درجة مئوية.

مع ذلك ما كدت أصل إلى ارتفاع ٥٠ ياردة، حتى وقع إعصار صاخب وفظيع من نار وحصوات وخشب محترق وحديد مشتعل وأغصان مبتورة يزأر ويقعقع فوقي حتى غاص قلبي بداخلي وسقطت في قاع العربة مرتعشا من الرعب. لقد أدركت الآن أنني بالغت في تجهيزه وأن العواقب الأساسية الوخيمة للصدمة لم تقع بعد. تلى هذا في أقل من ثانية ما جعل الدم الذي في جسدي كله يندفع إلى صدغي، رجة لن أنساها أبدا، انفجرت بوحشية عبر الليل وبدت أنها مزقت السماء نفسها إربا. عندما أتيح لي الوقت بعد ذلك للتفكير في الأمر، نجحت في عزو الصخب الشديد للانفجار كما رأيت بنفسي لسببه الحقيقي، ذاك أن موقعي كان يقع تحته مباشرة وفي اتجاه قوته العظيمة. لكن في تلك اللحظة لم أفكر إلا في الحفاظ على حياتي. في البداية، تقلص البالون، ثم تمدد تمددا كبيرا، ثم أخذ يدور بسرعة أصابتني بالإعياء، وأخيرا تمايل وترنح مثل رجل سكير قاذفا إياي فوق حافة العربة، متدليا على ارتفاع هائل، رأسي إلى الأسفل ووجهي متجها إلى الخارج، وقدمي اليسرى عالقة بقطعة من الحبل الهزيل طولها ٣ أقدام متدلية بالصدفة عبر شق قرب قعر سلة الأماليد المجدولة، حيث تعثرت بفضل العناية الإلهية. من المستحيل - المستحيل تماما - صياغة فكرة كافية عن رعب المكان الذي تدليت منه. تنشقت الهواء في لهات متشنجا، وأصاب كل عصب وعضلة من جسدي رعدة تشبه نوبة من الملاريا، وشعرت أن عينيَّ جاحظتان وطغى عليَّ إعياء رهيب. في النهاية فقدت وعي ساقطا في إغماءة.

من المستحيل أن أعرف المدة التي بقيت فيها على هذه الحالة؛ ومع ذلك، لابد أنها ليست فترة صغيرة لأنني عندما استعدت جزئيا وعيى، وجدت أن النهار طلع والبالون على ارتفاع هائل فوق وحشة المحيط ولا أثر لأي برية في أي اتجاه في حدود الأفق الواسع. من ناحية ثانية، لم تعان حواسي، بعد أن استعدتها، من ألم مبرح كما يمكن أن يتوقع. وفي الواقع كان نتيجة المسح الهادئ الذي بدأته لموقفي هو الجنون. رفعت أمام عيني كل يد من يديَّ، واحدة بعد الأخرى، وتعجبت عن سبب ظهور انتفاخ العروق والسواد الفظيع لأظافري. فحصت بعد ذلك رأسي فحصا دقيقا، هازا إياه تكرارا ومتحسسا إياه بعناية فائقة، حتى نجحت في أن أقنع نفسي أنه لم يكن أضخم من البالون؛ لقد كنت شبه متيقن من هذا. بعدها، تحسست، بالطريقة المألوفة، الجيوب الداخلية لمعطفي ولم أجد فيها مجموعة أقراص الدواء وكيس خلة الأسنان، وحاولت أن أعلل سبب اختفائها، وبما أنني لم أستطع أن أجد السبب شعرت بغم يفوق الوصف. في تلك اللحظة شعرت بأنني أعاني ألما عظيما في مفصل كاحلي اليسرى، وبدأ يلمع في ذهني وعي مبهم بوضعي. لكن، وغريب أن أقول هذا، لم أكن مندهشا ولا مرعوبا؛ فإذا ما كان لدي شعور ما، فقد كان نوعا من الرضا الذي جعلني أضحك بيني وبين نفسي، بسبب ذكائي الذي كان على وشك أن يظهر في تخليص نفسي من هذه الورطة. ولم أعتبر للحظة أن نجاتي في نهاية الأمر قضية محل شك. ولدقائق بقيت

صامتًا في تأمل عميق، أتذكر تذكرا بعيدا أنني ضغطت شفتي مرارا ووضعت سبابتي إلى جانب أنفي واستخدمت الإيماءات والتكشيرات المعروفة الأخرى التي يستخدمها الرجال الذين يتأملون باسترخاء في كراسيهم الكبيرة أمورا ذات تعقيد وأهمية. وبعد أن لممت شتات أفكاري كما اعتقدت، وضعت بحرص وعناية عظيمين يديَّ خلف ظهري، وفككت البوكلة الحديدية الضخمة التي تتصل بنطاق بنطالي. هذه البوكلة لها ثلاثة أسنان، وبسبب أنها صدئة التوت حول محورها بصعوبة شديدة. مع ذلك، وبعد بعض المشقة أدرتها في زاوية قائمة مع جسد البوكلة وسعدت بأن أجدها لاتزال صلبة في ذلك الوضع. وباشرت، وأنا أحمل بين أسناني العدة التي حصلت عليها، في فك عقدة رباط عنقي. اضطررت أن أرتاح عدة مرات قبل أن أنجز هذه المحاولة، لكنني أنجزتها في النهاية. ثبتُّ البوكلة بطرف من طرفي رباط عنقي، وربطت الطرف الآخر بإحكام حول خصري تأمينا لي. نجحت في سحب جسدي إلى الأعلى بمجهود عضلي شنيع من المحاولة الأولى؛ وذلك برمي البوكلة فوق العربة التي علقت بالحافة الدائرية لسلة الأماليد المجدولة كما توقعت.

كان جسدي يميل إلى جانب العربة بزاوية قدرها ٤٥ درجة، لكن لا يجوز أن يفهم أنني شكلت زاوية ٤٥ درجة فقط أسفل الخط العمودي الذي تشكله عربة البالون. أبعد ما يكون عن هذا، فقد بقيت مستلقيا تقريبا بمستوى سطح الأفق لأن تغير وضعي الذي قمت به

أجبر أسفل العربة على الاتجاه إلى الخارج بعيدا عن وضعي الذي كان بالتالي وضعا خطرا جدا. من ناحية ثانية، يجب تذكر أنني لو كنت وقعت في المقام الأول من العربة ووجهي متجها إلى المنطاد بدلا من خارجه كما حدث فعليا؛ أو إذا، في المقام الثاني، كان الحبل الذي علقت به، صدف وكان عالقا بالحافة العليا للعربة عوضا عن شق بالقرب من الحافة السفلية - أقول إنه من السهل في الحالتين إدراك، أنني كنت سأعجز عن إنجاز قدر ما أنجزت الآن، وكانت ستضيع التصريحات التي أقوم بها الآن هباء. لهذا عندي كل الحق في أن أشعر بالامتنان، على الرغم من أنني في الحقيقة كنت أغبى من أن أشعر بأي شيء، وتعلقت لربع الساعة على الأرجح بهذه الطريقة الاستثنائية بدون أن أقوم بأدنى مجهود إضافي، وفي حالة هادئة هدوءا غريبا من المتعة الحمقاء. غير أن هذا الشعور خفت سريعا، وتبعه شعور بالقلق والرعب والعجز الكامل والدمار. في الحقيقة، إن الدم الذي تراكم طويلا في عروق رأسي وحنجرتي ورفع لهذا معنوياتي إلى حد الاهتياج، بدأ يتراجع الآن إلى قنواته المناسبة، وتمييز الخطر الذي أضافه إلى إدراكي، عمل فقط على حرماني من رباطة جأشي والشجاعة لمواجهته، غير أن هذا الضعف لحسن حظي لم يدم طويلا. في الوقت المناسب ظهرت لإنقاذي روح اليأس، وبصرخات وصراعات رفعت نفسي مرة واحدة إلى الأعلى، متشبثا بقبضة تشبه الملزمة بالحافة التي طالت رغبتي إليها، حتى في النهاية لويت نفسي فوقها وسقطت برأسي إلى الأسفل وقدمي إلى الأعلى داخل العربة.

مضى وقت حتى استعدت نفسي بما يكفي لأقوم بالعناية العادية بالبالون. من ناحية ثانية، فحصته بعد ذلك بعناية، ووجدت أنه لم يصب بخدش؛ وهو الأمر الذي أشعرني بالراحة. كان كل عتادي آمنا، ولم أفقد لحسن الحظ لا الصابورة ولا المؤن. فبالفعل كنت قد أمنتها تأمينا جيدا في مكانها، بحيث كان من المستحيل أن يقع حادث مثل هذا. عندما نظرت إلى ساعتي وجدتها السادسة، كنت لا أزال أصعد بسرعة، وأشار البارومتر إلى ارتفاع يصل إلى ثلاثة وثلاثة أرباع الميل. يرقد في المحيط تحتي شيء أسود صغير، مستطيل الشكل إلى حد ما، حجمه بحجم قطعة الدومينو على ما يبدو، ويشبهها من جميع الجوانب. عندما أحضرت التليسكوب لأتحقق منه تبينت بوضوح أنه سفينة حربية بريطانية بأربع وتسعين مدفعية، تبحر في اتجاه معاكس للريح بقدر الإمكان، وتتأرجح مقدمتها بثقل لتغطس وتطفو في مياه البحر باتجاه جنوب الجنوب الغربي. لم أر إلى جانب هذه السفينة أي شيء إلا المحيط والسماء والشمس التي أشرقت منذ فترة طويلة.

الآن، هو الوقت المناسب الذي يجب أن أشرح فيه لسعادتكما هدف رحلتي. تذكران سعادتكما أن الظروف التعسة في روتردام قادتني في النهاية إلى حل الانتحار. مع ذلك، لم تكن الحياة نفسها هي التي أشعر تجاهها بالقرف، بل تجاه المضايقات التي لاتحتمل من التعاسات العارضة التي صاحبت وضعي. في خضم هذه الحالة من التفكير وأنا أرغب في الحياة، لكن تعبا من الحياة، فتح لي البحث الذي

وجدته على تندة بائع الكتب، مدعوما بالاكتشاف الملائم لابن عمي من نانتز طاقة في خيالي. عقدت العزم حينئذ أخيرا. صممت على الرحيل، لكن حيا- على ترك العالم، لكن مستمرا في الوجود- باختصار لتفادي الألغاز، قررت، وليكن ما يكون، أن أشق طريقي، إذا استطعت، إلى القمر. الآن، خوفا من أن تعتبراني أكثر جنونا مما أنا عليه، سأفصل الاعتبارات التي قادتني إلى أن أصدق أن إنجازا من هذا النوع، على الرغم من أنه صعب بلاشك، ومحفوف بالخطر، لايتجاوز أبدا، بالنسبة لروح جريئة، حدود الممكن.

كان أول شيء يجب أن أنتبه إليه هو المسافة الفعلية بين القمر والأرض. والآن يبلغ معدل أو متوسط الفترة الفاصلة بين مركزي الكوكبين ٥٩,٩٦٤٣ شعاع (نصــف قطــر) خــط استــواء الأرض أو حوالي ٢٣٧,٠٠٠ ميل تقريبا. أقول معدل أو متوسط الفترة، لكن يجب أن يظل في ذهنيكما أنه بسبب أن شكل فلك القمر وهو قطع ناقص من الاختلاف المركزي يصل إلى ما لايقل عن ٠,٠٥٤٨٤ لشبه محور القطع الناقص ذاته، وبسبب موقع مركز الأرض في بؤرته، فإذا استطعت بأي طريقة أن أناضل لكي أصل إلى القمر في حضيضه أي عند أقرب نقطة من مدار القمر إلى الأرض ستنقص المسافة المذكورة نقصا كبيرا. لكن بغض النظر عن هذا الاحتمال في الوقت الحالي، وعلى كل الأحوال، كان يجب علي بالتأكيد أن أنقص من ٢٣٧,٠٠٠ ميل نصف قطر الأرض، ولنقل ٤٠٠٠ ميل، ومن نصف قطر القمر،

فلنقل ١,٠٨٠ ميل بمجموع ٥,٠٨٠، تاركا مسافة فاصلة فعلية قدرها ٢٣١,٩٢٠ ميل، لاجتيازها في ظل الشروط العادية. أعتقد أنها ليست مسافة استثنائية؛ فالسفر على سطح الأرض تحقق مرارا بمعدل ٦٠ ميلا في الساعة، كما يمكن توقع سرعة أكبر كثيرا. لكن حتى عند هذه السرعة لن أحتاج إلى أكثر من ١٦١ يوما لكي أصل إلى سطح القمر. مع ذلك، كانت هناك خصائص عديدة أغرتني بالإيمان بأن معدلي المتوسط من السفر قد يتجاوز كثيرا ٦٠ ميلا في الساعة، وبما أن هذه الاعتبارات نجحت في أن تترك انطباعا قويا على عقلي، فسأذكرها بالتفصيل بعد ذلك.

النقطة التالية التي كان يجب أن آخذها في اعتباري، ذات أهمية أعظم بكثير. فمن المؤشرات التي تظهر على البارومتر، نجد أننا نترك وراءنا، في الصعود من سطح الأرض على ارتفاع ١٠٠٠ قدم، واحدا على ثلاثين من الكتلة الكلية للهواء الجوي. وعند ارتفاع ١٠,٦٠٠ قدم، نكون قد صعدنا الثلث تقريبا، وعند ارتفاع ١٨,٠٠٠ قدم الذي لايعلو كثيرا عن بركان كوتوباكسي[1] نكون قد تغلبنا على نصف الصعوبة، أو في كل الأحوال نصف كتلة الهواء الضاغط على الكرة الأرضية القابلة للقياس. وقدرت أيضا أنه على ارتفاع لا يزيد على الجزء المئوي من قطر الأرض - أي لايزيد على ٨٠ ميلا - ستصبح خلخلة الهواء كبيرة جدا بحيث لايمكن أن تستمر حياة الحيوان، وعلاوة على

---

(١) بركان في الإكوادور يبلغ ارتفاعه ١٩,٣٤٤ قدم.

ذلك، أن أكثر الوسائل دقة التي نمتلكها لكي نتحقق بالتجربة من وجود الغلاف الجوي، ستصبح غير كافية لكي تؤكد وجوده. لكنني لم أفشل في إدراك أن هذا الحساب الأخير قائم تماما على معرفتنا التجريبية لخصائص الهواء، وعلى القوانين الميكانيكية المنظمة لتمدده وضغطه، فيما يمكن أن يسمى، نسبيا، المنطقة المجاورة فوريا للأرض نفسها، وفي الوقت نفسه، بديهي أن حياة الحيوان لابد أن تكون عاجزة على نحو جوهري عن التكيف على أي مسافة مفترضة عن السطح لايمكن بلوغها. والآن هذه الاستنتاجات لابد أن تكون نسبية بالطبع. إن أعلى ارتفاع بلغه الإنسان كان ٢٥,٠٠٠ قدم، حققته البعثة الملاحية المكونة من السيدين جاي - لوساك وبيوت، وهو ارتفاع متوسط حتى عند مقارنته بالثمانين ميلاً التي نتحدث عنها. ولايسعني إلا أن أفكر في أن الموضوع يتيح الفرصة للشك والمجال لمزيد من الاكتشاف.

لكن في حقيقة الأمر، في حالة بلوغ ارتفاع معين، فمن المفترض ألا تتناسب كمية الهواء القابلة للقياس مع العلو الإضافي المتحقق (كما اتضح مما ذكرت سابقا) إلا بمعدل يتناقص تناقصا ثابتا. لهذا من الواضح أننا لن نستطيع حرفيا، إذا ارتفعنا بقدر ما نستطيع أن نصل إلى حد يصل إلى أبعد من الغلاف الجوي. لكنني أفترض أنه موجود، على الرغم من أنه قد يوجد في حالة من الخلخلة اللامتناهية.

من ناحية أخرى، كنت أدرك أن الفرضيات العلمية تزخر بالبراهين التي تثبت وجود حدود حقيقية ونهائية للغلاف، حيث لايوجد

هواء أبدًا أيا كان فيما وراءها. غير أن ثمة ظرفا لم يراعه هؤلاء الذين قنعوا بمثل هذا الحد، فقد بدا لي أنه على الرغم مـــن أنـــه لا يوجد دحض إيجابي لعقيدتهم، لا تزال هناك نقطة تستحق البحث الجاد. فإذا قارنا الفترات الفاصلة بين النتائج المتتالية من مذنب" إنك" في أقرب نقطة له في مداره إلى الشمس، وبعد الأخذ في الحسبان بطريقة دقيقة كل الاضطرابات التي تحدث بسبب انجذاب الكواكب، سيتضح أن الفترات الفاصلة تتناقص تدريجيا، بمعنى أن المحور الرئيسى للقطع الناقص للمذنب يصبح أقصر، بتناقص بطيء لكنه منتظم انتظاما تاما. وهذا هو بالضبط الوضع، إذا افترضنا مقاومة يقوم بها المذنب في وسط أثيري نادر يسيطر على مناطق مداره. فمن الواضح أن هذا الوسط لابد أن يزيد من قوته الجاذبة نحو المركز، في حالة تأخير سرعة المذنب، عن طريق إضعاف قوته النابذة. بكلمات أخرى، ستكون لجاذبية الشمس باستمرار قوة أعظم عليه، وستسحب المذنب عند كل دورة، وبالفعل لاتوجد طريقة أخرى لتعليل الاختلاف محل السؤال. لكن مرة أخرى: لوحظ أن القطر الحقيقي لسد المذنب نفسه يتقلص تقلصا سريعا أثناء اقترابه من الشمس، ويتمدد بنفس مقدار السرعة في رحيله تجاه الأوج (أبعد ما يمكن عن الشمس). ألم أكن محقا في اقتراحي مع م. فالز أن كثافة الحجم هذه الواضحة تتأصل جذورها في ضغط الوسط الأثيري نفسه الذي تحدثت عنه من قبل، حيث تزيد كثافته عن كثافة المنطقة المجاورة للشمس التي يصل إليها؟

إنها ظاهرة عدسية الشكل وتسمى أيضًا الضوء البروجي[1]، وهو أمر يستحق الاهتمام. هذا الإشعاع الذي يتضح في المناطق الاستوائية والذي لايمكن الخلط بينه وبين الوميض النيازكي، يمتد من الأفق إلى الأعلى امتدادا مستطيل الشكل ويتبع عامة اتجاه خط استواء الشمس. لقد ظهر لي ظهورا واضحا في طبيعة الجو النادر الذي يمتد من الشمس إلى الخارج، فيما وراء فلك الزهرة على الأقل، وأعتقد أنه يمتد إلى أبعد من ذلك امتدادًا لانهائيا. وبالفعل لم أفترض أن هذا الوسط محدد بطريق القطع الناقص للمذنب أو بالمنطقة المجاورة مباشرة للشمس. فعلى العكس، كان من السهل أن أتخيل أنه يهيمن على المناطق كلها في نظامنا الكوكبي، مكثفا إلى ما ندعوه الغلاف الجوي عند الكواكب نفسها، وربما يعدله عند بعض منها اعتبارات جيولوجية بحتة؛ بمعنى أنه يعدله أو تختلف نسبة كثافته أو طبيعته المطلقة بسبب الأشياء التي تتطاير من الأفلاك المقابلة.

ولم يظل أمامي إلا تردد قليل إضافي، بعد أن كونت وجهة النظر هذه؛ فقد أدركت أنني يجب أن أقدر بسهولة على تكثيف الهواء في كمية كافية بغرض التنفس، بعد أن ضمنت أن في طريقي لابد أن أجد جوا مشابها لما على سطح الأرض أساسا، عن طريق الآلة

---

(١) إن الضوء البروجي على الأرجح هو ما يسميه اليونانيون القدماء حزمة أشعة *Trabes*

Emicant Trabes quos docos vocant.- pliny lib.2,p.26.

العبقرية التى ابتكرها السيد م. جريم. وهذا سيزيل العقبة الرئيسية إلى القمر. لقد أنفقت بالفعل مالا كثيرا وجهدا عظيما في تكييف الآلة للهدف الذي انتويته ووثقت وآملت في تطبيقه الناجح، إذا استطعت تدبر إكمال الرحلة خلال فترة معقولة. وهذا يعيدني إلى المعدل الذي يمكن السفر به.

صحيح أن البالونات، في المرحلة الأولى من صعودها عن الأرض، تنهض بسرعة متوسطة نسبيا. والآن، تكمن قوة الصعود كلية في أن جاذبية هواء الغلاف الجوي الأعلى أقوى عند مقارنتها بالغاز الذي في البالون، وللوهلة الأولى لايبدو هذا احتمالا قائما، بينما يحقق البالون الارتفاع ويصل نتيجة لهذا بنجاح إلى طبقات جوية ذات كثافة تضمحل سريعا- أقول، لايبدو معقولا أبدا في تقدمه للأعلى هذا أن تتزايد سرعته الأصلية. من ناحية أخرى، لم يصل إلى علمي أنه، في لحظة صعود ما، تكشف نقصا في المعدل المطلق للصعود، وعلى الرغم من أنه كان يجب أن يكون هذا هو الوضع لسبب وحيد هو هروب الغاز عبر البالونات المركبة تركيبا سيئا، فلم يتم إطلاقها بمادة أفضل من الورنيش العادي. لذلك، يبدو أن تأثير هذا الهروب كان كافيا وحده ليعدل النتيجة التي ستنجم عن تزايد سرعته أي نقص المسافة بين البالون ومركز الجاذبية. بناء عليه رأيت - بشرط أن أجد في طريقي الوسط الذي تصورت وجوده، وبشرط أن يثبت أنه ما نسميه أساسا هواء الغلاف الجوي- أنه لن يشكل اختلافا كبيرا نسبيا عند الحالة القصوى من خلخلة الهواء التي لابد أن أجدها، أي، بالنسبة إلى قوة صعودي؛ لأن الغاز الذي في البالون نفسه لن يكون خاضعا

للخلخلة نفسها (بالنسبة إلى الحدث الذي سمحت بسببه بتسرب القدر المطلوب لمنع الانفجار) لكن، في ظل ما حدث، سيظل في كل الأحوال أخف خاصة من أي مركب من النيتروجين النقي والأكسجين، لهذا كانت هناك فرصة- في الحقيقة، كان ثمة احتمال قوى أنه لا أصل في أي مرحلة من مراحل صعودي إلى نقطة يتساوى عندها وزن البالون الضخم ووزن الغاز المخلخل خلخلة فائقة بداخله ووزن العربة ومحتوياتها مع وزن كتلة الجو المحيط المزاح. ويمكن استنتاج هذا بسهولة باعتباره الشرط الوحيد الذي سيقيد طيراني إلى الأعلى. لكن حتى إذا ما تحققت هذه النقطة يمكن أن أستغني عن الصابورة والأوزان الأخرى بكمية قدرها ثلاثمائة باوند تقريبا. وفي الوقت نفسه، ستتناقص تناقصا ثابتا قوة الجاذبية بالتناسب مع مربع المسافة، وهكذا بسرعة تتزايد تزايدا هائلا، أستطيع أن أصل في النهاية إلى تلك المناطق البعيدة حيث تنسخ قوة القمر قوة جاذبية الأرض.

ومع ذلك، ثمة صعوبة أخرى سببت لي قليلا من القلق، فقد سجل أن في رحلات صعود البالون لأي ارتفاع كبير يحدث ألم عظيم في الرأس والجسد مصاحب في الغالب بنزيف من الأنف وأعراض أخرى من النوع الخطير والتي تتزايد سوءا أكثر وأكثر تناسبيا مع الارتفاع المحقق.[1] كان هذا تفكيرا ناجما عن حالة مرتعبة؛ ألم يكن

(١) بعد نشر النسخة الأولى من هانز فوول، وجدت أن السيد جريم، صاحب منطاد ناسو الشهير، وملاحين آخرين راحلين، ينكرون تأكيدات همبولدت في هذا المضمار ويتحدثون عن تناقص الإحساس بالإزعاج، وهو ما يتوافق بالضبط مع النظرية المطروحة هنا. (بو)

من المحتمل أن تزداد هذه الأعراض حتى تنتهي بالموت نفسه؟ في النهاية ارتأيت غير هذا؛ فقد كان يجب علي أن أرى أن أصلها يكمن في الإزالة المتتالية للضغط الجوي المألوف من على سطح الجسد والانتفاخ الناجم منطقيا للأوعية الدموية السطحية، ولا تعود إلى خلل حقيقي ما في الجهاز الحيواني، كما هو في حالة صعوبة التنفس، حيث لا تكفي الكثافة الجوية كيميائيا لتجديد الدم في بطين القلب. وبعيدا عن حدوث عيب في هذا التجديد التلقائي، لم أر سببا بالتالي في أن تبقى الحياة حتى في الفراغ؛ نظرا لأن تمدد وانقباض الصدر، الذي يسمى عامة "التنفس"، هو فعل عضلي محض، وهو سبب التنفس وليس نتيجته. في كلمة، رأيت أن الإحساس بالألم سيتضاءل تدريجيا أثناء تعوُّد الجسد على نقص الضغط الجوي - وهكذا، اعتمدت بثقة على القوة الحديدية لبنيتي الجسدية".

"هكذا، ذكرت تفصيليا، سعيا لإرضائكما، بعض الاعتبارات، وليست كلها بأي حال، التي قادتني إلى بناء مشروع الرحلة القمرية. والآن، سأتابع بأن أطرح أمامكما نتيجة تجربة، هي جريئة جدا في فكرتها كما هو واضح، ولا توازيها، في كل الأحوال، أي تجربة أخرى في سجلات تاريخ النوع البشري".

"عندما أحرزت الارتفاع الذي ذكرته من قبل، أي ثلاثة أميال وثلاثة أرباع الميل، رميت من العربة كمية من الريش، فوجدت أني مازلت أرتفع بسرعة كافية، لذلك لم تكن هناك ضرورة للتخلص من

الصابورة. كنت سعيدا لهذا، للسبب الواضـــح وهو أنني لم أكن متأكدا لا من جاذبية القمر ولا كثافته الجوية. ولم أكن قد عانيت حتى الآن من أي إزعاج جسدي، فقد كنت أتنفس بحرية عظيمة، ولم أشعر بأي نوع من الألم في رأسي. كانت القطة ترقد برزانة فوق معطفي، الذي خلعته، وتنظر إلى الحمام بلامبالاة. وكان الأخير، منهمكا في التقاط حبوب الأرز المتناثرة في قاع العربة، حيث كنت قد ربطته من قدميه لكي أمنع هروبه".

"في السادسة والعشرين دقيقة، أظهر البارومتر ارتفاعا قدره ٢٦,٤٠٠ قدم، أو خمسة أميال وكسورا. بدأ المشهد بلا حدود. بالفعل من السهل حساب المدى العظيم من منطقة الأرض الذي أراه بوسائل الهندسة الكروية. فالسطح المحدب لأي جزء من الكرة الأرضية يساوي ما يساويه جيب زاوية هذا الجزء بالنسبة لقطر دائرة الكرة الأرضية نفسه، وينطبق هذا على السطح الكلي للكرة الأرضية نفسها. الآن، في حالتي، كان جيب الزاوية أي سمك الجزء الذي تحتي مساويا تقريبا لارتفاعي أو لارتفاع نقطة النظر فوق السطح؛ إن مسافة "بقدر خمسة أميال ثم ثمانية آلاف" تعبرعن نسبة منطقة الأرض التي تظهر أمامي. بكلمات أخرى كنت أرى ما يساوي ١٦% من إجمالي سطح العالم. وبدا البحر أملس فى صورة مرآة، على الرغم من أنني استطعت عن طريق التليسكوب أن أرى حالة هياج عنيفا فيه. ولم أعد أرى السفينة، بعد انحرافها بعيدا، على ما يبدو، إلى ناحية الشرق.

والآن بدأت أعاني من ألم حاد في الرأس،على فترات، خاصة حول الأذنين، إلا أنني مازلت أتنفس بحرية. ولم يبدو لي أن القطة أو الحمام تعانى من أي نوع من الإزعاج".

"وفي السابعة إلا عشرين دقيقة، دخل البالون إلى سلسلة طويلة من السحب الكثيفة، سببت لي الكثير من المشاكل، فقد أتلفت جهاز التكثيف، وبللتني إلى الجلد؛ كان هذا بالتأكيد ظاهرة عابرة فريدة، لأنني لم أصدق أن من الممكن أن تحتمل سحابة من هذا النوع البقاء على هذا الارتفاع العظيم. من ناحية أخرى فكرت أن من الأفضل أن أرمي قطعتين بوزن خمسة باوندات من الصابورة، محتفظا بوزن مائة وخمسة وستين باوندا. سرعان ما تغلبت على صعوبة الظاهرة، وأدركت على الفور أنني أحرزت زيادة عظيمة في معدل صعودي. في ثوان قليلة على مغادرتي السحابة، أبرق وميض من البرق الشديد من أحد أطرافها إلى الطرف الآخر وتسبب في إضرام النار عبر اتساعها العريض مثل كتلة من الفحم المشتعل. لابد من تذكر أن هذا كان في وضح النهار. لا يوجد خيال يمكن أن يصور السمو الذي قد تصوره ظاهرة مماثلة تحدث في وسط ظلمة الليل. لعل الجحيم نفسه صورة مناسبة لها. حتى على ما هي عليه، انتصب شعري بينما كنت أحدق إلى الأسفل بعيدا في الهاويات الفاغرة، وقد أطلقت العنان لخيالي يهبط ويطوف في القاعات المقنطرة الغريبة والخليج المتوهج والصدوع المروعة للنيران الشنيعة والغامضة. فعليا لقد هربت بشق

النفس، فلو أن البالون بقي مدة يسيرة أطول في السحابة، أي لو أن الإزعاج من البلل لم يجعلني أقرر التخلص من الصابورة فلعل عاقبتي بالتأكيد كانت هي الهلاك. مثل هذه الأخطار، على الرغم من أهميتها القليلة، هي على الأرجح أعظم ما يلاقيه المرء في البالون. من ناحية ثانية، كنت قد أحرزت مع هذا الوقت ارتفاعا عظيما جدا بحيث لم أعد أشعر بالإزعاج في رأسي".

"كنت الآن أرتفع سريعا وبحلول الساعة السابعة أشار البارومتر إلى ارتفاع لا يقل عن تسعة أميال ونصف الميل. بدأت أجد صعوبة عظيمة في التقاط أنفاسي. كان رأسي أيضًا يؤلمني بشدة، وحيث كنت أشعر بلزوجة على وجنتي، اكتشفت في النهاية أنها دم كان ينزف سريعا جدا من طبلتي أذني. عيناي أيضًا سببت لي إزعاجا عظيما. وعندما مررت بيدي فوقهما بدتا بارزتين من مقلتيهما بدرجة غير طفيفة. وبدت كل الأشياء في العربة، وحتى البالون نفسه، مشوهة أمام بصري. كانت هذه الأعراض أكثر مما توقعت وأثارت فيَّ الإحساس بالخطر. عند هذه المرحلة الفاصلة، بحمق شديد، وبدون أن أتروى، رميت من العربة ثلاث قطع بوزن خمسة باوندات من الصابورة. حملني المعدل المتزايد من الصعود الذي حدث بناء على ذلك سريعا جدا وبدون تدرج كاف إلى طبقة ذات خلخلة عالية من الجو، تكشفت عن نتيجة مميتة لبعثتي ولنفسي. حاصرني فجأة تقلص في صدري دام أكثر من خمس دقائق وحتى عندما توقف هذا، بدرجة ما، كنت أستطيع

أن ألتقط أنفاسي على فترات متباعدة فقط، لاهثا ونازفا طوال الوقت بغزارة من أنفي وأذني وحتى من عيني بدرجة خفيفة. بدا الحمام منزعجا انزعاجا شديدا ويصارع من أجل الهروب، بينما كانت القطة تموء مواء مثيرا للشفقة وتترنح ريحة وجيئة في العربة بلسانها المتدلي خارج فمها كأنها تحت تأثير السم. اكتشفت الآن متأخرا جدا العجلة العظيمة التي ارتكبتها بالتخلص من الصابــورة، وكان هياجي مفرطا. لم أتوقع مصيرا أقل من الموت بل موت في دقائق قليلة. أسهمت المعاناة الجسدية التي كنت أرزح تحتها فى أن تجعلني عاجزا تقريبا عن بذل أي مجهود للحفاظ على حياتي. لم يتبق لي فعليا إلا طاقة قليلة للتفكير وأخذ عنف الألم الذي أمسك برأسي يتزايد تزايدا عظيما. هكذا أدركت أنه سريعا ما تتلاشى حواسي كلية، وكنت قد قبضت بالفعل على واحد من حبال الصمام بقصد أن أحاول الهبوط، حيث أردعني لحظتها تذكر الحيلة التي لعبتها على الدائنين الثلاثة والعواقب المحتملة التي سأتحملها إذا عدت. رقدت في قاع العربة وحاولت أن أستجمع عقلي؛ فنجحت إلى حد أنني قررت أن أجري لنفسي فصد دم. من ناحية أخرى، بما أنني لا أملك مبضعًا كنت مكرها على أن أجري العملية بأفضل طريقة كنت قادرا عليها، ونجحت أخيرا في فتح وريد في ذراعي اليسرى بواسطة شفرة مطواتي. شعرت براحة ملموسة حين بدأ الدم يتدفق بصعوبة، وحين فقدت حوالي نصف حوض متوسط الحجم من دمائي هجرتني معظم الأعراض السيئة تماما. مع ذلك لم أر

أنه من المناسب أن أحاول النهوض على قدمي فورا، بل رقدت ساكنا حوالي ربع الساعة بعد أن ربطت ذراعي ربطا جيدا على قدر ما استطعت. بنهاية هذا الوقت نهضت ووجدت نفسي قد تحررت من كل أنواع الألم أكثر مما كنت خلال الساعة وربع الساعة الأخيرة من صعودي. مع ذلك، لم تقل صعوبة التنفس إلا إلى درجة خفيفة جدا، ووجدت أن من الضروري أن أنتفع بجهاز التكثيف قريبا. في الوقت نفسه، عندما نظرت إلى القطة التي كانت مختبأة مرة أخرى كلية في معطفي، اكتشفت لدهشتي الكبرى، أنها انتهزت فرصة توعكي لكي تجلب للنور مجموعة من ثلاث هريرات صغيرات. كان هذا إضافة إلى عدد المسافرين لم أتوقعه من جانبي، لكنني كنت سعيدا بالحدث؛ فهو سيمنحني فرصة أن أختبر حقيقة حدس كان قد أثر في عقلي أكثر من غيره في محاولتي للصعود هذه. لقد تصورت أن التحمل المعتاد للضغط الجوي على سطح الأرض كان السبب - أو تقريبا هكذا - في الألم الذي يصيب كيان الحيوان عندما يصبح على مسافة ما فوق سطحها، فإذا ما وجدت أن الهريرات تعاني تعبا مساويا لتعب أمها، فنظرتي بها عيب، لكن لابد أن أعتبر أيضا أن هذا الإخفاق تأكيد قوي لفكرتي".

"بحلول الثامنة أحرزت في الواقع ارتفاعا قدره سبعة عشر ميلا فوق سطح الأرض. وهكذا ثبت لي أن معدل ارتفاعي لم يكن يتزايد فقط بل لم أكن سألاحظ تقدمي إلا بدرجة طفيفة حتى لو لم أتخلص من

الصابورة. عاد الألم عنيفا إلى رأسي وأذنيَّ، على فترات، كما كنت لاأزال أنزف أحيانا من أنفي، لكن إجمالا عانيت أقل مما كنت أتوقع. مع ذلك، كنت أتنفس في كل لحظة بصعوبة أكبروأكبر، وكل شهيق كان يصاحبه تقلص مؤلم في صدري. أفرغت جهاز التكثيف وأعددته للاستعمال الفوري".

"كان منظر الأرض عند هذه المرحلة من صعودي جميلا بالفعل. فباتجاه الغرب والشمال والجنوب إلى أبعد ما يمكن أن أرى ترقد صفحة لا نهائية من البحر الساكن سكونا ظاهريا، حيث يكتسب مع كل دقيقة مسحة زرقاء أعمق وأعمق. على مسافة بعيدة باتجاه الشرق، استطعت أن أميز بوضوح، جزر بريطانيا العظمى؛ والسواحل الأطلنطية لفرنسا وإسبانيا مع جزء صغير من الجزء الشمالى لقارة أفريقيا. لا يمكن اكتشاف أى أثر لأى صرح واحد، وانمحت تماما مدن الإنسان الضخمة من فوق سطح الأرض".

"إن الشيء الأساسي الذي أذهلني في مظهر الأشياء في الأسفل كان التقعر الواضح لسطح الأرض. توقعت بدون أن أعطي هذا التوقع التفكير الكافي، أن أرى تحدبها الحقيقي يغدو واضحا كلما صعدت، غير أن قليلا من التفكير كاف لكي يوضّح هذا التناقض. إن خطا يسقط عموديا من موقعي إلى الأرض سيشكل الخط العمودي لمثلث قائم الزاوية حيث تمتد قاعدته من الزاوية القائمة إلى الأفق ويمتد وتره من الأفق إلى موقعي. غير أن ارتفاعي كان قليلا أو لا شيء مقارنة

بموقعي الكلي. بكلمات أخرى ستكون قاعدة المثلث المفترض ووتره طويلين جدا عند مقارنتهما بالخط العمودي، بحيث قد يبديان متوازيين تقريبا. بهذه الطريقة سيبدو دائما أفق الملاح صريحا. لكن بما أن النقطة التي تحته تماما تبدو على مسافة عظيمة أسفله، فهي أيضًا ستبدو، بالطبع، على مسافة عظيمة أسفل خط الأفق. لهذا يبدو للملاح انطباع التقعر هذا، وهذا الانطباع سيستمر حتى يتناسب الارتفاع مع المشهد الكلي تناسبا طرديا أي أن يختفي التوازي الظاهري للقاعدة والوتر".

"بحلول هذا الوقت بدا الحمام يعاني ألما أكبر، فقررت أن أمنحه حريته. في البداية حللت قيد واحد؛ ذى لون رمادي مبرقش جميل، ووضعته على حافة سلة الأماليد المجدولة. بدا متضايقا بشدة، كان ينظر بقلق حوله وهو يضرب بأجنحته ويصدر هديلا حادا صاخبا لكن لم يغره أي شيء على أن يأتمن على نفسه بعيدا عن العربة. رفعته عاليا في النهاية ورميته على بعد حوالي نصف دستة ياردات من البالون، مع ذلك لم يحاول أن يهبط، كما توقعت، بل صارع صراعا عنيفا ليعود وهو يصدر في الوقت نفسه صرخات ثاقبة وحادة. في النهاية، نجح في استعادة محطته السابقة على الحافة، لكن ما إن فعل هذا بصعوبة حتى سقط رأسه فوق صدره وسقط ميتا في العربة. لم يلق الآخر سوء الحظ نفسه. ولكي أمنع عنه عبرة رفيقه، وأحقق له العودة رميته إلى الأسفل بكل قوتي وسعدت حين وجدته يواصل

هبوطه بسرعة عظيمة مستخدما جناحيه بسهولة وبطبيعة تامة. في وقت قصير اختفى عن نظري ولا أشك في أنه عاد إلى البيت بأمان. بوسى التي بدت أنها شُفيت من مرضها إلى حد كبير، جعلت من الطائر الميت وجبة شهية لها، وذهبت بعد ذلك إلى النوم برضا ظاهر. كانت هريراتها مفعمة بالحيوية، ولم يظهر عليها حتى الآن أدنى علامة من الانزعاج".

"في الثامنة والربع، بما أنني لم أعد أستطع سحب أي نفس هواء دون أن أعاني آلامًا مبرحة لا تحتمل، تابعت فورا ضبط العدة المتعلقة بجهاز التكثيف حول العربة. ستحتاج هذه العدة إلى بعض الشرح، وسيسر سعادتكما معرفة أن هدفي في المقام الأول كان إحاطتي وإحاطة العربة كلية بمتراس في مواجهة الغلاف الجوي عالي الخلخلة الذي كنت أوجد فيه، على أن تدخل من خلال هذا المتراس كمية من هواء الغلاف الجوي نفسه مكثفة تكثيفا كافيا لغرض التنفس باستخدام جهاز التكثيف. لهذا الهدف، جهزت حقيبة قوية جدا، تحبس الهواء كلية، لكن مرنة مرونة الصمغ. وضعت العربة بدرجة ما في هذه الحقيبة التي كانت ذات أبعاد كافية لهذا؛ بمعنى أنني سحبتها فوق قاع العربة (سلة الأماليد المجدولة) وجوانبها صعودا على طول الجانب الخارجي للحبال حتى الحافة العليا أو الطوق الذي تتصل به العربة. وأصبح من الضروري الآن بعد أن سحبت الحقيبة عاليا بهذه الطريقة وأغلقت كلية كل الجوانب، أن أربط قمتها أو فمها، بأن أمرر قماشها

فوق طوق العربة، بكلمات أخرى بين سلة الأماليد وطوق العربة. لكن إذا فصلت السلة عن الطوق لأسمح بهذا المرور، فما الذي سيحمل العربة في الوقت الحالي؟ لم تكن السلة مثبتة بالطوق تثبيتا كاملا بل كانت مثبتة إليه بسلسلة من العقد المتتالية أو الأنشوطات؛ لهذا حللت فقط بعضا من هذه العقد، وتركت العربة معلقة بالباقي في الوقت ذاته. وبما أنني ثبتُّ جزءا من القماش الذي يشكل الجزء الأعلى من الحقيبة أعدت ربط العقد، ليس بالطوق لأن هذا سيكون مستحيلا حيث إن القماش الآن يعيق هذا، بل بسلسلة من الأزرار الضخمة مثبتة بالقماش على مسافة ثلاثة أقدام إلى الأسفل من فم الحقيبة. كنت قد صنعت أزرار القماش بحيث تناسب الفاصلات بين العقد. بعد أن أنجزت هذا، ظل قليل من العقد محلولا عن الطوق، فأدخلت جزءا إضافيا من القماش وعقدت العقد المحلولة في أزرارها المناسبة. بهذه الطريقة كان من الممكن أن أدخل الجزء الأعلي كله من الحقيبة بين العربة والطوق. وأصبح مؤكدا الآن أن الطوق سوف يسقط داخل العربة، في حين أن الوزن الكلي للعربة نفسها بكل محتوياتها ستحمله قوة الأزرار فقط. هذا سيبدو للوهلة الأولى دعما ناقصا، لكنه لم يكن هكذا أبدًا، ليس فقط لأن الأزرار كانت قوية جدا في حد ذاتها، بل لأنها متقاربة من بعضها تماما بحيث إن أي جزء ضئيل جدا من الوزن الكلي كان يدعمه كل واحد منها. فبالفعل لو أن العربة ومحتوياتها أثقل ثلاث مرات مما كانت عليه، لم أكن أقلق أبدا. رفعت الآن الطوق ثانية داخل

الغطاء المرن وسندته تقريبا عند ارتفاعه السابق بثلاثة أعمدة خفيفة جهزتها لهذه المناسبة. لقد فعلت هذا بالطبع لكي أحافظ على الحقيبة منتفخة عند القمة ولكي أحافظ على الجزء السفلي من الشبكة في موضعه الصحيح. كل ما تبقى الآن هو أن أربط فم الغطاء وأنجزت هذا بلم طيات القماش معا ولفها إلى الأعلى بإحكام شديد باستخدام مرقأة غير متحركة".

"على جوانب الغطاء المضبوط حول العربة ثبتُ ثلاثة ألواح دائرية من الزجاج السميك، الشفافة حيث أستطيع أن أرى من خلالها بدون صعوبة كل اتجاه أفقي. وفي الجزء السفلي من القماش الذي يشكّل القاع كانت هناك نافذة بالمثل ومتشابهة بفتحة صغيرة في أرضية العربة نفسها. هذا خولني أن أرى تحتي عموديا، لكن بما أنني وجدت أنه من المستحيل أن أضع أي وسيلة مشابهة بالأعلى؛ بسبب الطريقة الخاصة لغلق الفتحة بالأعلى، والتجاعيد الناتجة عنها في القماش، توقعت ألا أرى شيئا عند قمة رأسي مباشرة. بالطبع، كانت هذه مسألة ذات عواقب خفيفة؛ لأنني حتى لو تمكنت من وضع نافذة في القمة، كان البالون نفسه سيحد من انتفاعي بها".

"كان يوجد أسفل واحدة من النوافذ الجانبية فتحة دائرية على بعد قدم منها، ذات قطر يبلغ ثلاثة إنشات، ومزودة بحافة نحاسية تصلح حافتها الداخلية للفات البرغي. وقد ربطت إلى هذه الحافة النحاسية لولب أنبوب جهاز التكثيف الذي كان جسمه داخل غرفة الحقيبة المرنة

بالطبع. خلال هذا الأنبوب كان يمر على نحو دائري جو مخلخل عن طريق تفريغ للهواء يحدث في جسد الماكينة، يصرَّف بعدئذ في الغرفة في حالة تكثيف ليختلط بالهواء الخفيف الموجود بالفعل في الغرفة. وبتكرار هذه العملية عدة مرات، امتلأت الغرفة في النهاية بجو مناسب لكل أغراض التنفس، لكن في مساحة ضيقة هذا الضيق سيصبح بالضرورة، في وقتٍ قصير، فاسدا وغير مناسب للاستخدام بسبب اتصاله المتكرر بالرئتين. حينئذ، كان يطرد عن طريق صمام صغير في قاع العربة؛ فالهواء الكثيف يهبط بسهولة في الجو الأخف إلى الأسفل. ومن أجل تجنب الإزعاج الذي قد ينجم عن حدوث تفريغ كامل في أي وقت داخل الغرفة، لم تتم هذه التنقية أبدا مرة واحدة كلية بل بطريقة متدرجة؛ فالصمام يفتح فقط لثوان قليلة ثم يغلق مرة ثانية إلى أن تَمد مضخة جهاز التكثيف بضربة أو اثنتين المكان بالجو المطرود. ومن أجل التجربة وضعت القطة والهريرات في سلة صغيرة وعلقتها خارج العربة بزر في قاعها قريب من صمام جهاز التكثيف حيث أستطيع من خلاله إطعامها في أي وقت عند الضرورة. لم أجد مخاطرة كبيرة في أن أقوم بهذا قبل أن أغلق فم الغرفة وذلك بأن أصل إلى أسفل العربة باستخدام أحد الأعمدة التي ذكرتها من قبل. وفور أن سمحت للهواء بالدخول إلى الغرفة، أصبح الطوق والأعمدة غير ضروريين؛ فتمدد الجو المحبوس كان ينفخ بقوة الحقيبة المرنة".

"حين أكملت هذه الترتيبات تماما، وملأت الغرفة بالهواء كما شرحت، لم يتبق إلا عشر دقائق على الساعة التاسعة. خلال كل الفترة

التي شغلت فيها نفسي على هذا النحو، تحملت أكثر الآلام بشاعة نتيجة صعوبة التنفس، وندمت ندما شديدا بمرارة على جهلي أو بالأحرى عنادي الأحمق الذي كنت مذنبا به بأن أنحي حتى اللحظة الأخيرة مسألة على هذا القدر من الأهمية. لكن بإنجازي هذا في النهاية، سرعان ما جنيت فائدة اختراعي. مرة أخرى تنفست بحرية وبيسر كاملين، ولم لا فعليا! وتعجبت أيضًا تعجبا سائغا من أن أجد نفسي، بدرجة عظيمة متحررا من كل الآلام العنيفة التي مزقتني في السابق. صداع خفيف وامتلاء أو انتفاخ حول الرسغين والحلق هو كل ما تبقى تقريبا لكي أشكو منه. عليه، بدا مؤكدا أن الجزء الأعظم من الضيق الذي صاحب إزالة ضغط الهواء قد تناقص تدريجيا كما توقعت ويعزى ذلك القدر من الألم الذي استمر خلال الساعتين الأخيرتين كلية إلى تأثير التنفس الضعيف".

"في التاسعة إلا عشرين دقيقة أي قبل أن أغلق فم الغرفة بوقت قصير وصل الزئبق إلى أقصاه أو هبط في البارومتر الذي ذكرت سابقا أنه واحد من الآلات التي أدخلت عليها تعديلا. أشار حينئذ إلى ارتفاع من جانبي يصل إلى ١٣٢,٠٠٠ قدم أو خمسة وعشرين ميلا، وتفحصت تبعـــا لذلك في هذا الوقت مدى من منطقة الأرض يبلغ ما لا يقل عن ثلاثمائة وعشرين جزءا من سطحها الكلي. في التاسعة بدأت أفقد رؤية الأرض باتجاه الشرق، لكن ليس قبل أن أدرك أن البالون كان ينحـــرف ســـريعا إلى شمال الشمال الغربي. كان المحيط

لا يزال محتفظا بتقعره الظاهري على الرغم من أن كتل السحب التي كانت تسبح ريحة وجيئة كانت تقاطع رؤيتي".

"حاولت في التاسعة والنصف أن أجرب رمي قبضة من الريش عبر الصمام، لم تطف في الهواء كما توقعت بل سقطت عموديا إلى الأسفل مثل الرصاصة ذات الكتلة وبأقصى سرعة، مختفية عن نظري في ثوان قليلة. لم أعرف في البداية ماذا أفعل بهذه الظاهرة غير العادية بما أنني كنت غير قادر على أن أصدق أن معدل صعودي حقق فجأة هذه الزيادة الهائلة. لكن سرعان ما خطر لي أن الهواء كان مخلخلا بحيث لن يحمل حتى الريش، وذلك لأنه سقط حقا كما بدا بسرعة عظيمة، ولأنني تعجبت من السرعتين المتحدتين لهبوطه وصعودي".

"بحلول العاشرة وجدت أنه ليس لدي الكثير الذي أوليه رعايتي. جرت الأمور بنجاح، ورأيت أن البالون سيصعد إلى الأعلى بسرعة تتزايد لحظيا على الرغم من أنني لم أعد أملك أي وسيلة لتأكيد تقدم الزيادة. لم أعان أي ألم أو ضيق من أي نوع وتمتعت بمعنويات أفضل من أي وقت منذ رحيلي عن روتردام شاغلا نفسي الآن بفحص حالة الأجهزة المختلفة وبتوليد الهواء داخل الغرفة. هذه النقطة الأخيرة قررت أن أوليها رعايتي على فترات دورية كل أربعين دقيقة بدافع الحرص على صحتي أكثر منه على ضرورة تجديد الهواء. في الوقت نفسه لم أتمالك نفسي عن أن أتخيل التوقعات التي بانتظاري. عربد

خيالي في المناطق البرية والحالمة من القمر. وطاف حين شعر أنه تحرر من القيود، حيثما شاء، فيما بين عجائب أراضيه الظليلة المتغيرة وغير المستقرة؛ والآن أرى غابات عتيقة ومقدسة وأجرافا منحدرة وشلالات تتدفق بصخب إلى هاويات بلا قاع. ثم، وصلت فجأة إلى عزلة منتصف نهار ساكن لم تقتحمها رياح سماء أبدا وتتناثر مروج الخشخاش وأزهار ليلكية نحيلة على مسافات شاقة، صموتة وساكنة للأبد. ثم ارتحلت مرة أخرى بعيدا نحو بلد آخر عبارة عن بحيرة مغيمة وغامضة محاطة بخط من السحب يحدها. لم تحتل عقلي أخيلة من هذا النوع فقط، فقد اقتحمت عقلي عنوة، تكرارا، أهوال طبيعة قاسية ومرعبة، وستهز أعماق أعماق روحي بمجرد افتراض احتمال وجودها. غير أنني لم أسمح لعقلي أن يسكن في هذه التأملات الأخيرة، حيث إن الأخطار الحقيقية والملموسة للرحلة كانت كافية لتستولي على انتباهي كاملا".

"في الخامسة مساء أثناء انشغالي بتوليد الهواء داخل الغرفة انتهزت الفرصة لكي أراقب القطة والهريرات عبر الصمام. بدت القطة تعاني مرة أخرى كثيرا ولم أتردد في أن أعزو ضيقها أساسا إلى صعوبة في التنفس لكن تجربتي مع الهريرات نتجت عنها نتائج غريبة جدا. توقعت بالطبع أن أراها تبدي نوعا من الألم لكن بدرجة أقل من أمها وكان هذا كافيا لتأكيد رأيي المتعلق بالتحمل المعتاد للضغط الجوي. لكن لم أكن مستعدا لأن أجدها بعد أن فحصتها فحصا دقيقا،

تتمتع بصحة جيدة وتتنفس بسهولة بالغة وبانتظام تام ولا تبدي أدنى علامة على أي ضيق. أستطيع أن أعلل هذا بتوسيع نظريتي وبافتراض أن الهواء المحيط المخلخل الذي اعتبرته شرطا بديهيا لعله ليس غير كاف كيميائيا، ولعل الشخص الذي ولد في وسط مثل هذا، على الأرجح، غير مدرك للإزعاج المصاحب لاستنشاقه، في حين أنه عند نقله إلى طبقة أكثف بالقرب من الأرض قد يعاني عذابات ذات طبيعة مشابهة لتلك التي اختبرتها مؤخرا. وقد وقع لي في ذلك الحين أمر أصابني بالأسف العميق، حيث وقع حادث غريب تسبب في أن أفقد عائلتي الصغيرة من القطط وأن أُحرم من التعمق في هذه المسألة التي كان يمكن أن تقدمها استمرار التجربة. عندما كنت أمرر يدي عبر الصمام بكوب من المياه لبوسى العجوز اشتبكت إسورة قميصي بالعقدة التي تدعم السلة ففكتها من الزر في لحظة؛ فإذ بكل شيء يتلاشى في الهواء بالفعل، ولم يكن يمكن أن يختفي من أمام بصري على نحو أكثر بترا وفورية مما حدث. ففعليا، لم تمر عشر ثوان بين انحلال السلة واختفائها التام بكل ما تحتويه. تمنياتي الطيبة لحقتها إلى الأرض، لكن بالطبع لم يكن عندي أمل في أن تعيش القطة أو الهريرات لتحكي حكاية سوء حظها".

"في السادسة مساء، رأيت قسما عظيما من منطقة الأرض باتجاه الشرق غارقا في ظل سميك، استمر في التقدم بسرعة عظيمة حتى غلف السطح كله الذي أراه ظلام الليل قبل السابعة إلا خمس دقائق. مع

ذلك، لم تكف أشعة الشمس حتى بعد مرور فترة زمنية طويلة على إشراقها عن إمداد البالون بالنور، وهذا الظرف، على الرغم من أنني توقعته توقعا كاملا، نجح في أن يمنحني قدرا لامتناهيا من السعادة؛ فقد تيقنت من أنني في الصباح سوف أشاهد الإضاءة المشرقة قبل مواطني روتردام بعدة ساعات على الأقل، على الرغم من أنها تقع في اتجاه الشرق بدرجة أكبر مني، وهكذا يوما بعد يوم، مع العلو الذي أنجزته، سوف أستمتع بنور الشمس لفترة أطول وأطول. لقد قررت الآن أن أحتفظ بيوميات لرحلتي حاسبا الأيام من ساعة إلى أربع وعشرين ساعة متواصلة بدون أن آخذ بعين الاعتبار فترات الظلام".

"في العاشرة مساء، عندما شعرت بالنعاس قررت أن أرقد باقي الليل، لكن ها هنا صعوبة تكشف عن نفسها، غابت عني حتى هذه اللحظة نفسها التي أتحدث عنها الآن. إذا ذهبت لكي أنام كما اقترحت كيف سيتولد الجو في الغرفة في غضون ذلك؟ فمن المستحيل أن أستنشقه مدة أطول من ساعة على أقصى حد، أو حتى إذا امتدت هذه الفترة إلى ساعة وربع الساعة، فسوف تنجم أسوأ العواقب. لم يسبب لي التفكير في هذه الورطة قلقا عظيما، ومن الصعب تخيل أنني رأيتها مسألة خطيرة إلى حد أن تصيبني باليأس من الوصول إلى هدفي النهائي وتدفعني إلى أن أعقد العزم في النهاية على ضرورة الهبوط، بعد الأخطار التي تعرضت لها. غير أن ترددي استمر لفترة وجيزة جدا. لقد رأيت أن الإنسان هو عبد العادة، وأن مسائل عديدة في روتين

حياته ذات أهمية قصوى لأنه خلق منها عادة. بالتأكيد سأفقد توازني مع عدم النوم، غير أنني أستطيع بسهولة أن أحمل نفسي على ألا تشعر بالإزعاج من الاستيقاظ كل ساعة خلال ساعات نومي كلها. إن توليد الهواء على أكمل وجه لا يتطلب أكثر من خمس دقائق على الأغلب والصعوبة الحقيقية الوحيدة هي أن أجد طريقة لإيقاظي في اللحظة المناسبة للقيام بهذا. غير أن هذه نقطة- أنا على أتم الاستعداد للاعتراف - سببت لي قلقا عظيما في العثور على حل لها. كنت قد سمعت عن طالب حمل في إحدي يديه كرة من النحاس، من أجل أن يمنع سقوطه نائما فوق كتابه؛ فالضجة التي تصدر عن سقوطها في حوض من المعدن نفسه على الأرض بجانب كرسيه عملت على أن يجفل إذا غلبه النعاس في أي لحظة. إلا أن وضعي يختلف ولم يدع لي مساحة لتجربة فكرة مشابهة، لأنني لم أرغب في أن أظل مستيقظا بل في أن أنهض من نومي على فترات دورية من الوقت. عثرت بالمصادفة على الحيلة التالية التي، على الرغم من أنها تبدو بسيطة، رحبت بها في لحظة اكتشافها كأنها لختــراع مساو تماما لاختراع التليسكوب أو المحرك البخاري أو فن الطباعة نفسه".

"من الضروري أن أمهد شارحا أن البالون مع الارتفاع الذي أحرزه الآن، واصل مساره إلى الأعلى بصعود متساو وغير منحرف، وأن العربة تتبعه بالتالي بثبات ممتاز جدا بحيث من المستحيل أن نلحظ فيها أدنى تذبذب. هذا الظرف أفادني كثيرا في المشروع الذي قررت

الآن أن أشرع فيه. وضعت مخزوني من المياه في براميل صغيرة سعة كل منها خمسة غالونات ورتبتها بأمان شديد حول الجهة الداخلية من العربة. فككت واحدا منها وأخذت حبلين وربطتهما بإحكام عبر حافة سلة الأماليد المجدولة من جهة إلى أخرى، ووضعتيما إلى جانب بعضهما على مسافة قدم وبالتوازي بحيث يشكلان رفا وضعت فوقه البرميل وثبته في وضع رأسي. وتحت هذين الحبلين بثمانية إنشات تقريبا وعلى بعد أربعة أقدام من قاع العربة ثبتُ رفا آخر لكنه مصنوع من خشب رقيق بما أنها القطعة الوحيدة من الخشب التي امتلكتها تصلح رفا. وفوق هذا الرف الأخير وبالضبط تحت واحد من حواف البرميل وضعت إبريقا صغيرا. ثقبت حفرة في نهاية البرميل فوق الإبريق وسددتها بسدادة ملائمة من الخشب الناعم مقطوعة على شكل مخروطي أو مستدق. دفعت هذه السدادة للداخل وسحبتها للخارج حتى وصلت إلى الدرجة المضبوطة من الإحكام، بعد عدة محاولات، بحيث تملأ المياه التي تنزل من الحفرة وتسقط في الإبريق حتى الحرف في مدة ستين دقيقة. إن التحقق من دقة هذه المسألة مؤكد باختصار وبسهولة وذلك بمراقبة نسبة الإبريق المملوء في أي وقت محدد. وبترتيب كل هذا تغدو بقية الخطة واضحة. اخترعت وسيلة لسريري على أرض العربة بحيث يصبح رأسي تحت فم الإبريق مباشرة عند رقادي فوقه. كان واضحا أنه مع انتهاء الساعة سيجبر الإبريق، وقد امتلأ، على أن يفيض - وعلى أن يفيض حتى فمه الذي كان على

مستوى أدنى من مستوى الحرف. وكنت متأكدا أيضا أن الماء لن يسقط إلا فوق رأسي بما أنه يسقط من ارتفاع يصل إلى أكثر من أربعة أقدام، وأن النتيجة المؤكدة هي إيقاظي توا حتى من أعمق سبات في العالم".

"كانت الحادية عشرة تماما عندما أكملت هذه الترتيبات، وعلى الفور خلدت إلى فراشي واثقا ثقة تامة في كفاءة اختراعي. ولم أصب بخيبة الأمل في هذه المسألة. فقد استيقظت كل ستين دقيقة بالضبط طبقا لمقياسي الزمني الجدير بالثقة وبعد أن أفرغت الإبريق في ثقب البرميل وقمت_بالواجبات المفروضة تجاه جهاز التكثيف، عدت إلى النوم. لم تتسبب هذه الانقطاعات الدورية في نومي في تعب أكثر حتى مما توقعت وعندما استيقظت أخيرا مع ضوء النهار كانت الساعة السابعة وأحرزت الشمس درجات عديدة فوق خط الأفق".

"في الثالث من أبريل، وجدت البالون فعليا على ارتفاع هائل وأصبح تحدب الأرض الآن واضحا وضوحا صاعقا. ترقد تحتي في المحيط مجموعة من البقع السوداء التي كانت جزرا بلا شك. من فوقي كانت السماء بلون أسود فاحم وكانت النجوم واضحة وضوحا وضاء، وبالفعل كانت ثابتة على هذا الحال منذ أول يوم من صعودي. بعيدا باتجاه الشرق رأيت خطا رفيعا وأبيض ومشعا بوفرة أو شريطا ضوئيا ضيقا على حافة الأفق ولم أتردد في فرض أنه الجزء الجنوبي من ثلوج بحر القطب الشمالي. أثار هذا فضولي إثارة بالغة حيث كنت آمل

في أن أمر إلى أقصى الشمال، وقد أجد نفسي في وقت ما فوق القطب نفسه مباشرة. والآن أتحسر لأن ارتفاعي العظيم سيمنعني في هذه الحالة من أن أقوم بفحص دقيق بقدر ما أرغب. ففي النهاية كان لابد ألا أقوم بأي خطوة دون التأكد منها".

"لم يحدث شيء استثنائي خلال ذلك اليوم. استمرت أجهزتي كلها في حالة جيدة ومازال البالون يصعد دون أن ألاحظ عليه أي اهتزاز. كان البرد كثيفا وأجبرني على أن ألتف بمعطفي بشدة. عندما حل الظلام على الأرض خلدت إلى فراشي، ومضت ساعات عديدة بعد ذلك أحاط ضوء الصباح الوضاح موقعي الحالي. كانت الساعة المائية تعمل بدقة تامة ونمتُ حتى الصباح التالي بعمق باستثناء الانقطاعات الدورية".

"الرابع من أبريل. استيقظت بصحة جيدة ومعنويات مرتفعة واندهشت من التغيير الفريد الذي حدث في مظهر البحر. لقد فقد المسحة الزرقاء التي غطته من قبل إلى حد كبير، وأضحى لونه أبيض رماديا وذا لمعان يبهر العين. أصبح تحدب المحيط واضحا جدا بحيث بدت الكتلة الكلية للمياه البعيدة كأنها رأس مقلوب فوق هاوية الأفق، ووجدت نفسي أصغي على رؤوس أصابع أقدامي إلى أصداء الشلالات العملاقة. لم أعد أرى الجزر، من المستحيل أن أقرر ما إذا كان عبوري الأفق إلى الجنوب الشرقي أم صعودي هو الذي خلفها بعيدة عن بصري. لكنني كنت أميل إلى الرأي الأخير. كانت حافة الجليد

باتجاه الشمال تزداد وضوحا أكثر وأكثر، والبرد كثيفا على كل حال. لم يحدث شيء ذو أهمية وقضيت اليوم في القراءة بما أنني حرصت على أن أزود نفسي بالكتب".

"الخامس من أبريل. شاهدت ظاهرة شروق الشمس الفريدة بينما لا يزال السطح المرئي كله للأرض غارقا في الظلام. في الوقت المحدد مع ذلك انتشر الضوء فوق كل شيء ومرة أخرى شاهدت خط الثلج باتجاه الشمال. كان واضحا جدا الآن وبدا أكثر دكنة من أمواه المحيط. كنت أقترب منه بالتأكيد وبسرعة كبيرة. تخيلت أنني أستطيع أن أميز شريطا أرضيا باتجاه الشرق وآخر باتجاه الغرب لكنني لم أستطع التأكد. كان الطقس معتدلا. لم يحدث شيء ذو عواقب خلال النهار. ذهبت مبكرا إلى الفراش".

"السادس من أبريل. اندهشت من وجود الثلج على مسافة متوسطة ومن وجود حقل هائل من المادة نفسها يمتد بعيدا في الأفق شمالا. كان واضحا أن البالون لو استمر في مساره فسيصل قريبا فوق المحيط المتجمد. لقد تأكدت من أنني سأرى القطب في النهاية. خلال اليوم كله استمر اقترابي من الثلج، ونحو الليل زادت بغتة حدود أفقي بسبب وصولي إلى المناطق المسطحة من القطب الشمالي وبسبب شكل الأرض الكروى المفلطح بلا شك. عندما لفني الظلام في النهاية ذهبت إلى السرير في حالة من القلق العظيم خائفا من أن أعبر فوق شيء مثير تضيع علي فرصة أن أشاهده".

"السابع من أبريل، استيقظت مبكرا ولفرحتي العظيمة رأيت أخيرا ما لا يمكن أن أتردد في افتراض أنه القطب الشمالي نفسه. لقد كان هناك، فوق أي شك، وتحت قدمي مباشرة، لكن واأسفاه لقد صعدت الآن إلى مسافة عريضة جدا بحيث لا يمكنني تمييز أي شيء به بدقة. فعليا، بالحكم من تقدم الأرقام التي تشير إلى ارتفاعاتي المختلفة بالتوالي على فترات مختلفة بين السادسة صباحا في الثاني من أبريل، والتاسعة إلا الثلث صباحا من اليوم نفسه (في الوقت الذي هبط فيه البارومتر) يمكن أن نستدل على أن البالون وصل الآن في الساعة الرابعة من صباح السابع من أبريل علوا لا يقل بالتأكيد عن ٧٢٥٤ ميلا فوق سطح البحر. قد يبدو هذا الارتفاع هائلا غير أن التقدير الذي بناء عليه قمت بالحساب أعطاني نتيجة، على كل الاحتمالات، أقل كثيرا من الحقيقة. على كل الأحوال، لقد شاهدت إجمالي القطر الرئيسي للأرض. إن نصف الكرة الأرضية بأكمله الشمالي يرقد تحتي مثل رسم بياني يبرز على نحو أرثوغرافي، والدائرة العظمى من خط الاستواء نفسه شكلت خط حدود أفقيا. قد يستطيع سعادتكما أن تتصورا أن المناطق الضيقة التي لم يتم اكتشافها حتى اليوم ضمن حدود دائرة القطب الشمالي، على الرغم من أنها تقع تحتي تماما بحيث أستطيع أن أراها بدون أي إبراز لخطوطها المحددة لاتزال في حد ذاتها شديدة الصغر نسبيا وعلى مسافة عظيمة من نقطة بصري بحيث لم تسمح لي بأن أفحصها بدقة. ومع ذلك، كل ما استطعت أن أراه كان ذا طبيعة

فريدة ومثيرة. فشمالا من ذلك الجرف الضخم الذي ذكرته من قبل والذي يمكن أن يسمى بـــ "حدود الاكتشاف الإنساني" في هذه المناطق- ثمة لوح من الثلج صحيح أو تقريبا غير مكسور يستمر في التمدد، سطحه مسطح تسطيحا واضحًا عند أطرافه ثم يتقعر، وأخيرا يصبح محدبا تحدبا كبيرا، وينتهي عند القطب نفسه في مركز دائري محدد بحدة، حيث يقع قطره الظاهر تحت البالون بزاوية تساوي خمسة وستين درجة ولونه المغبر الذي يتنوع في كثافته كان أكثر دكنة طوال الوقت من أي بقعة أخرى فوق نصف الكرة الأرضية المرئي وأحيانا يكتسي سوادا تاما. أكثر من هذا لا يمكنني أن أعطي معلومات مؤكدة. بحلول الساعة الثانية عشرة نقص محيط مركز الكرة المادي كثيرا وبحلول السابعة مساء فقدته تماما، حين مر البالون فوق الطرف الغربي من الثلج وطاف بعيدا بسرعة في اتجاه خط الاستواء".

"الثامن من أبريل، رأيت نقصا محسوسا في محيط دائرة الأرض إلى جانب تحول مادي في لونها العام ومظهرها. تنوعت المنطقة المرئية إجمالا في درجات مختلفة من مسحة من الأصفر الشاحب واكتسبت في أجزاء أخرى لمعانا مؤذيا حتى للعين. أعاق رؤيتي نحو الأسفل أيضا الجو الكثيف في المناطق المجاورة من السطح لكونها محملة بالسحب حيث استطعت من بين كتلها سرقة نظرة خاطفة بين الحين والآخر للأرض نفسها. أزعجتني هذه الصعوبة في الرؤية المباشرة لحوالي الأربع والعشرين ساعة الأخيرة تقل أو تزيد، غير أن

صعودي الهائل الحالي قرّب تماما، إذا جاز التعبير، الأجساد العائمة من الضباب وتناسب الإزعاج طرديا مع صعودي. مع ذلك استطعت أن أرى أن البالون يحوم فوق مدى من البحيرات العظيمة في قارة شمال أمريكا، وكان يتبع مسارا تجاه الجنوب سرعان ما سيؤدي بي إلى المنطقة الاستوائية. هذا الظرف نجح في أن يمنحني الرضا ورحبت به باعتباره فألا سعيدا على النجاح النهائي. ففعليا كان الاتجاه الذي اتخذته حتى الآن يملأني بالقلق؛ لأنه كان من الواضح أنني إذا واصلت فيه فترة أطول فلن يكون هناك أي احتمال لوصولي إلى القمر أبدا الذي يميل مداره نحو دائرة البروج عند الزاوية الصغيرة ٤٨ ٥٨° فقط. وعلى الرغم من أنه يبدو غريبا، فقد بدأت أفهم عند هذه المرحلة المتأخرة فقط الخطأ العظيم الذي ارتكبته؛ أنني لم أرحل من الأرض عند إحدى نقاط مدار القطع الناقص القمري".

"التاسع من أبريل، اليوم تناقص محيط دائرة الأرض تناقصا عظيما، واكتسب لون السطح مع كل ساعة مسحة أعمق من اللون الأصفر. استمر البالون بثبات في مساره باتجاه الجنوب ووصل في الساعة التاسعة مساء فوق الحافة الشمالية للخليج المكسيكي".

في العاشر من أبريل استيقظت فجأة من النوم حوالي الخامسة صباحا بسبب صوت عال ومقعقع ورهيب لم أستطع تعليله بأي وسيلة. استمر لمدة قصيرة جدا لكن أثناء استمراره لم أر أنه يشبه أي صوت عرفته سابقا في العالم. لا حاجة لي أن أقول إنني أصبحت أشعر بالخطر بما أنني عزوت في الوهلة الأولى الضوضاء إلى انفجار

البالون. فحصت كل أجهزتي مع ذلك بعناية فائقة ولم أستطع أن أجد بها أي خلل. أنفقت قسما كبيرا من اليوم أفكر في الحادثة غير العادية لكن لم أعثر على أي وسيلة ما أعللها بها. ذهبت إلى النوم غير راض وفي حالة من القلق الشديد والهياج".

"الحادي عشر من أبريل. رأيت نقصا أجفلني في المحيط الظاهر من الأرض وزيادة كبيرة في محيط القمر الذي يحتاج إلى أيام قليلة فقط ليصبح بدرا؛ وهي الزيادة التي أصبحت واضحة لي لأول مرة. والآن الأمر يحتاج إلى عمل طويل ومكثف لتكثيف هواء جوي كاف داخل الغرفة من أجل تعزيز الحياة".

"الثاني عشر من أبريل. وقع تحول فريد في مسار البالون، وعلى الرغم من أنني أتوقعه تماما، منحني بهجة لا تضاهى بأي بهجة أخرى. انحرف فجأة أثناء مساره السابق عند وصوله إلى الخط أو المنحنى العشرين الموازي لخط العرض الجنوبي، في زاوية حادة باتجاه الشرق. وهكذا تقدم خلال اليوم، باقيا تقريبا، إن لم يكن كلية، في السطح الدقيق من مدار القمر. إن الذي يستحق ملاحظته هو اهتزاز ملموس في العربة نتيجة هذا التغير في الطريق وهو اهتزاز ساد بدرجة أقل أو أكثر لفترة امتدت عدة ساعات".

"الثالث عشر من أبريل. شعرت بالخطر مرة أخرى بسبب تكرار الضوضاء المفرقعة الصاخبة التي أرعبتني في العاشر من أبريل. على الرغم من أنني فكرت كثيرا في الموضوع، لم أستطع أن

أصل إلى أي نتيجة مرضية. نقص عظيم الآن في محيط الأرض الظاهر الذي يشكل تقاطعا مع البالون بزاوية تبلغ أكثر قليلا من خمس وعشرين درجة. ولم أستطع أن أرى القمر أبدًا لأنه كان الآن فوق رأسي تقريبا. مازلت أسير في مدار القمر لكني حققت تقدما ضئيلا باتجاه الشرق".

"الرابع عشر من أبريل. نقص سريع في محيط الأرض. اليوم، بهرتني بقوة فكرة أن البالون كان يرتفع حقيقة في خط القبا(١) إلى الحضيض القمري- أقرب نقطة في مدار القمر إلى الأرض. بكلمات أخرى، يواصل المسار المباشر الذي يمكن أن يؤدي به فورا إلى القمر في ذلك الجزء من مداره الأقرب إلى الأرض. كان القمر نفسه فوق رأسي مباشرة وبالتالي كان محتجبا عن نظري. جهد عظيم ومتواصل ضروري لتكثيف الهواء".

"الخامس عشر من أبريل. لا يمكن اقتفاء أثر حدود القارات والبحار على الأرض الآن بوضوح. في حوالي الثانية عشرة سمعت للمرة الثالثة الصوت المروع الذي أذهلني من قبل. الآن، من ناحية أخرى، استمر للحظات وزادت كثافته تزايدا مستمرا. في النهاية، بينما وقفت أخمن مذهولا ومرعوبا لا أعرف أي دمار مروع يرج العربة بعنف شديد، أتت كتلة عملاقة ومشتعلة من مادة ما لم أستطع تمييزها

---

(١) كل نقطة على مسار مركزي يكون بعدها عن مركز القوة أكبر أو أصغر ما يمكن. وهما نقطتان أو أوجان: الأوج الأعلى والأوج الأدنى.

بصوت ألف رعد تزأر وتهدر بجوار البالون. عندما خمدت مخاوفي وذهولي بدرجة ما، لم أجد صعوبة في افتراض أنها كسرة بركانية عملاقة خرجت من ذلك العالم الذي أقترب منه بسرعة، وعلى كل الاحتمالات، هي طبقة من تلك الطبقات الفريدة من المواد التي يلتقطها الناس أحيانا من فوق سطح الأرض وتسمى أحجارا نيازكية للنقص في إيجاد تسمية أفضل".

"السادس عشر من أبريل. تكشف هذا الصباح عن أنه عهد جديد في رحلتي. تذكروا أنه في الثالث عشر كونت الأرض زاوية تساوي خمسا وعشرين درجة، وفي الرابع عشر تناقصت هذه الزاوية تناقصا عظيما، وفي الخامس عشر لا يزال هناك تناقص بارز أكثر، ملحوظ، ومع وقت نومي في ليلة السادس عشر، لاحظت زاوية لا تزيد على سبع درجات وخمس عشرة دقيقة من الدرجة. إن الذي كان مدعاة دهشتي لذلك عند استيقاظي من نوم قصير ومضطرب في صباح هذا اليوم السابع عشر، أن أجد السطح تحتي فجأة مع زيادة كبيرة في حجمه بحيث يشكل زاوية مقابلة لا تقل عن تسع وثلاثين درجة في المحيط الموازى الظاهر! كنت مصعوقا! لا توجد كلمات يمكن أن تعطي فكرة كافية عن الرعب التام والشديد والدهشة اللذين طوقاني وتملكاني وطغا عليّ تماما. تداعت ركبتاي تحتي واصطكت أسناني ووقف شعري إلى آخره. "إذن البالون انفجر في الحقيقة". كانت هذه هي الأفكار المضطربة التي تسارعت عبر عقلي: "لقد انفجر البالون

بالتأكيد" لقد فشلت – فشلت بسبب سرعتي المتهورة الفائقة! ولكي أحكم بالمسافة الكبيرة التي تجاوزتها بالفعل بسرعة كبيرة لا يمكن أن تكون أكثر من عشر دقائق على الأقصى قبل أن أصل إلى سطح الأرض وأن أهوى إلى الهلاك. في النهاية أتتني فكرة أراحتني. توقفت، وتأملت وبدأت أشك. كانت المسألة مستحيلة. لا يمكن لأي سبب أن أكون قد هبطت بهذه السرعة. علاوة على هذا، على الرغم من أنني كنت أقترب من السطح الذي خلفي بوضوح، فاقترابي كان يحدث بسرعة لا تعادل أبدا السرعة التي تصورتها في البداية. عمل هذا التفكير على تهدئة تشوش عقلي، ونجحت أخيرا في النظر إلى الواقعة من زاوية النظر الصحيحة. في الحقيقة، لقد جردني الاندهاش من عقلانيتي عندما لم أستطع أن أدرك الاختلاف الشاسع في الهيئة الخارجية بين السطح الذي يقع أسفل مني وسطح الأرض الأم. كانت الأخيرة بالفعل فوق رأسي ويحجبها البالون تماما بينما القمر – القمر نفسه في تألقه الكامل – ينبسط تحتي وعند قدمي".

"إن الانشداه والبغتة اللتين نتجتا في عقلي بسبب هذا التغير الاستثنائي في وضع الأمور لعلهما هما الجزء الذي يحتاج إلى التفسير من المغامرة. لأن الانقلاب في حد ذاته لم يكن طبيعيا وحتميا فقط بل كان متوقعا منذ فترة طويلة، حقيقة، بما أنه شرط متوقع حينما أصل تلك النقطة المحددة من رحلتي حيث تنسخ جاذبية القمر جاذبية الكوكب، أو بدقة أكبر، حيث يكون انجذاب البالون إلى الأرض أقل

قوة من انجذابه تجاه القمر. بالتأكيد لقد استيقظت من نعاس عميق وحواسي كلها مشوشة تعيقني عن أن أتأمل ظاهرة مجفلة، على الرغم من أنني كنت أتوقعها، فلم أكن أتوقعها في هذه اللحظة. لابد أن الدوران قد حدث بطريقة سهلة وتدريجية ولم يكن واضحا أبدا، فلو كنت مستيقظا في وقت وقوع الحدث لأدركته بدليل ما بداخلي على الانقلاب أو العكس، أي إما بأن أشعر بإزعاج ما في جسدي أو بأن يصيب أجهزتي خلل ما".

"لا حاجة البتة لأن أقول إنه عند إفاقتي على الإحساس الواجب بموقفي وخروجي من الرعب الذي امتص كل ملكة من ملكات نفسي انصب انتباهي كلية في المقام الأول على تأمل الهيئة الفيزيقية العامة للقمر. إنه ينبسط من تحتي مثل رسم بياني- وعلى الرغم من أنني قيمته لكونه ثابتا على مسافة لا أهمية لها- تحددت انبعاجات سطحه بالنسبة لنظري بجلاء صاعق وغير قابل للتعليل كلية. إن الغياب الكلي لمحيط أو بحر أو أي بحيرة أو نهر فعليا أو هيكل مائي أيا كان صعقني للوهلة الأولى باعتباره أكثر المعالم استثناء في حالته الجيولوجية. لقد شاهدت مناطق مسطحة فسيحة ذات طبيعة مائية بلا ريب، على الرغم من أن القسم الأعظم من نصف القطر على مرمى البصر كان مغطى إلى حد بعيد بجبال بركانية لا تحصى مخروطية الشكل بنتوءات ذات مظهر اصطناعي أكثر من كونه طبيعيا. لا يتعدى أعلى نتوء فيما بينها ثلاثة وثلاثة أرباع ميل عمودى، إن خريطة

المقاطعات البركانية لكامبي فلجراي[1] ستقدم لسعادتكما فكرة أفضل عن سطحه العام أكثر من أي وصف تافه قد أراه مناسبا أن أصفه لكما. كان الجزء الأعظم منها في حالة تآكل واضح، ولكي أفهم نقمتها وقوتها، أمدتني بأصوات رعدية متكررة تصدر عن الأحجار المسماة خطأ "نيازكية"، "التي تندفع إلى الأعلى بجوار البالون على فترات قصيرة".

"الثامن عشر من أبريل. اكتشفت زيادة هائلة في الحجم الظاهر للقمر، والسرعة المتزايدة بوضوح لهبوطي بدت تملأني بالإحساس بالخطر. تذكروا أن في المرحلة الأولى من تخميناتي حول احتمالية القيام برحلة إلى القمر، وجود الجو في المنطقة المجاورة مكثفا بالنسبة إلى حجم الكوكب احتل مكانا ضخما في حساباتي. هذا على الرغم من نظريات عديدة مناقضة وربما أضيف أنه بغض النظر عن الإيمان العام بعدم وجود أي هواء قمري أبدًا. غير أنه بالإضافة إلى ما طرحته بالفعل فيما يتعلق بمذنب إنك والضوء البريجي، فقد عزز رأيي ملاحظات السيد شرويتير من ليلينثال. لقد لاحظ القمر عندما كان عمره يومين ونصف اليوم في المساء بعد غروب الشمس على الفور قبل أن يحل الظلام، واستمر في مراقبته حتى حل الظلام. بدا قرناه مستدقيين في استطالة ضعيفة حادة جدا، حيث يتمدد الطرفان المضاءان إضاءة ضعيفة بأشعة شمسية قبل أن يصبح أي جزء من

---

(١) في إيطاليا.

نصف الكرة المظلم مرئيا. يصبح الطرف المظلم كله مضاء بعد ذلك سريعا. أعتقد أن هذه الاستطالة لقرني الهلال إلى ماوراء شبه الدائرة ظهرت من انكسار أشعة الشمس بسبب هواء القمر. حسبت أيضًا علو الجو (الذي قد يكسر الضوء انكسارا كافيا إلى نصف قطره المظلم لكي ينتج شفقا أكثر إضاءة من الضوء المنعكس من الأرض عندما يكون القمر جديدا بزاوية حوالي ٣٢ درجة) لتكون ١٣٣٦ قدم باريس[١]. في ضوء هذا، افترضت أن أكبر ارتفاع يستطيع أن يكسر الأشعة الشمسية هو ٥٣٧٦ قدم باريس. تأكدت أفكارى حول هذا الموضوع بفقرة من المجلد الثاني والثمانين من إجراءات فلسفية، حيث تنص على أن القمر الثالث من أقمار المشترى عند خسوفه، يختفي بعد أن يصبح حوالي ١□ أو ٢□ مرة غير واضح كما يصبح من الصعب تمييز الرابع بالقرب من الطرف[٢].

---

(١) مقياس باريس يساوي القدم منه ١٢,٨ إنش.

(٢) كتب هيفيليوس أنه وجد عدة مرات في سموات صافية صفاء تاما عندما تكون نجوم ذات القيمة السادسة أو السابعة جلية، حتى إنه عند ارتفاع القمر نفسه وعند الامتداد نفسه من سطح الأرض وبالتليسكوب الممتاز نفسه لا يبدو القمر وبقعه بوضوح مساويا طوال الوقت. وطبقا لظروف المراقبة من الواضح أن السبب في هذه الظاهرة لا في هوائنا ولا في أنبوب التليسكوب ولا في القمر ولا في عين المشاهد بل لابد من البحث عنها في شيء ما (الهواء؟) موجود حول القمر. راقب كاسيني على فترات متكررة زحل والمشتري والنجوم الثابتة فعندما يقترب القمر من الخسوف يتغير شكلها الدائري إلى شكل بيضاوي، وفي مرات أخرى لم يجد أي تغير أبدا في شكلها. وعليه يمكن افتراض أنه في وقت ما وليس في وقت آخر هناك مادة كثيفة تحيط القمر تتكسر خلالها أشعة النجوم. (بو)

"لقد اعتمدت كلية من أجل هبوطـــي النهائي علـــى المقــاومة أو بالأصح على دعم الجو الموجود في حالة الكثافة المفترضة. فهل، يتضح على الرغم من كل شيء، أنني أخطأت؟ بالتالي، لا أتوقع خاتمة أفضل لمغامرتي من أن أتشرذم إلى ذرات على السطح الوعر للقمر. لدي فعليا مبررات قوية لكي أشعر بالرعب. كنت على مسافة تافهة نسبيا من سطح القمر ولم يتناقص الجهد الذي أبذله لتكثيف الهواء أبدا، ولم أستطع أن أجد أي مؤشر أيا كان على تناقص خلخلة الهواء".

"التاسع عشر من أبريل. هذا الصباح لفرحتي العظيمة حوالي الساعة التاسعة أعطت مضخة جهاز التكثيف أخيرا علامات واضحة على تحول الهواء، وقد أصبح سطح القمر قريبا قربا مخيفا، ووصلت مخاوفي إلى ذروتها. بحلول العاشرة كان لدي مبرر قوي لأعتقد أن كثافة الجو زادت زيادة ملموسة. بحلول الحادية عشرة، ومع بعض التردد غامرت بفك المرقأة، وعندما وجدت أنه لم يصبني أي إزعاج جراء هذا، فتحت الغرفة البلاستيكية ونزعتها من حول العربة. كما يمكن أن تتوقعوا كانت عواقب التجربة المتهورة والمحفوفة بالمخاطر الفورية إصابتي بتقلصات وصداع عنيف. لكنني قررت أن أتحملها إلى جانب صعوبات أخرى صاحبت تنفسي، بما أنها لم تكن عظيمة جدا أبدا بحيث تعرض حياتي للخطر، بأفضل ما أستطيع لأنني سأخلفها ورائي في مرحلة تطور اقترابي من طبقة أكثر كثافة بالقرب من القمر. إلا أن هذا الاقتراب مازال عنيفا إلى أقصى حد وسرعان ما

سيشكل خطرا بالتأكيد، فعلى الرغم من أن توقعي بأن تتناسب كثافة الهواء طرديا مع كتلة القمر على الأرجح لم يخدعني، فمازلت مخطئا في افتراض أن هذه الكثافة، حتى على السطح كافية تماما لدعم الوزن العظيم لعربة البالون. غير أن هذا الافتراض هو الذي كان يجب أن يحدث وعلى درجة مساوية كما يحدث على سطح الأرض، أن تتناسب طرديا الجاذبية الفعلية للأجساد على أي من الكوكبين مع الكثافة الهوائية. لم تكن هذه هي الحالة مع ذلك، فسقوطي المندفع شهادة كافية، لم؟ يمكن أن يتضح السبب فقط بالرجوع إلى تلك الاضطرابات الجيولوجية الممكنة التي ألمحت إليها سابقا. في كل الأحوال كنت الآن قريبا من سطح الكوكب وأهبط بأقصى اندفاع عنيف مرعب. لم أضع لحظة بالتالي في رمي من فوق العربة الصابورة أولا ثم براميل المياه ثم جهاز التكثيف والغرفة البلاستيكية وأخيرا كل شيء في العربة. لكن لم يكن هذا بلا هدف. مازلت أسقط بسرعة مرعبة وأصبحت الآن على بعد لا يزيد على نصف الميل من السطح. وأخيرا، وقد تخلصت من معطفي وقبعتي وحذائي، حللت العربة التي لم تكن ذات وزن تافه من البالون. وعليه، وقد تعلقت يداي بالأماليد، لم يتح لي الوقت لكي ألاحظ بقدر ما استطاعت أن تبلغه عيناي، أن كل البلد كان مرصعا بكثافة بمستعمرات ضئيلة، قبل أن أهوي على رأسي في قلب مدينة رائعة المنظر، وبين جمهرة عريضة من الناس الضئيلة القبيحة، لم يلفظ فيهم أحد بمقطع صوتي واحد أو تكلف مشقة تقديم المساعدة لي، بل وقف

الجميع مثل مجموعة من الحمقى متجهمين بطريقة مضحكة، يحدقون بي وإلى البالون باستنكار، وأيديهم على خصورهم. تحولت عنهم باحتقار، وحدقت للأعلى إلى الأرض التي تركتها مؤخرا، وربما للأبد- رأيتها ملاذا ضخما مظلما نحاسيا يبلغ حوالي درجتين في محيطه، ثابتة بسكون في السماء فوق رأسي ويزين أحد طرفيها حاشية هلالية بوميض ذهبي. لم أستطع رؤية أي أثر للأرض أو المياه وقد أضحت مغيمة ببقع متنوعة ومطوقة بمناطق استوائية ومدارية".

"وهكذا، لعله يدخل على سعادتكما السرور، بعد سلسلة من القلق والأخطار غير المسبوقة والهروب الذي لا يضاهيه هروب وصلتُ أخيرا في اليوم التاسع عشر من رحيلي عن روتردام بأمان إلى نهاية رحلتي الاستثنائية والأخطر بـــلا ريب والتي لم يحققها أو يشرع بها أو يدركها من قبل أي قاطن للأرض. غير أن مغامراتي مازالت متصلة وبالفعل لعل سعادتكما تستطيعان أن تتصورا أن بعد إقامة خمس سنوات على كوكب ليس فقط مهما أهمية عميقة بسبب خصائصه الخاصة به بل تتضاعف أهميته بسبب الصلة الوثيقة بوصفه قمر العالم الذي يقطنه الإنسان، إنني قد أمتلك معلومات ذات تفاصيل تهم كلية علم الفلك رغم أن الرحلة ذاتها التي تكللت بالنجاح رائعة. هذه في الحقيقة المسألة برمتها. إن لدي الكثير - الكثير جدا الذي يسعدني أن أبلغه إليكما. لدي الكثير لأقوله عن طقس الكوكب وعن تحولاته الرائعة من الحرارة والبرودة، وعن إشراق الشمس الحارق

والتام لأسبوعين وأكثر وعن برودة قطبية تدوم أسبوعين متتاليين، وعن التغير الدائم للرطوبة الذي يحدث عن طريق التقطير الذي يماثل تقطير الحويصلة من النقطة التي تقع تحت الشمس إلى أبعد نقطة عنها، وعن المناطق المتقلبة من المياه المتدفقة، وعن الشعب نفسه، عن أساليبه وعاداته ومؤسساته السياسية وعن بنيته الفيزيقية الخاصة وعن قبحه وعن غياب عضو السمع لديه، وعن تلك الملحقات العقيمة في هواء معدل تعديلا خاصا، وعن جهلهم الناجم عن ذلك بالكلام وخصائصه، وعن إحلالهم للحديث بطريقة فريدة من التواصل الداخلي، وعن الصلة المبهمة بين كل فرد في القمر مع فرد ما على الأرض – صلة مناظرة مع، وتعتمد على، تلك التي لمدارات الكوكب والقمر وبطريقة تتداخل فيها حيوات السكان وأقدارهم مع حيوات الآخر وأقدارهم. وعلاوة على كل شيء، لو أنه يسعدكما، عن تلك الألغاز الغامضة التي ترقد في المناطق الخارجية من القمر- مناطق بسبب الانسجام الخارق لدوران القمر في محوره مع دوران الفلك حول الأرض لم تخضع بعد- وبرحمة الله لن تخضع أبدا إلى فحص تليسكوب الإنسان. كل هذا وأكثر، أكثر بكثير على أتم الاستعداد أن أعطي تفاصيله. لكن من أجل الاختصار يجب أن أحصل على مكافأتي، أنا آمل أن أعود إلى عائلتي وبيتي، وباعتباره ثمنا لأي تواصل إضافي من جهتي، بسبب الضوء الذي في قدرتي أن ألقيه على فروع مهمة عديدة من العلوم الفيزيائية والميتافيزيقية، يجب أن ألتمس

عبر هيئتكم الموقرة عفوا عن الجريمة المتهم بها بموت الدائنين عند رحيلي عن روتردام. هذا إذن هو هدف رسالتي الحالية. فحاملها وهو ساكن من سكان القمر الذي أقنعته بعد إلحاح ووجهته توجيها صحيحا ليكون رسولي إلى الأرض سينتظر سعادتكما ويعود إليّ بالعفو المطلوب إذا كان ممكنا بأي طريقة الحصول عليه".

"يشرفني أن... إلخ إلخ، خادمكم المتواضع هانز فوول"

قيل إن البروفيسور روبادوب عند انتهائه من قراءة هذه الوثيقة الاستثنائية أسقط غليونه على الأرض في حالة من الاندهاش القصوى، وأن العمدة فون أندردوك بعد أن خلع نظارته، مسح عدستيها ووضعها في جيبه، ونسي حتى تلك اللحظة نفسه وعظمته على السواء لأنه دار حول كعبه ثلاث مرات في نموذج للانصعاق والتعجب. لم يكن هناك مجال للشك حيال المسألة؛ لابد من منح العفو. هكذا أقسم البروفيسور روبادوب قسما صريحا على الأقل. وهكذا أخيرا فكر العبقري فون أندردوك بينما يأخذ ذراع أخيه في العلم وبدون أن ينطق بكلمة بدأ في سلك أفضل طريق للبيت من أجل أن يفكر في الإجراءات التي يجب أن يتخذها. مع ذلك حين وصل إلى باب مقر المدينة غامر البروفيسور بالاقتراح بما أن الرسول رأي أنه من المناسب أن يختفي- خوفا بلا شك من المظهر الوحشي لمواطني روتردام- فلن يكون للعفو فائدة كبيرة حيث لن يشرع في رحلة بهذه المسافة الشاسعة جدا إلا رجل من القمر. أكد المواطنون صحة هذه الملاحظة ولذلك أغلقت

المسألة، لكن لم تنته مع ذلك الإشاعات والتوقعات. فبما أن الرسالة نشرت فقد سمحت لمجموعة متنوعة من الإشاعات والآراء. بل إن بعضا من الذين يمتازون بالحكمة الفائقة جعلوا من أنفسهم حمقى بانتقادهم العنيف المسألة باعتبارها لا تزيد على أنها خدعة. لكنني أعتقد أن الخدعة مع هذه النوعية من الناس هي مصطلح عام لكل المسائل التي تتجاوز فهمهم. فمن جانبي لا أستطيع أن أفهم ما هي البيانات التي بنوا عليها مثل هذا الاتهام. فلنرى ماذا يقولون:

أولا: تمقت بعض الألسن المضحكة المعينة مقتا خاصا بعض المواطنين والفلكيين.

ثانيا: اختفى منذ عدة أيام من المدينة المجاورة لبرجس قزم غريب وساحر كانت آذانهم قد بترت تماما.

ثالثا: أن الصحف التي كانت ملتصقة على البالون هي صحف من هولندا، ولهذا لا يمكن أن تكون صدرت عن القمر. كانت صحفا قذرة، قذرة جدا، وأقسم جلك الناشر بالإنجيل أنها طبعت في هولندا.

رابعا: أن هانز فوول نفسه، العربيد السكير والسادة الثلاثة المثاليين وهم دائنوه شوهدوا جميعا منذ أقل من ثلاثة أيام مضت في حانة في الضواحي بعد أن عادوا لتوهم بأموال في جيوبهم من رحلة وراء البحر.

أخيرا. ثمة رأي سائغ مقبول عامة أو يجـب أن يكون مقبولا، وهو أن كلية علم الفلك في مدينة روتردام والكليات الأخرى في أنحاء العالم، ناهيك عن الكليات والفلكيين عامة، ليسـت أفضل ولا أعظم ولا أحكم كما يجب أن تكون بمثقال ذرة.

ملاحظة. بوضوح، لا يوجد تشابه بين التفاهة المخطوطية هذه و" قصة القمر" الشهيرة للسيد لوك. لكن بما أن القصتين تحملان صفة الخدعة (على الرغم من أن إحداهما ذات نبرة مزاحية، والأخرى ذات نبرة جدية صرف) وبما أن الخدعتين على السواء في الموضـوع نفسـه ألا وهو القمر، فضلا عن أن التفاصيل العلمية التي تحتوي كل منهما عليها أضفت مصداقية عليهما، يرى مؤلف "هانز فوول" أن من الضروري أن يقول، دفاعا عن النفس إن مزحته نشرت في "*Southern Literary Messenger*" حوالي ثلاثة أسابيع، قبل بداية قصة السيد لوك في ***New York Sun***. نشرت بعض صحف نيويورك أجزاء من قصة "هانز فوول" وقارنتها بـ "خدعة القمر" بأسلوب البحث عن مؤلف إحداهما في مؤلف الأخرى. وذلك انطلاقا من تصورها أن ثمة تشابها بينهما، لا يوجد على الأرجح.

وإذ إن العديد من الناس انخدعوا فعليا بـ "خدعة القمر" أكثر مما هم على استعداد أن يعترفوا بهذه الحقيقة، فلعل هذه الملاحظات تقدم لهم بعضا من المعلومات المسلية التي ستظهر كيف كان من المفترض ألا ينخدع أي شخص، كما ستلقي الضوء على تفاصيلها التي كانت

لابد أن تكون كافية لإثبات خاصيتها الحقيقية. فبغض النظر عن غنى الخيال المعروض في هذه القصة الخيالية العبقرية، يعوزها كثيرا من القوة التي كان يمكن أن تمنحها إياها عناية مدققة للحقائق التي وردت بها وإلى تناظرها العام. إن حقيقة أنها ضللت الجماهير، ولو لبرهة قصيرة من الزمن، لا تبرهن إلا على الجهل الشديد الذي يسود عامة فيما يتعلق بموضوعات الطبيعة الفلكية.

إن المسافة بين القمر والأرض تبلغ ٢٤٠,٠٠٠ ميل. فإذا أردنا أن نتأكد إلى أي مدى ستقوم عدسة ما بتقريب القمر ظاهريا (أو أي شيء بعيد)، فليس علينا بالطبع إلا أن نقسم هذه المسافة على القوة المكبرة للعدسة أو بصيغة مباشرة على قوة الفضاء المخترق للعدسة. لقد جعل السيد لوك قوة عدسته تبلغ ٤٢٠٠٠ مرة. عليه إذا قسمنا ٢٤٠,٠٠٠ (مسافة القمر الحقيقية) على قوة عدسته سينتج خمسة أميال وسبعة وخمسون ميلاً باعتبارها المسافة الظاهرة. لا يمكن أن نرى أي حيوان على هذا البعد، وبالتالي لا يمكن أن نرى تلك التفاصيل الدقيقة التي خصصتها القصة. يتحدث السيد لوك عن رؤيته لأزهار السير جون هيرشل، بل رؤيته لون عيون الطيور الصغيرة وشكلها. قبل ذلك بقليل لاحظ هو نفسه أيضا ما ذكره عن أن العدسات لن تتيح رؤية الأشياء التي تقل عن ثمانية عشر إنشا في محيطها القطري. لكن حتى هذا، كما قلت، يحدث في ظل القوة العظيمة التي ألصقها بالزجاج. ولعله ذكر مرارا أن هذا الزجاج الشنيع قد صب أو سبك في مصنع

زجاج السيدين هارتلي وجرانت في دمبارتون. غير أن هذا المصنع توقف عمله منذ سنوات عديدة قبل نشر الخدعة.

في الطبعة التي صدرت للقصة في كتيب، ورد في الصفحة الثالثة عشرة منها "حجاب شعر" فوق عيون أنواع من الثور الأمريكي (البيسون)، حيث يقول المؤلف عنها: "ورد فورا إلى عقل د. هرشيل أنها وسيلة إلهية لحماية عيني الحيوان من الدرجات القصوى العظيمة من الضوء والظلام اللذين يتعرض إليهما كل قاطني جانبنا القمري". غير أنها لا تعتبر ملاحظة " ذكية " من عقل الطبيب. إن قاطني جانب القمر المقابل لنا ليس لديهم كما هو واضح ظلام أبدا، لهذا لايمكن التحدث عن " الدرجات القصوى". ففي غياب الشمس لديهم ضوء من الأرض يكافئ ضوء ثلاثين بدرا.

إن طبوغرافية القمر حتى عندما تتوافق ظاهريا مع الرسم البياني لبلنت تختلف اختلافا تاما مع ذلك الرسم البياني وغيره بل مع نفسها اختلافا أشد. كما أن الجهات التي تعيّنها البوصلة مشوشة تشوشا لاسبيل لحله. لقد بدا الكاتب أنه يجهل أن هذه الجهات على الخريطة القمرية لا تتطابق مع الجهات الأرضية بمعنى أن الشرق يقع إلى اليسار، إلخ.

وإذ انخدع السيد لوك،على مايبدو بالأسمـــاء الغامضة مثل *Mare Nubium, Mare Tranquillitatis,Mare Foecunditatis*، التي

أطلقها الفلكيون السابقون على النقاط المظلمة من قبل، فقد غرق في تفاصيل تتعلـــق بالمحيطـــات والأجساد المائية الأخرى في القمر، في حين أنه لا توجد نقطة فلكية أكثر حسما من أنه لا وجود لمثل هذه الأجساد. عند فحص الحد الفاصل بين الضـــوء والظـــلام (فـــي القمر الهلالي أو الأحدب)، حيث يعبر هذا الحد الفاصل إلى أي مكان مظلم وجد أن خط الانقسام استقرابي ومثلم، لكن حين تكون هذه المناطق المعتمة مائعة، يقسم الخط بينهما بالتساوي.

إن وصف جناحي الرجل الوطواط في صفحة ٢١ ليس إلا نسخا حرفيا لرواية بيتر ويلكينز عن أجنحة سكاني جزيرته. هذه الحقيقة البسيطة كان ينبغي أن تثير الشك على الأقل.

في صفحة ٢٣ نقرأ ما يلي: "أي تأثير شنيع مارسه كوكبنا الذي يبلغ حجمه ثلاثة عشر مرة أضعاف حجم القمر حيث تأثر سلبيا بالانجذاب الكيميائي عندما كان جنينا في رحم الزمن" هذا حسن جدا، لكن يجب ملاحظة أن هذا القول لم يكن ليصدر عن فلكي خاصة إذا كان ينوي إرساله إلى صحيفة علمية؛ لأن الأرض بالمعنى المقصود ليست ثلاث عشرة مرة أضخم من القمر بل تسع وأربعون مرة. ثمة اعتراض مشابه على الصفحتين الختاميتين، فبعد أن قام المؤلف بالتمهيد ببعض الاكتشافات في ساتورن غاص مراسله الفيلسوفي في رواية مراهقة - رواية تشبه روايات الأولاد الصغار - وهى دقيقة عن ذلك الكوكب: إن هذا مرسل إلى مجلة إيدنبرج للعلوم!

لكن ثمة نقطة على وجه الخصوص كان ينبغي أن تخون الخيال السردي. دعونا نتخيل القوة التي تمتلكها فعليا الحيوانات المبصرة على سطح القمر، فما الذي سيجذب انتباه أي مراقب من الأرض؟ بالتأكيد لن يكون شكلها ولاحجمها ولا أي خصوصية أخرى بها بقدر ما سوف يجذب انتباهه وضعها الاستثنائي. فسوف تبدو له أنها تمشي على كعوبها إلى الأعلى ورؤوسها إلى الأسفل بطريقة الحشرات التي تمشي على السقف. إن المراقب الواقعي سيطلق صوت اندهــاش فوريــا (أيا كانت المعرفة المسبقة التي استعد بها) من استثنائية وضعها. لم يأت المراقب السردي حتى على ذكر هذه النقطة بل يتحدث عن الجسد برمته لهذه المخلوقات، في حين أنه من الواضح أنه لا يستطيع أن يرى إلا قطر محيط رأسها.

لقد تنوع حجم قوى الرجل الوطواط وفرادته (على سبيل المثال قدرته على الطيران في جو بارد، لو أن القمر به هواء من أي نوع فعليا) في أكثر القصص الخيالية جموحا عن الوجود الحيواني والنباتي بكل البراهين والحجج عن الأعضاء المتناظرة بين الإنسان والحيوان أو النبات. وهنا ستصل القصة غالبا إلى البرهان النهائي. لعله من غير الضروري أن أضيف أن كل الاقتراحات المنسوبة لبريوستر وهرشيل في البداية حول "اختراق الضوء الصناعي عبر مركز بؤرة البصر، إلخ، إلخ" تنتمي إلى هذه النوعية من الكتابة المجازية التي تصنف في الغالب تحت فئة الهراء.

ثمة حد حقيقي ومحدد جدا للاكتشاف البصري بين النجوم، وهو الحد الذي تحتاج طبيعته إلى صياغته في كلمات لكي يصبح مفهوما. فإذا ما كان المطلوب فقط هو سبك العدسات الضخمة فإن عبقرية الإنسان ند لهذه المهمة وسوف تصنعها بأي حجم مطلوب. لكن للأسف تتناسب زيادة الحجم في العدسة وبالتالي لقوة خرق الفضاء طرديا مع نقص الضوء المنبعث بسبب انتشار أشعته. وليس في قدرة الإنسان علاج هذا الشر، لأننا نرى الأشياء بواسطة ذلك الضوء فقط الذي ينبعث سواء مباشرة أو منعكسا. لهذا فإن الضوء " الصناعي" الذي يمكن أن يظهر للسيد لوك هو الضوء الصناعي الذي يستطيع أن يلقيه ليس على "مركز بؤرة البصر"، بل على القمر. لقد استطاع الفلكيون بسهولة التوصل حسابيا إلى أن الضوء المنبعث من نجمة ينتشر بحيث يصبح ضعيفا ضعف الضوء الطبيعي المنبعث من مجموع النجوم في ليل صاف وبدون قمر، ثم تختفي النجمة عن الأنظار.

يملك تليسكوب إيرل من روس، الذي شُيد مؤخرا في إنجلترا، مرآة بسطح عاكس من ٤٠٧١ إنشا مربعا، ويملك تليسكوب هرشيل واحدة من ١٨٨١ فقط. حديد إيرل من روس يبلغ ٦ أقدام في قطره الدائري، يبلغ سمك حوافه ٥,٥ إنش و٥ إنشات عند المركز، وزنه ٣ أطنان. يبلغ طوله الكلي خمسين قدما.

قرأت مؤخرا كتابا صغيرا فريدا وعبقريا إلى حد ما صفحته الرئيسية تحتوي ما يلي:

"الإنسان على القمر أو الرحلة الوهمية إلى عالم القمر، قام بها دومينيك جونزالس، مغامر إسباني، والذي يسمى أيضًا الرسول الطائر. نقله إلى لغتنا جي. بي. دي. آ، باريس، في بيت فرانسواز بيوت، بالقرب من نافورة سانت بينوا. وفي بيت جي. جواجنارد، الذي يقع عند النصب التذكاري الأول في القاعة الكبرى للقصر بالقرب من " الهيئات الطبية". *MDCXLVII*. ص. ١٧٦

يعترف الكاتب أنه ترجم كتـابه عـن كتـاب إنجليزي للسيد دي أفيسون (دافيدسون) على الرغم من أنه يوجد غموض رهيب في الجملة. يقول: "وجدت أن السيد دي أفيسون طبيب من أفضل الأطباء المتضلعين اليوم في معرفة الفنون الرفيعة وخاصة الفلسفة الطبيعية. إن واجبي تجاهه من ضمن واجبات أخرى أن أضع هذا الكتاب الذي بين يدي باللغة الإنجليزية في مرتبة مخطوطات السير توماس دي انان، النبيل أسكتلندي، رفيع الأخلاق الذي من مخطوطاته استلهمت مخطوطي".

بعد عدة مغامرات لا صلة لها بالموضوع على منوال جيل بلاس إلى حد كبير، والتي تحتل الصفحات الثلاثين الأولى، يحكي المؤلف أنه، بعد أن أصابه المرض خلال رحلة بحرية نبذه الطاقم مع خادم زنجي على جزيرة سانت هيلان. ومن أجل أن يزيدا من فرص الحصول على الطعام انفصل الاثنان وعاشا بعيدا عن بعضهما بقدر الإمكان. نجم عن هذا الترتيب أن قاما بتدريب طيور الجزيرة على

القيام بمهمة الحمام الزاجل. تدريجيا تعلمت تلك الطيور أن تحمل طرودا ثقيلة، يزداد ثقلها تدريجيا. في النهاية توصل المؤلف إلى فكرة توحيد قوى عدد عظيم من الطيور لكي تحمله هو شخصيا. فاخترع آلة لهذا الهدف، حيث نحصل على وصف دقيق لها، يدعمه نقش مرسوم. في هذا الرسم نرى السيد جونزالس بطوق من الريش وشعر مستعار يجلس محاطا بساقيه المنفرجتين يشبه إلى حد كبير عصا المكنسة الطويلة وتحمله عاليا بجعات برية (جانزاس) بها خيوط تصل من أذيالها إلى الآلة.

يعتمد الحدث الأساسي المفصل في هذا السرد على حقيقة مهمة جدا يخفيها المؤلف عن القارئ حتى نهاية الكتاب. إن البجعات التي أصبح يألفها ليست فعليا من سكان جزيرة سانت هيلانه بل من سكان القمر. فقد كانت عادتها، منذ زمن بعيد أن تهاجر سنويا إلى جزء ما من الأرض. بالطبع ستعود إلى وطنها في الموسم الملائم. وحيث تصادف أن احتاج المؤلف إلى خدماتها يوما ما للقيام برحلة قصيرة، حملته على غير توقع مباشرة وفي فترة قصيرة إلى القمر. هناك يجد من بين أشياء أخرى غريبة أن النـــاس يتمتعـــون بسعادة بالغة؛ حيث لا قانون لديهم ويموتون بدون ألم وأن أطوالهم تتراوح ما بين عشرة إلى ثلاثين قدما وأنهم يعيشون خمسة آلاف عام وأن لديهم إمبراطورا يسمى أردونزور، وأنهم يستطيعون أن يقفزوا إلى ارتفاع ستين قدما حيث يطيرون بمراوح عندما يكونون خارج تأثير الجاذبية.

لا أستطيع منع نفسي عن أن أورد عينة من الفلسفة العامة للمجلد.

"**يقول السيد جونزالس:** "لابد أن أفصح لك الآن عن طبيعة المكان الذي أجد نفسي فيه. كل السحب كانت تحت قدمي أو إذا شئت تتناثر بيني وبين الأرض. أما بالنسبة للنجوم، فبما أنه لا يوجد ليل حيث كنت، فلها المظهر نفسه دائما، ليست لامعة كالعادة لكن شاحبة وتشبه قمر منتصف الليل تقريبا. لكن قليلا منها يمكن رؤيته وهي أضخم عشر مرات (كما أستطيع أن أحكم) مما تبدو لقاطني الأرض. والقمر الذي كان ينقصه يومان ليصبح بدرا هائل الحجم. لا يجب أن يفوتني أن أذكر أن النجوم تظهر فقط على جانب الأرض الذي يقابل القمر وتبدو أضخم كلما زاد اقترابها منها. كذلك وجدت نفسي دائما بين القمر والأرض سواء كان الجو هادئًا أو عاصفًا. كنت مقتنعا بهذا لسببين، لأن طيوري تطير في خط مستقيم دائما؛ ولأنه أينما حاولت أن تستريح كانت تتجه بلا وعي حول عالم الأرض. ولأنني أوافق على رأي كوبرنيكوس الذي يؤكد أن القمر لم يكف أبدا عن الدوران من الشرق إلى الغرب ليس بطول قطبي خط الاعتدال اللذين يسميان عامة قطبي العالم بل بطول دائرة البروج، فإنني أقترح أن نناقش هذه المسألة بتفصيل في النهاية بعد حين، عندما يتاح لي الوقت لكي أنعش ذاكرتي فيما يتعلق بعلم الفلك الذي تعلمته في سالمانكا، حين كنت شابا ونسيته منذ ذلك الحين".

بغض النظر عن الأخطاء الجسيمة التي يزخر بها الكتاب إلا أنه لا يخلو من جاذبية بما أنه يقدم عينة بشرية ساذجة من الأفكار الفلكية الحالية عن الزمن. واحدة منها تفترض أن "القوة الجاذبة" لا تمتد إلا لمسافة قصيرة من سطح الأرض وتبعا لهذا نجد أن مسافرنا" يتجه بلا وعي حول العالم" إلخ.

ثمة "رحلات إلى القمر" أخرى لكنها لا تتميز عن التي ذكرتها توا. فتلك التي قام بها برجراك بلا معني تماما. في العدد الثالث من *American Quarterly Review* سنجد مقالا نقديا حول "رحلة" معينة من النوع الذي نتحدث عنه، مقالا من الصعب أن نقول ما إذا كان يعرض الناقد غباء الكتاب في الغالب أم يعرض جهله السخيف بالفلك. نسيت عنوان الكتاب، غير أن وسائل الرحلة أكثر عقما حتى من وسيلة صديقنا السيد جونزالس. ويصدف أن المغامر يكتشف في حفره في الأرض معدنا يحمل القمر له جاذبية كبيرة ويشيّد منه على الفور صندوقا يطير به إلى الأمام، إلى القمر عندما يحرره من قيوده. إن "طيران توماس أورورك" مزحة ليست جديرة بالازدراء تماما وترجمت إلى الألمانية. كان توماس، البطل، في الحقيقة حارسا يعمل لدى نبيل هولندي، حيث غرابة أطواره كانت السبب في ميلاد القصة. يقوم توماس بالطيران على ظهر نسر من تلال هنجاري وهو جبل عال عند نهاية خليج بانتري.

إن الهدف الدائم في تلك الكتيبات المختلفة هو السخرية؛ فالفكرة الرئيسة فيها دائما هى مقارنة عادات قاطني القمر بعاداتنا. ولم تبذل واحدة منها أي مجهود لإضفاء المصداقية علي تفاصيل الرحلة ذاتها. ويبدو الكُتّاب في كل نموذج منها جهلاء تماما بعلم الفلك. كان الغرض في هانز فوول مبتكرا فيما يتعلق باحتمالية صدقه، حيث طبق المبادئ العلمية (بقدر ما تسمح به الطبيعة الغريبة للموضوع) على الطريق الحقيقي بين الأرض والقمر. (بو)

حشرة الذهب

كيف يقهقه! كيف يقهقه!
هذا الرفيق يرقص بجنون!
لقد لدغته العنكبوتة الذنبية.
الكل مخطئ[1]

منذ عدة سنوات مضت، عقدت صداقة قوية مع السيد ويليام لجراند. كان ينحدر من عائلة هوجونوت العريقة. امتلك في السابق ثروة؛ غير أن سلسلة من المحن وضعته في حالة عوز. ومن أجل أن يتفادى العواقب المخزية الناتجة عن نكباته، ترك نيو أورليانز، مدينة أسلافه، واتخذ من جزيرة سوليفان، بالقرب من شارلستون، في كارولينا الجنوبية مكانا لإقامته.

هذه الجزيرة فريدة جدا؛ فهي لا تتكون إلا من بحر رمال وتبلغ حوالي ثلاثة أميال، ولا يتعدى عرضها عند أي موقع منها ربع الميل. ويفصلها عن الأرض الرئيسية جون صغير بالكاد يمكن رؤيته، ينضح

---

(١) توجد مسرحية بهذا الاسم لآرثر ميرفي (١٧٣٠-١٨٠٥)، غير أنها لا تحتوي على هذه الأبيات. لقد كتب (بو) هذه السطور بنفسه.

خلال مساره عبر برية من القصب والوحل، وهو الملجأ المفضل لدجاجات المستنقع. الحياة النباتية عليها، كما يفترض، شحيحة، أو على الأقل قزمة؛ لا توجد شجرة واحدة بأي حجم. وبالقرب من الطرف الغربي، حيث تنتصب قلعة مولتري، وحيث توجد المباني الخشبية البائسة التي يقطنها الهاربون خلال الصيف من تراب شارلستون وحرارتها، يمكن أن نجد، في الواقع، نخيل البلمط القصير مروحي السعف الخشن، غير أن الجزيرة كلها باستثناء المنطقة الغربية، وخط الشاطئ القاسي الأبيض على ساحل البحر تغطيها شجيرات نامية كثيفة من الآس الحلو التي يثمنها كثيرا علماء البستنة الإنجليز. ترتفع الشجيرات هنا غالبا إلى خمسة عشر قدما أو عشرين وتشكل أيكة كثيفة تقريبا معبقة الهواء بأريجها.

في لب أعماق هذه الأيكة، التي لا تبعد عن الطرف الشرقي للجزيرة أو الطرف القصي منها، بنى ليجراند لنفسه كوخا صغيرا كان يقيم فيه عندما تعرفت عليه للمرة الأولى، بمحض الصدفة. سرعان ما أثمر هذا التعرف صداقة بيننا، فقد كان هناك الكثير في هذا المنعزل عن العالم الذي يثير الاهتمام والإعجاب. وجدته متقفا عالي الثقافة يتمتع بقوى عقلية خارقة لكنه مصاب ببغض للجنس البشري وعرضة لمزاجات منحرفة تتقلب بين الحماسة والسوداوية. كان معه العديد من الكتب لكنه نادرا ما يقرأها. تسلياته الرئيسية كانت الصيد بالبندقية أو صيد السمك أو التمشية على شاطئ البحر وخلال نباتات الآس

باحثا عن الأصداف ونماذج من الحشرات، التي قد يحسده على مجموعته الأخيرة منها سوامردام. في هذه النزهات كان يصاحبه في الغالب زنجي عجوز اسمه جوبتير، أعتق من العبودية قبل أن يصيب العائلة حظها العاثر، غير أن التهديدات والوعود لم تستطع أن تغريه بالتخلي عما اعتبره حقه في السهر على خطوات صغيـره "مـاسا ويـل[1]". لا أستبعد أن يكونوا أقارب لجراند، وقد أقنعوه أنه مضطرب عقليا إلى حد ما، احتالوا لغرس هذا العناد في جوبتير بقصد أن يراقب الجوال ويحرسه.

إن الشتاء في نطاق جزيرة سوليفان نادرا ما يأتي قارصًا، كما أن النار في الخريف لا تعتبر ضرورية إلا لماما. مع ذلك في منتصف أكتوبر، من عام --١٨ حل يوم ذو برودة استثنائية. في ذاك اليوم، قبل غروب الشمس مباشرة زحفت عبر النباتات دائمة الخضرة إلى كوخ صديقي الذي لم أزره منذ أسابيع؛ فقد كانت إقامتي في ذلك الوقت في شارلستون، التي تبعد تسعة أميال عن الجزيرة حيث كانت وسائل العبور وإعادة العبور متخلفة كثيرا عن تلك التي توجد اليوم. عند

---

(1) Master Will.

أو سيدي ويل. الطريقة التي ينطق بها جوبتير طريقة مميزة جدا كما كتبها (بـو)، فحروف كثيرة من الكلمات ناقصة، إلى جانب طبعا، خلو حديثه من أي جملـة صحيحة من حيث القواعد أو التركيب، والترجمة هنا التزمت تماما بهـذا فـي ترجمة حديث جوبتير. إن (بو) يمتلك في قصصه صورة نمطية عـن العبيـد المعتقين، والتي عكسها في هذه القصة في طريقة الكلام.

وصولي إلى الكوخ، طرقت بابه، كعادتي، وبما أنني لم أتلق أي جواب، بحثت عن المفتاح الذي أعرف مخبأه، وفتحت الباب ودخلت. وجدت نارا ناعمة تلمع في المدفأة. كان هذا أمرا جديدا وشعرت بالامتنان التام. تخلصت من المعطف واتخذت مقعدا إلى جانب فرقعة الحطب وانتظرت بصبر وصول مضيفي.

"وصلا فور حلول الظلام ورحبا بي ترحيبا حارا بالغا. انطلق جوبتير المبتسم ابتسامة عريضة من الأذن إلى الأذن، في نشاط صاخب لتحضير دجاجة من دجاجات المستنقعات للعشاء. كان ليجراند في واحدة من نوبات- كيف أسميها غير ذلك؟ حماسة. فقد وجد حيوانا ذا صدفتين مجهولا من جنس جديد، وعلاوة على ذلك، اصطاد واعتقل بمساعدة جوبتير خنفساء سوداء[1] (جعران) كان يؤمن أنها من نوع جديد كلية، لكنه سيعرف رأيي بشأنها في الصباح".

"ولم لا الليلة؟" سألت وأنا أفرك يدي فوق اللهب، ومتمنيا أن تذهب كل قبيلة الخنافس إلى الجحيم.

"لو أعلم فقط أنك هنا! لقد مضى وقت طويل منذ أن رأيتك. كيف كنت سأتنبأ بأنك ستزورني هذه الليلة بالذات دون الليالي الأخرى؟ لقد قابلت الملازم ج، من القلعة، في طريقي إلى البيت، وبحماقة كبيرة

---

(١) هي خنفساء الجعران المقدس، الشهيرة عند قدماء المصريين (الجعـــران)، وإن كان هنا عمد (بو) إلى أن يضفي عليها صفة اللدغ من حشرة أخرى تسمى فعليا الحشرة الذهبية، لكنها لا تنتمي إلى الخنافس.

أعرته الحشرة، لهذا سيكون من المستحيل أن تراها حتى الصباح. ابقى هنا الليلة، وسأرسل جوب لإحضارها عند شروق الشمس. إنها أجمل ما في الوجود!"

"ماذا؟...... شروق الشمس؟"

"هراء، لا، --- الحشرة. إن لونها ذهبي لامع- في حجم جوزة ضخمة – ببقعتين سوداوين سوادا فاحما قرب أحد طرفي ظهرها وبقعة أخرى أطول إلى حد ما عند الطرف الآخر. قرون الاستشعار"

هنا قاطعه جوبتير: "لا، ماسا ويل، أظل أقول عليك؛ الحشرة هي حشرة ذهب، صلب، قل جزء منه، داخل وكله، لا جناحه، أبدا شعرت حشرة ثقيل في حياتي".

أجاب ليجراند، بجدية أكثر إلى حد ما، كما بدا لي، مما يحتاج الأمر: "حسنا، لنفترض أنها كذلك يا جوب، فهل هذا سبب يجعلك تترك الدجاجة تحترق؟ اللون – هنا استدار نحوي- "حقا كاف في الغالب؛ ليؤكد فكرة جوبتير". لن ترى مثيلا للبريق المعدني اللامع الذي ينبعث من قشورها – لكن لن تستطيع الحكم على هذا حتى الغد. في الوقت الحالي أستطيع أن أعطيك فكرة ما عن الشكل، جلس إلى مائدة صغيرة وهو يقول هذا، حيث كان عليها قلم وحبر لكن لا يوجد ورق. بحث عن بعض الأوراق في درج، لكن لم يجد أي ورقة.

قال في النهاية: "لا يهم، هذا سيلبي الغرض". وسحب من جيب معطفه القصير قصاصة، اعتبرتها طرطورا شديد القذارة ورسم فوقها خطوطا عريضة بالقلم، في الوقت الذي احتفظت بمقعدي بجوار النار، فقد كنت لاأزال أشعر ببرودة؛ عندما أصبح الرسم جاهزا ناوله لي بدون أن ينهض. بينما كنت أتلقاه منه، سمعنا هريرا عاليا تبعه خمش على الباب. فتحه جوبتير، واندفع كلب نيوفاوندلاند، وكان ملكا لليجراند وقفز إلى كتفي وغمرني بعناقه، فقد كنت ألاعبه كثيرا خلال الزيارات السابقة. عندما انتهى من قفزاته ولعبه، نظرت إلى الورقة؛ وحقا، حيرني كثيرا ما رسمه صديقي.

"حسنا"، قلت بعد أن تأملته لبعض الدقائق: "هذا جعران غريب، لابد أن أعترف، أنه جديد عليَّ، لم أر شيئا مثـــل هـــذا من قبل أبدا إلا جمجمة أو رأسا ميتا، فهو يشبهها أكثر من أي شيء آخر جاء تحت عيني".

"رأس ميت!"، كرر ليجراند، "أوه! نعم، حسنا، لابد أنه سيبدو هكذا على الورقة بلا شك. إن البقعتين العلويتين السوداوين تبدوان مثل عينين. ها؟ والبقعة الأطول تبدو مثل فم في الأسفل، علاوة على أن الشكل الكلي بيضاوي...".

"ربما"، هكذا أجبته، ثم قلت: "لكن ليجراند، أخشى أنك لا تجيد الرسم. فإذا أردت مني أن أعطيك رأيا في شكلها لابد أن أنتظر حتى أرى الحشرة بنفسي".

قال مغتاظا قليلا: "حسنا، لا أعلم، أن رسمي مقبول.– هو هكذا على الأقل، فقد كان لدي أساتذة جيدون وأعتقد أنني لست تماما أبله".

قلت: "إذن أنت تمزح يا صديقي العزيز، فهذه جمجمة مقبولة جدا– بل ربما يجب أن أقول إنها جمجمة ممتازة حقا، تجسد الأفكار الخام حول مثل هذه النماذج الفسيولوجية– لابد أن الجعران الذي وجدته أغرب جعران في العالم إذا كان يشبه هذا الرسم. عجبا، ربما نضفي لمحة مثيرة من الخرافة على هذا التماثل. أفترض أنك ستسمي الحشرة الخنفساء – الجمجمة، أو شيئًا من هذا القبيل– هناك ألقاب عديدة مشابهة في علم تاريخ الطبيعة. لكن أين قرون الاستشعار التي تحدثت عنها".

"قرنا الاستشعار" قال ليجراند الذي بدا منفعلا انفعالا غير مبرر لي نحو الموضوع: " أنا متأكد أنك رأيت قرني الاستشعار، لقد أبرزتهما كما هما في الحشرة الأصلية، وأعتقد أن هذا كاف".

"حسنا، حسنا، ربما، ومع ذلك لا أراهما"، وأعطيته الورقة دون ملاحظة إضافية؛ لأنني لم أرغب أن أثير انفعاله. لكنني اندهشت كثيرا من التحول الذي طرأ على الأمر، وحيرني سرعة غضبه، أما بالنسبة

لرسم الخنفساء، فبالتأكيد لم يتضح به قرنا الاستشعار، ويحمل الرسم إجماليا تماثلا قريبا جدا من الرسوم الكروكية للجماجم البشرية.

تلقى الورقة برمًا، وكان على وشك أن يبعجها، لكي يرميها في النار على ما يبدو، حين أسر انتباهه شيء ما في الورقة. في لحظة امتقع وجهه للغاية؛ وفي اللحظة الثانية شحب شحوبا شديدا. ولعدة دقائق أخذ يفحص الرسم بدقة حيث كان يجلس. أخيرا نهض، وتناول شمعة من فوق المائدة، ثم تقدم ليجلس على صندوق بحري في أبعد ركن من أركان الغرفة. حينئذ فحص الورقة أيضًا بلهفة، مقلبا إياها على كل الاتجاهات. من ناحية أخرى، لم يقل شيئا، وقد أدهشني سلوكه دهشة عظيمة، إلا أنني اعتقدت أن من الحكمة ألا أفاقم من مزاجه المتقلب بأي تعليق. أخذ من جيب معطفه محفظة ووضع الورقة بحرص فيها وأودعهما المكتبة ثم أغلق عليهما. حينها بدا أكثر هدوءا في تصرفاته، غير أن حماسته التي امتلأت بها ملامحه اختفت. ومع ذلك، فقد بدا شاردا أكثر منه متجهما. ومع انقضاء ساعات المساء ببطء أخذ يغرق أكثر وأكثر في أحلام يقظة، لم تنجح أي انطلاقة ما مني أو رغبة ما في القيام بنشاط مفاجئ أن ينبهه منها. كانت نيتي أن أبيت الليل في الكوخ كما فعلت من قبل تكرارا، لكنني ارتأيت وأنا أرى مضيفي في هذا المزاج أن من المناسب أن أرحل. لم يلح عليَّ أن أبقى لكن عند مغادرتي صافحني بحرارة أكثر حتى من المعتاد.

"كان قد مضى شهر تقريبا (لم يردني خبر منه) عندما تلقيت زيارة في تشارلستون من جوبيتر. لم أر أبدا الزنجي العجوز الطيب مثبط الهمة على هذا النحو، وخشيت أن تكون قد حلت كارثة خطيرة بصديقي".

قلت: "جوب، ما الأخبار؟ كيف حال سيدك؟"

قال: "آه بصراحة يا سيدي هو ليس جيدًا".

قلت: "ليس بحال جيد! أنا آسف جدا. مما يشكو؟"

قال: "حذا! حذا هو- هو أبدا شكا من شيء- لكن هو مريض في كل يوم".

قلت: "مريض جدا! جوبتير! لم لم تقل هذا على الفور؟ هل هو طريح الفراش؟"

قال: "لا، حذا هو لا! هو ليس موجودا -حذا لبس حذاء خلسة- ذهني مشغول على ماسا ويل المسكين".

قلت: "جوبتير، أود أن أفهم عن ماذا تتحدث. تقول إن سيدك مريض. ألم يقل لك ماذا أصابه؟

قال: "عجبا يا سيدي، أصبح مجنونا بالمسألة... ماسا ويل لم تقل شيئًا في المسألة معه.. لكن إذن ماذا يجعله يدور يفتش، مع رأسه

تحت وكتفه فوق وأبيض فى هيئة شبح؟ ثم يحتفظ بماصة[1] طوال الوقت.

قلت: "يحتفظ بماذا يا جوبتير؟"

قال: "يحتفظ بماصة مع رسم على رق- هو أغرب رسم رأيته في حياتي. أصبح مخيفا. لازم عيني قوية عليه في تحرك. يوم زاغ مني قبل شمس تطلع وقبل اليوم مشي. عندي عصا غليظة عندما عاد أريد ضربه - لكن كبير أحمق هو، قلبي طيب، هو مسكين جدا".

"إيه؟.... ماذا؟ آه نعم! أعتقد أنك لا يجب أن تكون قاسيا مع المسكين، لا تجلده يا جوبتير، لن يستطيع أن يتحمل هذا، لكن ألا ترى أي سبب لهذا المرض أو بالأحرى هذا التغير الذي طرأ على سلوكه؟ هل حدث أي شيء منذ أن رأيته؟"

"لا ماسا، لم يحدث شيء ليس سارا منذ يوم -- منذ كنت حنقا".

"كيف؟ ماذا تعنى؟"

"يا ماسا، حشرة، حنق".

"ماذا؟"

"حشرة، أنا متأكد ماسا ويل عضته حشرة فى رأسه".

---

(١) استخدم هنا جوبتير كلمة ماصة وهو الشكل الأنبوبي المفرغ، الذي ربما يقصد به تليسكوبا على الأرجح، كما قد نفهم من القصة بعد ذلك.

"وما الذي جعلك تظن هذا يا جوبتير؟"

"كفى مخلب له، فمه أيضًا. أبدا أر حشرة في حياتي- أنه يرفس ويعض قل شي مشي له. ماسا ويل مسكه، لكن هو فلته بسرعة. أنا أقول لك، هو عضه في هدا الوقت. لا حب فم حشرة- لا أمسكه يدي، أمسكه بورق في أرض. وضعته في ورق وحشرت منه في فمه".

"إذن أنت تعتقد أن الخنفساء عضت سيدك حقا وأن العضة هي التي جعلته مريضا؟"

"لا أعتقد شيئًا حوله- أنا متأكد. ماذا يجعله يحلم بحشرة كثيرا؟- هى عضة. لم تسمع في الحشرات الذهبية من قبل".

"لكن كيف عرفت أنه يحلم بالذهب؟"

"كيف عرفت؟ عجبا، هو تحدث عنه وهو نائم، حذا كيف".

"حسنا يا جوبتير، ربما أنت على حق، لكن أي ظرف سعيد جعلني أتشرف بزيارتك اليوم؟"

"ماذا حدث يا سيدي؟"

"هل أحضرت لي رسالة من السيد ليجراند؟"

"نعم ماسا، أحضرت هذا" وهنا ناولني جوبتير رسالة قصيرة محتواها مايلي:

"عزيزي –

لم لا أراك منذ فترة طويلة؟ أرجو ألا تكون من الحمق الذي يجعلك تشعر بالإهانة من فظاظة ما صدر مني، لكن ليس هذا مستبعدا.

منذ أن رأيتك وأنا أعاني قلقا شديدا. لدي شيء أقوله لك، إلا أنني لا أعرف كيف أخبرك به أو ما يجب أن أقوله بأي حال.

لست على مايرام تماما منذ بضعة أيام مضت والمسكين جوب العجوز يزعجني إزعاجا فوق احتمالي بنواياه الحسنة. هل تصدق؟ لقد أحضر عصا غليظة ذلك اليوم لكي يؤدبني بها لأنني هربت منه وقضيت اليوم، سولو، وسط تلال الأرض الرئيسية. أعتقد اعتقادا راسخا أن هيئتي المريضة هي التي أنقذتني من الجلد.

لم أضف جديدا إلى مجموعتي منذ أن التقينا.

إذا استطعت بأى شكل أن تحضر إلى هنا مع جوبتير. تعالى. أود أن أراك الليلة لمسألة مهمة. أؤكد لك أنها ذات أهمية قصوى".

المخلص دائما،

"ويليام ليجراند"

رأيت في لهجة هذه الرسالة ما سبب لي قلقا عظيما؛ فأسلوبها يختلف اختلافا جذريا عن أسلوب ليجراند. ما الذي يمكن أن يحلم به؟ ما النزوة الجديدة التي تستولي على عقله الهائج؟ ما" المسألة ذات الأهمية القصوى" التي لديه ليبوح بها؟ وصف جوبتير له لا يبشر بالخير، أصابني الرعب خشية أن يكون الضغط المتواصل الذي نجم

عن سوء حظه أخل تماما في النهاية بصواب صديقي. لذلك بدون لحظة تردد تهيئت لمصاحبة الزنجي.

عند وصولنا إلى الرصيف، لاحظت وجود منجل وثلاثة معاول، جديدة على ما يبدو، ترقد في قاع المركب الذي كنا سنستقله.

سألت: "ما معنى كل هذا يا جوبتير؟"

"هو منجل ماسا وجاروفه".

" فعلا، لكن ما الحاجة لها ؟"

"هو منجل وجاروف ماسا ويل صر في أنا اشتريهم له في مدينة والشياطين بمال كبير لازم عطى لهم"(*).

"لكن ماذا سيفعل بحق كل ما هو غامض "ماسا ويل" بالمناجل والمعاول؟"

"حذا كبير عن أن أعرف. إبليس ياخدني لو هو كبير عن هو يعرف أيضًا. لكن كله من حشرة".

لما وجدت أنني لن أحصل على أي إجابة شافية من جوبتير الذي بدا أن تفكيره كله مستغرق في "حشرة" خطوت إلى المركب، وأبحرنا. وبنسمة قوية وجميلة، سرعان ما وصلنا إلى الجون الصغير

(*) حاولت المترجمة أن تنقل الإنجليزية المضطربة عمدا فى الأصل الأجنبى، فما تريد الشخصية أن تقوله هو (ما سيقوله ماسا عن شرائه لهذه الأشياء فى المدينة والأحوال التى علىّ أن أدفعها للشياطين

الذي يقع شمال قلعة مولتري، وبعد مسيرة تبلغ ميلين وصلنا إلى الكوخ. كانت حوالي الثالثة بعد الظهر عندما وصلنا. قبض على يدي *empressment* بضغطة عصبية أشعرتني بالخطر وعززت الارتياب الذي يساورني فعليا. كانت ملامحه شاحبة حتى أكثر من شحوب الموتي، وتومض عيناه الغائرتان بلمعان غير طبيعي. بعد بعض الاستفسارات الخاصة بصحته سألته وأنا لا أعرف ما هو أفضل شيء أقوله إذا كان قد حصل على الخنفساء من الملازم ؟

أجاب وقد احمر وجهه بشدة: " أوه، نعم، حصلت عليها منه في الصباح التالي. لا يوجد ما قد يغريني بالتخلي عنها. هل تعرف أن جوبتير محق تماما بشأنها؟"

سألته ونذير بالشر حزين يتسلل إلى قلبي: "كيف؟" قال "في افتراضه إنها حشرة من ذهب حقيقي" - قال هذا بسيماء من الجدية العميقة وشعرت بصدمة لا توصف.

استمر بابتسامة ظافرة: "هذه الحشرة هي سبب ثروتي، حتى أسترد أملاك عائلتي. فهل عجيب إذن أن أفوز بها؟ وإذ إن القدر ارتأى أن يهبني إياها، فكل ما يجب أن أفعله هو أن أحسن استخدامها لكي أصل إلى الذهب الذي هي علامته. جوبتير، أحضر لي تلك الخنفساء".

"ماذا! حشرة ماسا؟ أفضّل إلا أمشي لحشرة متعبة، أنت يجب أن تحضرها بنفسك". عند هذا الحد، نهض ليجراند بسيماء وقور وجليل وأحضر لي الخنفساء في صندوق زجاجي. لقد كانت جعران جميلا، وفي ذلك الوقت كان لايزال مجهولا بالنسبة لعلماء الطبيعة، وهو بالطبع غنيمة عظيمة من وجهة النظر العلمية. كانت هناك بقعتان مستديرتان سوداوان بالقرب من طرف من طرفي الظهر وأخرى أطول في الطرف الآخر. والقشور قاسية وتلمع بوميض ذهبي. ولفت نظري وزن الحشرة، وفي ضوء هذه الاعتبارات لا أستطيع أن ألوم جوبتير على رأيه الذي أبداه عنها. لكن ما الذي جعل ليجراند يتوافق مع ذلك الرأي، قسما بحياتي لا أعرف.

قال مفخما نبرته بعد أن انتهيت من فحص الحشرة:" سألتك الحضور لكي أحصل على استشارتك ومساعدتك لتعزيز وجهات نظر القدر والحشرة...".

صرخت أقاطعه: "عزيزي ليجراند، بالتأكيد أنت لست على ما يرام، ومن الأفضل اتخاذ بعض الإجراءات الوقائية. ستذهب إلى السرير، وسأمكث معك بضعة أيام حتى تتجاوز هذا. أنت محموم و...".

"جس نبضي"

فعلت وفي الحقيقة، لم أجد أدنى أثر للحمى.

"لكن لعلك مريض ولا تعاني الحمى. اسمح لي هذه المرة أن أصف لك الدواء. في المقام الأول اذهب إلى السرير، وثانيا..".

اعترضت كلامه: "أنت مخطئ، أنا في حالة جيدة مقارنة بالإثارة التي أعاني منها. إذا كنت تتمنى لي فعلا أن أكون جيدا فسوف تسعفني من هذه الإثارة".

"وكيف يمكن فعل هذا؟"

"بسهولة شديدة؛ سأذهب أنا وجوبتير في رحلة استكشافية إلى التلال، وفي هذه الرحلة الاستكشافية، سنحتاج إلى مساعدة شخص ما يمكن أن نثق به. أنت الشخص الوحيد الذي يمكن أن نثق به. سواء نجحنا أو فشلنا في التلال، ستتخلص من هذه الإثارة التي تراها الآن في الحالتين".

"أنا أرغب بشدة في تنفيذ ما تطلب مني بأي طريقة، لكن هل تقصد أن تقول إن هذه الخنفساء اللعينة لها علاقة برحلتك الاستكشافية إلى التلال؟"

"لها".

"إذن يا لينجراد، لا أستطيع أن أشارك في مثل هذا العمل العبثي".

"أنا آسف ــ آسف جدا ــ لأننا مجبرون على الشروع بها بأنفسنا".

"الشروع بها بأنفسكم! لقد جن الرجل بالتأكيد! لكن انتظر! كم سيطول غيابك في رأيك؟"

"كل الليل على الأرجح. سنشرع على الفور، وسنعود في كل الأحوال مع شروق الشمس".

"وستعدني بشرفك، عندما تنتهي من نزوتك وتنتهي مسألة الحشرة – ياالله––– بالشكل الذي يرضيك، ستعود إلى المنزل وتتبع نصائحي كاملة ونصائح طبيبك".

"نعم، أعدك. والآن دعنا ننطلق لأنه لا وقت لدينا لنضيعه".

صاحبت صديقي بقلب مثقل. انطلقنا، ليجراند وجوبتير والكلب وأنا، حوالي الساعة الرابعة. كان مع جوبتير المنجل والمعاول – كل ما أصر على أن يحمله – لأنه لا يثق في أن تصبح أداة من الأداتين في متناول سيده عن أن يكون مكدا أو كيِّسا. اتسم سلوكه بالعند الشديد، و"حشرة لعينة" كانت الكلمات الوحيدة التي فلتت من شفتيه خلال الرحلة. أما من جانبي، فقد حملت مشكاتين، في حين أن ليجراند اكتفى بالجعران الذي حمله مربوطا في طرف حبل السوط، وأخذ يؤرجحه للأمام والخلف وهو يمشي، مثل ساحر ما. عندما رأيت هذا الدليل الأخير الواضح على اضطراب عقل صديقي بالكاد استطعت أن أحبس دموعي. ومع ذلك، اعتقدت أن من الأفضل أن أسايره في نزوته على الأقل في الوقت الحاضر أو إلى أن أستطيع أن أعرف ما يكفيني في

مساعدتي على تكوين رأي صحيح بشأنه؛ أستطيع بناء عليه أن أتعامل معه بطريقة ناجحة. وحيث إنه نجح في حثي على أن أصاحبه في رحلته، لم يبد استعدادا إلى الخوض في أي تفاصيل، وعلى كل أسئلتي لم يعطني جوابا سوى:" سنرى".

عبرنا الجون الذي يقع شمال الجزيرة في قارب صغير وصعدنا الأراضي العالية على شاطئ البر الرئيسي، وتقدمنا باتجاه الشمال الغربي عبر بقعة أرض برية مقفرة لا أثر فيها لأي مخلوق بشري. قادنا ليجراند في الطريق عن سابق معرفة به، وهو يتوقف بين الحين والآخر ثواني ليراجع ما بدا أنه علامات محددة وضعها بنفسه في مناسبة ما سابقة.

مشينا على هذا المنوال حوالي ساعتين، وكانت الشمس قد غربت حين دخلنا منطقة أكثر رعبا من أي منطقة رآها بشر أبدا. كانت نوعا من السهول بالقرب من قمة تل شاهق، تغطيه الأشجار بكثافة من قاعدته إلى قمته، وتتناثر فوقه صخور ضخمة شديدة الانحدار في وضع متقلقل فوقه، وعديد منها كان عائق اندفاعها السريع إلى الأودية بالأسفل الأشجار التي تستند إليها فقط. أودية عميقة في اتجاهات مختلفة أضفت جوا من الإجلال على المشهد.

كان السهل الذي تسلقنا إليه بمشقة مكسوا بنبات العليق، الذي اكتشفنا أنه لم يكن من الممكن أن نعبره لولا المنجل. وقد تقدم جوبتير

بإرشاد من سيده ليخلي لنا السبيل إلى شجرة توليب سامقة، تنتصب إلى جانب ثمان أو عشر أشجار بلوط فوق السهل. كانت شجرة التوليب تتفوق على جميع الأشجار التي لم أكن حتى تلك اللحظة أرى مثلها، علوا وجمالا في أوراقها وتدلي فروعها وفي عظمة منظرها. عندما وصلنا إلى هذه الشجرة، استدار ليجراند إلى جوبتير وسأله إذا كان يعتقد أن بإمكانه تسلقها. بدا كأن العجوز انصعق من السؤال وللحظات لم يعط إجابة عليه. في النهاية، اقترب من الجذع الضخم ومشى ببطء حوله وفحصه بعناية دقيقة. عندما انتهي من فحصه قال فقط:

"نعم ماسا، جوب يتسلق أي شجرة يراها في حياته هو".

"إذن أسرع، فقريبا ما يحل الظلام ولن نستطيع أن نرى ما حولنا"

سأل جوبتير: "كم أطلع فوق يا ماسا؟"

"تسلق الجذع أولا ثم سأخبرك أي اتجاه نذهب – وهنا- توقف! خذ هذه الخنفساء معك".

"حشرة، ماسا ويل! – حشرة ذهب!" صرخ الزنجي، وهو يتراجع في فزع إلى الوراء-" لماذا يجب أن آخد حشرة من فوق شجرة --- لعنة إذا أنا أخذتها".

"إذا كنت خائفا يا جوب- زنجي كبير ضخم مثلك- أن تحمل خنفساء ميتة صغيرة غير مؤذية، مابك! تستطيع أن تحملها بهذا الحبل، لكن إذا لم تأخذها معك بأي شكل إلى الأعلى، فسأضطر إلى كسر عنقك بهذا المعول".

"ماذا الآن يا ماسا؟ قال جوب في خجل كما هو واضح": أخاف حشرة! أضحك فقط معك". وهنا حمل بحذر طرف الحبل واحتفظ بالحشرة بعيدة عنه بقدر ما يسمح الوضع وهو يستعد لصعود الشجرة.

إن شجرة التوليب أو ***Liriodendron Tulipiferum***، أكثر الأشجار روعة في الغابات الأمريكية، لها في شبابها جذع ناعم نعومة فريدة، وغالبا ما ترتفع إلى علو عظيم بدون فروع جانبية، لكن في عمر النضج يصبح اللحاء كثير العقد وغير سوي، في حين تلد عديدا من الأطراف الصغيرة على الساق. وعليه، تكمن صعوبة الصعود في الحالة الآنية في المظهر أكثر منها في الواقع. احتضن جوبتير الجذع الضخم بذراعيه وركبتيه بإحكام بقدر ما يمكن، وقبض بيديه على بعض البروزات وأبقى أصابع قدميه العارية على البعض الآخر، وفي النهاية استطاع جوبتير بعد أن أفلت بشق الأنفس مرة أو مرتين من السقوط أن يلوي نفسه على أول فرع ضخم واعتبر أنه أنجز كل ما عليه من عمل. لقد انتهى الخطر في المهمة في الحقيقة على الرغم من أن المتسلق كان على بعد ستين أو سبعين قدما فوق سطح الأرض.

"أي اتجاه يجب أن أمشي الآن يا ماسا ويل؟" سأل

"واصل إلى الفرع الأضخم – ذاك على هذا الجانب" قال ليجراند. أطاعه الزنجي على الفور وعلى ما يبدو بمشقة لكن قليلة؛ ظل يصعد ويصعد حتى لم يعد بإمكاننا أن نرى أى لمحة من هيئته المقرفصة عبر الأوراق الكثيفة التي غلفته. كنا نسمع صوته فقط.

"ما المسافة التى يجب أن أمشيها؟"

"إلى أي مدى يبلغ ارتفاعك؟" سأل ليجراند.

"أبدا أبعد، أجاب الزنجي، أرى السماء من فوق الشجرة".

"انسى السماء، لكن انتبه لما أقوله. انظر إلى الأسفل نحو الجذع وعد الفروع التي تحتك على هذا الجانب. كم فرع اجتزت؟"

"واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، خمسة أفرع كبيرة ماسا في أحد الجوانب".

"إذن اصعد فرعا أعلى".

في دقائق قليلة سمعنا صوته مرة أخرى، معلنا أنه وصل إلى الفرع السابع.

صرخ ليجراند الذي غدا أكثر إثارة بوضوح: "أريدك أن تشق طريقك عبر هذا الغصن بقدر ما تستطيع. إذا رأيت أي شيء غريب، فأخبرني".

عند هذه اللحظة، الشك الضئيل الذي كان يساورني بصدد جنون صديقي المسكين هدأ أخيرا، لا بديل أمامي سوى أن أخلص إلى أنه جن، وأصبحت متلهفا بشدة أن أرجعه إلى البيت. وبينما كنت أفكر في أفضل شيء يمكن أن أقوم به، سمعنا صوت جوبتير مرة أخرى.

"خائف جدا أن أمشي فوق غصن بعيد جدا – هو غصن ميت".

صرخ ليجراند بصوت مرتعش: "هل قلت إنه غصن ميت يا جوبتير؟"

"نعم ماسا هو ميت مثل مسمار – أكيد خلص- مات وخلصت حياته"

"ماذا أفعل بحق السماء؟" تساءل ليجراند، بضيق عظيم على ما يبدو.

قلت سعيدا بالفرصة التي أتيحت لي لكي أتدخل". تفعل!، لم لا تذهب إلى البيت وتخلد إلى فراشك. تعالى الآن!— هذا حسن يا رفيقي. إن الوقت تأخر وعلاوة على هذا، أنت تتذكر وعدك".

وبدون أن يلتفت إليَّ أدنى التفات صرخ:" جوبتير هل تسمعني؟"

"نعم ماسا أسمعك دائما بوضوح شديد".

"إذن جرب الخشب بسكينك واختبره إذا كان قد عطن تماما".

"عطن ماسا، أكيد" أجاب الزنجي بعد عدة لحظات "لكن ليس عطنا جدا. ربما أمشي بنفسى قليلا على هذا الغصن. هذا صحيح".

"بنفسك!– ماذا تعني؟"

"عجبا، أعني الحشرة. هو ثقيل جدا. أفترض أن أسقطها فالغصن لا يحمل فقط أكثر من وزن زنجي واحد".

"أيها النذل اللعين" صرخ ليجراند بلطف أكبر ظاهريا "ماذا تعني بقولك لي مثل هذا الهراء؟ ثق في أنني سأكسر عنقك لو أسقطت هذه الخنفساء. انظر هنا يا جوبتير، هل تسمعني؟"

"نعم ماسا، لا حاجة لكي تصرخ على الزنجي المسكين بهذا الأسلوب".

"حسنا الآن اسمع! إذا غامرت على هذا الغصن بقدر ما ترى أنه أمان، ولن تترك الحشرة، سأعطيك هدية دولارا فضة فور نزولك".

" أنا رايح، ماسا ويل– أكيد أنا "، أجاب الزنجي بحزم – " غالبا إلى النهاية الآن".

"إلى النهاية" هنا صرخ ليجراند إلى حد ما " هل تقول إنك وصلت إلى طرف ذلك الغصن؟"

"قريبا أكون عند الطرف ماسا أووووو أوه! رحمة إلهي! ما هذا الذي على الشجرة؟"

"حسنا" صاح ليجراند بسعادة فائقة "ما هو؟"

"عجبا! جمجمة فقط – شخص تركها على شجرة، والغربان قضت على كل نتفة لحم فيها".

"تقول جمجمة!— حسنا جدا، - كيف ربطت إلى الغصن؟ ما الذي يحملها؟"

"أكيد ماسا. يجب النظر. هذا حديث غريب - أقسم -- مسمار كبير عظيم في جمجمة على شجرة".

"حسنا الآن يا جوبتير افعل تماما كما أقول لك -- هل تسمع؟"

"نعم ماسا".

"انتبه، إذن -- جد العين اليسرى للجمجمة".

"هم! هوو! عجبا! لا عين يسرى تماما".

"اللعنة على غبائك! هل تعرف يدك اليمنى من اليسرى؟"

"نعم أعرف - أعرف كل شي - يدي اليسرى هي التى أقطع شجرا بها".

"لكي تكون واثقا مما تفعله! أنت أعسر، وعينك اليسرى على نفس جانب يدك اليسرى. الآن أعتقد أنك تستطيع أن تجد العين اليسرى للجمجمة، أو المكان الذي به العين اليسرى. هل وجدتها؟"

هنا ساد صمت طويل. في النهاية سأل الزنجي:

"هل عين يسرى للجمجمة عند نفس جانب ذراع الجمجمة اليسرى؟ لأن الجمجمة ليس بها نتفة واحدة فقط - لا يهم! حصلت على عين يسرى الآن - هنا عين يسرى! ماذا يجب أن أفعل بها؟"

"دع الخنفساء تسقط من خلالها، بقدر ما يصل الحبل – لكن احذر من أن يفلت الحبل؟"

"كل شيء خلاص ماسا ويل، سهل عظيم وضع حشرة في حفرة – انظر إليها تحتك!"

أثناء هذا الحديث، لا يمكن رؤية أي جزء من جسد جوبتير، لكن الخنفساء، التي تركها تهبط، كانت واضحة عند طرف الحبل، وتتلألأ مثل كرة من الذهب المصقول، تحت أشعة الشمس الغاربة- بعض الأشعة التي كانت لاتزال تنير الربوة التي كنا نقف فوقها. كان الجعران يتدلى بوضوح تام عبر كل الأغصان، وإذا ما تُرك سيسقط عند أقدامنا. تناول ليجراند على الفور المنجل، ونظف به مساحة دائرية، تبلغ ثلاث أو أربع ياردات في قطرها مباشرة أسفل الحشرة المتدلية، وبعد أن فعل هذا أمر جوبتير أن يفلت الحبل ويهبط فوراً.

دق صديقي وتدا بإحكام فائق عند النقطة التي سقطت فوقها الخنفساء بالضبط، ثم أخرج من جيبه شريط مقياس؛ وقام بتثبيت أحد طرفيه عند أقرب نقطة في جذع الشجرة إلى الوتد، ثم بسطه حتى وصل إلى الوتد ثم بسطه مرة أخرى في الاتجاه نفسه الذي شكله بين الشجرة والوتد إلى مسافة تصل إلى خمسين قدما، في تلك الأثناء كان جوبتير يخلي الطريق من نباتات العليق بالمنجل. وعند الخمسين قدما الأخيرة ثبت وتدا ثانيا، ثم اتخذه مركزا لدائرة قام برسمها يبلغ قطرها

أربعة أقدام. من ثم، تناول جاروفين وأعطى واحدا لجوبتير وواحدا لي، وطلب منا أن نبدأ في الحفر بأسرع ما يمكن.

ولا أخفي عليكم، لم أجد يوما في نفسي خاصا لهذا النوع من التسلية، وفي تلك اللحظة بالذات كنت أفضل لو استطعت تجنبها وقد حل الليل وكنت أشعر بالإرهاق الشديد من التمارين التي زاولتها فعليا، لكنني لم أر أي طريقة للهروب، وخفت إذا رفضت أن يختل اتزان صديقي المسكين. لو أنني أستطيع فعليا الاعتماد على مساعدة جوبتير، فلم أكن أتردد في محاولة إرجاع المجنون إلى البيت، لكنني كنت متأكدا تماما من موقف الزنجي العجوز الذي لن يجعلني أرجوه أن يساعدني تحت أي ظرف في نزاع جسدي مع سيده. لم يساورني شك في أن ليجراند قد انتقلت إليه عدوى جنونية أو وهم عن مال مدفون، وقد عززها عثوره على الجعران، أو لعله إصرار جوبتير الذي دعمه بحجج عديدة في تأكيده على أنها "حشرة من الذهب الحقيقي". إن عقلا ينزع إلى الجنون سينقاد بسهولة إلى مثل هذه الاقتراحات خاصة إذا جاءت منسجمة مع أفكار مسبقة، حينها تذكرت حديث رفيقي المسكين عن أن الخنفساء هي "سبب ثروته". باختصار كنت مغتاظا غيظا شابه الحزن ومحتارا، لكن في النهاية توصلت إلى أن أستفيد من الموقف بمعنى أن أحفر بنية حسنة، وسرعان ما أقنع الحالم بالدليل العيني بزيف الآراء التي يفكر بها.

وبعد أن أشعلنا المشكاتين، انكببنا جميعا على العمل بحماسة تستحق سببا أكثر عقلانية، وحين سقط الوهج على أجسادنا وأدواتنا، لم أستطع أن أمنع نفسي عن التفكير كم نشكل صورة رائعة باعتبارنا مجموعة، وكم هو غريب ومثير للشك عملنا لأي متطفل قد يتعثر بمكاننا صدفة.

حفرنا باطراد لمدة ساعتين. لم نقل الكثير، وكان حرجنا الأساسي يكمن في نباح الكلب الذي اهتم اهتماما مفرطا بأعمالنا. وفي النهاية، أصبح جامحا بحيث زاد خوفنا من أن يلفت انتباه بعض المتشردين في المنطقة المجاورة، أو بالأحرى كان هذا خوف ليجراند، فبالنسبة لي كنت سأسعد بأي تدخل سيخول لي أن أرجع الجوال إلى البيت. أخيرا خرج جوبتير من الحفرة بسيماء من التصميم العنيد، وربط فم الحيوان بواحدة من حمالتي بنطاله، فكتم صوت الكلب كلية، ثم عاد إلى مهمته بضحكة خافتة وقورة.

عندما انتهى الوقت المذكور، كنا قد وصلنا إلى عمق خمسة أقدام، ولم يظهر أثر لأي كنز مع ذلك. فتوقفنا، وبدأ الأمل يساورني في أننا وصلنا إلى نهاية هذه المسرحية الهزلية. ومع ذلك، مسح ليجراند جبينه واستأنف العمل، على الرغم من أنه كانت تبدو عليه البلبلة بوضوح. لقد حفرنا الدائرة كلها التي يبلغ قطرها أربعة أقدام، والآن وسعنا قطرها، وبلغنا عمقا إضافيا يبلغ قدمين. ومع هذا لاشيء. الساعي وراء الذهب -الذي أُشفق عليه بصدق- تسلق الحفرة، في

النهاية، وقد انطبع على كل لمحة من قسمات وجهه إحباط مرير، وتقدم ببطء وعلى مضض ليضع معطفه الذي كان قد ألقاه عند بداية العمل. لم أقل أي تعليق. وبدأ جوبتير بإشارة من سيده في جمع أدواته. وإذ أتم هذا وحرر خطم الكلب، توجهنا في صمت عميق نحو البيت.

ربما كنا قد قمنا باثنتي عشرة خطوة في هذا الاتجاه، حين، بقسم عال خطا ليجراند نحو جوبتير وقبض عليه من لياقته. فتح الزنجي المشدوه عينيه وفمه على وسعهم، تاركا المناجل تسقط وسقط على ركبتيه.

قال ليجراند مهسهسا المقاطع من بين أسنانه المطبقة -- " أيها النذل، أيها الشرير الأسود اللعين! تكلم! آمرك! – أجبني حالا دون مراوغة أي -- أيهما عينك اليسرى؟"

"أوه إلهي ماسا ويل! ليس هنا عيني اليسرى أكيد؟" صرخ جوبتير المرتعب، وهو يضع يده على عينه اليمنى، وأبقى يده فوقها بعناد يائس، كأنه يخاف من أن يحاول سيده أن يقتلعها في الحال.

"هذا ما اعتقدته، كنت أعرف! هوراه!" صاح ليجراند، ثم أفلت الزنجي وقام بعدة دورات وقفزات كأنه فارس يركب حصانا، مثيرا دهشة خادمه الذي نهض، ونظر بصمت من سيده إليّ، ثم مني إلى سيده.

قال: "تعالى! يجب أن نعود. لم تنته اللعبة بعد" ومرة أخرى قاد الطريق نحو شجرة التيولب.

قال عندما وصلنا إلي أسفلها: "جوبتير، تعالى إلى هنا! هل كانت الجمجمة مسمرة إلي الغصن ووجهها إلى الخارج أم وجهها نحو الغصن؟"

"وجهها إلى خارج، فالغربان وصلت لعينيها بلا تعب".

"حسنا إذن، هل كانت هذه العين أو ذاك التي أسقطت خلالها الخنفساء؟ -- هنا لمس ليجراند كل عين من عيني جوبتير.

"هذه عين -- عين يسرى – بالضبط كما قلت لي" وهنا كانت عينه اليمنى التي أشار إليها الزنجي.

"هذا سوف --- لابد أن نجرب مرة أخرى".

في هذا يملك صديقي الحق في أن يجن الجنون الذي أراه الآن أو تصورت أنني أراه. فقد نقل الوتد الذي علم البقعة التي سقطت فوقها الحشرة إلى بقعة على بعد حوالي ثلاثة إنشات باتجاه غرب الموقع السابق، ثم حدد بقعة على بعد عدة ياردات من المكان الذي كنا نحفر فيه، بعد أن مد شريط القياس من أقرب نقطة في جذع الشجرة إلى الوتد، كما فعل من قبل، ثم منه في خط مستقيم إلى مسافة تبلغ خمسين قدما.

رسم حول الموقع الجديد دائرة أكبر إلى حد ما من التي كانت في المرحلة السابقة، وشرعنا مرة أخرى في العمل بالمعاول. كنت مرهقا إرهاقا مميتا، لكن لم أعد أشعر بأي نفور من العمل المفروض وقد فهمت فهما يسيرا التغير الذي حدث في أفكاري؛ فغدوت مهتما

اهتماما بالغا — لا بل أصبحت مثارا. لعل شيئًا ما في كل تصرفات ليجراند المبالغة... حالة ما من التدبر، أو من التفكير المتروي الذي أثر في. حفرت بلهفة وضبطت نفسي بين الحين والآخر أبحث بإحساس ما شبيه بالتوقع عن الكنز المتخيل؛ الرؤية التي أفقدت صاحبيَّ المنحوسين عقليهما. في الفترة التي استحوذت تلك الأوهام عليَّ كلية وكنا قد عملنا لساعة ونصف الساعة تقريبا، قاطعنا مرة أخرى نباح الكلب العنيف؛ من الواضح أن قلقه في الحالة الأولى ليس إلا نتيجة لهو أو نزوة، لكنه الآن اتخذ نبرة حادة وجادة. وعند محاولة جوبتير الثانية أن يكممه، قاوم مقاومة شديدة، قافزا إلى الحفرة، نابشا الكومة بمخالبه نبشا جنونيا. في دقائق قليلة كشف عن مجموعة من العظام البشرية تكوّن هيكلين كاملين ممتزجة مع عدة أزرار معدنية ومع ما بدا أنه زي بوليسي بلي. ضربة أو ضربتان من معاولنا قلبت شفرة السكين الإسباني، وبعد أن حفرنا إلى الأعمق، ظهرت ثلاث أو أربع عملات معدنية طليقة من الذهب والفضة.

عندما رأى جوبتير هذا بالكاد استطاع أن يكبح فرحه، لكن ملامح سيده اكتست خيبة أمل شديدة. مع ذلك حثنا على أن نواصل جهودنا، وكان يلفظ كلماته بصعوبة حين تعثرت وسقطت لأن مقدمة حذائي علقت في حلقة حديدية نصف مدفونة في الأرض الرخوة.

حينئذ حفرنا بكد، ولم أمر أبدا في حياتي بعشر دقائق أكثر إثارة من هذه الدقائق. خلال هذه الفترة الفاصلة، كشفنا تماما عن صندوق من الخشب مستطيل، خضع بوضوح من حالة وقايته وصلابته الرائعة

إلى عملية تمعدن، ربما من ثاني كلورايد الزئبق. كان طوله ثلاثة أقدام ونصف القدم، وعرضه ثلاثة أقدام، وعمقه قدمين ونصف القدم. كان مؤمنا تأمينا محكما بأطواق من الحديد المزخرف المبرشمة التي شكلت نوعا من التعريشة المفتوحة فوقه كله. كانت هناك ثلاث حلقات من الحديد، على كل جانب من جوانب الصندوق، بالقرب من قمته، مجموعها ست، بحيث يمكن حمله بثبات بواسطة ستة أشخاص. لم تحقق مساعينا المتحدة إلا زحزحة صندوق النفائس زحزحة ضئيلة جدا من مرقده. ورأينا على الفور استحالة نقل ثقل عظيم بهذا القدر. لحسن الحظ، الإبزيمات الوحيدة لغطاء الصندوق تتكون من مزلاجين منزلقين، أرجعناهما للخلف ونحن نرتعش ونلهث من التوتر. وفي ثانية رقد أمامنـــا كنـــز لا يقدَّر بثمن يتلألأ. وعندما سقطت أشعة المشكاة داخل الحفرة، انبعث إلى الأعلى وهج وأضواء متلألئة من الكومة المبعثرة من الذهب والمجوهرات التي بهرت أعيننا تماما.

لن أدعي أنني أستطيع وصف المشاعر التي حملقت بنا. انشداه بالطبع. بدا ليجراند مجهدا وهائجا وقال كلمات قليلة جدا. اكتست ملامح جوبتير بعض الدقائق شحوبا مثل شحوب الموتى بقدر ما يمكن أن تعكس طبيعة الوجه الزنجي. بدا مخدرا- صعقه البرق. سقط على ركبتيه توا في الحفرة، ودفن ذراعيه العاريتين حتى كوعيه في الذهب، تاركا إياهما هناك، كما لو أنه يتنعم بالاستحمام. في النهاية، بتنهيدة عميقة، هتف كأنه يناجي نفسه:

"هذا كله من حشرة ذهب، حشرة ضئيلة مسكينة، عملـــت كـــل هذا! لا تخجل من نفسك يا زنجي؟ جاوب"

في النهاية، أصبح ضروريا أن أحث السيد والخادم على التفكير في وسيلة نقل الكنز. كان الوقت يمضي، ويجبرنا على أن نبذل أقصى مجهود في إمكاننا لكي ننقل كل شيء إلى البيت قبل ضوء النهار. كان من الصعب معرفة ما الذي يجب أن نفعله، وأنفقنا وقتا طويلا في تدبر الأمر، فقد كانت أفكارنا كلها أفكارا مشوشة. في النهاية، خففنا الصندوق بنقل ثلثي محتوياته، عندما استطعنا بمشقة أن نخرجه من الحفرة. أودعنا ما أخرجناه من كنز وسط نباتات العليق، وتركنا الكلب ليحرسها مع أوامر صارمة من جوبتير ألا يتحرك أقل حركة من البقعة تحت أي داع ولا يفتح فمه حتى نعود. اتجهنا سريعا بالصندوق نحو البيت، ووصلنا إلى الكوخ في أمان لكن بعدما تعبنا تعبا مفرطا في الواحدة صباحا. وإذ كنا مرهقين هذا الإرهاق، فلم تكن طبيعتنا البشرية لتستجيب لبذل أي مجهود على الفور. ارتحنا حتى الثانية، وتناولنا وجبة سريعة، وبعد ذلك شرعنا في التوجه نحو التلال على الفور، ومعنا ثلاثة أكياس متينة، عثرنا عليها في المنطقة المجاورة للكوخ لحسن الحظ. وصلنا إلى الحفرة بعد الرابعة بقليل، وقسّمنا باقي الغنيمة، بالتساوي على قدر الإمكان فيما بيننا، دون أن نملأها. مرة أخرى بدأنا الرحلة نحو الكوخ، حيث للمرة الثانية أودعنا حمولتنا

الذهبية بالضبط وأشعة ضعيفة من الفجر تومض من فوق قمم الأشجار في الشرق.

كنا منهمكين تماما، غير أن الإثارة الحادة أنكرت علينا الراحة. بعد إغفاءات قلقة لثلاث أو أربع ساعات، استيقظنا كما لو عن اتفاق مسبق لنفحص كنزنا.

كان الصندوق مليئًا حتى حافته، وأنفقنا اليوم كله وجزءا أكبر من الليلة التالية، في تمحيص محتوياته. لم تتسم محتوياته بترتيب نظامي، فقد بدت أنها تكدست بدون تمييز. وقد وجدنا بعد أن صنفنا كل شيء بعناية أننا نمتلك ثروة أضخم مما افترضنا حتى في البداية؛ فبالنسبة للعملات يوجد أكثر من أربعمائة وخمسين ألف دولار، لقد قدرنا قيمة القطع بما استطعنا من دقة، بأن وضعنا لها جداول زمنية. لم تكن هناك قطع من الفضة، بل كلها من الذهب القديم ومتنوعة تنوعا كبيرا؛ فرنسية، إسبانية، ألمانية، مع بعض الجنيهات الإنجليزية، وبعض القطع النقدية التي لم نر نماذج منها من قبل أبدا. كذلك وجدنا بعض العملات الضخمة جدا والثقيلة التي كانت بالية جدا بحيث لم نستطع أن نميز شيئا من نقوشها. لم تكن هناك نقود أمريكية. كانت قيمة المجوهرات التي وجدناها أصعب في التقييم. فقد احتوت على ماسات، البعض منها ضخم للغاية وخام، بلغ عددها كلها مائة وعشرة، ولم توجد واحدة منها صغيرة الحجم، ثم ثماني عشرة ياقوتة ذات تألق استثنائي، ثلاثمائة وعشرة زمردة، كلها جميلة جدا، ثم واحد وعشرين صفيرا مع أوبال واحد. كل

هذه الفصوص انتزعت من إطاراتها وأُلقيت طليقة في الصندوق. هذه الأطر نفسها التي ميزناها من وسط الذهب الآخر قد طُرقت بالمطرقة حتى تطمس معالمها. إلى جانب كل هذا، وجدنا كمية ضخمة من الحلي، تقريبا مائتي خاتم وحلق كبير، وسلاسل نفيسة، كان عددها ثلاثين، على حد تذكري، وثلاثة وثمانين صليبا ضخما وثقيلا، وخمس مباخر ذهبية ذات قيمة كبيرة، ووعاء شراب ذهبيا ضخما ومزخرفا بأوراق عنب مرصعة وأشكال باخوسية مع مقبضي سيفين ناتئين على نحو فاتن، والعديد من الأشياء الأخرى التي لا أستطيع تذكرها. فاق وزن هذه النفائس ثلاثمائة وخمسين باوندا من ثقل الأفواردوبوا[١]، وفي هذا التقدير لم أحسب مائة وسبعا وتسعين ساعة ذهبية رائعة، ثلاث منها تساوي خمسمائة دولار، لو أنها عملة ورقية. العديد منها كان قديما جدا، وبلا قيمة باعتبارها ساعات؛ فالأجزاء المتحركة فيها تآكلت لكن كلها كانت مرصعة بالجواهر وذات قيمة عالية. قدرنا المحتوى الكلي للصندوق تلك الليلة بمليون ونصف دولار، وبعد التخلص من الأشياء ضئيلة القيمة والحلي (استبقينا بعضها لاستخدامنا الخاص)، وجدنا أننا خسفنا خسفا عظيما بقيمة الكنز.

أخيرا، عندما انتهينا من فحصنا وخمدت الإثارة الشديدة إلى حد ما، دخل ليجراند في التفاصيل الكاملة لكل ملابسات اللغز الذي رأى أنني أموت لهفة لكي أعرف حل هذا اللغز الاستثنائي المتصل به.

---

(١) نظام من الموازين، والرطل فيه يساوي ١٦ أونسة.

قال: "تتذكر الليلة التي ناولتك فيها المخطط الأولي الذي رسمته للجعران. تتذكر أيضًا غيظي من تصميمك على أن رسمي يشبه رأسا ميتا. عندما ذكرت هذا التأكيد في الأول اعتقدت أنك كنت تمزح، لكن بعد ذلك خطر على بالي البقع الخاصة على ظهر الحشرة، واعترفت أن ملاحظتك لها أساس ما من الصحة في الواقع. مع ذلك، أغضبتني سخريتك من ملكاتي في الرسم؛ لأنني أعتبر فنانا جيدا، ولذلك، عندما ناولتني قصاصة الرق كنت على وشك أن أجعدها وأرميها بغضب إلى النار".

قلت: "تعني، قصاصة الورق".

"كلا، إنها تبدو كالورقة، قد اعتقدت هذا في البداية، لكن عندما رسمت فوقها اكتشفت في الحال أنها قطعة من الرق الرفيع جدا. تتذكر أنها كانت قذرة جدا، وحين كنت على وشك أن أجعدها، وقع بصري على الرسم الذي كنت تنظر إليه، ولك أن تتخيل دهشتي عندما أدركت، في الحقيقة، وجود شكل لرأس ميت في المكان الذي خططت فيه رسم الخنفساء بالضبط كما بدا لي. للحظة حال اندهاشي دون أن أفكر بدقة. كنت أعرف أنني رسمت رسما مختلفا جدا في تفاصيله عن هذا، على الرغم من أن هناك تشابهًا موجودًا بينهما في الخطوط العامة. تناولت على الفور شمعة وذهبت أجلس في الركن الآخر من الغرفة، متابعا تفحص الرق عن كثب. حين قلبتها على الوجه الآخر، رأيت رسمي في الاتجاه المعاكس، بالضبط كما قمت به. كانت الفكرة الأولى التي خطرت لي حينها محض اندهاش من التشابه الواضح للخطوط العامة،

من الصدفة الفريدة المنطوية في حقيقة أنه لابد أن هناك جمجمة على الوجه الآخر من الرق، تحت رسمي مباشرة، وهي حقيقة لم أكن أعرفها، وأن تلك الجمجمة تتشابه تشابها كبيرا ليس فقط في الخطوط العامة بل أيضا في الحجم. أعتقد أن هذه الصدفة الفريدة خدرتني لبعض الوقت؛ فهذا هو التأثير المألوف لمثل هذه الصدف. تصارع عقلي لبناء صلة- سلسلة من الأسباب والنتائج، ولأنه لم يستطع أن يقوم بهذا عانى من الشلل المؤقت، لكنني عندما شفيت من هذا التخدير، بزغت لعقلي قناعة روعتني حتى أكثر مما روعتني الصدفة. بدأت أتذكر بوضوح أنه لم يكن هناك رسم فوق الرق عندما قمت بمخططي الأولي للجعران. أصبحت متيقنا يقينا تاما من هذا، لأنني تذكرت أنني قلبت في البداية جانبا ثم الآخر بحثا عن أنظف بقعة؛ فلو أن الجمجمة موجودة لم أكن أعجز عن ملاحظتها. وفعليا، شعرت أنه يوجد لغز ما من المستحيل عليَّ أن أتبينه، لكن حتى في اللحظة الأولى ومضت بضعف داخل أقصى وأخفى تجويف في عقلي، فكرة تشبه ضوء سراج الليل عن تلك الحقيقة التي أثبتتها مغامرة الليلة الماضية إثباتا رائعا. نهضت على الفور، وبعد أن وضعت الرق جانبا في أمان، صرفت أي تفكير إضافي فيه حتى يتاح لي الانفراد بنفسي".

"وبعد أن رحلت، واستغرق جوبتير في نوم عميق، لجأت إلى تحقيق منهجي أكثر للمسألة. في المقام الأول، أخذت في اعتباري الطريقة التي حصلت بها على الرق، لقد كانت البقعة التي اكتشفنا فيها

الجعران على ساحل البر الرئيسي على بعد حوالي ميل باتجاه شرق الجزيرة، ولكن على مسافة قصيرة فوق علامة مستوى المياه. لقد لدغتني الخنفساء لدغة حادة عندما قبضت عليها؛ مما جعلني أسقطها".

"جوبتير، بحذره المعتاد، قبل أن يقبض على الحشرة التي طارت ناحيته، بحث عن ورقة شجر أو شيء من هذا القبيل، لكي يمسكها به. فوقعت عيناه، وعيناي في تلك اللحظة على قصاصة الرق التي اعتقدت حينها أنها ورقة. كانت ترقد نصف مدفونة في الرمال، في زاوية مرتفعة من الأرض. وبالقرب من البقعة التي وجدناها فيها، لاحظت بقايا قارب لما يبدو أنه كان من القوارب الطويلة التي تحملها السفن التجارية. بدا أن الحطام موجود من فترة طويلة جدا؛ لأنني رأيت أن أخشابه قد تحللت تماما".

"حسنا، جوبتير التقط الرق، وغلف الخنفساء به، وأعطاني إياها. عدنا إلى البيت بعدئذ على الفور، وفي الطريق قابلنا الملازم ج----. أريته الحشرة، وتوسل إليَّ أن أسمح له بأن يأخذها إلى القلعة. ما إن وافقت، دفعها توا في جيب معطفه القصير، بدون الرق الذي كانت ملفوفة به، والذي ظللت ممسكا به في يدي خلال ما كان الملازم يفحص الخنفساء. ربما خاف أن أغير رأيي، واعتقد أن من الأفضل أن يضمن مكافأته على الفور --- أنت تعرف مدى حماسه في كل الموضوعات التي تتعلق بتاريخ الطبيعة. في الوقت نفسه، دون أن أعي، لابد أنني أودعت الرق في جيبي".

"تتذكر أنني عندما اتجهت إلى الطاولة، بغرض أن أرسم مخططا أوليا للخنفساء، لم أجد ورقا حيثما أحتفظ به دائما؛ بحثت في الدرج، ولم أجد أي ورقة به؛ ففتشت جيبي، على أمل أن أجد خطابا قديما، حين وقعت يدي على الرق. وبهذا أكون قد أعطيتك تفصيلا دقيقا للطريقة التي أصبح بها في حوزتي، لأن هذه الملابسات قد أثرت في تفكيري تأثيرا خاصا".

"ستعتقد أنني خياليٌّ بلاشك - لكنني أقمت بالفعل نوعا من الرابط. لقد جمعت معا حلقتين في سلسلة عظيمة؛ لقد كان هناك قارب يــرقد علـــى شـــاطئ البحر، وليس بعيدا عن القارب الذي كان الرق -وليس الورقة- بالجمجمة المرسومة هو فيه. ستسأل، بالطبع أين الرابط؟ فأجيب أن الجمجمة أو رأس الميت هو الرمز الشهير للقرصان. إن علم رأس الميت يُرفع في كل المعارك الحربية".

"لقد قلت إن القصاصة كانت رقا وليست ورقة. إن الرق معمر- تقريبا خالد. نادرا ما يخصص الرق لمسائل ذات أهمية قليلة؛ حيث إن هذا الورق لا يلائم الأغراض العادية المحضة للرسم والكتابة. هذا التفكير أوحي لي بمعنى ما - صلة ما --- لرأس الميت. لم يفتني أيضًا شكل الرق؛ فعلى الرغم من أن إحدى زواياه تلفت لسبب ما، استطعت أن أرى أن الشكل الأصلي له كان مستطيلا. في الواقع إن مثل هذه القصاصة بالضبط هي التي يتم اختيارها لتسجيل شيء ما ينبغي تذكره وحفظه بعناية".

قاطعته قائلا: "لكنك قلت إن الجمجمة لم تكن في الرق حين قمت برسم الخنفساء. كيف إذن تقتفي أي علاقة بين القارب والجمجمة، بما أن الأخيرة طبقا لاعترافك رسمت (الله وحده يعلم كيف أو من) في فترة ما لاحقة على مخططك الأولي للجعران؟"

"آه، عند هذه النقطة يتغير السر بأكمله، على الرغم من أنني لم أجد صعوبة في حل السر عند هذه النقطة. لقد كانت خطواتي صحيحة، وتمنحني نتيجة وحيدة. فعلى سبيل المثال، فكرت هكذا: حين رسمت الجعران لم تكن هناك جمجمة واضحة على الرق.. عندما أكملت الرسم أعطيتك إياه، وراقبتك عن كثب حتى أعدته إلي. وعليه فأنت لم ترسمه، ولم يكن ثمة أحد آخر ليفعل هذا. بناء عليه لم يحدث بواسطة قوة بشرية. ومع ذلك فقد حدث".

"عند هذه المرحلة من تفكيري، حاولت أن أتذكر، وتذكرت فعلا، بوضوح كامل كل تفصيلة وقعت خلال الفترة محل السؤال. كان الطقس باردا (صدفة نادرة وسعيدة)، وكانت النيران تتوهج في المدفأة، وكان التمرين قد منحني الدفء، فجلست بالقرب من الطاولة، لكنك سحبت كرسيا بالقرب من المدفأة، وفي اللحظة التي ناولتك فيها الرق النفيس بالضبط، وكنت على وشك أن تفحصه، دخل وولف، وقفز على كتفيك، فداعبته بيدك اليسرى وأبعدته، في حين أن اليمنى، وهي تحمل الرق النفيس، تركته يسقط بتراخ بين ركبتيك وبالقرب من النار تقريبا. في لحظة اعتقدت أن اللهب أمسك به، وكنت على وشك أن أحذرك،

لكن قبل أن أتمكن من التكلم، سحبته وانهمكت في فحصه. عندما أخذت في اعتباري كل هذه النقاط التفصيلية، لم أشك للحظة أن النار هي القوة التي كشفت عن الجمجمة التي رأيتها مرسومة فوق الرق النفيس. أنت تدرك تماما أن المستحضرات الكيميائية موجودة، وأنها موجودة منذ زمن طويل جدا، بمعنى أنه من الممكن الكتابة فوق ورقة أو رق ورقي بحيث تصبح الحروف مرئية للعين فقط حين تخضع لفعل النيران. يستخدمْ أحيانا الزعفر[١]، الذي يحل ويلين بالماء الملكي[٢] ويخفف بأربعة أضعاف وزنه بالماء، وينتج عن ذلك لون أخضر خفيف. ويذاب الكوبالت، الكتلة المعدنية المنصهرة منه، في روح نترات البوتاسيوم فيعطي لونا أحمر. تختفي هذه الألوان على فترات تطول أو تقصر بعد أن تبرد المادة المكتوبة، لكنها تظهر ثانية عند خضوعها مرة أخرى للحرارة".

"تفحصت الآن رأس الميت بعناية. كانت حوافه الخارجية -حواف الرسم الأقرب إلى حافة الورقة الرقية- أكثر وضوحا من باقي خطوط الرسم. كان واضحا أن العملية الحرارية تمت ناقصة أو بغير تكافؤ؛ أضرمت نارا على الفور، وأخضعت كل قسم من الرق النفيس إلى النيران المتوهجة. في البداية، كان الأثر الوحيد الناتج هو إبراز الخطوط الواهنة في الجمجمة، لكن مع المواظبة على التجربة،

---

(١) مزيج من أكسيد الكوبالت وسليكا.
(٢) مزيج من حامض النتريك وحامض الهيدروكلوريك

برز، في زاوية القصاصة، في اتجاه مائل يقابل البقعة التي رسمت فيها رأس المـــيت، شكل ما افترضت في البداية أنه ماعز. غير أنني عندما أخضعته لفحص متأن اقتنعت أن المقصود منه أن يكون جديا".

ضحكت: "ها ها ها، تأكد أنه ليس لي الحق أن أسخر منك..... مليون ونصف أمر يبعث على البهجة كثيرا.... لكنك لست على وشك أن تقيم حلقة ثالثة في سلسلتك....لن تجد علاقة خاصة بين قرصانك وماعز.... فالقراصنة كما تعلم لا علاقة لهم بالماعز، فهي تنتمي إلى المسائل الزراعية".

"لكنني قلت بالفعل إن الشكل لم يكن شكل ماعز".

"حسنا، جدي إذن --- الشيء نفسه إلى حد كبير"

قال ليجراند: "إلى حد كبير، لكن ليس تماما. لعلك سمعت عن شخص اسمه كابتن كيد[١]. لقد رأيت شكل الحيوان في الحال نوعا من التورية أو التوقيع الهيروغليفي. وأقول إنه توقيع لأن موقعه في الورقة الرقية أوحى إليَّ بهذه الفكرة. كما أن رأس الميت بوضعه المائل في الزاوية المقابلة حمل سيماء الطابع أو الختم. لكنني ارتبكت ارتباكا موجعا لغياب كل شيء آخر – قوام لصكي، متن لقرينتي".

"أظن أنك توقعت أن تجد رسالة بين الطابع والتوقيع".

---

(١) *Kid* الجدي ابن الماعز

"شيء من هذا القبيل. الحقيقة هي أنني شعرت بأن حدسا ما بثروة جيدة عريضة وشيكة يؤثر في تأثيرا لا يقاوم. بالكاد أستطيع أن أقول السبب. ربما في النهاية، كانت بالأحرى رغبة أكثر منها إيمانا فعليا. لكن هل تعلم أن كلمات جوبتير السخيفة عن أن الحشرة من الذهب الخالص كان لها أثر مذهل علي خيالي؟ وبعد ذلك سلسلة الحوادث والصدف — كانت استثنائية. هل تلاحظ كيف وقعت هذه الأحداث، بمحض الصدفة، في اليوم الوحيد من أيام السنة كلها الذي كان باردا، أو باردا بما يكفي لإشعال النار؛ وإنه بدون النار، أو بدون تدخل الكلب في اللحظة المحددة التي ظهر فيها لم أكن أرى رأس الميت أبدا وبالتالي لم أكن أصبح مالكا الكنز؟"

"لكن أكمل، إنني متلهف تماما لأعرف الحل".

"حسنا، لقد سمعت بالطبع قصصا كثيرة حالية – آلاف الإشاعات الغامضة الذائعة حول مال مدفون في مكان ما على الشاطئ الأطلنطي، دفنها كيد وشركاؤه. لابد أن هذه الإشاعات لها أساس من الصحة في الحقيقة. وأن الإشاعات موجودة منذ فترة طويلة ومتواصلة، فقد نتجت عن أن حقيقة الكنز المدفون مازالت مطمورة. لو أن كيد أخفى غنيمته لفترة ما، ثم استعادها، لم تكن لتصل لنا الإشاعات بشكلها الثابت حاليا. ستجد أن القصص التى حكيت كلها عن الساعين وراء الأموال وليس الذين وجدوها؛ فلو أن القرصان استعاد أمواله، لسقطت القضية عند هذا الحد. بدا لي أن حادثة ما – قل فقدان السجل الذي يدل

على مكانه— جردته من الوسيلة التي يستعيده بها، وأن هذه الحادثة أصبحت معروفة لرفقائه الذين من جهة أخرى ربما لم يسمعوا أبدا أن الكنــز مخفي أبدا والــذين انهمكوا عبثا- لأنه لا يوجد ما يرشدهم- في محاولات استرداده، قد منح الميلاد الأول، ثم بعد ذلك التداول العام، للتقارير الشائعة الآن. هل سمعت يوما عن كنز مهم ما مدفون على الساحل؟"

"أبدا"

"لكن اكتناز كيد الذي كان هائلا ومعروفا جدا. أخذته أمرا مسلما به أن الأرض مازالت تحتفظ به، ولن تندهش عندما أقول لك إنني شعرت بأمل ارتفع إلى حد اليقين أن الرق الذي عثرنا عليه بطريقة غريبة يحتوي على السجل المفقود لمكان الوديعة".

"لكن كيف تابعت الأمر؟"

"حملت الورقة الرقية مرة أخرى إلى النار بعد أن زدت من حرارتها لكن لم يظهر لي شيء. وأعتقد أن طبقة القذارة التي تغلفها لها علاقة بهذا الإخفاق، لهذا نظفت الرق النفيس بحرص بأن أسكب عليه ماء دافئا، وبعد أن فعلت هذا وضعته في مقلاة مصنوعة من القصدير، والجمجة إلى الأسفل. وضعت المقلاة فوق فرن من الفحم المشتعل؛ بعد أن أصبحت المقلاة ساخنة تماما بدقائق قليلة، نقلت القصاصة ولفرحتي القصوى وجدتها مبقعة في أماكن عدة بما قد ظهر

أنه أشكال منظمة في خطوط. وضعتها مرة أخرى في المقلاة، وتركتها دقيقة أخرى. وحين أزلتها رأيت الرسم كله كما تراه الآن بالضبط".

في هذه اللحظة وقد أعاد تسخين الرق النفيس، أعطاني إياه كي أتفحصه. كانت الحروف التالية مرسومة بين رأس الميت والماعز:

I ‡ ; 85 ;48†8¶60)) ;806 (.4‡ 4826) 6*; 53‡‡†305)) "*
**?; 8) * ‡ (; 485) ; 5*†2: ٦(;:‡*8†83 (88) 5*†; 46 (; 88*9*
; (‡9 I 4‡‡; 6†8) ;))8 ¶8;4069285)---٤*‡(;4956* 2 (5**
*; 485†528806*81(‡9;48 ;4) 48†85 ; 8:8‡ I ; 48081*
" (88;4(‡?34;48)4‡;161;:188;‡?;

قلت، وأنا أعيد له القصاصة: " مازلت أتخبط في الظلام بقدر ما كنت من قبل. لو أن كل جواهر جولكوندا[١] تنتظر مني حل هذه الأحجية، فأنا متأكد تماما أنني لن أستطيع الحصول عليها".

فقال ليجراند: " ومع ذلك فالحل ليس صعبا أبدًا كما قد تتصور من المعاينة السريعة الأولى للحروف. هذه الحروف، كما قد يخمن المرء بسهولة تشكل شفرة--- بمعنى أنها تنقل معنى، لكن مما هو معروف عن كيد لا أستطيع أن أفترض أنه قادر على رسم شفرة معقدة؛ فقررت في الحال أنها كانت من الأنواع السهلة --- هذه، من ناحية ثانية، ستبدو للبحار ذي الذكاء البسيط، طلسما بدون مفتاح لحله".

---

(١) مدينة في الهند، ذات ثروة عظيمة تعني منجم الذهب.

"وأنت فككتها حقا؟"

"بسهولة. لقد حللت شفرة أخرى تميزت بغموض أعظم آلاف المرات من هذه- قادتني الظروف ونزعة معينة لعقلي للاهتمام بمثل هذه الألغاز، ويصح حقا للمرء أن يشكك فيما إذا بمقدور الذكاء البشري أن يبني لغزا من نوع لا يقدر الذكاء البشري على حله باستخدام المنهج المناسب. في الحقيقة ما إن وضعت حروفا متصلة ومقروءة، لم أجد صعوبة في توضيح معناها".

"في الحالة الحالية – في كل حالات الكتابة السرية فعليا- يتعلق السؤال الأول بلغة[١] الشفرة، لأن مبادئ الحل، حتى الآن، في أبسط الشفرات تعتمد على نبوغ التعبيرات الاصطلاحية أو العبارات المسكوكة[٢] التي تعرفها اللغات وتتنوع بتنوعها. وعامة لا بديل أمام من يحاول فك الشفرة عن تجريب (الموجه بالاحتمالات) كل لهجة[٣] يعرفها حتى يتوصل إلى اللهجة الحقيقية. لكن، لقد ذلل التوقيع كل صعوبة ممكنة. إن التورية التي تحملها كلمة كيد لا يمكن أن نجدها في لغة أخرى غير اللغة الإنجليزية. ولولا هذا الاعتبار كنت سأبدأ محاولاتي بالإسبانية والفرنسية باعتبارهما اللهجتين، غالبا بطبيعة

---

(1) Languages.

(2) Idioms.

(3) Tongue.

الحال، اللتين سوف يكتب بهما قرصان من أصل إسباني سرا من هذا النوع. وعلى المنوال نفسه، افترضت أن الشفرة إنجليزية".

"تلاحظ أنه لا توجد مسافات بين الكلمات، فلو أنه توجد مسافات لأصبحت المهمة سهلة نسبيا. ففي مثل هذه الحالات لابد أن أبدأ بموازنات وتحليل للكلمات الأقصر وإذا ما تكررت كلمة من حرف واحد، كما يحدث في الغالب (*a* أو *I* على سبيل المثال) حينها أكون قد توصلت إلى الحل. لكن بما أنه لا توجد مسافات، كانت خطوتي الأولى أن أتأكد من الحروف المهيمنة والأقل تكرارا أيضًا. وبعد أن جمعتها كلها كونت جدولا على هذا النحو

من الحرف٨	يوجد	٣٣
;		٢٦
4		١٩
‡)		١٦
*		١٣
5		١٢
6		١١
†1		٨
0		٦
92		٥
:3		٤
?		٣
¶		٢
--.		١

إن الحرف الذي يتكرر في الإنجليزية غالبا هو *e*. وتليه في التكرار الحروف التالية:

a o i d h n r s t u y c f g l m w b k p q x z.

E يهيمن هيمنة واضحة بحيث من النادر رؤية جملة واحدة أيا كان طولها لاتحتوي على الحرف المهيمن".

"لدينا، إذن، بداية، أساس لشيء يتجاوز التخمين الصرف. فالاستخدام العام الذي يمكن أن يستخدم به الجدول واضح— لكن في هذه الشفرة الخاصة، لن نحتاج مساعدته إلا جزئيا. بما أن رقمنا المهيمن هو ٨، سنبدأ بافتراض أنه يقابل الحرف *e* من الأبجدية الطبيعية. ولكي نتأكد من الفرضية دعنا نتأكد مما إذا كان الرقم ٨ يرد زوجا — لأن *e* يتضاعف بتكرار عظيم في الإنجليزية في كلمات مثل ***meet; fleet, speed; seen; been; agree*** إلخ. في الشفرة الحالية، نرى أنه يتضاعف ما لا يقل عن خمس مرات على الرغم من أن الشفرة مختصرة".

"دعنا نفترض إذن أن ٨ هو *e*. والآن من كل الكلمات في اللغة، "***the***" هي الكلمة الأكثر شيوعا. دعنا نرى لذلك فيما إذا كان يوجد تكرار من ثلاثة حروف من الانتظام نفسه(١)، على أن يكون آخر حرف بها هو ٨. فإذا اكتشفنا تكرارا لهذه الحروف مرتبا على هذا

---

(1) Collocation.

النحو، فستمثل على الأغلب الكلمة *"the"*. فإذا عاينا الشفرة، لن نجد أقل من سبعة فى هذا الانتظام وهي ٤٨;. لذلك قد نفترض أن ; تمثل *t*؛ و ٤ تمثل *h*؛ و٨ تمثل *e* --- وقد تأكدنا من الأخير تماما. وعليه فقد قمنا بخطوة عظيمة".

أما وقد عينا كلمة واحدة، يمكن لنا بناء عليها أن نعين نقطة مهمة، بمعنى بدايات الكلمات ونهاياتها. دعنا نعود على سبيل المثال إلى المثال قبل الأخير[1] وهو ما يحتوي التكوين *48 ;*– ليس بعيدا عن نهاية الشفرة. نحن نعلم أن النتيجة التي سنحصل عليها على الفور من ; هى أنه بداية كلمة، ونعلم مالا يقل عن خمسة حروف من الستة التي تتلو حروف *the* في التكوين الذي اخترناه الآن. دعنا إذن نرتبها على النحو التالي بالحروف التي نعلم أنها تمثلها، تاركين مساحة للغير معروفة– *T eeth.*

هنا نحن قادرون في الحال أن ننحي " *th* " لأنها لن تشكل قسما من كلمة تبدأ بالـــ *t*. فبعد أن نقوم بتجربة كل حروف الأبجدية من أجل أن نعثر على حرف يلائم المساحة الشاغرة، ندرك أن لا كلمة يمكن أن تتكون وهذه الـــ *th* جزء منها. لهذا نضيفها إلى *T ee,*

وبمراجعة الأبجدية، إذا تطلب الأمر كما من قبل نصل إلى الكلمة " *tree*"، باعتبارها القراءة الوحيدة المحتملة. وعليه نكسب حرفا آخر هو *r* (الذي يمثله الشكل) مع الكلمتين *"the tree"* متجاورين.

---

(1) ;48 ; (88;4(‡?34;48

"إذا نظرنا وراء هذه الكلمات لمسافة قليلة نرى مرة أخرى المزيج *48;* ، وإذا وظفناه باعتباره خاتمة[١] لما سبق على الفور، نحصل على هذا الترتيب:

The tree ; 4 (‡?34 the,

أو نستبدله بالحروف الطبيعية التي نعرفها فنقرأه على هذا النحو:

The tree thr‡ 3h the.

الآن، لو أننا تركنا أماكن الحروف المجهولة فارغة أو نقطا بديلة فسنقرأ على هذا النحو:

The tree thr….h the,

حيث تكشف كلمة ***"through"*** عن نفسها في الحال. غير أن هذا الاكتشاف يمنحنا ثلاثة حروف جديدة ***o,u,g***، تمثلها الأشكال ‡، *?*، ٣.

وعندما نبحث الآن حصريا عبر الشفرة عن تكوينات من الأشكال المعروفة، نجد هذا الترتيب ليس بعيدا جدا عن البداية

83 (88, or egree,

---

(1) Termination

وهو ببساطة نتيجة الكلمة "*degree*" ويمنحنا حرفا آخر *d* الذي يمثله الشكل †

وبعد كلمة "*degree*" بأربعة حروف، نرى التكوين

;46 (;88.

بترجمة الأشكال المعروفة وتمثيل غير المعروفة بالنقط كما من قبل، نقرأ على هذا النحو

Th.rtee,

ترتيب فوري موحي بالكلمة "*thirteen*"، ويزودنا مرة أخرى بحرفين جديدين *I,n*، يمثلهما ٦ و *.

بالعودة الآن إلى بداية الشفرة نجد التكوين

53‡‡†

وبترجمتها كما فعلنا من قبل نحصل على

Good,

الذي يؤكد لنا أن الحرف الأول هو *A* وأن الكلمتين الأوليين هما "*A good*"

حان الآن تنظيم مفتاحنا، بقدر ما اكتشفنا منه، في شكل جدولي لكي نتجنب التشوش

وعليه فسيبدو في شكله المكتوب على هذا النحو:

a	=	*5*
†	"	*d*
8	"	*e*
3	"	*g*
4	"	*h*
6	"	*i*
*	"	*n*
‡	"	*o*
(	"	*r*
;	"	*t*
?	"	*u*

بناء عليه لدينا ما لا يقل عن أحد عشر حرفا من أكثر الحروف الممثلة أهمية، ولن يكون من الضروري متابعة تفاصيل الحل. لقد قلت ما يكفي لكي أقنعك أن الشفرات من هذه الطبيعة قابلة للحل بسهولة، ولكي ألقي لك ببعض الضوء على الأساس المنطقي لحلها التفصيلي. لكن تأكد أن النوع البشري الذي سبقنا اهتم بأبسط أنواع الكتابة بالشفرة. يبقى الآن أن أعطيك الترجمة الكاملة للأشكال التي في الرق محلولة، ها هي:

"كوب جيد في نزل الأسقف في مقعد الشيطان واحد وأربعون درجة وثلاثون دقيقة شمال شرق وبشمال فرع الشجرة الرئيسى، الفرع السابع ناحية الشرق أُطلق من العين اليسرى لرأس الميت خط مستقيم من الشجرة عبر طلقة خمسين قدما للخارج".

فقلت: "لكن الأحجية تبدو بعد في حالة سيئة كما من قبل. كيف يمكن استخلاص معنى من كل هذه الرطانة حول" مقاعد الشيطان" و"رؤوس الموتى" و"نزل الأسقف"؟"

فأجاب ليجراند: "أقر بأن المسألة ستكتسي جانبا شاقا آخر، إذا ما قرأت قراءة اتفاقية. كانت محاولتي الأولى أن أقسّم الجمل إلى الأجزاء الطبيعية التي قصدها كاتب الشفرة".

"تقصد أن تضع لها علامات ترقيم؟"

"شيء من هذا القبيل".

" لكن كيف يمكن أن يؤثر هذا؟"

"لقد فكرت أن الكاتب يقصد أن تسيل كلماته تماما بدون مسافات لكي يزيد من صعوبة الحل. والآن، لدينا رجل لا يتصف بالذكاء الحاد، يسعى لتحقيق هذا الهدف فمن المؤكد أنه سيبالغ فيه. فحين يصل في سياق تأليفه إلى فاصلة في موضوعه الذي يتطلب طبيعيا وقفة أو نقطة، فسوف يميل بإفراط إلى أن يجعل أشكاله منزلقة عند هذا

المكان أكثر مما هو معتاد. لو أنك لاحظت شكل الخط في المثال الحالي، ستتبين بسهولة خمس حالات من هذا النوع تشهد تزاحما غير طبيعي. وقد قمت بالتقسيم التالي بناء على هذه الفكرة وهو:

"كوب جيد في نزل الأسقف في مقعد الشيطان-- واحد وأربعون درجة وثلاثون دقيقة-- شمال شرق وعبر الشمال --- الفرع السابع من فرع الشجرة الرئيسى ناحية الشرق-- أطلق من العين اليسرى لرأس الميت--- خط مستقيم من الشجرة عبر طلقة خمسين قدما للخارج".

فقلت: "حتى مع هذا التقسيم، مازلت أتخبط في الظلام".

أجاب ليجراند: "لقد جعلني أيضا أتخبط في الظلام لأيام قليلة، خلالها قمت باستعلام دؤوب في المناطق المجاورة لجزيرة سوليفانا عن أي مبنى أطلق عليه "فندق الأسقف[١]" لأنني بالطبع أسقطت الكلمة المهجورة "نزل". ولما لم أحصل على أي معلومات عن الموضوع كنت على وشك توسيع نطاق بحثي بطريقة أكثر نظامية حين طرأ على ذهني ذات صباح فجأة أن "نزل الأسقف" هذا ربما يشير إلى عائلة قديمة باسم بيسوب[٢] امتلكت لفترة طويلة جدا عزبة قديمة على بعد أربعة أميال باتجاه شمال الجزيرة. بناء عليه، ذهبت إلى المزرعة

---

(1) Bishop

(2) Bessop

وأعدت طرح أسئلتي مرة أخرى فيما بين الزنوج الأقدم في العمر في المكان. في النهاية قالت امرأة معمرة إنها سمعت عن مثل هذا المكان باسم قلعة بيسوب، واعتقدت أنها قادرة على أن ترشدني إليه لكنه لم يكن قلعة ولا خانا بل صخرة عالية".

"عرضت أن أدفع لها في مقابل أن تتكلف مشقة الذهاب معي وبعد بعض الاعتراض منها، قبلت أن تصطحبني إلى البقعة. وجدناها بدون صعوبة كبيرة، حيث تابعت بعد أن صرفتها تفحص المكان. تتكون القلعة من مجموعة عشوائية من الأجراف والصخور. واحدة من تلك الصخور كانت استثنائية تماما بسبب ارتفاعها ومظهرها الصناعي والمعزول أيضًا. تسلقت إلى قمتها وبعد ذلك شعرت بحيرة تجاه الخطوة التي يجب أن أقوم بها بعد ذلك".

"بينما كنت منهمكا فى التفكير وقعت عيناي على نتوء في الناحية الشرقية من الصخرة، ربما على بعد ياردة من القمة التي وقفت فوقها. برز هذا النتوء حوالي ثمانية عشر إنشا، ولم يزد عرضه على قدم، في حين أن كوة في جرف فوقه مباشرة منحته تشابها صرفا مع واحد من الكراسي مجوفة الظهر التي استخدمها أسلافنا، لم أشك في أن هذا هو مقعد الشيطان الذي ألمحت إليه الرسالة، وأحيانًا بدا لي أنني قبضت على سر اللغز تماما. عرفت أن الكوب الجيد قد لا يكون غير إشارة لتليسكوب لأن كلمة كوب من النادر استخدامها بأي معنى آخر من بحار. حينئذ، رأيت أنه يجب استخدام تليسكوب ومن نقطة محددة، لا

تسمح باختلاف. ولم أتردد في أن أعتبر أن عبارتي "واحد وأربعون درجة وثلاثون دقيقة" و"شمال شرق ومن الشمال" يقصد بهما الاتجاهات التي يجب بناء عليها تسديد التليسكوب. أسرعت إلى البيت متحمسا بهذه الاكتشافات ودبرت تليسكوبا وعدت إلى الصخرة".

نزلت إلى النتوء الصخري ووجدت أن من المستحيل أن أجلس فوقه إلا بوضع معين واحد. أكدت هذه الحقيقة فكرتي التي توصلت إليها. استخدمت التليسكوب. بالطبع لم تشـر الواحـد وأربعون درجة وثلاثون دقيقة إلا إلى ارتفاع فوق الأفق المرئي بما أن الاتجاه الأفقي تشير إليه الكلمات "شمال شرق ومن الشمال" بوضوح. حددت هذا الاتجاه الأخير على الفور ببوصلتي، ثم بعد أن سددت التليسكوب بارتفاع واحد وأربعين درجة بقدر ما استطعت بالتخمين، حركته بحذر إلى الأعلى وإلى الأسفل حتى لفت انتباهي جرف دائري أو ثغرة في فروع شجرة ضخمة تعلو في الطول رفقاءها من على بعد. رأيت في مركز هذا الصدع بقعة بيضاء لكنني لم أستطع في البداية أن أميز ما هي. بعد أن ضبطت بؤرة التليسكوب نظرت مرة ثانية وتبينت أنها جمجمة بشرية.

تفاءلت جدا مع هذا الاكتشاف، فقد رأيت أني استطعت أن أحل اللغز؛ لأن عبارة "الفرع الرئيسي، الفرع السابع، جهة الشرق" تشير فقط إلى موضع الجمجمة فوق الشجرة، بينما " أطلق من العين اليسرى لرأس الميت" لا تسمح إلا بتفسير واحد فيما يتعلق ببحث عن الكنز

المدفون. أدركت أن القصد منها هو إسقاط رصاصة من العين اليسرى للجمجمة وأن خط الشجرة أو بكلمة أخرى خطا مستقيما يرسم من أقرب نقطة من جذع الشجرة عبر "الطلقة" (أو البقعة التي تسقط فوقها الرصاصة) ثم يمتد من هذه البقعة إلى مسافة خمسين قدما يدل على بقعة محددة وتحت هذه البقعة اعتقدت أنه من الممكن على الأقل أن وديعة قيّمة ترقد مخبأة.

قلت: كل هذا واضح تماما وعلى الرغم من أنه حاذق فهو بسيط وواضح. ماذا حدث بعد أن تركت " نزل الأسقف؟"

"حسنا، بعد أن حددت موقع الشجرة بعناية اتجهت إلى البيت. من ناحية أخرى، اختفى من أمامي الصدع الدائري في اللحظة التي تركت فيها "مقعد الشيطان" ولم أستطع أن ألمحه بعد ذلك أثناء عودتي. إن ما يبدو لي أنه الإبداع الأساسي في هذه المسألة كلها هو حقيقة أن الثغرة الدائرية التي أتحدث عنها لا يمكن رؤيتها من أي زاوية متاحة أخرى إلا تلك الزاوية التي يكونها النتوء الضيق فوق سطح الصخرة".

"كان يصاحبني في رحلة الاستكشاف إلى "نزل الأسقف" جوبتير، الذي لاحظ بلا شـــك لعدة أسابيع مضت شرود سلوكي وحرص على ألا يتركني وحدي أبدا. لكن في اليوم التالي، استيقظت باكرا جدا، وحاولت أن أفلت منه ومضيت نحو التلال بحثا عن الشجرة. بعد كثير من المشقة وجدتها. حين وصلت إلى البيت في المساء أراد خادمي الخصوصي أن يعاقبني بالجلد. بالنسبة لبقية المغامرة أعتقد أنك تعلمها تماما مثلي".

قلت: "أظن أنك أخطأت البقعة في المحاولة الأولى من الحفر بسبب غباء جوبتير الذي ترك الحشرة تسقط عبر العين اليمنى للجمجمة عوضا عن اليسرى".

"بالضبط. هذا الخطأ تسبب في اختلاف قدره إنشان ونصف الإنش في "الطلقة"؛ بمعنى في موقع الوتد بالقرب من الشجرة، ولو كان الكنز تحت "الطلقة" لأصبح الخطأ ذا أهمية قليلة، لكن "الطلقة" مع أقـــرب نقطة في الشجرة كانت نقطتين لتأسيس خط الاتجاه، بالطبع على الرغم من تفاهة الخطأ في البداية إلا أنه زاد مع تقدمنا مع الخط. لكن بسبب انطباعاتي التي رسخت بداخلي أن الكنز كان مدفونا في مكان ما هنا حقا، كان يمكن أن يذهب عملنا كله عبثا".

"لكن طريقة تفخيمك الكلام وطريقتك في أرجحة الخنفساء، كم كانت غريبة للغاية! كنت متأكدا أنك مجنون. ولم صممت على أن تسقط الحشرة بدلا من رصاصة من الجمجمة؟"

"لكي أكون صريحا شعرت بالانزعاج إلى حد ما من شكوكك الواضحة بصدد سلامتي العقلية، وعزمت على أن أعاقبك بهدوء، بطريقتي، بقليل من الغموض الرزين. لهذا السبب أرجحت الخنفساء، ولهذا السبب تركتها تسقط من الشجرة. لقد أوحت لي ملاحظة منك عن وزنها الكبير بالفكرة الأخيرة".

"نعم، أفهم، والآن هناك نقطة واحدة تحيرني. ماذا سنفعل بالهياكل البشرية التي وجدناها في الحفرة؟"

"هذا سؤال لا أستطيـــع أن أجيب عنـــه مثلك. وعلى الرغم من أنه لا يبدو إلا طريقة معقولة واحدة فقط تبرر وجودهم، فمن المخيف تصديق العمل الوحشي الذي يلمح إليه اقتراحي. من الواضح أن كيد لو أنه هو الذي أخفى هذا الكنز فعليا – وهو ما لا أشك فيه – فلابد أنه كان لديه مساعدون في عمله. لكن مع انتهائه من هذا العمل لعله فكر أن من المستحسن أن يزيل كل المشاركين في هذا السر. ربما ضربتان من معول كانتا كافيتين بينما كان مساعدوه منهمكين في الحفرة، ربما تطلب دستة، من يعرف؟"

خدعة المنطاد

(أخبار مذهلة بالإكسبريس (بالقطار السريع) بواسطة نورفوك! – عبور الأطلنطي في ثلاثة أيام! انتصار رائع للآلة الطائرة للسيد مونك ماسون! – وصول السيد ماسون والسيد روبرت هولاند والسيد هنسون والسيد هاريسون أنسوورث وأربعة آخرين في منطاد القيادة " فيكتوريا" إلى جزيرة سوليفان بالقرب من تشارلستون س. ص. بعد سفر خمس وسبعين ساعة من أرض إلى أرض) تفصيل كامل للرحلة!

إن النكتة الملحقة إلى العنوان السابق في حروف كبيرة رائعة، التـي نـالت الإعجاب بذيوعها، نشرت أساسا باعتبارها حقيقة في *New York Sun*، وهي صحيفة يومية، وهي في هذه المسألة تساعد على تحقيق غرض تقديم وجبة غذائية عسيرة الهضم للفضوليين، خلال الساعات القليلة التي تفرق بين وصول بريدين من بريد تشارلستون. لقد فاقت سرعة "الصحيفة الوحيدة التي تملك الأخبار" السرعة الاستثنائية حتى. وفي الحقيقة لو أن (كما أكد البعض) "فيكتوريا" لم تنجز الرحلة أبدًا سيكون من الصعب تحديد السبب.

لقد تم حل المشكلة العظيمة في النهاية! لقد أخضع العلم الهواء إلى جانب الأرض والمحيط، لتصبح كلها طريقا سريعا عاما ومناسبا

للإنسان. لقد تم عبور الأطلنطي في منطاد فعليا! وبدون صعوبة أيضا؛ بدون أي خطر عظيم واضح، بسيطرة كاملة على الآلة، وفي فترة زمنية وجيزة من خمس وسبعين ساعة من الشاطئ إلى الشاطئ! وبسبب حيوية وكيلنا في تشارلستون س. ص.، استطعنا أن نصبح أول من يزود الجماهير برواية تفصيلية لهذه الرحلة الفذة، التي جرت في الفترة بين يوم السبت، السادس من الشهر الحالي الساعة الحادية عشرة صباحا ويوم الثلاثاء، التاسع من الشهر الحالي في الثانية مساء، والتي قام بها السيد ايفيراد برينجرست والسيد أوسبورن ابن أخ اللورد بينتنك والسيد مونك ماسون والسيد روبرت هولاند، الملاح الجوي المعروف والسيد هاريسون انسوورث مؤلف " جاك شبرد" إلخ.. والسيد هنسون، مخطط الآلة الطائرة الأخيرة التي لاقت فشلا، مع ملاحين من وولوتش ليصل عددهم إجمالا ثمانية. إن التفاصيل التي نزود بها القارئ هاهنا يمكن الاعتماد عليها باعتبارها أصيلة ودقيقة من كل ناحية، باستثناء طفيف، إنها نسخت حرفيا من المذكرات الملحقة للسيد مونك ماسون والسيد هاريسون انسوورث، الذي بسبب كياسته، يدين وكيلنا له بالمعلومات الشفهية الكثيرة التي تتعلق بالمنطاد نفسه وبنائه ومسائل أخرى ذات أهمية. إن التغير الوحيد في المخطوطة التي تلقيناها تم بغرض صياغة الرواية العجولة لعميلنا السيد فورسيث في شكل مترابط ومفهوم.

المنطاد

أضعف إخفاقا المرحومان السيد هنسون والسيد جورج كايلي الاهتمام العام بموضوع الملاحة الجوية. قام مخطط السيد هنسون (الذي بدا للوهلة الأولى حتى لرجال العلم معقولا جدا) على مبدأ المستوى المائل، الذي ينطلق من فوق هضبة باستعمال قوة خارجية تستمر بريش تدور بالغاز - هذه الريش بشكل ريش الطاحونة وعددها. غير أن في كل التجارب التي تمت مع النموذج في معرض أديلايد، وجد أن تشغيل هذه الريش لم يحفز الآلة بل يعيق طيرانها فعليا. كانت القوة الدافعة التي أظهرتها فقط هي محض القوة الدافعة التي اكتسبتها من انحدار المستوى المائل. وهذه القوة الدافعة تحمل الآلة حين تكون الريش ساكنة، أكثر مما وهي متحركة، وهي الحقيقة التي أظهرت عدم فائدتها. وفي غياب القوة الدافعة التي كانت أيضًا القوة المغذية ستهبط بالضرورة الآلة كلها. هذا الاعتبار قاد السيد جورج كايلي إلى التفكير فقط في تكييف قوة دافعة إلى آلة ما تملك في حد ذاتها قوة مستقلة من الدعم، في كلمة إلى بالون. وهي الفكرة التي تنحصر جدتها بالنسبة للسير جورج في الطريقة التي سيتم بها وضعها محل التنفيذ. عرض نموذج من اختراعه في معهد بولي تكنيك. كان

المبدأ الدافع أو القوة الدافعة هنا أيضًا مطبقـــا علـــى أسطـــح مقطعة أو ريش تدور. كان عددها أربع، لكنها كانت عقيمة تماما فلم تحرك البالون أو تساعد قوته الصاعدة. لهذا كان المشروع بأكمله إخفاقا تاما.

"من هنا أدرك السيد مونك ماسون (الذي خلقت رحلته من دوفر إلى ويلبرج في المنطاد " ناسو" إثارة كبيرة في ١٨٣٧) فكرة توظيف مبدأ لولب أرخميدس (أداة لولبية تستخدم لرفع المياه) لغرض التسيير عبر الهواء- حيث إنه عزا، عن صحة، فشل خطة السيد هنسون وخطة السير جورج كايلي إلى انقطاعات السطح الانسيابي الحامل في الريش المستقلة. أقام تجربته العامة الأولى في ويليز رووم لكنه نقل بعد ذلك نموذجه إلى معرض أديلايد".

"ومثل بالون السير جورج كايلى كان نموذجه مجسما ناقصا. كان امتداده ثلاثين قدما وستة إنشات، وارتفاعه ستة أقدام وثمانية إنشات. يحتوي على ثلاثمائة وعشرين قدم مربع غاز الذي سيوفر واحدا وعشرين باوندا عند اشتعاله الأول، لو أنه من الأكسجين النقي، قبل أن يتاح للغاز فرصة أن يفسد أو يفر. بلغ ثقل الآلة كلها والمعدات سبعة عشر باوندا، تاركا أربعة باوندات احتياطيا. يوجد تحت مركز البالون إطار من الخشب الخفيف عرضه حوالي تسعة أقدام وموصل بالبالون نفسه بشبكة بالطريقة المعتادة، من هذا الإطار علقت سلة من الأماليد المجدولة أو عربة. اللولب يتكون من محور من أنبوبة نحاسية مجـــوفة، طـــولها ثمـــانية عشـــر إنشا، حيث تمر عبرها، بسبيل شبه

حلزوني ينحدر عند زاوية قدرها خمس عشرة درجة، سلسلة من الأذرع المصنوعة من أسلاك الحديد، طولها قدمان حيث تبرز من الجهتين قدما. هذه الأذرع مربوطة من الطرفين الخارجيين بشريطين من السلك المسطح- حيث يشكّل الكل بهذه الطريقة إطار اللولب، ويكمله غطاء من الحرير المزيت مقطع إلى قطع صغيرة مثلثة الشكل ومحكمة بحيث تقدم سطحًا واحدًا مقبولاً. ويدعم كل طرف من طرفي محور اللولب دعامات من أنابيب الذراع النحاسية التي تنزل من الطوق. وتوجد عند الأطراف السفلية من هذه الأنابيب ثقوب، يدار عليها مرتكز المحور. تخرج من طرف المحور القريب من العربة أسطوانة من الفولاذ تربط اللولب بترس قطعه من الزنبرك المثبت إلى العربة. بتشغيل هذا الزنبرك، يدور اللولب بسرعة عالية لينقل حركة متزايدة لجميع الأجزاء الأخرى. وبواسطة دفة، كانت الآلة توجه إلى أي اتجاه. يمتاز الزنبرك بطاقة عظيمة مقارنة بأبعاده لأنه كان قادرا على رفع خمسة وأربعين باوندا فوق أسطوانة ذات قطر مقداره أربعة إنشات بعد اللفة الأولى ويتزايد تدريجيا أثناء ارتفاعه. يزن كله ثمانية باوندات وست أونسات. إن الدفة عبارة عن إطار خفيف من الصفيح مغطى بالحرير في شكل مضرب البادمنتون، ويبلغ طولها ثلاثة أقدام تقريبا وعرضها قدما ووزنها أونستين تقريبا. يمكن قلبها لتصبح سطحية ويمكن توجيهها إلى أعلى أو إلى أسفل كما إلى اليمين والشمال، وبهذا تسمح للملاح أن ينقل مقاومة الهواء- التي لابد أن

تتولد في الوضع المنحدر- إلى أي جهة قد يرغب. وبهذا يوجه المنطاد إلى الجهة المقابلة".

هذا النموذج (الذي بسبب قلة الوقت وصفناه بالضرورة بطريقة ناقصة) اشتغل في معرض أديلايد، حيث حقق سرعة خمسة أميال في الساعة. ومن الغرابة أنه أثار اهتماما قليلا بالمقارنة بالآلة المعقدة السابقة للسيد هنسون؛ يصبح العالم عنيدا حين يحتقر أي شيء يحمل معالم البساطة. ساد الافتراض أنه من أجل تحقيق أمنية الملاحة الجوية لابد من صنع نموذج معقد تعقيدا كبيرا عن مبدأ عميق ما في ديناميكيته.

مع ذلك، كان السيد ماسون راضيا تماما عن نجاح اختراعه النهائي، بحيث عزم على بناء منطاد على الفور - إذا أمكن - ذي سعة كافية لاختبار المسألة بالقيام برحلة ذات مدى معين، فقد كان الهدف الأصلي عبور القناة البريطانية كما من قبل في منطاد ناسو. ومن أجل تنفيذ هدفه التمس رعاية السير إيفرارد برنجرست والسيد أوسبورن وحصل عليها؛ وهما نبيلان معروفان بسبب براعتهما العلمية، وخاصة بسبب الاهتمام الذي أظهراه في تقدم الملاحة الجوية. وبناء على رغبة السيد أوسبورن، ظل المشروع طي الكتمان عن العامة، والأشخاص الوحيدون الذين وثق بهم كانوا هؤلاء الذين انخرطوا فعليا في بنائه، حيث تم في مركز السيد أوسبورن بالقرب من بنستروثال في ويلز، تحت إشرافه وإشراف السيد ماسون والسيد

هولاند والسير إيفرارد برنجرست. سمح للسيد هنسون برفقة صديقه السيد انسوورث لرؤية المنطاد بشكل خاص يوم السبت الماضي، حيث قام السيدان بترتيبات نهائية لكي يشاركا في المغامرة. لم نعلم سبب اشتراك هذين الملاحين لكن خلال يوم أو يومين سنضع أمام قرّائنا التفاصيل الدقيقة المتعلقة بهذه الرحلة الاستثنائية.

يتكون المنطاد من الحرير، المطلي بالمطاط الصمغي السائل، وهو ذو أبعاد واسعة، ويحتوي أكثر من ٤٠,٠٠٠ قدم مربع من الغاز، لكن بما أنه غاز مجمد استعمل بديلا عن الهيدروجين الأغلى وغير المناسب فلن تزيد القوة الداعمة للآلة عندما يشعل تماما وبعد الاشتعال فورا على٢٥٠٠ باوند. إن الغاز المجمد ليس فقط أقل تكلفة بل هو سهل الاستعمال والتدبير.

نحن ندين للسيد تشارلس جرين بدراسته التمهيدية للقارئ العادي عن الملاحة الجوية. وبناء على اكتشافه لم تكن عملية الاشتعال غالية فقط بل غير أكيدة. ضاع يومان بل ثلاثة أيام في محاولات التموين لتدبير ما يكفي من الهيدروجين لملء المنطاد حيث يميل إلى الهروب بسبب حذاقته المفرطة[١] وألفته للهواء المحيط. وفي منطاد مناسب تماما للاحتفاظ بمحتواه من الغاز المجمد غير المتحول في نوعيته

---

(١) في مصطلحات الكيمياء القديمة، هذا المصطلح يصف الغاز الذي من الصعب اقتفاؤه والتعامل معه أو احتواؤه، وله خصائص غير عادية.

أو كميته لمدة ستة أشهر لن تبقى الكمية نفسها من الهيدروجين في حالة النقاوة المتكافئة لستة أسابيع.

قدرت القوة الداعمة بـــ ٢٥٠٠ باوند، والوزن الكلي للأشخاص يصل فقط إلى حوالي ١٢٠٠، ليتبقى فائض ١٣٠٠، حيث يستهلك ثقل الموازنة ١٢٠٠ مرة ثانية موزعة في حقائب ذات أحجام مختلفة مكتوب عليها أوزانها والبارومتر والتليسكوبات والبراميل التي تحتوي مؤونة أسبوعين وبراميل مياه وعباءات وخرج وأمورا أخرى مختلفة لاغنى عنها تشمل سخان قهوة، اخترع لتسخين القهوة عن طريق استخدام الجير المطفي، بحيث يتم الاستغناء نهائيا عن النار، لو أنه من الحصافة فعل هذا. كل هذه الأشياء باستثناء ثقل الموازنة وأشياء أخرى تافهة معلقة في الطوق فوق الرأس. أما العربة فهي أصغر بكثير وأخف وزنا بالتناسب مع التي ألحقت بالنموذج. فهي مصنوعة من الأماليد المجدولة الخفيفة والقوية قوة مدهشة، بالنسبة لآلة تبدو ضعيفة جدا، يبلغ عمق حافتها الخارجية حوالي أربعة أقدام. كما أن الدفة أيضا أضخم بكثير بالتناسب مع تلك التي كانت في النموذج. واللولب أصغر بكثير. وعـــلاوة على ذلك المنطاد مزود بمرساة، وحبل موجه، وهو ذو أهمية قصوى لا غنى عنه. وهنا يصبح من الضروري تقديم بعض التوضيحات لقرائنا الذين بلا دراية بتفاصيل الملاحة الجوية.

ما إن يترُك المنطاد الأرض حتى يصبح خاضعا لنفوذ عدة، عوامل ظرفية تميل إلى خلق اختلاف في وزنه؛ أي تضخم قوته

الصاعدة أو تصغيرها، فعلى سبيل المثال، قد يكون هناك ترسيب للندى فوق الحرير يصل إلى عدة مئات من الباوندات، حينئذ يجب رمي الصابورة وإلا ستهبط الآلة. وبما أنه تم التخلص من الصابورة، وبخرت أشعة الشمس المشرقة الندى ونشرت في الوقت نفسه الغاز في الحرير فسيصعد مرة أخرى بسرعة. ومن أجل قياس هذا الصعود، يصبح المصدر الوحيد (أو بالأحرى كان حتى اختراع السيد جرين الحبل الموجه) هو هروب الغاز من الصمام، غير أنه يصبح فقدانا عاما يتناسب مع القوة الصاعدة، بحيث في فترة وجيزة نسبيا لابد أن يستنزف أفضل المناطيد تصميما بالضرورة كل مصادره ويهبط إلى الأرض. كانت هذه العقبة العظيمة أمام القيام برحلاته الطويلة.

يعالج حبل التوجيه الصعوبة بأبسط وسيلة واضحة؛ فهو مجرد حبل طويل جدا يترك لكي يتدلى من العربة، وعمله هو أن يمنع المنطاد عن تغيير مستواه لأقل درجة. فلو أن هناك -على سبيل المثال- ترسيبا للرطوبة على الحرير وبدأ المنطاد في الهبوط؛ بالتالي ستنتفي ضرورة التخلص من الصابورة لمعالجة زيادة الوزن لأنها تعالج أو تعادل أو تبطـل بالنسبة نفسها بالضبط، وذلك بأن يتم وضع أو ترسيب على الأرض نفس كمية طرف الحبل. فإذا من جهة أخرى تسبب أي ظرف في إحداث خفة غير مناسبة وبالتالي صعود، تتم معادلة هذه الخفة على الفور بالوزن الإضافي من الحبل المرفوع عن الأرض. هكذا لا يرتفع المنطاد ولا ينخفض إلا في حدود ضيقة جدا

وتظل مصادره سواء من الغاز أو الصابورة صحيحة نسبيا. وعند المرور فوق اتساع من المياه يصبح من الضروري استخدام براميل صغيرة من النحاس أو الخشب مملوءة بصابورة سائلة ذات طبيعة أخف من المياه. تطفو هذه البراميل الصغيرة وتقوم بكل وظائف الحبل على الأرض. وظيفة أخرى مهمة لحبل التوجيه هي تعيين اتجاه المنطاد. يتجرجر الحبل سواء على الأرض أو في البحر أثناء ما يكون المنطاد طليقا، وبالتالي يصبح المنطاد أمامه دوما مع أي تقدم كان يحرزه، لذلك ستعين البوصلة مسار المنطاد دوما عند القيام بمقارنة بين الوضعين النسبيين للشيئين (المنطاد وطرف الحبل). بالطريقة نفسها تدل الزاوية التي يصنعها الحبل مع المحور الرأسي للآلة على السرعة. وعندما لا يشكل الحبل زاوية، بكلمات أخرى، عندما يتدلى الحبل في خط عمودي أو متعامد تكون سرعة الجهاز ثابتة، لكن كلما كبرت الزاوية أي كلما سبق البالون نهاية الطرف كلما زادت السرعة والعكس صحيح.

وبما أن الهدف الأصلي كان عبور القناة الإنجليزية والهبوط بالقرب من باريس بقدر الإمكان، قام المسافرون بالاحتياطات اللازمة لتجهيز أنفسهم بالجوازات الموجهة إلى كل أنحاء القارة محددين طبيعة الرحلة الاستكشافية، كما في حالة رحلة "ناسو" وتخويل المغامرين الإعفاء من الرسميات العادية. مع ذلك وقعت أحداث غير متوقعة جعلت تلك الجوازات غير ضرورية.

بدأ الاشتعال بهدوء شديد مع طلوع النهار، صباح السبت الموافق السادس من الشهر الحالي في ساحة بيت ويل فور، مقر السيد أوسبورن على بعد ميل تقريبا من بنستروثال في شمال ويلز، وعند الحادية عشرة وسبع دقائق، وقد أصبح كل شيء جاهزا للرحيل، انطلق المنطاد وهو يصعد بلطف لكن بثبات في اتجاه الجنوب. ولم يتم استخدام اللولب أو دفة التوجيه خلال النصف ساعة الأولى من ارتفاعه. نواصل الآن مع يوميات الرحلة كما نسخها السيد فورسيز من مخطوط السيد مونك ماسون والسيد أنسوورث. إن متن اليوميات بخط يد السيد ماسون وملاحظة تذييلية كل يوم من السيد انسوورث ستعطي عن قريب الجماهير رواية أكثر تفصيلا وبالتأكيد رواية تشويقية مثيرة للرحلة.

اليوميات

"السبت، الرابع من أبريل - بما أن كل التجهيزات التي قد تسبب لنا الإحراج على الأرجح تمت خلال الليل، فقد بدأنا الاشتعال هذا الصباح مع بزوغ النهار، لكن بسبب ضباب كثيف أحاط بطيات الحرير جعل من الصعب التعامل معه، لم نبدأ قبل حدود الحادية عشرة. حينئذ، أطلقنا سراح المنطاد بمعنويات عالية وارتفعنا بلطف لكن بثبات مع نسمة خفيفة من الشمال حملتنا باتجاه القناة الإنجليزية.

وجدنا أن القوة الصاعدة أعظم مما توقعنا، فأثناء ارتفاعنا إلى الأعلى تجاوزنا الارتفاعات الصخرية الشاهقة وتعرضنا لمزيد من أشعة الشمس فتزايدت سرعة صعودنا. مع ذلك لم أرغب في أن نسرف في الغاز في مرحلة مبكرة هكذا من المغامرة، عليه انتهينا إلى الصعود مؤقتا. فور الانطلاق أدلينا حبل التوجيه. من جهة أخرى حين رفعناه بعيدا عن الأرض كنا مازلنا نرتفع بسرعة جدا. كان المنطاد ثابتا ثباتا غيرعادي وبدا جميلا. أشار الباروميتر خلال عشر دقائق تقريبا من بداية الرحلة إلى ارتفاع قدره ١٥٠٠٠ قدم. كان الجو جميلا ومشهد البلد تحتنا - مشهدا في غاية الرومانسية عند مشاهدته من أي نقطة- كان رائعا بوجه خاص. الممرات العميقة العديدة التي جسدت مشهد البحيرات بسبب التبخر الكثيف التي تمتلأ به، والجزر والصخور إلى الجنوب الشرقي تكدست في اضطراب معقد لا يشبه إلا المدن الضخمة في الحكايات الخرافية الشرقية. كنا نقترب بسرعة من الجبال في الجنوب، لكن ارتفاعنا كان أكثر من كاف بحيث خول لنا المرور بها بأمان، حلقنا فوقها بجمال خلال دقائق قليلة، واندهش السيد انسوورث والملاحان من أن هيئتها تفتقر إلى الارتفاع عند رؤيتها من العربة؛ لأن ارتفاع المنطاد العظيم عمل على تقليص تفاوتات سطح الأرض بالأسفل إلى مستوى الصفر تقريبا. عند الساعة الحادية عشرة والنصف، أثناء تقدمنا تجاه الجنوب، شاهدنا لأول مرة قناة البريستول. وبعد خمس عشرة دقيقة ظهر خط كاسر الأمواج على الساحل تحتنا مباشرة.

عزمنا الآن أن نطلق ما يكفي من الغاز لكي نجعل حبل التوجيه مع العوامة الإرشادية في المياه. قمنا بهذا على الفور وبدأنا في الهبوط تدريجيا. في حوالي عشرين دقيقة انغمست عوامتنا الأولى وعندما لمست الثانية سطح البحر بعد ذلك فورا أصبح ارتفاعنا ثابتا. أصبح الجميع في هذه اللحظة متلهفا على اختبار كفاءة دفة التوجيه واللولب واستعمالهما بهدف تحويل اتجاهنا نحو الشرق أكثر وفي اتجاه باريس. وبواسطة دفة التوجيه أحدثنا التغيير الضروري في الاتجاه واتخذ مسارنا زاوية قائمة تقريبا مع مسار اتجاه الرياح، حينئذ شغلنا زنبرك اللولب وسعدنا عندما وجدناه يدفعنا كما رغبنا. عند هذه المرحلة أطلقنا تسع تحيات وألقينا في البحر زجاجة بها قطعة من الرق تحتوي رواية موجزة عن أصل الاختراع. مع ذلك ما كدنا ننتهي من ابتهاجنا حتى وقع حادث غير متوقع، أحبطنا إحباطا كبيرا. انفك العمود الحديدي الذي يربط الزنبرك الدافع أو الرفاص من مكانه فجأة عند نهاية العربة (بسبب تأرجح العربة عبر حركة ما لواحد أو كل من الملاحين اللذين أخذناهما معا لأعلى) وفي ثانية تعلق متدليا بعيدا عن متناولنا من مرتكز محور اللولب. بينما كنا نحاول استعادته واهتمامنا كله منصبا على هذا الأمر دخلنا تيارا قويا من الرياح يهب من الشرق حملنا بقوة متزايدة سريعا إلى الأطلنطي. سرعان ما وجدنا أنفسنا منحرفين إلى البحر بمعدل لا يقل بالتأكيد عن خمسين أو ستين ميلا في الساعة، بحيث بدت جزيرة مسح الرأس جنوب أيرلندا على بعد أربعين ميلا من

شمال المنطاد قبل أن نثبت العمود ويتاح لنا الوقت للتفكير فيما نحن مقبلون عليه. عند هذه اللحظة اقترح السيد انسوورث اقتراحا استثنائيا لكنه بالنسبة لخيالي وهمي أو غير عقلاني أبدا، أيده على الفور السيد هولاند، وهو: أننا يجب أن نستفيد من العاصفة القوية التي حملتنا، وعوضا عن أن نحاول الرجوع إلى باريس نحاول أن نصل إلى ساحل أمريكا الشمالية. بعد تفكير طفيف وافقت موافقة طوعية على هذا الاقتراح الجرىء الذي لم يلق اعتراضا (للغرابة) سوى من الملاحين فقط. بما أننا الطرف الأقوى سيطرنا على مخاوفهما وواصلنا بعزم في مسارنا. وجهنا الدفة تجاه الغرب لكن بما أن جرجرة العوامة أعاقت فعليا تقدمنا، وبما أننا نستطيع التحكم في البالون سواء صعودا أو هبوطا، رمينا خمسين باوندا من ثقل الموازنة ولففنا (بواسطة مرفاع) القدر من الحبل الذي رفعه تماما عن البحر. سرعان ما جنينا ثمرة هذه المحاولة بتحقيق سرعة متزايدة في التقدم، وبما أن العاصفة تجددت طرنا بسرعة خيالية تقريبا. وأصبح الحبل يطير وراء العربة مثل علم خفاق فوق سفينة. غير جدير بالذكر أن مرور فترة زمنية قصيـــرة جـــدا كـــان كـــافيا لكي نفقد رؤية الساحل. عبرنا فوق عدد لا يحصى من السفن من كل الأنواع حيث إن قليلا منها كان يحاول أن يقتحم الرياح وأغلبها كان خاضعا لها. تسببنا في إثارة قصوى على أسطحها جميعها، إثارة استمتعنا بها استمتاعا عظيما وخاصة الرجلين اللذين كانا تحت تأثير شراب الجن عزما على إلقاء أي شك أو خوف في

مهب الريح. عديد من السفن أطلقت طلقات نارية وكلها حيتنا بهتافات عالية (سمعناها بوضوح مدهش) وبتلويح القبعات والمناديل. تقدمنا طوال اليوم على النحو بدون حادث مهم ومع اقتراب ظلام الليل حولنا قمنا بتقييم تقديري للمسافة التي قطعناها، لم تكن أقل من خمسمائة ميل وكانت على الأرجح أكثر. ظل الرفاص يعمل بثبات وبلا شك ساعد في تقدمنا مساعدة مهمة. مع غروب الشمس تجددت العاصفة وأصبحت إعصارا وأصبح المحيط واضحا تماما أسفلنا بسبب فوسفوريته. هبت الرياح من الشرق طوال الليل ومنحتنا فألا نيرا على النجاح. عانينا معاناة كبيرة من البرد وكانت رطوبة الجو مزعجة، لكن المساحة الفسيحة في العربة سمحت لنا بالاستلقاء وأصبحنا بحالة جيدة مع المعاطف وعدة بطانيات".

"ملاحظة (من السيد أنسوورث). إن الساعات التسع الأخيرة الماضية هي أكثر ساعات حياتي إثارة بما لا يدعو للشك. لا أستطيع أن أتخيل شيئًا أكثر رفعة من الخطر المجهول الكامن في مغامرة مثل هذه. فليمنحنا الله النجاح! أنا لا أسأله النجاح لكي ينجو شخصي التافه، بل من أجل المعرفة الإنسانية- من أجل هول الانتصار. ومع ذلك فإن العمل محتمل إلى حد أن السؤال الوحيد هو لم تردد الإنسان في تجربته من قبل؟ لقد ساعدتنا عاصفة واحدة كهذه- فلتسق عاصفة مثل هذه البالون إلى الأمام لأربعة أو خمسة أيام (هذه العواصف تدوم غالبا أكثر من هذا) وسيُدفع المسافر بسهولة في هذه الفترة من ساحل إلى

ساحل. وبسبب هذه العاصفة يصبح الأطلنطي العريض محض بحيرة. يدهشني الآن فقط الصمت الفائق الذي يسود البحر تحتنا بغض النظرعن هياجه أكثر من أي ظاهرة أخرى. لا ترفع المياه صوتها إلى السماء. ويتلوى المحيط المشتعل الضخم ويتعذب بصمت. توحي الأمواج المتكسرة الشاهقة بفكرة العفاريت الضخمة البكماء العديدة التي تتصارع في كرب عقيم. في ليلة مثل هذه بالنسبة لي يحيا الإنسان- يحيا قرنا كاملا من الحياة العادية ولن أتنازل عن هذه البهجة المعذبة في مقابل قرن كامل من الوجود العادي".

"الأحد السابع عشر (رسالة السيد ماسون): هذا الصباح خفت الرياح عند العاشرة إلى ثمانٍ أو تسع عقد (بالنسبة لسفينة في البحر) تحملنا على الأرجح بسرعة ثلاثين ميلا في الساعة أو أكثر. من ناحية أخرى غيرت اتجاهها نحو الشمال. والآن عند غروب الشمس نحافظ على مسارنا إلى الغرب أساسا بواسطة اللولب والدفة اللذين يلبيان الغرض منهما تلبية تثير الإعجاب. أرى أن المشروع ناجح تماما وملاحة الهواء السهلة في أي اتجاه (ليس بالضبط في مواجهة الرياح) لم تعد معضلة بعد الآن. لم نستطع أن نتقدم في مواجهة الرياح القوية بالأمس، لكن نستطيع أن نفلت من نفوذها بصعودنا إذا تطلب الأمر. وقد اقتنعت أننا نستطيع أن نشق طريقنا بمساعدة الدفة في مواجهة الرياح القاسية. عند الظهيرة في اليوم نفسه صعدنا إلى ارتفاع يبلغ تقريبا ٢٥٠٠٠ قدم بالتخلص من ثقل الموازنة. قمنا بهذا من أجل تلمس تيار

طردي أكثر لكننا لم نجد أي تيار موات مثل الذي يسوقنا الآن. نملك وفرة من الغاز بحيث يأخذنا عبر هذه البركة الصغيرة حتى لو استمرت الرحلة ثلاثة أسابيع. لا يساورني أي خوف بصدد النتيجة. لقد ضخمت الصعوبة تضخيما غريبا وأسيء فهمها. أستطيع أن أختار تياري وإذا ما وجدت أن كل التيارات ضدي أستطيع أن أتقدم في مسار مقبول بمساعدة الدفة. لم نسجل أي حوادث سيئة. ويوحي الليل بالجمال".

"ملاحظة (من السيد أنسوورث): ليس لدي الكثير لأسجله باستثناء حقيقة أنني (وهي مدهشة تماما بالنسبة إليّ) لم أعان على ارتفاع مكافئ لارتفاع بركان كوتوباكسي في الإكوادور، برودة شديدة أو صداعا أو صعوبة في التنفس. ولم أجد أن السيد ماسون أو السيد هولاند أو السير أيرارد أو السيد أوسبورن يشتكون من تقلصات في القفص الصدري لكن سرعان ما تناقص هذا الإحساس. طرنا بمعدل عظيم خلال النهار ولابد أننا قطعنا نصف المسافة عبر المحيط. عبرنا فوق حوالي عشرين أو ثلاثين سفينة من مختلف الأنواع وبدت كلها مندهشة ببهجة. إن عبور المحيط بمنطاد ليس أمرا صعبا في النهاية. إن المجهول رائع دوما. ملاحظة: تبدو السماء على ارتفاع ٢٥٠٠ قدم سوداء تقريبا والنجوم واضحة، بينما لا يبدو المحيط محدبا (كما قد يفترض المرء) بل مقعر [1] مائة في المائة وبجلاء تام".

---

(١) لم يحاول السيد أنسوورث تفسير هذه الظاهرة التي يمكن شرحها مع ذلك، سيشكل خط ساقط من ارتفاع ٢٥٠٠٠ قدم عمودي إلى سطح الأرض أو البحر

الاثنين الثامن عشر (رسالة السيد ماسون) واجهنا هذا الصباح مرة أخرى مشكلة صغيرة مع عمود الرفاص الذي يجب إعادة تصميمه كلية خوفا من أن يتسبب في حادث خطير- أعني العمود الحديدي وليس الريش فلا يمكن تحسينها أكثر من هذا. تهب الرياح بثبات وبقوة من الشمال الشرقي طوال اليوم وحتى الآن لحسن الحظ تبدو أنها تميل لمصلحتنا. في اليوم السابق فقط، شعرنا جميعا بالخطر إلى حد ما من ضجة غريبة ما ورجة في البالون صاحبهما خفوت سريع واضح في أداء الآلة كلها. امتداد الغاز هو الذي تسبب في هذه الظاهرة بسبب ارتفاع حرارة الجو والاضطراب الناجم عن ذلك في جزيئات الثلج الدقيقة التي غطت الشبكة بقشرة ثلجية خلال الليل. رمينا عدة زجاجات للسفن في الأسفل. رأينا سفينة ضخمة تلتقط واحدة منها- سفينة من سفن بريد خط نيويورك المنتظم - حاولنا أن نلتقط اسمها لكننا لسنا متأكدين منه. بيَّن تليسكوب السيد أوسبورن شيئا ما مثل "أطلنطا".

الضلع القائم لمثلث قائم الزاوية، حيث ستمتد قاعدته من الزاوية القائمة إلى الأفق ووتره من الأفق إلى البالون. غير أن ارتفاع ٢٥٠٠٠ قدم هو ارتفاع قليل أو لا يُذكر بالمقارنة مع مدى الأفق. بكلمات أخرى قاعدة المثلث المفترض ووتره سيكونان طويلين جدا عند مقارنتهما بالضلع القائم بحيث سيعتبران بالنسبة له متوازيين تقريبا. بهذه الطريقة سيبدو أفق الملاح على مستوى العربة نفسه؛ بما أن النقطة التي تحته مباشرة تبدو- وهي فعليا على مسافة عظيمة تحته- أيضا بالطبع على مسافة عظيمة تحت خط الأفق. من هنا يتولد انطباع التقعير وسيبقى هذا الانطباع حتى يتناسب الارتفاع طرديا مع الأفق بحيث يختفي التوازي الظاهري لقاعدة المثلث ووتره- عندما يظهر تحدب سطح الأرض الحقيقي. (بو)

الساعة الآن الثانية عشرة ليلا ومازلنا نسيرغربا تقريبا بسرعة كبيرة. البحر فسفوري على نحو فريد.

"ملاحظة (السيد أنسوورث): الساعة الآن الثانية صباحا والهدوء يسود تقريبا بقدر ما أستطيع أن أحكم، لكن من الصعب تحديد هذه النقطة منذ أن تحركنا مع الهواء تماما. لم أنم منذ أن تركنا ويل فور لكني لا أستطيع التحمل أكثر من هذا ويجب أن أغفو قليلا. لا أعتقد أننا نبعد عن الساحل الأمريكي".

"الثلاثاء التاسع عشر (رسالة السيد أنسوورث): الواحدة بعد الظهر. نرى الساحل الجنوبي لكارولينا الجنوبية. تجاوزنا المشكلة العظيمة. عبرنا الأطلنطي - عبرناه بكل ما في الكلمة من معنى وبسهولة في منطاد. الحمد لله! مَنْ يستطيع أن يقول إن هناك مستحيلا بعد الآن؟"

تنتهي هنا اليوميات. مع ذلك نقل السيد أنسوورث بعض تفاصيل الهبوط إلى السيد فورسيث. كان الهدوء المميت يسود عندما تراءى إلى نظر المسافرين للمرة الأولى الساحل الذي تعرف عليه الملاحون على الفور والسيد أسبورن. بما أن السيد أسبورن لديه معارف في فورت مولتري عزم على الفور على الهبوط في موقعها. قادوا البالون فوق الشاطئ (كان المد منحسرا والرمال جافة وناعمة وملائمة تماما للهبوط) ورموا المرساة الذي رسخ على الفور. تدافع سكان الجزيرة والقلعة بالطبع

لرؤية البالون، لكن لم يستطع أي شخص أن يصدق قيام هذه الرحلة الحقيقية إلا بصعوبة قصوى. تم التقاط المرساة في الساعة الثانية بالضبط وبهذا تمت الرحلة كلها في خمس وسبعين ساعة أو أقل بالأحرى محسوبة من الشاطئ إلى الشاطئ. لم تقع حوادث خطيرة. لم يخش من أي خطر حقيقي في أي لحظة. تم تفريغ حمولة المنطاد وتثبيته دون عناء، وعندما أرسلت المخطوطة التي تؤلف منها هذه القصة من تشارلستون كانت الجماعة لاتزال في قلعة مولتري. لم تكن نواياهم بعد أكيدة لكننا نستطيع أن نعد قراءنا ببعض المعلومات الإضافية سواء يوم الاثنين أو خلال اليوم التالي على أقصى حد.

هذه بلاشك أكثر المهمات عجبا وتشويقا وأهمية، التي أنجزها الإنسان أو حاول تجربتها حتى الآن. كم هي رائعة، الأحداث المترتبة على إنجازها، من العبث الآن التفكير في تحديدها مقدما.

فون كيمبلين واكتشافه

بعد الورقة الدقيقة والمحكمة لآرجو، ناهيك عن الملخص في صحيفة *Silliman*، مع البيان التفصيلي الذي نشره الملازم مــوري تو ا، لا يجب أن يتصور القارئ أن هدفي من تقديم ملاحظات سريعة وقليلة فيما يتعلق باكتشاف فون كيمبلين هو تحليل الموضوع من وجهة نظرعلمية؛ بل إن هدفي ببساطة، في المقام الأول، أن أكتب بإيجاز عن فون كيمبلين نفسه (كان لي شرف معرفته معرفة شخصية طفيفة منذ عدة سنوات) بما أن أي شيء يتعلق به يصبح ذا أهمية بالضرورة في هذه اللحظة، وفي المقام الثاني أن أفحص نتائج اكتشافه بطريقة عامة وتأملية.

من جهة أخرى من الممكن أيضًا دحض الملاحظات السريعة التي سأقدمها بحسم بحجة أنه يبدو انطباعا عاما (تكون لدي مما جمعته كما هو الغالب في قضية من هذا النوع من الصحف)، أعني الفكرة العامة بأن هذا الاكتشاف غير مسبوق إذ إنه سبب دهشة عظيمة بلا شك.

بالرجوع إلى "مذكرات السير همفري دافي" (كوتل ومونرو، لندن، ص ١٥٠) سنكتشف في صفحتي ٥٣ و٨٢ أن الكيميائي اللامع لم يسبرغور الفكرة التي نتناولها الآن، بل حقق تقدما بالغ الأهمية، معمليا، في التحليل المتطابق ذاته الذي ألقى الضوء عليه فون كيمبلين

محققا انتصارا كبيرًا، الذي، على الرغم من أنه لم يشر أدنى إشارة إليه، يدين بلا شك (أقول هذا دون تردد وأستطيع إثباته إذا تطلب الأمر) - "للمذكرات" بأول إضاءة، على الأقل، لإنجازه. إنني لا أستطيع أن أمنع نفسي من إلحاق تذييل فقرتين من "المذكرات" مع معادلة من معادلات السير همفري على الرغم من أنها تفصيلة تقنية ضئيلة. (حيث إننا لم نجد أن العلامات الجبرية ضرورية وبما أن "المذكرات" موجودة في مكتبة اثنييم، حذفنا هنا جزءا صغيرا من مخطوط السيد (بو) - المحرر.)(١)

إن الفقرة التي في صحيفة "*Courier &Enquirer*"، التي تتداولها الصحافة الآن تداولا كبيرا، والتي فحواها هو المطالبة بنسب الاختراع إلى السيد قاسيم من برونزوك، ولاية ماين، أعترف أنها تبدو لي فقرة مشكوكًا في صحتها إلى حد ما لعدة أسباب، على الرغم من أن البيان الصادر لا يحتوي على أمر ما مستحيل أو غير مرجح حدوثه أو صحته. لا أرى ضرورة في أن أخوض في التفاصيل. إن رأيي في الفقرة ينصب في الأساس على أسلوبها؛ فهي لاتبدو حقيقية. إن الأشخاص الذين يسردون حقائق نادرا ما يتصفون بالدقة التي أظهرها السيد قاسيم بشأن اليوم والتاريخ والموقع المحدد. علاوة على ذلك، لو أن السيد قاسيم وجد مصادفة فعليا الاكتشاف الذي يقول إنه وجده، في الفترة التي حددها- تقريبا منذ ثماني سنوات- فكيف لم يقم بأي

---

(١) هذه الملاحظة من (بو) نفسه الذي نيلها باسم المحرر.

خطوة، على الفور، لجني ثمار الفوائد الهائلة التي يعرف الشخص الساذج أنه سيجنيها فرديا، ناهيك عن العالم كله من الاكتشاف؟ يبدو لي أمرًا يصدقه عقل تماما أن يكتشف أي إنسان ذى فهم عادي ما يقول السيد قاسيم إنه اكتشفه، ومع ذلك يتصرف فيما بعد، مثل الطفل- مثل البومة تماما- كما يعترف السيد قاسيم. بالمناسبة من هو السيد قاسيم؟ أليست الفقرة في "***Courier & Inquierer***" بأكملها تلفيقا من أجل " فتح باب الكلام"؟ لابد من الاعتراف بأنها خدعة القمر[١]. في رأيي المتواضع إنها فقرة لا يعول عليها كثيرا. ولو لم أكن على دراية، من خبرتي، كيف يضفي رجال العلم الغموض على أبحاثهم عند الإشارة إليهـــا، لكنت أصبت بالاندهاش العميق من أن أجد كيميائيا بارزا مثل البروفيسور درابر يفند ادعاءات السيد قاسيم (أم أنه السيد قويزم؟) بهذه النبرة الجادة.

لكن عودة إلى " مذكرات" السير همفري دافي. لم يصمم هذا الكتيب للقراءة العامة حتى عند وفاة الكاتب، كما يمكن لأي شخص ملم بالتأليف أن يقتنع مع إصلاع سريع فى أسلوب كتابته. ففي صفحة ١٣ على سبيل المثال، في منتصفها تقريبا، نقرأ في إشارة إلى أبحاثه حول الغاز المضحك: " في أقل من دقيقة والأنفاس تستمر، يتلاشى تدريجيا ويتبعه تماثل لضغط لطيف على كل العضـــلات". حقيقـــة أن التنفس لا يتلاشى لا تتضح فقط من السياق التالي بل باستخدام صيغة الجمع.

---

(١) انظر الملاحظة الملحقة لقصة هانز فوول لإدجار (بو) .

إن الجملة كانت لتكون بلا شك على هذا النحو: "في أقل من نصف دقيقة، بما أن التنفس مستمر (تلك المشاعر) تتلاشى تدريجيا ويتبعها (إحساس) مماثل بضغط لطيف على كل العضلات". إن مئات الملاحظات المشابهة توضح أن المخطوطة التي نشرت على هذا النحو من الإهمال كانت محض دفتر ملاحظات خام لها معنى فقط في عين كاتبها، وتصفح الكتيب فقط هو الذي سيقنع أي شخص ذى حصافة بصحة اقتراحي. الحقيقة هي أن السير همفري دافي هو آخر رجل في العالم يورط نفسه في موضوعات علمية. فهو لا يمقت الدجل مقتا عاديا بل كان يخشى خشية مروعة من أن يبدو إمبريقيا. وهكذا بغض النظر عن اقتناعه اقتناعا كاملا أنه يسير على الدرب الصحيح في المسألة محل النقاش، فلم يكن ليتحدث بها علنا حتى يصبح كل شيء جاهزا للعرض العملي. أؤمن تماما بأنه كان سيشعر بالتعاسة لحظاته لو أنه شك أن رغباته في حرق" مذكراته" لن تلقى الاهتمام كما يبدو فعليا. أقول" رغباته" لأنني أعتقد أنه لا مجال في الشك بأنه قصد بها أن تشتمل الأوراق المتنوعة المخصصة "للحرق" دفتر ملاحظاته هذا. وسواء أفلتت من ألهبة النيران لحسن الحظ أو لسوئه، فقد بقيت لكي نراها. وليس لدي أدنى شك أن الفقرة التي اقتبستها في البداية مع الفقرات الأخرى الشبيهة المشار إليها قد أوحت بالفكرة لفون كيمبلين، لكنني أكرر أنه مازلنا نحتاج إلى أن نقرر فيما إذا كان هذا الاكتشاف الخالد في حد ذاته (الخالد تحت أي ظرف) سيخدم البشرية أم

سيضرها. ومن الحماقة أن نشك في أن فون كيمبلين وأصدقاءه الحاليين سيجنون حصادا وفيرا. فسوف يصبحون غير حكماء للغاية إذا لم "يحولوا" في الوقت المناسب القيمة الفعلية له بأن يقوموا بعملية شراء واسعة للبيوت والأراضي والعقارات أيضًا.

في الرواية الموجزة لفون كيمبلين التي ظهرت في "صحيفة *Home*"، وتناقلتها الصحف الأخرى، يبدو أن المترجم ارتكب عدة أخطاء ناجمة عن سوء فهمه للألمانية، وقد اعترف أنه أخذ الفقرة من العدد الأخير من ***Presburg***، فقد أساء فهم معنى كلمة عديد "***viele***" (كما يحدث في الغالب) وما ترجمه المترجم على أنه "محن" هو على الأرجح ***leiden***، التي سوف تعني "معاناة" وستضفي على الرواية بأكملها طبيعة مختلفة، لكن هذا بالطبع مجرد تخمين من جانبي(١).

من ناحية أخرى، فون كيمبلين لا يبدو على الأقل في مظهره أيا ما يكون في حقيقته "مبغضا للبشر". معرفتي به كانت عرضية تماما، ولا أستطيع أن أؤكد أنني عرفته معرفة شخصية بأي حال، غير أن أرى وأتحدث مع رجل حصل على هذه الشهرة، أو سيحصل عليها في عدة أيام أمر ليس هينا كما أسفر عنه الوقت.

تتحدث عنه، ***Literary World***، بيقين، باعتباره مواطنا من برسبرج (لعل الرواية في "صحيفة ***Home***" ضللتها) لكن يسعدني أن

---

(١) لم أستطع أن أجد في أي مرجع عن (بو) توضيحا لهذه الفقرة

بوسعي أن أعلن، بما أنني عرفت ذلك من فمه شخصيا، أنه ولد في أوتكا في ولاية نيويوروك، على الرغم من أن والديه ينحدران من برسبرج على ما أعتقد. للعائلة صلة بمالزيل، ذكرى لاعب الشطرنج الآلي(*) كان قصيرا وقويا بعينين واسعتين منتفختين وشعر رملي اللون وسالفين وفم واسع لكنه لطيف، وبأسنان جميلة وأنف روماني على ما أعتقد. هناك عيب في قدم من قدميه. أسلوبه في الحديث يتّسم بالصراحة، وأسلوبه كله مميز بسبب طبيعته الطيبة. في الإجمال، لا يبدو ولا يتحدث ولا يتصرف مثل "مبغض للبشر" إلا بالقدر نفسه الذي يفعل به هذا كل الرجال الذين رأيتهم. كنا زميلي إقامة في فندق إيرل لمدة أسبوع منذ ست سنوات مضت في رود أيلاند، وأعتقد أنني تحدثت معه على فترات مختلفة وصلت إلى ثلاث أو أربع ساعات في الإجمال. كانت موضوعاته الأساسية تلك التي شغلت الساحة حينها، ولم تبدر عنه هفوة تجعلني أشك في تحصيله العلمي. ترك الفندق قبلي ناويا الذهاب إلى نيويورك ومن ثم إلى برمين؛ وفي هذه المدينة أعلن لأول مرة عن اكتشافه العظيم أو بالأحرى شك، لأول مرة، في أنه اكتشف اكتشافا عظيما. هذا تقريبا كل ما أعرفه شخصيا عن الخالد فون كيمبلين لكنني اعتقدت أنه حتى هذه التفاصيل القليلة ستكون محل اهتمام العامة.

(*) إذا لم نكن مخطئين فإن اسم مخترع الشطرنج كان إما كيمبلين أو فون كيمبلين أو شيئا من هذا القبيل - المحرر.

لا شك في أن معظم الإشاعات الرائعة التي تطفو حول مسألته هي محض تلفيقات تستحق تقريبا ما تستحقه قصة علاء الدين من مصداقية، ومع ذلك من الواضح أن في قضية من هذا النوع - كما في قضية الاكتشافات في كاليفورنيا - الحقيقة أغرب من الخيال. إن القصة التالية موثقة على الأقل بحيث نستطيع أن نصدقها ضمنيا.

لم يكن فون كيمبلين يعيش في وضع مقبول أبدا أثناء إقامته في برمين، وكان يقوم في الغالب، كما هو معروف، بتحايلات لكي يجمع مبالغ تافهة. حين تفجرت الإثارة العظيمة حول الخداع الذي يحدث في بيت جستمث وشركاه، اتجهت الشكوك إلى فون كيمبلين بسبب شرائه عقارًا ضخمًا في جاسبرتش لان، ورفضه عندما سئل لأن يعطي توضيحا كيف أصبح بحوزته أموال الشراء. في النهاية قُبض عليه، لكن بما أنه لم يظهر دليل حاسم ضده أُطلق سراحه في نهاية المطاف. مع ذلك راقبه البوليس رقابة صارمة؛ واكتشف، بناء عليها، أنه يغادر بيته كثيرا حيث يسلك الطريق نفسه ويفلت باستمرار من الذين يراقبونه في ضواحي تلك المتاهة من الممرات الضيقة والمتعرجة الشهيرة باسم "دوندرجات"[١]. أخيرا بفضل فرض رقابة صارمة عليه، اقتفوا أثره إلى علية في بيت قديم يتكون من سبعة مخازن في زقاق يسمى فلاتزبلاتز، وعندما باغتوه، وجدوه، كما تخيلوا، منهمكا في عمليات تزييف. وبدا اهتياجه مفرطا جدا بحيث لم يدع أدنى مجال للشك لدى

(١) تعني هذه الكلمة تقريبا طريق الرعد. *Dondergat*

الضباط في أنه مذنب. وبعد تقييده فتشوا غرفته أو بالأحرى غرفه حيث بدا أنه يشغل كل (*attic*) العلية.

كانت توجد حجرة صغيرة تفضي إلى العلية التي قبضوا عليه بها، حجمها عشرة أقدام في ثمانية، مجهزة ببعض الأجهزة الكيميائية التي لم يتم التحقق من استخداماتها حتى الآن. وفي إحدى زوايا الغرفة الصغيرة فرن صغير جدا بنار مشتعلة وعلى النار بوتقة مزدوجة – بوتقتان متصلتان بأنبوب اختبار – واحدة منهما كانت مليئة بالحديد المنصهر لكنه لم يصل إلى فتحة الأنبوب الذي كان قريبا من حافته. واحتوت البوتقة الثانية على سائل ما بدا عند دخول الضباط أنه يتناثر متبخرا بجنون. وقد رأوا أن فون كيمبلين حين وجد أنه تم القبض عليه قبض على البوتقتين بيديه اللتين كانتا مغطتين بقفازين اتضح فيما بعد أنهما من الأسبستوس[١]، ورمى بمحتواهما على الأرض القرمدية. كانوا قد قيدوا معصميه وقبل أن يواصلوا تفتيش المكان بدقة فتشوا جسده لكنهم لم يجدوا شيئا غير عادي باستثناء قطعة ورق في جيب معطفه تحتوي على ما تم التحقق منه فيما بعد بأنه مزيج من مادة الأنتيمون ومادة مجهولة بكميات متناسبة تقريبية وليست متساوية تماما. أخفقت كل المحاولات التي تمت لتحليل المادة المجهولة حتى الآن، لكن لا شك في أنه سيتم تحليلها في النهاية.

---

(١) الحرير الصخري: معدن لا يحترق ولا يوصل الحرارة ويكون على شكل خيوط تتخذ منها الأقمشة والأدوات غير القابلة للاحتراق

مر الضباط بعد خروجهم من الغرفة الصغيرة مع السجين بغرفة داخلية ما لا تحتوي على شيء مهم إلى غرفة نوم الكيميائي. فتشوا بعض الأدراج والعلب تفتيشا دقيقا لكنهم لم يعثروا إلا على بعض الأوراق التي لا أهمية لها، مثل بعض العملات الجيدة الفضية والذهبية. وجدوا في النهاية بعد أن نظروا تحت السرير حقيبة ثياب وبرية عادية ضخمة بدون مفصل أو مشبك أو قفل وبغطاء ملقى بإهمال إلى الجزء السفلي من الصندوق. عندما حاولوا سحب هذا الصندوق من تحت السرير لم يستطعوا باتحاد قوتهم (كانوا ثلاثة رجال أقوياء) تحريكه إنشا واحدا. زحف واحد منهم تحت السرير وسط دهشتهم ونظر بداخله:

"لا عجب في أننا لم نستطع تحريكه فهو مليء إلى حافته بقطع قديمة نحاسية".

بعد أن وضع قدميه في مواجهة الحائط بحيث يحصل على وسيلة يزيد بها قوته ودفعه بكل عزمه بينما يسحب رفاقه بكل عزمهم، انزلق الصندوق بصعوبة شديدة من تحت السرير وفحصوا محتوياته. كانت قطع النحاس المفترض التي امتلأت بها الحقيبة صغيرة وناعمة، تتفاوت أحجامها من حجم الفاصوليا إلى الدولار المعدني، غير أن شكلها كان غير متناسق، فعلى الرغم من أنها كـــانت مسطحة بشكل أو آخر، بدت إجمالا " كما يبدو الحديد بعد إلقائه على الأرض في حالة منصهرة ليبرد تدريجيا". ولم يشك واحد من هؤلاء الضباط للحظة في

أن هذا المعدن يمكن أن يكون أي شيء آخر سوى نحاس. لم ترد إلى أذهانهم بالطبع فكرة أنه قد يكون ذهبا، كيف يمكن لفكرة خيالية جامحة مثل هذه أن ترد إلى ذهن أي أحد؟ وبالطبع يمكن تصور دهشتهم عندما أصبح معروفا في اليوم التالي في جميع أنحاء برمين أن " ثروة النحاس" التي حملوها باحتقار إلى مكتب البوليس دون أن يكلفوا أنفسهم عناء وضع أصغر قطعة منها في جيوبهم، لم يكن فقط ذهبا- ذهبا حقيقيا، بل ذهب أنقى من أي ذهب استعمل في صك العملات- ذهب في الحقيقة نقي تماما وبكر دون أدنى شائبة!.

لست بحاجة إلى الخوض في تفاصيل اعتراف فون كيمبلين (بقدر ما اعترف) وتصريحه؛ لأن العامة على دراية بها. لن يستطيع أي شخص عاقل الشك في أنه عرف فعليا نظريا وعمليا إن لم يكن حرفيا الحلم المستحيل القديم بالحصول على حجر الفلاسفة. إن آراء آرجو بالطبع تستحق الاهتمام العظيم، لكنه غير معصوم من الخطأ، وما يقوله عن فلز البزموت[1] في تقريره إلى الأكاديمية يجب *cum grano salis* أخذه بشيء من التحفظ[2]. إن الحقيقة البسيطة هي أن كل التحليلات فشلت حتى الآن وسيظل الأمر على وضعه الراهن لسنوات بالتأكيد إلى أن يختار فون كيمبلين منحنا مفتاح حل لغزه المنشور. وكل ما يمكن أن يقال بوضوح مع ذلك هو أنه "يمكن صنع الذهب

---

(١) هذا نوع من الأملاح يستخدم في الأدوية.

(2) With a grain of sault.. حرفيا بحبة ملح

النقي ساعة يشاء المرء، ومن الحديد بسهولة شديدة باتحاده مع مواد أخرى معينة من نوع وبنسب مجهولة".

بالطبع المضاربات على أشدها بالنسبة إلى النتائج الحالية والنهائية لهذا الاكتشاف- الاكتشاف الذي سيتردد قلة من الأشخاص العقلاء في إرجاعه إلى الاهتمام المتزايد بمسألة الذهب عامة بسبب التطورات الأخيرة التي وقعت في كاليفورنيا؛ وهذا التفكير يقودنا حتميا إلى تفكير آخر ألا وهو تحليل فون كيمبلين الذي يأتي في غير وقته تماما. إذا كان قد تم منع العديد من المغامرة إلى كاليفورنيا بسبب الخوف من أن تقل قيمة الذهب بسبب وفرته في مناجمها بحيث جعل من المضاربة على الذهاب إلى هذا الحد بحثا عنه مضاربة غير مضمونة النتائج، فما الأثر الذي سوف يتركه الإعلان عن هذا الاكتشاف الصاعق لفون كيمبلين في عقول هؤلاء الذين كانوا على وشك الهجرة وعلى الأخص في عقول الذين يقطنون المنطقة المنجمية فعليا ؟ الاكتشاف الذي يعلن بالحرف الواحد أنه بعيد عن قيمته الفعلية في الأغراض الصناعية (أيا كانت هذه القيمة) فإن قيمة الذهب الآن أو على الأقل سريعا (لأنه لا يمكن الافتراض أن فون كيمبلين سيحتفظ طويلا بسره) لن تعلو عن قيمة الحديد كثيرا وستقل كثيرا عن قيمة الفضة. من الصعب فعلا توقع نتائج هذا الاكتشاف لكن ثمة شيئا واحدا مؤكدا هو أن الإعلان عن الاكتشاف منذ ستة أشهر كان يمكن أن يكون له تأثير مهم فيما يتعلق باستقرار كاليفورنيا.

أكثر النتائج اللافتة في أوروبا حتى الآن، كان ارتفاعا يبلغ مائتين بالمائة في ثمن الحديد وتقريبا خمسا وعشرين بالمائة في سعر الفضة.

البوح المسمري

أيا كانت الشكوك التي لاتزال تغلف منطقية التنويم المغناطيسي، فحقائقه المروعة معترف بها تقريبا عموما الآن. من بين هؤلاء الذين يشكون، هم أهل مهنتك، وهم قبيلة عديمة الجدوى وسيئة السمعة. لا توجد مضيعة للوقت هائلة، أكثر من محاولة إثبات، في الوقت الحالي، أن الإنسان عبر استعمال إرادته فحسب، يستطيع أن يؤثر في صديقه، فيدفعه إلى حالة غير عادية، تماثل ظاهرتها تماثلا كبيرا ظاهرة الموت، أو على الأقل تماثلها أكثر مما تماثل أي ظاهرة أخرى من حالات عادية تقع ضمن حدود إدراكنا؛ ذاك أنه بينما في هذه الحالة يوظف الشخص المؤثرعليه، بجهد، الأعضاء الخارجية للإحساس فقط، ثم بضعف بعد ذلك، فإنه يدرك أمورا تقع وراء نطاق الأعضاء الجسدية بإدراك مصقول للغاية وعبر قنوات مجهولة؛ وعلاوة على ذلك، ترقى ملكاته العقلية رقيا عجيبا وتنشط؛ ويتعمق تعاطفه مع الشخص الذي ينقله؛ وأخيرا تزداد حساسيته للانتقال مع تكراره، بينما تصبح الظاهرة الخاصة التي تتولد أكثر امتدادا بالنسبة نفسها وقابلة لتجسيدها في كلمات.

أقول إن عرض قوانين التنويم في ملامحها العامة سيكون عجرفة، ولست أنا من أُبلي قرائي بعرض لا حاجة له اليوم. إن هدفي في الوقت الحالي هو هدف مختلف فعليا. فأنا مكره، حتى في مواجهة عالم مجحف، على أن أحكي، دون تعليق، محتوى حديث مميزا جدا وقع بين مستيقظ – نائم وبيني.

اعتدت لفترة طويلة تنويم الشخص الذي أتحدث عنه (السيد فانكيرك) تنويما مغناطيسيا، ونتج عن ذلك أن أصبح حاد الحساسية بالنسبة للإدراك المسمري وقوته كما هو معتاد. رزح لعدة أشهر تحت وطأة مرض السل العضال، وقد شفي من أكثر آثاره إزعاجا عبر معالجاتي اليدوية البارعة، وفي ليلة الأربعاء الخامس عشر من الشهر الحالي، استدعاني للحضور بين يديه وهو على سرير احتضاره.

كان المريض الذي يعاني كل الأعراض العادية للربو، يشعر بألم حاد في منطقة القلب ويتنفس بصعوبة عظيمة. وكان يجد عادة الراحة أثناء نوبات كهذه بوضع الخردل على المراكز العصبية، لكن الليلة لم تنفع هذه المحاولة.

عندما دخلت غرفته حيَّاني بابتسامة مشرقة وعلى الرغم من أنه كان يعاني ألما جسديا كبيرا بوضوح، بدا أن ذهنه في حالة اطمئنان.

قال: "أرسلت إليك الليلة، ليس من أجل أن تعطيني دواء لمرضي الجسدي بقدر ما هو بقصد تهدأتي بشأن انطباعات روحية

سببت لي قلقا ودهشة كبيرين مؤخرا. لا أحتاج إلى أن أقول لك كم أصبحت شكاكا مؤخرا في موضوع خلود الروح. لا أستطيع أن أنكر أنه كانت لدي عاطفة ما غامضة عن وجودها الخاص، كأنني أحملها في الروح نفسها التي أنكرها. غير أن هذه الفكرة العاطفية لم تعلو في أي وقت إلى مرتبة الإيمان. ليس لعقلي شأن بهذا الأمر. فقد أسفرت كل محاولاتي على مستوى البحث المنطقي عن أن أرتاب أكثر من ذي قبل. نصحت بدراسة ***Cousin***، لقد درست أعماله وصدى أعماله في أمريكا وأوروبا. كان ***"Charles Elwood"*** لمؤلفه السيد***Brownson***، على سبيل المثال، لا يترك يديْ. قرأته بانتباه عميق- وجدته منطقيا إجمالا، باستثناء الأقسام التي شملت المجادلات التمهيدية لبطل الكتاب غير المؤمن، حيث خلت من المنطقية المحضة. ففي خلاصته بدا واضحا لي أن "العقلاني" لم ينجح حتى في إقناع ذاته. فنهايته غفلت عن بدايته بوضوح مثل حكم "***Trinculo***"[١]. باختصار لم يمض وقت طويل حتى أدرك أن الإنسان إذا أراد أن يقتنع عقليا بخلوده الخاص فلن تقنعه تماما التجريدات الصرفة التي كانت شائعة بين الأخلاقيين الإنجليز والفرنسيين والألمان فترة طويلة. لعلها تمنح درجة ما من التصديق ونستطيع ممارستها ذهنيا، لكنها لا تثبت في العقل. فهنا فوق الأرض على الأقل أنا مقتنع بأن الفلسفة ستدعونا دوما إلى أن ننظر إلى الكيف باعتبارها شيئًا موجودا. لعل الإرادة تصدّق على هذا، لكن الروح والفكر لن يصدّقا أبدا على هذا.

---

(١) المهرج في مسرحية العاصفة لشكسبير.

أكرر إذن أنني امتلكت شبه شعور ما لكنني لم أصدق عقليا أبدا. لكن حديثا، تعمق هذا الاعتقاد حتى أصبح يماثل إلى حد ما إذعان العقل، بحيث وجدت صعوبة في التمييز بينهما. يمكنني أيضا أن أعزو هذا التأثير إلى نفوذ التنويم المغناطيسي. لن يوضح قصدي أكثر من الفرضية التي تجعل السمو المسمري يمكنني من أن أدرك سلسلة من الاستدلالات المنطقية تقنعني بوجودي غير العادي لكنها لا تمتد إلى حالتي العادية، وهو ما يتوافق مع الظاهرة المسمرية. في اليقظة – النوم، يتجلى معا الاستنتاج (الوقائع والمقدمات) ونتائجه، السبب وأثره. في حالتي العادية بعد أن يختفي السبب يظل الأثر فقط وربما يظل جزئيا فقط.

"هدتني هذه الاعتبارات إلى التفكير في أنني قد أصل إلى بعض النتائج الجيدة إذا طُرحت عليَّ أثناء نومي مغناطيسيا سلسلة من الأسئلة الموجهة توجيها جيدا. لقد لاحظت المعرفة الذاتية التي يظهرها المستيقظ – النائم – المعرفة الكبيرة التي يكشفها في كل المراحل التي تتعلق بالحالة المسمرية في ذاتها، وقد يستدل من هذه المعرفة الذاتية على إشارات لطرح الأسئلة بتوجيه جيد".

وافقت بالطبع على إجراء هذه التجربة. ألقت بعض الحركات اليدوية السيد فانكيرك في النوم المسمري. أصبح يتنفس بسهولة على الفور، كما بدا أنه لم يعد يعاني أي ألم فيزيقي. ثم جرت المحادثة التالية، (ف) في الحوار يمثل المريض، و(ب) يمثلني.

ب: هل أنت نائم؟

ف: نعم – لا. أفضل أن أنام بعمق أكبر.

ب: (بعد عدة حركات يدوية أخرى) هل أنت نائم الآن؟

ف. نعم.

ب. ما هي نهاية مرضك الحالي في رأيك؟

ف. (بعد تردد طويل وكأنه يتحدث بجهد) الموت.

ب. هل توجعك فكرة الموت؟

ف. (بسرعة شديدة) لا، لا!

ب. هل يسرك توقع هذا؟

ف. لو أنني مستيقظ سأحب أن أموت، لكن الآن لا أهمية. إن حالة النوم المغناطيسي قريبة من الموت بحيث إنها تجعلني أشعر بالقناعة.

ب. أود لو أن توضح ما تعنيه يا سيد فانكيرك.

ف. أنا على استعداد، لكنه يتطلب مجهودا أكبر مما أشعر بأنني قادر على بذله. أنت لا تسألني بطريقة صحيحة.

ب. ماذا إذن يجب أن أسألك؟

ف. لابد أن تبدأ من البداية.

ب. البداية! لكن أين البداية؟

ف. تعرف أن البداية هي الله. (قال هذا في نبرة خفيضة ومترددة وذات جلال عميق)

ب. إذن ما هو الله؟

ف. (بعد أن تردد لعدة دقائق): لا أعرف.

ب. أليس الله روحا؟

ف. كنت أعرف ما تعنيه بـ "روح" وأنا مستيقظ، لكن الآن تبدو فقط كلمة - مثل، على سبيل المثال، الحقيقة والجمال- أعني تبدو كيفية.

ب. أليس الله لامادي؟

ف. لا توجد لامادية. إنها محض كلمة. ليست ذات أهمية، أبدا إلا إذا كان الكيف هو شيء.

ب. هل إذن الله مادي؟

ف. لا. (هذه الإجابة أجفلتني جدا)

ب. ماذا إذن يكون؟

ف. (بعد وقفة طويلة، وبتمتمة): أفهم، لكن هذا شيء من الصعب معرفته. (وقفة أخرى طويلة): هو ليس روحا لأنه يوجد. وليس مادة كما تفهمها. هناك تدرج في المادة لا يعرف الإنسان عنه أي شيء؛ يُسيِّر الضخم الدقيق، والدقيق يتخلل الضخم. فعلى سبيل المثال، يسير الهواء العنصر الكهربائي، بينما يخترق الأخير الأول. تزيد تدرجات المادة في الخلخلة أو في الدقة حتى نصل إلى مادة لاجزئية، بدون جزيء - خفية - واحدة. وعند هذه المرحلة يتعدل قانون الاندفاع[1] والنفاذ. لا تخترق المادة النهائية أواللاجزئية فقط جزيئات كل الأشياء بل تسيِّر كل الأشياء. وهكذا هي كل الأشياء في ذاتها. هذه المادة هي الله. إن ما يحاول الإنسان أن يضمه في كلمة " الفكر" هو هذه المادة في حركتها.

ب. يؤكد كل الميتافيزيقيين على اختزال أي فعل إلى حركة وتفكير، وأن الأخير هو أصل الأول.

ف. نعم. وأفهم الآن تشوش الفكرة. الحركة هي فعل العقل وليس فعل التفكير. إن المادة اللاجزئية في سكونها أو الله هي ما يسميه الإنسان العقل بقدر ما نستطيع فهمها. وقوة الحركة الذاتية (التي تكافئ في تأثيرها إرادة الإنسان) هي، في المادة اللاجزئية،

---

(١) الميل التلقائي للفعل، ويطلق على الميل الشديد الذي تسيطر عليه الإرادة فتصدر عنه حركات اندفاعية.

نتيجة وحدتها وسيطرتها الكلية، كيف؟ لا أعرف، وأفهم بوضوح الآن أنني لن أعرف أبدا. لكن المادة اللاجزئية وهي في الحركة بقانون ما أو بالوجود النوعي في ذاتها هي التفكير.

ب. هل يمكنك أن تعطيني فكرة محددة جدا عما تسميه المادة اللاجزئية؟

ف. قلت من إدراك الإنسان للمادة معنى التدرج. فنحن لدينا، على سبيل المثال، الحديد، قطعة الخشب، قطرة الماء، الجو، الغاز، الكلوريد، الكهرباء، الأثير الوضاء. نحن ندعو كل تلك الأشياء مادة، ونضمها كلها في تعريف عام واحـــد، على الرغم من أنه لا توجد فكرتان أكثر تمييزا من تلك التي نربطها بالمعدن وتلك التي نربطها بالأثير الوضاء. فعندما نتناول الثاني، نشعر بميل لا يقاوم لتصنيفه مع الروح أو مع اللاشيئية. إن الاعتبار الوحيد الذي يكبحنا هو تصورنا عن تكوينه الذري، وفي هذا حتى نتلمس المساعدة من تصورنا عن الذرة باعتبارها شيئا يحوز في دقة لامتناهية الصلابة والمحسوسية والوزن. فإذا دمرنا فكرة التكوين الذري، لن نستطيع بعد ذلك أن ننظر إلى الأثير باعتباره كينونة أو على الأقل مادة. وبسبب افتقارنا إلى كلمة أفضل قد نسميه روحا. والآن فلنخطو خطوة بعد الأثير الوضاء، ولننظر إلى مادة أكثر خلخلة بكثير من الأثير كما فعلنا مع الأثير الذي يتصف بأنه أكثر خلخلة من المعدن، فسننتهي

على الفور إلى كتلة فريدة – مادة لا جزئية. فعلى الرغم من أننا قد نعترف بالصغر اللانهائي في الذرات ذاتها، فإن لانهائية الصغر في المسافات فيما بينها أمر سخيف. ستوجد نقطة – ستوجد درجة من الخلخلة التي تختفي عندها المسافات البينية لو أن الذرات عديدة بما يكفي وكتلتها مندمجة كلية. لكن بما أننا نحينا اعتبار التكوين الذري سنجد حتميا أن فهمنا عن طبيعة الكتلة ينتقل بنعومة شديدة إلى ما نفهمه عن الروح. لكن سيكون واضحا أمامنا أنها مادة كلية كما كانت من قبل. الحقيقة هي أنه من المستحيل أن نفهم الروح بما أنه من المستحيل أن نتصور ما لا يكون. عندما نهادن أنفسنا بأننا شكلنا مفهوما عنها فنكون بهذا قد خدعنا أنفسنا فحسب بفكرة المادة المخلخلة خلخلة لانهائية.

ب. يبدو لي أن هناك اعتراضا لا يذلل على فكرة الاندماج المطلق؛ وهو المقاومة الضئيلة جدا التي تعاني منها الأجساد السماوية في دورانها عبر الفضاء، وهي المقاومة التي تم التحقق من وجودها فعليا الآن بدرجة ما، وهي ضئيلة جدا بحيث فلتت ملاحظتها تماما حتى على شخص ذكي مثل نيوتن. نعرف أن مقاومة الأجساد أساسا تتناسب مع كثافتها. إن الاندماج المطلق يعني الكثافة المطلقة. فحيث لا توجد مسافات بينية لا توجد لدونة. فالأثير الكثيف كلية يشكل عائقا ذا تأثير مطلق أمام تقدم نجمة ما أكبر من التأثير الذي قد يشكله أثير الأدمنت أو الحديد.

ف. دحض اعتراضك بسهولة يتناسب تقريبا مع عدم قابليته للدحض الظاهري. فيما يتعلق بتقدم نجم ما، لن يشكل فارقا ما إذا كان النجم يمر عبر الأثير أو أن الأثير يمر عبره. لا يوجد خطأ فلكي غير مبرر أكثر من ذلك الذي يوفق بين بطء تقدم المذنبات المعروف وفكرة مرورها عبر الأثير. لأنه أيا كانت نسبة خلخلة هذا الأثير المفترضة فسوف توقف كل طواف لأي جرم سماوي في مداره في فترة أقصر بكثير من تلك التي اعترف بها الفلكيون الذين حاولوا أن يتغاضوا عن نقطة وجدوا أن من المستحيل فهمها. إن بطء تقدم أي جرم سماوي يحدث، من ناحية أخرى، في النقاط التي يتوقعها الفلكيون بسبب احتكاك الأثير في مساره الفوري عبر المدار. ففي بعض الحالات، تكون القوة المعيقة وجيزة جدا وكاملة في نفسها، وفي حالة أخرى تكون تراكمية تراكما لا نهائيا.

ب. لكن في كل هذا – في تعريف الله بأنه المادة الصرف – ألا يحمل مسحة ما من عدم التوقير؟ (أجبرت على إعادة السؤال على المستيقظ النائم بمعنى مفهوم تماما)

ف. هل يمكن أن تقول لماذا المادة أقل توقيرا من العقل؟ لكنك تنسى أن المادة التي أتحدث عنها هي في كل النواحي "العقل" ذاته أو "الروح" بالنسبة للمذاهب الفكرية، بقدر فهمها لقدراتها الكاملة، وهي علاوة على ذلك– الـ" مادة"– بالنسبة للمذاهب الفكرية في

الوقت نفسه. إن الله، مع كل القوى التي تنسب إلى الروح، ليس إلا كمال المادة.

ب. إذن أنت تؤكد أن المادة اللاجزئية، في حركتها، هي الفكر.

ف. إن هذه الحركة، عامة، هي الفكر الكلي للعقل الكلي. هذا الفكر يخلق. كل الأشياء المخلوقة ليست إلا أفكار الله.

ب. تقول "عامة".

ف. نعم. العقل الكلي هو الله. بالنسبة للأفراد الجدد المادة ضرورية.

ب. لكنك تتحدث الآن عن "العقل" و"المادة" كما يفعل الميتافيزيقيون.

ف. نعم لكي أتجنب إثارة الارتباك. عندما أقول "عقل" أعني المادة اللاجزئية أو المادة النهائية. وبـــ "مادة" أقصد كل شيء آخر.

ب. كنت تقول إن "للأفراد الجدد المادة ضرورية".

ف. نعم، فبالنسبة للعقل، الله هو الوجود اللامتجسد. لخلق الفرد؛ الكينونات المفكرة، كان من الضروري تجسيد أجزاء من العقل الإلهي. لهذا، الإنسان هو كينونة أضفيت عليه صفة الفردية المميزة له. فإذا جرد من الكساء المشترك، سيكون الله. والآن فإن الحركة الخاصة للأجزاء المتجسدة من المادة اللاجزئية هي فكر الإنسان، كما أن الحركة الكلية لها هي فكر الله.

ب. تقول إن التجرد من جسد الإنسان سيكون الله؟

ف. (بعد تردد كثير) لا يمكن أن أكون قلت هذا إنه سخف.

ب. (عائدا إلى ملاحظاتي) قلت إنه "إذا تجرد الإنسان من الكساء المشترك سيكون الله".

ف. وهذا حقيقي. إذا تجرد الإنسان على هذا النحو سيكون الله- سيتجرد من صفة الفردية المميزة له. لكنه لا يستطيع أن يتجرد هكذا، على الأقل لن يتجرد أبدا – وإلا علينا أن نتخيل فعلا لله يعود إلى ذاته – فعلا عقيما وبلا هدف. الإنسان هو مخلوق. والمخلوقات هي أفكار الله. إن من طبيعة الفكر ألا ينسخ.

ب. لا أفهم. تقول إن الإنسان لن يطرح الجسد أبدا؟

ف. أقول إنه لن يكون أبدا بلاجسد.

ب. اشرح.

ف. هناك جسدان، الأولي والكامل يتوازيان مع حالتي الدودة والفراشة. إن ما نسميه "موتا" ليس إلا تحولا مؤلما. إن تجسدنا الحالي تصاعدي وتمهيدي ومؤقت. مستقبلنا خالد ومكتمل ونهائي. إن الحياة النهائية هي الغاية التامة.

ب. لكننا ندرك تحول الدودة إدراكا ملموسا.

ف. نحن، بالتأكيد، لكن ليست الدودة. إن المادة التي يتكون منها جسدنا الأولي هي ضمن الحدود المعرفية لأعضاء الجسد، أو بوضوح أكبر، إن أعضاءنا الأولية مكيفة للمادة التي يتكون منها الجسد الأولي، لكن ليست مكيفة للمادة التي يتكون منها الجسد النهائي. وعليه لا تستطيع حواسنا الأولية إدراك جسدنا النهائي، وندرك فقط الصدفة التي تسقط عن الشكل الداخلي، عن طريق التفسخ، ولا ندرك الشكل الداخلي ذاته، لكن يستطيع أن يدرك هؤلاء الذين أحرزوا فعليا الحياة النهائية هذا الشكل الداخلي والصدفة أيضا.

ب. قلت إن حالة التنويم المغناطيسي تماثل إلى حد كبير الموت. كيف هذا؟

ف. عندما أقول إنه يماثل الموت، أعني أنه يماثل الحياة النهائية، لأنه عندما يتم إدخالي تكون حواس حياتي الأولية معطلة، وأدرك الأشياء الخارجية مباشرة بدون أعضاء عبر وسط سوف أستخدمه في الحياة النهائية غير المنظمة.

ب. غير المنظمة؟

ف. نعم، الأعضاء هي وسائل يدخل الإنسان من خلالها في علاقة حسية مع طبقات وأشكال خاصة من المادة؛ لإقصاء الطبقات والأشكال الأخرى. إن أعضاء الإنسان مهيأة إلى حالته الأولية

ولها فقط. وبما أن حالته النهائية غير منظمة فهي تملك إدراكا غير محدود في كل النقاط إلا نقطة واحدة، طبيعة إرادة الله، بمعنى، حركة المادة اللاجزئية. ستملك فكرة واضحة عن الجسد النهائي بأن تفهمه باعتباره مخا كاملا. هو ليس كذلك، لكن مفهوم هذه الطبيعة سيقربك من فهم ما يكون. ينقل جسد مضيء نبذبة إلى الأثير الوضاء؛ فتولد هذه الذبذبات ذبذبات شبيهة داخل شبكية العين، هذه الذبذبات مرة أخرى تنقل ذبذبات شبيهة إلى العصب البصري؛. ينقل العصب ذبذبات شبيهة إلى المخ، المخ أيضًا ينقل ذبذبات شبيهة إلى المادة اللاجزئية التي تخترقه، إن حركة هذه الأخيرة هي الفكر الذى يمثل إدراكه الموجة الأولى. هذا هو النمط الذي يتواصل به عقل الحياة الأولية مع العالم الخارجي؛ وهذا العالم الخارجي محدود بالنسبة للحياة الأولية، بسبب خصوصية أعضائه. لكن في الحياة النهائية غير المنظمة، يصل العالم الخارجي الجسد بأكمله، (الذي يتكون من مادة ذات شبه بالمخ، كما قلت) بدون أي تدخل يزيد على تدخل أثير ذي كثافة أقل من الأثير الوضاء نفسه بنسبة مطلقة. ولهذا الأثير، انسجام معه، يتذبذب الجسد كله، واضعا المادة اللاجزئية التي يخترقها في حركة. لذلك، بسبب غياب الأعضاء ذات الخصوصية، لابد أن نعزو الإدراك غير المحدود تقريبا الذي يميز الحياة النهائية. فبالنسبة للكينونات الأولية، الأعضاء هي أقفاص ضرورية تحبسها حتى ينبت ريشها.

ب. أنت تتحدث عن "كينونات" أولية. هل توجد كينونات مفكرة أولية أخرى غير الإنسان؟

ف. الكتلة متعددة العناصر من المادة المتخلخلة في السديم والكواكب والشموس، وأجساد أخرى ليست لا سديم ولا شموس ولا كواكب هي لغرض وحيد هو إمداد خصوصية أعضاء الكينونات الأولية اللا نهائية ***pabulum*** بالتغذية. لولا ضرورة الحياة الأولية، لم تكن هناك نجوم تسبق الحياة النهائية. كل منهما يقطنه تنوع مختلف من المخلوقات العضوية والأولية والمفكرة. إجمالا، تتنوع الأعضاء بملامح المكان المسكون. عند الموت أو التحول، هذه المخلوقات، بينما تتمتع بالحياة النهائية، والخلود ومعرفة كل الأسرار إلا السر، تفعل كل الأشياء وتعبر كل مكان بالإرادة المحضة: لا تقطن النجوم التي تبدو لنا الملموسات الوحيدة ومن أجل تزويد ما نحسبه،غفلاء الفضاء المخلوق، بل تقطن هذا الفضاء ذاته- هذه اللانهائية حيث يبتلع الاتساع الجوهري بحق ظلال النجوم، يخفيها عن إدراك الملائكة كأنها لا كينونات.

ب. تقول إنه "لولا ضرورة الحياة الأولية لم تكن هناك نجوم"، لكن لم هذه الضرورة؟

ف. في الحياة اللاعضوية كما في المادة اللاعضوية عامة لا يوجد شيء من شأنه أن يعيق فعل قانون فريد بسيط: الإرادة الإلهية.

لكي تتولد الإعاقة، اخترعت الحياة العضوية والمادة (معقدة وجوهرية ومعيقة للقانون)

ب. لكن مرة أخرى ما هي الحاجة وراء إنتاج هذه الإعاقة؟

ف. إن نتيجة عدم خرق القانون هي الكمال والحق والسعادة السلبية.
نتيجة خرق القانون هى عدم الكمال والخطأ والألم الإيجابي.
عبر العوائق التي يقدمها عدد قوانين الحياة العضوية والمادة وتعقيدهما وجوهريتهما، يصبح انتهاك القانون لمدى معين عمليا. لهذا، يصبح الألم الذي من المستحيل أن يوجد في الحياة غير العضوية، ممكنا في العضوية.

ب. لكن إلى أي غاية جيدة أصبح الألم على هذا النحو ممكنا؟

ف. كل الأشياء إما جيدة أو سيئة نسبيا. سيُظهر التحليل الوافي أن اللذة في كل الأحوال ليست إلا نقيض الألم. السعادة الإيجابية هي محض فكرة. فلكي نشعر بالسعادة في أي وقت يجب أن نكون قد عانينا على قدم المساواة. إذا لم تعان أبدا لن تسعد أبدا. لكن، تبين أن في الحياة غير العضوية لا يمكن أن يكون هناك ألم، لهذا نشأت ضرورة العضوية. إن ألم الحياة الأولية على الأرض هو الأساس الوحيد للسعادة في الحياة النهائية في السماء.

ب. مع ذلك، هناك تعبير لك أجد أن من المستحيل عليَّ فهمه "الاتساع الجوهري بحق للانهائية".

ف. هذا على الأرجح بسبب أنك لا تملك مفهوما وافيا عن مصطلح "الجوهر". لا يجب أن ننظر إليه باعتباره صفة بل عاطفة، إنه إدراك الكينونات المفكرة لتكيف المادة مع بعضها. هناك أشياء عديدة على الأرض ستكون عدما بالنسبة لسكان المريخ، وأشياء عديدة مرئية وملموسة في المريخ لن نستطيع إدراك وجودها أبدًا. لكن بالنسبة للكينونات غير العضوية- للملائكة- كل المادة اللاجزئية هي الجوهر، بمعنى أن كل ما نسميه "فضاء" هو بالنسبة لها الجوهرية بحق، إن النجوم في الوقت الحالي، عبر ما نعتبره ماديتها، لايدركها الحس الملائكي، بالضبط كما يفوت الحس العضوي المادة اللاجزئية بسبب ما نعتبره لاماديتها.

بينما ينطق المستيقظ – النائم تلك الكلمات الأخيرة في نبرة ضعيفة لاحظت على ملامحه تعبيرًا فريدًا أنذرني بالخطر وحثني على أن أوقظه على الفور. ما إن فعلت هذا سقط على مخدته بابتسامة مشعة تضيء كل ملامحه ومات. لاحظت أن في أقل من دقيقة بعد موته أصبحت الجثة صلبة صلابة الحجر. كان جبينه باردا برودة الثلج. يبدو أن هذا ما يحدث بشكل عادي بعد ضغطة طويلة من يد عزرائيل. هل كان المستيقظ – النائم خلال القسم الأخير من كلامه يخاطبني حقا من منطقة الظلال؟

الحقائق في قضية م. فالديمير

بالطبع لن أدعي أن ما أثارته قضية م. فالديمير من جدل أمر يثير الدهشة. كانت ستعد معجزة إن لم تفعل هذا لاسيما في ظل ظروفها الخاصة. فبسبب رغبة كل الأطراف المعنية بالإبقاء على المسألة بعيدا عن العامة، على الأقل للوقت الحالي، أو حتى تتاح لنا فرص إضافية لبحثها – وبسبب كل مساعينا لتحقيق هذه الرغبة، وجدت رواية مبتورة أو مبالغ فيها طريقها إلى المجتمع وأصبحت مصدرا للعديد من التحريفات المزعجة، وبديهيا مصدرا لقدر كبير من التجديف.

الآن، أصبح ضروريا أن أعرض الحقائق، بقدر ما أنا نفسي أفهمها. ها هي الحقائق باقتضاب:

جذب انتباهي السنوات الثلاث الماضية موضوع التنويم المغناطيسي تكرارا، وخطر لي منذ تسعة أشهر مضت، فجأة تماما أن في سلسلة التجارب التي أجريت حتى الآن، تم حذف صاعق وغير مبرر إلى أقصى حد: فلم يتم تنويم شخص حتى الآن وهو ***articulo mortis*** في قبضة الموت. يظل أن نرى، أولا، فيما إذا توجد في

المريض، في هذه الحالة، قابلية للتأثير المغناطيسي، ثانيا، إذا كانت موجودة، فيما إذا تزيد أو تضعف بسبب الحالة، ثالثا، إلى أي مدى أو كم تطول الفترة التي قد تحتجز فيها العملية الموت. كانت هناك نقاط أخرى للتحقق منها، لكن تلك النقاط أثارت فضولي إلى أقصى حد- الأخيرة على وجه الخصوص، بسبب خاصية تبعاتها المهمة أهمية قصوى.

عندما بحثت حولي عن شخص ما لأختبر تلك التفاصيل، هداني تفكيري إلى صديقي م. إرنست فالديمير مؤلف "موسوعة الطب الشرعي" المعروف، ومؤلف النسخ البولندية *Wallenstein, Gargantua* [1] (تحت اسم مستعار بسكار ماركس). إن السيد م. فالديمير الذي كان يقطن أساسا في هارلم، نيويورك، منذ عام ١٨٣٩، شخص لافت للنظر على وجه الخصوص بسبب التميز الشديد في خصائص جسده؛ فأطرافه السفلى شبيهة بأطراف جون راندولف، وبياض سبلته التي تتناقض تناقضا صارخا مع سواد شعره، الذي يمكن أن يظنه المرء خطأ أنه شعر مستعار. كان عصبي المزاج بشكل لافت للنظر؛ وهذا جعل منه شخصا مناسبا لتجربة التنويم المغناطيسي. أنمتُهُ بصعوبة قليلة في مرتين أو ثلاث، لكنه أصابني بخيبة أمل في النتائج الأخرى التي جعلني تكوينه الخاص أن أتوقعها. لم تكن إرادته في أي وقت

---

(1) *Wallenstein* اسم مسرحية للكاتب الألماني لتشيلر
Gargantua اسم رواية للكاتب الفرنسي رابليه

تماما أو كلية تحت سيطرتي؛ ولم أستطع أن أحقق نجاحا في صقل إدراكه يمكن التعويل عليه. عزوت فشلي دائما في تلك النقاط إلى صحته المضطربة؛ فقبل عدة أشهر على معرفتي به، أعلن أطباؤه أنه مريض بسل عضال. كانت عادته فعليا أن يتحدث عن موته القريب بهدوء باعتباره أمرا لا يمكن تجنبه ولا يمكن أن يأسف عليه.

عندما خطرت على بالي الأفكار التي أشرت إليها في البداية، كان بديهيا أن أفكر بالسيد فالديمير، لقد عرفت رباطة جأشه الراسخة، بحيث لم أخش منه أي تردد؛ كما أن لا أقارب له في أمريكا قد يتدخلون في الأمر. تحدثت إليه بصراحة عن الموضوع، ولدهشتي، بدا أنه أثار اهتمامه إثارة شديدة- أقول لدهشتي لأنه على الرغم من أنه ترك جسده طواعية لتجاربي، لم يمنحني أي إشارة تدل على تعاطفه مع ما كنت أفعل - كان مرضه من ذلك النوع الذي يسمح بإجراء حسابات دقيقة لموعد انتهائه (المرض) بالموت. ورتبنا فيما بيننا على أن يرسل إليَّ قبل الفترة التي يعلن أطباؤه أنها فترة احتضاره بأربع وعشرين ساعة.

لقد مر أكثر من سبعة أشهر على الأحرى منذ أن تلقيت من السيد فالديمير نفسه الملاحظة التالية:

"عزيزي ب --، تستطيع أن تحضر الآن. د - وف - اتفقا على أنني لن أعيش إلى ما بعد منتصف ليل الغد وأعتقد أنهما مصيبان في الوقت إلى حد كبيرًا.

تلقيت هذه الملاحظة خلال نصف ساعة من كتابتها؛ وفي خلال خمس عشرة دقيقة كنت في غرفة الرجل المحتضر. لم أكن قد رأيته منذ عشرة أيام، وروعني التحول المخيف الذي حدث له في الفترة الزمنية القصيرة التي لم أره خلالها، اكتسى وجهه لونًا رماديًا، وكانت عيناه مطفأتين تماما، وأصابه نحول شديد حتى إن عظمتي وجنتيه اخترقتا جلد وجهه. وكان بصاقه كثيرا. وبالكاد يمكن تبين نبضه. مع ذلك احتفظ بكل من قواه العقلية ودرجة معينة من قوته الجسدية بشكل استثنائي. تحدث بوضوح، وقد أخذ بعض المهدئات بدون مساعدة، وعندما دخلت إلى الغرفة كان مشغولا بتخطيط بعض الوثائق القانونية في محفظة ورقية. وكان متكئا إلى وسائد ساعدته على الجلوس في سريره. والطبيبان حاضران.

بعد أن سلمت على فالديمير انتحيت جانبا بهذين السيدين وحصلت منهما على تفصيل دقيق بحالة المريض، كانت الرئة اليسرى في حالة شبه عظمية أو غضروفية منذ ثمانية عشر شهرا، وبلافائدة بالطبع في أداء أي نشاط حيوي. جزئيا أيضًا كان الجزء العلوي من الرئة اليمنى عظميا، بينما الجزء السفلي منها محض كتلة من الأدران المتقيحة التي تسيل الواحدة على الأخرى، وبه عديد من الثقوب الشديدة، وعند نقطة من الرئة حدث التصاق دائم بالأضلاع. إن المظاهر في الفص الأيمن حديثة العهد نسبيا، تسارعت عملية العظمية بسرعة غير عادية، لم يكتشفا أي علامة عليها من قبل شهر، ولاحظا الالتصاق خلال الأيام

الثلاثة السابقة فقط. بعيدا عن السل، كان المريض عرضة لتمدد الشريان الأورطي. لكن هذه المرحلة، منعت أعراض التعظم القيام بتشخيص دقيق. كان رأي الطبيبين أن السيد فالديمير سيموت حوالي منتصف ليل الغد (الأحد). كانت الساعة حينها السابعة من مساء السبت.

عندما تركت مكاني بجوار سرير المريض العضال لأجري حديثا مع نفسي، قام الطبيبان بتوديعه وداعا نهائيا. لم يكن في نيتهما العودة إليه مرة أخرى لكن بناء على طلبي وافقا أن يفحصا المريض في حوالي الساعة العاشرة من الليلة التالية.

عندما رحلا، تحدثت بحرية مع السيد فالديمير حول موضوع موته القريب، كما تحدثت عن التجربة المقترحة بخصوصية أكبر. مازال يرغب تماما بل متشوقا لإجرائها وحثني على أن أبدأها على الفور. كان يوجد ممرض وممرضة معنا، لكنني لم أجد نفسي حرا تماما للانخراط في مهمة من هذا النوع بدون شهود أكثر ثقة من هذين، في حالة ما نتج عن هذه التجربة حادث مفاجئ؛ لذلك أجلت الإجراءات إلى الساعة الثامنة من الليلة القادمة، حيث حررني وصول طالب طب لي معرفة به (السيد. تيودور ل ---) من مزيد من الإحراج. كان مخططي في الأساس أن أنتظر حضور الطبيبين، لكن أغراني أن أتابع التوسلات الطارئة للسيد فالديمير أولا، وثانيا، اقتناعي بأنه لا توجد لحظة لأضيعها، بما أنه كان ينهار بسرعة.

كان السيد ل — ي لطيفا حيث قبل رغبتي فى أن يسجل كل ما يحدث، إن ما أحكيه الآن من دفتر ملاحظاته في جزئه الأكبر سواء كان مكثفا أو *verbatim* منقولا حرفيا.

كانت الثامنة إلا خمس دقائق، عندما أخذت يد المريض وسألته أن يذكر بما يستطيع من وضوح للسيد ل — ما إذا كان (السيد فالديمير) على استعداد تام أن أجري تجربة التنويم المغناطيسي عليه في حالته حينئذ أم لا.

أجاب بضعف لكن بصوت مسموع تماما: "نعم أرغب في أن يتم تنويمي مغناطيسيا"، وأضاف بعد ذلك على الفور: "أخشى أنك أجلتها طويلا".

بينما يتحدث هكذا، بدأت حركت يدي التي وجدت أنها أكثر فاعلية في تهدئته. كان واضحا أنه تأثر بالضربة الطرفية الأولى ليدي عبر جبينه، لكن على الرغم من أنني بذلت كل قواي، لم ينتج أثر واضح إضافي حتى العاشرة وبعض دقائق حين جاء الطبيبان د--- وف--- طبقا للميعاد، شرحت لهما في عدة كلمات ما انتويته، وبما أنهما لم يعترضا لأن المريض يعاني فعليا سكرات الموت واصلت بدون تردد، وقد أبدلت من ناحية أخرى الحركات اليدوية الجانبية بحركات سفلية وموجها نظرتي تماما إلى العين اليمنى من المريض.

في هذا الوقت كان نبضه خافتا إلى حد كبير وتنفسه غطيطيا وعلى فترات زمنية تصل إلى كل نصف دقيقة.

لم تتغير هذه الحالة تقريبا لربع الساعة. ومع انتهاء هذه الفترة، من ناحية ثانية فلتت من صدر المحتضر تنهيدة طبيعية غير أنها عميقة جدا وتوقف تنفسه الغطيطي، بمعنى لم يعد الغطيط ظاهرا، لكن لم تقل الفترات الزمنية بين تنفسه. كانت أطراف المريض باردة برودة الثلج.

في الحادية عشرة إلا خمس دقائق، رأيت إشارات جلية على تأثير التنويم المغناطيسي. تغيرت حركة العين المتقلبة الزجاجية لذلك التعبير الذي يدل على فحص داخلي قلق لايرى إلا في حالات النوم- اليقظة، والذي من المستحيل إساءة فهمهما. بعدة حركات يدوية جانبية جعلت الجفنين يرتعشان كما يحدث في المرحلة الأولى من النوم ومع بضع أخرى أغلقتهما تماما. مع ذلك لم أكتف بهذا بل واصلت الحركات بقوة وبكامل إرادتي حتى خشبت الأطراف تماما بعد أن وضعتهما في موضع سهل. كانت الساقان ممتدتين، والذراعان كذلك تقريبا وموضوعتين على السرير على مسافة متوسطة من أعضائه التناسلية. كان الرأس مرفوعا قليلا.

عندما أنجزت هذا كان منتصف الليل قد حل تماما، وطلبت من السيدين التقدم لفحص حالة السيد فالديمير. وبعد أن قاما بفحصه اعترفا أنه في حالة رائعة غير طبيعية من الغشية المسمرية. أثير فضول

الطبيبين إثارة عظيمة. قرر د. د---- على الفور أن يبقى مع المريض طوال الليل، بينما غادر د. وف- بوعد أن يعود مع بزوغ النهار. ظل السيد ل — و الممرضان.

لم نزعج السيد فالديمير أبدًا، حتى الساعة الثالثة في الصباح حين اقتربت منه ووجدته في الحالة نفسها بالضبط التي كان عليها عندما غادر د. وف ----، بمعنى أنه كان يرقد في الوضع نفسه، والنبض خافتا إلى درجة كبيرة، والتنفس لطيفا (لا يمكـن مـلاحظته إلا عبر وضع مرآة بالقرب من الشفتين) والعينان مغلقتين بطبيعية والأطراف قاسية للغاية وباردة برودة الرخام. غير أن مظهره الخارجي لم يكن بالتأكيد يعكس مظهر الموت.

عندما اقتربت من السيد فالديمير بذلت نوعا ما من المجهود القليل لكي أؤثر على ذراعه اليمنى لتلاحق ذراعي حيث مررت الأخيرة ريحة وجيئة فوق جسده. لم أنجح تماما في هذا الإجراء مع المريض من قبل ولم أظن أنني سأنجح الآن، لكن لدهشتي تبعت ذراعه بسهولة شديدة، وإن كان بضعف، كل اتجاه عينته بذراعي. قررت أن أجازف بتوجيه بعض الكلمات إليه.

قلت: "سيد فالديمير، هل أنت نائم؟" لم يُجب لكني رأيت رعشة حول شفتيه وكان بهذا يحضني على أن أكرر السؤال ثانية وثانية. عند ثالث مرة، هزت رعشة خفيفة جسده كله، ارتفع جفناه بقدر ما أظهرا

خطا أبيض من مقلتيه. تحركت شفتاه ببطء ومن بينهما في همس مسموع بالكاد خرجت الكلمات "نعم، نائم الآن. لا توقظني! دعني أموت هكذا!"

لمست هنا الأطراف ووجدتها قاسية كما كانت من قبل. وأطاعت الذراع اليمنى اتجاه يدي. سألت النائم- المستيقظ مرة أخرى:" هل مازلت تشعر بألم في صدرك يا سيد فالديمير؟"

جاءت الإجابة فورية هذه المرة، لكن أقل وضوحا من قبل:

"لا ألم، أنا أموت!"

رأيت أن من الأفضل ألا أزعجه أكثر في ذلك الحين، ولا يوجد شيء يمكن قوله أو فعله حتى وصول د. وف---، الذي جاء قبل شروق الشمس بقليل وعبَّر عن دهشة عارمة عندما وجد المريض على قيد الحياة. بعد أن جس النبض ووضع مرآة بالقرب من شفتيه سألني أن أتحدث إلى النائم – المستيقظ مرة أخرى. فعلت هذا قائلا:

"سيد فالديمير، هل مازلت نائما؟"

كما من قبل، مرت عدة دقائق قبل أن يجيب، وخلال تلك الفترة بدا أن المحتضر يستجمع قواه ليتحدث. عند تكراري الرابع السؤال، قال بضعف شديد، بصوت غير مسموع تقريبا:

"نعم، مازلت نائما – أموت".

حينها رأي الطبيبان أو بالأحرى عبرا عن رغبتيهما فى أن نترك السيد فالديمير دون أن نزعجه في حالته الهادئة البادية حتى يغلب الموت، وتم الاتفاق على أن هذا سيحدث خلال دقائق قليلة. من ناحية ثانية، انتهيت إلى أن أتحدث إليه مرة واحدة أخرى وأن أكرر فحسب سؤالي السابق.

بينما كنت أتحدث، حدث تغير ملحوظ على ملامح النائم – المستيقظ. دارت العينان ببطء وانفتحتا حيث كانت الحدقتان مختفيتين للأعلى، واكتسب الجلد عامة مسحة لون شبيهة بالجيفة، حيث كان يشبه لون الرق أكثر مما يشبه الورقة البيضاء، ورحلت البقع الحمراء لمرض السل التي كانت من قبل واضحة المعالم في منتصف كل وجنة من وجنتيه. أستخدم هذا التعبير (رحلت) لأن بغتة رحيلها جعلتني لا أفكر إلا في شيء يشبه كثيرا انطفاء لهيب شمعة بنفخة نفس. في الوقت نفسه، التوت الشفة العليا بعيدا عن الأسنان التي كانت مغطاة تماما من قبل، وبينما سقط الفك السفلي بطقطقة مسموعة، حيث ترك الفم ممتدا امتدادا واسعا وكشف تماما اللسان المبلوع والمسود. أظن أن لا أحد من المجموعة الحاضرة حينئذ لم يكن غير معتاد على أهوال الاحتضار، لكن كان مظهر السيد فالديمير شنيعا شناعة تجاوزت المعروف في تلك اللحظة بحيث انكمش الجميع بعيدا عن منطقة السرير.

أشعر أنني وصلت الآن إلى مرحلة من هذا السرد، حيث سيجفل كل قارئ إلى عدم التصديق تماما. مع ذلك شغلي الشاغل هو أن أواصل سردي ببساطة.

لم تعد هناك أدنى إشارة على حيوية السيد فالديمير، وبما أننا انتهينا إلى أنه ميت أودعناه رعاية الممرضين حين لاحظنا حركة تذبذبية قوية في لسانه. استمر هذا لعدة دقائق على الأرجح. ومع انتهائها صدر من الفك المنبسط والجامد صوت - صوت من الجنون أن أحاول وصفه - هناك بالفعل صفتان أو ثلاث يمكن اعتبارها تنطبق عليه جزئيا؛ فقد أقول إن الصوت بمعنى الحركات والحروف على سبيل المثال أجش ومتهدج وأجوف، لكن لايمكن وصف شناعته الكلية لسبب بسيط هو أنه لا توجد أصوات شبيهة له أصرت على الأذن الإنسانية أبدا من قبل. مع ذلك هناك سمتان فريدتان اعتقدت حينها ومازلت أعتقد أنه يمكن اعتبارهما تميزان طبقة الصوت، كما أنهما صالحتان لنقل فكرة ما عن خصوصيته غير الأرضية. في المقام الأول: بدا أن النغمة تصل إلى أسماعنا، على الأقل إليّ، من مسافة بعيدة أو من كهف غائر داخل الأرض. في المقام الثاني: الانطباع الذي كونه عندي (أخشى فعليا من أنني من المستحيل أن أكون مفهوما) أنه يشبه مواد هلامية أو غروية تؤثر في حاسة اللمس.

تحدثت عن "الصوت" و"جهورية الصوت" على السواء. أقصد أن أقول إن الصوت كان من الأصوات ذات المقاطع اللفظية المميزة

بل حتى مميزة تمييزا رائعا ومخيفا. تحدث السيد فالديمير، إجابة على السؤال الذي وجهته إليه منذ دقائق قليلة على ما يبدو. فقد سألته، تتذكرون، إذا كان لايزال نائما. قال الآن:

" نعم. لا. كنت نائما والآن، الآن، أنا ميت".

لم يحاول أي شخص حاضر أن ينكر أو أن يقمع الرعب الهائل والمروع الذى نجحت هذه الكلمات التي نُطقت على هذا النحو في نقله. السيد ل ---ي (الطالب) شعر بحالة من الغثيان الشديدة. ترك الممرضان الغرفة على الفور ولم يغرهما أي شيء بالعودة إليها. ولن أدعي أن أجعل انطباعاتي ملموسة للقارئ. انهمكنا ساعة تقريبا، بصمت، دون أن ننبس بكلمة، في محاولات إسعاف السيد ل ---ي. وبعد أن استعاد وعيه، توجهنا مرة أخرى إلى فحص حالة السيد فالديمير، والتي ظلت على كل النواحي كما شرحتها من قبل، باستثناء أن المرآة لم تعد تقدم دليلا على التنفس. وفشلت محاولة سحب الدم من ذراعه. يجب أن أذكر أيضا أن هذه الذراع لم تعد تخضع لإرادتي. حاولت عبثا أن أجعلها تتبع اتجاه يدي. وفعليا المؤشر الوحيد الحقيقي على تأثير التنويم المغناطيسى كان في حركة اللسان التذبذبية حينما أوجه سؤالاً للسيد فالديمير، بدا أنه يبذل مجهودا ليجيب، لكن لم يكن يملك ما يكفي من الإرادة. بدا غير شاعر أبدا بأي سؤال وجهه إليه أي شخص آخر غيري، على الرغم من أنني سعيت إلى أن أربط كل شخص من الصحبة رباطا مغناطيسيا معه. أعتقد أنني رويت كل ما هو ضروري

لفهم حالة النائم – المستيقظ عند هذه المرحلة. استدعينا ممرضين آخرين، وعند العاشرة تركت المنزل بصحبة الطبيبين والسيد ل—ي.

ذهبنا مرة أخرى بعد الظهر لكي نرى المريض. ظلت حالته تماما كما هي. تناقشنا حينها حول ملاءمة ومعقولية إيقاظه، لكننا اتفقنا على أننا لن نحقق أي هدف جيد من فعل هذا. كان واضحا أن عملية التنويم المغناطيسي، حتى الآن، حاصرت الموت. بدا واضحا لنا جميعا أن إيقاظ السيد فالديمير لن ينتج عنه إلا توكيد انحلاله الحالي أو على الأقل التسريع منه.

منذ ذلك اليوم وحتى نهاية الأسبوع الماضي- فترة تصل إلى سبعة أشهر تقريبا- واصلنا زيارة بيت السيد فالديمير يوميا، بصحبة أصدقاء من الأطباء وغيرهم بين الحين والآخر. ظل النائم – المستيقظ بالضبط كما وصفته من قبل. واستمرت رعاية الممرضين له.

توصلنا في النهاية يوم الجمعة الماضي إلى أن نجري تجربة إيقاظه أو نحاول أن نوقظه. و(لعل) النتيجة المؤسفة لهذه التجربة الأخيرة هي التي ولدت هذا الجدال الكبير في الدوائر الخاصة، ولدت كثيـــرا ممـــا لا أستطيـــع أن أمنـــع نفسي عن اعتباره شعورا عاما لامبرر له.

استخدمت الحركات اليدوية الاعتيادية لكي أوقظ السيد فالديمير من الغشية المسمرية. وأسفرت عن فشل لبعض الوقت. كان المؤشر الأول

على استيقاظه هو الهبوط الجزئي للحدقة. لاحظنا، باعتباره أمرا لافتا للنظر على وجه الخصوص، أن هذا الهبوط لقزحية العين صاحبه انبعاث وفير لمهل مصفر[١] (من تحت الجفنين) ذو رائحة حادة وكريهة جدا.

اقترح من معي أن أحاول أن أؤثر على ذراع المريض كما فعلت من قبل. قمت بالمحاولة وفشلت. أبدى د. ف – حينئذ رغبته في أن أطرح سؤالا، ففعلت كما يلي:

"هل تستطيع أن تشرح لنا ما مشاعرك أو رغباتك الآن؟"

عادت دوائر حمى السل على الفور على وجنتيه، وارتعش اللسان أو بالأحرى التوى بعنف في فمه (على الرغم من أن الفكين والجفنين ظلوا قاسيين كما من قبل) وفي النهاية صدر الصوت الشنيع نفسه الذي وصفته بالفعل:

"من أجل الله! بسرعة، بسرعة، أنمني أو بسرعة أيقظني بسرعة أقول لك إنني ميت"

توترت أعصابي تماما وبقيت للحظة لا أستطيع أن أقرر ماذا أفعل. في البداية حاولت أن أعيد للمريض رباطة جأشه، لكن بعد أن فشلت بسبب تعليق كامل لإرادتي، عدت إلى البداية وناضلت جديا لكي أوقظه. في هذه المحاولة رأيت أنني عاجلا سأنجح أو على الأقل تعجلت

---

(١) سائل رقيق ينبعث من قرحة أو جرح.

في أن أتصور أن نجاحي سيكون كاملا، وأنا متأكد أن كل من فى الغرفة كان مستعدا لأن يرى المريض مستيقظا.

مع ذلك إن ما حدث حقا من المستحيل تماما أن يكون أي إنسان مستعدا له.

بينما كنت أقوم بالحركات اليدوية المسمرية بسرعة وسط هتافه "ميت، ميت"، الذي ينفجر من اللسان تماما وليس من الشفتين، هيكله الجسدي كله مرة واحدة، خلال فترة دقيقة واحدة أو أقل، تقلص، تفتت، واهترأ تماما تحت يدي. وفوق السرير، أمام الصحبة كلها كان يرقد كتلة سائلة من العفونة الكريهة – من العفونة لاذعة الرائحة.

حكاية شهرزاد الثانية بعد الألف[1]

الحقيقة أغرب من الخيال– مثل قديم

بما أن الفرصة قد أتيحت لي مؤخرا أثناء قيامي ببعض الأبحاث الشرقية أن أراجع "أخبرني الآن هل هكذا الأمر أم لا"، وهو الذي لا يكاد يكون معروفا (مثل كتاب "زوهار" لسيمون جوشادس[2]) أبدا حتى في أوروبا، والذي لم يقتبس منه أبدا على حد علمي أي أمريكي، إذا ما استثنينا على الأرجح مؤلف عمل " غرائب الأدب الأمريكي" – أقول بما أن الفرصة قد أتيحت لي لكي أتصفح بعض صفحات العمل المميز الذي ذكرته في البداية، لم تكن دهشتي قليلة حين اكتشفت أن العالم الأدبي وقع حتى اليوم في خطأ فيما يتعلق بمصير بنت الوزير شهرزاد، طبقا لما جاء في "الليالي العربية"، وأن حل العقدة على الرغم من أنه خال من الدقة فيما يتعلق بالنتائج المسفرة عنه، فعلى الأقل لايمكن لومه على أن النتائج لم تمتد إلى أبعد من هذا.

---

(١) هذه القصة لا تمت بصلة إلى حكايات ألف ليلة وليلة، فهي تأليف خالص لـ "بو"، بغض النظر عن تأثير ألف ليلة وليلة عموما عليه باعتباره كاتبا، الذي أشار إليه العديد من الباحثين، وعليه فهو يستخدم مفرداته وتراكيبه الخاصة به. وجب التنويه حتى لا تتم المقارنة بين لغتها ولغة قصص ألف ليلة وليلة.

(٢) هذا الكتاب هو شرح لأسفار موسى الخمسة، وفي الحقيقة مؤلفه هو موسى من ليون.

يجب أن أحيل القارئ المتسائل بصدد معلومات كاملة عن هذه النقطة الشيقة إلى "هل هكذا الأمر أم لا" نفسه، لكن في الوقت نفسه سيسمح لي أن أعطي ملخصا عما اكتشفته.

يتذكر القارئ أن في النسخة المألوفة من الحكايات ملكا ما، لم يأمر فقط بموت مليكته، بما أن لديه سببًا جيدًا جعله يشعر بالغيرة عليها، بل أقسم بلحيته وبنبيه أن يتزوج كل ليلة من أجمل عذراء في مملكته وأن يسلمها في صباح ليلة زواجه منها إلى السياف.

أما وقد وفى بقسمه لسنوات عديدة حرفيا، بالتزام ديني ومنهج أضفيا عليه مصداقية عظيمة باعتباره رجلا ذا مشاعر مخلصة وإحساس مرهف، قاطعته ذات ظهيرة (بلاشك فى أثناء صلواته) زيارة من وزيره العظيم، حيث خطر لابنته، كما يبدو، فكرة. كان اسمها شهرزاد، وفكرتها كانت إما أن تخلص الأرض من الضريبة المفروضة على الجمال أو تهلك في محاولتها بالطريقة التي وافقت عليها كل البطلات الأخريات.

بناء عليه، وعلى الرغم من أننا نكتشف أنها لم تكن سنة كبيسة (حيث كانت ستضفي على التضحية تقديرا أعظم)، تنتدب أبيها، الوزير العظيم، لكي يعرض على الملك يدها. هذه اليد يقبلها الملك بلهفة (كان قد نوى أن يأخذها في كل الأحوال، وأجلَّ المسألة من يوم إلى آخر، فقط خوفا من الوزير) لكن، أما وقد قبلها الآن، فهو بهذا القبول يجعل

كل الأطراف تصدق تماما أنه، سواء كان وزيرا عظيما أو غير عظيم، لا ينوي أبدا أن يتنازل عن قسمه مقدار ذرة أو امتيازاته. لذلك، عندما أصرت شهرزاد الجميلة على الزواج من الملك، وتزوجته فعليا رغم النصيحة الممتازة التي نصحها بها أبوها بألا تتزوجه- أقول، سواء أراد أم أبى، عندما رغبت أن تتزوجه وتزوجته فعليا، فقد فعلت هذا وعيناها السوداوان الجميلتان مفتوحتان بالاتساع الذي تسمح به طبيعة القضية.

ومع ذلك، يبدو أن هذه الآنسة الداهية (التي بلاشك كانت تقرأ ميكيافيللي قبل هذا) كانت تحمل مكيدة صغيرة بارعة جدا في عقلها. ففي ليلة زفافها، احتالت بادعاء ما مقبول نسيته، لكي تحتل أختها مضجعا قريبا بما يكفي من الزوجين الملكيين لكي يسمح بتبادل الحديث بينهما من السرير إلى السرير بسهولة، وقبل صياح الديك بقليل، اهتمت بأن توقظ الملك الطيب، زوجها - (الذي لم يضمر تجاهها أي رغبة مؤذية لأنه نوى أن يلوي عنقها في الصباح) تدبرت أن توقظه، أقول، (على الرغم من أنه بسبب ضميره الممتاز وسرعة هضمه ينام نوما جيدا) - بإثارة اهتمامه بقصة (حول فأر وقطة سوداء، أعتقد) كانت تقصها (بنبرة خفيضة بالطبع) على أختها. عندما طلع النهار، تصادف أن هذه القصة لم تنته تماما، وأن شهرزاد، لطبيعة الأشياء لم تستطع أن تنهيها حينئذ، بما أنه الوقت المناسب لكي تنهض وتصلب- شيء أكثر متعة قليلا من الشنق، أكثر أناقة بمقدار ضئيل!

من ناحية ثانية، حيث إن فضول الملك طغى حتى على، أسف أن أقول، مبادئه الدينية الراسخة، فقد أغراه أن يؤجل، هذه المرة، الوفاء بقسمه حتى الصباح التالي، بغرض وبأمل أن يسمع تلك الليلة كيف سيصير حال القط الأسود (أعتقد أنه كان قطا أسود) مع الفأر في النهاية.

أما وقد حل الليل، من ناحية ثانية، فالسيدة شهرزاد لم تقض على حكاية القط الأسود والفأر (كان الفأر أزرق) فقط بالضربة القاضية بل قبل أن تعي جيدا ما هي على وشك أن تفعله، وجدت نفسها غارقة في تعقيدات حكاية، تشير إلى (إذا لم أكن مخطئا تماما) حصان وردي (بجناحين أخضرين) ينطلق ويحط، بطريقة عنيفة، أوتوماتيكيا، عن طريق مفتاح نيلي اللون. اهتم الملك بهذه القصة اهتماما أعمق بكثير من القصة الأولى، وبما أن النهار طلع قبل نهايتها (على الرغم من مساعي الملكة للانتهاء منها مع حلول موعد الشد على القوس) لم يكن ثمة مفر مرة أخرى من تأجيل ذلك الطقس كما من قبل لمدة أربع وعشرين ساعة. حدثت الليلة التالية المصادفة نفسها بالنتيجة نفسها، ثم التالية، ثم الليلة التالية، حتى جرد الملك الصالح في النهاية تماما من كل فرصة للبر بقسمه خلال فترة زمنية لاتقل عن ألف ليلة وليلة؛ إما لأنه نسيه تماما بانقضاء هذا الوقت أو حل نفسه منه بالطريقة الاعتيادية، أو(وهو الأرجح) نقضه مباشرة مع الإطاحة برأس كاهنه الأب. في كل الأحوال، لعل شهرزاد التي انحدرت مباشرة من حواء،

ورثت سلال الكلام السبع التي جمعتها السيدة الأخيرة، كما نعرف جميعا، من تحت أشجار جنة عدن. أقول إن شهرزاد انتصرت في النهاية وألغيت الضريبة المفروضة على الجمال.

والآن هذه النهاية (نهاية القصة المدونة لدينا) بلاشك ملائمة وسارة جدا. لكن للأسف! مثل أشياء أخرى عديدة سارة عظيمة هي نهاية أكثر طلاوة من أن تكون حقيقية. وأنا مدين تماما لـــ "هل هكذا أم لا" بتصحيح الخطأ. يقول المثل الفرنسي "الأحسن هو عدو الجيد"، وإذ إنني ذكرت أن شهرزاد قد ورثت سلال الكلام السبع، يجب أن أضيف أنها قامت بقرضها بفائدة مركبة حتى وصلت إلى سبع وسبعين سلة.

قالت في الليلة الثانية بعد الألف (هنا أقتبس حرفيا لغة "هل هكذا أم لا"): "أختي العزيزة، أما وقد انقضى زمن الصلب العصيب قليلا، وألغيت تلك الضريبة الشنيعة بنجاح، أشعر أنني مذنبة باقتراف عمل أحمق عظيم؛ بأن أحجب عنك وعن الملك (الذي أأسف أن أقول، يغط في نومه- وهو الأمر الذي لايفعله الجنتلمان) النهاية الكاملة للسندباد البحري. لقد خاض هذا الشخص مغامرات عديدة أخرى أكثر تشويقا من المغامرات التي حكيتها، لكن الحقيقة هي أنني شعرت بالنعاس في الليلة التي كنت أحكي فيها عنه، وهكذا أغراني النعاس أن أبترها- نموذج محزن من سوء التصرف- توكلي على الله في أن يغفرها لي. لكن مع هذا أيضا لم يفت الوقت لكي أصلح استخفافي العظيم، وما أن أقرص الملك قرصة أو قرصتين لكي أوقظه بالقدر الذي يتوقف فيه

عن إصدار هذا الضجيج الرهيب، سأسليك على الفور (وهو إذا أحب) بتتمة هذه القصة الرائعة ذاتها.

على هذا، لم تعبر أخت شهرزاد كما بين يدي من "هل هكذا أم لا" عن امتنان خاص جدا، غير أن الملك، وقد قرص بما يكفي، توقف في النهاية عن الغطيط، وقال أخيرا "هم!" ثم "هووا!"، فقامت الملكة حينها، إذ فهمت أن هذه الكلمات (التي هي بلاشك باللغة العربية) تدل على أنه منتبه تماما وسوف يبذل ما في وسعه لكي لا يغط بعد ذلك- أقول إن الملكة، إذ رتبت تلك الأمور على هواها- باشرت مرة أخرى على الفور قصة السندباد البحري:

"في النهاية، في شيخوختي (هذه هي كلمات سندباد نفسه، كما ترويها شهرزاد)، وبعد أن استمتعت بسنوات عديدة من الهدوء والسكينة في بيتي، تملكتني مرة أخرى الرغبة في زيارة البلاد الغريبة. وفي أحد الأيام، دون أن أُعلم أي فرد من أفراد عائلتي بعزمي، حزمت بعض الحزم من تلك البضائع التي كانت الأغلى والأخف وزنا، وإذ اكتريت حمالا ليحملها، ذهبت معه إلى شاطئ البحر، أنتظر وصول أي سفينة ما بالصدفة قد تنقلني خارج المملكة إلى إقليم ما لم أكتشفه بعد، وبعد أن وضعنا الرزم على الرمال، جلسنا تحت بعض الأشجار وتطلعنا إلى المحيط على أمل أن نرى سفينة ما، لكننا ولساعات لم نر أي شيء من أي نوع. في النهاية تخيلت أنني أسمع أزيزا ما أو غمغمة ما، والحمال بعد أن أصاغ السمع قليلا، أعلن

أنه يستطيع أن يميزه. غدا الصوت فورا أعلى ثم أعلى بحيث لم يعد لدينا شك أن الشيء الذي يصدر عنه هذا الصوت يقترب منا. في النهاية، اكتشفنا عند خط الأفق لطخة سوداء، تزايد حجمها بسرعة حتى تبين لنا أنها وحش ضخم، يسبح جزء كبير من جسده فوق سطح البحر. أتى نحونا برشاقة عجيبة، وقد تناثرت حول صدره أمواج ضخمة من الزبد، وأضاء ذلك الجزء الذي يعبره من البحر خط طويل من النيران التي امتدت بعيدا إلى الأفق".

"استطعنا أن نرى هذا المخلوق بوضوح تام بينما يقترب منا. كان ارتفاعه يعادل ارتفاع ثلاث أشجار سامقة، وكان عريضا بعرض قاعة عظيمة من قاعات قصرك، يا أجل وأكرم خليفة. كان جسده الذي لايشبه جسد أي سمكة صلبا صلابة الصخر، والجزء الذي يطفو منه فوق المياه ذا لون أسود فاحم باستثناء شريط ضيق بلون الدم يحوطه كله. أما بطنه الذي يعوم تحت السطح والذي لم نستطع إلا أن نلمحه حين كان الوحش يعلو ويهبط مع الأمواج، فقد كان مغطى بحراشف معدنية ذات لون يشبه لون القمر في جو ضبابي. كان الظهر مسطحا وأبيض تقريبا، وامتدت منه طوليا ستة نتوءات، يبلغ طول كل واحد منها نصف طول جسده".

"هذا المخلوق الرهيب لم نستطع أن نرى فما له، لكن كأنه تعويض عن هذا النقص، كان مزودا بثمانين عينا على الأقل تجحظ من محاجرها مثل تلك التي لدى التنين الطائر، ومرتبة حول الجسد كله في

صفين، واحد فوق الآخر وموازية لذلك الشريط الأحمر الدموي الذي بدا أنه يقوم بوظيفة الحاجب. عينان أو ثلاث من تلك العيون أضخم من الأخريات ولها مظهر الذهب الصلب".

على الرغم من أن هذا الوحش كان يقترب منا كما ذكرت سابقا بسرعة عظيمة، فلابد أن السحر كان يحركه، لأنه لا يملك زعانف مثل السمكة ولا أقداما كفية مثل البطة ولا أجنحة مثل المحار الذي ينتفخ طوليا مثل السفينة، ولم يتلو حتى كما يفعل سمك الإنقليس. رأسه يشبه ذيله تماما باستثناء فتحتين صغيرتين لا تبعدان عن ذيله كثيرا تقومان بوظيفة فتحتي الأنف، من حيث كان الوحش ينفخ أنفاسه الثقيلة بعنف شنيع وبضجة صاخبة ومنفرة.

كان الرعب الذي تملكنا عظيما، غيرأن دهشتنا طغت عليه، إذ بعد أن خول لنا رؤية الوحش عن قرب، رأينا فوق ظهر المخلوق عددا كبيرا من الحيوانات بحجم الإنسان وهيكله تقريبا وتشبهه كثيرا كلية باستثناء أنها لا تلبس ملابس (كما يفعل الإنسان) لأنها مزودة (من الطبيعة بلاشك) بغطاء قبيح غير مريح، يشبه القماش إلى حد كبير، لكنه يلتصق تماما بالجلد، بحيث جعل البؤساء المساكين ذوى شكل غريب مثير للضحك وسبب لهم كما يبدو ألما حادا. على قمة رأسه كان يوجد صندوق مستطيل الشكل، اعتقدت للوهلة الأولى أن الغرض منه أن يعمم به، لكن سرعان ما اكتشفت أنه ثقيل للغاية وصلب، ولذلك انتهيت إلى أنه وسيلة مصممة، بسبب وزنه العظيم، بغرض الحفاظ

على رؤوس الحيوانات ثابتة وآمنة فوق أكتافها. وحول أعناق المخلوقات كانت مثبتة أطواق سوداء (شارة العبودية، بلاشك) كتلك التي نضعها لكلابنا، باستثناء أنها أعرض وأكثر تيبسا، بحيث كان من المستحيل تماما بالنسبة لتلك الضحايا المسكينة أن تحرك رؤوسها في أي اتجاه دون أن تحرك أجسادها في الوقت نفسه. وعليه، كان محكوما عليها أن تتأمل إلى الأبد أنوفها- صورة فطسية وتشبه كلب البج رائعة لولا أنها واقعية لدرجة مروعة.

عندما وصل الوحش تقريبا إلى الشاطئ حيث نقف، دفع عينا من عيونه إلى الخارج لمسافة عظيمة ونفث منها وهجا رهيبا من النار، صاحبته سحابة كثيفة من الدخان، وصوت لا أستطيع أن أقارنه إلا بصوت الرعد. بعد أن تلاشى الدخان رأينا مخلوقا من المخلوقات الحيوانية-الإنسانية الغريبة يقف بالقرب من رأس الوحش الضخم مع بوق في يده، حيث من خلاله (وقد وضعه على فمه) خاطبنا على الفور بنبرات عالية، فظة ومنفرة، كان يمكن أن نعتقد خطأ أنها نبرات لغة ما لولا أنها تخرج كلية من الأنف.

وحيث إن الكلام كان موجها إليَّ، احترت كيف أجيب بما أنني لم أفهم على أي نحو ماذا قيل. وفي خضم هذا العسر، التفت إلى الحمَّال الذي كاد أن يغمى عليه من الخوف وطلبت رأيه فيما يخص نوع الوحش، وماذا يريد، وما نوع المخلوقات التي يعج بها ظهره. أجاب الكاري على هذه الأسئلة إجابة واضحة بقدر ما أسعفه ارتجافه،

بأنه سمع ذات مرة عن هذا الوحش البحري، وأنه عفريت وحشي بأمعاء من الكبريت ودم من النار، خلقه جني شرير ليبلي الإنسان بالتعاسة، وأن المخلوقات التي فوق ظهره طفيليات من نوع تلك الطفيليات التي تغزو القطط والكلاب باستثناء أنها أضخم قليلا وأكثر توحشا، وأن تلك الطفيليات لها فائدتها، بغض النظر عن شره، فمن خلال التعذيب الذي توقعه على الوحش بقضماتها ولدغاتها، كانت تهمزه إلى درجة الغضب الضرورية التي تجعله يزأر ويؤذي، وبهذا يحقق الأغراض الحقودة والشريرة للجنّي الشرير.

هذه الرواية جعلتني أعتزم الفرار دون أن أنظر نظرة واحدة خلفي؛ فقد ركضت بأقصى سرعتي إلى التلال، بينما الحمال الذي ركض بالسرعة نفسها لكن تقريبا في الاتجاه المعاكس لاتجاهي استطاع بهذه الحيلة أن يهرب برزمي التي لا أشك في أنه رعاها تماما على الرغم من أنها مسألة لا أستطيع أن أفصل فيها بما أنني لا أتذكر أنني رأيته مرة أخرى بعد ذلك.

بالنسبة إليّ، طاردني حشد من الطفيليات- الإنسانية (الذي جاء إلى الشاطئ في قوارب) مطاردة حثيثة، حيث سرعان ما تغلب عليّ وقيد يدي وقدمي ونقلني إلى الوحش، الذي سبح على الفور إلى عرض البحر.

حينئذ ندمت ندما مريرا على حماقتي بأن أترك البيت المريح لكي أخاطر بحياتي في مغامرات خطرة من هذا النوع. لكن حيث إن

الندم لايفيد، تماسكت وبذلت أقصى مجهود لكي أكسب رضا الطفيلي- الإنسان الذي كان بحوزته البوق والذي بدا أنه يمتلك سلطة على رفاقه. حققت نجاحا كبيرا في هذه المحاولة بحيث منحني مقام المفضل لديه، وفي النهاية حتى تكلف عناء تعليمي مبادئ ما كان عبثيا تماما تسميته لغته. هكذا في نهاية الأمر، كنت قادرا على أن أتبادل معه الحديث بسهولة وأن أنجح في أن يفهم رغبتي الحميمة في رؤية العالم.

"واشيش سكواشيش سندباد هاي ديدل-ديدل، جرانت عند جرامبل هس، فس، وس" قال هذا لي ذات يوم بعد العشاء- لكن ألف عذر، لقد نسيت أن جلالتك لايتحدث لهجة صهيل- الديك (هكذا كان يسمى الحيوانات-الإنسانية لغتهم، أظن بسبب أنها كانت تتكون من الصلة الرابطة بين تلك التي للحصان وتلك التي للديك) بعد إذنك، سأقوم بالترجمة. تعني "واشيش سكواشيش إلى آخره، أنني سعيد يا عزيزي السندباد أن أجدك رفيقا ممتازا بالفعل. نحن الآن على وشك أن نقوم بشيء نسميه الإبحار حول العالم، وبما أنك تتوق إلى رؤية العالم، فسوف أتجاوز القوانين وأمنحك حرية المرور فوق ظهر الوحش".

يقول "هل هكذا أم لا" إنه عندما وصلت السيدة شهرزاد إلى هذا الحد، استدار الملك من أيمنه إلى أيسره وقال: "في الحقيقة، إنه أمر مدهش جدا يا عزيزتي الملكة أنك حذفت حينذاك تلك المغامرات الأخيرة للسندباد. هل تعرفين أنني أراها مسلية للغاية وغريبة؟!"

ونقرأ، أنه بعد أن عبر الملك عن نفسه بهذه الكلمات، تتابع شهرزاد الجميلة قصتها كالتالي:

واصل السندباد روايته على النحو التالي: "شكرت الحيوان- الإنسان لطيبته وسرعان ما شعرت أنني في بيتي على ظهر الوحش الذي سبح بمعدل رهيب عبر المحيط، على الرغم من أن سطح المذكور (المحيط)، في هذا الجزء من العالم، غير مسطح أبدًا، بل دائري مثل ثمرة الرمان بحيث إننا مضينا - إذا جاز التعبير- إما إلى أعلى التل أو إلى أسفله طوال الوقت".

قاطع الملك قائلا: "أعتقد أن هذا غريب جدا".

أجابت الملكة: ومع ذلك، حقيقي تماما".

فرد الملك: "أشك، لكن أرجوك، تكرمي بمتابعة القصة".

قالت الملكة: "بالتأكيد. واصل السندباد:"سبحنا كما قلت من أعلى إلى أسفل التل حتى وصلنا في النهاية إلى جزيرة، يبلغ محيطها عدة مئات من الأميال شيدها مع ذلك في عرض البحر مستعمرة من مخلوقات ضئيلة تشبه يرقات الفَراش"(١).

قال الملك: "همم!"

---

(١) المرجان. (بو)

قال السندباد: (لأنه يجب أن يكون واضحا أن شهرزاد لم تلق بالا بقول زوجها المفاجئ الفظ) بعد أن تركنا الجزيرة، وصلنا إلى أخرى حيث كانت الأشجار من أحجار صلدة إلى حد أنها كانت تحول أصلب الفؤوس حطاما التي حاولنا بها أن نقطعها[1].

---

(١) من أكثر الغرائب الطبيعية روعة في تكساس غابة حجرية بالقرب من مصب نهر باسيجنو. تتشكل من عدة مئات من الأشجار منتصبة، تحولت كلها إلى حجارة. وبعض الأشجار التي تنمو الآن جزئيا حجرية. هذه حقيقة مدهشة لفلاسفة الطبيعة، ولابد أن تجعلهم يعدّلون نظرية التحجر الحالية.- كنيدي.

تعضدت هذه الحكاية، التي رفضت في البداية، باكتشاف غابة حجرية كاملة بالقرب من مصب مياه شين أو نهر شاين، حيث تقع منابعه في التلال السوداء.

لعله لايوجد مشهد على سطح الكرة الأرضية أكثر روعة سواء من المنظور الجيولوجي أو التصويري من ذلك الذي تقدمه الغابة الحجرية بالقرب من القاهرة. فما أن يمر المسافر بقبور الخلفاء، التي تقع وراء بوابات المدينة، حتى يتقدم إلى الجنوب، بزاوية قائمة تقريبا إلى الطريق الذي يؤدي إلى صحراء السويس، وبعد أن يسافر عشرة أميال بمحاذاة واد منخفض مغطى بالرمال والحصى والقواقع البحرية الطازجة كأن المد لم ينسحب إلا الأمس، ويعبر نطاقا منخفضا من التلال الرملية، التي تمتد لمسافة ما بموازاة طريقه. إن المشهد الذي يتبدى له حينها يفوق التصور في فرادته وتوحده. كتلة من بقايا الأشجار، التي تحولت كلها إلى أحجار وعندما يصطدم بها حافر حصانه ترن مثل قالب حديد- كتلة تنتشر حوله أميال وأميال في شكل غابة أشجارها متحللة ومنبطحة على الأرض. الخشب ذو لون بني غامق، لكنه لا يزال يحتفظ بتكوينه في حالة ممتازة، وبما أن طول الجذع منها يتراوح من قدم إلى خمسة عشر قدما وعرضه من نصف قدم إلى ثلاثة أقدام، فهي متناثرة قريبة من بعضها البعض، بقدر ما تستطيع العين أن تصل مداها، بحيث إن حمارا مصريا بالكاد يستطيع أن يشق طريقه فيما بينها، وبطبيعة جمة بحيث لو أنه في أسكتلندا أو أيرلندا سوف يمر بدون صعوبة على عدة مستنقعات جافة هائلة حيث

"همم!" قال الملك مرة أخرى، غير أن شهرزاد التي لم تعره أي انتباه، واصلت كلام السندباد.

"بعد أن عبرنا إلى ما وراء هذه الجزيرة، وصلنا إلى بلد، حيث كان يوجد به كهف يمتد إلى مسافة ثلاثين أو أربعين ميلا داخل أحشاء الأرض، ويحتوي عددا عظيما من القصور الرحيبة والرائعة أكثر من كل القصور التي توجد في دمشق وبغداد. يتدلى من أسطح هذه القصور عشرات الآلاف من الجواهر، مثل الألماس، لكن أكبر من حجم الإنسان، وفيما بين الشوارع المليئة بالأبراج والأهرامات والمعابد، تتدفق أنهار ضخمة سوداء كالأبنوس وتعج بأسماك لا عيون لها".(١)

قال الملك: "همم!"

"سبحنا بعدئذ إلى إقليم في البحر حيث وجدنا جبلا شاهقا، تتدفق على جوانبه سيول من معدن منصهر، البعض منها بلغ عرضه اثنى

الأشجار مطروحة فوقها تتعفن في الشمس. في حالات كثيرة لاتزال الجذور وبقايا الفروع ممتازة تقريبا وفي بعضها آثار الحفر الناتجة عن حفر الديدان، يمكن رؤيتها بسهولة. كما أن الجزء الأدق من النسغ والأجزاء الرقيقة من لب الخشب كاملة تماما وتتحمل الفحص بأقوى العدسات. الجذع كله تحول إلى كوارتز بحيث يمكن خدش الزجاج منه الذي يقبل الخضوع إلى عملية صقل عالية. مجلة أسياتك. (بو)

(١) كيف الماموث في كنتاكي. (بو)

عشر ميلا وطوله ستين ميلا.[١] في حين أنه انبعثت من هوة في قمته، كمية مفرطة من الرماد كثيفة حجبت الشمس تماما في السماء، وساد ظلام أعتم من عتمة منتصف الليل، إلى حد أننا عندما كنا على بعد مائة وخمسين ميلاً من الجبل، كان من المستحيل أن نرى أكثر الأشياء بياضا، مهما قربناه من أعيننا"[٢].

قال الملك:" همم!"

"بعد أن غادرنا هذا الشاطئ، واصل الوحش رحلته حتى قابلنا أرضا حيث يبدو أن طبيعة الأشياء معكوسة فوقها، فقد رأينا فوقها بحيرة عظيمة، نمت في قاعها الذي يقع على مسافة أكثر من مائة قدم تحت سطح المياه، غابة وفيرة الأوراق من الأشجار الطويلة والخصبة[٣]."

---

(١) (بو) في أيسلاند.

(٢) "خلال انفجار بركان هيكلا في ١٧٦٦، تسببت سحب من هذا النوع في درجة هائلة من الظلمة بحيث عند جلومبا، التي تبعد أكثر من خمسين فرسخا عن الجبل، لم يستطع الناس أن يمشوا إلا جماعة. وخلال ثوران بركان فسوفيوس في ١٧٩٤ في كاسرتا، التي تبعد أربعة فراسخ، لم يستطع الناس أن يمشوا إلا بمساعدة أضواء مصابيحهم. في بداية شهر مايو ١٨١٢، غطت سحابة بركانية من الرماد والرمال، انبعثت من بركان في جزيرة سانت فينيست، جميع أنحاء باربادوس، ملقية فوقها ظلاما حالكا بحيث لا يستطيع المرء في منتصف النهار وفي الهواء الطلق أن يرى الأشجار أو الأشياء القريبة منه، أو حتى منديلا أبيض على بعد ستة إنشات من عينيه". موراي. ص. ٢١٥. فيلادلفيا.تحرير. (بو)

(٣) "في عام ١٧٩٠ في كاركاس، خلال زلزال، هبط جزء من التربة الجرانيتية وخلف وراءه بحيرة عرضها ثماني مائة ياردة وعمقها يتراوح من ثمانين إلى

قال الملك: "هوو!"

"أميال أخرى من الإبحار أخذتنا إلى طقس كان الهواء به كثيفا جدا بحيث كان يحمل الحديد أوالفولاذ، كما يفعل هواؤنا مع الريش.(١)"

قال الملك: "فيدل دا دي"

"وإذ إننا مازلنا نتقدم في المسار نفسه، وصلنا إلى أكثر الأقاليم روعة في العالم كله. فعبره كان يتلوى جاريا نهر لآلاف الأميال. كان هذا النهر ذا عمق لا يوصف وذا شفافية أغنى من التي للعنبر. كان عرضه يتراوح من ثلاثة إلى ستة أميال، وتوجت ضفتاه شديدتا الانحدار، اللتان امتدتا إلى مسافة اثنى عشر قدما بأشجار أبدية الازدهار وأزهار سرمدية ذات عبير حلو جعلت الأرض كلها حديقة غناء فاتنة، غير أن اسم هذه الأرض الخصبة كان مملكة الرعب ودخولها هو الموت حتميا.(٢)"

"غادرنا هذه الأرض بعجلة عظيمة وبعد عدة أيام، وصلنا إلى أخرى، حيث صعقنا أن نرى عشرات من الحيوانات الوحشية بقرون تشبه المنجل فوق رؤوسها. هذه الوحوش الشنيعة كانت تحفر لنفسها

مائة قدم. كانت جزءا من غابة أريابو التي غرقت وظلت الأشجار خضراء عدة أشهر تحت سطح المياه". موراي.ص.٢٢١. (بو)

(١) (بو) إن أقوى أنواع الفولاذ المصنع تحت فعل أنبوب نفخ النار يتحول إلى مسحوق دقيق جدا سيطفأ بسهولة في الهواء الجوي/الأرضي.

(٢) (بو) منطقة النيجر. انظر "مجلة الكولونيال" سيمونا.

كهوفا كبيرة في الأرض قمعية الشكل وتبطن جوانبها بالصخور، ترصها فوق بعضها البعض بحيث تسقط توا عندما يطؤها حيوان آخر، فتقوم بتطويحه بعنف إلى عرين الوحش حيث يمص دماءه على الفور، ويقذف جثته بعد ذلك بازدراء بعيدا على مسافة هائلة من "كهوف الموت".(١)

قال الملك: "بووه!"

"رأينا، بعد أن واصلنا مسيرتنا، مقاطعة من النباتات التي لا تنمو فوق الأرض بل في الهواء(٢). وكانت توجد نباتات أخرى تنبثق من عصارة نباتات أخرى(٣)، ونباتات أخرى كانت تستقي عصارتها من أجساد الحيوانات الحية(٤)، كذلك، كانت توجد نباتات أخرى تتألق تماما

---

(١) فصيلة النمل. النمل الأسد. إن تعبير "وحش" يطلق على قدم المساواة على الأشياء غير الطبيعية الصغيرة والكبيرة، في حين أن تلك النعوت بقدر ما هي "عريضة"، نسبية فحسب. إن كهف النمل – الأسد عريض مقارنة بحفرة النمل الأحمر العادي. إن حبة من السيلكس هي "صخرة" أيضا. (بو)

(٢) أبيدنديرون، من عائلة الأوركاديا، تنمو وجذورها تتصل بالكاد بشجرة أو شيء آخر حيث لا تستقي منه أي غذاء، تتغذى تماما على الهواء. (بو)

(٣) (بو) الطفيليات مثل رافلسيا أرنولدي الرائعة

(٤) يدافع شو عن فئة من النباتات التي تنمو على الحيوانات الحية. منها الطحلب الأسمر الفوقس والأشنة. (بو)

حاضر السيد ج. ب. ويليامس من سالم، في "المعهد الوطني" عن حشرة من نيوزيلاند واصفا إياها كالتالي: "الهوت؛ طفيلي أو دودة وجد أنها تنمو عند أقدام شجرة الراتا بنبتة تخرج من رأسها. هذه الحشرة الاستثنائية والفريدة تتسلق أشجار الراتا وبريري، وتدخل إلى قمتها تأكل طريقها لتثقب الجذع حتى تصل إلى الجذر، ثم تخرج منه وتموت أو تظل نائمة والنبتة تتكاثر من رأسها. يظل

بنار كثيفة[١]، وأخرى تتحرك من مكان إلى مكان بلذة[٢]، لكن الأعجب من كل هذا، أننا اكتشفنا أزهارا تعيش وتتنفس وتحرك أطرافها كما تريد ولديها، علاوة على ذلك، الرغبة الكريهة التي لدى النوع البشري في استعباد المخلوقات الأخرى، وحبسها في سجون بشعة ومعزولة حتى تنفذ المهمات المعهودة إليها[٣]".

الجسد في حالة ممتازة وكاملا بمادة أقسى مما كان عليها وهو حي. من هذه الحشرة يصنع السكان ألوانا للوشم. (بو)

(١) في المناجم والكهوف الطبيعية نجد نوعا من الطحالب اللازهرية التي تبعث وميضا فسفوريا حادا. (بو)

(٢) خصي الثعلب، شيخ الربيع أو زهرة الجرب، فاليسنريا. (بو)

(٣) تويج هذه الزهرة أنبوبي الشكل لكن الذي ينتهي إلى الأعلى بزائدة غشائية ينتفخ إلى شكل كروي عند قاعدته. إن الجزء الأنبوبي منه مبطن بشعر قاس يتجه إلى الأسفل. يحتوي الجزء الكروي على عضو التأنيث الذي يتكون فقط من الجرثومة والميسم مع العضو الذكري الذي يحيط به. لكن العضو الذكري بما أنه أقصر من عضو التأنيث لايستطيع أن يفرغ اللقاح لكي يلقيه في الميسم بما أن الزهرة تقف دائما مستقيمة حتى ما بعد التلقيح. وعليه بدون مساعدة إضافية خاصة، لابد أن يقع اللقاح إلى أسفل الزهرة. إن المساعدة التي وفرتها الطبيعة في هذه الحالة، هي مساعدة حشرة صغيرة، تدخل أنبوبة التويج طلبا للعسل وتهبط إلى القاع وتحوم فيه إلى أن يغطيها اللقاح تماما، لكن بما أنها لاتستطيع الخروج مرة أخرى بسبب الشعر الذي يتجمع إلى درجة يشبه فيها أسلاك مصيدة الفئران، وبما أن انحباسها يصيبها بالملل تفرك إلى الأمام والوراء تجرب كل زاوية في الميسم تكرارا حتى يغطيها اللقاح الكافي لتخصيبه، الذي ينتج عنه أن تبدأ الزهرة في التدلي والشعر في الانكماش إلى جوانب الأنبوب؛ لكي تقدم ممرا سهلا لهروب الحشرة". ب. كيث، نظام الحياة النباتية الفيزيقية. (بو)

قال الملك: " بيشاو!"

"بعد أن تركنا هذا البلد، سرعان ما وصلنا إلى آخر، حيث النحل والطيور علماء رياضيات تتمتع بعبقرية هائلة ومعرفة واسعة، تعطى حكماء الإمبراطورية دروسا يومية في علوم الهندسة. وإذا حدث أن ملك المكان قد عرض جائزة لحل مشكلة ما عويصة أو مشكلتين، كانت تحلهاعلى الفور- واحدة يحلها النحل والأخرى الطيور. لكن بما أن الملك كان يحتفظ بالحل سرا، فقد يتوصل علماء الرياضيات في النهاية إلى حل مطابق للذي أعطاه النحل والطيور بعد أن يجروا أبحاثا عميقة وشاقة ويكتبوا عددا لانهائيا من الكتب الضخمة خلال سلسلة طويلة من السنوات.(١)"

قال الملك: " ياإلهي".

(١) إن النحل – كان النحل دوما- يبني خلاياه بجوانب مضبوطة تماما وبعدد دقيق وبزاوية ميل دقيقة كما اتضح (في مشكلة تتضمن أعمق المبادئ الحسابية) بنفس الجوانب وبالعدد نفسه وبالزوايا نفسها التي ستوفر للمخلوقات المساحة الأقصى التي تتوافق مع أقصى رسوخ للبناء.

خلال الجزء الأخير من القرن الماضي كانت القضية التي بزغت بين صفوف علماء الرياضيات هي تحديد أفضل شكل لأجنحة أو أشرعة طاحونة الهواء طبقا لأبعادها المختلفة عن ريشتها الدوارة، وعن أيضا بالمثل مراكز الدوران". هذه مشكلة معقدة للغاية لأنها بكلمات أخرى تعني اكتشاف أفضل مكان ممكن لعدد لانهائي من الأبعاد المختلفة، وعند نقاط لا نهائية من الذراع. قام أكثر علماء الرياضيات شهرة بألف محاولة عقيمة لحل اللغز، وحين، في النهاية، اكتشفوا حلا ممتازا، اكتشف الإنسان أن أجنحة الطير منحت له بدقة مطلقة منذ أول مرة طار فيها طائر في الهواء. (بو)

"ما إن غابت هذه الإمبراطورية عن نظرنا حتى وجدنا أنفسنا بالقرب من أخرى، حيث حلق من على شواطئها فوق رؤوسنا سرب من الطيور عرضه ميل وطوله مائتان وأربعون ميلا، بحيث على الرغم من أنه يقطع ميلا في الدقيقة، احتاج إلى مالايقل عن ساعة لكي يمر كله فوق رؤوسنا حيث كان يوجد ملايين الملايين من الطيور.[1]"

قال الملك: "أوه فاي!"

"ما إن تخلصنا من هذه الطيور التي سببت لنا إزعاجا عظيما، حتى ألقى في نفوسنا الرعب ظهور طائر من نوع آخر وأضخم من الرخ الذي قابلته في رحلاتي السابقة، لأنه كان أضخم من أضخم قبة في قصورك أيها الخليفة الكريم. هذا الطائر الرهيب لم نستطع أن نرى له رأسا بل كان مكونا كلية من بطن سمين بشع ودائري الشكل من مادة لينة، ناعم، ومخطط بألوان مختلفة. كان يحمل الوحش بين مخالبه إلى وكره الشاهق بيتا خلع سقفه، ورأينا بوضوح بشرا بداخله، كانوا بالطبع في حالة من اليأس المرعب من مصيرهم الرهيب الذي ينتظرهم. صرخنا بكل ما نملك من قوة على أمل أن نرعب الطائر

---

(١) شاهد سرب من الحمام يعبر بين مقاطعتي فرانكفورت وأنديانا، يبلغ عرضه ميلا على الأقل. استغرق عبوره أربع ساعات أي بمعدل ميل في الدقيقة، ينتج ٢٤٠ ميلا في الطول، وبافتراض ثلاث حمامات لكل ياردة مكعبة سينتج ٢,٢٣٠,٢٧٢,٠٠٠ حمامة " الترحال في كندا والولايات المتحدة" ليوت ف. هول. (بو)

حتى يطلق سراح حمولته لكنه لم يطلق سوى نفخة، كأنه غاضب، وترك كيسا ثقيلا يسقط فوق رؤوسنا اتضح أنه مليء بالرمال".

قال الملك: " هراء!"

" وبعد هذه المغامرة على الفور صادفنا قارة ذات امتداد هائل وصلابة، ومع ذلك كانت مثبتة تماما فوق ظهر بقرة زرقاء بلون السماء لها مالايقل عن أربعمائة قرن.(١)"

قال الملك: "هذا الآن أنا أصدقه، لأنني قرأت شيئا ما من هذا القبيل في أحد الكتب".

"عبرنا تحت هذه القارة على الفور (نسبح بين سيقان البقرة) وبعد بضع ساعات وجدنا أنفسنا في بلد رائع بالفعل علمت من الحيوان - الإنسان أنه مسقط رأسه، يقطنه مخلوقات من نوعه. هذا رفع من شأن الحيوان- الإنسان لدي، وفي الحقيقة كنت قد بدأت أشعر بالخجل من عدم الكلفة المزدرية التي عاملته بها؛ لأنني وجدت أن الحيوانات- الإنسانية عامة أمة من أعظم السحرة الذين يعيشون بدودة في أمخاخهم(٢)، عملت على أن تثير فيهم، من جراء تلوياتها المؤلمة وتمعجاتها أقصى حدود الخيال الإعجازي".

---

(١) "حمل الأرض بقرة لونها أزرق، لها أربعمائة قرن" القرآن ترجمة سالس". هــذه الآية ليست فقط لا وجود لها في القرآن، بل ليست في ترجمة سالس للقرآن.

(٢) (بو) ديدان الاثنى عشر، انتوزوا، وجدت دائما في عضلات الإنسان والـسائل المخي. انظر إلى فسيولوجي لويات. ص ١٤٣.

قال الملك: " هراء!"

"فيما بين صفوف السحرة، كان يعيش عدة حيوانات من نوع خاص، فعلى سبيل المثال، كان يوجد حصان ضخم، عظامه من الحديد ودمه من الماء المغلي. وكان غذاؤه المعتاد، عوضا عن الذرة، الصخور السوداء. علاوة على ذلك، وبغض النظر عن هذا الغذاء القاسي، كان قويا ورشيقا إلى حد أنه يستطيع أن يجر حمولة أكثر ثقلا من أعظم معبد في هذه المدينة بسرعة تفوق سرعة طيران أسرع الطيور[١]".

قال الملك: "كلام فارغ!"

"رأيت أيضًا بينهم دجاجة بدون ريش، لكنها أكبر من الجمل. وبدلا من اللحم والعظام كانت من الحديد والقرميد، كان دمها مثل دم الحصان (كانت من أقربائه في الحقيقة) مياهـا مغليـة، ومثله لاتأكل إلا الخشب والصخور السوداء. هذه الدجاجة تلد مائة كتكوت في اليوم، وبعد الميلاد تتخذ بطن أمها مسكنا لعدة أسابيع[٢]".

قال الملك:" تفاصيل تافهة، رخيصة!"

---

(١) على سكة الحديد الكبيرة بين لندن واكستر، حققت سرعة ٧١ ميلا في الساعة. وتمت قيادة قطار يزن ٩٠ طنا من بادنجتون إلى ديدكوت (٥٣ ميلا) فـي ٥١ دقيقة. (بو)

(2) *The Eccalobeion...* جهاز يسخن بالبخار لفقس بيض الطيور بحرارة صناعية

"خلق واحد منهم ذو سحر عظيم رجلا من النحاس والخشب والريش، وأضفى عليه براعة هائلة بحيث كان يمكن أن يهزم في لعبة الشطرنج(١) كل النوع البشري باستثناء الخليفة العظيم هارون الرشيد. واحد آخر من هذه المخلوقات السحرة شيد (من مادة شبيهة) مخلوقا أخجل حتى عبقرية الذي صنعه؛ فملكاته العقلية عظيمة جدا بحيث إنه في ثانية كان يقوم بعمليات حسابية ذات نطاق واسع كانت تحتاج إلى جهد خمسين ألف رجل لعام كامل(٢). لكن يظل الساحر الأروع ذلك الذي صنع لنفسه مخلوقا عظيما لم يكن إنسانا ولاحيوانا، بل لديه عقل من الرصاص ممزوج بمادة سوداء مثل القار، وأصابع ذات سرعة خيالية هائلة وبراعة، بحيث لم يجد مشقة في كتابة عشرين ألف نسخة من القرآن في ساعة، وسيفعل هذا بدقة متقنة إلى درجة أنه لن توجد بين كل النسخ نسخة تختلف عن الأخرى بفارق أدق شعرة. هذا المخلوق كان ذا قوة رهيبة بحيث يمكن أن يشيّد أو يهدم أعظم الإمبراطوريات في لحظة. لكن قواه كانت تستخدم في الخير والشر على السواء".

قال الملك: "سخيف".

"من بين أمة مستحضري الأرواح، كان يوجد واحد منها يجري في عروقه دم السمندل، لأنه لم يتردد لحظة في الجلوس في فرن

(١) (بو) لاعب الشطرنج الأوتوماتيكي لمالزيل.
(٢) الآلة الحاسبة التي اخترعها باباج. (بو)

متوهج تدخن بيبته التركية حتى يشوى عشاءه تماما على أرض الفرن[١]. آخر كانت لديه ملكة تحويل المعادن العادية إلى ذهب بدون أن ينظر حتى إليها أثناء التحويل[٢]. وآخر كان يرقق ما يلمسه رقة اللمس بحيث يجعل السلك رقيقا جدا حتى يغدو من الصعب رؤيته بالعين المجردة[٣]. آخر كان يمتلك سرعة الإدراك بحيث كان يحصي عدد نيذبات جسذا ما مرنا يتحرك للأمام وللخلف بسرعة تسعمائة مليون مرة في الثانية[٤]".

قال الملك:" عبث"

"واحد من هؤلاء السحرة، بواسطة سائل لم يره أحد من قبل، يستطيع أن يجعل جثث أصدقائه تمد أذرعتها وترفس بأقدامها أو حتى تنهض وترقص كما يريد[٥]. آخر صقل صوته إلى مدى عظيم بحيث يصل صوته من طرف العالم إلى طرفه الآخر[٦]. آخر يملك ذراعا طـويلة بحيث يستطيع أن يجلس في دمشق ويكتب خطابا في بغداد،

---

(١) شابرت ومئات بعده. (بو)
(٢) الطباعة الكهربائية. (بو).
(٣) صنع وولاستون من البلاتين لمجال الرؤية في جهاز التليسكوب سـلكا سـمكه ١٨/١ ألف من الإنش. يمكن رؤيته فقط بالمايكروسكوب. (بو)
(٤) أظهر نيوتن أن الشبكية تحت تـأثير الأشـعة البنفـسجية للطيـف تتذبـذب ٩٠٠,٠٠٠,٠٠٠ مرة في الثانية. (بو)
(٥) البطارية الكلفانية. (بو)
(٦) آلة الطباعة التلغرافية الإلكترونية. (بو)

أو على أي مسافة أيا كانت[١]. آخر يأمر البرق أن يأتي إليه من السماء، ويأتي عندما يدعوه ويطيعه باعتباره ألعوبة. آخر يأخذ صوتين عاليين ومنهما يصنع الصمت. آخر يصنع ظلمة عميقة من ضوئين باهرين[٢]. آخر يصنع الثلج في أتون متوهج[٣]. آخر يدير الشمس

---

(١) تنقل الآلة السابقة المعلومات فورا، على الأقل بقدر أي مسافة على سطح الأرض. (بو)

(٢) تجارب شارعة في فلسفة الطبيعة. إذا حبس شعاعان أحمران متجهان من نقطتين مضيئتين في غرفة مظلمة، بحيث يسقطان فوق سطح أبيض ويختلفان في طولهما بقدر ٠,٠٠٠٠٢٥٨ من الإنش، ستتضاعف كثافة كل منهما. كذلك أيضا لو أن الاختلاف في الطول بينهما يساوي رقما كاملا مضاعفا من هذا الرقم السابق؛ فأي رقم مضاعف بقدر ٢,٢٥، ٣,٢٥، إلخ يعطي كثافة مساوية لشعاع واحد فقط، لكن مضاعفته بـ ٢,٥٠، ٣,٥٠، إلخ يعطي ظلاما دامسا. تنتج الأشعة البنفسجية نفسها نتائج مماثلة حين يكون الاختلاف في الطول ٠,٠٠٠٠١٥٧ من الإنش. مع كل الأشعة الأخرى تأتي النتيجة نفسها؛ يتنوع الاختلاف بنمط ثابت يزيد من البنفسجية إلى الحمراء. تنتج التجارب المماثلة فيما يتعلق بالصوت نتائج مماثلة. (بو)

(٣) ضع بوتقة بلاتينية فوق وابور سبيرتو بدرجة حرارة متوهجة واسكب فيها حمض الكبريت، الذي على رغم من أنه يتصف بأنه من أكثر الأحماض الطيارة في درجة الحرارة العادية، ستكتشف أنه يصبح ثابتا تماما في بوتقة ساخنة ولاتتبخر منه قطرة واحدة، وبسبب أنه يصبح محاطا بهواء من صنعه لايلمس في الحقيقة جوانب البوتقة. وبعد سكب قطرات من المياه يلمس الحامض على الفور الجوانب الساخنة للبوتقة ويتطاير في بخار الحمض الكبريتي بسرعة بحيث يتطاير معه الشكل السائل للمياه، حيث تسقط كتلة من الثلج في قاع البوتقة، وبانتهاز الفرصة قبل أن تذوب مرة ثانية يمكن إنتاج كتلة من الثلج من إناء ساخن. (بو)

ليرسم وجهه، والشمس تدور[١]. آخر يأخذ هذا النجم مع القمر والكواكب وبعد أن يزنها بدقة متناهية، جس أعماقها وحسب صلابة المادة التي صنعت منها. غير أن الأمة كلها ذات قدرة سحرية مدهشة للغاية، فلا أطفالها ولا قططها ولا كلابها يجدون صعوبة في رؤية الأشياء التي لا توجد أبدا أو التي مُحِيَت قبل عشرين مليون سنة على ميلاد الأمة نفسها من على وجه الكون[٢]".

قال الملك:" محال!"

"إن زوجات وبنات هؤلاء السحرة العظام والحكماء" واصلت شهرزاد بدون أن تزعجها على أي نحو هذه المقاطعات المتكررة والتي تخلو تماما من اللياقة من جانب زوجها: "إن زوجات وبنات هؤلاء السحرة البارزين صورة للكمال والرقي والجمال، غير أنهن

---

(١) (بو) التصوير الدغري. طريقة قديمة من التصوير الفوتوغرافي على ألواح فضية.

(٢) على الرغم من أن الضوء يسافر بسرعة ١٦٧,٠٠٠ ميل في الثانية، فإن مسافة النجم الذى سيجني ٦١ (النجم الوحيد الذي تحققنا من مسافته) عظيمة بشكل يفوق التصور، فاشعته تحتاج إلى أكثر من عشر سنوات لكي تصل إلى الأرض. بالنسبة للنجوم التي تقع بعده ستحتاج إلى ٢٠ أو حتى ١٠٠٠ سنة وهو تقدير متوسط. لهذا إذا كانت هذه النجوم قد انطفأت منذ ٢٠ أو ١٠٠٠ سنة مضت، فلعلنا نراها اليوم بسبب الضوء الذي انبعث من سطحها ٢٠ أو ١٠٠٠ سنة في الزمن الماضي. أن يكون عديد من النجوم التي نراها الآن اختفت حقيقة مستحيلة أو حتى بعيدة الاحتمال.

أكد هرشيل الأكبر، أن ضوء أضعف غيمة سديمية رآها عبر تليسكوبه لابد أنه استغرق ٣,٠٠٠,٠٠٠ سنة ليصل إلى الأرض. إذن بعض مما شوهد عبر جهاز لورد روس احتاج إلى ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ سنة على الأقل. (بو)

مقدرات لهلاك تعس يحدق بهن والذي لا تكفي حتى لإنقاذهن منه القوى الإعجازية لأزواجهن وآبائهن حتى يومنا هذا. يحل الهلاك في صور معينة- لكن ذلك الذي أتحدث عنه حل في صورة نزوة".

قال الملك:" ماذا؟"

قالت شهرزاد: "نزوة، جنّي شرير يحرص على أن يصيب المخلوقات بالمرض، وضع في عقول تلك السيدات الكاملات أن الشيء الذي نصفه بالجمال الجسدي يتكون تماما من نتوء المنطقة التي لا تبعد كثيرا عن أسفل نهاية العمود الفقري. يقلن إن كمال الفتنة يتناسب طرديا مع امتداد هذا النتوء. وإذ إن هذه الفكرة سيطرت عليهن طويلا، والنتوءات كانت رخيصة السعر في تلك البلاد، فقد مرت أيام طوال على الزمن الذي كان من الممكن تمييز امرأة عن الجمال".

قال الملك: "توقفي، لا أستطيع تحمل هذا، ولن. لقد أصبتيني بالصداع فعلا بأكاذيبك. كما أن النهار طلع كما أرى. كم استمر زواجنا؟ ضميري بدأ يوخزني مرة أخرى. ثم لمسة الجمال هذه... هل تعتبريني أحمق؟ على كل، تستطيعين النهوض أيضا وتعدمي".

تلك الكلمات كما عرفت من "هل هكذا أم لا" أحزنت وصعقت شهرزاد، لكن بما أنها عرفت أن الملك يتصف بنزاهة مفرطة ولن يغرم بسبب كلمته، استسلمت إلى مصيرها عن طيب خاطر. ومع ذلك فقد استقت عزاء عظيما (أثناء شد وتر القوس) من فكرة أن كثيرا من

القصص مازالت لم ترو وأن فظاظة وحشية زوجها جنت له ما يستحقه من مكافأة بحرمانه من مغامرات عديدة لن تخطر على باله.

رسالة في زجاجة

ذاك الذي لديه دقيقة واحدة فقط ليحيا

لم يعد لديه أي شيء يخفيه

كوينول- أتيس[1]

ليس لدي الكثير لأقوله عن بلدي وعائلتي؛ أبعدني سوء المعاملة وطول السنين عن واحد وغربني عن الأخرى. منحتني ثروة ورثتها ثقافة غير نظامية، وخولت لي نزعتي التأملية أن أضيف المنهجية على التاريخ الذي كدسته الدراسات المبكرة بإتقان. فقبل كل شيء، قد منحتني أعمال الأخلاقيين الألمان بهجة عظيمة؛ ليس لإعجابي الطائش بجنونهم البليغ بل بسبب السهولة التي خولتها لي بنية تفكيري الجامدة أن أكشف زيفهم. فغالبا ما وُبخت على جفاف عبقريتي، ونسب إلى نقص في الخيال باعتباره جريمة؛ والشكية التي تتميز بها آرائي جعلتني سيئ السمعة طوال الوقت. ففعليا أخشى أن استمتاعي بالفلسفة

---

(1) *Philippe Quinault*

كاتب مسرحي فرنسي (١٦٣٣-١٦٨٨)

وأتيس: هي نص أوبرا لموسيقي جان بابتيست لولي.

المادية صبغ عقلي بالخطأ الشائع ذاته لهذا العصر، أعني عادة إرجاع الحوادث، حتى الأقل قابلية منها لتلك المرجعية، إلى مبادئ تلك الفلسفة. إجمالا، لايوجد شخص أكثر مني عرضة لأن يبتعد عن التخوم الحادة للحقيقة بفتن خرافات وإن كانت معذبة فهي مضللة. رأيت أن من المناسب أن أمهد هذا التمهيد الطويل خشية أن يظن أن الحكاية التي لاتصدق التي سوف أرويها محض تحليق خيال فج عوضا عن أن تُرى تجربة حقيقية لعقل أصبحت أحلام الخيال بالنسبة إليه معرفة قديمة وباطلة.

بعد عدة سنوات قضيتها في الترحال، أبحرت في عام ١٩- من ميناء باتافيا، في جزيرة جاوة الغنية والمزدحمة بالسكان، على متن رحلة إلى جزر الأرخبيل. مضيت مسافرا لا دافع لي غير نوع من القلق العصبي سكنني بوصفه عفريتا.

كان مركبنا سفينة جميلة تزن حوالي ٤٠٠٠ طن، مطوقة بنحاس، مبنية في بومباي من خشب شبه جزيرة مالابار، كان على متنها حمولة من صوف القطن والزيت من جُزر المالديف. وكان لدينا أيضًا على سطحها ليف جوز الهند والجكر[١] والجية[٢]، وثمار جوز الهند وبعض الصناديق من الأفيون. تم تخزين كل هذه الأشياء بطريقة غير متقنة، وتهادى المركب تبعا لذلك.

(١) الجكر: سكر أسمر غير مكرر من عصارة النخل.
(٢) الجية: نوع من الزبدة.

بدأنا سيرنا بنسيم الريح فقط، وأبحرنا لعدة أيام بموازاة الساحل الشرقي لجاوة دون أي حادث يكسر رتابة سيرنا سوى مصادفتنا بعض القوارب الشراعية الصغيرة من جزر الأرخبيل التي كنا نقصد.

ذات مساء بينما كنت أركن إلى درابزين مؤخرة السفينة لاحظت سحابة وحيدة فريدة إلى الشمال الغربي. كانت استثنائية، من حيث لونها، كما من حيث إنها الأولى التي ترى منذ رحيلنا عن باتافيا. راقبتها بانتباه حتى المغيب، حيث انفصلت كلية مرة واحدة إلى الشرق وإلى الغرب وثبتت في الأفق مع شريط ضيق من البخار، وبدت مثل خط طويل لشاطئ منخفض وسرعان ما جذب انتباهي بعد ذلك مظهر القمر الذي اصطبغ بحمرة قانية، ومظهر البحر الغريب؛ فقد طرأ عليه تغير سريع وبدت مياهه أكثر شفافية من المعتاد. على الرغم من أنني أستطيع أن أرى القاع بوضوح، وجدت أن السفينة على عمق ١٥ قامة[١]. وأصبح الهواء حارا حرارة لا تحتمل ومحملا بهواء لولبي شبيه بذلك الذي ينبعث من حديد محمي. ومع حلول الليل، اختفت كل نسمة ريح وحل مزيد من الهدوء من المستحيل معرفة سببه. اشتعلت شعلة شمعة على مؤخرة السفينة بدون أن تتحرك أدنى حركة يمكن إدراكها أو الإحساس بها وتعلقت خصلة شعر طويلة محمولة بين الإبهام والسبابة بدون أن تتذبذب أيسر ذبذبة. مع ذلك بما أن الكابتن قال إنه لم يتلق أي إشارة على وجود خطر ما، وبما أننا كنا ننساق

---

(١) القامة: مقياس لعمق المياه يساوي ستة أقدام.

بسهولة إلى الشاطئ، أمر البحارة أن تطوي الأشرعة وأن ترفع المرساة. لم يعين حراسة مراقبة وتمدد طاقم السفينة بعفوية فوق سطحها. نزلت إلى أسفل سطح السفينة، وحس قوي ملأ قلبي بقرب حدوث كارثة؛ ففعليا كل مظهر من مظاهر الطبيعة برر لي خوفي من رياح السموم. أخبرت الكابتن بمخاوفي، لكنه لم يعر أي اهتمام لما قلته له، وتركني بدون حتى أن يتلطف بإعطائي إجابة. من ناحية أخرى، منعني انزعاجي عن النوم، وعند منتصف الليل تقريبا صعدت إلى سطح السفينة. ما إن وضعت قدمي على الدرجة الأعلى من سلم السفينة حتى أجفلني ضجيج عال مهمهم مثل تلك الذي يصدرعن دوران سريع لدولاب طاحون، وقبل أن أستطيع التأكد من معناه، وجدت السفينة ترتج حتى محورها. وفي اللحظة التالية طرح مقدار ضخم من الزبد السفينة إلى جانبها الذي مال بشدة، وكسح سطحها كله من أدناه إلى أقصاه، وهو يندفع فوقها من مقدمتها إلى مؤخرتها.

نجت السفينة من ضراوة الانفجار بقدر كبير. على الرغم من أنها مثقلة تماما بالمياه، ارتفعت بعد دقيقة ثقيلة من البحر، مع أن صواريها اختفت، وترنحت قليلا تحت ثقل الضغط الهائل للعاصفة ثم أخيرا اعتدلت.

بأي معجزة نجوت من الدمار – مستحيل أن أعرف. وجدت نفسي عند إفاقتي من ذهولي الذي نجم عن صدمة المياه محشورا بين القائم الخلفي والدفة. حررت قدمي بصعوبة بالغة، وعندما نظرت

حولي دائخا، صعقتني في البداية فكرة أننا نوجد في وسط أمواج متكسرة. كانت مروعة جدا - تفوق أكثر الأخيلة جموحا- دوامة المحيط الضخم والزبدي الذي انحبسنا في وسطه. بعد فترة قصيرة سمعت صوت رجل سويديا، أبحر معنا عند ساعة مغادرة الميناء. ناديت بكل قوتي عليه وجاء مترنحا إلى مؤخرة السفينة. سرعان ما اكتشفنا أننا الناجيان الوحيدان من الحادث؛ فكل من كان على السطح، باستثنائنا، كُسح من فوقها. لابد أن الكابتن ورفاقه هلكوا أثناء نومهم لأن كابينته كانت مغمورة بالمياه. ولم نتوقع أننا نستطيع إنجاز الكثير لننقذ السفينة بدون مساعدة، وقد شل جهودنا في البداية توقعنا أننا سنغرق في أي لحظة. انفصل كابل السفينة بالطبع مثل الخيط الذي تحزم به الطرود، مع أول زفير للإعصار، وإلا كانت المياه غمرتنا على الفور. اندفعنا نسير بسرعة مخيفة فوق المياه، ووثبت المياه وثبات قوية فوقنا. تمزق إطار مؤخرة السفينة تماما وتلقينا إصابات بليغة من كل ناحية تقريبا. لكن ولفرحتنا البالغة وجدنا أن المضخات لم تسد وأننا لم ننحرف انحرافا عظيما عن الصابورة، لقد انقضت ضراوة الانفجار الرئيسي، ولم نخش خطرا من عنف الرياح. لكننا تطلعنا إلى توقفها التام برعب لأننا آمنا تماما أن في حالتنا المتشظية هذه لابد أن نهلك حتميا من الأمواج الرهيبة التي ستتبع ذاك. غير أن هذا الخوف نفسه بدا أنه لن يتحقق على الأرجح؛ فلمدة خمسة أيام كاملة وليال- كانت قوتنا فى أثنائها كمية صغيرة من الجكر الذي حصلنا عليه بمشقة

من أعلى مقدمة السفينة حيث يبيت النوتية - طفا الهلاك بسرعة تتحدى الحسابات أمام هبات متتالية سريعة من الرياح لاتزال، بدون أن يتوفر لي حساب قدر شدة الهبة الأولى من رياح السموم، أكثر رهبة من أي عاصفة صادفتها من قبل. كان مسارنا لأول أربعة أيام مع اختلافات تافهة إلى الجنوب الشرقي والجنوب. ولابد أننا سرنا إلى جـــانب ساحل هولندا الجديدة. في اليوم الخامس أصبح البرد شديدا، على الرغم من أن الرياح غيرت مسارها عند نقطة أقرب إلى الشمال. بزغت الشمس بوهج أصفر شاحب وتسلقت بجهد درجات قليلة هذا فـــوق الأفق دون أن ترسل أي نـــور قاطـــع. لم تظهر أي سحب على الرغم من أن الرياح كانت تزداد وتهب بضراوة متقطعة وغير ثابتة ومن كل الجهات. عند الظهيرة، بقدر ما استطعنا أن نخمن، أسر انتباهنا أيضًا مظهر الشمس، لـــم يصدر منهـــا أي ضـــوء، هذا ما يقال بالضبط، إلا شعاع كئيب ومعتم بدون انعكاس كما لو أن كل أشعتها مستقطبة. وقبل أن تغرق في البحـــر الطنان، اختفت شعلتها المركزية فجأة كما لو أن قوة غير مفهومة اطفأتها بعجلة. كانت إطارا معتما شبيها بالفضة، وحيدا، بينما تندفع بعجلة نحو المحيط العميق.

تطلعنا إلى قدوم اليوم السادس عبثا- لم يأت هذا اليوم بالنسبة إليَّ بعد، ولم يأت أبدا بالنسبة للعجوز السويدي. منذ ذلك الحين فصاعدا، حجبتنا ظلمة فاحمة بحيث لم نستطع أن نرى شيئا على بعد عشرين خطوة من السفينة. استمر ليل أبدي يغلفنا لا يخفف من وطأته

لمعان البحر الفسفوري الذي اعتدناه في المنطقة الاستوائية. لاحظنا أيضا أنه على الرغم من أن العاصفة واصلت ثورتها بكامل عنفها، لم يعد هناك المزيد لسبره في المظهر المعتاد للأمواج المتكسرة أو الزبد الذي أحاطنا قبل ذلك. كل شيء حولنا كان مرعبا وكئيبا كآبة ثقيلة وصحراء قانطة من الأبنوس. زحف تدريجيا إلى العجوز السويدي نفسه رعب خرافي، وغلفت روحي دهشة صامتة. أهملنا أي رعاية بالسفينة، فمن الأفضل أن تكون في حالة سيئة عن أن تصبح عديمة الجدوى، ولم نفعل إلا النظر حولنا بمرارة إلى عالم المحيط بعد أن أمنا أنفسنا بقدر الإمكان عند ما تبقى من جذع الصارية الخلفية. لم نملك وسيلة لحساب الزمن، ولم نستطع أن نقوم بتخمين ما يحدد موقعنا، لكننا كنا ندرك تماما أننا تقدمنا باتجاه الجنوب أكثر من أي ملاح سابق، واندهشنا اندهاشا عظيما لأننا لم نصادف أي عوائق ثلجية. وفي الوقت نفسه، كانت كل لحظة تمر تهديدا بأنها الأخيرة. فاقت الأمواج كل شيء تخيلته، وحقيقة أنها لم تدفنا على الفور معجزة. تحدث رفيقي عن خفة حمولتنا وذكرني بالنوعية الممتازة التي صنعت منها سفينتنا، لكنني لم أستطع أن أمنع نفسي عن الشعور باليأس التام من الأمل نفسه وأعددت نفسي كئيبا لذلك الموت الذي اعتقدت أن لا شيء يمكن أن يؤجله لأكثر من ساعة، بما أنه مع كل عقدة تقطعها السفينة، يصبح انتفاخ المياه السوداء الهائلة مرعبا رعبا موحشا. في بعض الأحيان، شهقنا لكي نلتقط أنفاسنا على ارتفاع يفوق ارتفاع طائر القطرس؛ وفي أحيان أخرى أصابنا الدوار بسبب سرعة هبوطنا نحو

جحيم مائي، يغدو فيه الهواء راكدا، صامتا بلا أدنى صوت يزعج سبات الكركن.

كنا في قاع إحدى تلك الهاويات، حين شقت صرخة سريعة من رفيقي جوف الليل. صرخ زاعقا في أذني: " انظر! انظر! سبحان الله! انظر! انظر!" بينما كان يتحدث رأيت وميضا كئيبا معتما من نور أحمر، انتشر على جانبي الشق الواسع الذي رقدنا فوقه، ونثر لمعانا متقطعا على سطح السفينة. وحيث علقت عينيَّ للأعلى، رأيت مشهدا جمد جريان دمي. فعلى ارتفاع رهيب فوقنا مباشرة، وعلى الحافة ذاتها من المنحدر شديد التحدر، تحلق سفينة عملاقة تزن ربما ٤٠٠٠ طن. وعلى الرغم من أنها ترتفع فوق قمة موجية ارتفاعها يزيد عليها مائة مرة، مازال حجمها الظاهر يفوق أكبر سفينة حربية أو تجارية في شركة الهند الشرقية في الوجود. هيكلها الضخم أسود سوادا قذرا لا يخفف منه أي من تلك النقوش الاعتيادية على السفن. يبرز من فتحاتها الجانبية صف وحيد من المدافع النحاسية، وتتلاطم فوق سطحها المصقول نيران مشاعل حربية لا تحصى تتأرجح ريحة وجيئة حول حبال صواريها. لكن ما أثار فينا الرعب والذهول أنها كانت تشق طريقها تحت ثقل حشد أشرعتها في عكس اتجاه ذلك البحر فوق الطبيعي، وعكس اتجاه ذلك الإعصار. عندما اكتشفناها في البداية، رأينا مقدمتها فقط التي ظهرت بينما كانت تنهض ببطء من الخليج المعتم والرهيب الكامن تحتها. للحظة من الرعب الشديد توقفت فوق القمة المدوخة كأنها تتأمل سموها، ثم اهتزت وتمايلت وانطلقت نحو الرياح.

لا أعرف أي رباطة جأش فجائية حلت بروحي في هذه اللحظة. انتظرت وأنا أتأرجح بعيدا في مؤخرة السفينة، بقدر ما استطعت بلا خوف، الدمار الذي على وشك أن يحل بي. كانت سفينتنا قد كفت أخيرا عن نزاعها وغاصت مقدمتها في البحر. ضربتها صدمة الكتلة الهابطة في ذلك الجزء من هيكلها الذي كان يغوص بناء عليه تحت سطح الماء تقريبا، وكانت النتيجة الحتمية هي أنني طرحت بعنف لا حيلة لي لمقاومته فوق أشرعة السفينة الغريبة وصواريها وحبالها.

أثناء سقوطي، كانت السفينة تشرع بالإقلاع / بالإبحار، وعزوت غفلة الطاقم عن ملاحظتي إلى الارتباك الذي تلى هذا. شققت طريقي، بصعوبة قليلة، غير مرئي إلى الباب الأرضي الرئيسى الذي كان مفتوحا جزئيا، وسرعان ما أتيحت لي الفرصة لكي أخفي نفسي في العنبر. لن أستطيع أن أقول لم فعلت هذا. لعل إحساس الرهبة غير المحدد الذي سيطر على عقلي حين وقع نظري على ملاحي السفينة كان السبب وراء حجبي لنفسي. لم أكن مستعدا لأن أثق في عرق من البشر الذي منحني من النظرة الفضولية السريعة التي ألقيتها عليه خواصا عديدة غير مألوفة غامضة وريبة وخشية. لذلك اعتقدت أن من المناسب أن أجد لنفسي مكانا خفيا في العنبر. وفعلت هذا بإزالة جزء من ألواح الحواجز الداخلية التي تحجز البضاعة خلفها بحيث توفر لي ملجأ مناسبا بين الألواح الخشبية الضخمة للسفينة.

ما إن أنجزت عملي حتى أجبرتني خطوات في العنبر على الانتفاع منه. مر رجل بجوار مخبئـــي بمشيـــة ضعيفـــة ومتـــرنحة. لم أستطع رؤية وجهه، لكن أتيحت لي الفرصة لكي أتأمل هيئته العامة. كانت تدل على عمر عظيم ووهن. انحنت ركبتاه تحت ثقل حمل السنين وارتجف هيكله الكلي من الإرهاق. دمدم لنفسه في نبرة متكسرة خفيضة بعض الكلمات بلغة لم أستطع أن أفهمها وتلمس طريقه في أحد الأركان وسط كومة من الأدوات غريبة الشكل وجداول ملاحة بالية. كان أسلوبه مزيجا فظا من طفولة ثانية برمة والجلال المقدس لإله. صعد إلى سطح المركب ولم أره بعد ذلك.

استولى على روحي شعور لا أملك له اسما – الإحساس الذي لن يخضع لأي تحليل ولا تكفي له دروس الزمن الماضي وأخشى من أن المستقبل نفسه لن يقدم مفتاحا له. وهذا الاعتبار الأخير بالنسبة لعقل له تكويني هو اعتبار مؤذ. لن أسعد أبدا – أعرف أنني لن أسعد أبدا- بطبيعة أفكاري. حقيقة أن هذه الأفكار لانهائية أمر ليس رائعا بما أن أصولها تكمن في مصادر جديدة كلية. إحساس جديد- كيان جديد أضيف إلى روحي.

مضى وقت طويل منذ أن وطأت قدماي أول مرة سطح هذه السفينة الرهيبة، وأعتقد أن أشعة قدري تتجمع في بؤرتها. رجال غامضون! فهم يمرون بي دون أن يلاحظونني – تغلفهم تأملات من نوع لا أستطيع التكهن به. إن الاختباء حماقة كاملة مني لأن الناس لن

يروا. لم أمر مباشرة أمام أعين الرفاق إلا الآن فقط، ولم يمر وقت طويل حتى غامرت بالذهاب إلى حجرة الكابتن الخاصة وأخذت منها المواد التي أكتب بها وكتبت. سأواصل بين الحين والآخر هذه اليوميات. لعلي حقا لن أجد فرصة لتوصيلها إلى العالم لكن لن أتوانى عن بذل المحاولة. في اللحظة الأخيرة سوف أضع الرسالة في زجاجة وأرمي بها إلى البحر.

وقع حادث منحني موضوعا جديدا للتأمل. هل هذه الأشياء تدبير صدفة لا سبيل للسيطرة عليها؟ غامرت بالصعود إلى سطح السفينة وألقيت بنفسي دون أن يلاحظوني وسط كومة من سلالم الحبال البحرية والأشرعة القديمة في قاع مركب شراعي. وأثناء ما كنت أتسلى بالتفكير في غرابة قدري، دهنت بفرشاة قار حواف شراع خفيف مطوى بعناية، يرقد إلى جانبي على برميل. ارتفع الشراع الخفيف الآن فوق السفينة وتناثرت الضربات العشوائية للفرشاة إلى كلمة: اكتشاف.

بعد ذلك قمت بتدوين ملاحظاتي عن هيكل السفينة. على الرغم من أنها مسلحة تسليحا جيدا فهي على ما أعتقد ليست سفينة حربية؛ فصواريها وبنيتها وتجهيزها العام ينفي افتراضا من هذا النوع. ما لم يكن أستطيع إدراكه بسهولة. ماذا تكون، أخشى أن من المستحيل أن أعرف. لا أعرف كيف يحدث هذا، لكن عندما أفحص نموذجها الغريب وهيئة صواريها الفريدة وحجمها الضخم ومجموعة أشرعتها الوفيرة، ومقدمتها البسيطة للغاية ومؤخرتها العتيقة، يومض في ذهني

أحيانا إحساس بأشياء مألوفة، ويوجد دائما مزيج من ظلال مبهمة من التذكر- من ذاكرة غير مبررة لأزمنة غريبة وعصور سحيقة مضت.

كنت أنظر إلى ألواح السفينة. لقد بنيت من مادة غريبة عليَّ، فالخشب يمتاز بخاصية فريدة صعقتني عندما وجدته غير مناسب للغرض الذي استخدم من أجله – أعني قابليته الشديدة للنفاد إذا أخذتها في الاعتبار بعيدا عن حالته المتآكلة التي نتجت عن الإبحار في هذه البحار وبعيدا عن البلي المصاحب لعمره. لعلها ستبدو ملاحظة غريبة للغاية، غير أن هذا الخشب كان يمكن أن يملك كل صفات البلوط الإسباني، لو أن البلوط الإسباني يتضخم بسبب أي عامل غير طبيعي.

عندما قرأت الجملة السابقة خطر على بالي قول مأثور وغريب لملاح هولندي سفعه البحر، اعتاد أن يقوله عندما يعلل شكا ما في صدق ما يقوله: "بالتأكيد، يوجد بحر تنمو فيه السفينة نفسها حجما مثل الجسد الحي للبحار".

منذ ساعة مضت تجرءتُ على أن أثق في جماعة من الطاقم. لم تعرني أي انتباه، وعلى الرغم من أنني وقفت في منتصفها تماما، بدت أنها لا تعي وجودي أبدا. يحمل أفرادها جميعا علامات العمر المهيب مثل الشخص الذي رأيته أول مرة في العنبر. ترتجف ركبهم بسبب الوهن وانحنت أكتافهم تحت عجز الشيخوخة، وتخشخش جلودهم المتغضنة في الرياح، وأصواتهم خفيضة ومرتجفة ومهشمة، وتتلألأ

عيونهم بدموع السنين وتتموج شعورهم في الرياح. حولهم وفي كل مكان على السطح تتناثر أكثر الأدوات البنائية الرياضية غرابة وعتاقة.

تحدثت من فترة ما مضت عن طوي الشراع الخفيف. منذ تلك الفترة، واصلت السفينة، وقد طرحت مباشرة إلى الرياح، مسارها الرائع نحو الجنوب مع كل شراع محزوم فوقها، من أدواتها الصغيرة ضئيلة القيمة حتى ذراع تطويل قاعدة أشرعتها الخفيف، وتدير كل لحظة طرف عارضة شراعها الأعلى إلى أكثر جحيم مياه مروع يمكن أن يدخل إلى عقل إنسان يتصوره. لقد تركتُ السطح توا حيث وجدت أنه من المستحيل أن أجد موطأ قدم على الرغم من أن الطاقم لايبدو أنه يعاني أي إزعاج. يبدو لي أنها معجزة المعجزات أن هيكلنا الهائل لم تبتلعه المياه مرة واحدة وإلى الأبد. بالتأكيد مقدر لنا أن نحوم باستمرارعلى شفا الأبدية بدون أن نغطس نهائيا إلى الهاوية. فمن أمواج أكثر ضخامة ألف مرة مما رأيت من قبل انزلقنا برشاقة النورس، والأمواج الهائلة تثب برؤوسها فوقنا مثل شياطين الأعماق، لكن مثل شياطين تقتصر على تهديدات بسيطة ومحظور عليها أن تدمرنا. اهتديت إلى أن أعزو هذه الانفلاتات المتكررة إلى السبب الطبيعي الوحيد الذي يمكن أن يبرر هذه النتيجة. لابد أن أفترض أن السفينة تحت نفوذ تيار ما قوي أو تيارات تحت سطحية عنيفة.

رأيت الكابتن وجها لوجه وفي غرفته الخاصة، لكن، كما توقعت، لم يعرني أي اهتمام. على الرغم من أنه لايوجد في مظهره

بالنسبة للملاحظ العرضي شيء ما قد يوحي أنه أكثر أو أقل من إنسان، مع ذلك، كنت أنظر إليه بإحساس من التوقير الطاغي والرهبة امتزج مع إحساس بالتعجب. في قامته، هو تقريبا طولي، أي حوالي خمسة أقدام وثمانية إنشات، قوي البنية ذو هيكل مكتنز، لكنه لا يتسم بالغلظة ولا بأي صفة أخرى لافتة للنظر. إنها خصوصية التعبير التي تسود وجهه- إنه الدليل الحاد والعجيب والمرجف على عمر متقدم واضح جدا، وممتد طويلا، هو الذي يثير بداخل روحي إحساسا - عاطفة لا توصف. على الرغم من أن جبينه لايحمل علامات تغضن كثيرة، يبدو أنه يحمل فوقه دمغة آلاف السنوات. شعره الرمادي سجلات الماضي وعيناه العميقتان كاهنتا المستقبل. كانت أرض الغرفة مبذورة بأوراق غريبة محكمة في دبابيس حديدية وأجهزة علمية مزخرفة وجداول مهجورة مهملة. كان رأسه منحنيًا فوق يديه ويحدق بعين متقدة قلقة في ورقة اعتقدت أنها لابد أن تكون تفويضا ما، وفي كل الأحوال كانت تحمل توقيع ملك ما. تمتم لنفسه – كما فعل البحار الأول الـــذي رأيتـــه في العنبر - بألفاظ برمة خفيضة بلغة أجنبية وعلى الرغم من أن المتحدث كان قريبا مني عند مرفقي، فقد بدا أن صوته يأتي من مسافة ميل.

إن السفينة وكل ما عليها مصبوغ بروح القدم. ينسل الطاقم ريحة وجيئة مثل أشباح قرون دفينة، في عيونه تعبير عن اللهفة والقلق، وعندما تسقط أصابعه عبر طريقي في النور الجامح للمشكاة

المعركة، أشعر كما لم أشعر من قبل على الرغم من أنني كنت طوال حياتي تاجر آثار العصور القديمة وتشربت ظلال الأعمدة المتداعية لبعلبك وتدمر وإصطخر[1] حتى أصبحت روحي نفسها حطاما.

عندما نظرت حولي شعرت بالخزي من خوفي السابق. فإذا كنت ارتعدت من هبة ريح اكتنفتنا من قبل، أفلن أقف مذعورا عندما تهب الرياح والمحيط متصارعين، فلن أستطيع أن أنقل أي فكرة عنهما حيث إن كلمتي الترناد (الإعصار القمعي) ورياح السموم تافهتان ولا تأثير لهما، كل ما يحيط السفينة سواد الليل الأبدي وفوضى من المياه اللازبدية. لكن على بعد فرسخ من جانبي السفينة، يمكن أن يرى بغير وضوح وعلى فترات زمنية متاريس ضخمة من الثلج شاهقة ترتفع إلى السماء المعزولة وتبدو مثل حوائط الكون.

كما تصورت، اتضح أن السفينة في تيار مائي، لو أن ذلك الرعب الذي يرعد عاصف وزاعق باتجاه الجنوب بسرعة الاندفاع المتهور للشلال يمكن أن ينسب إلى مد ما.

أظن أن من المستحيل إدراك هول إحساسي، إلا أن الفضول لاختراق غموض تلك المناطق البشعة هيمن حتى على يأسي وسوف يروضني على الإذعان للموت. من الواضح أننا نسرع قدما إلى معرفة مثيرة ما- سر لا ينبغي له أن يُكتشف أبدا، وإحرازه هو الدمار. لعل

---

(١) إصطخر، مدينة تاريخية أقامها الإمبراطور الفارسي دارا عام ٥١٨ ق.م، بفارس، عاصمة للإمبراطورية الإخمينية

هذا التيار يقودنا إلى القطب الجنوبي نفسه. يجب أن أعترف أن فرضية بهذا الجموح تتكافئ فيها كل الاحتمالات.

يخطو الطاقم على السطح بخطوات قلقة ومرتعدة، لكن يوجد فوق ملامحه تعبير عن لهفة الأمل أكثر منه فتور اليأس.

في الوقت نفسه لا تزال الرياح عند مؤخرة السفينة، وبما أننا نحمل حشدا من الأشرعة المصنوعة من قماش القنب، ترتفع السفينة أحيانا فوق سطح مياه البحر! رعب وراء رعب! ينفتح الثلج فجأة على اليمين وعلى اليسار، وندور في دوائر متحدة المركز حول مدرج عملاق، ضاعت قمة جدرانه في الظلمة والبعد. لكن ليس لدي وقت لأتأمل مصيري! تغدو الدوائر أصغر سريعا، نحن نغطس بجنون في قبضة الدوامة، ووسط زئير ورعد وجأر المحيط والعاصفة ترتجف السفينة- يا إلهي- وتهبط!

ملاحظة: نشرت في الأساس "رسالة في زجاجة" في عام ١٨٣١، ومرت سنوات عديدة حين أصبحت ملما بخرائط الإسقاط المركاتوري[١]، حيث يوصف المحيط فيها بأنه طوفان يندفع، عبر أربعة مصبات إلى الشمال حيث الخليج القطبي، إلى أحشاء الأرض. ويوصف القطب نفسه بصخرة سوداء، ترتفع إلى علو استثنائي. (بو)

---

(١) الإسقاط المركاتوري: طريقة في رسم الخرائط تمثّل فيها خطوط الطول والعرض بخطوط مستقيمة لابخطوط منحنية، اخترعه جيرار مركاتور في عام ١٥٦٩، وهو رسام خرائط فلمنكي (١٥١٢-١٥٩٤)

هبوط إلى الدوامة الهائلة

إن سبل الله مع الطبيعة، كما في العناية الإلهية، ليست مثل سبلنا، ولا تتساوى النماذج التي نؤطرها بأي طريقة مع سعة وعمق وغموض أعماله التي تحتوي عمقا أعظم من عمق بئر ديموقريطس.
جوزيف جلنفيل[1]

وصلنا الآن إلى أعلى قمة جرف على الشاطئ، ولعدة دقائق بدا الرجل العجوز مرهقا جدا فلم يتحدث على الفور.

في النهاية، قال: "كنت أستطيع، منذ فترة قصيرة مضت، أن أرشدك في هذا الطريق كما قد يفعل أصغر ابن من أبنائي؛ غير أنه منذ ثلاث سنوات مضت، وقع لي حادث لم يقع أبـــدا لمخلوق بشري، أو على الأقل لم يعش إنسان بعده من قبل ليحكيه، والساعات الست من الرعب القاتل التي تحملتها حينئذ، حطمت جسدي وروحي. تظن أنني رجل عجوز جدا، لكنني لست كذلك؛ لقد أستلزم أقل من يوم واحد لكي يتغير هذا الشعر من الأسود الفاحم إلى الأبيض، وتهن أطرافي، وتتوتر أعصابي حتى إنني أرتجف مع أقل مجهود أبذله، وأرتعب من أي ظل. هل تعرف أنني لا أستطيع أن أنظر من أعلى هذا الجرف الصغير بدون أن يصيبني الدوار؟"

---

(1) *Joseph Glanvill (1636-1680)* كاتب إنجليزي.

إن "الجرف الصغير" الذي رمى نفسه على حافته بلامبالاة مستلقيا بحيث تدلى الجزء الأثقل من جسده فوقه، في حين كان يمنعه فقط عن السقوط كوعه الذي ثبته على حافته الخارجية والزلقة – بزغ هذا "الجرف الصغير" وهو جرف شديد التحدر، من الصخر الأسود اللامع، على ارتفاع ألف وخمسمائة أو ستمائة قدم من عالم الأجراف التي تقبع تحتنا. لا يوجد شيء يمكن أن يغريني حتى أقف على بعد نصف دستة ياردات من حافته. في الحقيقة، أثارني بشدة موقع صديقي المحفوف بالخطر بحيث سقطت طوليا على الأرض، وتشبثت بشجيرات حولي، ولم أجرؤ حتى على النظر إلى السماء، بينما أناضل عبثا لكي أنحي عن نفسي فكرة أن أساس الجبل ذاته معرض لخطر ضراوة الرياح. ومضى وقت طويل قبل أن أقنع نفسي بالشجاعة الكافية لكي أنتصب وأنظر بعيدا.

قال المرشد:" يجب أن تتغلب على تلك الأخيلة لأنني أحضرتك هنا لكي تحصل على أفضل رؤية ممكنة لمشهد الحدث الذي ذكرته، ولكي أحكي لك القصة كاملة في المكان نفسه الذي وقعت فيه تحت عينك".

واصل قائلا بأسلوبه التفصيلي الذي يميزه: "نحن الآن بالقرب من الشاطئ النرويجي على خط عرض ثمانٍ وستين درجة، في إقليم هولندا العظيم، وفي منطقة ***Lofoden*** المخيفة. إن الجبل الذي نجلس فوق قمته الآن هو ***Helseggen*** الغائم. الآن ارفع نفسك إلى الأعلى

قليلا، أمسك بالأعشاب إذا شعرت بالدوار- هكذا- وانظر خلف حزام البخار الذي تحتنا إلى البحر". نظرت وأنا أشعر بدوار، فشاهدت مدى عريضا من المحيط اكتست مياهه لون حبر غامقا بحيث ذكرني على الفور برواية الجغرافي[1] النوبي عن بحر الظلمات. مشهد كامل كئيب كآبة تبعث على الأسى لا يمكن لأي خيال إنساني أن يدركه. إلى اليسار وإلى اليمين بقدر ما تستطيع العين أن تصل ترقد ممتدة مثل سور واق للعالم، سلسلة من الأجراف السوداء سوادا مروعا، الناتئة، توضح ظلمتها بقوة أكبر الأمواج المتكسرة التي تثب في مواجهتها قممها الزبدية الضخمة، البيضاء، تعوي وتصرخ وتزعق للأبد. في مقابل قنة الجبل الخارجة منه والداخلة في البحر التي كنا نقف على قمتها وعلى مسافة خمسة أو ستة أميال في البحر، رأينا جزيرة صغيرة ومكشوفة للرياح بوضوح، أو بكلمة أدق، استطعنا أن نراها بوضوح وسط وحشية جيشان الأمواج الذي غلفها. وعلى بعد ميلين من الشاطئ، بزغت واحدة ذات حجم أصغر جرفية ببشاعة وقاحلة ويطوقها على مسافات متباعدة عنقود من الصخور الداكنة.

يكتسي مظهر المحيط، في المسافة التي تقع بين الجزيرة الأبعد والشاطئ شيء ما غير عادي. على الرغم من أنه، في إحدى المرات، كانت تهب عاصفة قوية للغاية باتجاه الأرض بحيث أوقفت سفينة

---

(١) إشارة إلى عمل، السيد. *Jacob Bryant " A New System or an Analysis of Ancient Mythology.*

شراعية بصاريتين في عرض البحر البعيد ترزح تحت ثقل شراعها المخصص للعواصف الذي طوي مرتين، وطمرت هيكلها كله بعيدا عن الأنظار، فلاشيء هنا له علاقة بأمواج منتظمة بل كان تلاطما للمياه قصيرا وسريعا وغاضبا ومتعارضا من كل اتجاه. ولم يكن يوجد زبد إلا في المنطقة المجاورة مباشرة للصخور.

تابع الرجل العجوز كلامه قائلا: " يسمي النرويجيون الجزيرة البعيدة ***Vurrgh***، والتي في المنتصف ***Moskoe***. والتي على بعد ميل باتجاه الشمال ***Ambaaren***. أما الأبعد فهي ***Islesen, Hotholm, Keildhlm, Suarven, Buckholm***. الأكثر بعدا بين ***Moskoe, Vurrgh*** هي ***Otterholm, Flimen, Sandflesen, Stockholm***. هذه هي الأسماء الحقيقية للأماكن، لكن لِمَ أعتقدوا أن من الضروري تسميتها بأي حال، هو أمر أكبر مما أنا أوأنت نستطيع فهمه. هل تسمع أي شيء؟ هل ترى أي تغيير في المياه؟"

مضى علينا عشر دقائق تقريبا فوق قمة ***Helseggen***، الذي صعدنا إليه من داخل ***Lofodon***، لم نستطع أن نلمح البحر حتى برز لنا من القمة. بينما كان يتحدث الرجل العجوز كان يصل إلى مسامعي صوت عالٍ أخذ يتزايد تدريجيا مثل نواح قطيع من الجاموس في مرج أمريكي، وفي اللحظة نفسها رأيت - ما يسميه البحارة محيطا متلاطم الأمواج- تحتنا يتغير سريعا إلى تيار ينحو إلى الشرق. لقد اكتسب هذا التيار سرعة مهولة أثناء حتى ما كنت أنظر إليه، فكل لحظة تمر

تضاف إلى سرعته - إلى اندفاعه الطائش. في خمس دقائق بقدر المسافة التي تقع عندها ***Vurrgh*** اندفع البحر كله بعنف وفجأة في ضراوة طليقة، لكن كانت الضراوة الحقيقية للاضطراب تقع بين ***Moskoe*** والشاطيء؛ ففي هذه المسافة تشقق المجرى العريض للمياه وتناثر إلى آلاف القنوات المتصارعة التي انفجرت فجأة في اضطراب عنيف مجنـــون يجيـــش ويغلي ويهسهس ويدور في دوامات عملاقة لا تحصى، وكلها تلتف وتغطس إلى ناحية الشرق بسرعة لم تكتسبها أي مياه في مكان آخر أبدا باستثناء المهابط شديدة التحدر.

في عدة دقائق أخرى طرأ على المشهد تغير آخر. غدا السطح العام أملس تدريجيا واختفت الدوامات واحدة بعد الأخرى بينما ظهرت خطوط الزبد الشنيعة في أماكن لم تظهر بها من قبل. في النهاية انتشرت هذه الخطوط لمسافة عظيمة وامتزجت واتخذت حركة لولبية من دوامات جانبية وبدت أنها تشكل بذرة دوامة واحدة أخرى أسرع. فجأة، فجأة جدا، اتخذت وجودا مميزا ومحددا في دائرة محيطها أكثر من ميل. وأحاط حافة الدوامة حزام عريض من الرذاذ الوامض، لكن لم ينزلق جزء منه إلى فم القمع المخيف الذي كان داخله بقدر ما تستطيع العين سبره، عبارة عن حائط من المياه ناعم ومشع وأسود فاحم ينحدر إلى الأفق بزاوية قدرها خمس وأربعين درجة، وهو يسرع سرعة مدوخة في دوائر هائجة ومتأرجحة، ويطلق إلى الرياح صوتا بشعا نصفه زعيق ونصفه الآخر زئير لم تصدره شلالات نياجرا وهي ترتفع صخبا إلى السماء.

ارتعش الجبل حتى قاعدته ذاتها واهتز الجرف. رميت نفسي على وجهي وتشبثت بالأعشاب الهزيلة في حالة هياج عصبي شديد. قلت في النهاية للرجل العجوز: "هذا لا يقل عن أن يكون الدوامة العظيمة".

قال "هكذا يسمى أحيانا، نحن النرويجيون نسميه دوامة موسكوي على اسم جزيرة ***Moskoe*** في منتصف الطريق".

لم يعدني الوصف العادي لهذه الدوامة لما رأيته. لا ينقل وصف جوناس راموس[١] الذي يعتبر على الأرجح الأكثر تفصيلا، أدنى تصور سواء عن روعة المشهد أو هوله أو الإحساس المربك الجامح للجدة التي تذهل المشاهد. لست متأكدا من الموقع أو الوقت الذي قام الكاتب الذي أتكلم عنه من خلالهما بمسحه، لكنه لا يمكن أن يكون من فوق قمة هلسجين ولا فى أثناء هبوب العاصفة. على الرغم من أن هناك بعض الفقرات من وصفه التي يمكن الاستشهاد بها بسبب تفصيلاتها، فإن أثرها ضعيف للغاية في نقل انطباع المنظر.

يقول: "بين ***Lofoden*** و***Moskoe***، يصل عمق المياه بين ست وثلاثين وأربعين قامة[٢]، لكن في الناحية الأخرى تجاه ***Vurrgh***،

---

(1) Jonas Ramus (1649-1718)

في عمله عن أن أسطورة عوليس وقعت في هذه المنطقة محور القـصة الحاليـة. اقتبس إدجار العمل من الموسوعة البريطانية.

(٢) القامة مقياس لعمق المياه يساوي ٦ أقدام.

يتناقص هذا العمق فلا يعد صالحا كممر ملائم لمركب بدون خطر انزلاقه على الصخور حتى في الجو الهادئ. عندما يفيض، يغطي التيار القطر بين *Lofoden* و*Moskoe* بسرعة شديدة، غير أن زئير انحساره الشديد إلى البحر بالكاد يكافئ أصخب الشلالات وأكثرها رعبا، تسمع الضجة على بعد عدة فراسخ، والدوامات أو الحفر ذات سعة وعمق هائلين بحيث لو دخلت سفينة ضمن مجال جاذبيتها تمتصها حتما فتهبط إلى عنقها حيث تتحطم على الصخور إلى حطام، وعندما تسترخي المياه ترمي القطع المحطمة من أعماقها إلى سطحها مرة أخرى. لكن فترات الهدوء هذه تقع عند تغير المد والجزر فقط وفي الجو الهادئ ولا تدوم إلا ربع الساعة، حين يعود عنفها تدريجيا. عندما يكون التيار في ذروة صخبه، وتعلي من جنونه العاصفة، من الخطر أن تقترب ميلا من شاطئ النرويج. لقد جرفت القوارب واليخوت والسفن بعيدا لأنها لم تحترس منه قبل أن يحملها إلى داخله. ويحدث تكرارا أيضًا أن تقترب الحيتان من التيار ويغلبها عنفه، حينئذ من المستحيل وصف جأرها وصراخها في نضالها العقيم لتخلص نفسها. ذات مرة حاول دب أن يسبح من *Lofodon* إلى *Moskoe* قبض عليه التيار وحمله إلى الأسفل بينما يجأر مرعوبا بحيث وصل جواره إلى الشاطئ. كتل خشبية ضخمة من أشجار التنوب والصنوبر بعد أن يمتصها التيار، تظهر مرة أخرى محطمة وممزقة إلى درجة كما لو أن كتلا غليظة وصلبة من الشعر نمت فوقها. هذا يدل بوضوح على أن

القاع يتكون من صخور جرفية دارت بينها ريحة وجيئة. ينظم المد والجزر هذا التيار؛ فهو يعلو وينخفض بثبات كل ست ساعات. في عام ١٦٤٥، مبكرا في صباح أحد الستين[١]، هاج بضجة هائلة وصخب إلى حد أن أحجار البيوت انهارت على الشاطئ".

فيما يتعلق بعمق المياه، لم أستطع أن أدرك كيف يمكن التحقق منه بأي حال في المنطقة المجاورة مباشرة للدوامة. لابد أن الأربعين قـدما فقط تشير إلـى أقسـام من القناة قريبة من شاطئ ***Moskoe*** أو ***Lofodon***. لابد أن العمق في مركز دوامة ***Moskoe*** أعظم بكثير، ولا يوجد دليل مهم أفضل على هذه الحقيقة من الدليل الذي يمكن الحصول عليه من نظرة غير مباشرة يمكن إحرازها من فوق أعلى جرف فوق ***Helseggen*** إلى هاوية الدوامة.عندما نظرت إلى الأسفل من فوق القمة العالية على فليجثون[٢]، الذي يعصف في الأسفل لم أستطع أن أمنع نفسي من الابتسام على البساطة التي يسجل بها النزيه جوناس راموس، باعتبارها مسألة صعبة التصديق، حكايات الحيتان والدببة؛ لأنه في الحقيقة، ظهر لي أمر بديهي أن أضخم السفن المقاتلة التي ستدخل ضمن نفـوذ تلـك الجـاذبية المميتة لن تقاوم الإعصار إلا مقاومة الريشة له وستختفي جملة وفورا.

---

(١) الأحد الثاني قبل الصوم الكبير
(٢) نهر من نار في الأساطير اليونانية

إن محاولات تعليل الظاهرة- بعض مما أتذكر- التي بدت لي مقبولة في قراءتي، تكتسي الآن وجها مختلفا وغير مرض لي. فالفكرة المتصورة عامة هي أن هذه وثلاث دوامات أصغر أيضا بين جزر *Ferroe*، لا سبب آخر لها غير تلاطم الأمواج المرتفعة والهابطة عند المد والجزرعلى سلسلة من الصخور وطبقات صخرية مسطحة ناتئة قرب سطح الماء تحبس المياه فتنحدر مثل الشلال، وهكذا كلما زاد الفيضان زاد عمق سقوطها؛ والنتيجة الطبيعية لكل هذا دوامة عظيمة؛ "الأنبوبة الشنيعة لما عرف بشكل واف بالتجارب الأهون". هذه هي كلمات الموسوعة البريطانية. تصور كيرتشر[١] وآخرون أن في مركز قناة عاصفة الدوامة العظيمة هاوية تخترق العالم وتنتهي في مكان بعيد جدا، وقد حدده في وقت ما بأنه خليج بوثنيا[٢] بلاتردد. هذا الرأي المثالي في حد ذاته كان الرأي الذي صدق عليه، أثناء تحديقي، خيالي بسهولة، وعندما ذكرته إلى المرشد اندهشت عندما سمعته يقول إنه على الرغم من أنها كانت وجهة النظر التي صدقها النرويجيون تماما، فهي ليست كذلك. أما بالنسبة للنظرية السابقة فقد اعترف بعجزه عن أن يفهمها، وهنا أتفق معه لأنه بغض النظر أيا كانت تبدو مقنعة على الورق، تصبح غامضة تماما بل حتى سخيفة وسط رعد اللج.

---

(1) Kircher (1602-1680)

(٢) حدود بحر البلطيك بين السويد وفنلندا

قال الرجل العجوز: "لقد رأيت الدوامة الآن من موقع جيد؛ فإذا زحفت حول هذا الجرف لكي تحتمي به ويخفت عنك زئير المياه، سأحكي لك قصة ستقتنع منها أنني من المحتمل جدا أعرف شيئا ما عن عاصفة موسكوي".

وضعت نفسي كما طلب وواصل قائلا: "ملكت وأخواي ذات مرة مركبا شراعيا بصاريتين لصيد السمك يسع حمولة سبعين طنا، حيث اعتدنا أن نصطاد به بين الجزر التي تقع خلف ***Moskoe*** بالقرب من ***Vurrgh***. توجد داخل التيارات المعاكسة بالبحر فرص صيد وفير جيدة، لو أن المرء يملك الشجاعة للقيام بالمحاولة. لكن من بين كل رجال لودفون الساحليين نحن الثلاثة كنا الأشخاص الوحيدين الذين حققنا نجاحا بالخروج إلى الجزر كما أقول لك. إن الأماكن العادية من أراضي البحر طريق عظيم يزداد عمقا باتجاه الجنوب. يمكن صيد السمك طوال اليوم دون مخاطرة كبيرة ولذلك نفضل تلك الأماكن. من ناحية ثانية، لا تحوي البقع الممتازة هنا بين الصخور تنوعا رفيعا من الأسماك فقط، بل تزخر به بدرجة أكبر من البقع الأخرى، فنحصل غالبا في يوم واحد ما لا يستطيع أجبن صياد كنزه في أسبوع كامل. في الحقيقة لقد نظرنا إلى الأمر باعتباره تكهنا يائسا؛ المخاطرة بحيواتنا تقوم مقام العمل الشاق، والشجاعة تعوض عن رأس المال".

احتفظنا بالمركب في خليج صغير يعلو عن الشاطئ خمسة أميال تقريبا أبعد من هذا الخليج. وكانت عادتنا في الجو الحسن أن

نستغل فترة الركود بين المد والجزر التي تصل إلى خمس عشرة دقيقة لنعبر القناة الرئيسية لعاصفة موسكوي، بعيدا عن بركته العميقة؛ ومن ثم نرمي المرساة في أي مكان بالقرب من *Otterholm*؛ حيث لا تكون التيارات المعاكسة عنيفة كما في أماكن أخرى. في ذلك المكان اعتدنا أن نبقى تقريبا حتى يحل وقت ركود المياه بين المد والجزر مرة أخرى، فنرفع المرساة ونبحر في طريق العودة إلى البيت. لم نشرع أبدا في هذه الحملة بدون رياح ثابتة الاتجاه للذهاب ريحة وجيئة- رياح نشعر أنها لن تخذلنا قبل عودتنا، ونادرا ما أسأنا حساب هذه النقطة؛ فقد أجبرنا مرتين خلال ست سنوات أن نظل الليل كله راسين بسبب الهدوء التام وهو الأمر النادر فعليا في هذا المكان، وذات مرة اضطررنا أن نبقى أسبوعا تقريبا في أماكن الصيد نموت جوعا، بسبب عاصفة هبت بعد وصولنا إليها فورا وجعلت القناة صاخبة جدا لمجرد التفكير في الإبحار إليها. ففي ظل هذا الظرف كان من الممكن أن نطرد إلى البحر بغض النظر عن أي شيء؛ (لأن الدوامات كانت ترمينا في لفات بعنف شديد، بحيث في النهاية تتعقد سلسلة المرساة ونسحبها) إذا لم يجرفنا واحد من التيارات المتلاطمة التي لا تحصى، اليوم هنا وغدا تختفي، وتدفعنا إلى مـــأوى *Flimen*، حيث نتوقف لحسن الحظ.

لا أستطيع أن أخبرك واحدا على عشرين من الصعوبات التي واجهناها "في بقع الصيد"، فهي بقعة لاتصلح لكي تكون فيها حتى في

الجو الجيد، لكننا نبذل قصارى جهدنا دائما من أجل أن نفر من محنة عاصفة موسكوي ذاتها بدون حادث، على الرغم من أن قلبي في أحيان كان في فمي حين يحدث ونصل بعد فترة الركود أو قبلها بدقيقة. لم تكن الرياح في بعض الأحيان قوية بالقدر الذي اعتقدناه مع بدايتها؛ ولذلك كنا نتقدم ببطء رغم رغبتنا وقد أفقدنا التيار السيطرة على المركب. أخي الأكبر لديه ابن يبلغ ثمانية عشر عاما، ولدي ولدان قويان من صلبي. كان يمكن أن يقدم هؤلاء مساعدة عظيمة في تلك الأوقات باستخدام المجداف وفي الصيد بعد ذلك، لكن على الرغم من أننا جازفنا بأنفسنا، لم نملك الشجاعة لكي نعرّض الشباب للخطر فرغم كل ما قيل وتم كان خطرا رهيبا وهذه هي الحقيقة.

مر الآن عدة أيام على مرور ثلاث سنوات على ما سوف أحكيه لك. كان في العاشر من يوليو، عام ١٨ --، يوما لن ينساه الناس الذين يعيشون في هذا الجانب من العالم أبدا، لأنه اليوم الذي هب فيه أكثر الإعصارات بشاعة التي جاءت من السماوات أبدا. على الرغم من أنه طوال ساعات الصباح وحتى ساعة متأخرة من بعد الظهر نسمة لطيفة وثابتة من الجنوب الغربي بينما تسطع الشمس بحيث لم يستطع أكبر بحار سنا بيننا توقع ما سيحدث.

عبرت أنا وأخواي الجزر حوالي الثانية بعد الظهر وفور أن حملنا المركب بالسمك الحسن الذي لاحظ جميعنا أنه أكثر وفرة ذلك اليوم من أي يوم آخر. كانت الساعة السابعة بساعتي عندما رفعنا

المرساة واتخذنا طريق العودة بحيث نمر بأسوأ جزء من الدوامة في فترة ركود المياه التي عرفنا أنها في الثامنة.

شرعنا برياح قوية على ميمنة مؤخرة سفينتنا وانطلقنا لبعض الوقت بمعدل عظيم، ولم يرد إلى خيالنا الخطر لأننا لم نر فعليا أدنى سبب نخاف منه. وفجأة أخذنا نسيم هب من فوق ***Helssegen*** إلى الوراء. كان هذا غير مألوف، شيئًا لم يحدث لنا أبدا من قبل، وبدأتُ أشعر بقلق يسير دون أن أعرف السبب بالضبط. تركنا القارب إلى الرياح لكن لم نستطع أن نحرز أي تقدم إلى الأمام نحو التيارات المعاكسة وكنت على وشك اقتراح أن نعود إلى المرفأ حين رأينا، عندما نظرنا إلى الخلف، الأفق كله مغطى بسحابة واحدة نحاسية اللون تظهر بأكثر سرعة مذهلة.

في الوقت نفسه همدت النسمة التي أعاقتنا عن التقدم وغدونا في هدوء تام ننجرف هنا وهناك في كل اتجاه. مع ذلك هذه الحالة من الأمور لم تدم فترة كافية لكي تمنحنا وقتا للتفكير بشأنها. ففي أقل من دقيقة كانت العاصفة فوقنا- في أقل من دقيقتين أصبحت السماء ملبدة تماما- ومع هذه السحب الملبدة والرذاذ العاتي ساد الظلام فجأة بحيث لم نستطع أن يرى بعضنا البعض على متن المركب.

سأكون أحمق لو حاولت وصف هذا الإعصار الهائل. لم يشاهد أكبر بحار عمرا في النرويج واحدا مثله أبدا. تركنا أشرعتنا للتيار قبل

أن يأخذنا بذكاء، لكن مع النفخة الأولى سقط كلا الصاريان على جانب المركب كأنهما نشرا، أخذ الصاري الرئيسى أخي الأصغر معه الذي كان قد التجأ إليه للأمان.

كان قاربنا أخف شيء طاف على وجه المياه. له سطح متساو تماما مع باب أرض صغير بالقرب من مقدمة القارب. واعتدنا دوما أن نحكم غلق هذا الباب عندما نوشك على عبور عاصفة من قبيل الاحتياط في مواجهة البحار متلاطمة الأمواج. لكن مع هذا الظرف كان لابد أن نغرق على الفور؛ لأننا دُفنًا تماما لعدة لحظات. لا أستطيع أن أقول كيف استطاع أخي الأكبر أن ينجو من الدمار؛ لأنه لم تتح لي أبدا فرصة للتحقق من هذا. بالنسبة إليَّ، فور أن تركت الشراع الأمامي ينزلق، رميت نفسي ممددا على سطح القارب وكانت قدماي مثبتتين في الحافة العليا من جانب المركب عند الباب الأرضي ويداي تقبضان على حلقة مثبتة بمسمار حديدي بالقرب من قاعدة الصاري الأمامي. كان محض إحساس غريزي هو الذي حثني على فعل هذا، الذي كان بلاشك أفضل شيء يمكن أن أفعله؛ لأنني كنت في حالة اضطراب شديد منعتني عن التفكير.

وغمرتنا المياه كما قلت لعدة لحظات تماما وحبست أنفاسي خلالها وتشبثت بالحلقة. عندما لم أستطع أن أتحمل هذا الوضع فترة أطول رفعت نفسي فوق ركبتي وأنا مازلت أمسك بالحلقة وبذلك لم يعد يعيق نظري شيء. في الوقت نفسه كان قاربنا يهتز مثل الكلب الذي

خرج من المياه ويخلص نفسه من مياه البحر. كنت أحاول الآن أن أتغلب على الخدر الذي غشاني وأن أجمع شتات حواسي لكي أرى ما يمكن فعله عندما شعرت أن شخصا ما يقبض على ذراعي. كان أخي الأكبر؛ وقفز قلبي فرحا لأنني كنت متأكدا أنه رُمي من فوق جانب المركب إلى البحر، لكن في اللحظة التالية تحول كل هذا الفرح إلى رعب، لأنه قرب فمه من أذني وصرخ كلمة " عاصفة موسكوي"!

لن يعرف أي شخص مشاعري في تلك اللحظة. ارتعشت من رأسي حتى قدمي كأنني مصاب بأعنف نوبة من الملاريا. عرفت ماذا يعني بهذه الكلمة الواحدة تماما، عرفت ما أرادني أن أفهمه. مع الرياح التي كانت تسوقنا الآن كنا مقيدين بدوامة العاصفة، ولاشيء يمكن أن ينقذنا!

أخبرتك أننا بعد عبور قناة الدوامة، اعتدنا أن نلتف حول الدوامة حتى في أهدأ جو ومن ثم كان علينا أن ننتظر ونراقب بحذر فترة ركود المياه، لكن الآن كنا ننساق إلى البركة عينها وفي إعصار هائل كهذا!، فكرت " بالتأكيد، سنصل هناك بالضبط مع فترة الركود، لكن يوجد أمل ضئيل" لكن في اللحظة التالية لعنت نفسي لأنني كنت أحمق لدرجة أن أحلم بأي أمل أبدًا. عرفت أنه حُكم علينا بالهلاك حتى لو أن حجم سفينتنا عشرة أضعاف السفينة الحربية ذات الأسلحة التسعين.

مع حلول هذا الوقت، تبددت الضراوة الأولى للعاصفة، أو لعلنا لم نشعر بها كثيرا بما أننا اندفعنا أمام الرياح، لكن في كل الأحوال البحر الذي قمعته الرياح في البداية ورقد مسطحا يرغي، نهض جبالا الآن. وطرأ أيضًا على السماء تغير واحد أيضًا. كانت من كل اتجاه سوداء سواد القار لكنها انشقت إلى صدع دائري من سماء صافية كما لم أر من قبل، وزرقاء زرقة عميقة لامعة، وعبر هذا الصدع لمع بدر بوميض لم أعرف أبدا من قبل أنه يمكن أن يكسوه في هذا المكان. أضاء كل شيء حولنا بجلاء عظيم، لكن يا إلهي أي مشهد أضاء!

حاولت الآن أن أقوم بمحاولة أو اثنتين لكي أتحدث مع أخي، لكن بطريقة ما لم أفهمها ارتفع الضجيج للغاية بحيث لم أنجح في أن أجعله يسمع كلمة واحدة على الرغم من أنني صرخت بأعلى صوتي في أذنه. هز رأسه، وهو شاحب شحوب الموت ورفع أحد أصابعه كأنه يقول "اسمع!"

في البداية لم أستطع أن أتبين ماذا قصد، لكن خطر ببالي خاطر شنيع. سحبت ساعتي من الجيب، لم تكن تعمل. نظرت إليها في ضوء القمر، ثم انفجرت في الدموع بينما أقذفها بقوة بعيدا في المحيط. لقد توقفت عند الساعة السابعة! تأخرنا عن موعد فترة الركود وكانت دوامة العاصفة في كامل جنونها!

عندما يكون القارب متين البناء وحسن التجهيز وغير مصنع من الرصاص الثقيل، تتزلق الأمواج أثناء هبوب رياح قوية من تحته،

الأمر الذي يبدو غريبا بالنسبة للرجل البري وهذا ما يسمى بلغة البحر ركوب البحر.

حسنا حتى الآن ركبنا الأمواج بذكاء كبير، لكن في الوقت الحالي أخذنا البحر العملاق من تحت الجزء البارز في مؤخرة القارب مباشرة وحملنا معه وهو يصعد عاليا عاليا كما لو إلى السماء- لم أكن أصدق أن أي موجة يمكن أن ترتفع هذا العلو- ثم نهبط باندفاع قوي منزلقين، غاطسين مما سبب لي شعورا بالغثيان ودوارا كأنني كنت أقع من جبل عال في حلم. لكن أثناء ما كنا في الأعلى، ألقيت لمحة سريعة حولي وكانت كافية تماما. رأيت موقعنا بالضبط في لحظة. كانت دوامة موسكوي على بعد ربع الميل أمامنا تماما، لكن كما أن دوامة موسكوي اليومية التي نراها الآن تشبه دولاب الطاحون كانت كذلك؛ فلو أنني لم أعرف أين كنا وما الآتي لم أكن سأتعرف على المكان بأي حال. في الحقيقة، أغلقت عيني لا إراديا في رعب. انطبق الجفنان تماما كأنهما يعانيان من تشنج ما.

لا يمكن أن يكون قد مر أكثر من دقيقتين على أثر هذا حتى أصبحنا نشعر فجأة بأن الأمواج خمدت وغلفنا الزبد. دار القارب نصف دورة إلى الميسرة ثم انطلق في اتجاهه الجديد مثل الصاعقة. في اللحظة نفسها كانت الضجة الهادرة للمياه محتجبة تماما في نوع من الزعيق الحاد؛ صوت هائل يمكن أن تدركه إذا تصورت أنابيب مياه عدة آلاف من المراكب البخارية تطلق بخارها في اللحظة نفسها. كنا الآن في حزام

الأمواج المتكسرة التي تحيط دوما بالدوامة، وفكرت بالطبع أن لحظة أخرى وسنغرق في هاوية الهاوية؛ حيث لن نستطيع أن نرى بوضوح بسبب السرعة المذهلة التي كنا ننزلق بها. لم يغرق القارب في المياه أبدا بل انزلق مثل فقاعة هواء على سطح الأمواج المتكسرة، كانت ميمنته إلى جانب الدوامة وعلى ميسرته بزغ عالم المحيط الذي تركناه وراءنا. وقف مثل حائط متمعج بين مركبنا والأفق.

قد يبدو غريبا لكن عندما أصبحنا في فكي الخليج ذاته شعرت بهدوء أكثر مما كنا نقترب منها فقط. أما وقد قررت ألا آمل تخلصت من قدر عظيم من الرعب الذي أضعفني في البداية. أظن أن اليأس هو الذي أثار أعصابي.

قد يبدو تباهيًا لكن ما أقوله لك هو الحقيقة، بدأت أفكر كم هو أمر رائع أن أموت بهذه الطريقة، وكم كنت أحمق في أن أفكر في اعتبار حقير للغاية كحياتي الشخصية بسبب تجل رائع كهذا لقوة الله. أعتقد أنني خجلت عندما عبرَت هذه الفكرة في عقلي. بعد قليل عندما أصبحت مأخوذا بفضول شديد نحو الدوامة ذاتها. شعرت برغبة راسخة في أن أكتشف أعماقها حتى بالتضحية التي سأقدمها؛ وكان حزني الأساسي أنني لن أقدر أبدا أن أحكي لرفقائي على الشاطئ عن الغموض الذي سأراه. بلاشك كانت هذه أخيلة غريبة لكي تحتل عقل إنسان في خطر عظيم كهذا، وفكرت حينئذ أن لعل دوران القارب حول البركة جعل عقلي خفيفا.

وقع حادث آخر جعلني أسترجع رباطة جأشي، وكان توقف الرياح الذي لم يكن ليصلنا في موقعنا الحالي؛ لأنه كما رأيت بنفسك يعتبر حزام الأمواج المتكسرة أكثر انخفاضا من المجرى العام للمحيط، وهذا الأخير يعلو فوقنا قمة جبلية شاهقة سوداء. لو أنك لم تبحر ذات مرة أثناء هبوب رياح ثقيلة لن تستطيع أن تشكل فكرة عن تشوش العقل الذي تسببه الرياح والرذاذ معا؛ تصاب بالعمى والصمم وتشعر بالاختناق وتسلب كل قوة على الفعل أو التفكير. لكننا في تلك اللحظة لم نعان بدرجة كبيرة من تلك الإزعاجات شأننا شأن المجرمين المحكوم عليهم بالموت في السجن الذين سمح لهم بمتع صغيرة كانت محظورة عليهم قبل أن يتضح قدرهم بعد.

كم مرة درنا في الحزام؟ صعب أن أعرف. أخذنا ندور وندور لساعة على الأرجح ونحن نطير بالأحرى أكثر مما نطفو ونتقدم تدريجيا أكثر وأكثر تجاه منتصف الأمواج المتكسرة، وبالتالي أقرب وأقرب من حافتها الداخلية الرهيبة. كل هذا الوقت لم أترك الحلقة. كان أخي متجهما وهو يقبض على برميل مياه صغير فارغ مثبت بسلسلة في حفرة تحت الجزء البارز من مؤخرة السفينة، وكان الشيء الوحيد على سطح المركب الذي لم يجرف من فوقه إلى البحر عندما أخذتنا الرياح الأولى. بينما كنا نقترب من حافة الحفرة ترك ما كان يدعمه عند هذه المرحلة، وتقدم نحو الحلقة حيث حاول بسبب الكرب الذي سببه رعبه أن ينتزع يديَّ عنوة كأنها ليست ضخمة بما يكفي لتمنح كلاً

منا قبضة محكمة عليها. لم أشعر أبدا بحزن أعظم مما عندما رأيته يفعل هذا، على الرغم من أنني عرفت أنه كان مجنونا عندما فعله- مهتاجا بسبب الخوف الصرف. لم أهتم مع ذلك بأن أتصارع معه على المكان. عرفت أنه لن يفرق فيما إذا كان واحد منا تمسك بها بأي حال؛ لهذا تركته يحصل على الحلقة، واتجهت إلى الخلف نحو البرميل. لم تكن هناك صعوبة عظيمة في فعل هذا؛ لأن القارب كان يطير بثبات كاف وباندفاعات متساوية، يتأرجح ريحة وجيئة مع الاندفاعات القوية وهياج الدوامة. ما كدت أؤمن نفسي في موقعي الجديد حتي تمايلت مؤخرة القارب تمايلا جامحا واندفع غاطسا بمقدمته إلى اللج، تمتمت صلاة سريعة إلى الله واعتقدت أن كل شيء انتهى.

عندما شعرت بالاندفاع الغارق للهبوط أحكمت قبضتي غريزيا حول البرميل وأغلقت عينيّ. لم أجرؤ على فتحهما لعدة ثوان؛ حيث كنت أتوقع الهلاك الفوري، وتعجبت أنني لست في خضم صراع الموت مع المياه. لكن مرت لحظة بعد لحظة، مازلت حيا. توقف إحساسي بهبوط القارب، وبدت حركة القارب شبيهة إلى حد كبير بحركته من قبل عندما كان في حزام الزبد باستثناء أنه يميل الآن أكثر مع الرياح. تشجعت ونظرت مرة أخرى إلى المشهد.

لن أنسى أبدا إحساس الرهبة والرعب والإعجاب الذي حدقت به حولي. بدا القارب معلقا كأنه بسحر ما في منتصف الطريق نزولا فوق السطح الداخلي لقناة عريضة المحيط، هائلة العمق، وكان يمكن أن

أعتقد خطأ أن جوانبها الناعمة للغاية من الأبنوس لولا السرعة المربكة التي تدور بها، والإشعاع الوامض والمخيف الذي ينبثق منها بسبب تدفق أشعة البدر من الصدع الدائري وسط السحب التي وصفتها بالفعل، في فيضان من البهاء الذهبي على الحوائط السوداء وإلى أقصى أعماق اللج.

في البداية كنت مرتبكا جدا فلم أستطع أن أراقب أي شيء بدقة. كل ما رأيته هو الانفجار المفاجئ للعظمة الرائعة. عندما استعدت نفسي قليلا سقط نظري غريزيا إلى الأسفل. استطعت من هذا الاتجاه أن أحصل على رؤية صافية بسبب الطريقة التي تعلق بها القارب على السطح المنحدر للبركة. كان ساكنا تماما بمعنى أن سطحه يرقد موازيا لسطح المياه، لكن هذا الأخير ينحدر بزاوية أكبر من أربعين درجة بحيث بدا لي أن القارب يرقد على حافته. مع ذلك لاحظت على الفور أنني لا أجد صعوبة تذكر في الحفاظ على وضع يديَّ وقدميَّ مما لو أننا كنا في وضع مستو تماما وأعتقد أن هذا يعود إلى السرعة التي كنا ندور بها.

بدت أشعة القمر تبحث عن قاع الخليج العميق ذاته لكنني مازلت لا أستطيع أن أميز أي شيء؛ بسبب الضباب الكثيف الذي كان يغلف كل شيء وتعلق فوقه قوس قزح رائع مثل جسر ضيق متداع، حيث يقول المسلمون إنه الطريق الوحيد بين الزمن والأبدية. هذا الضباب أو الرذاذ سببه بلا شك تصادم حوائط القناة العظيمة أثناء

تلاقيها معا في القاع، لكن الصيحة التي صعدت إلى السماء من الضباب لا أجرؤ على أن أحاول وصفها.

أول انزلاق لنا إلى الهاوية نفسها من حزام الزبد بالأعلى حملنا مسافة عظيمة داخل المنحدر، لكن لم يكن هبوطنا الإضافي بدرجات متناسبة أبدًا. تأرجحنا ندور وندور، ليس بحركة منتظمة، بل في أرجحات ورجات مدوخة أرسلتنا فقط في بعض الأحيان إلى مئات قليلة من الياردات، وفي أحيان أخرى إلى محيط الدوامة كله. كان تقدمنا إلى الأسفل، مع كل دورة بطيئًا لكن حاد.

رأيت عندما نظرت حولي إلى الفائض العريض من السائل الأبنوسي الذي كان يحملنا، أن قاربنا لم يكن الشيء الوحيد الذي في محيط الدوامة. ففوقنا وأسفلنا على السواء رأيت قطعا من المراكب، وكتلا ضخمة من مبانٍ خشبية، وأجذاع أشجار بالإضافة إلى أشياء عديدة أصغر، مثل قطع من أثاث المنازل، وعلب مكسورة، وبراميل، وأضلاع منها. وصفت بالفعل الفضول غير الطبيعي الذي حل محل رعبي الأصلي. بدا أنه يتزايد بداخلي أثناء اقترابي أكثر وأكثر من القدر المخيف. بدأت الآن أراقب باهتمام غريب الأشياء العديدة التي طافت معي. لابد أنني كنت محموما؛ لأنني تلمست التسلية في مشاهدة السرعات النسبية لهبوطها المختلف نحو الزبد بالأسفل. وجدت نفسي أقول مرة: "شجر التنوب سيكون بلاشك الشيء التالي الذي سيغطس الغطسة المروعة ويختفي"، ثم أصابني الإحباط عندما وجدت أن حطام

السفينة التجارية الهولندية تغلبت عليها وهبطت قبلها. في النهاية، بعد أن قمت ببعض التخمينات من هذه الطبيعة وخدعتني كلها، هذه الحقيقة- حقيقة أن سوء حساباتي الثابتة أقحمني في سلسلة من التفكير جعلت أطرافي ترتعش مرة أخرى، ويدق قلبي بقوة مرة أخرى.

لم يكن رعبا جديدا الذي أثر في على هذا النحو بل غروب أمل مثير؛ هذا الأمل ظهر جزئيا من الذاكرة وجزئيا من الملاحظة الحالية. تذكرت التنوع العظيم للمادة القابلة للطفو التي تغطي ساحل ***Lofodon*** بعد أن امتصتها عاصفة الدوامة ثم لفظتها. كان العدد الأكبر من الأشياء محطما تحطيما فريدا؛ لقد كانت مفروكة ومخشوشنة بحيث اكتسبت هيئة من أصيب تماما بشظيات، لكنني تذكرت بوضوح أن بعضها لم يشوه أبدا. والآن لـم أستطـع أن أعلل هـذا الاختـلاف إلا بافتراض أن القطع المخشوشنة كانت الوحيدة التي امتصت تماما، وأن الأشياء الأخرى دخلت إلى الدوامة في فترة متأخرة جدا من المد؛ أو لسبب ما هبطت ببطء بعد دخولها، بحيث لم تصل إلى العمق قبل موعد عودة الفيضان أوالتيار المعاكس كما يمكن أن تصبح الحالة. أدركت أنه من الممكن في الحالتين أنها يمكن أن تصعد مرة أخرى إلى مستوى المحيط دون أن تتعرض لمصير تلك التي سحبت في فترة مبكرة أو امتصت بسرعة أكبر. لاحظت أيضا ثلاث ملاحظات مهمة. الملاحظة الأولى باعتبارها قاعدة عامة؛ كلما كبر حجم الأجسام زادت سرعة هبوطها، الثانية، أن من بين كتلتين ذاتي مساحة متكافئة،

إحداهما بيضاوي والأخرى لها أي شكل آخر، الأولوية في سرعة الهبوط للشكل البيضاوي؛ الثالثة أن من بين كتلتين ذاتي حجم متساو، إحداهما أسطواني الشكل والأخرى لها شكل آخر، يمتص الأسطواني ببطء أكبر. منذ نجاتي أجريت عدة أحاديث في هذا الموضوع مع أستاذ مدرسة قديم في المقاطعة، ومنه تعلمت أن أستخدم كلمتي "أسطواني" و"كروي". شرح لي، على الرغم من أنني نسيت الشرح، كيف أن ما لاحظته في الحقيقة هو النتيجة الطبيعية لأشكال الأجزاء العائمة، وبيَّن لي كيف يحدث أن الأسطواني الذي يسبح في دوامة يظهر مقاومة أكبر للامتصاص، ويسحب بصعوبة أكبر من جسد ذي كتلة مساوية له شكل آخر أيا كان(١).

وقع حدث مجفل أكد تلك الملاحظات تأكيدا كبيرا، وجعلني في حالة قلق منعتني عن استخدامها استخداما مفيدا، وكان أنه مع كل دوران، نعبر شيئا ما مثل برميل أو عارضة شراع مكسورة صارية سفينة؛ فحين فتحت عيني على عجائب الدوامة، أصبح العديد من تلك الأشياء التي كانت في مستوانا فوقنا، وبدت أنها لم تتحرك إلا قليلا عن موضعها الأصلي.

لم أتردد طويلا فيما يجب أن أفعله. عزمت أن أربط نفسي إلى برميل المياه الذي أمسك به الآن وأحله عن مؤخرة السفينة وأن ألقي

---

(١) (بو) انظر أرخميدس

نفسي معه إلى المياه. جذبت انتباه أخي بالإشارات، وأشرت إلى البراميل الطافية التي تأتي بالقرب منا وفعلت كل ما بوسعي لأجعله يفهم ما كنت على وشك القيام به. أعتقد أنه فهم في النهاية هدفي لكن سواء كانت هذه الحالة أم لا هز رأسه بيأس ورفض أن يتحرك من مكانه بالقرب من حلقة المسمار. كان من المستحيل أن أصل إليه، وتطلبت الحالة الطارئة سرعة الحركة، وهكذا بصراع مرير تركته لقدره وربطت نفسي إلى البرميل بالأربطة التي كانت تربطه بمؤخرة السفينة وطوحت نفسي معه إلى البحر بدون أي لحظة تردد أخرى.

جاءت النتيجة كما آملت؛ بما أنه أنا نفسي من أحكي لك هذه الحكاية، كما ترى نجوت، وبما أنك علمت الآن تماما الطريقة التي تأتي بها هذا الهروب، ولابد أنك ستتنبأ بكل ما سأقوله، سأنهي قصتي بسرعة. لابد أن بعد ساعة أو ما يقرب منها على تركي القارب، أنه نزل إلى مسافة كبيرة تحتي بعد أن دار ثلاث أو أربع لفات في تتابع سريع وحمل أخي الحبيب معه وغرق فورا وإلى الأبد في فوضى من الزبد. غطس البرميل الذي كنت مرتبطا به قليلاً أكثر من نصف المسافة بين قاع الخليج والبقعة التي قفزت عندها من فوق سطح القارب قبل أن يحدث تغير كبير في طبيعة الدوامة. غدا انحدار جانبى القناة العريضة أقل علوا لحظة بعد لحظة. وأصبحت الدوامات تدريجيا أقل عنفا. وبدرجات اختفى الزبد وقوس قزح، وبدا يعلو قاع الخليج ببطء. كانت السماء صافية وهدأت الرياح، والبدر مستقرا يشع في

الغرب حين وجدت نفسي على سطح المحيط وشواطئ ***Lofodon*** على مرمى نظري، وفوق البقعة التي كانت بها الدوامة الهائلة. كانت ساعة الركود قد حلت، لكن البحر لايزال يجيش في أمواج شاهقة من آثار الإعصار. حُملت بعنف إلى قناة الدوامة، وفي عدة دقائق حُملت سريعا إلى " أراضي" الصيادين. التقطني قارب، مستنزف من التعب الشديد، (وقد زال الخطر الآن) لا أنطق من ذكرى أهواله. إن من سحبني كانوا أصدقائي القدامى ورفقائي، لكنهم تعرفوا علي كما يتعرفون على مسافر من أراضي الأرواح؛ فشعري الذي كان أسود سواد ريش الغراب اليوم السابق كان أبيض كما تراه الآن. قالوا أيضًا إن تعبير ملامح وجهي تغير. أخبرتهم قصتي، لم يصدقوها. الآن أقولها لك، وبالكاد أتوقع أن تصدقها أكثر مما صدقها صيادو ***Lofodon*** المرحون.

جرائم القتل في شارع مورج

أي أغنية تغنيها السيرينات، أو ما الاسم الذي اتخذه أخيل عندما اختبأ بين النساء، على الرغم من أن الأسئلة المحيرة ليست فوق الحدس. سير توماس براون[1]

إن الملكات العقلية التي يتم تناولها باعتبارها تحليلية، هي في حد ذاتها، غير قابلة للتحليل. فنحن نقدرها أو ندركها فقط في نتائجها. ونعلم عنها، من بين أشياء أخرى، أنها تشكل دائما لمالكها، حين يمتلكها بدرجة عالية تصل إلى المغالاة، مصدر متعة من أكثر المتع إثارة وحيوية. وكما يجذل الرجل القوي بقدرته الجسدية، فرحا بتلك التمارين عندما يستدعي عضلاته للعمل، (كذلك يتهلل المحلل) يشعر المحلل بالمجد في ذلك النشاط الافتراضي الذي يحلله. فهو يستقي المتعة من حتى أتفه الأعمال التي تنشط موهبته. فهو مغرم بالألغاز، والأحجيات، والكتابة الهيروغليفية التي يعرض في حلوله لكل منها درجة من الفطنة تظهر للإدراك العادي خارقة للطبيعة. إن نتائجه التي يستخلصها بجوهر وروح المنهج تحوز، في الحقيقة، السيماء الكاملة للحدس.

---

(1) Sir Thomas Browne (1605-1682) Hydriotaphia.

إن ملكة الحل تنشطها على الأرجح دراسة الرياضيات كثيرا، وخاصة الفرع الأعلى منها، الذي، ظلما، وفقط بسبب عملياته العكسية، يسمى، كأنه ميزة، التحليل. غير أن الحساب ليس هو في حد ذاته التحليل. فلاعب الشطرنج، على سبيل المثال يفعل واحدة بدون أن يبذل مجهودا مع الأخرى. ونتج عن هذا إساءة فهم للعبة الشطرنج، في آثارها على الخاصية العقلية. إنني لا أكتب الآن بحثا علميا، لكنني أمهد ببساطة لسرد خاص إلى حد ما بملاحظات عشوائية جدا، لذلك، سأنتهز الفرصة لكي أؤكد أن لعبة الداما المتواضعة تتعهد بمهمة القوى الأعلى للتفكير التأملي بلا جدال وبفائدة أكبر من كل العبث المتقن للشطرنج. ففي هذه الأخيرة، حيث لقطعها تحركات مختلفة و ***bizzare*** غريبة، بقيم مختلفة ومتنوعة، يساء فهم ما هو معقد فقط بأنه عميق (خطأ ليس غير معتاد). فاللعبة تتطلب الانتباه الشديد من اللاعب. فلو فتر لثانية، يقع السهو الذي تنتج عنه خسارة ما أو هزيمة. فبما أن التحركات المحتملة ليست فقط متعددة الجوانب بل معقدة، تتضاعف احتمالات السهو هذه. وفي تسع حالات من عشر ينتصر اللاعب الأكثر تركيزا من اللاعب الأكثر دقة. في لعبة الداما، على العكس، بما أن التحركات وحيدة، ولا تنطوي إلا على تنوع قليل، تضمحل احتمالات الغفلة، ويتم التخلي عن الانتباه الصرف نسبيا، فالأفضلية التي سيحرزها أي من الطرفين ستتأتي من الطرف الذي يمتلك فطنة أعلى. ولكي أكون أقل تجردا دعونا نتخيل لعبة من الداما حيث تتقلص

القطع إلى أربعة ملوك، وحيث لا يمكن أن نتوقع بالطبع أي سهو. من الواضح أن النصر يمكن تقريره هنا (اللاعبون متساوون) فقط بحركة *recherche* مختارة بعناية، نتيجة جهد مبذول قوي من التفكير. إن المحلل، مجردا من المصادر العادية، يرمي بنفسه إلى روح خصمه، ويتماثل معه بعد ذلك، وبهذا ليس غريبا أن يرى، في لمحة، الطرق الوحيدة (أحيانا بالفعل طرقا بسيطة بساطة ساذجة) التي قد تغريه بارتكاب خطأ ما أو بالاندفاع نحو حسابات خاطئة.

اشتهرت الهويست (ضرب من لعبة الورق) طويلا بسبب نفوذها على ما اصطلح عليه بالقدرة الحسابية، وقد عرفنا رجالا يتمتعون بأعلى درجات الذكاء يستمدون سعادة لا توصف على ما يبدو منها، بينما يتحاشون الشطرنج باعتبارها تافهة. فبلا شك لا يوجد شيء ذو طبيعة مشابهة يشحذ إلى حد الإرهاق ملكة التحليل. في العالم المسيحي محترف لعبة الشطرنج أعلى قليلا من هاوى لعبة الشطرنج. غير أن البراعة في الهويست تتضمن القدرة على النجاح في كل تلك المهمات الأكثر أهمية التي يتصارع عقل مع عقل خلالها. عندما أقول البراعة، فأنا أقصد ذلك الكمال في اللعبة الذي يشمل فهما لكل مصادرها، وهو الكمال الذي يحقق التقدم أو التفوق الشرعي لصاحبه. هذه المصادر ليست متعددة الجوانب فقط بل متعددة الأشكال، وتكمن فيما بين تجاويف الفكر متعذرة تماما على الفهم العادي. أن تراقب بانتباه يعني أن تتذكر بوضوح، وإلى هذا الحد سيؤدي محترف لعبة الشطرنج الذي

ينتبه انتباها كاملا أداء جيدا في الهويست، في حين أن قواعد هويل[١] (تقوم في حد ذاتها على آلية اللعبة فحسب) يمكن فهمها أو إدراكها على نحو شامل ووافـ. وعليك أن تملك ذاكرة قوية، وأن تواصل كما يقول" الكتاب"، هما نقطتان ينظر إليهما عامة باعتبارهما جوهر اللعب الجيد. غير أن مهارة المحلل تتجلى في مسائل تتجاوز حدود القاعدة الصرف. فهو يقوم بحشد من الملاحظات والاستدلالات في صمت. ربما يقوم بهذا رفقاؤه، ولا يكمن الاختلاف في مدى المعلومات المحصلة في صلاحية الاستدلال بل يكمن في نوعية الملاحظة. إن المعرفة الضرورية هي التي تأتي مما تتم ملاحظته. فلاعبنا لا يقيد نفسه أبدًا، ولا يرفض الاستنتاجات التي تأتي من أشياء خارج اللعبة فقط انطلاقا من أن اللعبة هي هدفه. فهو يفحص ملامح شريكه مقارنا إياها بحذر مع تلك التي لكل من خصومه. ويأخذ في اعتباره أسلوب تنسيق الأوراق في كل يد؛ فغالبا ما يحصي كل ورقة رابحة، وكل ورقة رئيسية، عبر النظرات التي يضفيها حاملوها على كل واحدة. يلاحظ الاختلافات التي تمر على ملامح الوجوه من حوله أثناء تقدم اللعب، جامعا ذخيرة من الأفكار من الاختلافات في تعبيرات اليقين، والدهشة، والانتصار، والضيق. كما يحكم من طريقة ترتيب مجموع الأوراق في دورة ما، إذا كان الشخص الذي تولاها يستطيع أن يرتبها في منظومة من الأوراق ذات النقش الواحد. إنه يميز ما لعب بخدعة

---

(١) إدموند هويل، خبير ومخترع ألعاب ورقية عديدة

ما، من سيماء اللاعب الذي رمى بها الورقة على الطاولة. كلمة عرضية أو غير مقصودة- ورقة تسقط عرضيا أو تدار الصدفة بقلق أو لامبالاة في تخبئتها، عدد الدورات مع نظام ترتيبها، حرج، تردد، لهفة، ارتياع - كل هذا يقدم لإدراكه الحدسي دلائل على الحالة الحقيقية للأمور. ومع لعب أول دورتين أو ثلاث، يصبح مالكا لمحتويات كل الأيادي، ومن ذلك الحين فصاعدا يضع كل ورقة من أوراقه بهدف دقيق دقة متناهية كما لو أن باقي الفريق قد أدار للخارج وجوه أوراقه.

لا يجب خلط القوى التحليلية مع البراعة البسيطة؛ ففي حين أن المحلل بارع بالضرورة، غالبا ما يكون الرجل البارع عاجزا عن التحليل. إن القوى التركيبية أو التجميعية، التي تتجلى بها البراعة والتي عين لها علماء الفراسة (عن خطأ كما أرى) عضوا منفصلا، مفترضين إياها ملكة أولية، نراها كثيرا في هؤلاء الذين شارف ذكاؤهم، من نواح أخرى، حد البلاهة، بحيث جذب الانتباه فيما بين صفوف الكتاب عن السلوك الأخلاقي. بين البراعة والقدرة التحليلية، يوجد اختلاف أعظم بالفعل من الذي بين الوهم والخيال، لكنه يتسم بالتناظر اتساما تاما. ففي الحقيقة سنجد أن البراعة دائما خيالية والخيالي الحقيقي لن يكون أبدا إلا تحليليا.

سيتضح السرد التالي للقارئ إلى حد ما في ضوء التعليق السابق على القضايا الواردة فيه.

تعرفت أثناء إقامتي في باريس ربيع عام -١٨ وجزء من صيفه على السيد س. أوجوست دوبن. ينحدر هذا النبيل من عائلة ممتازة، حقا عائلة رائعة، غير أنه لأحداث غير مواتية، انحدرت لحالة من الفقر الشديد رزحت تحتها طاقته الشخصية، ولم يعد يقوم بأي مبادرة في الحياة أو يهتم باسترداد ثروته. وبسبب كياسة أصحاب الدين، لايزال في حوزته بقايا من ميراثه، وعلى الدخل الذي يأتي منه رتب، بأساليب اقتصادية متقشفة، أن يؤمّن ضروريات الحياة، بدون أن يكلِّف نفسه بما هو زائد عليها. وكانت الكتب بالفعل هي رفاهيته الوحيدة، وفي باريس، يمكن الحصول عليها بسهولة.

كان لقاؤنا الأول في مكتبة مغمورة في شارع مونتمارتر، حيث جعلتنا صدفة، أن كلاً من كان يبحث عن المجلد النادر والاستثنائي نفسه على صلة حميمة. رأينا بعضنا البعض مرة وراء مرة. كنت مهتما اهتماما عميقا بتاريخ العائلة الصغيرة الذي حكاه لي تفصيليا بصفاء النية الذي يتمتع به الرجل الفرنسي حينما تكون ذاته فقط هي الفكرة الرئيسية. ذهلني أيضًا المدى العريض لقراءاته، وفوق كل شيء شعرت أن توهج خياله البريء ونضارته المنعشة أضاءا روحي. وبما أنني كنت أنشد في باريس الأهداف التي كنت أبحث عنها حينئذ؛ شعرت أن صحبة رجل مثله كنز لا يقدر بثمن. وبصراحة أفضيت له بهذا الشعور. في النهاية رأينا أننا يجب أن نعيش معا خلال إقامتي في المدينة، وبما أن ظروفي المعيشية أقل حرجا من ظروفه إلى حد ما،

سمح لي أن أتولى إيجار وفرش، بأسلوب يناسب اسوداد مزاجنا العام إلى حد ما، شقة في مبنى ضخم، متهدم وقبيح، ومهجور بسبب الخرافات التي لم نسأل عنها وآيل للسقوط في قسم منعزل ومهجور من فوبرج سانت جيرمان.

لو عرف العالم روتين حياتنا لنظر إلينا باعتبارنا مجنونين- ربما نكون، مجنونين مسالمين، مع ذلك. عزلتنا كانت كاملة؛ فلم نستقبل زوارا. فقد احتفظت فعليا بموقع خلوتنا سرا عن رفقائي السابقين، وقد مرت سنوات طويلة على الوقت الذي كان يعـــرف دوبن باريس فيه أو معروفا فيها. كنا موجودين داخل أنفسنا فقط.

كان لديه هوى غريب (ماذا يمكن أن أسميه؟) أن يعشق الليل من أجل الليل. وفي هذه الغرابات، كما في كل غراباته الأخرى هويت كلية، مسلما نفسي لنزواته الجامحة بانغماس كامل. لن تسكن معنا الألوهية السوداء دائما، لكننا نستطيع أن نزيف وجودها. مع أول بزوغ للصباح، نغلق كل مصاريع النوافذ الضخمة في بيتنا، ونشعل زوجا من الشمع الرفيع، الذي يعطر المكان بعطر كثيف، ويلقي فقط أضعف وأشحب أشعة. وبمساعدة هذه الأشعة ننهمك حينئذ في أحلام، قراءات، كتابات، محادثات، حتى تنذرنا الساعة بحلول الظلام الحقيقي. حينئذ ننطلق إلى الشوارع، ذراعا بذراع، نواصل موضوعات النهار، أو نهيم بعيدا حتى ساعة متأخرة؛ ننشد، وسط أضواء المدينة الوحشية وظلالها، سرمدية الإثارة العقلية التي تقدمها الملاحظة الهادئة.

في تلك الأوقات لم أستطع أن أمنع نفسي عن ملاحظة قدرة تحليلية غريبة في دوبن والإعجاب بها (على الرغم من أن مثاليته العميقة هيأتني لأتوقعها). كما بدا أيضًا أنه يستمد بهجة متقدة من ممارستها- إن لم يكن في عرضها على وجه الدقة- ولم يتردد في أن يعترف بالتالي بالمتعة التي يستقيها منها. لقد أسر إلي، بضحكة خافتة أن معظم الرجال، بالنسبة إليه، يضعون نافذة على صدورهم، وكان معتادا أن يتابع هذه التأكيدات بأدلة مباشرة ومروعة عن معرفته الحميمة بي. كان أسلوبه في تلك اللحظات باردا ومجردا، عيناه خاليتين من التعبير، بينما صوته ذو الطبقة العميقة، يرتفع إلى ثلاثة أضعاف، بحيث قد يبدو فظا لولا القصد الذي يلفظ به كلماته والتمييز الكامل لها. وغالبا ما أركن متأملا وأنا ألاحظه في هذه الحالات النفسية إلى فلسفة الروح الثنائية القديمة، وأتأمل فكر دوبن المزدوج: المبدع والمحلل.

لا يعني هذا بناء على ما قلته توا أنني أروي أي لغز أو أخط أي قصة رومانسية. إن ما وصفته في الرجل الفرنسي هو، فحسب، نتيجة ذكاء مهتاج أو ربما عليل. لكن مما سيوصل فكرتي أفضل هي السمة المميزة في ملاحظاته في الفترات التي أتحدث عنها.

كنا نتجول في ليلة عبر شارع قذر طويل، بجوار القصر الملكي. لم ينبس واحد منا، لانشغالنا على ما يبدو بالتفكير، مقطعا لفظيا واحدا لخمس عشرة دقيقة على الأقل. وفجأة كسر دوبن الصمت بهذه الكلمات:

"هو رجل ضئيل جدا، هذا حقيقي، وأفضل له أن يعمل في مسرح دي فارييتيه[1]".

"لا شك في هذا" أجبت، دون وعي، (كنت مستغرقا استغراقا كبيرا في التفكير) ولم ألحظ في البداية الطريقة الاستثنائية التي تطابق المتحدث فيها مع تأملاتي. بعد ذلك في ثانية استجمعت شتات ذهني، وكانت دهشتي عميقة.

قلت بصوت خفيض: "دوبن، هذا يتجاوز إدراكي. لا أتردد في أن أقول: لقد أذهلتني، وبالكاد أستطيع أن أصدق حواسي. كيف أمكن أن تعرف أنني أفكر في..؟" هنا توقفت، لأقطع الشك باليقين ما إذا عرف حقا فيمن فكرت أم لا.

"....في شانتيلي" قال: "لماذا تتوقف؟ كنت تقول لنفسك إن هيكله الضئيل لا يصلح لكي يمثل الأدوار التراجيدية".

كان هذا بالضبط ما شكل موضوع تأملاتي. شانتيلي كان إسكافيا سابقا في شارع سانت دنيس، وبعد أن تحول إلى مجنون مسرح حاول أن يؤدي دور أحشويروش[٢] في تراجيديا كربيلون[٣] المسماة هكذا، وقد كتبت في مقطوعة هجائية بسبب آلامه.

---

(1) Theatre des Varietes.

(٢) ملك فارس ما بين ٤٨٦-٤٦٥ ق.م

(3) Crebillon (1674-1762) كاتب مسرحي فرنسي

هتفت: "أخبرني، بحق السماء، المنهج - لو أن هناك منهجا - الذي استطعت به أن تسبر غور روحي في هذه المسألة". في الحقيقة، كنت أشعر برعب أكبر مما صرحت به

أجاب صديقي: "لقد كان الفكهاني هو الذي جعلك تستنتج أن رقّاء النعال (الإسكافي) لم يملك الطول الكافي لتمثيل دور أحشويروش وأشياء من هذا القبيل".

"الفكهاني— أنت تذهلني — أنا لا أعرف فكهانيا أيا كان".

"الرجل الذي اندفع نحوك بينما كنا ندخل الشارع -- ربما منذ خمس عشرة دقيقة".

تذكرت الآن أن فكهانيا، يحمل فوق رأسه سلة ضخمة من التفاح، طرحني أرضا تقريبا، عرضا، بينما كنا نعبر من شارع س — إلى الطريق العام حيث وقفنا، لكن ما صلة هذا بشانتيلي لم أستطع أن أفهم بأي حال. لم تكن هناك ذرة خداع بشأن دوبن.

قال: "سأشرح، ولكي تفهم كل شيء فهمـــا واضحـــا، سنقتفي أو لا مسار تأملاتك من اللحظة التي تحدثت فيها معك حتى تلك التي تقابلت فيها مع الفكهاني المعني. إن الحلقات الرئيسية من السلسلة تجري على هذا النحو -- شانتيلي، د. نيقولاس، أبيقور، الأستريوماتى(١)، أحجار الشارع، الفكهاني".

---

(١) إلى أشكال وأحجام. فن قطع الأحجار

هناك قلة ممن لم يسلون أنفسهم، في فترة من حيواتهم، باقتفاء الخطوات التي أحرزت بها عقولهم استنتاجات معينة. إن هذا الانشغال غالبا مليء بالإثارة، والشخص الذي يحاول هذا لأول مرة ستصعقه المسافة غير المحدودة وعدم التناسق بين نقطة البداية والهدف. فيا لقدر اندهاشي، حينئذ، عندما سمعت الرجل الفرنسي يقول ما قاله لتوه وعندما لم أستطع إلا أن أعترف بأنه قال الحقيقة. واصل قائلا:

"لقد كنا نتحدث عن الأحصنة، لو أنني أتذكر جيدا، قبل أن نترك شارع س – على الفور. كان هذا آخر موضوع ناقشناه. بينما كنا نعبر باتجاه هذا الشارع، مر بنا فكهاني، بسلة ضخمة فوق رأسه، وقد لمسنا سريعا، وألقاك فوق كومة من أحجار الرصف المجمعة عند بقعة يجري فيها إصلاح الممر. خطوت فوق واحد من هذه الأجزاء الطليقة وانزلقت قدمك، التوى كاحلك قليلا، وظهرت مرتبكا أو عابسا، وتمتمت بعض الكلمات، واستدرت لتنظر إلى الكومة، ومن ثم تابعت في صمت. لم أكن منتبها انتباها خاصا لما فعلت، غير أن الملاحظة أصبحت مؤخرا ضرورة ما بالنسبة إليّ".

احتفظت بعينيك في الأرض، وأنت تنظر بتعبير نكد نحو الحفر والتجاويف في الرصيف (بهذا عرفت أنك مازلت تفكر بالأحجار) حتى وصلنا الممر الصغير الذي يسمى لامارتين، الذي رصف باعتباره نوعًا من التجريب بالكتل الحجرية المتداخلة والمثبتة بإحكام. هنا أشرق وجهك، وعندما رأيت شفتيك تتحركان، لم أشك أنك تمتمت كلمة "الأستريوماتي" وهو مصطلح متكلف يستخدم في وصف هذا النوع من

الأرصفة. عرفت أنه لا يمكنك أن تقول لنفسك" أستريوماتي" بدون أن يجعلك تفكر في الذرات، وبالتالي نظريات أبيقور، وبما أنني ذكرت، حين ناقشنا هذا الموضوع منذ فترة قريبة، كم هو فريد، أن تتحقق تخمينات هذا النبيل اليوناني الغامضة في نظرية نشأة الكون السديمية، على الرغم من أنه لم يولها اهتماما كبيرا؛ شعرت أنك لم تستطع أن تتجنب رفع عينيك لأعلى نحوالسديم العظيم في الجوزاء. وفعليا لقد توقعت أنك ستفعل هذا؛ لقد نظرت إلى أعلى، وتيقنت أنني تتبعت خطواتك تتبعا صحيحا. غير أن في التقريع المرير لشانتيلي، الذي ظهر في عدد الأمس من "ميوسيه" اقتبس الهجّاء، بعد أن قام ببعض التلميحات المشينة عن تغيير اسم الإسكافي بناء على ارتداء الممثلين حذاء نصفيا في التراجيديات- سطرا لاتينيًا حول ما نتحدث عنه في الغالب، أعني سطر:

Perdidit antiquum litera prima sonum

"فقد الحرف الأول صوته القديم"

قلت لك إن هذا كان في سياق الإشارة إلى أوريون، الذي كان يكتب في السابق يوريون، ومن تعليقات لاذعة معينة ترتبط بهذا الشرح، أدركت أنه ليس بوسعك أن تنساه. لذلك، كان واضحا أنك لن تخفق في ربط فكرتي أوريون وشانتيلي[١]. أقول إنك ربطتهما بسبب

(١) أوريون وشانتيلي في الأساطير اليونانية القديمة، أحدهما صياد عملاق والآخر قزم، كما أن تغيير اسم الإسكافي، الذي كان اسمه في الأصل كوبلر، يوحي أيضا بكلمة ***hobbler*** والتي تعني ممثلا سيئا.

نوع الابتسامة التي عبرت شفتيك. فكرت في الإسكافي المسكين. وإلى هذا الحد، كنت منحنيا أثناء مشيك، لكن الآن رأيتك تسحب نفسك لأقصى ارتفاعك. كنت متأكدا حينئذ أنك فكرت في الهيكل الضئيل لشانتيلي. عند هذه النقطة قاطعت تأملاتك لأعلق بما أنه في الحقيقة رجل ضئيل جدا، سيكون أفضل في مسرح "*Des Varietes*."

بعد ذلك بفترة ليست طويلة، كنا نطالع النسخة المسائية من "*Gazette des Tribunaux*" حين أسر انتباهنا الفقرات التالية:

"جرائم قتل استثنائية". استيقظ هذا الصباح، في حوالي الثالثة، سكان حي سانت روش من النوم على سلسلة من الصيحات المروعة، صادرة على ما يبدو من الدور الرابع لبيت في شارع مورج، معروف أنه ملك مدام لوإسباني فقط وابنتها مدموازيل كاميل لوإسباني. بعد تعطيل ما بسبب محاولة عقيمة في تدبر الدخول بالطريقة المعتادة، كُسرت البوابة بعتلة ودخل ثمانية أو عشرة من الجيران، يصاحبهم شرطيان. في هذا الوقت توقفت الصرخات، لكن أثناء اندفاعهم على المجموعة الأولى من درجات السلم، ميزوا صوتين أجشين أو أكثر مشتبكين في جدال غاضب، وبدا أنهما يأتيان من الجزء العلوي من المنزل. ومع وصولهم إلى المجموعة الثانية من السلم، كانت قد توقفت هذه الأصوات، وأصبح كل شيء هادئاً هدوءا تاما. وزع الفريق نفسه وسارع من غرفة إلى أخرى. وعند وصوله إلى الغرفة الخلفية الضخمة في الطابق الرابع (فتح الباب، الذي وجد مغلقا والمفتاح داخله عنوة) برز مشهد صدم كل واحد موجود ذهولا أكثر منه رعبا.

"كانت الشقة في فوضى عارمة --- كان الأثاث مكسورا ومبعثرا في كل الاتجاهات. كان هناك هيكل سرير واحد فقط، وقد أزيل عنه الفراش وملقى به في وسط الغرفة. وفوق أحد الكراسي موسى ملطخ بالدماء. على الموقد خصلتان أو ثلاث خصلات طويلة من شعر رمادي، ملطخة أيضًا بالدماء، ويبدو أنها نزعت من جذورها. وعثر فوق الأرض على أربع عملات نابليونية (٢٠ فرنكا)، وحلق من التوباز، وثلاث ملاعق فضية، وثلاث أصغر من معدن اليجري[١]، وحقيبتين تحتويان تقريبا على أربعة آلاف فرنك ذهبي. كانت أدراج المكتب المنتصب في الزاوية مفتوحة ومنهوبة على ما يبدو، على الرغم من أنه لايزال فيها بعض الأشياء. عثر على خزانة حديدية صغيرة تحت الفراش (ليس تحت هيكل السرير)، كانت مفتوحة، والمفتاح لايزال في بابها. لم تحتو على أكثر من بعض الرسائل القديمة وأوراق أخرى ذات أهمية قليلة".

"لم يروا أي أثر لمدام لواسباني هنا، غير أنهم لاحظوا كمية غير عادية من السخام عند الموقد، و فحصوا المدخنة و(فظيع كتابة ما وُجد) سحبوا جثة الابنة، ورأسها للأسفل منها، وبهذا فقد نزعت من خلال الفتحة الضيقة لمسافة كبيرة. كان الجسد دافئا تماما. وعند فحصه، وجدوا به أماكن مكشوطة عديدة، بلا شك نتجت عن العنف الذي أدخل به الجسد إلى المدخنة وأخرج منها. امتلأ الوجه بخدوش

---

(١) خليط من القصدير والحديد والأنتيمون.

عميقة، وتناثرت على الرقبة كدمات داكنة، وثلمات عميقة بتنتج عن الأظافر كما لو أن الجثة خُنقت حتى الموت".

"بعد فحص عميق لكل جزء من البيت بدون أن يكتشفوا جديدا، اتجه الفريق إلى ساحة مرصوفة صغيرة في مقدمة البناية؛ حيث ترقد جثة السيدة العجوز وحلقها مذبوح كلية، وعندما حاولوا أن يرفعوها وقع رأسها. كان الجسد، إلى جانب الرأس مشوهين تشويها يثير الخوف. كان الرأس مشوها إلى حد أنه لم يبق به أى تماثل بشرى".

"لا يوجد حتى الآن كما نعتقد أي مفتاح لحل هذا اللغز الفظيع".

حوت صحيفة اليوم التالي هذه النقاط التفصيلية الإضافية.

"المأساة في شارع مورج. أُستجوب العديد من الأشخاص في خضم التحقيقات عن هذه المسألة الاستثنائية والمخيفة للغاية (إن كلمة " مسألة" لا تنطوي بعد، في فرنسا، على الخفة في الأهمية التي تصلنا منها) غير أنه لم يحدث أي شيء أيا كان يلقي الضوء عليها. نورد فيما يلي كل الشهادات التي أدلى بها الشهود.

"بولين دوبورج، غسالة، شهدت أنها عرفت المتوفيتين لمدة ثلاث سنوات، حيث إنها كانت تغسل لهما ملابسهما خلال هذه الفترة. بدت العجوز وابنتها على علاقة جيدة- حنونتين على بعضهما البعض. كانتا تدفعان بسخاء. لم تستطع أن تدلي بمعلومات عن حالتيهما النفسية أو وسائل معيشتهما. تعتقد أن مدام لواسباني. ذكرت ثروة تعيش منها.

عرف عنهما أنهما تمتلكان أموالا مدخرة. لم تقابل أي شخص في المنزل أبدا حين كانتا يستدعيانها لغسل الملابس أو لأخذها إلى بيتها. كانت متأكدة أنهما لم توظفا خادمة. لم يبدو أن ثمة أي أثاث في أي جزء من البناية باستثناء الطابق الرابع".

"بيير مورو، دخاخني، شهد أنه اعتاد على بيع كميات صغيرة من التبغ والنشوء إلى مدام لوإسباني لأربع سنوات تقريبا. ولد في الجوار، وأقام هناك طوال حياته. شغلت المتوفاة وابنتها البيت الذي وجدت فيه الجثتان لأكثر من ست سنوات. كان يشغله في السابق صائغ، الذي أجر الغرف العلوية لأشخاص مختلفة بأجر قليل. كان البيت ملكا لمدام ل. أصبحت مستاءة من استغلال المستأجرين للمبنى والأراضي التابعة له، وانتقلت إليه بنفسها، رافضة أن تؤجر أي قسم منه. كانت السيدة العجوز طفولية السلوك. شهد على أنه رأى الابنة خمس أو ست مرات خلال السنوات الست. عاشت الاثنتان حياة منعزلة انعزالا شديدا، عرف عنهما أنهما تمتلكان أموالا. سمع أنه يتردد بين الجيران أن مدام ل. ذكرت أنها تملك ثروة، ولم يصدق هذا. لم ير أي شخص يدخل من الباب باستثناء العجوز وابنتها، وحمال مرة أو مرتين، وطبيب حوالي ثماني أو عشر مرات".

"أشخاص أخرى عديدة، والجيران، أدلوا بشهادات أسفرت عن النتيجة نفسها. لم يأتوا بذكر شخص تردد على البيت. ولم يعرف ما إذا كان يوجد أي أقرباء أحياء لمدام ل. وابنتها أم لا. نادرا ما فتحا

مصاريع النوافذ الأمامية. فتلك التي في المقدمة كانت مغلقة دائما باستثناء الغرفة الخلفية الكبيرة في الدور الرابع. كان البيت في حالة جيدة— ليس قديما جدا".

"إزيدور ميوسيه، دركي، شهد أنه اُستدعي إلى البيت حوالي الثالثة صباحا، ووجد حوالي عشرين أو ثلاثين شخصا عند البوابة، يحاولون الدخول. أخيرا فتحه عنوة بحربة وليس بعتلة. لم يجد إلا صعوبة قليلة في فتح الباب، بسبب أنه باب مزدوج أو باب يطوى، ولم يكن به رتاج لا في أعلاه ولا في أسفله. استمرت الصرخات حتى فتح الباب عنوة، ثم فجأة توقفت. بدت أنها صرخات شخص ما (أو أشخاص) في كرب عظيم فقد كانت عالية وممتدة، ليست قصيرة وسريعة. قاد الشاهد الطريق إلى الأعلى. وعند وصوله إلى منبسط الدرج الأول، سمع صوتين في مجادلة عالية وغاضبة، صوتًا أجش؛ والآخر حادا – صوتا غريبا جدا. استطاع أن يميز بعض كلمات الأول التي كانت من رجل فرنسي. كان متأكدا أنه ليس صوت امرأة. استطاع أن يميز كلمتي "يا إلهي" و"شرير". كان الصوت الصادر لشخص أجنبي. لم يستطع أن يتأكد ما إذا كان صوت رجل أم امرأة. لم يستطع أن يستنبط ماذا قيل لكن يعتقد أن اللغة كانت إسبانية. وصف هذا الشاهد حالة الغرفة والأجساد كما وصفناها بالأمس".

"هنري دوفال، جار، وهو صائغ فضة، شهد أنه كان واحدا من الفريق الذي دخل أولا البيت. أيد شهادة ميوسيه عامة. فور أن فتحوا الباب عنوة، أعادوا غلقه مرة أخرى لكي يمنعوا الجمهور الذي تجمع سريعا بغض النظر عن الساعة المتأخرة. يعتقد الشاهد أن الصوت الصادر كان لإيطالي. كان متأكدا من أنه ليس فرنسيا. لم يستطع أن يؤكد أنه صوت رجل، لعله كان لامرأة. ليس ملما باللغة الإيطالية. لم يستطع أن يميز الكلمات لكنه كان مقتنعا بسبب التنغيم أنه إيطالي. عرف مدام ل. وابنتها، تبادل معهما الحديث تكرارا. كان متأكدا أن الصوت الصادر لم يكن لواحدة من المتوفيتين".

"أودينهايمر، صاحب مطعم. هذا الشاهد تطوع بالشهادة. بما أنه لا يتحدث الفرنسية فقد تم استجوابه من خلال مترجم. مواطن من أمستردام. كان يعبر بجانب البيت في وقت الصيحات. استمرت لعدة دقائق. كانت طويلة وعالية --- شنيعة جدا وقابضة للصدر. كان واحدا من هؤلاء الذين دخلوا المبنى. أيد الشهادات السابقة في كل وجوهها إلا واحدة. كان متأكدا أن الصوت الصادر كان صوت رجل - فرنسيا. لم يستطع أن يميز الكلمات التي نطقها. كانت عالية وسريعة- غير متساوية - قيلت بخوف وبغضب أيضا. كان الصوت قاسيًا - ليس صارا بقدر ما هو قاس. لا يستطيع أن يصفه بأنه صار. كرر الصوت الأجش: "شرير" ومرة "يا إلهي".

"جوليس ميجنود، صراف، لشركة ميجنود وأولاده في شارع ديلورين. هو الابن الأكبر. تملك مدام لواسباني بعض الممتلكات. فتحت حسابا مع بنكه في ربيع عام ---- (منذ ثماني سنوات سابقة) أودعت مبالغ صغيرة تكرارا. لم تسحب أي شيء حتى ثلاثة أيام قبل وفاتها حين سحبت شخصيا مبلغ ٤٠٠٠ فرنك. تم دفع هذا المبلغ ذهبا، وأرسل المال إلى المنزل مع موظف".

"شهد أدوولف لو بون، موظف لدى ميجنود وأولاده، أنه في اليوم المعني، في حوالي الظهيرة صاحب مدام لواسباني إلى محل إقامتها مع مبلغ قدره ٤٠٠٠ فرنك، موزعة على حقيبتين. عندما فتحت الباب ظهرت مدموازيل ل. وأخذت من يده واحدة من الحقيبتين، بينما أراحته العجوز من الحقيبة الأخرى. انحنى بعد ذلك تحية لهما ورحل. لم ير أي شخص في الشارع في ذلك الوقت. هو شارع جانبي وموحش".

"ويليام بيرد، خياط، شهد أنه كان واحدا من الفريق الذي دخل البيت. هو إنجليزي. عاش في باريس منذ عامين. كان واحدا من أوائل من صعدوا السلم. سمع أصواتا تتجادل. كان الصوت الأجش لفرنسي. استطاع أن يميز عدة كلمات لكن لا يستطيع الآن تذكرها كلها. سمع بوضوح "شرير" و"يا إلهي". كان هناك صوت كأن عدة أشخاص يتنازعون – صوت صرير وشجار. كان الصوت الصار عاليا جدا –

أعلى من الأجش. كان متأكدا أنه ليس صوت رجل إنجليزيا. بدا أنه لشخص من ألمانيا. لعله صوت امرأة. لا يفهم الألمانية".

"أربعة من الشهود المذكورين في الأعلى، وقد تم استدعاؤهم مرة أخرى، شهدوا بأن باب الغرفة التي وجدوا بها جسد مدموازيل ل. كان مغلقا من الداخل حين وصل الفريق إليه. كل شيء كان صامتا تماما --- لا أنين أو ضجيج من أي نوع. عند فتح الباب عنوة لم ير أحد أي شخص. كانت النافذتان الخلفية والأمامية للغرفة موصدتين ومحكمتين من الداخل. كان الباب الذي بين الغرفتين مغلقا لكن غير موصد. كان الباب الذي يؤدي إلى الممر من الغرفة الأمامية موصدا والمفتاح بالداخل. غرفة صغيرة في مقدمة المنزل في الطابق الرابع في مقدمة الممر كانت مفتوحة، فالباب كان مفتوحا جزئيا. كانت الغرفة مليئة بالأسرة القديمة والصناديق وإلخ. تم نقل هذه الأشياء وفحصها فحصا متأنيا. لا يوجد إنش واحد في أي قسم من أقسام البيت لم يتم فحصه فحصا متأنيا. مسحت المجاذيف الطويلة المداخن صعودا ونزولا. كان البيت من أربعة طوابق بعاليه. ثمة باب مسحور في السقف مسمر بإحكام - يبدو أنه لم يفتح لسنوات. الوقت الذي مر بين سماع الأصوات المتجادلة وفتح باب الغرفة عنوة اختلف الشهود في تحديده --- البعض حدده قصيرا بمدة ثلاث دقائق - البعض طويلا بمدة خمس دقائق. الباب فتح بصعوبة".

"الفونزو جارسيو، حانوتي، شهد أنه يسكن في شارع مورج. هو من أصل إسباني. كان واحدا من الفريق الذي دخل البيت، لم يصعد السلم. عصبيا، وأدرك عواقب هذا الهياج. سمع أصواتا تتجادل. كان الصوت الأجش لفرنسي. لم يستطع أن يميز ما قاله. كان الصوت الصار لإنجليزي— كان متأكدا من هذا. لا يفهم اللغة الإنجليزية، لكنه يحكم من التنغيم".

"البرتو مونتاني، حلواني، شهد أنه كان من أول من صعدوا الدرج. سمع الأصوات المعنية. كان الصوت الأجش لفرنسي. ميز عدة كلمات. بدا أن المتحدث يعترض على شيء ما. لم يستطع أن يفهم كلمات الصوت الصار. تحدث سريعا وبتفاوت وبلهجة مختلفة. يعتقد أنه صوت روسي. أيد الشهادة العامة. هو إيطالي. لم يتحدث أبدا إلى مواطن روسي".

"شهد عدة شهود تم استدعاؤهم مرة ثانية أن مداخن كل الغرف في الطابق الرابع كانت ضيقة جدا لكي تسمح بمرور إنسان. وقد عنوا بــكلمة "مسح"، أنهم قاموا بمسح المداخن بواسطة فرش أسطوانية الشكل، كتلك التي يستخدمها الذين ينظفون المداخن. هذه الفرش مرت صعودا ونزولا على كل أنبوب مدخنة في البيت. لا يوجد ممر خلفي يمكن من خلاله أن يهبط أي شخص أثناء صعود الفريق السلم. كان جسد مدموازيل لواسباني محشورا بإحكام في المدخنة بحيث لم يستطيعوا إخراجه حتى وحّد أربعة أو خمسة أفراد من الفريق قوتهم معا".

"بول دوماس، طبيب، شهد أنه استدعي ليرى الجسدين مع بزوغ النهار. كان كلاهما راقدين حينئذ على هيكل السرير في الغرفة التي وجدت بها مدموازيل ل. كان جسد السيدة الشابة مليئا بالكدمات ومكشوطا. إن حقيقة أنه حشر في المدخنة سبب كاف لتفسير هذه الهيئة. كان الحلقوم متقرحا تقرحا كبيرا. كانت هناك عدة خدوش عميقة تحت الذقن إلى جانب سلسلة من البقع المزرقة التي كان من الواضح أنها بصمات أصابع. كان الوجه شاحبا شحوبا مخيفا، والعينان ناتئتين. كان اللسان معضوضا جزئيا من أوله إلى آخره. وجد كدمة ضخمة فوق تجويف البطن نتجت على ما يبدو من ضغط ركبة. في رأي م. دوماس خنقـــت مدموازيل لواسباني حتى الموت من شخص أو أشخاص مجهولين. كان جسد الأم مشوها تشويها فظيعا. كل عظام الساق اليمنى والذراع اليمنى مهشمة بشكل أو آخر. كانت قصبة الساق اليسرى أكثر تهشيما إلى جانب أضلاع الجانب الأيسر. كان الجسد كله مليئا بكدمات مروعة وشاحبا شحوبا رهيبا. لم يكن ممكنا تحديد كيف حدثت الجراح. هراوة ثقيلة من الخشب، أو لوح عريض من الحديد، كرسي، أي سلاح ضخم وثقيل وكليل يؤدي إلى هذه النتائج لو استخدمته يد بارعة لرجل قوي جدا. لا تستطيع المرأة أن تحدث هذه الضربات بأي سلاح. كان رأس الميتة عندما رآه الشاهد منفصلا تماما عن الجسد، ومهشما تماما، وكان الحلقوم مذبوحا بأداة ما حادة جدا على ما يبدو – ربما موسى".

"ألكسندر اتين، جراح، أُستدعي مع م. دوماس لرؤية الجسدين. أيد شهادة م. دوماس وآراءه".

"لم يستنبط شيئا إضافيا ذا أهمية، على الرغم من أن بعض الأشخاص الآخرين تم استجوابهم. لم تُرتكب جريمة بهذا الغموض ومثيرة للحيرة على هذا النحو في كل تفاصيلها في باريس من قبل أبدا. لو أن ما ارتكب من قبل أبدًا يمكن تسميته جرائم قتل. إن البوليس غير قادر تماما على اكتشاف أي أثر للمذنب وبالتالي مرتبك ---- أمر غير عادي في مسائل من هذه الطبيعة. ومع ذلك لم يظهر أثر لأي مفتاح لحل هذا اللغز".

نصت الطبعة المسائية من الصحيفة أن الإثارة الأعظم استمرت في حي سانت روش ---- حيث تم تفتيش المباني المعنية تفتيشا متأنيا، وبدأت استجوابات جديدة للشهود، لكن لم تفض كلها إلى شيء. من ناحية أخرى وردت ملحوظة تذكر أن أدولف لو بون قبض عليه وحبس على الرغم من أنه لم يظهر شيء ما يجرمه فوق الحقائق المروية بالفعل.

بدا دوبن مهتما اهتماما غير عادي بتقدم هذه المسألة؛ على الأقل حكمت بهذا من أسلوبه لأنه لم يعلق عليها. وقد كان بعد أن أعلن عن حبس لو بون أن سألني رأيي فيما يتعلق بهاتين الجريمتين.

"بوسعي فقط أن أوافق باريس كلها في اعتبارهما لغزا غير قابل للحل. لم أر وسائل يمكن من خلالها اقتفاء أثر القاتل".

قال دوبن: "لا يجب أن نحكم بالوسائل- بهذه القشرة من الاستجوابات. إن البوليس الباريسي، الذي يشاد كثيرا بفطنته، بارع، لكن ليس أكثر من هذا. لا منهج في عملهم يتجاوز منهج اللحظة. لقد قاموا باستعراض عريض لمعاييرهم الاستقصائية، لكن، وتكرارا، طبقوها تطبيقا سيئا على أهدافهم المفترضة إلى حد أنها تجعلنا نتذكر طلب السيد جوردن لروب غرفة نومه (روب دي شامبر) لكي يسمع الموسيقى (موسيقى الغرفة) أفضل. إن النتائج التي أحرزوها ليست استثنائية إلا أن الجزء الأكبر منها نتيجة اجتهادهم ونشاطهم؛ وعندما تصبح هذه الصفات غير مجدية تخفق خططهم. لقد كان فيدوق على سبيل المثال يملك قدرة جيدة على التخمين ويمتـــاز بالمثـــابرة، لكـــن لا يملك عقلا مثقفا. فقد كان يخطئ باستمرار بسبب كثافة التحقيقات التي كان يقوم بها. لقد أفسد رؤيته بحمل الشيء قريبا جدا من عينيه. لعله سيرى نقطة أو نقطتين بوضوح استثنائي، لكن على هذا النحو يفقد بالضرورة رؤية المسألة في شمولها. وبالتالي ثمة شيء كبير وهو العميق للغاية. الحقيقة ليست دائما في بئر. في الحقيقة أؤمن أن المعرفة الأهم دوما على السطح. إن العمق يكمن في الأودية حيث نلتمسه وليس فوق قمم الجبال حيث توجد الحقيقة. إن أنماط ومصادر هذا النوع من الخطأ تتجسد خصائصه الأساسية عند تأمل الأجساد السماوية. أن تنظر إلى نجمة بنظرات عاجلة يعني أن تراها بطريقة مائلة؛ بأن تحول تجاهها القسم الخارجي من القرنية (الأسرع تأثرا

بمقدار أضعف من الضوء مقارنة بالقسم الداخلي منها)، يعني أنك ترى بريق النجمة بوضوح- يعني أنك تدرك بريقها أفضل ما يكون- البريق الذي يغدو معتما مع زيادة درجة تحول نظرنا كاملا إليها. ففي هذه الحالة، يسقط عدد أكبر من الأشعة فعليا فوق العين، لكن في الحالة الأولى تتوفر للعين قدرة أحَّد للرؤية. إننا نربك تفكيرنا ونضعفه بالتعمق المفرط، ومن الممكن أن يختفي المريخ نفسه عن السماء إذا فحصناه فحصا طويلا، شديد التركيز أو شديد المباشرة".

"بالنسبة لهؤلاء القتلة، دعنا نقوم ببعض الفحوصات من أجل أنفسنا قبل أن نكوِّن رأيا يتعلق بهم. سيمنحنا الاستجواب تسلية (أعتقد أن هذا تعبير غريب بتطبيقه على هذه الحالة، لكنه لا يعني شيئا)، علاوة على هذا، قدم لي لوبون خدمة ممتن لها. سنمضي إلى موقع الحادث ونرى المقدمات بأعيننا. أعرف ج ـــ، مدير الشرطة ولن أجد صعوبة في الحصول على الإذن الضروري".

حصلنا على هذا الإذن وتابعنا فورا إلى شارع مورج. هو واحد من تلك الشوارع العامة البائسة التي تقع بين شارع ريشيليو وشارع سانت روش. وصلنا إليه في ساعة متأخرة من الظهيرة بما أن هذا الحي على مسافة بعيدة عن الذي نسكن فيه. وجدنا البيت بسهولة حيث كان لايزال عديد مـــن الأشخاص يحدقون إلى نوافذه المغلقة بفضولية لا هدف لها من الناحية المقابلة للطريق. كان بيتا باريسيا عاديا بمدخل، عند أحد جوانبه كشك حراسة مصقول مع لوح منزلق في

نافذته يشير إلى غرفة البواب. قبل أن ندخله مشينا إلى نهاية الشارع وسلكنا زقاقا عائدين، ثم مرة أخرى درنا، ومررنا أمام مقدمة المبنى، أثناء ذلك كان دوبن يفحص الجوار بأكمله والبيت أيضًا، لم أستطع أن أرى أي هدف محتمل من هذا.

أصبحنا مرة أخرى أمام المسكن، ضربنا الجرس. وبعد أن أظهرنا أوراق اعتمادنا دخلنا بصحبة العملاء المناوبين. صعدنا السلم إلى الغرفة التي عثر فيها على جسد مدموازيل لواسباني، وحيث لايزال كلتا المتوفيتان ترقدان. لم يغير البوليس شيئا من فوضى الغرفة، كالعادة. لم أر شيئا مما ذكرته الصحيفة. فحص دوبن كل شيء غير مستثني جسدي الضحيتين. ذهبنا بعد ذلك إلى الغرف الأخرى وإلى ساحته، صاحبنا دركي عبر كل هذه الأماكن. شغلنا الفحص حتى حلول الظلام حين غادرنا. في طريقنا إلى البيت توقف صديقي للحظة عند أحد مكاتب الصحف اليومية.

قلت إن نزوات صديقي متعددة الأشكال وإنني أتعامل معها ببراعة، لأنه لا يوجد معادل في الإنجليزية لهذه العبارة. كان مزاجه الآن أن يرفض أي حديث عن موضوع القتل حتى ظهيرة اليوم التالي. حينها سألني فجأة إذا ما كنت قد لاحظت شيئا غريبا في مسرح وقوع العمل الوحشي.

ثمة شيء ما يشوب طريقته في التأكيد على كلمة "غريب" جعلني أرتجف دون أن أعرف السبب.

قلت: "لا شيء غريب، لاشيء أكثر مما رآه كلانا مذكور في الصحيفة"

أجاب "أخشى أن *Gazette* لم تتطرق إلى الرعب غير العادي الموجود في الأمر. لكن فلنطرد الآراء المثالية لهذه الصحيفة. يبدو لي أن هذا اللغز اعتبر غير قابل للحل للسبب ذاته الذي يجب أن يجعله سهل الحل، أعني بسبب غرابة معالمه. إن البوليس مرتبك لما يبدو أنه غياب الدافع، ليس بسبب القتل في حد ذاته، بل بسبب وحشية القتل. كما تحيره أيضا الاستحالة البادية في التوفيق بين الأصوات التي سُمعت تتجادل مع حقيقة أنه لم يتم العثور على أي أحد في الدور العلوي سوى مدموازيل لواسباني المقتولة، وأنه لا توجد وسيلة لخروج أي أحد بدون أن تلاحظه المجموعة التي صعدت، والفوضى العارمة للغرفة، والجثة التي أُقحمت في المدخنة ورأسها إلى الأسفل، والتشويه المخيف في جثة السيدة العجوز. هذه الاعتبارات، مع تلك التي ذكرتها توا، واعتبارات أخرى في غنى عن أن أذكرها، كانت كافية لكي تشل قوى العملاء القائمين على القضية، حيث جعلت فطنتهم التي يتباهون بها في اكتشاف رائحة طريدتهم وقنصها في حالة ارتباك وحيرة. لقد وقعوا في الخطأ الجسيم لكن العادي بخلط النادر مع المبهم. غير أنه بسبب تلك الانحرافات عن مستوى العادي يشق العقل طريقه في سياق بحثه عن الحقيقة. في تحقيقات شبيهة بتلك التي نقوم بها الآن لا يجب أن يكون السؤال "ماذا حدث؟" بقدر ما هو "ما الذي حدث ولم يحدث

أبدا من قبل؟" في الحقيقة إن السهولة التي سأصل بها، أو توصلت بها إلى حل هذا اللغز تتناسب طرديا مع عدم قابليته للحل البادي في عيون الشرطة".

حدقت في المتحدث في اندهاش أبكم.

واصل قائلا: "أنا أنتظر الآن"، "واصل كلامه وهو ينظر إلى باب شقتنا" أنا أنتظر الآن شخصا، على الرغم من أنه ليس مَنْ ارتكب هذه المذابح، على الأرجح، فهو بدرجة ما ينبغي أن يكون متورطا في حادثة ارتكابها. ولعله برىء من أسوأ جزء في الجرائم المرتكبة. أتمنى أن أكون محقا في هذا الافتراض لأنني بناء عليه أبني توقعاتي في قراءة اللغز بأكمله. أتوقع الرجل هنا، في هذه الغرفة، في أي لحظة. قد لا يصل حقا، لكن الاحتمال أنه سيأتي. فإذا جاء من الضروري أن نقوم بحجزه. ها هي المسدسات وكلنا يعرف كيف يستخدمها عندما يتطلب الأمر استخدامها.

أخذت المسدسات وأنا بالكاد أعي ما أفعله أو أصدق ما سمعته، بينما تابع دوبن كأنه أقرب ما يكون في مناجاة مع نفسه. تحدثت بالفعل عن أسلوبه التجريدي في مثل هذه الأوقات. كان خطابه موجها إليّ، لكن صوته على الرغم من أنه ليس عاليا بأي حال، اصطبغ بطبقة تستخدم عادة في التحدث إلى شخص على مسافة بعيدة. عيناه وقد خلت من التعبير تتطلع فقط إلى الحائط.

قال: "حقيقة أن الأصوات التي سمعتها مجموعة الناس فوق السلم تتجادل لم تكن صوتي المرأتين ذاتيهما أثبتها الدليل تماما. يحررنا هذا من أي شك حول مسألة ما إذا كانت السيدة العجوز قد قتلت ابنتها أولا ثم بعد ذلك انتحرت. أتحدث عن هذه النقطة أساسا من أجل المنهج؛ لأن قوة مدام لواسبانى لا تكافئ أبدا مهمة إقحام جثة ابنتها في المدخنة كما تم العثور عليها، وطبيعة الجروح التي على جسدها تجعل فكرة التدمير الذاتي فكرة مستحيلة. إذن لقد ارتكب الجريمة طرف ثالث، وأصوات هذا الطرف الثالث هي التي سُمعت مشتبكة في جدال. دعني أحيد الآن – ليس إلى الشهادات كلها التي تتعلق بتلك الأصوات– بل إلى ما كان خاصا في تلك الشهادات. هل لاحظت أي شيء خاص بها؟"

قلت: "لاحظت أنه في حين أن كل الشهود اتفقوا على افتراض أن الصوت الأجش هو لشخص فرنسي، اختلفوا فيما يتعلق بحدة نغمته أو كما أسماه أحدهم الصوت الخشن".

قال دوبن: "هذا هو الدليل نفسه، لكن ليس الخاص به. لم تلحظ شيئا ما مميزا. ومع ذلك، ثمة شيء لافت. اتفق الشهود على الصوت الأجش، كما لاحظت، اتفقوا بالإجماع في هذه النقطة. لكن فيما يتعلق بالصوت الصار، فلا تكمن خصوصيته في أنهم لم يتفقوا في شهاداتهم، بل حينما حاول شاهد إيطالي وإنجليزي وإسباني وهولندي وفرنسي، وصفه، تحدث كل واحد منهم عنه باعتباره صوتا أجنبيا؛ فكل واحد

منهم متأكد أنه ليس صوت ابن من أبناء بلده، وكل واحد منهم يشبهه ليس بصوت فرد من أي أمة تتحدث بلغة من اللغات الملم بها، بل على العكس؛ فالفرنسي يفترض أنه صوت الإسباني "كان يمكن أن أميز بعض الكلمات لو أنني ملم بالإسبانية". يؤكد الهولندي أنه صوت فرنسي لكن نجد أنه يقر بـــ "لا أفهم الفرنسية"، هذا الشاهد تم استجوابه عبر مترجم فوري. "يعتقد الإنجليزي أنه صوت ألماني" و"لا يفهم الألمانية"، الإسباني: "متأكد" أنه صوت رجل إنجليزي، لكنه "يحكم من التنغيم" كلية؛ "بما أنه لا علم له بالإنجليزية". يعتقد الإيطالي أنه صوت روسي لكنه "لم يتحدث أبدا مع مواطن روسي". علاوة على ذلك، شاهد فرنسي آخر يختلف مع الشاهد الفرنسي الأول، وهو متيقن من أنه صوت إيطالي. لكن لأنه غير ملم بتلك اللهجة فهو مثل الإسباني "مقتنع بسبب تنغيمها". والآن، يا له من صوت نادر إلى حد أنه أثار الاستغراب فلم يستطع هؤلاء الشهود أن يستدلوا عليه! لم يميز مواطنو خمسة أقسام عظيمة من أوروبا أي شيء مألوف لهم في نبراته! ستقول لعله صوت آسيوى أو أفـــريقـــي! لا تزخـــر بـــاريس بالآسيويين ولا الأفارقة، لكن حتى في سياق استنتاجك هذا، سألفت انتباهك فحسب إلى ثلاث نقاط. لقد وصف أحد الشهود الصوت بأنه "خشن أكثر منه صار"، وشاهدان آخران وصفاه بأنه "سريع ومضطرب"، ولم يذكر أي شاهد كلمات ما أو أي مقطع لفظي ما مميزا في كلمات".

واصل دوبن: "لا أعرف أي انطباع خلقته في عقلك حتى الآن لكنني لا أتردد في أن أقول إن الاستنتاجات المنطقية حتى من هذا الجزء من الشهادات، الجزء الذي يتعلق بالأصوات الأجشة والحادة، كافية في حد ذاتها لتوليد شك سيقود أي تقدم لاحق في تحقيقات اللغز".

قلت "استنتاجات منطقية" لكنها لا تعبر تماما عن المعنى الذي أقصده، لقد قصدت أن تكون هي الوحيدة الملائمة وأن الشك يبزغ حتميا عنها باعتبارها النتيجة الوحيدة. ما هو الشك؟ لن أقول الآن، مع ذلك. أرغب فقط أن تحفظ في عقلك، معي، أنه كان له فاعلية كاملة بحيث منح طريقة تفتيشي في الغرفة شكلا محددا – اتجاها معينا.

فلنتصور أننا الآن في الغرفة. ما هو أول شيء نسعى وراءه فيها؟ الوسيلة التي استخدمها القتلة للخروج منها. لن أبالغ إذا قلت إنه لا أحد منا يؤمن بالأحداث الخارقة. الأرواح لم تدمر السيدة العجوز ومدموازيل لواسباني. فاعلو الفعل ماديون وهربوا ماديا. إذن كيف؟ من حسن الحظ أنه لا يوجد إلا نمط واحد للتفكير في المسألة، وأنه يقودنا إلى قرار نهائي. دعنا نفحص الوسائل الممكنة للخروج وسيلة بعد أخرى. من الواضح أن القتلة كانوا في الغرفة التي وجدت بها مدموازيل لواسباني أو على الأقل في الغرفة المجاورة عندما كانت مجموعة الناس تصعد السلم. إذن، في هاتين الغرفتين فقط، يجب أن نسعى لحل المسألة. نبش البوليس الأرضيات والأسقف ودهان الحوائط في كل اتجاه، لا يمكن أن يفلت منهم أي مخرج سري. لكنني فحصت

المكان بعيني انطلاقا من عدم ثقتي في عيونهم. لم أجد مخارج سرية. كل من البابين اللذين يؤديان إلى غرف الممر مغلقين بإحكام بمفتاحين من الداخل. دعنا نعود إلى المدخنة، على الرغم من أنها ذات عرض عادي يبلغ ثمانية أو عشرة أقدام فوق الموقد لن تسمح بمرور جسد قط ضخم. وهكذا بما أن الخروج عبر الوسائل التي ذكرتها توا مستحيل؛ نقتصر الآن على النوافذ. لا يمكن أن يهرب أي أحد من خلال النافذة الأمامية بدون أن يلاحظه أحد من الجمهور في الشارع. إذن لابد أن القتلة مروا عبر النافذة الخلفية. بما أننا توصلنا إلى هذا الاستنتاج بأسلوب لا لبس فيه، فليس علينا باعتبارنا محللين أن نرفضه بسبب استحالته الظاهرية. علينا فقط أن نثبت أن تلك " الاستحالة" الظاهرية هي في الحقيقة ليست كذلك.

ثمة نافذتان في الغرفة، واحدة منهما لا يسدها الأثاث وهي واضحة تماما. الجزء السفلي من النافذة الأخرى يحجبه عن النظر مقدمة سرير ثقيل، لا يمكن تحريكه بسبب ضخامته ملتصق بها بحيث إنه أغلقها. ووجدت أنه محكم الغلق من الداخل؛ يقاوم القوة القصوى لمن يحاول رفعه. وفي إطاره إلى ناحية اليسار حفرة بمثقاب، بداخلها مسمار قوي دق فيه تقريبا حتى رأسه. وعند فحصي النافذة الأخرى وجدت مسمارا مشابهًا مثبتا بها وفشلت أيضًا محاولتي أن أرفع إطارها. والآن، إن البوليس مقتنع تماما بأن الخروج لم يتم من خلال هذه الاتجاهات. وبناء عليه، أعتقد أن من غير الضروري سحب هذين المسمارين وفتح النافذتين.

كان فحصي أكثر خصوصية إلى حد ما وهذا للسبب الذي أعطيته لك، أعرف أنه لابد من إثبات أن كل الاستحالات البادية ليست كذلك في الواقع.

"وواصلت التفكيرعلى النحو التالي باعتباره نتيجة منطقية لازمة، لقد هرب القتلة فعليا من نافذة من النافذتين؛ وبناء عليه لا يمكن أن يكونوا قد أعادوا إحكام غلق إطار النافذة من الداخل بما أنه وجد محكم الإغلاق. وهو الاعتبار الذي شكل طريقا مسدودا بسبب جلائه لفحص البوليس في هذا القسم من الأقسام الأربعة لإطار النافذة. إلا أن إطارى النافذتين محكما الغلق. إذن لابد أن لهما خاصيــة غلق تلقائيا. لا مفر من هذا الاستنتاج. اتجهت ناحية إطار النافذة التي لا يسدها أي أثاث وسحبت المسمار ببعض الصعوبة وحاولت رفع إطارها. وكما توقعت قاوم كل مجهوداتي في رفعه، وهذا تعزيز لفكرتي التي أقنعتني أن مقدماتي صحيحة، على الأقل، بغض النظر عن الظروف الغامضة التي لاتزال تحيط المسمارين. وسرعان ما كشف بحث حذر عن زنبرك خفي. ضغطه، وسعيد بهذا الاكتشاف، امتنعت عن رفع إطار النافذة".

"الآن، أعدت المسمار إلى مكانه وراقبته مراقبة دقيقة. يستطيع أي شخص يمر عبر النـــافذة أن يغلقها ويظـــل الـــزنبرك مثبتا، لكن لا يمكن أن يعود المسمار إلى مكانه. كانت النتيجة واضحة وانحصرت مرة أخرى ضمن مجال بحثي. لابد أن القتلة هربوا من خلال النافذة

الأخرى. فلنفترض إذن أن الزنبركات في كل إطار متطابقة كما هو محتمل، لابد أن هناك اختلافا بين المسمارين أو على الأقل بين طريقتي تثبيتهما. بعد أن اتجهت إلى هيكل السرير وبحثت في لوحه الرأسي الأمامي بدقة شديدة عند النافذة الثانية. اكتشفت عندما مررت يدي خلف اللوح بسهولة زنبركًا ضغطه، كان كما افترضت مطابقا لجاره. بحثت الآن عن المسمار. كان صلبا مثل الآخر ومثبتا بالطريقة نفسها، مدقوقا تقريبا حتى رأسه".

ستقول إنني ارتبكت لكن إذا كنت كذلك، فلابد أنك أسأت فهم منهج الاستقراء الذي اتبعته. وباستخدام عبارة رياضية، لم أفقد رائحة طريدتي مرة واحدة. لم أفقد أبدا للحظة رائحتها. لا يوجد أي خطأ في أي حلقة من حلقات السلسلة، لقد اقتفيت أثر السر حتى نتيجته النهائية، والسر هو المسمار. أقول إنه على كل النواحي له مظهر رفيقه في النافذة الأخرى، لكن هذه الحقيقة كانت بلا قيمة أبدًا (على الرغم من أنها حاسمة كما قد تبدو) عند مقارنتها بانتهاء مفتاح الحل عند هذه المرحلة. قلت "ثمة شيء ما خطأ في هذا المسمار" لمسته سقط بين أصابعي رأسه وربع إنش من جزئه المستقيم. كان باقي جزئه المستقيم في الثقب حيث انكسر. كان الجزء المكسور قديما (حيث كانت حوافه تعلوها قشرة من الصدأ) وتم إدخاله بمطرقة أدخلت جزئيا رأس المسمار في قمة الإطار السفلي. وضعت الآن بحذر رأس المسمار في الثقب حيث أخذته واكتملت صورة المسمار- كان الكسر غير مرئي.

وبعد أن ضغطت الزنبرك رفعت بلطف الإطار لعدة إنشات، ارتفع الرأس معها بعد أن ظل ثابتا في مهده. أغلقت النافذة وعاد الشكل الخارجي للمسمار كاملا مرة أخرى.

"حتى هنا هذا اللغز انفك الآن، هرب القاتل من النافذة التي تطل على السرير. لقد أصبحت محكمة الإغلاق بواسطة الزنبرك بعد أن هبطت تلقائيا بعد خروجه (أو ربما أغلقت عن قصد)، واحتباس الزنبرك وراء هيكل السرير هو ما أخطأ البوليس باعتباره احتباس المسمار؛ وعليه اعتبروا أن لا ضرورة لمزيد من البحث".

السؤال الثاني هو السؤال عن طريقة الهبوط. بدد شكي بصدد هذه النقطة مشيي معك حول المبنى؛ فعلى بعد خمسة أقدام ونصف القدم من النافذة التي نتحدث عنها ينتصب قضيب مانع صواعق. من هذا القضيب من المستحيل أن يصل أي شخص إلى النافذة نفسها ناهيك عن الدخول منها. من ناحية أخرى، لاحظت أن مصاريع نوافذ الدور الرابع من نوع خاص يسميه النجارون الباريسيون وسم البقر، وهو نوع نادرا ما يستخدم في الوقت الحالي لكن عادة ما يرى في البيوت القديمة في ليون وبوردو. هذا النوع على شكل الباب العادي (الباب فردي وليس بابا ذا مصاريع قابلة للطي) باستثناء أن النصف السفلي منه مشرع أو مشغول بشعرية مفتوحة وبهذا يوفر مقبضا ممتازا للأيادي. في الحالة الحالية، عرض كل مصراع ثلاثة أقدام ونصف القدم. عندما رأيناهما من أمام المنزل كان كلاهما مفتوحا نصف فتحة

أي على زاوية قائمة مع الحائط. على الأرجح فحص البوليس، وأنا أيضًا، خلفية المنزل، لكن لو تم هذا، عندما نظروا إلى وسم البقر بالتوافق مع عرضها (كما يجب أنهم فعلوا) لم يروا هذا العرض العظيم في حد ذاته أو في كل الأحوال أخفقوا في أخذه بالاعتبار. في الحقيقة بما أنهم أقنعوا أنفسهم أن لا خروج وقع من هذا القسم؛ كان من الطبيعي أن يخضعوا هذا القسم إلى فحص دقيق. من ناحية ثانية، كان واضحا بالنسبة إلى أن مصراع النافذة التي تقع عند مقدمة السرير، إذا دار تماما باتجاه الحائط سيبعد قدمين عن مانع الصواعق. كان واضحا أيضا أنه، مع القدرة على الحركة على نحو استثنائي والشجاعة، يمكن الدخول إلى النافذة من مانع الصواعق. وبالوصول إلى مسافة قدمين ونصف القدم (نفترض الآن أن المصراع مفتوح على وسعه) يمكن لسارق ما القبض بقوة على الشعرية. حينئذ سيترك قبضته على مانع الصواعق ويضع قدمه على الحائط ويقفز بجرأة منه؛ فإذا فعل هذا يستطيع أن يؤرجح المصراع لكي يغلقه؛ وإذا تصورنا أن النافذة مفتوحة في ذلك الوقت فلعله يتأرجح هو نفسه إلى الغرفة.

أود أن تتذكر، أنني أتحدث بشكل خاص، عن درجة استثنائية للغاية من الحركة مطلوبة للنجاح في القيام بعمل صعب جدا وينطوي على مخاطرة كبيرة. إن غرضي هو أن أوضح لك في البداية أن هذا الفعل قد أنجز على الأرجح، لكن، ثانيا وأساسا، أود أن أنبهك إلى الاستثنائية البالغة- الدرجة الخارقة تقريبا لسرعة الحركة التي يمكن إنجازه بها.

بلا شك ستقول مستخدما لغة القانون لكي أثبت أنني على حق؛ لابد أن أبخس على الأحرى من التقدير الكامل لسرعة الحركة المطلوبة في هذا الأمر عن الإصرارعليها. لعل هذا هو المعتاد في القانون لكنه ليس عرف العقل. إن الهدف النهائي فقط هو الحقيقة. هدفي الفوري أن أقودك لكي تضع، متجاورين، سرعة الحركة الاستثنائية للغاية التي تحدثت عنها توا، والصوت الصار (أو الخشن) والمضطرب، والغريب جدا الذي لم يتفق شخصان على جنسيته، والذي لا يمكن تبين في كلماته مقاطع لفظية واضحة.

مع تلك الكلمات، طافت في عقلي فكرة غامضة وشبه مكتملة عن المعنى الذي يقصده دوبن. بدا أنني على حافة الفهم بدون القدرة على الفهم كما يجد الرجال أنفسهم أحيانا على ضفاف التذكر دون أن يقدروا في النهاية على التذكر. مضى صديقي في حديثه.

قال: "ترى أنني حولت السؤال من طريقة الخروج إلى طريقة الدخول. كان غرضي أن أنقل لك فكرة أن كلتيهما تمتا بالطريقة نفسها عند النقطة نفسها. دعنا الآن نعود إلى داخل الغرفة. دعنا نمسح مظهرها. قيل إن الأدراج تم تنقيبها، على الرغم من أن العديد من الملابس ظلت بداخلها. النتيجة هنا سخيفة. هى محض تخمين، تخمين سخيف جدا، وليس أكثر. كيف لنا أن نعرف أن الأشياء التي وجدوها في الأدراج لم تكن كل ما احتوته في الأساس؟ عاشت مدام لواسباني وابنتها حياة منعزلة إلى حد كبير، بدون صحبة، نادرا ما كانتا

تخرجان. لم تستخدما غيارات عديدة من ملابسهما. إن الملابس التي وجدت على الأقل ذات نوعية جيدة كما هو الأرجح؛ فلو أن سارقا ما أخذ أي شيء فلم لم يأخذ الأفضل، لم لم يأخذها كلها؟ في كلمةٍ لم ترك أربعة آلاف فرنك ذهبا ليعوق نفسه بحزمة من القماش؟ لقد ترك الذهب. تقريبا وجدوا المبلغ كله الذي ذكره السيد ميجانو الصراف في حقائب على الأرض؛ لذلك أود أن تطرد من تفكيرك الفكرة الخاطئة خطأ فادحا عن الدافع التي تولدت في عقول الشرطة بسبب الجزء من الدليل الذي يتحدث عن الأموال التي سلمت على باب البيت. تقع لنا كلنا كل ساعة في حيواتنا عشرات المصادفات على هذا القدر من الاستثنائية (تسليم الأموال وجريمة قتل ترتكب خلال ثلاثة أيام للطرف الذي تسلمها) بدون أن تلفت حتى الانتباه للحظة. الصدفة عامة هي عقبة عظيمة في طريق طبقة المفكرين الذين لم يتعلموا شيئا عن نظرية الاحتمالات، تلك النظرية التي يدين لها أعظم الأهداف مجدا في البحث الإنساني بأكثر التوضيحات روعة. في المثال الحالي لو كان الذهب قد اختفى، كانت حقيقة أنه سلم قبل ثلاثة أيام من وقوع الحادث، ستشكل شيئا ما أكثر من أنها صدفة، شيئا يعزز فكرة الدافع، لكن في ظل الشروط الحقيقية للقضية لو أننا سنفترض أن الذهب هو دافع هذا الاعتداء الوحشي يجب أن نتصور أيضا أن مرتكبها أحمق ومتردد جدا ليترك ذهبه ودافعه معا".

دعنا ننظر في المذبحة ذاتها ونحن نحتفظ في عقلينا بالنقاط التي لفتت نظرك إليها: ذلك الصوت الغريب، سرعة الحركة الاستثنائية، الغياب المروع للدافع في قاتل وحشي وحشية متفردة. لدينا امرأة خنقت حتى الموت بقوة يدوية وأقحمت في المدخنة ورأسها إلى أسفل. لا يستخدم القتلة العاديون طريقة مثل هذه في القتل. على الأقل لا يتخلصون من القتيل بهذه الطريقة. ستقر أن في طريقة إقحام الجثة في المدخنة - ستعترف بأن ثمة شيئا ما شاذا للغاية - شيئا ما يتناقض كلية مع مفاهيمنا العادية عن الفعل الإنساني حتى عندما نفترض أكثر الفاعلين تجردا من الإنسانية. فكر أيضا إلى أي مدى تلك القوة عظيمة التي استطاعت أن تقحم الجثة في فتحة مثل هذه، حتى إن القوة المتحدة لعدة أشخاص بالكاد كانت كافية لسحبها منها!

"تحول الآن إلى مؤشرات أخرى عن استخدام قوة من أكثر القوى عجبا. كان يوجد في الموقد جدائل سميكة، جدائل سميكة جدا من شعر بشري رمادي. هذه خلعت من جذورها. تدرك القوة العظيمة الضرورية لخلع من الرأس حتى عشرين أو ثلاثين شعرة معا. لقد رأيت الشعر الذي أتحدث عنه معي. كانت جذوره (منظر شنيع) ملبدة بقطع من لحم الجمجمة، بالتأكيد أمارة على القوة الشنيعة التي بذلت في اقتلاع، على الأرجح، نصف مليون شعرة مرة واحدة. لم يذبح عنق السيدة العجوز فحسب، بل إن الرأس مفصول تماما عن الجسد، كانت الأداة موسى فقط. أود أيضا أن تنظر إلى الضراوة الوحشية لتلك

الأعمال، لا أتحدث عن الكدمات التي على جسد مدام لواسباني. ذكر السيد دوماس ومساعده الفاضل السيد أتين أنهما أصيبا بأداة غير حادة، وهما محقان حتى الآن. كانت الأداة غير الحادة صخرة رصيف في ساحة البيت التي سقطت فيه الضحية من النافذة التي تطل على السرير. هذه الفكرة، على الرغم من البساطة التي تبدو بها الآن، فلتت من البوليس للسبب نفسه الذي فلت منهم عرض المصاريع؛ لأنه إلى جانب مسألة المسامير كان إدراكهم قد ختم بإحكام أمام احتمالية أن النوافذ قد فتحت في لحظة ما".

فإذا تأملت الآن، بالإضافة إلى كل هذه الأمور، تأملا صحيحا الفوضى الغريبة للغرفة؛ نكون قد بلغنا الحد الذي نربط عنده فكرة سرعة الحركة المذهلة مع القوى الخارقة للبشرية والضراوة والوحشية ومذبحة بدون دافع وبشاعات ارتكبت بفظاعة غريبة كلية عن الطبيعة الإنسانية وصوت أجنبي في نبرته على آذان رجال من عدة أمم ومجرد من أي مقطع لفظي مميز أو ملموس. ماهي إذن النتيجة المستخلصة؟ ما هو الانطباع الذي تركته على خيالك؟

شعرت برجفة في جسدي بينما يسألني دوبن السؤال، قلت: "مجنون فعل هذه الأفعال، مجنون هائج هرب من مصحة نفسية مجاورة".

أجاب: "فكرتك ليست بعيدة على جانب من الجوانب، لكن صوت المجنون حتى في أثناء أكثر نوباته ضراوة لا ينطبق على ذلك

الصوت الغريب الذي سُمع على السلم. المجانين ينتمون إلى جنسيات ما ولغاتهم بغض النظرعن تفكك كلماتها تتصف دائما باتساق مقاطع الألفاظ. فضلا عن ذلك، إن شعر المجنون لا يشبه الذي أحمله الآن في يدي. حررت هذه الحزمة الضئيلة من أصابع مدام لواسبانى المنطبقة المتصلبة. أخبرني ما الذي يمكن أن تستخلصه منها؟"

قلت وأنا متوتر تماما: "دوبن! هذا الشعر غير عادي تماما، ليس شعرا بشريا".

قال:" لم أؤكد على أنه كذلك، لكن قبل أن نحسم هذه النقطة، أود أن تنظر إلى الرسم الكروكي الذي استشفيته على هذه الورقة. إنه صورة طبق الأصل عما وصف في جزء من الشهادات بوصفه "كدمات عميقة وثلمات عميقة لأظافر الأصابع" فوق رقبة مدموازيل لواسبانى وفي أخرى (من السيدين دوماس وأتين) باعتباره "سلسلة من البقع الداكنة من الواضح أنها بصمات أصابع".

واصل صديقي وهو ينشر الصفحة على الطاولة أمامي "سترى أن هذا الرسم يعطي فكرة عن قبضة قوية وثابتة، لا توجد انزلاقات، كل إصبع احتفظ – على الأرجح حتى موت الضحية- بقبضته المخيفة التي في الأصل طوق بها الرقبة. حاول الآن أن تضع كل أصابعك في الوقت نفسه على البصمات المقابلة كما تراها.

عبثا حاولت.

قال: "ربما لم تجربها بطريقة تتفق مع القواعد؛ فالورقة فوق سطح مستو ورقبة الإنسان مخروطية الشكل. إليك قضبان من الخشب، محيطه تقريبا يساوي محيط الحنجرة. غلفه بالرسم، وحاول التجربة مرة أخرى".

فعلت هذا، لكني وجدت صعوبة حتى أكبر من المحاولة السابقة. قلت: "هذه ليست علامة يد بشرية".

أجاب دوبن: "اقرأ الآن هذه الفقرة من مجلد كوفيير".

كانت وصفا تشريحيا دقيقا لإنسان غاب أسمر مصفر، ضخم من جزر شرق آسيا. إن الهيكل العملاقي، القوة الشنيعة وسرعة الحركة، والضراوة الوحشية، والنزعة المحكاتية لهذه الثدييات معروفة بدرجة كافية للجميع. أدركت تماما الأهوال الكاملة في جريمتي القتل فورا.

قلت بعد أن انتهيت من القراءة: "إن وصف عقل الأصابع يتوافق تماما مع هذا الرسم. أرى أنه لا يوجد حيوان إلا إنسان الغاب، من النوع المذكور هنا، الذي قد تنطبق بصماته مع الفجوات التي استشفيتها. هذه الحزمة من الشعر الأسمر المصفر أيضًا تتطابق في صفتها مع شعر حيوان كوفيير. لكنني لا أستطيع أن أفهم تفاصيل هذا اللغز المخيف. علاوة على ذلك، سمع الشهود صوتين يتجادلان وصوتًا واحدًا. منهما كان صوت رجل فرنسي بدون شك".

صحيح، وتتذكر تعبيرا نسب إلى هذا الصوت، تقريبا بالإجماع من الشهود، هو تعبير: "يا إلهي". أحد الشهود وصفه عن حق، في ظل الظروف، بتعبير عن الاحتجاج أو التعنيف. بناء على هاتين الكلمتين بنيت أساسا آمالي فى حل اللغز تماما. فرنسي على علم بالقاتل. من الممكن- فعليا هو أكثر من احتمال – أنه برىء من أي مشاركة في الإجراءات الدموية التي وقعت. لقد هرب إنسان الغاب منه. لعله اقتفى أثره إلى الغرفة لكن في ظل الظروف الهائجة التي نتجت لم يستطع الإمساك به أبدا مرة أخرى. لن أتابع هذه التخمينات، لأنني لا أملك الحق في أن أسميها أكثر من هذا، حيث إن ظلال التفكير الذي ترتكن إليه ذو عمق بالكاد يكفي لكي يقدره ذكائي الخاص، كما أنني لا أستطيع أن أتظاهر أنني أستطيع أن أجعلها واضحة أمام فهم شخص آخر. سنسميها إذن تخمينات ونتحدث عنها باعتبارها كذلك. لو أن الفرنسي برىء كما أفترض فعليا من هذه الوحشية، فإن هذا الإعلان الذي تركته الليلة الماضية عند عودتي إلى البيت في مكتب صحيفة ***Le Monde*** (صحيفة مخصصة لأعمال الشحن ويلجأ البحارة إليها أكثر من غيرهم) سيحضره إلى محل إقامتنا.

ناولني ورقة وقرأت ما يلي:

"توقف مؤقتا – في بوا دي بولوجن، في الصباح الباكر من نقطة –- (صباح الجريمة) إنسان غاب ضخم جدا أسمر مصفر، من نوع بورنس. المالك (الذي تم التحقق من أنه بحار، فرد من أفراد

سفينة ماتيس) قد يحصل على الحيوان مرة أخرى عندما يعين نوعه تعيينا وافيا، ويدفع مصاريف قليلة جرَّاء الإمساك به والاحتفاظ به. اذهب إلى رقم – شارع – فوبورج سانت جيرمان –الطابق الثالث".

سألت: "كيف تأتى لك أن تعرف أن الرجل بحار وفرد من أفراد سفينة مالتيس؟"

قال دوبن: "لا أعرف ولستُ متأكدا من هذا. مع ذلك، لدينا قطعة صغيرة من وشاحه الذي هو من شكله ومن آثار الشحم التي عليه قد استخدم بوضوح في ربط الشعر في واحدة من تلك الضفائر الطويلة التي يولع بها البحارة. علاوة على ذلك، هذه العقدة واحدة من العقد التي يستطيع قلة من البحارة عقدها وهي خاصة ببحارة المالتيس. التقطت الشريط من عند قاعدة مانع الصواعق. لا يمكن أن تخص واحدة من المتوفيتين. فإذا، في النهاية، كنت مخطئا في استنتاجي من هذا الرباط أن الفرنسي بحار ينتمي إلى سفينة مالتيس فلن أكون مع ذلك قد ارتكبت خطأ فيما ذكرته في الإعلان. فلو أنني على خطأ سيظن، فحسب، أنني ضللت لظرف ما، لن يكلف نفسه مشقة استقصائه. لكن لو أنني محق؛ سأكون قد كسبت نقطة عظيمة. سيتردد الفرنسي بما أنه على علم بالقاتل ترددا طبيعيا في الإجابة على الإعلان– في المطالبة بإنسان الغاب. سيفكر على هذا النحو: أنا برىء، وفقير وهذا الحيوان ذو قيمة عالية – هو ثروة في حد ذاته بالنسبة لشخص في ظروفي، فلم أخسره بسبب مخاوف بالخطر لا أساس

لها؟ إنه في قبضتي. لقد وُجد في بوا دو بولجن، على مسافة بعيدة من مسرح وقوع المذبحة. كيف يمكن أن يشك أي أحد في أي وقت أن حيوانا أعجميا ارتكب هذه الأفعال؟ لقد فقد البوليس أثره، لقد فشلوا في استنتاج أدنى ملمح لحل اللغز. وإذا حتى اقتفوا أثر الحيوان فمن المستحيل أن يثبتوا معرفتي بجريمة القتل، أو أن يورطوني بسبب هذه المعرفة. علاوة على كل شيء، أنا معروف، يعيني الإعلان بوصفي مالك الحيوان. لست متأكدا إلى أي حد تصل معرفته، فإذا تجنبت المطالبة بثروة عظيمة كهذه معروف أنني أمتلكها،على الأقل سأجعل الحيوان عرضة للشك. لا أنوي أن أجذب الانتباه سواء إليَّ أو إلى الحيوان.. سأستجيب للإعلان وأحصل على إنسان الغاب وأحتفظ به حتى تخمد هذه المسألة".

عند هذه اللحظة سمعنا خطوات على السلم.

قال دوبن: "كن جاهزا بالمسدسات لكن لا تستخدمها ولا تظهرها حتى ترى إشارة مني".

دخل الزائر وترك الباب الخارجي مفتوحا دون أن يدق الجرس وتقدم عدة خطوات على السلم. مع ذلك بدا الآن أنه يتردد. سمعناه يهبط. كان دوبن يتحرك بسرعة تجاه الباب، عندما سمعناه يصعد. لم يعد مرة أخرى بل خطا بحسم وظهر عند باب غرفتنا.

قال دوبن: "ادخل" بنبرة مرحة وودودة.

دخل رجل. كان بحارا، كما يبدو واضحا، بجسد طويل ومتين ومعضل بتعبير طائش معين على ملامحه، غير جذاب تماما. كان وجهه الذي أحرقته الشمس شبه مخفي بسالفين وشارب ضخم. كان معه هراوة من خشب البلوط ضخمة، لكن بدا أنه دون ذلك غير مسلح. انحنى بغرابة وحيانا بـــ "مساء الخير" بلكنة فرنسية على الرغم من أنها تبدو من شمال فرنسا (نوفشاتيل) نوعا ما فلاتزال تدل على أصل باريسي.

قال دوبن: "اجلس يا صديقي، أعتقد أنك جئت من أجل إنسان الغاب. أقسم أنني أحسدك تقريبا على ملكيتك له، حيوان رائع ذو قيمة كبيرة بلا شك. كم تفترض عمره؟"

سحب البحار نفسا طويلا بسيماء رجل تحرر من حمل لا يطاق ثم أجاب في نبرة واثقة: "لا أملك طريقة أن أعرف، لكن لا يمكن أن يكون أكثر من أربع أو خمس سنوات. هل تحتفظ به هنا؟"

"أوه لا، لا نملك الاستعدادات لكي نحتفظ به هنا. هو في إسطبل للعربات في شارع دوبورج المجاور لهذا فورا. تستطيع أن تحصل عليه في الصباح. بالطبع أنت مستعد أن تتعرف على ما يخصك؟"

"بالتأكيد يا سيدي".

قال دوبن: "سأندم على مفارقته".

قال الرجل: "لا أنوي أن تتكلف كل هـــذا العنـــاء بـــلا مقابـــل يا سيدي، لا أتوقع هذا. أنا على استعداد أن أدفع مكافأة مقابل العثور على الحيوان، بمعنى أي شيء معقول".

أجاب صديقي: "حسنا، بالتأكيد هذا غاية الإنصاف. دعني أفكر!، ما الذي أحصل عليه؟ أوه! سأخبرك. مكافأتي هي هذه: ستعطيني كل المعلومات التي لديك حول هاتين الجريمتين في شارع مورج".

قال دوبن الكلمات الأخيرة بنبرة خفيضة جدا وسريعة جدا. وبالهدوء نفسه أيضا مشي تجاه الباب وأغلقه ووضع المفتاح في جيبه. ثم سحب مسدسا من صدره ووضعه دون أدنى اضطراب على الطاولة.

امتقع وجه البحار كما لو أنه يعاني اختناقا ما. حدق في قدميه وقبض على الهراوة، لكن في اللحظة التالية سقط متراجعا في مقعده، وكان يرتعش بشدة وشاحبًا شحوب الموت نفسه. لم يقل كلمة. أشفقت عليه من أعماق قلبي.

قال دوبن: "يا صديقي، أنت تشعر بالخطر بلاضرورة، بالفعل. لا نقصـــد بك أي أذي أيا كان. أقسم لك قسما نبيلا وقسم رجل فرنسي أننا لا ننوي لك أي أذى. أعرف تماما أنك برىء من الأعمال الوحشية في شارع مورج. مع ذلك لن ينفع أن تنكر أنك بدرجة ما متورط بها.

مما قلت بالفعل لابد أنك أدركت أن لدي مصادر للمعلومات حول هذه المسألة- مصادر لا يمكن أن تحلم بها أبدا. والآن فإن الموقف مايلي: لم ترتكب شيئا ما تهرب منه، لا شيء بالتأكيد يجعلك ملوما. إنك لست متهما حتى بالسرقة في حين أنه كان يمكنك أن تسرق بدون أن تعاقب. لا شيء تخفيه. لا سبب لديك للتخفي. من ناحية أخرى، يُلزمك مبدأ الشرف أن تعترف بكل ما تعرفه. يوجد شخص برىء مسجون الآن متهم بارتكاب تلك الجريمة التي يمكنك أن تدلنا على مرتكبها".

أخفى البحار حالته الذهنية بدرجة عظيمة أثناء ما كان دوبن ينطق بهذه الكلمات لكن جرأته الأصلية على التحمل اختفت كلها.

قال بعد وقفة صغيرة "فليساعدني الله!. سأخبرك كل ما أعرفه عن هذه المسألة، لكنني لا أتوقع أن تصدق نصف ما سأقوله، سأكون ساذجا بالفعل لو توقعت منك هذا. مع ذلك، أنا برىء ولو مت بسبب هذا سأموت نقي الصدر".

ماذكره جوهريا ما يلي: قام برحلة مؤخرا إلى الأرخبيل الهندي. رست مجموعة، هو منها، في بورنيو وتوغلنا بعيدا عن الشاطئ في نزهة للفرجة. هو وصديق معه أمسكا بإنسان الغاب. بما أن هذا الصديق مات فقد أصبح الحيوان ملكه ملكية كاملة. بعد عناء كبير سببته ضراوة أسيره العنيد، خلال رحلة العودة إلى الوطن، نجح في النهاية في أن يودعه مسكنه في باريس؛ حيث احتفظ به معزولا

بحرص كي لا يجذب إليه فضول جيرانه؛ حتى يأتي الوقت الذي يشفي فيه من جرح في قدمه بسبب شظية على سطح السفينة. كان ينوي في النهاية أن يبيعه.

بعد عودته إلى البيت من حفلة سمر للبحارة في الليل أو بالأحرى في صباح جريمة القتل وجد الحيوان يحتل غرفة نومه التي اقتحمها من غرفة صغيرة للملابس مجاورة لها، حيث كان محبوسا كما أعتقد. كان يجلس أمام لوح زجاج يحمل موسى، وتغطيه رغوة الصابون، يحاول أن يحلق كما شاهد، بلا شك، سيده من قبل عبر ثقب مفتاح الخزانة. ارتبك الرجل لعدة لحظات رعبا من رؤية سلاح خطير في حوزة حيوان شديد الضراوة وقادر جدا على استعماله. مع ذلك اعتاد أن يقمعه حتى في أشد نوباته هياجا بالسوط، وقد لجأ الآن لهذه الطريقة. عندما رأى إنسان الغاب السوط قفز فورا عبر الباب إلى السلالم، وعبر نافذة كانت مفتوحة للأسف إلى الشارع.

لحق الفرنسي يائسا القرد والموسى مازال في يده، وهو يتوقف أحيانا لينظر إلى الخلف ويلمح مطارده حتى يلحق به تقريبا، حينئذ ينسل هاربا مرة أخرى. استمرت المطاردة بهذه الطريقة لوقت طويل. عندما دخل زقاقا في مقدمة شارع مورج، لفت انتباه الهارب نور يومض من نافذة غرفة مدام لواسبانى المفتوحة في الطابق الرابع من بيتها. حين جرى إلى المبنى رأى مانع الصواعق فتسلقه برشاقة لا مثيل لها وقبض على المصراع الذي كان مفتوحا على وسعه إلى الخلف في

مواجهة الحائط وتأرجح مباشرة إلى مقدمة السرير. لم يستغرق هذا العمل الخارق كله دقيقة. ارتد المصراع مفتوحا مرة أخرى بينما كان إنسان الغاب يدخل الغرفة.

في الوقت نفسه كان البحار مبتهجا ومتحيرا على السواء. فهو لديه آمال قوية الآن في أن يقبض مرة أخرى على الوحش بما أنه من الصعب أن يفلت من المصيدة التي غامر بدخولها إلا بمانع الصواعق الذي يمكن أن يعترض سبيله وهو يهبط. من ناحية ثانية، قد يثير قلقا كبيرا بما قد يفعله في البيت. حث هذا الخاطر الأخير الرجل على أن يتبع الهارب. صعد مانع الصواعق بسهولة خاصة لأنه بحار لكن حين وصل إلى علو يوازي النافذة التي تبعد عنه إلى يساره توقف تقدمه، وأقصى ما استطاع تحقيقه هو أن يمد رأسه بحيث كان يلمح الغرفة فقط من داخلها. عندما ألقى نظرة سقط تقريبا من الرعب الشديد. في تلك اللحظة، انطلقت الصرخات الشنيعة التي شقت الليل، التي أجفلت ساكني شارع مورج من نومهم. كانت مدام لواسبانى وابنتها، اللتان ترتديان ملابس النوم، منهمكتين في ترتيب بعض الأوراق في خزانة حديدية، جاء ذكرها، جرت إلى وسط الغرفة. كانت مفتوحة وتتناثر محتوياتها على الأرض بالقرب منها. لابد أن الضحيتين كانتا تجلسان وقد وجهتا ظهريهما إلى النافذة، ويبدو على الأرجح من الفترة التي انقضت بين دخول الحيوان والصرخات أنهما لم يرياه فورا؛ فقد نسبتا صوت اصطفاق المصراع إلى الرياح.

حين نظر البحار إلى الداخل كان الحيوان العملاق قد أمسك مدام لواسباني من شعرها (الذي كان مفكوكا لأنها كانت تمشطه) ولوح بالموسى حول وجهها في محاكاة لحركات الحلاق. كانت الفتاة منطرحة على الأرض ومهمدة؛ فقد غابت عن الوعي. بسبب صراخات السيدة العجوز ومقاومتها (أثناء ما كان يخلع شعرها من رأسها) تغيرت الأهداف المسالمة لإنسان الغاب إلى أهداف غاضبة. فبحركة كاسحة حاسمة من ذراعه المعضلة خلع تقريبا رأسها عن جسدها. أشعل منظر الدم غضبه إلى حد الجنون. طار إلى جسد الفتاة وهو يكز على أسنانه والشرر يتطاير من عينيه وغرز مخالبه المخيفة في حنجرتها وأبقى قبضته حتى ماتت. سقطت نظراته المتجولة والوحشية في هذه اللحظة على مقدمة السرير حيث رأى وجه سيده جامدا من الرعب. تحول جنون الحيوان الذي كان لايزال يحمل في عقله السوط المرعب إلى خوف. ووعيا منه أنه يستحق العقاب بدا راغبا في إخفاء أفعاله الدموية وقفز في أنحاء الغرفة في كرب من الهياج العصبي وهو يرمي أثاثها ويكسره بينما يتحرك ويسحب الفراش عن هيكل السرير. في النهاية، قبض على جسد الابنة وأقحمه في المدخنة كما تم العثورعليه، ثم قبض على جسد السيدة العجوز حيث اندفع به على الفور عبر النافذة رأسا.

بينما يقترب القرد من النافذة مع حمله المشوه انكمش البحار مرعوبا إلى مانع الصواعق، زحف نزولا عليه وسارع إلى البيت

مرتعبا من عواقب المذبحة، ونبذ سعيدا في رعبه أي قلق حول مصير إنسان الغاب. إن الكلمات التي سمعها الناس فوق السلالم كانت صيحات الرعب والخوف الصادرة عن الفرنسي ممتزجة ببربرة الحيوان الوحشية.

ليس لدي شيء أضيفه. لابد أن إنسان الغاب هرب من الغرفة بواسطة مانع الصواعق قبل اقتحامها مباشرة. لابد أنه أغلق النافذة بينما يمر عبرها. قبض مالكه نفسه عليه فيما بعد، حيث حصل في مقابله على مبلغ ضخم من جاردان دي بلانت. أطلق سراح لوبون فورا عندما حكينا الظروف (مع بعض التعليقات من دوبن) في مكتب مدير الشرطة. هذا الموظف على الرغم من الموقف الودي الذي اتخذه من صديقي لم يستطع أن يخفي تماما غيظه من المنحنى الذي اتخذته القضية وأطلق العنان بسرور لسخرية حول لياقة أن يهتم كل شخص بشؤونه.

قال دوبن، الذي رأى أنه ليس من الضروري أن يجيب: "دعه يتكلم"

"دعه يتحدث، هذا سيريح ضميره. أنا قانع بهزيمتي له في عقر داره. مع ذلك، حقيقة أنه فشل في حل هذا اللغز، لا يعني أبدًا أنه أمر مثير للتعجب كما يظن، لأن صديقنا في الحقيقة- صديقنا المدير، أكثر براعة من أن يكون عميقا. ففي معرفته لا توجد سدأة (العضو الذكري

للزهرة)؛ فكل شيء عبارة عن رأس فقط بدون جسد، مثل صور الإلهة لافرنا[١]، أو في أفضل الأحوال، عبارة عن رأس وأكتاف مثل سمك القد. لكنه مخلوق طيب في النهاية. أشعر بالميل نحوه، خاصة، بسبب المقدار البارع من الرياء الذي استطاع من خلاله أن يحقق سمعته في البــراعة، أعني الطــريقة التي يمتلكها لكي ينفي ما يكون ويشرح ما لا يكون (روسو[٢]).

---

(١) ربة اللصوص في الميثولوجيا الرومانية

(2) Rousseau-Nouvelle Heloise. Poe جولي أو هيلواس الجديدة، رواية لجان جاك روسو.

لغز ماري روجيه[1]

تتمة لـ " جرائم القتل في شارع مورج"

هناك سلسلة خيالية من الأحداث تجري موازية للحقيقية. نادرا ما تتطابقان. يكيف الإنسان والظروف عامة التسلسل الخيالي للأحداث

---

(١) رأيت حين نشرت "ماري روجيه" في البداية أن لاضرورة لهذه الهوامش، غير أن مرور عدة سنوات على المأساة التي تقوم عليها الحكاية، يجعلها مبررة، كما قصدت أن أقول بعض الكلمات التي تشرح الصورة العامة. فماري سيسيليا روجـرز، فتاة شابة قتلت بالقرب من نيويورك، وعلى الرغم من أن موتها تسبب في إثارة شديدة استمرت طويلا، فاللغز المصاحب له ظل غامضا في الفترة التي كتبت فيها الورقة الحالية ونشرت في (نوفمبر، ١٨٤٢). هنا، وتحت التظاهر بسرد مصير عاملة باريسية شابة، اتبع المؤلف، في تفصيل دقيق، الحقائق الأساسية في جريمة قتل ماري روجرز الواقعية، التي لا توازي إلا الأساسية، حتى الآن. وعليه فكل البراهين التي تقوم على الخيال قابلة للتطبيق على الحقيقية، وكان الهدف هو استقصاء الحقيقة.

كتبت "لغز ماري روجيه" ارتكانا إلى مشهد الجريمة الوحشي عن بعد عنها، وبدون أي وسيلة أخرى غير التحقيقات التي قدمتها الصحف. لهذا، فات المؤلف الكثير من الذي كان يمكن أن يستفيد منه لو أنه كان في مكان وقوع الجريمة وزار المواقع. ومع ذلك، لعله يصح التنويه بأن الاعترافات التي أدلى بها شخصان (واحد منهما باسم مدام دلوك في القصة) على فترات مختلفة، وبعد نشر القصة بفترة طويلة صدّقت بالكامل ليس فقط على النتيجة العامة بل على كل التفاصيل الافتراضية الأساسية التي أدت إلى تلك النتيجة النهائية. (بو)

بحيث تبدو غير تامة، كما تبدو أيضًا عواقبها غير تامة على قدم المساواة. وعليه جاء مع الإصلاح اللوثرية بدلا من البروتستانية.

نوفاليس[١]. نظرة أخلاقية[٢]

قلة من الأشخاص، حتى فيما بين أكثر المفكرين هدوءا، هي التي لم تفزع أحيانا إلى شبه إيمان بما فوق الطبيعة- إيمان رغم غموضه فهو يثير فرحا ما- وذلك بسبب الخاصية الرائعة ظاهريا في التزامنات؛ ولأنها محض تزامنات لا يستطيع الذكاء الإنساني إدراكها. مثل هذه العاطفة- لأن شبه الإيمان الذي أتحدث عنه لم يملك أبدا قوة التفكير الكامل - نادرا ما تخمد كلية مالم يتم الرجوع إلى مذهب الصدفة، أو كما اصطلح عليه تقنيا حساب الاحتمالات. والآن، هذا الحساب في جوهره رياضي بحت، وعليه فقد طبقنا عمليا شذوذ العلوم المضبوطة التي تنصب على المقدار كالحساب والهندسة على ظلال وروحانية ما هو غير ملموس في التأمل أو التفكر.

إن التفاصيل الاستثنائية التي طلب مني الآن رسميا أن أنشرها، سيجد القارئ أنها تشكل، في علاقتها بتسلسل الزمن، الفرع الأولي من سلسلة من التزامنات التي بالكاد يمكن أن أصفها بأنها تزامنات يمكن إدراكها عقليا (معقولة)، حيث سيميز جميع القراء فرعها الثانوي أو النهائي في جريمة قتل ماري سيسيليا روجرز، التي وقعت مؤخرا في مدينة نيويورك.

---

(١) الاسم المستعار لفون هاردنبرج. (بو) .
شاعر ألماني (١٧٧٢-١٨٠١)
(٢) هذا الاقتباس جاء بالألمانية والإنجليزية معا.

حين حاولت في مقال بعنوان "جرائم القتل في شارع مورج"، منذ عام، وصف بعض الملامح الاستثنائية للصفات العقلية لصديقي النبيل أوغستت دوبن، لم يخطر ببالي أنه سوف أتابع الموضوع في يوم ما. لقد كان هدفي أن أرسم ملامح شخصيته، وقد تحقق تماما بسلسلة الملابسات الوحشيةِ التي جعلت خصوصية دوبن مثالا. قد أورد أمثلة أخرى، لكن ليس عليَّ أن أورد مزيدا من الأدلة..

ومع ذلك، نبهتني الأحداث الأخيرة في تطورها المدهش، فزعا إلى أهمية بعض التفاصيل الإضافية التي سوف تنتزع الاعتراف بخصوصية دوبن. وإذ سمعت ما سمعته مؤخرا، سيصبح أمرا غريبا أن أبقي على صمتي بخصوص ما سمعت ورأيت منذ فترة طويلة على السواء.

بعد انتهاء المأساة المنطوية في موت مدام لواسباني وابنتها، صرف النبيل القضية في الحال عن ذهنه وعاد إلى عاداته القديمة في ممارسة أحلام اليقظة المتقلبة. وبما أني أميل إلى التجريد دائما، وافقته على مزاجه؛ فألقينا بالمستقبل إلى مهب الريح، وهجعنا في الحاضر في سكينة، ننسج العالم البليد الذي يحوط بنا بالأحلام، في غرفتنا في فوبورج سانت جيرمان التي مازلنا نشغلها.

غير أن هذه الأحلام لم تستمر بدون مقاطعات تماما. فمن السهل تصور أن الجزء الذي لعبه صديقي في دراما شارع مورج لم يضعف تأثيره في أذهان البوليس الباريسي؛ فقد أصبح اسم دوبن كلمة مألوفة

بين رجـــال البـــوليس الســـري. وبما أنه لم يشرح أبدا، حتى لمـــدير الشرطة أو لأي شخص آخر سواي، الخاصية البسيطة التي اتسمت بها الاستقراءات التي فك بها اللغز، فلم يكن مدهشا أن ينظر إلى القــضية باعتبارها لا تقل عن المعجزة، أو أن تمنحه الملكات التحليليـــة التـــي يتمتع بها هذا السيد النبيل سمعة أنه يتمتع بالقدرة على الحـــدس. كـــان يمكن لصراحته أن تجعله يحرر أي مستقص عنه من مثل هذا الـــرأي السبقي، غير أن مزاجه الكسول منع عنـــه أي إشـــارة إضـــافية عـــن موضوع توقف اهتمامه به. وهكذا وجد نفـــسه محـــط أنظـــار عـــين البوليس، والقضايا التي بذلوا فيها محاولاتهم لاســـتخدام خدماتـــه فـــي المديرية لم تكن قليلة العدد. واحدة من تلك الأمثلة المذهلة كانت عـــن مقتل فتاة شابة تدعى ماري روجيه.

وقع هذا الحادث بعد سنتين تقريبا من الاعتداء الوحشي الذي وقع في شارع مورج. إن ماري، باسم عائلتها وباسمها المسيحي الذي سيأسر الانتباه توا بسبب تشابهه مع اسم" فتاة السيجارة" سيئة الحظ، كانت الابنة الوحيدة للأرملة استيل روجيه. مات الأب خلال طفولتها ومن وقت موته حتى ثمانية عشر شهرا قبل قتلها الذي يشكل موضوع سردنا، سكنت الأم والابنة معا في شارع بافيه سانت أندريه[١]؛ فالمدام

---

(١) *Nassau Street.* كل الصحف التي تذكر في الهامش بالإنجليزيـــة واردة فـــي القصة بقلم (بو) .

تدير هناك بنسيونا بمساعدة ماري. ومضت الأمور هكذا حتى بلغت الأخيرة الثانية والعشرين من عمرها، حين جذب جمالها العظيم انتباه عطار، يشغل واحدا من المحال في قبو القصر الملكي، حيث يمتد زبائنه فيما بين صفوف المجازفين البائسين الذين يغزون تلك المنطقة المجاورة. لم يكن السيد لو بلانك[1] غافلا عن ميزات حضور ماري الجميلة في عطارته، وكانت الفتاة تقبل بلهفة عروضه السخية على الرغم من أن المدام كانت تقبلها بتردد أكبر إلى حد ما.

تحققت توقعات صاحب المحل، وسرعان ما اكتسب المكان شهرة بسبب فتن الفتاة الفرنسية العاملة المجتهدة. كان قد مضى عام عليها في خدمته، حين أصابت معجبيها الحيرة بسبب اختفائها المفاجئ من المحل. عجز السيد لو بلانك عن تفسير غيابها وأذهل مدام روجيه القلق والرعب. التقطت الصحف العامة الموضوع على الفور، وكان البوليس على وشك البدء في تحقيقات جدية حين - في صباح جميل، بعد مضي أسبوع - ظهرت مرة أخرى ماري وراء النضد في العطارة بصحة جيدة لكن بسيماء حزينة بعض الشيء. خمدت بالطبع كل التحقيقات، باستثناء الأسئلة الشخصية الخاصة. تظاهر السيد بلانك بالجهل التام كما من قبل. ماري مع المدام، أجابتا على كل الأسئلة بأنها قضت الأسبوع الماضي في بيت أحد الأقارب في الريف. وهكذا خفتت المسألة ونسيت عموما، لأن الفتاة سرعان ما ودعت العطار

---

(1) Anderson.

نهائيا ولاذت بمسكن والدتها في شارع بافيه سانت أندريه بزعم التحرر من صفاقة الفضول.

وقد كان بعد هذه العودة إلى البيت بخمسة أشهر، أن شعر أصدقاؤها بالرعب من اختفائها المفاجئ مرة أخرى. مرت ثلاثة أيام، ولم يسمعوا عنها أي خبر. في اليوم الرابع عثر على جثة طافية في السين(١) بالقرب من الشاطئ الذي يقابل حي شارع سانت أندريه، وفي بقعة لا تبعد كثيرا عن المنطقة المجاورة المعزولة باريير دو رول(٢).

إن شناعة هذه الجريمة (لأنه كان واضحا على الفور أن جريمة قتل قد اقترفت)، وشباب الضحية وجمالها، وفوق كل شيء سمعتها السابقة تعاونت على خلق إثارة شديدة في عقول الباريسيين الحساسة. لا أستطيع تذكر حادث مشابه أسفر أثرا شاملا وقويا على هذا النحو. فلعدة أسابيع، أثناء مناقشة هذا الموضوع الذي استحوذ على الانتباه تماما، نسيت حتى الموضوعات السياسية المهمة اليومية. وقد بذل مدير الشرطة جهودا غير عادية، وعبأ البوليس أقصى طاقاته في هذه المهمة بالطبع.

لم يعتقد أحد، عند اكتشاف الجثة في بادئ الأمر، أن القاتل قادر على مراوغة التحقيقات التي بدأت عملها على الفور، إلا فترة قصيرة

---

(1) The Hudson
(2) Weehawken

جدا. ولم تُر ضرورة لعرض مكافأة إلا بعد مرور أسبوع على اكتشاف الجثة، وحتى حينئذ اقتصرت هذه المكافأة على مبلغ ألف فرانك. في الوقت نفسه، استمر البحث مكثفا، ولو أنه لم يخل من تقديرات أو أحكام معينة، وتم تفتيش عدد كبير من الأفراد بلا هدف، في الوقت الذي ارتفعت فيه حدة الإثارة العامة ارتفاعا عظيما بسبب استمرار غياب أي مفتاح لحل اللغز. وعند نهاية اليوم العاشر، رأت المديرية أن من الصواب مضاعفة المبلغ المعروض في الأصل، وأخيرا، مع انقضاء الأسبوع الثاني بدون أن يؤدي إلى أي اكتشاف، وضب التحامل الذي يوجد دائما في باريس ضد البوليس جمام غضبه في عدة مظاهرات عفوية خطيرة؛ أخذ مدير الشرطة على عاتقه أن يعرض مبلغ عشرين ألف فرنك "من أجل إدانة السفاك" أو- وهو ما لا يحتاج المرء أن يظهر أنه ينطوي على- "من أجل إدانة أي أحد من السفاكين". في التصريح الذي أعلن عن هذه المكافأة، جاء عفو كامل لأي شريك سيتقدم بدليل يدين شريكه، وقد ألحق بملصق خاص، أيا كان المكان الذي سيظهر فيه، من لجنة من المواطنين، تعرض عشرة آلاف فرنك، بالإضافة إلى المبلغ المعروض من المديرية. وهكذا بلغت المكافأة كلها ما لا يقل عن ثلاثين ألف فرنك، والتي ستعتبر مبلغا غير عادي عندما نضع في اعتبارنا الحالة المتواضعة للفتاة وتواتر مثل هذه الشناعات في المدن الكبرى مثل الحالة الموصوفة تواترا كبيرا.

لم يساور أي أحد الشك الآن أن لغز هذه الجريمة سينكشف على الفور. لكن، على الرغم من أن الشرطة قامت باعتقالات بشرت بإلقاء الضوء على اللغز، في نموذج أو نموذجين منها، لم تسفر عن أي تلميح إلى الأطراف المشبوهة، وتم تسريحهما على الفور. على الرغم من أنه قد يبدو غريبا، فقد مر الأسبوع الثالث على اكتشاف الجثة - مر دون أن يُلقى أيٍ ضوء على الموضوع- قبل أن يصل إلى مسامعنا، دوبن وأنا، حتى إشاعات عن الأحداث التي أثارت العقل العام. لقد مر شهر تقريبا منذ أن سافرنا أو استقبلنا زائر أو أن نلقي حتى نظرة أكثر عمقا على المقالات السياسية الافتتاحية في واحدة من الصحف اليومية، بسبب انهماكنا في أبحاث استحوذت على انتباهنا كلية. أول خبر جاء إلينا عن القتل كان على يد ج— نفسه. زارنا في ساعة مبكرة من بعد ظهيرة الثالث عشر من يوليو ١٨، وبقي معنا حتى ساعة متأخرة من الليل. كان جريح الكبرياء بسبب فشله في الكشف عن السفاكين، قال بسيماء باريسية خاصة إن سمعته على المحك، بل حتى شرفه المهني محل شك. كانت عيون العامـــة عليه، ولا يوجد حقا أي تضحية لن يكون على استعداد لتقديمها من أجل الكشف عن تفاصيل اللغز. وختم حديثه الهزلي إلى حد ما بمجاملة عما يسعده أن يسميه براعة دوبن، وعرض عليه مباشرة، وبالتأكيد، عرضا سخيا، لا أملك حرية إفشاء طبيعته المحددة، غير أنه ليس له صلة بالموضوع الأصلي لسردي.

دفع صديقي المجاملة عنه بكل ما يستطيع من براهين، لكنه قبل العرض فورا، على الرغم من أن مزاياه كانت مؤقتة كلية. وما إن تمت تسوية هذه النقطة حتى شرع مدير الشرطة على الفور في شروحات لوجهات نظره مرصعة بتعليقات طويلة عن الدليل، الذي لم نكن نملكه بعد. تحدث كثيرا وبدون شك عن معرفة عميقة، في حيــن أنني لم أقل إلا اقتراحا عرضيا أو تخمينا بينما كان الليل ينقضي بتكاسل، كان دوبن الذي جلس بثبات على كرسيه المعتاد تجسيدا للانتباه المحترم، كان يلبس نظارات خلال المقابلة كلها. ونظرة سريعة مني تحت عدستيها الخضراوين كانت كافية لتقنعني أنه غرق في نوم عميق؛ لأنه كان صامتا، خلال الساعات السبع أو الثماني التي قضاها مثبتا إلى الكرسي بقدمين ثقيلين كالرصاص التي تلت مباشرة رحيل مدير الشرطة.

في الصباح، دبرت من المديرية تقريرا كاملا عن كل الأدلة الموضحة، ومن مكاتب الصحف المختلفة نسخة من كل صحيفة نشرت، من البداية حتى النهاية، أي معلومات قاطعة تتصل بهذه القضية المؤسفة. وقد جاءت هذه الكتلة من المعلومات على النحو التالي خالية من كل دليل ثبت بطلانه كلية:

تركت ماري روجيه مسكن والدتها في شارع بافيه سانت أندريه في حوالي التاسعة، صباح يوم الأحد، الثاني والعشرين من شهر يونيو عام -١٨، وعند خروجها، أبلغت السيد جاك سانت أوستاش[١]، وله

---

(1) Payne

وحده، عن نيتها أن تقضي اليوم مع عمة تقيم في شارع دي دروم. إن شـــارع دي دروم قصيــــر وضيـــق، غيـــر أنه طريق عام مزدحم، ولا يبعد عن ضفتي النهر، وعلى مسافة تبلغ حوالي ميلين، عن بنسيون مدام روجيه عبر أكثر الطرق المباشرة الممكنة. إن سانت أوستاش هو الخطيب الذي قبلته ماري ويقيم في البنسيون، كما يتناول وجباته به. كان من المفترض أن يذهب إلى خطيبته في الغسق، وأن يرافقها إلى البيت. بعد الظهر، من ناحية أخرى، حدث أن أمطرت السماء مطرا غزيرا واعتقادا منه أنها ستبقى الليل كله عند عمتها (كما فعلت في ظروف مشابهة من قبل)، لم ير ضرورة في الحفاظ على وعده. وعندما دنا الليل، سمع مدام روجيه (التي كانت سيدة عجوزا واهنة لأنها تبلغ السبعين) تعبر عن خوف من "أنها لن ترى ماري أبدا ثانية"، لكن لم يولها انتباها في ذلك الوقت.

أصبح مؤكدا بحلول يوم الاثنين أن الفتاة لم تذهب إلى شارع دي روم، وعندما انقضى اليوم بدون أنباء عنها، بدأ بحث متأخر عنها في عدة نقاط في المدينة وضواحيها، ومع ذلك لم يتم التحقق من صحة أي شيء بخصوصها يبعث على الاطمئنان حتى اليوم الرابع من فترة اختفائها. في هذا اليوم (الأربعاء، الخامس والعشرون من يونيو) علم السيد بوفيه - الذي كان يُجري استقصاء عن ماري مع صديق له بالقرب من باريير دو رول على شاطئ السين الذي يقابل شارع بافيه سانت أندريه - أن بعض الصيادين سحبوا لتوهم جثة إلى الشاطئ،

وجدوها تطفو على النهر. حدد بوفيه حين رأى الجثة هويتها، بعد بعض التردد، على أنها جثة فتاة العطارة. صديقه ميزها على الفور.

كان الوجه مخضبا بدماء داكنة، بعضها خرج من الفم. لا يوجد زبد، كما في حالات الغرق الصرف. لا يوجد تغيير في لون النسيج الخلوي. هناك كدمات وبصمات أصابع حول العنق. كانت الذراعان ملتويتين حول الصدر ومتصلبتين. اليد اليمنى مطبقة، واليسرى مفتوحة جزئيا. على الرسغ اليسرى كشطتان دائريتان؛ أثر حبال على ما يبدو؛ أو حبل لف أكثر من لفة. جزء من الرسغ اليمنى أيضًا أكثر تقرحا، كذلك الظهر بامتداده، لكن حافتي الكتفين أكثر تقرحا على وجه الخصوص. أوصل الصيادون الجسد بحبل عند سحبه إلى الشاطئ، لكن لم ينتج أي كشط عنه. لحم العنق كان في حالة انتفاخ أكثر من أي منطقة أخرى. لا يوجد قطع واضح أو كدمات تبين أثر الانتفاخات. وجد رباط حذاء ملفوف بإحكام حول العنق بحيث توارى عن الأنظار؛ فقد كان مدفونا تماما في اللحم، ومثبتا بعقدة تحت الأذن اليسرى تماما. هذا وحده سبب كاف لإحداث الوفاة. تحدث الدليل الطبي بثقة عن الملمح القوي للموت، فقد ذكر أنها تعرضت لاعتداء وحشي. على الرغم من الحالة التي كانت عليها الجثة عندما تم العثور عليها لم يجد أصدقاؤها صعوبة في التعرف عليها.

كانت أجزاء كثيرة من الثوب ممزقة، والباقي في حالة فوضى. فقد مزقت منه قطعة عرضها قدم، من حاشيته إلى وسطه، لكن لم

تنتزع عنه. كانت ملفوفة ثلاث لفات حـول خـصر الجثـة ومثبتـة بأنشوطة في الظهر. كانت بطانة الثوب من قماش الكتان الناعم، وقـد انتزعت منه بعناية فائقة قطعة قماش عرضها ثمانية أقـدام متـساوية الأبعاد، وقد وجدت ملفوفة حول عنقها، بدون إحكـام ومثبتـة بعقـدة صلبة. وربط فوق هذه القطعة من الكتان وربـاط الحـذاء، شـرائط قلنسوة- هذه القلسوة كانت في نهاية الشرائط. والعقدة التي ثبتت بهـا شرائط القلنسوة لم تكن لسيدة بل عقدة بحار أو عقدة منزلقة.

بعد التعرف على الجثة، لم تنقل كالعادة إلى مورج (هذا الإجراء الرسمي أصبح غير ضروري) بل دفنت بعجلة إلى بقعة ليست بعيدة عن تلك التي سحبت إليها على الشاطئ. وبسبب الجهود الشاقة التي بذلها بوفيه تم التكتم على المسألة بقدر الإمكان، وانقضت عدة أيام قبل أن تتولد مشاعر ما من العامة تجاه القضية. من ناحية أخرى، تبنت صحيفة أسبوعية الموضوع في النهاية، وأخرجت الجثة من قبرها وبدأ فحص ثان لها، لكن لم يتضح أي شيء يزيد على ما تم ملاحظته بالفعل. غير أن الملابس سلمت إلى أم المتوفاة وأصدقائها، وتعرفوا عليها بأنها ما كانت تلبسها في وقت مغادرتها المنزل.

أثناء هذه الإجراءات كانت الإثارة تزداد. وتم إلقاء القبض على عدة أفراد وإطلاق سراحهم. وقع سانت أوستاش على الأخص تحت الشبهة، وأخفق في البداية في أن يدلي برواية واضحة عن أماكن تواجده خلال يوم الأحد الذي تركت فيه ماري المنزل. ومع ذلك، فقد سلم إلى

السيد ج، فيما بعد، شهادات خطية تشتمل على وصف مرض عن كل ساعة من اليوم محل السؤال. وبينما يمر اليوم ولم يتحصل على أي اكتشاف، شاعت آلاف الإشاعات المتناقضة، وانهمك الصحفيون في طرح الاقتراحات. من بينها، إشاعة جذبت انتباها أكبر، وهي أن ماري روجيه مازالت حية، أي أن الجثة التي عثر عليها في السين كانت لشخص آخر ما سيئ الحظ. من الأفضل أن أضع أمام القارئ بعض الفقرات التي تعرض الاقتراح المشار إليه. هذه الفقرات هي ترجمة حرفية من *Le Etoile*[1]، وهي صحيفة ذات براعة كبيرة، عموما.

"تركت مدموازيل روجيه بيت أمها في صباح الأحد، الثاني والعشرين من شهر يونيو عام – ١٨، بغرض ظاهري هو الذهاب لرؤية عمتها، أو قريب آخر ما، في شارع دي دروم. من تلك الساعة، لم يثبت أن شخصا ما رآها. لا أثر لها ولا أنباء عنها أبدا (....)، لم يتقدم أي شخص كان، حتى الآن، قد رآها بأي حال في ذلك اليوم بعد أن غادرت بيت أمها (....)، الآن، على الرغم من أننا لا نملك الدليل على أن ماري روجيه كانت لا تزال فوق أرض الأحياء بعد الساعة التاسعة من يوم الأحد، الثاني والعشرين من يونيو الثاني، نملك البرهان على أنه حتى تلك الساعة كانت حية. في ظهيرة الأربعاء، الساعة الثانية عشرة، اكتشفت جثة أنثى طافية بالقرب من شاطئ بارييرر دو رول. لقد حدث هذا بعد ثلاثة أيام فقط بعد أن غادرت منزل أمها –

(1) The New York Brother Jonathan, edited by H. Hastings Weld.Esq.

ثلاثة أيام فقط حتى الساعة المذكورة، حتى مع الافتراض أن ماري روجيه أُلقي بها في النهر خلال ثلاث ساعات منذ أن تركت منزل أمها. إن من الحماقة الاعتقاد أن القتل، إذا ما كانت قد قتلت، قد أنجز بالسرعة الكافية ليستطيع قاتلوها أن يلقوا بجسدها إلى النهر قبل منتصف الليل. هؤلاء الذين أدينوا بهذه الجرائم المروعة يختارون الظلام فضلا عن النهار.... وعليه نرى إذا كان الجسد الذي وجد في النهر هو جسد ماري روجيه، فالمحتمل أنه ظل في المياه يـــومين ونصـــف اليـــوم أو ثلاثة بأقصى حد. أظهرت كل الخبرات أن الأجساد الغارقة، أو الأجساد التي تلقى في النهر فورا بعد وفاتها بسبب تعرضها للاعتداء، تحتاج من ستة إلى عشرة أيام لكي يحدث التحلل الكامل الذي يرفعها إلى سطح المياه. وحتى لو ضرب الجسد بمدفع، وارتفع قبل خمسة أو ستة أيام من انغماره في المياه، يغرق مرة أخرى، لو ترك في حاله. سؤالنا الآن هو: ما الشاذ في هذه الحالة لكي ينحرف عن المسار الطبيعي للطبيعة؟... لو أن الجسد قد احتفظ به في حالته المشوهة على الشاطئ حتى مساء الثلاثاء؛ لكان قد عثر على أثر ما للقتلة على الشاطئ. كما أنها نقطة محل شك، سواء كان الجسد قد طفا سريعا أم لا، حتى لو كان قد ألقي في النهر بعد الموت بيومين. وعلاوة على ذلك، من غير المحتمل أبدًا أن يلقي أي مجرم ارتكب جريمة بشعة- كما هو مفترض في هذه الحالة - الجسد، بدون أن يلحقه بأثقال تغرقه، في الوقت الذي يمكن أن يقوم بهذا الاحتياط بسهولة.

واصل المحرر هنا تفنيد حجة أن الجسد لم يبق في المياه ثلاثة أيام فقط؛ بل على الأقل خمس مرات أضعاف هذه الفترة" لأنه كان متحللا إلى أبعد جد بحيث وجد بوفيه صعوبة عظيمة في التعرف عليه". من ناحية أخرى، هذه النقطة الأخيرة كانت باطلة تماما.

أواصل الترجمة:

"إذن مـــا الوقائـــع التي يقـــول السيد بوفيه، بنـــاء عليهـــا، أن لا شك لديه أن الجسد كان لماري روجيه؟ لقد مزق كُمي الثوب، وقال إنه وجد علامات أقنعته بهوية الجثة. لقد افترض العامة أن هذه العلامات نوع ما من الندبات. لقد فرك الذراع ووجد شعرا عليها – شيء غير محدد كما نستطيع بسهولة أن نرى، على ما نعتقد- وهو دليل حاسم الحسم الذي يمنحه إيجاد ذراعها في الكم. السيد بوفيه لم يعد هذه الليلة، بل أرسل كلمة إلى مدام روجيه في السابعة من مساء الأربعاء، أن التحقيق فيما يتعلق بابنتها لا يزال جاريا. لو سلمنا بأن مدام روجيه لم تستطع أن تذهب إلى هناك بسبب سنها وحزنها (الأمر الذي يعني التسليم بأمر كبير)؛ فبالتأكيد هناك شخص ما قد فكر أن الأمر يستحق قليلا الذهاب وحضور التحقيق، لو أنهم اعتقدوا أن الجسد لماري، لم يذهب أحد، لم يقل أحد شيئا أو يسمع شيئا عن المسألة في شارع بوفيه سانت أندريه، قد وصل حتى إلى قاطني البناية نفسها.

فالسيد سانت أوستاش حبيب ماري وزوجها المنتظر الذي يقيم في منزل أمها، شهد أنه لم يسمع عن اكتشاف جثة زوجته المنتظرة حتى الصباح التالي عندما جاء السيد بوفيه إلى غرفته وأخبره. يصعقنا أن الجميع استقبل أخبارا مثل هذه استقبالا عاديا".

حاولت الصحيفة بهذا الأسلوب أن تخلق انطباعا باللامبالاة لدى أقارب ماري، الذي لا يتسق مع افتراض أن هؤلاء الأقارب صدقوا أن الجثة لها. ووصلت تعريضاتها إلى الحد التالي: أن ماري، مع تستر أصدقائها عليها، أخفت نفسها عن المدينة لأسباب تنطوي على تهمة ضد عفتها، وأن أصدقاءها حين اكتشفوا الجثة في السين، تشبه إلى حد ما جثة الفتاة، استفادوا من الفرصة للتأثير على العامة بالاعتقاد بموتها. غير أن الصحيفة تهورت مرة ثانية؛ فقد ثبت أن لا فتور في المشاعر كما تخيل، موجود؛ فقد كانت السيدة العجوز ضعيفة ضعفا شديدا، وفي حالة اهتياج بحيث لم تستطع أن تقوم بما هو واجب، وأن السيد أوستاش، البعيد تماما عن أنه استقبل الخبر استقبالا عاديا، أذهله الحزن، وتصرف تصرفات محمومة، حتى إن السيد بوفيه أقنع صديقا وقريبا له أن يتولاه ويمنعه عن حضور الفحص عند إخراج الجثة من القبر. علاوة على ذلك، على الرغم من أن الصحيفة ذكرت أن الجثة قد أعيد دفنها على نفقة العامة وأن العائلة رفضت عرضا مميزا لتوفير قبر رفضا قاطعا وأن الجنازة لم يحضرها فرد من العائلة، فعلى الرغم من هذا أقول إن كل ما أكدته الصحيفة كان بغرض ترسيخ التأثير الذي

استهدفت توصيله - وأن كل هذا قد ثبت بطلانه على نحو مرض. وفي عدد تال من الصحيفة، حاولت أن تلقي الشبهة على بوفيه نفسه. يقول المحرر:

"يحدث الآن، إذن، تغيير في المسألة. علمنا أنه في إحدى المرات التي كانت مدام ب في منزل مدام روجيه، قال لها السيد بوفيه - الذي كان خارجا منه - إن أي شرطي قد يأتيهم الآن، وإنها، مدام ب، لا يجب أن تقول أي شيء للشرطي حتى يعود، بل أن تترك الأمر له (...)، في هذه اللقطة الحالية من القضية، يبدو أن السيد بوفيه احتفظ بالأمر كله لنفسه. ولا يمكن القيام بخطوة واحدة بدون السيد بوفيه لأن أيا كان الطريق الذي ستسلكه فسوف تسير ضده (....)، ولسبب ما صمم على أن تكون الإجراءات هي شاغله وحده دون أي أحد آخر، وأزاح الأقارب الرجال عن الطريق، تبعا لتمثيلهم بطريقة فريدة جدا. فيبدو أنه كان نافرا من أن يسمح للأقارب بأن يروا الجثة".

وقد أضفت الصحيفة على الشبهة التي ألقت بها على هذا النحو على بوفيه الحقيقة التالية باعتبارها ذريعة: لاحظ زائر لمكتبه، قبل أيام قليلة من اختفاء الفتاة، وخلال غياب صاحبه، وردة في ثقب مفتاح الباب، واسم "ماري" منقوشا على لوح معلق في متناول اليد.

إن الانطباع العام، كما نستطيع أن نلمحه من الصحف حتى الآن، يبدو أن ماري كانت ضحية عصابة من المجرمين اليائسين - أي

أنهم نقلوها عبر النهر، وأساءوا معاملتها وقتلوها. من ناحية أخرى، كانت *Le commercial*[1]، وهي صحيفة ذات نفوذ شديد، تواقة لأن تقارع بعنف هذه الفكرة الشائعة. وهنا أقتبس فقرة أو اثنتين منها:

"نحن مقتنعون بأن المطاردة حتى الآن تمت بناء على رائحة مزيفة باتجاهها نحو شارع باريير دو رول. من المستحيل أن يمر شخص معروف جدا لآلاف مثل هذه المرأة الشابة عبر ثلاثة أحياء بدون أن يراها أحد ما، ومن رآها لابد أن يتذكرها لأنها أثارت اهتمام كل من عرفوها. لقد كانت الشوارع مليئة بالناس لحظة خروجها (...) مستحيل أن تكون قد ذهبت إلى باريير دو رول أو إلى شارع دي روم دون أن يلاحظها عشرات من الناس، ومع ذلك لم يتقدم أي أحد ممن رأوها خارج منزل أمها، كما لا يوجد دليل إلا الشهادة التي أدليت عن تصريحها عن نيتها الخروج. لقد تمزق ثوبها ولف حولها ورُبط، وبهذه الطريقة تم حمل الجسد باعتباره حزمة. فلو أن الجريمة قد ارتكبت عند باريير دو رول؛ فلا ضرورة لترتيبات من هذا القبيل. وحقيقة أن الجسد وجد طافيا بالقرب من باريير ليست دليلا على المكان الذي ألقيت منه إلى المياه (...) لقد انتزعت قطعة من القميص الداخلي الذي كانت ترتديه الفتاة التعيسة، طولها قدمان وعرضها قدم واحد، وربطت من تحت ذقنها إلى رأسها في الخلف لمنع صرخاتها على الأرجح. فمن فعل هذا هم أشخاص لا يملكون مناديل جيب".

---

(1) New York Journal of Commerce.

من ناحية ثانية، قبل يوم أو يومين من زيارة مدير الشرطة لنا، وصلت إلى الشرطة معلومات مهمة، أبطلت القسم الرئيسي على الأقل من طرح *Le commercial*. ولدان صغيران، ابنا مدام بلوك، بينما يتجولان في الغابات التي تقع بالقرب من باريير دو رول، صدف أن اخترقا دغلا قريبا، بداخله ثلاث أو أربع صخور ضخمة، على شكل مقعد له مسند للظهر ومسند للقدمين. يرقد على الصخرة الأعلى تنورة داخلية نسائية بيضاء، وعلى الثانية وشاح حريري. كما عثرا أيضًا على مظلة خفيفة وقفاز ومنديل جيب. حمل المنديل اسم ماري روجيه. واكتشفا قطعا من ثوب على نباتات العليق في المكان. كانت الأرض مدهوسة والأجمة مكسورة، كما كان يوجد دليل واضح على وقوع صراع ما. وفي الطريق بين الأجمة والنهر، كان السياج مزالا، وحملت الأرض آثارا على أن حملا ما ثقيلا سحب بطول الطريق.

"Le Soleil"[(1)]، وهي صحيفة أسبوعية، علقت على هذا الاكتشاف تعليقات كانت صدى مشاعر الصحافة الباريسية كلها:

"ظلت كل الأشياء هناك واضحة للعيان ثلاثة أو أربعة أسابيع على الأقل. تعفنت كلها تماما بسبب الأمطار، والتصقت ببعضها البعض بسبب العفن. ونما العشب حولها وفوق بعض منها. كان الحرير الذي صنعت منه المظلة قويا، غير أن خيوطه انسلت كلها إلى

(1) Philadelphia Saturday Evening Post, edited by C.I Peterson, Esq.

الداخل. تعفن الجزء العلوي الذي يطوى، وتعطن ومزع عند محاولة فتحه (....). قطع ثوبها الذي مزقته الأجمة بلغ عرضها حوالي ثلاثة إنشات وطولها ستة إنشات. إحداها كان حاشية الثوب، وقد تم رتقه. الجزء الآخر كان من تنورة الثوب وليس من حاشيته. بدت القطع مثل شرائط نزعت على عجل وكانت فوق شجيرة الزعرور التي تصل إلى ارتفاع قدم من الأرض(.....)؛ بناء عليه، لا شك في أنه قد تم اكتشاف مسرح وقوع الاعتداء الوحشي المروع".

بناء على هذا الاكتشاف ظهر دليل جديد. أدلت مدام دلوك بشهادة مفادها أنها تملك نزلا على الطريق لا يبعد عن ضفة النهر، يقابل باريير دو رول. هذه المنطقة المجاورة معزولة على وجه الخصوص؛ فهي الملجأ المعتاد كل أحد للأوغاد الذين يأتون من المدينة عبر النهر في قوارب. حوالي الثالثة فيما بعد ظهيرة الأحد المعني، وصلت فتاة شابة إلى النزل برفقة شاب ذي بشرة داكنة. بقي الاثنان هناك بعض الوقت. وعند رحيلهما سلكا الطريق المؤدي إلى بعض الغابات الكثيفة في الجوار. انتبهت مدام دلوك إلى الفستان الذي كانت تلبسه الفتاة، بسبب تشابهه مع واحد كانت تلبسه إحدى أقارب المتوفاة. وذكرت الوشاح على وجه الخصوص. إثر مغادرة الزوج، ظهرت عصابة من الأوغاد، وتصرفوا بصخب، وشربوا وأكلوا دون أن يدفعوا، وسلكوا درب الفتاة والشاب نفسه وعادوا إلى النزل في حوالي الغسق، وعبروا النهر مرة ثانية، كأنهم على عجلة من أمرهم.

وقد كان فور أن حل الظلام، في المساء نفسه، أن سمعت مدام دلوك، بالإضافة إلى ابنها الأكبر صرخات أنثوية في المنطقة المجاورة من النزل. كانت الصرخات عنيفة لكن قصيرة. كما أدلى فالينس وهو سائق أتوبيس، بشهادة أيضا قال فيها إنه رأى ماري عبر معدية في السين مع شاب داكن البشرة. هو، فالينس، عرف ماري ولا يمكن أن يخطئ في هويتها. وقد تعرف أقاربها تعرفا كاملا على الأشياء التي عثر عليها في الدغل.

إن الأدلة والمعلومات التي جمعتها بنفسي من الصحف، باقتراح من دوبن، اشتملت على نقطة إضافية أخرى، لكنها كانت نقطة ذات عواقب وخيمة على ما يبدو. يبدو أنه حال اكتشاف الملابس بالطريقة التي تم وصفها أعلاه، عثر على جسد سانت أوستاش، خطيب ماري، ميتا أو تقريبا ميت، في المنطقة المجاورة مما هو مفترض أنها مسرح الاعتداء الوحشي. وعثر بالقرب منه على زجاجة مكتوب عليها "مستحضر أفيوني" وفارغة. وقد دلت أنفاسه على أنه تجرع السم. ومات دون أن يتكلم. وعلى جسده عثر على رسالة، تنص باختصار على حبه لماري، وتصميمه على أن ينهي حياته.

قال دوبن وهو ينتهي من قراءة ملاحظاتي بإمعان: "لا أحتاج إلى أن أخبرك أن هذه أصعب بكثير من قضية شارع مورج؛ من منطلق أنها تختلف عنها في ناحية مهمة واحدة؛ فهذه حالة جريمة

عادية على الرغم من وحشيتها. لا تنطوي على شيء ما شـاذ علـى وجه الخصوص. ولهذا السبب، ترى أن الشرطة اعتبرت اللغز سهلا، في حين أنه، لهذا السبب، كان يجب أن تعتبره صعب الحـل. لهـذا، بداية، أعتقد أنه ليس من الضروري تقديم مكافأة. لقد استطاع أتبـاع ج - أن يفهموا في الحال كيف ولم قد يتم ارتكاب عمل وحشي كهذا. فهم يستطيعون تصور نمط، العديد من الأنماط، ودافع، بـل العديـد مـن الدوافع، وحيث إنه ليس من المستحيل أن يكون واحد من هذه الأنمـاط والدوافع العديدة هو الفعلي؛ فقد سلموا جدلا أنه يجب أن يكون واحـدا منها. غير أن السهولة التي تخيلوا بها هـذه الأفكـار الخياليـة، بـل وجاهتها، كان يجب أن يروها باعتبارها مؤشـرا علـى مزيـد مـن الصعوبات أكثر من أنها مؤشر على السهولة التي تصاحب الوضـوح. لقد لاحظت من قبل أن العقل يتلمس طريقه في بحثـه عـن الحقيقـة مسترشدا بالبروزات التي توجد فوق الـسطح العـادي، وأن الـسؤال الصحيح في قضايا مثل هذه ليس "ماذا حدث؟" مثلما هو "ماذا حدث لم يحدث من قبل أبدا؟" في تحقيقات مدام لواسباني، أصابت تلك الغرابـة ذاتها عملاء ج - الخاصة بالإحباط والارتباك؛ هذه الغرابة التي تقـدم إلى الفكر المنظم تنظيما صحيحا أضمن بشير على النجاح؛ في حين أن هذا الفكر نفسه قد يعلق يائسا بسبب السمة العادية التي يقابلها في كـل ما يتعلق بقضية فتاة العطارة، على الرغم من أنها لا توحي لمـوظفي مديرية الشرطة إلا بالانتصار السهل".

"في قضية مدام لواسبانى وابنتها، لم نشك، حتى في بداية التحقيق، في أن جريمة قتل قد ارتكبت؛ فقد استبعدنا الانتحار على الفور. هنا أيضًا نحن متحررون، منذ البداية من أي افتراض بقتل النفس؛ فقد عثر على الجسد (المعثورعليه) في باريير دو رول في حالة لا تترك لنا مساحة لكي نرتبك إزاء هذه النقطة المهمة. لكن ثمة اقتراحًا بأن الجثة المكتشفة ليست لماري روجيه لكي ندين القاتل أو القتلة الذين قدمت بشأنهم المكافأة، والذي يتعلق به / بهم فحسب الاتفاق الذي عقدناه مع مدير الشرطة. فإذا بدأنا بحثنا من اليوم الذي تم العثور فيه على الجثة واقتفينا أثر القاتل، فاكتشفنا أن هذه الجثة هي جثة فرد آخر غير ماري، أو إذا انطلقنا من أن ماري حية ووجدناها واكتشفنا أنها لم تقتل - في الحالتين ستضيع جهودنا هباء بما أننا نتعامل مع السيد ج. وأن كلاً منا يعرف الرجل معرفة جيدة، ولن يفيدنا أن نثق فيه إلى هذا الحد، لذلك، وتحقيقًا لهدفنا الخاص إن لم يكن من أجل العدالة، لا مفر من أن تغدو أول خطوة لنا هي أن نطابق هوية الجثة مع شخص ماري روجيه المفقودة".

"إن حجج *"L'Etoile"* لها ثقلها لدى العامة، وحقيقة أن الصحيفة نفسها مقتنعة بأهميتها، يتضح من الأسلوب الذي تستهل به واحدة من مقالاتها عن الموضوع، فهي تذكر: "عدد من الصحف النهارية اليومية تتحدث عن مقالنا الحاسم في استنتاجاته في عدد الاثنين". بالنسبة إليَّ، هذا المقال لم يحسم إلا حماس ناظمه. لابد أن

نضع نصب أعيننا أن هدف صحفنا هو بالأحرى خلق حس، إثبات وجهة نظرها أكثر من تعزيز مطلب الحقيقة. فالحقيقة تصبح غايتها فقط حين تبدو متطابقة مع وجهة نظرها. إن المطبوعة التي تتوافق فحسب مع الرأي العادي (بغض النظر عن مدى تأسيس هذا الرأي تأسيسا جيدا) لا تكسب أسهما مع سواد الناس. إن كتلة الجماهير تعتبر الشخص العميق فقط هو الذي يقترح أو يوحي بتناقضات بارعة في الفكرة العامة. ففي الاستدلال المنطقي، كما في الأدب، الأبيجرام، هي أكثر الأنواع التي تقدر تقديرا فوريا وكليا. وفي كليهما لا تستحق إلا أدنى مرتبة من الاستحقاق".

"إن ما أرمي إليه هو أن الإبيجرام المختلط والميلودرامي في فكرة أن ماري روجيه لاتزال حية هو الذي أوحى بها للصحيفة وليس أي معقولية حقيقية تطويها هذه الفكرة، وضمن أن يستقبلها الناس باستحسان. دعنا نتفحص المقدمات الاستدلالية في حجج الصحيفة، غافلين عدم الاتساق الذي بدأت به أصلا".

"إن الهدف الأول للكاتب هو أن يبين، من اختصار الفترة الزمنية الفاصلة بين اختفاء ماري وإيجاد الجثة الطافية، أن هذه الجثة لا يمكن أن تكون لماري. إن تقليص هذه المسافة الفاصلة لبعدها الأصغر الممكن هو غاية المحلل. اندفع الكاتب في مطاردته العجولة لهذه الغاية نحو فرضية صرفة في البداية: "لكن من الحماقة أن نفترض أن جريمة القتل، إذا ما كانت قد قتلت، قد أنجزت بالسرعة الكافية

ليستطيع قاتلوها أن يلقوا بجسدها إلى النهر قبل منتصف الليل". فورا يبزغ السؤال التالي بديهيا: لماذا؟ لم هو من الحمق أن نفترض أن القتل تم خلال خمس دقائق بعد ترك الفتاة بيت أمها؟ لم هو من الحمق أن نفترض أن القتل حدث في أي وقت من أوقات اليوم؟ هناك اغتيالات على مدار الساعة. لكن لو أن القتل حدث في أي لحظة بين التاسعة صباحا من يوم الأحد وقبل منتصف الليل بربع الساعة، فمازال ثمة وقت كاف لإلقاء الجثة في النهر قبل منتصف الليل. وعليه تعادل هذه الفرضية: أن القتل لم يحدث يوم الأحد أبدًا، فإذا تغاضينا عن هذا الافتراض من جهة الصحيفة، فلعلنا نجيز لها أي تجاوزات أيا كانت. إن الفقرة التي تبدأ بـــ "من الحماقة أن نفترض أن القتل، ... إلخ"، بغض النظرعن الأسلوب الذي ظهرت به في الـــصحيفة، يمكنني أن أتخيل أنها موجودة في عقل كاتبها فعليا كالتالي: "من الحماقة أن نفترض أن جريمة القتل، لو أنها قتلت، ارتكبت بالسرعة الكافية التي خولت قاتليها أن يلقوا بالجسد في النهر قبل منتصف الليل، نقول إن من الحماقة أن نفترض كل هذا وأن نفترض (كما هو مقرر لنا أن نفترض) في الوقت نفسه أن الجسد لم يلق في النهر حتى ما بعد منتصف الليـــل". جملة هي في حد ذاتها تحمل تناقضا تاما، غير أنها لا تتنافى مع المنطق تماما كالجملة المطبوعة".

واصل دوبن قائلا: "إذا كان هدفي أن أورد الحجج التي تدحض هذه الفقرة من حجج الصحيفة، فلأتركها الآن. من ناحية أخرى، ليست

الصحيفة هي شغلنا الشاغل، بل الحقيقة. إن الجملة المعنية لا تحمل إلا معنى واحدا، كما هي، وقد ذكرت هذا المعنى بوضوح، لكن من الجوهري أن نذهب إلى أبعد من الكلمات الصرفة، ثمة فكرة قصدت إليها هذه الكلمات بوضوح لكنها أخفقت في توصيلها. لقد كان هدف الصحفيين أن يقـــولوا إنه أيا كانت الفترة التي ارتكبت فيها هذه الجريمة صباح أو ليل الأحد، فمن غير المناسب أن يغامر القتلة بحمل الجثة إلى النهر قبل منتصف الليل. وهنا تكمن فيما بين السطور حقيقة الفرضية التي أشتكي منها. فهي تفترض أن الجريمة ارتكبت بموقع معين وتحت ظروف معينة؛ بحيث أصبح حملها إلى النهر ضرورة. بما أن الجريمة قد تكون وقعت على حافة النهر أو في النهر نفسه، فعليه، يمكن أن يكون القتلة قد لجأوا إلى إلقاء الجثة في المياه في أي فترة من النهار أو الليل، باعتبارها أكثر طريقة واضحة وفورية للتخلص منها. لاتفهم من هذا أنني أوحـــي بـــأي شـــيء مـــن منطلق أنه أحد الاحتمالات، أو يتطابق مع رأيي. إن هدفي حتى الآن لا صلة له بحقائق القضية. أود فقط أن أحذرك من النبرة العامة في اقتراح الصحيفة بأن أجذب انتباهك إلى سمته المفرطة الأحادية إلى أقصى حد".

وبعد أن تأتي بالوصف الذي يتناسب مع أفكارها المسبقة، وتفترض لو أن هذا كان جسد ماري، فهو لم يلق في المياه إلا منذ فترة قصيرة، تمضي الصحيفة لتذكر:

"أظهرت كل الخبرات أن الأجساد الغارقة، أو الأجساد التي تلقى في النهر فورا بعد وفاتها بسبب تعرضها للاعتداء، تحتاج من ستة إلى

عشرة أيام لكي يحدث التحلل الكامل الذي يرفعها إلى سطح المياه. وحتى لو ضرب الجسد بمدفع، وارتفع قبل خمسة أو ستة أيام من انغماره في المياه، يغرق مرة أخرى، لو ترك في حاله".

"هذه التأكيدات سلمت بها كل صحيفة في باريس ضمنيا باستثناء *Le Moniteur*(1). فهذه المطبوعة الأخيرة سعت إلى مهاجمة هذا الجزء من الفقرة الذي يشير إلى " الأجساد الغارقة" فقط، باقتباس خمس حالات أو ست، تشير إلى أجساد أفراد عرف أنها غرقت، قد وجدت طافية بعد انقضاء وقت أقل مما أصرت عليه *L'Etoil*. غير أن ثمة شيئا ما غير حكيم للغاية من جانب الأولى في الرد على التأكيدات العامة للأخيرة، باقتباس الحالات الخاصة التي تناقض هذا التأكيد. فلو أنه من المحتمل تقديم خمسين بدلا من خمسة أمثلة عن الأجساد التى تطفو مع نهاية يومين أو ثلاثة أيام، فستظل، وهو صحيح، الأمثلة الخمسين هذه استثناءات فقط للقاعدة التي ذكرتها الصحيفة، حتى يأتي مثل هذا الوقت الذي تدحض فيه القاعدة نفسها. فإذا سلمنا بالقاعدة (وهذه لم تنكرها *Le Moniteur*، التي أصرت فقط على استثناءاتها) يظل طرح *L'Etoil* كامل الأهلية؛ لأن هذا الطرح لا يدعي أنه يتضمن أكثر من سؤال عن احتمالية ارتفاع جسد إلى سطح المياه في أقل من ثلاثة أيام، وهذه الاحتمالية ستظل في مصلحة موقف الصحيفة حتى

---

(1) The New York commercial,edited by Col. Stone.

تصل الحالات التي قدمت بطريقة طفولية إلى العدد الكافي لتأسيس قاعدة مضادة".

"سترى على الفور أن كل الحجج في هذه المقدمة لابد أن يحفزنا في مواجهة القاعدة نفسها، ومن أجل تحقيق هذا الهدف لابد أن نتفحص الأساس المنطقي للقاعدة. إن الجسد البشري لا أثقل ولا أخف عامة من مياه نهرالسين، أي أن جاذبية الجسد البشري في حالته الطبيعية تساوي تقريبا حجم المياه العذبة المزاحة. إن الأجساد الشحمية والسمينة ذات العظام الصغيرة، وأجساد النساء عامة أخف من الأجساد ذات العظام الضخمة والنحيلة والرجال. كما أن جاذبية مياه الأنهار تتأثر إلى حد ما بتيار المد من البحر. لكن لو نحينا هذا المد عن المسألة، فمن الممكن أن نقول إن قليلا من الأجساد البشرية ستغرق، حتى في المياه العذبة طوعا؛ فأي شخص، تقريبا، يسقط في النهر يستطيع أن يطفو، لو أنه سمح لجاذبية المياه أن تتفوق على جاذبيته؛ بمعنى، لو ترك جسده كله يغطس إلا أقل الأجزاء الممكنة منه. إن الوضع الملائم لشخص لا يستطيع أن يسبح هو الوضع المنتصب للسائر على الأرض ورأسه ملقى تماما إلى الوراء ومغطس في المياه، بينما يظل الفم وفتحتا الأنف فوق السطح فقط. بهذا الوضع، سنجد أننا نطفو بدون صعوبة وبدون جهد مبذول. من ناحية ثانية تتكافئ جاذبية الجسد وجاذبية حجم المياه المزاحة تكافئا دقيقا، وأي شيء ضئيل سينتج عنه رجحان واحد منهما على الآخر، فذراع مرتفعة على سبيل المثال من المياه، حيث تجرد من

دعمها بهذه الطريقة، هى وزن إضافي يكفي لإغراق الرأس كله، في حين أن المساعدة الاتفاقية من أصغر قطعة من الخشب ستخول لنا أن نرفع رأسنا لكي ننظر حولنا. إن الشخص الذي لا يعرف السباحة في أثناء مقاومته للغرق، يرمي ذراعيه إلى الأعلى عشوائيا بينما يحاول أن يحتفظ برأسه في وضعه الرأسي المعتاد، والنتيجة هي طمس فمه وأنفه في المياه وشروع دخول المياه إلى رئتيه أثناء الجهود التي يبذلها للتنفس أثناء وجوده تحت سطح المياه. كما أن بطنه سيستقبل الكثير من المياه، ويصبح جسده كله أثقل بسبب الاختلاف بين وزن الهواء الذي يمد هذه التجويفات ووزن السائل الذي يملؤها حينئذ. هذا الاختلاف يكفي سببا لغرق الجسد، باعتباره قاعدة عامة، لكنه لا يكفي في حالات الأشخاص ذوي العظام الصغيرة والأجساد اللينة أو السمينة. هؤلاء الأشخاص يطفون حتى بعد الغرق".

"إن الجثة، بافتراض أنها في قاع النهر، ستظل هناك حتى تصبح جاذبيتها الخاصة مرة أخرى، بطريقة ما، أقل من جاذبية حجم المياه التي أزاحتها. هذا التأثير يحدث بسبب التحلل أو غيره. إن نتيجة التحلل هى توليد الغاز، الذي يملأ الخلايا الخلوية وكل التجاويف، والذي يعطي المظهر المنتفخ الرهيب. وعندما يتطور هذا التضخم تطورا كبيرا بحيث يزيد حجم الجثة حجما هائلا دون زيادة مقابلة فى الكتلة أو الوزن، تصبح جاذبيته الخاصة أقل من جاذبية المياه المزاحة، وبالتالي يظهر على السطح. غير أن عددا لا يحصى من الشروط تتحكم في التحلل؛ عوامل لا تحصى تسرعه أو تبطئه مثل حرارة

أو برودة الموسم، تشرب المياه بالمعادن أو نقاوتها، عمقها أو ضحالتها، جريانها أو ركودها؛ حساسية الجسد؛ إصابته بالأمراض قبل الموت أو خلوه منها. وهكذا لا نستطيع أن نعين الفترة التي سيرتفع فيها الجسد خلال تحلله. فتحت شروط معينة هذه النتيجة قد تقع خلال ساعة؛ وتحت أخرى قد لا تحدث أبدًا. هناك تركيبات كيميائية يمكن بها حفظ هيكل الحيوان للأبد من الفساد. أحدها هو ثاني كلورايد الزئبق. لكن بعيدا عن التحلل، قد يوجد، وغالبا يوجد غاز متولد داخل البطن، بسبب التخمر الحمضي لمواد الخضار (أو بداخل تجاويف أخرى من أسباب أخرى) يكفي لكي يحفز انتفاخا سيؤدي إلى صعود الجسد إلى السطح. إن الأثر الذي ينتج عن قذفه بمدفع ذى إمكانية بسيطة؛ فهو إما أن يحل الجسد من الطين الناعم أو الرواسب النهرية، سامحا بهذا له أن يرتفع بينما قد أعدته العوامل الأخرى فعليا لهذا الفعل، أو لعله يتغلب على لزوجة الأجزاء المتعفنة في الأنسجة الخلوية، سامحا للتجاويف أن تنتفخ تحت تأثير الغاز".

وإذا أصبح لدينا الفلسفة الكلية للموضوع، نستطيع أن نختبر بها بسهولة تأكيدات *L'Etoil*، تقول الصحيفة: "أظهرت كل الخبرات أن الأجساد الغارقة، أو الأجساد التي تلقى في النهر فورا بعد وفاتها بسبب تعرضها للاعتداء، تحتاج من ستة إلى عشرة أيام لكي يحدث التحلل الكامل الذي يرفعها إلى سطح المياه. وحتى لو ضرب الجسد بمدفع، وارتفع قبل خمسة أو ستة أيام من انغماره في المياه، يغرق مرة أخرى، لو ترك في حاله".

يتضح الآن أن الفقرة بأكملها قطعة عديمة الأهمية وغير متسقة. فكل التجارب لا تبرهن على أن "الأجساد الغارقة" تتطلب من ستة إلى عشرة أيام لكي يحدث تحلل يكفي لإخراجها إلى السطح. فكل من العلم والتجارب أثبت أن فترة ارتفاعها، ولابد من الضروري أن تكون، غير محددة. علاوة على ذلك، لو أن جسدا ارتفع بسبب قذفه بالمدفع فلن "يغرق مرة أخرى إذا ترك في حاله" حتى يتطور التحلل بالقدر الذي يسمح بهروب الغاز المتولد. لكنني أود أن ألفت انتباهك للتمييز الذي قامت به بين" الأجساد الغارقة" و"الأجساد الملقاة في المياه بعد موتها بسبب اعتداء ما على الفور". على الرغم من أن الكاتب يعترف بهذا التمييز، فهو يضمها كلها في الفئة نفسها. لقد أوضحت كيف يصبح جسد رجل غارق أثقل من حجم المياه الذي أزاحه، وأنه لن يغرق أبدًا إلا إذا قاوم الغرق بأن يرفع ذراعيه فوق السطح، وأن يلتقط أنفاسه أثناء ما هو تحت السطح، أنفاسا ستملأ مكان الهواء الأصلي في الرئتين بالمياه. لكن هذه المقاومة وتلك اللهاث لن تحدث في جسد "ألقى به إلى المياه بعد موته بسبب اعتداء وحشي على الفور"؛ لهذا، في المثال الأخير، لن يغرق الجسد أبدًا طبقا للقاعدة العامة، وهي حقيقة تجهل بها ***L'Etoil***، كما هو واضح. عندما يتقدم التحلل إلى درجة عظيمـــة، عندمـــا يترك اللحم العظام بدرجة عظيمة، حينئذ بالفعل، تغرق الجثة".

"والآن ماذا نصنع بهذا الطرح أي بأن الجسد الذي تم العثور عليه لا يمكن أن يكون جسد ماري روجيه، لأن هذا الجسد تم العثور

عليه عائما بعد مرور ثلاثة أيام فقط؟ فلأنها امرأة لا يمكن أن تكون غاصت لو أنها غرقت، أو إذا ما غاصت فيجب أن تكون قد ظهرت مرة ثانية في خلال أربع وعشرين ساعة أو أقل. لكن لم يفترض أحد أنها أغرقت وبما أنها ماتت قبل أن يتم إلقاؤها في النهر فكان يمكن العثور عليها عائمة في أي فترة بعد ذلك في أي مكان من النهر".

تقول *L'Etoil*: "لو أنه تم الاحتفاظ بالجثة في حالتها المشوهة على الشاطئ حتى ليل الثلاثاء، كان يمكن إيجاد بعض الآثار للقتلة على الشاطئ". أولا، من الصعب إدراك قصد من استنتج هذا الاستنتاج. إنه يقصد أن يتنبأ بما يتصور أنه سوف يكون اعتراضا على نظريته، أي، تم الاحتفاظ بالجثة على الشاطئ يومين تعاني من تحلل سريع- تحلل أسرع مما لو أنها أغرقت في المياه. فهو يفترض، إذا ما كانت هذه هي الحالة، أن تظهر على السطح يوم الأربعاء، ويعتقد أنها تظهر فقط تحت هذا الشرط. بناء عليه، يتعجل في إثبات أنه لم يتم الاحتفاظ بها على البر؛ لأنه لو حدث هذا "كانوا سيجدون بعض آثار للقتلة على الشاطئ"، أظن أنك تبتسم بسبب الاستنتاج أو الحجة السيئة؛ فأنت لا تستطيع أن تنجح في إدراك كيف يمكن أن تعمل الفترة التي ظلت الجثة فيها على البر في مضاعفة آثار القتلة، ولا أنا أيضا".

"وتواصل صحيفتنا: "علاوة على ذلك فمن غير الأرجح تماما أن أيا من هؤلاء الأشقياء الذين ارتكبوا جريمة مثل هذه كما هو مفترض أن يلقوا بالجثة في النهر بدون أوزان لإغراقها في حين أنهم

يستطيعون اتخاذ إجراء احتياطي مثل هذا بسهولة". لاحظ هنا الارتباك المضحك للتفكير! لم يعارض أي شخص حتى هذه الصحيفة الجريمة التي ارتكبت في الجسد الذي تم العثور عليه. إن علامات العنف واضحة جدا. إن هدف محللنا أن يبرهن فقط على أن هذا الجسد ليس جسد ماري. فهو يرغب فى أن يثبت أن ماري لم تقتل، وليس أن الجثة لم تقتل. غير أن ملاحظته تبرهن فقط النقطة الأخيرة. فها هنا جثة بدون أثقال موصولة بها. إن القتلى وبما أنهم ألقوا بها في النهر، لم يكن ليفوتهم ربطها بوزن ما. لهذا لم يقم القتلة بإلقائها في النهر. هذا كل شيء يحاول إثباته، لو أن ثمة شيئا ما أثبته. إن الصحيفة لم تتطرق حتى إلى مسألة هوية الجثة، وتكلفت فحسب مشقة أن تناقض ما اعترفت به فقط من لحظة: "نحن مقتنعون تماما بأن الجسد الذي تم العثور عليه جسد أنثى مقتولة".

وليس هذا هو المثال الوحيد، حتى في هذا القسم من موضوعه الذي يجادل المحلل بلا وعي منه ضد نفسه. قلت بالفعل إن هدفه الواضح هو أن يقلص بقدر الإمكان الفترة بين اختفاء ماري والعثور على الجثة. إلا أننا نجده يطرح نقطة أنه لا أحد رأى الفتاة من لحظة خروجها من بيت أمها. فيقول" لا نملك دليلا على أن ماري روجيه كانت فوق أرض الأحياء بعد الساعة التاسعة يوم الأحد الثاني والعشرين من شهر يونيو". وبما أن حجته هذه من جانبه فقط كان يجب على الأقل أن يترك هذه المسألة بعيدا عن الأنظار، فلو عرفنا أن شخصا ما رأى ماري، فلنقل يومى الاثنين والثلاثاء،

لتقلصت الفترة التي نتحدث عنها كثيرا، وباستخدام استدلاله المنطقي ستتقلص كثيرا احتمالية أن الجثة لعاملة فرنسية. مع ذلك من المسلي أن نلاحظ أن الصحيفة تصر على رأيها عن اقتناع كامل بأنها تعزز حججها العامة.

"فلنقرأ مرة أخرى الآن ذلك القسم من هذه الحجة الذي يشير إلى تحديد بوفيه لهوية الجثة. كانت الصحيفة ماكرة مكرا واضحا فيما يتعلق بالشعر على الذراع. بما أن السيد بوفيه ليس أحمق فلم يكن أبدا ليتعجل بتحديد هوية الجثة بالشعر فوق الذراع ببساطة. لا توجد ذراع بدون شعر. إن عمومية أسلوب الصحيفة في هذا المقام هي محض تحريف لصياغة الشاهد. لا بد أن هناك خصوصية في اللون أو النوعية أو الطول أو المكان".

تقول الصحيفة: "قدماها صغيرتان، كذلك آلاف الأقدام. لا يشكل رباط الجورب دليلا أيا كان ولا حذاؤها لأن الأحذية وأربطة الجوارب تباع في طرود. يمكن أن نقول هذا على أزهار قبعتها. إن الشيء الذي يصر عليه السيد بوفيه إصرارا قويا هو أن المشبك المخلوع الذي في الأربطة التي عثروا عليها، هو من أجل تضييق الجورب. لا يؤدي هذا إلى أي شيء لأن معظم النساء يجدن أنه من المناسب أن يأخذن زوج أربطة الجورب لملاءمته إلى حجم سيقانهن الذي سيحيطها عوضا عن أن يجربنه في المحل الذي يشترين منه". من الصعب هنا افتراض أن المحل جاد. لو أن السيد بوفيه، في بحثه عن جسد ماري، عثر على

جسد يتطابق في حجمه العام ومظهره مع حجم ومظهر الفتاة المفقودة، فهذا مبرر يكفي، (بدون الرجوع إلى مسألة الملابس)، لكي يشعر أن بحثه تكلل بالنجاح. فإذا، بالإضافة إلى نقطة الحجم العام، وجد على ذراعها الميزة الخاصة لشعر ذراع ماري التي لاحظها وهي حية؛ فهذا يعزز اعتقاده عن صحة؛ ولعل زيادة اليقين تتناسب طرديا مع خصوصية أو غير اعتيادية علامة الشعر. فإذا كانت قدما الجثة صغيرتين، وبما أن قدمي ماري صغيرتان؛ فإن زيادة احتمالية أن الجسد هو جسد ماري لن يصبح تناسبا طرديا رياضيا فحسب بل جبريا أو تراكميا. أضف إلى هذا ذلك الحذاء الذي عرف أنهم كانت ترتديه يوم اختفائها وعلى الرغم من أن هذه الأحذية "تباع في طرود" ستزيد عند هذا الحد الاحتمالية إلى حد شفا اليقين. إن ما قد لا يكون في حد ذاته دليلا على هوية الجثة يصبح بسبب مكانته التعزيزية دليلا أكثر ثقة. ثم فلنأخذ الأزهار في تلك القبعة المماثلة لتلك التي كانت تلبسها الفتاة المفقودة ولن نصل إلى أي شيء إضافي. لو أنها فقط زهرة واحدة فلن نتوصل لأي شيء إضافي، ماذا لو أنهما زهـرتان أو ثلاث أو أكثر؟ كل دليل تال هو برهان متضاعف، ليس دليلا مضافا إلى دليل بل يتضاعف بمئات أو آلاف المرات. ثم نكتشف الآن على المتوفاة شرائط مثل تلك التي كانت تستخدمها الحية فيصبح من الصعب أن نتابع تفنيد الأدلة تقريبا. غير أن هذه الأربطة كان سيتم تضييقها بخلع المشبك بالطريقة نفسها التي ضيقت بها ماري الأربطة

قبل خروجها من البيت بوقت قصير. من الجنون أو العبث أن نشك الآن. ما تقوله الصحيفة فيما يتعلق بهذا التضييق لأربطة الجوارب على أنه حدث غير عادي، يدل فقط على تصميمها على الخطأ. فالطبيعة المرنة لمشبك أربطة الجوارب دليل ذاتي على أن تضييق الجوارب مسألة غير اعتيادية. ما صنع لكي يعدل نفسه بنفسه لا يحتاج بالضرورة إلى تعديل خارجي إلا نادرا. لابد أن أربطة ماري تلك احتاجت إلى تضييق هو أمر حدث بالصدفة بمعناها المحدود. فهي في حد ذاتها تؤكد على هويتها. لكن لم يحدث أن الجثة التي تم العثور عليها بها أربطة جورب الفتاة المفقودة أو حذائها أو قبعتها أو أزهار قبعتها أو العلامة الفريدة على ذراعها أو حجمها العام ومظهرها، بل ما حدث أن الجثة بها كل واحد من هذا وجميع هذا إجمالا. فلو أن محرر الصحيفة قد أضمر شكا ما في ملابسات القضية فلم يكن ليحتاج إلى لجنة ***de lunatic inquirendo*** فحص المجانين. لقد اعتقد أن من الذكاء ترديد صدي لغو المحامين الذين يقنعون بترديد صدى مبدأ المحاكم الربعي. أحب هنا أن أقول ملاحظة عن أن ما ترفضه المحكمة باعتباره دليلا هو أفضل الأدلة بالنسبة للعقل. لأن المحكمة التي تهتدي بالمبادئ العامة للدليل، أي المبادئ المعترف بها والمسجلة أو الموثقة، تكره أن تحيد عن هذا في الأمثلة الخاصة. وهذا الالتزام الراسخ منها بالمبدأ مع تجاهل صارم للاستثناء الذي يتناقض مع مبدأها هو نمط مؤكد لبلوغ ذروة الحقيقة التي يمكن بلوغها في أي سلسلة

طويلة من الزمن. بناء عليه، بين صفوف كتلة الجماهير، تصبح الممارسة فلسفية، لكنها من المؤكد بالقدر نفسه ستتولد عنها أخطاء فردية كثيرة"(١).

فيما يتعلق بالتعريض الذي وجّه لبوفيه فعليا ستنبذه في لمحة. لقد سبرت فعليا الجوهر الحقيقي لهذا السيد الصالح؛ فهو فضولي رومانسي وذو دهاء ضئيل. إن شخصا بهذا التكوين سيتصرف عندما تتاح له فرصة إثارة حقيقية تصرفات سوف تعرضه لشك الشخص حاد الذكاء أو الشخص الذي يتخذ منه موقفا عدائيا. عقد السيد بوفيه (كما يظهر من ملاحظاتك) عدة مقابلات شخصية مع محرر الصحيفة الذي أغضبه بأنه تجرأ على أن يقول رأيه بأن الجثة، بغض النطر عن نظرية المحرر، باعتبارها حقيقة واضحة، جثة ماري. تقول الصحيفة "يلح في التأكيد على أن الجثة لماري لكنه لا يستطيع أن يعطي تفصيلا بالإضافة إلى تلك التي علقنا عليها، ليجعل الآخرين يصدقون". والآن، بدون أن نشير مرة أخرى إلى حقيقة أن الدليل الأقوى الذي يجعل الآخـــرين يصدقون قد لا يقدم أبدا، فمن المعروف أن تصديق إنسان

---

(١) إن النظرية التي ترتكن إلى خواص الشيء، ستحول دون أن يتكـشف طبقـا لدوافعه؛ ومن سيرتب الموضوعات طبقا لعلاقتها بأسبابها لن يستطيع أن يثمنها طبقا لنتائجها؛ لذلك ستظهر فلسفة تشريع كل أمة أنه عندما يصبح القانون علما ونظاما يفتقد العدل. إن الإخلاص الأعمى لمبادئ التصنيف التي قادت القـانون العام إلى أخطاء، يمكن استيعابها إذا أدركنا إلى أي مدى كان المشرع مجبـرا على أن يمضي قدما لاستعادة المساواة التي فقدها نظامه القانوني. لأندور. (بو)
William Landor(Horace Binney Wallace) (1817-1852)

ما في حالة من هذا النوع بدون أن يكون قادرا على تقديم سبب واحد للتصديق أمر مسلم به، لا يوجد شيء أكثر غموضا من الصور المنطبعة في الذهن عن الهوية الفردية، فكل إنسان يتعرف على جيرانه، غير أن هناك أمثلة قليلة يكون المرء فيها مهيأ إلى أن يعطي مبررا لتعرفه. لا يحق لمحرر الصحيفة أن ينزعج من إيمان السيد بوفيه غير المبرر.

تنطبق ملابسات الشك التي تحيط به مع فرضية الفضولية الرومانسية أكثر بكثير مما تنطبق مع إيحاء المحرر بتجريمه؛ فما إن نتبنى تأويلا أكثر ترفقا به، لن نجد صعوبة في فهم الوردة في ثقب المفتاح، و"ماري" على اللوح القريب، و"استبعاد أقاربها الرجال"، و"النفور من السماح لهم برؤية الجسد"، والتحذير الذي أعطاه لمدام ب، بأن يجب ألا تحادث أي شرطي حتى عودته (بوفيه)، وأخيرا تصميمه الواضح "لا علاقة لأي أحد بالإجراءات إلا هو". يبدو لي، بلا شك، أن بوفيه كان واحدا من معجبي ماري وأنها لهت معه وكان يطمح إلى أن يتمتع بثقتها الكاملة وصداقتها الحميمة. لن أقول أي شيء إضافي عن هذه النقطة، وبما أن الدليل رد بالحجة على تأكيد الصحيفة، حيث مس مسألـــة فتـــور الأم والأقـــارب الآخرين مسا خفيفا، وهو الفتور الذي لا يتسق مع افتراض إيمانهم بأن الجثة هي جثة فتاة العطور؛ سنتابع تحليلنا كأننا حللنا مسألة هوية الجثة تحليلاً يرضينا.

سألته هنا "وماذا ترى بالنسبة لآراء *Le Commercial*؟"

"تلك، جوهريا، تستحق اهتماما أكبر بكثير من أي آراء آخرى نشرت حول الموضوع. إن الاستدلالات التي خرجت من المقدمات المنطقية هي استدلالات فلسفية وذكية؛ غير أن المقدمات المنطقية، في حالتين على الأقل، بنيت بناء على ملاحظة ناقصة. ترغب الصحيفة في أن تلمح إلى أن ماري أمسكت بها عصابة من الفارين من القانون في مكان لا يبعد عن بيت أمها. وتقدم حجتها على هذا بـــ: "من المستحيل بالنسبة لشخص معروف هذه المعرفة لآلاف أن تعبر ثلاثة أحياء دون أن يراها أحد". هذه فكرة شخص أقام طويلا في باريس، رجل عام، اقتصر تجوله ذهابا وإيابا في المدينة في الغالب فى أماكن المكاتب العامة. فهو يدرك أنه نادرا ما يعبر عشرة أحياء من مكتبه دون أن يتعرف عليه الآخرون ويحيونه. وبما أنه يعرف المدى الذي تصل إليه معارفه الشخصية فهو يقارن شهرته بشهرة فتاة العطارة، ولا يجد اختلافا كبيرا بينهما؛ ويتوصل على الفور إلى استنتاج أنها معرضة في تجولها على قدم المساواة معه إلى أن يتعرف عليها الآخرون. كان يمكن أن تكون هذه هي الحالة فقط لو أن تجولها يتسم بالصفة الثابتة والمنهجية وضمن نوعية المنطقية المحددة ذاتها مثله، فهو يمر ريحة وجيئة على فترات منتظمة ضمن محيط محدد يزخر بأشخاص يتلفتون إليه بسبب اهتمامهم بطبيعة وظيفته المتصلة بطبيعة وظيفتهم. لكن تجول ماري لا يمكن التكهن به. في هذه الحالة الخاصة؛ من البديهي، كما هو على الأرجح؛ أنها سلكت طريقا يختلف تماما عن الطريق الذي اعتادت أن تسلكه. إن التوازي الذي نتصور أنه موجود

في عقل المحرر يتعزز فقط في حالة شخصين يعبران المدينة كلها؛ ففي هذه الحالة، وبفرضية أن المعارف الشخصية لهما متكافئة، ستتعادل أيضا فرص أن يقابلا عددا متساويا من معارفهما الشخصية. من جانبي لن أعتبرها فقط إمكانية، بل أكثر من احتمال؛ أن ماري قد مشت، طوال الفترة التي استغرقتها، في واحد من الطرق العديدة التي تقع بين محل سكنها ومحل سكن عمتها دون أن تقابل شخصا واحدا من الذين عرفتهم أو ممن عرفوها. بالنظر إلى هذه المسألة في سياقها الكامل والصحيح لابد أن نتذكر دائما اللاتناسب العظيم بين المعارف الشخصية لأكثر الشخصيات شهرة حتى في باريس والتعداد السكاني الكلي لباريس نفسها".

لكن أيا كانت القوة التي تنطوي في اقتراح الصحيفة فسوف تتلاشى عندما نأخذ في اعتبارنا الساعة التي خرجت فيها الفتاة. تقول الصحيفة: "خرجت عندما كانت الشوارع مليئة بالناس". لكن لم تكن هكذا. لقد خرجت في التاسعة صباحا. والآن، في التاسعة صباحا من كل يوم من أيام الأسبوع باستثناء الأحد تشغي الشوارع فعلا بالناس، أما في التاسعة يوم الأحد يكون الجميع في بيوته يستعد للذهاب إلى الكنيسة. لا يفشل الشخص المراقب في ملاحظة الجو المهجور على وجه الخصوص للمدينة، من حوالي الثامنة حتى العاشرة في صباح يوم الأحد. بين العاشرة والحادية عشرة تشغي الشوارع لكن ليس في وقت مبكر كالذي تم تعيينه.

ثمة نقطة أخرى يشوبها النقص في ملاحظات الصحيفة، تقول: "قطعة من تنورة ثوب الفتاة المنحوسة بطول قدمين وعرض قدم مزقت وعقدت تحت ذقنها وحول رأسها، لمنع صراخها على الأرجح. إن من فعل هذا رجال لا يملكون مناديل جيب". سنرى ما إذا كانت هذه الفكرة تقوم على أساس صحيح أم لا فيما بعد. غير أن المحرر بـ"رجال لا يملكون مناديل جيب" يقصد الطبقة الدنيا من الفارين من القانون. من ناحية أخرى، هؤلاء هم الأفراد عينهم الذين يمكن أن نكتشف أنهم يملكون مناديل حتى لو أنهم يفتقرون إلى القمصان. لابد أنه أتيحت لك الفرصة لترى إلى أي مدى أصبح منديل الجيب لا غنى عنه مع السنوات الأخيرة بالنسبة لهذه الفئة.

سألته: "وماذا تعتقد في مقالة ***Le soleil***؟"

"من المؤسف أن ناظمها لم يولد ببغاء، حيث كان يمكن أن يصبح، في هذه الحالة أكثر ببغاء لامع في نوعه. لقد كرر فحسب حيثيات الرأي المنشور فعليا على حدا، جامعا إياها بكد جدير بالثناء من هذه الصحيفة ومن تلك؛ فهو يقول "إن الأدلة ظاهرة للعيان منذ ثلاثة أو أربعة أسابيع على الأقل ولا شك في أن مسرح الاعتداء المروع اكتشف الآن". إن الحقائق التي تعيد الصحيفة ذكرها أبعد عن أن تزيل شكوكي حيال هذا الموضوع وسنفحصها بخصوصية أكثر بعد حين في صلتها بقسم آخر من الموضوع".

يجب أن ننشغل في الوقت الحالي في تحقيقات أخرى. لا يمكن أن تكون أخفقت في ملاحظة الارتخاء الشديد في فحص الجثة. من غير ريب، لقد حددنا بسهولة مسألة الهوية أو ينبغي أن تحدد بسهولة، لكن ثمة نقاطا أخرى تحتاج إلى التحقق منها. هل سلب الجسد بأي شكل؟ هل كانت المتوفاة ترتدي أي مجوهرات عند مغادرتها البيت؟ فإذا كانت، فهل كانت تلبسها عندما عثرعليها؟ هذه أسئلة مهمة لم تتطرق إليها الأدلة أبدًا، وثمة أسئلة أخرى ذات أهمية مساوية لم تلق الانتباه. يجب أن نسعى لإرضاء فضولنا بصددها ببحث شخصي. يجب إعادة فحص حالة سانت أوستاش. لا يساورني الشك في هذا الشخص، لكن دعنا نتابع بحثنا منهجيا. سنتحقق مما لا يدعو مجالا للشك من صحة الشهادة الخطية فيما يتعلق بالأماكن التى ذهب إليها يوم الأحد. إن نوعية هذه الشهادات الخطية تخلق حالة غموض بسهولة. فإذا كان لا يوجد شيء خاطئ هنا أقصينا سانت أوستاش عن تحقيقاتنا. إن انتحاره على الرغم من أنه سيعزز الشك فيه إذا اكتشفنا أي خدعة في الشهادات الخطية التي أدلى بها، فهو بغض النظر عن هذه الخدعة حادث غير مبرر وسيتسبب في أن يجعلنا ننحرف عن خط تحليلنا العادي.

"في سياق ما أقترحه الآن سوف ننبذ النقاط الداخلية لهذه المأساة ونصب اهتمامنا على حواشيها. لا يوجد شيء أكثر خطأ في التحقيقات مثل هذا وهو أن نقصر البحث على الحالي مع نبذ كامل للأحداث

الطرفية أو العرضية. إن تقصير المحاكم هو قصر الدليل والنقاش على حدود النقاط التي لها صلة واضحة بالقضية. غير أن التجربة بينت، والفلسفة الحقيقية ستبين دائما، أن قسما كبيرا - على الأرجح الأكبر- من الحقيقة يبزغ من النقاط التي لا صلة لها ظاهرية بالقضية. من خلال روح هذا المبدأ إن لم يكن من خلاله حرفيا؛ توصل العلم إلى الحساب بناء على غير المرئي. لكن لعلك لا تفهمني. أظهر تاريخ المعرفة الإنسانية دوما، بدون تفسير ما، أننـــا ندين للأحداث الطرفية أو العرضية بأضخم عدد من الاكتشافات وأكثرها قيمة؛ بحيث أصبح من الضروري في النهاية من منظور التقدم أن نسمح ليس فقط بحصة ضخمة بل بأضخم حصة من الاختراعات التي ستخرج بالصدفة وخارج مدى التوقع العادي تماما. إن الارتكان إلى ما كان رؤيا بما سوف يكون لم يعد من الفلسفة في شيء. لقد تم الاعتراف بالصدفة باعتبارها جزءا من البنية التحتية. لقد أصبحنا نحسب مسألة من مسائل الرياضيات البحتة بالصدفة. ونخضع غير المرئي وغيرالمتخيل لصيغ المدارس الرياضية الصارمة".

"أكرر أن بزوغ القسم الأكبر من الحقيقة من الطرفي ليس إلا واقعا. ولا يتوافق إلا مع روح المبدأ المنطوي في هذه الحقيقة بأنني سوف أنحرف بالبحث في القصية الحالية عن أرضه الموطوءة والعقيمة حتى الآن إلى الملابسات والأحداث المعاصرة التي تحيط به. فبينما تتحقق من صحة الشهادة الخطية، سأفحص الصحف فحصا أكثر عمومية مما

فعلت. فقد تعرفنا حتى الآن فقط على مجال التحقيق، فإذا لم يقدم المسح الشامل للمطبوعات الذي أقترحه بعض النقاط الدقيقة التي ستشكل اتجاه بحثنا سيكون أمرا غريبا".

لحقا على اقتراح دوبن، قمت بفحص مدقق لمسألة الشهادات الخطية. كانت النتيجة أنني اقتنعت قناعة صارمة بصحتها وبالتالي ببراءة سانت أوستاش. في الوقت نفسه انهمك صديقي في فحص ملفات الصحف المختلفة بدقة بدت لي لا هدف لها كلية. بعد أسبوع وضع أمامي الملخصات التالية:

"منذ ثلاث سنوات ونصف، تسبب اختفاء ماري روجيه هذه نفسها في اضطراب شبيه بالحالي. من ناحية أخرى بعد أسبوع ظهرت مرة أخرى في محل العطارة كما هي دائما باستثناء شحوب خفيف، ليس عاديا تماما. ذكر السيد لو بلانك وأمها أنها كانت في زيارة لصديقة ما في الريف، وخمدت المسألة بسرعة. نظن أن الغياب الحالي هو نزوة من الطبيعة نفسها وأن مع انتهاء أسبوع أوربما شهر، سنجدها بيننا مرة أخرى. "صحيفة مسائية، الاثنين ٢٣ يونيو[١].

"تشير صحيفة مسائية من صحف أمس إلى غياب غامض سابق لمدموازيل روجيه. من المعروف أنها كانت خلال أسبوع غيابها عن عطارة لو بلانك في صحبة ضابط بحري شاب لفت الأنظار بسبب

---

(1) New York Express.

فسوقه. يعتقد أن شجارا غراميا بفضل تدخل العناية الإلهية جعلها تعود إلى البيت. لدينا اسم فاتن النساء الذي نتحدث عنه، الذي يقيم حاليا في باريس، لكن نمتنع عن نشره لأسباب واضحة". لو موركور، صباح الثلاثاء، ٢٤ يونيو[١].

"ارتكب اعتداء وحشي من أكثرها وحشية بالقرب من المدينة أول أمس. فقد استأجر سيد مع زوجته وابنته في الغروب خدمات ستة رجال كانوا في قارب بالقرب من ضفتي السين لنقلهم عبر النهر. عند وصوله إلى الشط الآخر خرج المسافرون الثلاثة من القارب، ومشوا حتى أصبحوا بعيدين عن مجال رؤية من في القارب، عندما اكتشفت الابنة أنها تركت فيه مظلتها. عادت من أجلها، فأمسكت بها العصابة وحملوها إلى النهر وكمموها وعاملوها بوحشية وأخيرا أخذوها إلى الشاطئ عند منطقة لا تبعد عن تلك التي أخذت منها القارب في الأصل مع والديها. فر المجرمون لكن البوليس يتعقبهم وسوف يقبض على بعض منهم قريبًا". صحيفة صباحية، ٢٥ يونيو[٢].

"تلقينا اتصالا أو اثنين يهدفان إلى تثبيت جريمة الاعتداء الوحشي الأخير على ميناس[٣]، لكن بما أن الاستجواب القانوني قد برأ

---

(1) New York Herald.

(2) New York Courier & Inquirer

(٣) ميناس كان واحدا من الأطراف الذين اشتبه بهم في البداية، وقبض عليه لكن أطلق سراحه لنقص الدليل.

هذا السيد تماما وبدت حجج مراسلينا حماسية أكثر منها عميقة لا نعتقد أن من المستحسن نشر أسمائهم". – صحيفة صباحية، ٢٨ يونيو[١].

"تلقينا عدة مراسلات تحريرية، من عدة مصادر كما هو واضح؛ نجحت في إثبات أن ماري روجيه المنحوسة أصبحت ضحية واحدة من عصابات الأوغاد العديدة التي تملأ المناطق المجاورة للمدينة يوم الأحد. إن رأينا يميل من غير ريب إلى هذا الافتراض. سنسعى إلى أن نفسح المجال لبعض من هذه الحجج بعد حين". صحيفة مسائية، الثلاثاء ٣٠ يونيو[٢].

"يوم الاثنين، شاهد أحد النوتيين الذين يعملون في مصلحة الخدمة الضريبية قاربا فارغا يطفو فوق النهر. كانت الأشرعة ترقد في قاع القارب. قطر النوتي القارب تحت مكتب البرج. أخذ في الصباح التالي من ذلك المكان دون علم أي من الضباط. الدفة الآن في مكتب البرج". *Le Dilignce*، الخميس، ٢٦ يونيو[٣].

بعد أن قرأت تلك الملخصات المتنوعة، لم تبدو فقط أن لا صلة لها بالموضوع؛ بل لم أستطع أن أرى فيها أي نمط يمكن تحميل واحد منه على القضية التي بين أيدينا. انتظرت بعض الشروحات من دوبن.

---

(1) New York Courier & Inquirer

(2) New York Evening Post.

(3) New York Standard

قال: "إن هدفي ألا أقف عند الملخصين الأول والثاني من تلك الملخصات. لقد نسختها في الأساس لكي أبين لك فقط إهمال البوليس التام الذي لم يكلف نفسه عناء فحص الضابط البحري المشار إليه بأي شكل بقدر ما فهمت من مدير الشرطة. على صعيد آخر، من السخف ألا نرى صلة ضمنية بين الاختفاء الأول والثاني لماري. دعنا نسلم بأن الفرار الأول انتهى بشجار غرامي بين العاشقين وعودة المخدوعة إلى البيت. نحن مهيأون الآن إلى أن نرى فرارا ثانيًا (إذا علمنا أن فرارا آخر وقع مرة أخرى)، على أنه تجديد من جانب الخائن لعروض التفاهم وليست عروضا جديدة من شخص ثان، نحن مهيأون إلى اعتباره " صلحا" من الحب القديم عوضا عن بداية حب جديد. تبلغ نسبة فرص أن من فر مرة مع ماري سيعرض مرة أخرى عليها الفرار، على أن يكون هناك شخص آخر عرض عليها الفرار من عشرة إلى واحد. دعني ألفت انتباهك إلى حقيقة أن الوقت الذي انقضى بين الفرار الأول المؤكد والثاني المفترض هو أشهر قليلة تزيد على أشهر الفترة العامة لإبحار رجلنا الملاح. هل قطع على العاشق خطته الأولى ضرورة الرحيل إلى البحر، وهل خصص لحظته الأولى من عودته إلى تجديد الخطط الأساسية التي لم تكتمل تماما بعد، أو التي لم يكملها هو تماما ؟ لا نعرف أي شيء عن كل هذه الأمور".

"ستقول، مع ذلك، إن في الحالة الثانية لم يقع فرار كما تصور. بالتأكيد، لكن هل نحن مهيأون أن نقول إنه لا توجد خطة محبطة ما؟

بعيدا عن سانت أوستاش وربما بوفيه، لا نجد خاطبا لماري معترفا به وصريحا وشريفا. ولا نعرف شيئا عن أي أحد آخر. مَنْ هو إذن العاشق السري الذي لا يعرف عنه الأقارب (على الأقل أغلبهم)، والذي تقابله ماري صباح الأحد وتعتبره سرا لم تفض به إلى أحد، ولا تتردد أن تظل معه حتى هبوط المساء، وسط البساتين المهجـــورة في بريبه دو رول؟ من هو هذا الحبيب السري الذي لا يعرفه معظم الأقارب على الأقل؟ وماذا تعني نبوءة مدام روجيه في صباح رحيل ماري: "أخشى أنني لن أراها مرة ثانية؟"

لكن إذا كنا لا نستطيع أن نتصور إلمام مدام روجيه بخطة الفرار، ألا نفترض على الأقل أن الفتاة أضمرت هذه الخطة، عند مغادرتها البيت أوضحت أنها في طريقها إلى زيارة عمتها في شارع دي دروم وطلبت من سانت أوستاش أن يعرج إليها عندما يحل الظلام. والآن، للوهلة الأولى هذه الحقيقة تعمل بقوة ضد اقتراحي، لكن فلنفكر في الأمر. المعلوم أنها التقت برفيق ما وركبت معه عبر النهر ووصلت إلى بريبه دو رول في ساعة متأخرة حوالى الثالثة بعد الظهر. لكن إذا كانت قد قبلت أن ترافق هذا الشخص (لأي هدف، معروف لأمها أو مجهول)؛ فلابد أنها فكرت في نيتها التي قالتها عند مغادرتها البيت؛ وفي الدهشة والشك اللـــذين سيصيبـــان خطيبها سانت أوشتاس عندما يعرج إليها في الساعة المعينة في شارع دي دروم ويكتشف أنها لم تكن هناك، بل علاوة على ذلك؛ سيطلع على

غيابها المستمرعن البيت عندما يعود إلى البنسيون مع هذه المعلومة المنذرة بالخطر. أقول إنها لابد وأن فكرت في هذه الأمور. لابد أنها توقعت تكدر سانت أوستاش وشك الجميع. وقد فكرت في العودة لمواجهة هذا الشك. غير أن الشك يصبح نقطة ذات أهمية تافهة بالنسبة إليها إذا افترضنا أنها لم تنو العودة.

نستطيع أن نتخيل أنها فكرت على النحو التالي: "أنا سأقابل شخصا معينا لكي أفر معه أو لأي شيء آخر معين لا يعرفه غيري. من الضروري ألا أترك أي فرصة تعوق هذا، لابد أن يتوفر وقت كاف لدينا لمراوغة أي ملاحقة ستنشأ لنا؛ سأوضح أنني سأزور عمتي وأقضي اليوم معها في شارع دي دروم، وسأقـول لسـانت أوستاش ألا يعرج إليّ حتى يحل الظلام، بهذه الطريقة، يصبح غيابي عن البيت مبررا لأطول فترة ممكنة بدون أن يسبب شكا أو قلقا، وسأكسب مزيدا من الوقت أكثر من أي طريقة أخرى. إذا رجوت سانت أوستاش أن يعرج إليّ عندما يحل الظلام لن يعرج إليّ قبل هذا، لكن لو أنني تجاهلت كلية أن أرجوه أن يعرج إليّ؛ سيقل وقت هروبي لأنهم سيتوقعون عودتي مبكرا، وسيثيرغيابي القلق بسرعة. الآن لو خطتي هي أن أعود، لو أنني أعتزم التجول مع الشخص الذي أتحدث عنه فحسب؛ فلن تكون سياستي أن أرجو سانت أوستاش أن يعرج إليّ، لأنه لو فعل هذا، سيتحقق فعليا من أنني خدعته، وهي الحقيقة التي يمكن أن أحجبها عنه للأبد بأن أغادر البيت دون أن أعلمه بنيتي العودة قبل أن

يحل الظلام، وبأن أذكر حينها أنني كنت في زيارة لعمتي في شارع دي دروم. لكن بما أن عزمي ألا أعود أبدا، أو لأسابيع، أو ليس قبل أن نختبأ تماما، فإن كسب الوقت هو النقطة الوحيدة التي تعنيني".

لاحظت في ملاحظاتك أن الرأي العام الأغلب فيما يتعلق بهذه القضية المحزنة هو، وكان منذ البداية، أن الفتاة ضحية عصابة من الأوغاد. والآن لا يمكن نبذ الرأي العام في ظل شروط معينة. عندما يعلن عن نفسه بطريقة عفوية تماما، لابد أن ننظر إليه على أنه تطابق مع الحدس الذي يميز الرجل الذكي. سألتزم بقراره في تسع وتسعين قضية من المائة. لكن من المهم ألا نجد آثارا ملموسة للإيحاء، يجب أن يكون الرأي رأي العامة بصرامة، ومن الصعب صعوبة بالغة في الغالب إدراك التمييز بينهما والتحقق منه بالدليل. في الوضع الحالي يبدو لي أن هذا "الرأي العام"، فيما يتعلق بالعصابة، نتيجة الحدث الهامش التفصيلي في الملخص الثالث. اكتشاف جثة ماري أثار كل باريس. فتاة شابة جميلة وشهيرة، وجدت هذه الجثة وهي تحمل علامات على تعرضها للعنف وتطفو فوق النهر. لكن أصبح معروفا الآن أن في الفترة نفسها، أو قريبا من الفترة نفسها، التي يفترض أن الفتاة قتلت في أثنائها، وقع اعتداء وحشي مشابه في طبيعته للذي وقع للمتوفاة، على الرغم من أنه أقل في مداه، ارتكبته عصابة من الشباب الفارين في حق جسد فتاة ثانية. أليس رائعا أن الاعتداء الوحشي المعروف يؤثرعلى حكم العامة على الاعتداء الوحشي الآخر غير

المعروف؟ ينتظر هذا الحكم التوجيه، ويبدو أن الاعتداء الوحشي المعروف يقدمه في الوقت المناسب! عثر على ماري في النهر أيضًا، وفي هذا النهر نفسه ارتكب هذا الاعتداء الوحشي المجهول. إن الصلة بين الحدثين صلة ملموسة بحيث سيغدو من العجيب فعليا إخفاق العامة في تقديرها والقبض عليها. لكن في الحقيقة إن الاعتداء الوحشي، المعروف أنه ارتكب، هو دليل على أن الآخر الذي ارتكب في وقت متزامن تقريبا لم يرتكب هكذا. ستكون معجزة فعليا إذا، أثناء ما كانت عصابة من الفارين ترتكب، في موقع محدد، أكثر الجرائم شناعة، ثمة عصابة أخرى مشابهة، في مكان مشابه، في المدينة نفسها تحت الظروف نفسها، مع الوسائل والتطبيقات نفسها، متورطة في ارتكاب جريمة من النوع نفسه بالضبط، في الفترة الزمنية ذاتها تماما!، إلى ماذا يدعونا هذا الرأي الموحي بالصدفة إلى التصديق، إن لم يكن إلى تصديق هذه السلسلة الرائعة من التزامنات ؟

قبل أن أتقدم قدما، دعنا نفكر في مسرح ارتكاب جريمة القتل المفترض في بورييه دو رول. هذه الأحراش على الرغم من أنها كثيفة كانت في مكان قريب من الطريق العام. تضم ثلاث أو أربع صخور تشكل نوعا من المقعد بمسند للظهر وموطئ للقدمين. عثر على الصخرة العلوية تنورة داخلية نسائية بيضاء، وعلى الثانية وشاح حريري. كما عثر عليها أيضًا على حقيبة وقفازات ومنديل جيب. يحمل المنديل اسم ماري روجيه. وشوهدت قطع ممزقة من الفستان

على فروع أشجار في المكان. كانت الأرض مدهوسة والشجيرات مكسورة وثمة دليل واضح على وقوع صراع عنيف.

بغض النظر عن التهليل الذي استقبلت به الصحافة اكتشاف هذا التحرش، والإجماع الذي به افترض أنه يدل على الموقع الدقيق للاعتداء الوحشي، لابد من الاعتراف أن ثمة سببا ما قويًا يدعو للشك. إن هذا هو مسرح وقوع الجريمة، قد أصدق أو لا أصدق، لكن ثمة سببا ممتازا للشك؛ فلو أن المشهد الحقيقي وقع في المنطقة المجاورة لشارع بافيه سانت أندريه، كما اقترحت الصحيفة، فسيصاب مرتكبو الجريمة، بافتراض أنهم مازالوا في باريس، بالرعب من الانتباه العام الذي توجه بذكاء إلى الفتاة المناسبة. وسينبثق على الفور في فئات عقلية معينة إحساس بضرورة بذل بعض المجهود لإعادة تشتيت هذا الانتباه. وبهذا بما أنه تم الشك بالفعل في أحراش بورييه دو رول، لابد أنهم أضمروا فكرة وضع الأشياء حيث تم العثور عليها. لا يوجد دليل حقيقي، على الرغم من أن الصحيفة تفترض أن الأشياء التي تم العثور عليها كانت في الأحراش مدة تتجاوز أياما قليلة، في حين أن هناك دليلا ظرفيا يشير إلى أنه لا يمكن أن تظل هناك بدون أن تلفت الانتباه خلال العشرين يوما التي انقضت بين الأحد المشؤوم وبعد الظهيرة والتي وجد فيها الأولاد هذه الأشياء. تقول الصحيفة متبنية آراء أسلافها: "تعفنت كلها بسبب الأمطار والتصقت ببعضها البعض من العفن. نمت الأعشاب حول بعض منها وفوقها. كان الحرير الذي

صنعت منه المظلة قويا غير أن خيوطه انسلت كلها إلى الداخل. تعفن الجزء العلوي الذي يطوي ويثنى وتعطن، وتمزق عند محاولة فتحه". فيما يتعلق بـــ "نمت الأعشاب حول بعض منها وفوقها"، من الواضح أنه يمكن التحقق من هذه المعلومة فقط من كلمات الأولاد الصغار ومن التقاطهم لها؛ لأن هؤلاء الأولاد أزالوا الأشياء وأخذوها إلى البيت قبل أن يراهم طرف ثالث. لكن الأعشاب تنمو خاصة في الجو الدافئ والمعتم (مثل فترة القتل) بقدر إنشين أو ثلاثة إنشات في اليوم الواحد. إن مظلة ملقاة على تربة معشوشبة حديثا قد تختفي تماما في أسبوع واحد عن الرؤية بالأعشاب النامية. وبالنسبة لهذا التعفن الذي يصر عليه محرر الصحيفة إصرارا عنيدا، إلى حد أنه استخدم الكلمة ما لا يقل عن ثلاث مرات في فقرة مختصرة، فهل حقا لا يعلم طبيعة هذا العفن؟ هل يجب أن يخبره شخص ما أنه واحد من أنواع عديدة من الفطريات من أكثر خصائصه العادية أن ينمو ويتدهور في أربع وعشرين ساعة؟

هكذا نرى من نظرة واحدة أن ما استدل عليه بانتصار باعتباره تعزيزا لفكرة أن الأشياء كانت موجودة لثلاثة أو أربعة أسابيع على الأقل في الأحراش، هو دليل عقيم عقما سخيفا في علاقته بأي برهان على الحقيقة. من ناحية أخرى، من الصعب صعوبة بالغة أن نصدق أن هذه الأشياء يمكن أن تبقى في الأحراش المعنية لفترة أطول من أسبوع واحد، أى لفترة أطول من يوم الأحد إلى الأحد التالي. إن

الأشخاص الذين لديهم أي فكرة عن المناطق المجاورة لمدينة باريس يعرفون الصعوبة الشديدة في إيجاد مكان منعزل إلا على مسافة كبيرة من ضواحيها. فلا يمكن تصور للحظة واحدة أن معتزلا ما وسط غاباتها أو بساتينها لم يتم اكتشافه أو حتى لم تتم زيارته تكرارا. فلنتخيل أي شخص، عاشقا للطبيعة في أعماقه، لكن العمل يقيده إلى تراب هذه المدينة العظيمة وحرارتها، فلنتخيل شخصا مثل هذا يحاول، حتى خلال أيام الأسبوع، أن يروي عطشه للعزلة وسط مشاهد الجمال الطبيعي الذي يحيط بنا مباشرة. مع كل خطوة يخطوها، سيجد أصوات بعض الأشخاص الهمجية وتطفلها، أو جماعة من الأوغاد الذين يحتفلون احتفالا صاخبا وفي حالة سكر تبدد الفتنة. وعبثا سوف يتلمس الخصوصية بين أكثف النباتات. ففيما بينها- بين الأماكن المعزولة نفسها التي تزخر بالرعاع- في وسطها، توجد المعابد الأكثر انتهاكا. سيفر المتجول مغموما عائدا إلى باريس الملوثة بما أنه يفر إلى مكان أقل قبحا لأنها لا تحمل ذلك التناقض. فإذا كانت أماكن المدينة مرصعة بهذا الشكل خلال أيام الأسبوع، فإلى أي مدى تزيد على ذلك أيام الأحد! ففي تلك الأيام، خاصة، يلجأ أوغاد المدينة إلى ضواحيها- محررين من مزاعم العمل أو محرومين من الفرص الاعتيادية لارتكاب الجريمة- ليس بسبب حب الريف الذي يمقتونه في أعماقهم، بل باعتباره وسيلة هروب من قيود المجتمع وأعرافه؛ فهم يرغبون في الإجازة الواضحة للريف أكثر من الهواء الطلق والأشجار الخضراء.

ففي حانات الطريق أو تحت أوراق نباتات الغابات، ينغمسون في الجنون المفرط لقصف زائف، بدون عيون تراقبهم سوى عيون رفاقهم المرحين؛ ينغمسون في الثمرة الناتجة عن اقتران الحرية والشراب المسكر (الرم). إنني لا أقول أكثر مما يبدو واضحا بالضرورة لأي مراقب هادئ، حين أكرر أن واقعة أن تظل الأشياء التي نتكلم عنها غير مكتشفة لفترة أطول من أحد إلى أحد تال له في أي دغل في المناطق المجاورة لباريس هو أمر لا يقل عن المعجزة.

لكن الشك بأن هذه الأشياء تم وضعها في الدغل بغرض تشتيت الانتباه عن مسرح وقوع الاعتداء العنيف لا يعوزه خلفيات. ودعني أولا، أوجه انتباهك إلى تاريخ اكتشاف الأشياء. قارن هذا مع تاريخ الملخص الخامس الذي استخلصته بنفسي من الصحف. ستجد أن الاكتشاف تال، تقريبا مباشرة، للرسائل العاجلة التي أرسلت إلى الصحيفة المسائية. هذه الرسائل، على الرغم من أنها متنوعة ومن مصادر مختلفة ظاهريا تميل جميعها إلى النقطة نفسها، أي توجيه الانتباه إلى عصابة ما على أنها هي التي ارتكبت الاعتداء الوحشي، وإلى المنطقة المجاورة لبرييه دو رول على أنها مسرح وقوعها. وبصدد هذه النقطة، لم يكن الوضع بالطبع، إن الأولاد عثروا على هذه الأشياء باعتبارها نتيجة لاحقة لهذه الرسائل أو على الانتباه العام الذي وجهته هذه الرسائل، لكن لعل الشك ثار ويثور في أن الأولاد لم يعثروا من قبل على الأشياء لأنها لم تكن موجودة من قبل في الدغل،

بما أنها وضعت هناك فقط في فترة متأخرة جدا أى فى تاريخ إرسال الـــرسائـــل أو قبلهـــا بفتـــرة قصيرة من قبل باعثي هذه الرسائل المذنبين أنفسهم.

هذا الدغل فريد- دغل فريد للغاية؛ فهو كثيف كثافة غير اعتيادية، بداخل سياجه الطبيعي ثلاثة أحجار استثنائية، تشكل مقعدا بمسند للظهر وموطئ للقدمين. وهذا الدغل، الغني بالفن، يقع في المنطقة المجاورة المباشرة لمكان سكن مدام ديلوك، ضمن عدة قصبات (٥,٥ ياردة)، حيث اعتاد الأولاد على فحص الجنبات والشجيرات التي تحيط بهم بحثا عن لحاء الساسافراس[١]. فهل سأبدو متعجلا إذا راهنت - رهانا من ألف إلى واحد - أنه لا يمر يوم على رؤوس هؤلاء الأولاد دون أن يختبئ على الأقل واحد منهم في قاعته الظليلة ويجلس على عرشها؟ إن الأشخاص الذين سوف يترددون في قبول مثل هذا الرهان، إما أنهم لم يكونوا أولادا أو نسوا طبيعة الصبيانية. أكرر من الصعب صعوبة بالغة فهم كيف يمكن أن تظل هذه الأشياء في هذا الدغل بدون أن يكتشفها أحد لفترة أطول من يوم أو يومين. وعليه هناك أساس جيد للشك، بغض النظر عن الجهل المتزمت للصحيفة، بأنها قد وضعت حيث وجدت في تاريخ متأخر نسبيا.

---

(١) شجر أمريكي من الفصيلة الغارية.

لكن تظل هناك أسباب أخرى وأقول للتصديق إنها-وضعت أكثر من أي سبب فندته حتى الآن. والآن دعني أتلمس انتباهك للترتيب الصناعي بالغ الاصطناع للأشياء. على الحجر الأعلى تنورة نسائية تحتانية، وعلى الثاني، وشاح حريري، ومتناثر حولهما مظلة وقفازات ومنديل جيب يحمل اسم ماري روجيه. هنا بالضبط ترتيب كأنه طبيعي قام به شخص ليس حاد الذكاء يرغب في أن يضع الأشياء بشكل طبيعي. لكنه ليس ترتيبا طبيعيا حقيقيا أبدا. كان يجب بالأحرى أن أنظر لأرى الأشياء مطروحة على الأرض ومدهوسة بفعل الأقدام. في الحدود الضيقة لهذه التعريشة، مستحيل أن تظل التنورة والوشاح في موضع ما فوق الأحجار؛ في حين أنها تعرضت لمناوشات أشخاص متصارعة عديدة. قيل "هناك دليل على صراع ما، والأرض تحمل آثار أقدام، والشجيرات مكسورة"، غير أنهم وجدوا التنورة والوشاح كأنهما موضوعان فوق الرف.

"قطع الفستان التي مزقتها الأحراش كان عرضها ثلاثة إنشات وطولها ستة إنشات. قطعة منها كانت حاشية الفستان وقد رتقت. بدت شرائط ممزقة على عجل"، استخدمت الصحيفة بدون قصد جملة مشبوهة للغاية. إن القطع، كما وصفت تبدو فعليا مثل شرائط ممزقة. لكن عن عمد وباليد. من أندر الحوادث أن تمزق قطعة من أي قماش مثل التي نتحدث عنها الآن بقوة شوكة نباتية. فبسبب طبيعة هذه الأقمشة، عندما تشتبك بها شوكة من أشواك النبات أو مسمار ما

يمزقها على شكل مستطيلي، يقسمها إلى شقين طوليين متصلين بزاوية قائمة مع بعضهما البعض ويتقابلان عند القمة التي دخلت منها الشوكة، غير أنه من النادر أن ترى القطعة "الممزقة على عجل". لم أعرفها أبدا هكذا ولا أنت أيضًا. فلكي تمزق قطعة من قماش على عجل مثل هذا ستحتاج إلى قوتين متباعدتين في اتجاهين مختلفين في كل الحالات تقريبا. فإذا كان للقماش حافتان- منديل جيب على سبيل المثال- ونرغب في قطع شريطة منه حينئذ، وحينئذ فقط، قوة واحدة تخدم الغرض. لكن في الحالة الحالية، فستانا لا يحتوي إلا حافة واحدة. ولكي تمزق قطعة من داخله، حيث لا توجد حافة، يمكن فقط أن يتم بمعجزة بقوة شوكتين ولا يمكن أن تتجزه شوكة واحدة. لكن حتى لو أن هناك حافة سيكون المطلوب شوكتان تعمل إحداهما في اتجاه والأخرى في الاتجاه المقابل. وهذا مع افتراض أن له حافة لا حاشية. فلو أن له حاشية فالمسألة مستحيلة تقريبا. هكذا نرى العقبات العديدة والكبيرة أمام أن تصبح القطع "ممزقة على عجل" بالقوة البسيطة لأشواك النباتات. إلا أننا مطالبون بأن نصدق ليس فقط بأن قطعة واحدة بل عدة قطع مزقت. وأن "قطعة واحدة" أيضًا "كانت حاشية الفستان" وقطعة أخرى كانت "جزءا من تنورة الفستان، وليست قطعة من الحاشية" أي أنها نزعت تماما، بقوة الأشواك، من داخل الفستان الذي بلا حافة، أقول إن الإنسان الذي لن يصدقها له العذر تماما. لكن إجمالا، لعلها تشكل خلفية منطقية للشك أقل أهمية من التفصيلة

المفزعة بأن القتلة الذين يملكون من الحيطة القدر الذي جعلهم يفكرون في إزالة الجثة قد تركوا الأشياء في هذا الدغل. مع ذلك، إذا كنت قد افترضت أن هدفي هو أن أنفي أن هذا الدغل هو مسرح وقوع الاعتداء الوحشي فلن تكون قد فهمتني على الوجه الصحيح. لعل خطأ ما وقع هنا أو الأرجح حادثا ما وقع عند مدام دلوك. لكن في الحقيقة هذه نقطة ذات أهمية صغرى. نحن لم ننخرط في هذا العمل لاكتشاف مسرح وقوع الجريمة بل للتوصل إلى مرتكبي الجريمة. إن ما أوردته، بغض النظرعن الدقة التي قدمتها، كان بقصد، أولا، أن أبين حماقة التأكيدات التامة والطائشة للصحيفة، لكن ثانيا وأساسا، لكي أجعلك تفكر بالسبيل الطبيعي أكثر في الشك الذي طرحته ما إذا كان هذا الاغتيال عمل عصابة أم لا".

سنتابع هذه المسألة بالإشارة فحسب إلى التفاصيل المثيرة للاشمئزاز للجرّاح الذي استجوب أثناء التحقيقات. الجدير بالذكر فقط أن استنتاجاته المنشورة فيما يتعلق بعدد الأشخاص الوحشية قد سخر منها أطباء التشريح المشهورون في باريس باعتبارها غير صحيحة وبلا أساس تماما. إن المسألة لا تتعلق بعدم إمكانية استنتاج العدد، بل لا يوجد أساس لهذا الاستنتاج، ألم يكن هناك متسع لآخرين؟

دعنا نفكر في "آثار الصراع" ودعني أسألك ما المفترض أن تدل عليه هذه الآثار؟ عصابة. ألا تدل بالأحرى على عدم وجود عصابة؟ أي صراع يمكن أن يحدث- أي صراع عنيف بهذا الشكل ويمكن

احتماله على هذا النحو بحيث يترك "آثاره" في كل الاتجاهات- بين فتاة ضعيفة أعزل وعصابة من الأشخاص الوحشية؟ قبضة صامتة من بعض الأذرع الخشنة وينتهي كل شيء. لابد أن الضحية كانت طوع إرادتهم تماما. تذكر هنا أن الحجج التي قدمتها ضد الدغل على أنه مسرح الجريمة تنطبق، في الجزء الأساسي منها، ضده على أنه مسرح لاعتداء وحشي ارتكبه أكثر من شخص واحد. إذا تصورنا معتديًا واحدا فقط يمكن أن نفهم، ونفهم هكذا فقط، صراعا ذا طبيعة عنيفة وعنيدة على هذا النحو بحيث يترك "آثارا" ظاهرة.

ومرة أخرى، لقد ذكرت بالفعل الشك الذي تثيره حقيقة أن الأشياء المعنية قد تركت في الدغل الذي تم العثورعليها فيه. يبدو مستحيلا، تقريبا، أن هذه الأدلة قد تركت، بالصدفة، في المكان الذي عثر عليها فيه. نرى تركيزا كافيًا (من المفترض توفره) لإزالة الجثة، ومع هذا ترك مطروحا بوضوح في مسرح الاعتداء الوحشي دليل أكثر إيجابية من الجثة نفسها (التي تشوهت ملامحها سريعا بفعل التحلل) - إنني أشير إلى منديل الجيب الذي يحمل اسم القتيلة. فلو أن هذا صدفة، فليس صدفة من عصابة. ليس بوسعنا إلا تصور أنه صدفة من شخص واحد. فلنرى، شخصا ارتكب جريمة وحيدا مع شبح الراحلة، مرعوبا بسبب ما يرقد بلاحركة أمامه. ثورة غضبه انتهت، وهناك غرفة شاغرة في قلبه للرهبة الطبيعية الناجمة عن الفعل. ثقته ليست تلك الثقة التي يخلقها وجود عدد من الأشخاص حتميا. هو وحيد

مع القتيلة. يرتعش ومرتبك. إلا أنه من الضروري التخلص من الجثة. يحملها إلى النهر ويترك خلفه الأدلة الأخرى على جرمه؛ لأنه من الصعب، إن لم يكن مستحيلا، أن يحمل كل هذا الحمل مرة واحدة، وسيكون أسهل عليه أن يعود إلى ما تركه. لكن في رحلته الشاقة إلى المياه تتضاعف مخاوفه بداخله. يحاصره صوت الحياة. يسمع أو يتخيل أنه يسمع عشرات المرات خطوة مراقب ما، بل حتى أضواء المدينة تربكه. إلا أنه عاجلاِ أو آجلا، وبعد وقفات طويلة ومتكررة بسبب الكرب العميق يصل إلى ضفة النهر ويتخلص من حمله المخيف، ربما بواسطة قارب. لكن في هذه اللحظة أي كنز يقتنيه العالم له- أي تهديد بالانتقام يقدمه- أي قوة ستحث هذا القاتل الوحيد على العودة عبر ذلك الطريق الشاق والمحفوف بالمخاطر إلى الدغل ومجموعته الملوثة بالدماء؟ لا يعود ولتكن العواقب ما تكن. لا يستطيع العودة إذا أراد. فكرته الوحيدة هى الهروب الفوري. يدير ظهره للأبد إلى تلك الأجمة والشجيرات المرعبة، ويفر كأنه يفر من حلول عقاب إلهي.

لكن كيف يكون الحال مع عصابة؟ سيثير عددهم الثقة فيهم، لو أن الثقة فعلا تنقص فى صدور أوغاد متشردين بكل ما في الكلمة من معنى، والعصابات المفترضة تتشكل دوما من الأوغاد الحقيقيين فقط. أقول إن عددهم سيمنع عنهم الرعب المحير وغير العقلاني الذي أتصور أنه يشل الإنسان الوحيد. هل نفترض سهوا يرتكبه واحد منهم

أو اثنان أو ثلاثة- هذا الخطأ سيعالجه الرابع. لن يتركوا أي شيء خلفهم أو سيسمح لهم عددهم أن يحملوا كل شيء مرة واحدة. لن يحتاجوا إلى العودة.

فكر الآن في تفصيلة أن في فستان الجثة عندما تم العثور عليها "شقا، عرضه قدم، مزق للأعلى من الحاشية السفلى إلى وسطه، ملفوفا ثلاث مرات حول الخصر ومؤمنا بعقدة ما في الظهر". تم هذا بغرض واضح هو تزويد مقبض لحمل الجسد به. لكن هل سيلجأ أي عدد من الرجال لوسيلة كهذه؟ بالنسبة لثلاثة أو أربعة رجال لن تمثل أطراف الجسد حملا كافيا بل أفضل احتمالية لحمله. هذه حيلة فرد واحد، وهذا يجلبنا إلى حقيقة أن "في الطريق بين الأجمة والنهر، كان السياج مزالا، وحملت الأرض آثارا على أن حملا ما ثقيلا سحب بطوله!" لكن هل سيكلف عدد من الرجال أنفسهم مشقة قطع سياج بهدف سحب جثة عبره في حين أنه يمكنهم رفعها فوق أي سياج في لحظة؟ هل سيسحب عدد من الرجال جثة بحيث يتركوا آثارا واضحة على السحب؟

وهنا يجب أن نشير إلى ملاحظة من *Le Commercial*- ملاحظة علقت عليها بدرجة ما فعليا. تقول الصحيفة: " قطعة من التنورة الداخلية للفتاة سيئة الحظ مزعت وربطت تحت ذقنها إلى رأسها من الخلف، لمنع صراخها على الأرجح. إن مـن فعـل هـذا رجالا لا يملكون مناديل جيب".

"لقد اقترحت من قبل أن المجرم الأصيل لا يكون أبدا بدون منديل. لكنني لا أشير إلى هذه الحقيقة الآن على وجه الخصوص. إن المنديل المتروك في الدغل يجعل من الواضح أن هذه القطعة لم تستخدم لهذا الغرض بسبب العوز إلى منديل كما تصورت الصحيفة، ويتضح أيضا أن الهدف لم يكن "منع صراخها" من أن القطعة قد استخدمت في خيار أفضل بكثير يلبى الغرض منها. لكن لغة الدليل تتحدث عن القطعة المعنية باعتبارها "حول الرقبة، فضفاضة، ومؤمنة بعقدة صعبة". هذه الكلمات غامضة تماما لكنها تختلف اختلافا كبيرا عن كلمات الصحيفة. إن عرض القطعة ثمانية عشر إنشا، وبالتالي، على الرغم من أنها من الكتان الناعم، سوف تشكل عصابة قوية عند طيها أو تجعيدها طوليا. وهكذا وجدت عندما تم العثور عليها. إن استنتاجي هو التالي: إن القاتل الوحيد، بعد أن حمل الجثة مسافة معينة (سواء من الدغل أو من مكان آخر) بواسطة العصابة المربوطة حول خصرها - وجد بسبب هذه الطريقة - الوزن كبيرا على قوته؛ فتوصل إلى أن يجر الحمل، ينحى الدليل إلى إظهار أنه سحب. أصبح من الضروري مع هذا الهدف أن يصل شيء ما مثل الحبل لطرف من أطراف الجثة. ومن الأفضل إيصاله بالرقبة حيث سيمنع الرأس انزلاقه. وبلا شك فكر القاتل الآن في العصابة حول الخصر. كان ليستخدمها لولا التفافها حول الجسد والعقدة التي تربطها، وتفكيره بأنها لن " تنزع عن عجل" من الثوب. كان أسهل أن يمزق قطعة جديدة من

التنورة الداخلية. مزقها وعقدها بسرعة حول الرقبة وسحب ضحيته إلى ضفة النهر بهذه الطريقة. حقيقة أن هذه "العصابة"، التي صنعت فقط بمشقة وفي فترة متأخرة، وتحقق الغرض منها تحقيقا غير كامل، حقيقة أن هذه العصابة استخدمت بأي حال تبين أن ضرورة استخدامها نبعت من ظروف ظهرت في فترة لم يعد المنديل متاحا، بمعنى أنها ظهرت كما تصورنا بعد ترك الدغل (لو كان الدغل هو المكان) وفي الطريق بين الدغل والنهر.

لكن ستقول يشير دليل مدام دلوك (!) خاصة إلى وجود عصابة في الدغل أثناء فترة القتل أو نحوها. هذا أؤكده. أشك في أنه لا يوجد عشرات العصابات مثل التي وصفتها مدام دلوك في بريبه دو رول وحولها، أثناء فترة وقوع هذه المأساة أو نحوها. لكن على الرغم من دليل مدام دلوك المشبوه والمتأخر، فالعصابة التي جذبت الانتقادات المعادية الحادة لها هي العصابة الوحيدة التي صورتها السيدة العجوز الصادقة والشكاكة بينما يأكلون كعكها ويزدرون كؤوسهم من البراندي، بدون أن يكلفوا أنفسهم عناء دفع أجرتها. لهذا السبب ثورتها؟

لكن ما هو الدليل المحدد لمدام دلوك؟ "ظهرت عصابة من الأوغاد تصرفت بصخب وشربت وأكلت بدون أن تدفع، وتابعت طريق الرجل الشاب والفتاة وعادت إلى النزل نحو الغروب وعبرت النهر في عجلة".

الآن "هذه العجلة الكبيرة بدت على الأرجح عجلة أكبر في عيني مدام دلوك، بما أنها سكنت متمهلة ونائحة إلى كعكها المنتهك وشرابها- كعك وبيرة- لم لا تزال تضمر فيهما أملا ما ضعيفا من التعويض من ناحية أخرى لم أشارت إلى العجلة والوقت كان نحو الغروب؟ بالتأكيد لا يثير التعجب أن تتعجل عصابة من الأوغاد في الوصول إلى البيت حين يجب عبور نهر عريض في قوارب صغيرة، وحين تكون هناك عاصفة على وشك الهبوب، وحين يقترب الليل.

أقول يقترب الليل؛ لأن الليل لم يكن قد حل بعد. كان نحو الغروب أن أزعجت العجلة الوقحة لهؤلاء "الأوغاد" العينين الرزينتين لمدام دلوك. لكن قيل لنا إن في هذا المساء نفسه سمعت مدام دلوك وابنها الأكبر صرخات أنثوية في المنطقة المجاورة للنزل، وبأي كلمات حددت مدام دلوك فترة المساء التي سمعت في أثنائها هذه الصرخات؟ تقول: "بعد الظلام مباشرة". لكن "بعد الظلام مباشرة" هو الظلام على الأقل، و"نحو الغروب" هو بالتأكيد النهار. وهكذا من الواضح تماما أن العصابة تركت برييه دو رول في فترة تسبق الصرخات التي سمعتها، وعلى الرغم من أنه في عدة تقارير عن الدليل، استخدمت هذه التعابير استخداما واضحا وثابتا كما استخدمتها في هذه المحادثة معك، لم تلاحظ صحيفة من الصحف العامة أو أي تابع وفي من أفراد الشرطة التناقض الفظيع الذي تنطوي عليه.

لن أضيف إلا حجة واحدة إلى الحجج الموجهة ضد احتمال وجود عصابة، لكن هذه الحجة الواحدة، بالنسبة لفهمي على الأقل، لها ثقل لايقاوم كلية. تحت ظروف المكافأة الضخمة المقدمة والعفو الكامل لأي دليل ملكي، لا يمكن تصور للحظة أن أي عضو في عصابة من أوغاد دنيئة أو في أي مجموعة من الرجال لم يخن فعليا بعد رفاقه منذ فترة طويلة مضت. كل فرد في عصابة، بسبب وضعه هذا، لا يطمع كثيرا في المكافأة أو يتوق إلى الهروب بقدر ما يخشى الخيانة. فهو يخون مبكرا وبلهفة حتى لا تتم خيانته هو نفسه. حقيقة أن هناك سرا لم يفش هو أفضل برهان على أنه في الحقيقة سر. إن أهوال هذا الصنيع لايعرفه إلا واحد أو اثنان من البشر الأحياء والله.

لنلخص الآن الثمار الهزيلة لكن الأكيدة عن تحليلنا الطويل. لقد توصلنا إلى فكرة أن الحادث إما أنه حادث مميت تحت سقف مدام دلوك أو جريمة ارتكبت في دغل بورييه دو رول من قبل عاشق أو على الأقل صديق حميمي وسري للراحلة. هذا الصديق ذو بشرة داكنة. هذه البشرة و"العقدة" في العصابة و"عقدة البحار" التي ربطت بها شرائط القلنسوة تشير إلى بحار. إن صحبته مع الراحلة، فتاة مرحة لكنها ليست شابة عابثة؛ تدل على أنه أعلى درجة من بحار عادي. تعزز الرسائل جيدة الكتابة الملحة إلى الصحف كثيرا هذا الاستنتاج. إن ظروف الفرار الأول، كما ذكرته *Le Mercurie*، تميل إلى مزج

فكرة هذا البحار مع فكرة " الضابط البحري" الذي عرف في البداية أنه قاد سيئة الحظ إلى الجريمة.

ويأتي هنا اعتبار الغياب المتواصل له صاحب البشرة الداكنة. دعني أتوقف لأقول إن بشرة هذا الرجل سمراء وداكنة، لم تكن دكنة عادية هي التي شكلت نقطة التذكر الوحيدة، كما لاحظ كل من فالنس ومدام دلوك. لكن لماذا هذا الرجل غائب؟ هل قتلته العصابة. فإذا كان، لم لم نجد فقط إلا آثار الفتاة المقتولة؟ سيتطابق بديهيا مسرح الاعتداءين الوحشيين. وأين الجثة؟ على الأرجح سيتخلص القتلة من كليهما بالطريقة نفسها. لكن قد يقال إن هذا الرجل حي ويمنعه الخوف من أن يتهم بارتكاب الجريمة أن يعلن عن نفسه. قد ينطبق هذا الاعتبار عليه الآن؛ في هذه الفترة المتأخرة، منذ أن كان هناك دليل على أنه شوهد مع ماري، لكن لن يكون له أي قوة في فترة ارتكاب الجريمة. فالفعل الأول لرجل بريء هو أن يبلّغ عن الاعتداء وأن يساعد في التعرف على المجرمين. لابد أن هذه السياسة وردت على خاطره. لقد شوهد مع الفتاة. لقد عبر النهر معها في معدية. إن الإبلاغ عن القتلة سيبدو حتى للأحمق الوسيلة الأكيدة والوحيدة على تبرئة نفسه من الشك. كما لا يمكن أن نفترض أنه في ليلة الأحد المشؤومة هو نفسه بريء ولا علم له بالجريمة التي ارتكبت. ومع ذلك، في ظل هذه الملابسات فقط، من الممكن أن نتصور أنه عجز، لو أنه حي، عن الإبلاغ عن القتلة.

وما هي الوسائل التي نملكها لبلوغ الحقيقة؟ سنجد أن هذه الوسائل تتضاعف وتتجمع ببروز وجلاء أثناء تقدمنا. دعنا ننخل مسألة الفرار الأول. دعنا نعرف تاريخ "الضابط" الكامل بظروفه الحالية والأماكن التي ذهب إليها في فترة وقوع جريمة القتل. دعنا نقارن الرسائل المختلفة التي أرسلت إلى الصحيفة المسائية مع بعضها البعض التي كان هدفها إلقاء التهمة على عصابة ما. وبعد أن نقوم بهذا دعنا نقارن هذه الرسائل في أسلوبها وطباعتها مع تلك التي أرسلت إلى الصحيفة الصباحية على فترات مختلفة وتصر بحمية على لصق التهمة بميناس. وبعد أن نقوم بكل هذا، دعنا نقارن مرة أخرى هذه الرسائل المختلفة مع مخطوطات الضابط المعروفة. دعنا نسعى إلى التحقق بإعادة استجواب مدام دلوك وأولادها إلى جانب سائق الباص وفانس عن أمور أكثر عن هيئة ومشية ووقفة وجلسة الرجل ذي البشرة الداكنة. إن الاستجوابات الموجهة بمهارة لن تفشل في استخراج من بعض هؤلاء الأطراف معلومات عن هذه النقطة الخاصة (أو عن أخرى)، معلومات لا يعي هؤلاء الأطراف أنفسهم أنهم يملكونها. ودعنا الآن نقتفي أثر القارب الذي التقطه النوتي في صباح الاثنين الثالث والعشرين من يونيو، والذي نقل من مكتب البرج بدون أن يعلم الضابط المناوب وبدون الدفة في فترة تسبق اكتشاف الجثة. سنقتفي أثر هذا القارب باستخدام الحذر المناسب والكتمان ليس فقط لأن النوتي الذي التقطه سيتعرف عليه بل لأن الدفة في متناول أيدينا. لا يمكن التخلي عن دفة قارب بحري بدون أن يبحث عنها شخص لا يخلو قلبه من الهم تماما.

وهنا دعني أتوقف لأدس سؤالا. لا توجد إعلانات عن التقاط القارب، لقد أخذ بصمت إلى مكتب البرج وأزيل بالصمت نفسه. فكيف علم مالكه أو مستخدمه في فترة باكرة جدا مثل يوم الثلاثاء بدون إعلان عن موقع القارب المأخوذ يوم الاثنين إلا إذا تصورنا وجود صلة ما شخصية دائمة مع البحرية أدت إلى أن يعلم بشؤونها الدقيقة وأخبارها المحلية الصغيرة؟

وفي سياق حديثي عن القاتل الوحيد الذي جر حمله إلى الشاطئ، اقترحت فعليا احتمالية أن يكون قد استخدم قاربًا. نحن نفهم الآن أن ماري روجيه ألقيت من قارب؛ وهو الأمر البديهي؛ فلا يمكن الثقة في أن تبتلع مياه الشاطئ الضحلة الجثة. والعلامات المميزة على ظهر الضحية وكتفيها تدل على آثار الأضلاع السفلى للقارب. وحقيقة أن الجثة عثر عليها بدون أثقال يعزز الفكرة؛ فلو أنها ألقيت من شاطئ كان ليربطها بالأثقال. نستطيع أن نفسر غيابها بافتراض أن القاتل تجاهل حيطة أن يمد نفسه به قبل دفعها. وأثناء إلقاء الجثة إلى المياه سيلاحظ بلاشك خطأه، لكن ليس في متناول يده حينئذ وسيلة يصلحه بها. فما هي أفضلية المخاطرة بالعودة إلى ذلك الشاطئ الملعون؟ وبعد أن تخلص من حمله المرعب، سيسارع القاتل بالذهاب إلى المدينة. وحينها، عند رصيف ما معتم سيقفز إلى البر. لكن القارب، هل سيؤمنه؟ سيكون في عجلة كبيرة لكي يفكر في أشياء مثل هذه؛ باعتبارها تأمينًا للقارب. علاوة على ذلك، إذا ثبته إلى الرصيف

سيشعر أنه يؤمن دليلا ضد نفسه. تفكيره البديهي سيكون أن يلقي منه بقدر الإمكان كل ما يحمل صلة بجريمته. لم يكن ليفر فقط بعيدا عن الرصيف بل لن يسمح للقارب أن يظل، بالتأكيد سيطلقه في النهر. فلنتابع تصوراتنا. في الصباح سيصاب الخسيس برعب عندما يجد أن القارب قد التقط وحجز في موقع يتردد عليه يوميا، في موقع ربما يجبره عمله على أن يتردد عليه. في الليلة التالية، بدون أن يجرؤ على أن يسأل عن الدفة، يزيله. الآن، أين هذا القارب الذي بلا دفة؟ فليكن أول أهدافنا أن نعرف. مع أول لمحة له سيبدأ فجر نجاحنا. هذا القارب سيقودنا بسرعة –سنندهش منها حتى نحن– إليه، ذاك الذي استخدمه في منتصف ليلة الأحد المشؤوم. وسيظهر برهان إضافي بناء على برهاني، وسنقتفي أثر القاتل.

لأسباب لن نذكرها لكن ستبدو واضحة للعديد من القراء سمحنا لأنفسنا بإزالة قسم كبير بما أنه يسرد تفصيليا متابعة المفتاح الضئيل الذي توصل إليه دوبن لحل اللغز من المخطوطة التي بين أيدينا. نرى أن من الأفضل أن نذكر باختصار أن النتيجة المرغوبة حدثت وأن مدير الشرطة أوفي بدقة شديدة وإن بنفور شروط اتفاقه مع النبيل الفرنسي. تنتهي مقالة السيد (بو) بالكلمات التالية. المحرر[١]

---

(١) عن المجلة التي نشر بها المقال في الأصل.

سيدرك القارئ أنني أتحدث عن التزامنات ليس أكثر. وما ذكرته في البداية عن هذه النقطة كاف. في قلبي يسكن عدم إيمان بما فوق الطبيعة. لن ينكر أي إنسان يفكر أن تلك الطبيعة وخالقها الله هما اثنان. حقيقة أن الله خالقها يستطيع بإرادته أن يسيطر عليها أو أن يعدلها هي حقيقة لا شك فيها أيضًا. أقول "بإرادته"، لأن القضية هي قضية إرادة وليست كما افترض جنون المنطق أنها قضية قوة. ولا يعني هذا أن الله لا يستطيع تعديل قوانينه، بل إننا نهينه عندما نتصور ضرورة محتملة للتعديل. إن هذه القوانين في أصلها مصممة لتطوق كل الاحتمالات التي ينطوي عليها المستقبل. فمع الله كل شيء هو الآن.

أكرر إذن أنني أتحدث عن هذه الأشياء فقط باعتبارها تزامنات. كما يتضح أيضًا فيما حكيته تواز بين مصير ماري سيسليا روجرز بقدر ما وصل إلى معرفتنا ومصير ماري روجيه حتى فترة معينة من قصتها، تواز يصبح العقل في تأمله له محرجا بسبب دقته الرائعة. أقول إن القراء سيدركون كل هذا، لكن لايجوز أن يفترض القارئ أن هدفي الخفي من مواصلة الحكاية الحزينة لماري من الفترة المذكورة ومن تتبع حل اللغز الذي أحاطها هـو أن ألمـح إلى نطاق التوازي، أو أن أوحي حتى بأن المقاييس المتبعة في باريس لاكتشاف قاتل الفتاة الفرنسية العاملة أو المقاييس التي يمكن أن تتوفر في أي استدلال مشابه ستنتج أي نتيجة مشابهة.

ففيما يتعلق بالفرع الأخير من الافتراض يجب أن نأخذ في اعتبارنا أن أتفه اختلاف في حقائق القضيتين قد يولد خطأ في التقدير أو الحساب مهمًا، وذلك بتحويل مساري الأحداث تماما. يماثل هذا كثيرا ما يحدث في علم الحساب؛ فخطأً ما أصغر من أن يرى، هذا الخطأ عبر مسحة من عمليات الضرب في كل مراحل العملية الحسابية يولد في النهاية نتيجة تختلف اختلافا شاسعا عن النتيجة الحقيقية. أما فيما يتعلق بالفرع الأول من الافتراض فلا يجب أن نغفل عن وضع نصب أعيننا أن حساب الاحتمالات ذاته الذي أشرت إليه يحظر أي فكرة عن نطاق التوازي، يحظرها بيقينية قوية وحسم يتناسبان طرديا مع حقيقة أن هذا التوازي قد استمر فعليا زمنا طويلا ويتسم بالدقة. هذا افتراض من تلك الافتراضات الشاذة التي يستحسنها، على ما يبدو، التفكير البعيد تماما عن الرياضيات، إلا أنه الافتراض الذي سوف يفكر به الرياضي فقط. لا يوجد أصعب من إقناع القارئ العادي بحقيقة، أن في لعبة النرد، مع رمي رقم ستة مرتين على التوالي، هو في حد ذاته سبب كاف للرهان على أكبر الأعداد الفردية؛ لأن ستة لن ترمى في المحاولة الثالثة. غالبا يرفض العقل اقتراحا يحمل هذه النتيجة على الفور. لا يبدو للعقل أن الرميتين اللتين اكتملتا واللتين تكمنان تماما في الماضي يمكن أن يكون لهما تأثير على الرمية التي توجد في المستقبل. تبدو فرص رمي رقم ستة كأنها متكافئة بالضبط في كل لحظة، بمعنى أن هذه الفرص تخضع فقط لنتائج الرميات الأخرى من النرد. وهذا

تفكير يبدو واضحا بشدة بحيث أي محاولات لتغييره تقابل عادة بابتسامة ساخرة من المستمع أكثر من شيء آخر من قبيل الانتباه. إن الخطأ المنطوي هنا، خطأ جسيم يعبق بالتضليل، لا أستطيع أن أزعم أن بوسعي عرضه ضمن الحدود المعينة لي هنا. والعقل الفلسفي ليس بحاجة إلى هذا. لعله يكفي هنا أن أقول إنه يشكل حلقة من سلسلة لانهائية من الأخطاء التي تبزغ في طريق العقل عبر نزوعه الطبيعي لالتماس الحقيقة تفصيليا.

الرسالة المسروقة

في باريس، مباشرة بعد حلول الظلام في مساء عاصف من خريف عام --١٨، كنت أستمتع بالرفاهية المزدوجة من التأمل وتدخين البيبة، في صحبة صديقي، س. أوغست دوبن، في مكتبته الخلفية الصغيرة، أو حجرة الكتب، في، رقم ٣٣، شارع دونت، فوبورج سانت جيرمان الدور الثالث. حافظنا على صمت عميق لساعة كاملة، في الوقت الذي قد يبدو كل واحد منا -لأي شخص يمر اتفاقا- أنه مشغول عمدا وحصريا في دوامات الدخان اللولبية التي أثقلت جو الغرفة. من ناحية أخرى، بالنسبة إليَّ، كنت أناقش عقليا موضوعات معينة شكلت جوهر حوار بيننا في فترة مبكرة من المساء، أعني قضية شارع مورج، واللغز الذي أحاط مقتل ماري روجيه. لذلك، اعتبرته أمرا من قبيل الصدفة، حين انفتح باب شقتنا وحضر أحد معارفنا، صديقنا القديم السيد ج ــ، مدير الشرطة الباريسية.

رحبنا به ترحيبا حارا، فقد كان يسلينا بقدر تفاهته تقريبا، ولم نكن قد رأيناه منذ عدة سنوات. كنا نجلس في الظلام، فنهض دوبن ليضيء المصباح، غير أنه جلس مرة أخرى، بدون أن يفعل هذا، حين قال ج إنه يزورنا من أجل أن يستشيرنا، أو بالأحرى لكي يأخذ رأي صديقي في مسألة رسمية تسببت في كثير من العناء.

علق دوبن قائلا، بينما يمسك عن إشعال الفتيل: "لو أن ثمة نقطة ما تحتاج إلى التفكير، فسوف نفحصها في الظلام من أجل الحصول على نتائج أفضل".

قال مدير الشرطة الذي يتميز بتسمية أي شيء "غريب" خارج حدود استيعابه، وهكذا عاش في وسط حشد من "الغرابات": هذا شيء آخر من أفكارك الغريبة".

قال دوبن وهو يمد زائره بيبة، ويحرك نحوه كرسيا مريحا: "حقيقي جدا"

سألت: "ما هي المسألة الصعبة الآن، ليس في نطاق الاغتيالات كما آمل؟"

"أوه، كلا، ليست من هذا النوع. الحقيقة أن المسألة بسيطة جدا فعليا، ولا شك عندي أننا نستطيع تدبرها تدبرا حسنا نحن أنفسنا، لكنني اعتقدت أن دوبن قد يحب أن يسمع التفاصيل لأنها غريبة للغاية".

قال دوبن: "بسيطة وغريبة".

"نعم، لكن ليس أيا منهما بالضبط. الحقيقة هي أننا كلنا تحيرنا حيرة كبيرة لأن المسألة بسيطة جدا ومع ذلك تربكنا تماما".

قال صديقي: "لعل بساطة الشيء الشديدة هي التي تضعك في حيرة"..

أجاب مدير الشرطة وهو يضحك بشدة: "أي هراء تقوله!"

قال دوبن: "لعل اللغز واضح قليلا".

"أوه يا للسماء! من سمع بهذه الفكرة أبدا؟"

"بين في ذاته بيانا قليلا".

قهقه زائرنا بمرح شديد: "ها ها ها ها هو هو هو... أوه يا دوبن، ستكون السبب في موتي مع ذلك! في النهاية".

سألت: "في النهاية، ما هي المسالة التي تحت يدك الآن؟"

أجاب مدير الشرطة وهو ينفخ نفخة عميقة ثابتة ومتأملة من بيبته واستقر في كرسيه: "سأخبركما، سأخبركما في كلمات قليلة، لكن قبل أن أبدأ، دعني أحذركما من أن هذه المسألة تتطلب السرية التامة، وأنني قد أفقد منصبي، على الأرجح، إذا عرف أنني بحت بها لأي شخص".

قلت: "تابع"

قال دوبن: "أو لا تفعل".

"حسنا إذن. تلقيت معلومات خاصة من شخصية رفيعة جدا، بأن وثيقة معينة ذات أهمية كبيرة لديها سرقت من غرفتها الملكية. إن الشخص الذي سرقها شخصية معروفة لها، هذا بلا شك، فقد شاهدت هذه الشخصية وهو يأخذها. وتعلم أيضًا أنها مازالت في حوزته".

سأل دوبن: "كيف تعلم هذا ؟"

أجاب مدير الشرطة: "من طبيعة الوثيقة ومن عدم ظهور نتائج معينة كانت سوف تظهر فور انتقالها من ملكية السارق، أي من استغلاله لها بما أنه يخطط في النهاية إلى ذلك".

قلت: "أوضح قليلا".

"حسنا قد أغامر إلى حد القول بأن الورقة تمنح حاملها سلطة معينة في دائرة معينة، هذه السلطة ذات قيمة كبيرة". إن مدير الشرطة مولع بلغة الدبلوماسية.

قال دوبن: "مازلت لاأفهم تماما".

"لا؟ حسنا، إن كشف سر الوثيقة لشخص ثالث، الذي سيظل بلا اسم، سيضع شرف شخصية ذات مكانة عالية في دائرة الشك. وهذه الحقيقة تمنح حامل الوثيقة سطوة على الشخصية اللامعة، بما أنها تعرض شرفه وسلامه للخطر".

قاطعته قائلا: "لكن هذه السطوة ستعتمد على أن يعرف السارق أن الخاسر يعرف هويته. مَنْ سيجرؤ...".

قال ج: "إن السارق هو الوزير د ـــ، الذي يجرؤ على فعل أي شيء، اللائقة وغير اللائقة للإنسان. كانت طريقة السرقة جريئة أكثر منها حاذقة؛ فالوثيقة المعنية - هي رسالة لكي أكون صريحا- تلقتها

الشخصية المسروقة بينما كانت في غرفة نومها الملكية. وأثناء ما كانت تقرأها قاطعها فجأة دخول شخصية أخرى رفيعة رغبت أن تخفيها عنها على وجه الخصوص. وبعد أن حاولت محاولة سريعة وعبثية لإقحامها في الدرج، أجبرت على أن تضعها، مفتوحة فوق الطاولة. من ناحية أخرى، لم تلفت الرسالة انتباهه لأن ما كان ظاهرا هو العنوان أما المحتوى فلم يكن مكشوفا له، لهذا، لم تلفت الرسالة الانتباه. في تلك اللحظة الحاسمة دخل الوزير د ــ، رأت عيناه الحادتان على الفور الورقة وتعرف على خط يد المرسل ولاحظ ارتباك الشخصية التي يخاطبها وأدرك سرها. وبعد أن أنجز بعض المعاملات المتعجلة بأسلوبه العادي، أخرج رسالة شبيهة إلى حد ما للرسالة المعنية، وفتحها وتظاهر بقراءتها ومن ثم وضعها مجاورة تماما للثانية. تبادل الحوار مرة أخرى لمدة خمس عشرة دقيقة حول الشؤون العامة. في النهاية، وهو يهم بالمغادرة، أخذ أيضًا من فوق الطاولة الرسالة التي لا تخصه. رأت صاحبتها الشرعية ذلك، لكن بالطبع لم تجرؤ على أن تلفت الانتباه إلى هذا التصرف في حضور الشخصية الثالثة التي تقف على مقربة منها. رحل الوزير، وقد ترك رسالته – رسالة لا أهمية لها – فوق الطاولة".

قال دوبن لي: "هنا، إذن- هنا بالضبط ما تحتاجه لتجعل السطوة كاملة، أن يعرف السارق أن المسروق يعرف هويته".

أجاب مدير الشرطة: "نعم، والسلطة التي جناها استخدمها ببراعة لأشهر عدة مضت في أغراض سياسية خطيرة. إن الشخصية المسروقة مقتنعة تماما كل يوم بضرورة المطالبة برسالتها. لكن هذا بالطبع لا يمكن أن يحدث علانية. باختصار، أوكلت إليَّ المسألة بعد أن أصابها اليأس".

قال دوبن وهو قابع وسط زوبعات كاملة من الدخان: "لا يمكن أن يرغب المرء أو حتى يتخيل مفتشا أذكى منك".

أجاب مدير الشرطة: "أنت تمدحني، لكن على الأرجح يحتاج هذا الرأي إلى إعادة تفكير"

قلت: "من الواضح كما ترى، أن الرسالة مازالت في حوزة الوزير، بما أن هذه الملكية عينها وليس توظيف الرسالة بأي شكل هى التي تمنحه السلطة؛ فمع توظيفها له ستختفي سلطته".

قال ج: "حقا، وبناء على هذا الاقتناع تابعت عملي. كان اهتمامي الأول هو أن أقوم بتفتيش شامل لفندق الوزير، وهنا كان مبعث حرجي الأساسي في ضرورة أن أفتشه بدون علمه. فقبل كل شيء، حذرت من الخطر الذي قد ينشأ إذا ارتاب فيما نبحث عنه".

قلت "لكنك خبير تماما في هذه التحقيقات، لقد قامت الشرطة الباريسية بهذا الشيء كثيرا من قبل".

"أوه، نعم، ولهذا السبب لم أيأس. كما أن عادة الوزيرمنحتني ميزة عظيمة؛ فهو غائب عادة عن البيت طوال الليل، وخدمه ليسوا أعددا كبيرة، وينامون على مسافة من شقة وزيرهم، ولأنهم من نابولي أساسا فهم يسكرون بسهولة. تعرفان أنني أملك مفاتيح أستطيع بها فتح أي غرفة أو خزانة في باريس، ولمدة ثلاثة أشهر، لم تمر ليلة، لم أنهمك القسم الأعظم منها، شخصيا، في تنقيب فندق الوزير. فشرفي جزء من المسألة، وأخبركم بسر عظيم، فإن المكافأة كبيرة. لذلك لم أتخل عن التفتيش حتى أصبحت مقتنعا تمام الاقتناع بأن السارق أدهى مني. أتصور أنني فحصت كل ركن وزاوية من المبنى والأراضي المحيطة به حيث يمكن أن تكون الورقة مختفية".

فاقترحت: "لكن أليس من المحتمل أنه على الرغم من أن الرسالة قد تكون في حوزة الوزير كما هي بلا شك، فلعله أخفاها في مكان آخر غير مبانيه؟"

قال دوبن: "هذا احتمال هزيل، إن الشرط الخاص الحالي للأمور المطـــروحة على الساحة، وخاصة تلك المكايد التي من المعروف أن د ـــ متورط فيها، سيجعل من سهولة الوصول إلى الوثيقة -أي حساسية ظهورها في ظل التركيز الحالي المنصب عليه- نقطة مساوية تقريبا لملكيتها".

قلت: "حساسية ظهورها ؟"

قال دوبن: "بمعنى؛ حرقها".

علقت: "صحيح، إذن، الورقة في المبنى. أما أن تكون مخبأة في جسد الوزير، فهي نقطة لا تحتاج إلى النقاش".

قال مدير الشرطة: "تماما. لقد نصبت له كمينا مرتين على أنهم قاطعو طريق، وتم تفتيشه تفتيشا ذاتيا بدقة تحت إشرافي".

"لعلك كلفت نفسك العناء، فد ـــ، على ما افترض ليس أحمق كلية وإذا لم يكن فلابد أنه توقع تلك الأكمنة باعتبارها أمرًا بديهيًا".

قال ج.: "ليس أحمق كلية، لكنه شاعر، الأمر الذي أعتبره خطوة واحدة تفصله عن الحمق".

قال دوبن بعد أن نفخ نفخة طويلة وعميقة من بيبته: "صحيح، على الرغم من أنني نفسي متهم بالخروج عن الوزن الشعري".

قلت: "هل لك أن تعطي تفصيلا بدقائق تفتيشك".

"الحقيقة أننا أخذنا كل الوقت الذي نحتاجه، وفتشنا كل مكان. لي خبرة طويلة في هذه الأمور. أخذت المبنى كله، غرفة، غرفة، وكرست ليالي أسبوعا كاملا لكل واحدة منها. فحصنا أولا أثاث كل غرفة. فتحنا كل درج محتمل، وأعتقد أنكما تعرفان أن العميل البوليسي المدرب تدريبا جيدا مستحيل أن يوجد بالنسبة له شيء ما من قبيل درج "سري"،

إن أي عميل يسمح بأن يفلت منه درج "سري" في تفتيش من هذا النوع هو عميل غبي. إن الأمر واضح تماما. فنحن نحسب كتلة ومساحة كل خزانة. ثم إن لدينا قواعد دقيقة، لا يمكن أن يفلت منا ١/٥٠ من جزء من إنش. بعد الخزائن فحصنا الكراسي. قمنا بجس الوسائد بإبر رفيعة طويلة رأيتماني أستخدمها من قبل. وأزلنا أسطح الطاولات".

"لماذا؟"

"في بعض الأحيان يزيل الشخص الذي يرغب في إخفاء شيء ما، سطح الطاولة أو أي قطعة أثاث ذات شكل مشابه، ثم يحفر الساق ويضع الشيء داخل التجويف ويرجع السطح مرة أخرى. وتستخدم أيضا قمة أعمدة السرير وقواعدها بالطريقة نفسها".

"لكن ألا يمكن فحص التجويف بالمرنان"؟

"لا، يكفي أن تغلف الشيء المراد تخبأته بحشوة قطنية. علاوة على هذا، نحن مجبرون في حالتنا أن نتابع عملنا بدون إحداث ضجة".

"لكن ليس بوسعك أن تزيل – لا يمكنك أن تفكك- كل مفردات الأثاث الذي يحتمل أن تكون مخبأ حسب الطريقة التي ذكرت؛ فالرسالة يمكن أن تضغط في أسطوانة لولبية رفيعة، لا تختلف كثيرا في الشكل أو الحجم عن إبرة كروشيه كبيرة، وبشكلها هذا يمكن أن تقحم في رافدة كرسي ما على سبيل المثال. إنك لم تفكك كل الكراسي؟"

"بالتأكيد كلا. لكننا فعلنا ما هو أفضل من هذا، لقد فحصنا روافد كل كرسي في الفندق، ومفاصل كل شكل هندسي من الأثاث بالفعل، بمساعدة أقوى مايكروسكوب. فلو أن ثمة أثرا لأي خلل وقع حديثا على هيكلها الأصلي، لم نكن لنخفق في استبيانه على الفور. فعلى سبيل المثال، ستبدو أي حبة واحدة من التراب الناتج عن استخدام المسبار واضحة في حجم التفاحة. إن أي تشوه في الغراء، أو أي تجويف في المفاصل كفيل بأن يكشفه الفحص".

"أفترض أنك فحصت المرايا فيما بين حوافها وألواحها الزجاجية، وقمت بجس الأسرة وأغطيتها، والستائر، والسجاجيد أيضا".

"بالطبع، وعندما أكملنا فحص كل جزء من الأثاث بهذه الطريقة، فحصنا البيت نفسه. فقد قسمنا سطحه الكلي إلى أجزاء مستقلة، رقمناها حتى لا يسقط منا أى منها. ثم فحصنا كل إنش مربع عبر المباني، بما فيها البيتين الملاصقين تماما بالمايكروسكوب كما من قبل".

تعجبت قائلا: "البيتان الملاصقان، لابد أنك تكلفت مشقة كبيرة".

"نعم، لكن المكافأة المقدمة استثنائية".

"هل شملت الأراضي المحيطة بالبيتين؟"

"كل الأرض ممهدة بالطوب. لم تسبب لنا مشقة نسبيا. فحصنا الطحالب التي بين الطوب ووجدنا أنها لم تمس".

"نظرت في أوراق د ـــ بالطبع وفي كتب المكتبة؟"

"بالتأكيد، فتحنا كل طرد ورزمة، ولم نفتح فقط كل كتاب بل قلبنا كل صفحة في كل مجلد، لأننا لم نقتنع بمجرد هزه طبقا لأسلوب بعض ضباط الشرطة. أخذنا أيضًا قياس سمك غلاف كل كتاب بأدق مقياس، وأخضعنا كل واحد لفحص دقيق من المايكروسكوب، فلو كان قد دخل أي شيء عنوة في جلدة كتاب مؤخرا، كان من المستحيل أن تفلت منا ملاحظة هذه التفصيلة. وقد قمنا بجس خمسة أو ستة مجلدات أتت مباشرة من التجليد طوليا بالإبر بحذر شديد".

"وفحصت الأرض تحت السجاجيد؟"

"بلا شك. أزلنا كل سجادة وفحصنا حوافها بالمايكروسكوب".

"والورق على الحوائط؟"

"نعم".

"هل نظرت في القبو؟"

"نعم".

قلت: "إذن لابد أنك أخطأت في حساباتك، والرسالة ليست في المباني كما افترضت".

"أخشى أنك محق في هذا الأمر، والآن يا دوبن، ما الذي تنصحني به أفعله؟"

"أن تقوم بتفتيش شامل للمباني".

أجاب ج ـ "لا حاجة لي بهذا أبدا، إنني متأكد من أن تلك الرسالة ليست في الفندق أكثر مما أنا متأكد أنني أتنفس". أ

قال دوبن: "ليس عندي أفضل من هذه النصيحة أعطيها لك، لديك بالطبع وصف دقيق للرسالة؟"

"أوه! نعم"، وهنا أخرج المدير مذكرة وقرأ بصوت عال وصفا دقيقا لمظهر الوثيقة المفقودة الداخلي وخاصة الخارجي. بعد أن انتهى من قراءة هذا الوصف رحل، محبطا تماما أكثر من أي وقت عرفت فيه هذا السيد النبيل الصالح.

زارنا مرة أخرى خلال شهر، ووجدنا منشغلين كما من قبل تقريبا. أخذ بيبة وكرسيا وانخرط في حديث عادي ما. في النهاية قلت:

"حسنا يا ج، وماذا عن الرسالة المسروقة؟ أعتقد أنك في النهاية قررت أن لا شيء يفوق الوزير؟"

"اللعنة عليه، نعم أقول. ومع ذلك، فقد أعدت الفحص كما اقترح دوبن، لكن كل جهودي ذهبت سدى، على الرغم من أنني عرفت هذا من البداية".

سأل دوبن: "كم قلت قدر المكافأة المعروضة ؟"

"ضخمة جدا - مكافأة سخية جدا- لا أرغب أن أقول قدرها بالضبط، لكنني سأقول شيئا واحدا هو أنني لا أمانع من أن أعطي شيكا خاصا مني قدره خمسون ألف فرانك لأي شخص يمكن أن يحصل لي على تلك الرسالة. في الحقيقة تتزايد أهمية المسألة يوما بعد يوم؛ لقد تضاعفت المكافأة مؤخرا، ولو وصلت إلى ثلاثة أضعافها، مع ذلك، ليس بوسعي أن أفعل أكثر مما فعلت".

قال دوبن متشدقا بين نفخات دخان بيبته: "آه، نعم. أعتقد في الحقيقة يا ج.، أنك لم تبذل أقصى مجهودك في هذه المسألة. لعلك يجب أن تبذل مجهودا أكثر قليلا على ما أعتقد، ايه؟"

"كيف؟ بأي طريقة؟"

"آه، (بوف، بوف) لعلك (بوف.....بوف) توظف مستشارا في المسألة، ايه؟ (بوف.. بوف... بوف). هل تتذكر القصة التي تحكى عن أبيرنيثي؟"

"كلا، تقصد مثل شنق أبيرنثي"

"بالتأكيد، اشنقه ثم رحب به لكن، ذات مرة أدرك خططا لكي ينال من أبيرنثي رأيا طبيا بالتطفل عليه. وبعد أن أدار حوارا عاديا معه في جلسة حميمة، دس قضيته إلى طبيب باعتبارها خياله الفردي".

قال البخيل: "سنفترض أن أعراضه هي كذا وكذا، والآن أيها الطبيب، ما الذي ستنصحه به لكي يأخذه؟"

قال أبيرنثي: "عجبا ماذا يأخذ! يأخذ نصيحة طبيب بالتأكيد".

قال مدير الشرطة وهو مغتاظ قليلا: "لكن، أنا على أتم الاستعداد أن آخذ النصيحة، وأن أدفع في مقابلها. كنت سأدفع حقا خمسين ألف فرانك لأي شخص سيساعدني في هذه المسألة".

أجاب دوبن، وهو يفتح درجا ويخرج دفتر شيكات: "في هذه الحالة، يمكن أن تكتب لي شيكا بالمبلغ المذكور، وعندما توقعه، سأعطيك الرسالة".

كنت مصعوقا. بدا مدير الشرطة كأن البرق صعقه. ظل غير قادر على النطق والحركة لبعض دقائق، وهو ينظر إلى صديقي نظرات شك بفم مفتوح وعينين جاحظتين. ثم تمالك نفسه بشكل ما، وأمسك قلما، وبعد عدة وقفات وتحديقات فارغة، ملأ أخيرا الشيك ووقّعه بمبلغ خمسين ألف فرانك، وناوله لدوبن عبر الطاولة. فحصه الأخير بدقة ووضعه في جيب سترته الصغير، ثم فتح ***escritoire*** المكتب، وأخذ الرسالة وأعطاها لمدير الشرطة. هذا الموظف قبض على الرسالة في نوبة من الابتهاج، وفضها بيد ترتعش، وألقى على محتوياتها لمحة سريعة، وبعد ذلك تقدم بصعوبة وجهد يشق طريقه نحو الباب، واندفع في النهاية بطريقة يعوزها الكياسة من الغرفة ومن البيت بدون أن ينطق مقطعا لفظيا واحدا منذ أن طلب منه دوبن أن يملأ له الشيك.

عندما رحل، دخل صديقي في بعض الشروحات.

قال: "إن الشرطة الباريسية متمكنة تمكنا كبيرا من منهجها؛ فهي مثابرة وبارعة وحاذقة وضليعة في المعرفة التي يتطلبها أداء واجباتها في الأساس. لهذا، عندما فصّل لنا ج ـ نمط تفتيشه للمباني في فندق د ـ، كنت واثقا تماما في أنه قام بفحص واف عكس مهارة عملائه المساعدين".

قلت: "عكس مهارة عملائه المساعدين"

قال دوبن: "نعم، فالمعايير التي طبقها لم تكن فقط الأفضل من نوعها، بل إنه نفذها بامتياز؛ فلو أن هذه الرسالة ضمن نطاق بحثهم، كان سيجدها هؤلاء الرفاق بلاشك".

ضحكت فقط، لكنه بدا جادا تماما في كل ما قاله.

واصل قائلا: "إن المعايير إذن كانت جيدة في نوعها، وطبقت تطبيقا جيدا ويكمن عيبها في أنها لا تصلح لكي تطبق على القضية والرجل. إن مجموعة محددة من المصادر البارعة ستغدو بين يدي مدير الشرطة سرير بروكستيز(١)، الذي سوف يكيف أهدافه عليه إجباريا. لكنه يرتكب الأخطاء دوما إما بأن يكون عميقا جدا أو سطحيا جدا في تناوله للمسألة التي بين يديه. إن طالب المدرسة أعقل منه.

---

(١) الميثولوجيا اليونانية يقوم هذا العملاق بوضع ضحاياه فوق سريره الحديدى ثم يمد أطرافهم لتلائم مقاس السرير.

عرفت واحدا يبلغ ثمانى سنوات، جذب نجاحه في لعبة " زوج وفرد" إعجاب الجميع. هذه اللعبة بسيطة وتُلعب بالنرد. يحمل لاعب عددا من النرد في يده ويسأل اللاعب الآخر إذا كان العدد فرديا أم زوجيا. فلو جاء التخمين صحيحا، يفوز المخمن بنرد، ولو خطأ يخسر واحدا. إن الولد الذي أشير إليه فاز بجميع أحجار النرد في المدرسة. بالطبع لديه قاعدة ما للتخمين؛ وتكمن هذه في الملاحظة المحضة وقياس مهارة ودهاء منافسيه، فعلى سبيل المثال، منافسه هو شخص ساذج بكل ما في الكلمة من معنى، يسأل وهو يقبض يده المغلقة: "هل العدد فردي أم زوجي؟"، فيجيب طالب المدرسة "فردي" ويخسر، لكن مع المرة الثانية يفوز لأنه قال لنفسه حينئذ: "إن الساذج كان لديه عدد زوجي عند المحاولة الأولى، ومقدار دهائه هو فقط بالقدر الذي سيجعله فرديا في المرة الثانية، لذلك سأخمن أنه فردي". ويخمن أنه فردي وينجح. الآن، مع شخص آخر أقل سذاجة من الأول، فسوف يفكر على هذا النحو "هذا الرفيق يجد أنني في المرة الأولى خمنت أنه فردي، وفي الثانية سوف يقترح على نفسه مع الوهلة الأولى من التفكير، أن يقوم بتنويع بسيط من الزوجي إلى الفردي، كما فعل الساذج الأول، لكن تفكيرا ثانيا سيوحي له أن هذا الاختلاف بسيط جدا، وأخيرا سوف يقرر أن يجعله زوجيا كما هو. لذلك سأخمن أنه زوجي "يخمن أنه زوجي ويفوز. والآن، ما هو هذا النمط من التفكير لدى طالب المدرسة، الذي يطلق رفقاؤه عليه إنه "محظوظ" في التحليل الأخير؟"

قلت: "هو محض تطابق فكر المحلل مع فكر نظيره".

قال دوبن "هو ذاك، وعندما سألت الولد ما الوسائل التي يحقق بها التطابق الكامل؟ تلقيت الإجابة التالية منه: "عندما أرغب في أن أعرف إلى أي مدى حكمة أو غباء أو طيبة أو غرابة أي شخص، أوما هي أفكاره في اللحظة نفسها، أجعل تعبير وجهي يوافق تطابقا دقيقا بقدر الإمكان مع تعبير وجهه بأقصى دقة أستطيعها، ثم أنتظر لأرى ما هي الأفكار أو المشاعر التي تولد في عقلي أو في قلبي كأنني أتماهى أو أتماثل مع التعبير". هذه الإجابة من طالب المدرسة هي السبب الأساسي في العمق الزائف الذي نسب إلى روشفوكو وإلى لابوجيف وإلى ميكيافيللي وإلى كامبانيلا[1]".

قلت: "ويعتمد تطابق فكر العاقل مع فكر نظيره، لو أنني فهمتك فهما صحيحا، على الدقة التي يقيس بها فكر نظيره".

"بالنسبة لقيمتها العملية، فهي تعتمد على هذا. وقد فشل مدير الشرطة وجماعته، تكرارا، بسبب أولا، نقص هذا التطابق، وثانيا، القياس الخاطئ، أو بالأحرى بسبب عدم قياس ذكاء الذين اشتبكوا معه؛

---

(1) Rochefoucault (1613-1680) أمير مارسيليا، كاتب أخلاقي، ناقش مفهــوم أن حب الذات هو الدافع الأساسي لأفعال الإنسان.

La Bougive. لم أجد له مصدرا.

Machiavelli (1469-1527) رجل الدولة الإيطالي الشهير صاحب كتاب الأمير

Campanella(1568-1639) فيلسوف إيطالي وراهب دومينيكي اتهم بالهرطقة.

فقد أخذوا في اعتبارهم فقط أفكارهم الخاصة عن الإبداع، وفي أثناء بحثهم عن أي شيء خفي، ركزوا فقط على الأنماط التي هم أنفسهم سيخبئون بها أي شيء. هم على حق بهذا القدر - على حق في أن إبداعهم هو تمثيل صادق لإبداع الجماهير - لكن عندما تختلف براعة مجرم في صفتها عنهم، يخدعهم المجرم بالطبع. يحدث هذا دوما عندما يفوقهم، وفي الغالب عندما يكون أقل منهم. لا يمتلكون تنوعا في مبدأ قاعدة بحثهم، وعلى أفضل حال، عندما يحثهم طارئ غير عادي، بمكافأة استثنائية ما، يمدون أو يبالغون في أساليبهم القديمة من الممارسة بدون أن يلمسوا مبدأهم الأساسي. ما الذي تم لتنويع مبدأ العمل في قضية د ــ على سبيل المثال؟ ما كل هذا الحفر والجس والرنان والفحص بالمايكروسكوب، وتقسيم أسطح المبنى إلى إنشات مربعة مسجلة. ما كل هذا سوى أن يكون مبالغة في تطبيق مبدأ واحد أو مجموعة مبادئ من البحث، التي تقوم على مجموعة واحدة من الأفكار التي تتعلق بالإبداع البشري، التي اعتاد عليها مدير الشرطة في ممارسته الروتينية الطويلة لوظيفته؟ ألا ترى أنه اعتبر أن كل الرجال يلجأون عندما يرغبون في إخفاء رسالة ما، ليس بالضبط إلى ثقب محفــور في ساق كرسي، بل، على الأقل، إلى حفرة بعيدة عن العين أو إلى ركن ما؛ الأمر الذي يحمل المغزى نفسه في التفكير الذي سوف يدفع المرء إلى أن يخفي الرسالة في ثقب محفور في ساق كرسي باعتباره أمرا بديهيا؟ وألا ترى أيضا أن هذه الزوايا الغريبة المخصصة

لتخبئة الأشياء يلجأ إليها المرء فقط في الضرورات العادية ويلجأ إليها ذو الفكر العادي فقط، لأنه في كل القضايا التي تتعلق بالأشياء المخبأة، تدبير الشيء المخفي- التخلص منه بهذه الطريقة الغريبة- يمكن افتراضه وتخمينه من اللحظة الأولى، وبالتالي لا يعتمد اكتشافه أبدا على الفطنة بل على الانتباه المحض كلية وتصميم الساعين خلفه. وهكذا عندما تكون القضية مهمة - أو بحجم أهميتها في العيون السياسية، حين تبلغ المكافأة مبلغا ضخما - لم يحدث أبدا في أي وقت أن أخفقت الكفاءات التي نتحدث عنها. تفهم الآن ما عنيته باقتراحي بأنه لو أن الرسالة المسروقة أخفيت في أي مكان داخل حدود فحص مدير الشرطة، بكلمات أخرى، لو أن مبدأ إخفائها تضمنته مبادئ مدير الشرطة، لكان إيجادها أمرا خارج حدود الشك تماما. هذا الموظف، مع ذلك ضلل تماما؛ ويكمن منبع هزيمته العميق في افتراضه بأن الوزير أحمق، لأنه اكتسب شهرة بوصفه شاعرا. كل الحمقى شعراء؛ هكذا يشعر مدير الشرطة، وهو مذنب بـ ***non distribution medii***[1] باستنتاجه من هذا الخطأ في المنطق بأن كل الشعراء حمقى".

---

(1) Undistributed middle

خطأ في المنطق، ينجم عن أن الفرضية تأخذ شكل القياس المنطقي، لكن العنصر الوسط خطأ بمعنى

أن القياس يجري على هذا النحو

كل الحمقى شعراء

الوزير شاعر

لذلك الوزير أحمق.

سألته: "لكن هل هو الشاعر حقا؟ هناك أخان كما أعرف، وكلاهما كسبا شهرة في الأدب. أعتقد أن الوزير كتب في حساب التفاضل عن جدارة وعلم. هو رياضي وليس شاعرا".

"أنت مخطئ، فأنا أعرفه جيدا، هو كلاهما. فهو يفكر جيدا بصفته شاعرا ورياضيا. ولم يكن ليمتلك العقل الجيد لو أنه رياضي فقط، ولكان وقع لهذا تحت رحمة مدير الشرطة".

قلت: "أنت تفاجئني بتلك الآراء، التي تناقضت مع صوت العالم. أنت لا تقصد الاستخفاف بفكرة تمثلت عبر القرون. إن العقل الرياضي نظر إليه طويلا باعتباره العقل بامتياز".

أجاب دوبن مقتبسا من شامفورت[١]: "إن الغرابات هي أن تكون كل فكرة عامة وكل عرف مقبول هراء لأنه يتناسب مع الأغلبية". أؤكد لك أن الرياضيين بذلوا ما بوسعهم من أجل أن ينشروا الخطأ الشائع الذي تشير إليه، والذي اعتبر حقيقة مع ذلك بسبب ذيوعه. ومع فن يستحق سببا أفضل، على سبيل المثال، دسوا مصطلح "التحليل" في

لكن النتيجة غير منطقية لأن القياس لا يأخذ في اعتباره أن بعض الشعراء ليسوا حمقى. لذلك القياس المنطقي الصحيح يأتي على النحو التالي:

كل الشعراء حمقى

الوزير شاعر

لذلك الوزير أحمق

(١) ورد هذا الاقتباس بالفرنسية *Chamfort (1741-1794)*

تطبيق الجبر. إن الفرنسيين هم أصل هذا الخداع الخاص، لكن لو أن مصطلحا ما ذا أهمية، لو أن الكلمات تستقي أي قيمة من قابليتها للتطبيق أو الاستعمال؛ فـ "التحليل" إذن ينقل " الجبر" بقدر ما تتضمن، في اللغة. اللاتينية، *"ambitus"* *"ambition"* الطموح؛ و *"religio"* *"religious"* الـــديـــن؛ أو *"hominess honesti"* هـــي مجموعة من الرجال الشرفاء *"honorable men"*."

قلت: "لديك حجة قوية في متناول يدك، كما أرى، تستطيع أن تتجادل بها مع بعض علماء الجبر في باريس، لكن تابع".

"دحضت المتاح، وبالتالي قيمة ذلك العقل الذي صاغه أي شكل آخر خاص غير الشكل المنطقي على نحو تجريدي. دحضت في الخصوص العقل الذي خرج عن الدراسة الرياضية. إن الرياضيات هي علم الشكل والكم، إن العقل الرياضي هو عقل منطقي يصلح لغرض ملاحظة الشكل والكم. يكمن الخطأ العظيم في افتراض أنه حتى حقائق ما يسمى الجبر المحض هي حقائق تجريدية أو عامة. وهذا الخطأ فاضح بحيث إنني ارتبكت من الشمولية التي تم استقباله بها. إن البديهيات الرياضية ليست بديهيات الحقيقة العامة. ما هو حقيقي في العلاقة -علاقة الشكل والكم- هو غالبا مزيف بشدة فيما يتعلق بالأخلاقيات على سبيل المثال. ففي هذا العلم الأخير، غير الحقيقي في الغالب، القاعدة التي تنص على أن إجمالي الأجزاء يكافئ

الكل، تخفق هذه البديهيات أيضًا في الكيمياء. وفيما يتعلق بحافز الحركة تخفق، لأن حافزين، كل واحد منهما بقيمة معطاة، لا تتكافئ بالضرورة قيمتهما عند اتحادهما لمجموع قيمتهما منفصلين على حدا. هناك حقائق رياضية أخرى عديدة هي حقائق فقط داخل حدود العلاقة. غير أن الرياضي يناقش انطلاقا من حقائقه المتناهية، ومن خلال العادة كما لو أنها ذات قابلية عامة للتطبيق، كما يتصور العالم بالفعل كينونتها. يذكر بريانت في كتابه "الميثولوجي" العلمي مصدرا مناظرا للخطأ عندما يقول إنه: "على الرغم من أننا لا نؤمن بالحكايات الخرافية الوثنية، ننسى أنفسنا باستمرار ونشير إليها باعتبارها وقائع موجودة". من ناحية أخرى، يؤمن علماء الجبر الذين هم وثنيون في حد ذاتهم، بـــ "الخرافات الوثنية"، والإشارات التي يقومون بها إليها ليس بسبب زلة ذاكرة بقدر ما هو بسبب تشوش كبيرغير مبرر في عقولهم. باختصار، لم أقابل بعد الرياضي البحت الذي لا يتقى بالجذر التربيعي أو الذي لا يعتبر سرا أن أحد أركان إيمانه أن

$$x^2 + px$$

تساوي تساويا مطلقا وبدون شروط q. قل لأي أحد من هؤلاء السادة، عبر التجريب، إذا أردت، أنك تؤمن بأن الأسباب قد تقع حيث $x^2 + px$ لا تكافئ تماما q، وبعد أن تجعله يفهم ماذا تعني، ابعد عن متناول يده بأسرع ما يمكن لأنه بلا شك سيسعى إلى طرحك أرضا.

واصل دوبن قائلا، بينما كنت أضحك فقط على تعليقه الأخير "أعني أن أقول لو أن الوزير لم يكن إلا رياضيا، فلم يكن ليضطر مدير الشرطة أن يعطيني هذا الشيك. من ناحية أخرى، لقد عرفته بصفته رياضيا وشاعرا على السواء، واستخدم خبراتي، في شأن من شؤونه. لقد عرفته بصفته أحد رجال الحاشية أيضًا وأنه مخادع جريء. أخذت في اعتباري أن رجلا مثل هذا لم يكن ليخفق في إدراك أنماط الشرطة العادية في العمل. لم يكن ليعجزعن توقع - وقد أثبتت الأحداث أنه لم يعجزعن توقع- الأكمنة التي خضع لها. ورأيت أنه لابد أن يكون قد تنبأ بالتفتيشات السرية لمبانيه. إن غيابه المتكررعن البيت في الليل، الذي استحسنه مدير الشرطة باعتباره معونة محددة لنجاحه- رأيته فقط خدعة؛ ليقدم الفرصة للقيام ببحث عميق للشرطة؛ وهكذا ليقنعهم سريعا بالنتيجة التي توصل إليها ج أخيرا في الحقيقة- قناعة أن الرسالة لم تكن في المباني الخاصة به. شعرت أيضًا أن السلسلة كلها من التفكير، التي تحملت عناء تفصيلها لك الآن فقط، التي تتصل بالمبدأ الثابت للعمل البوليسي في البحث عن الأشياء المخبأة- ستمر بالضرورة عبر عقل الوزير، ستقوده حتميا إلى أن يزدري كل الأركان العادية للتخبئة. وفكرت أنه لا يمكن أن يكون ضعيفا جدا بحيث لا يرى أن أكثر الفجوات تعقيدا ونأيا في فندقه ستكون متاحة بقدر خزائنه العادية للعيون، وللمجسات وللمسابير ولمايكروسكوب مدير الشرطة. باختصار، رأيت أنه سينقاد، باعتباره أمرا طبيعيا إلى

البساطة، إذا لم يتوصل إليها باعتبارها الاختيار الأساسي. ربما تتذكر كم ضحك مدير الشرطة بيأس عندما اقترحت عند لقائنا الأول أن من المحتمل أن هذا اللغز يسبب له المشقة كثيرا فقط بسبب أنه بديهي جدا".

قلت: "نعم، أتذكر مرحه جيدا، اعتقدت حقا أنه سيقع في نوبة ضحك".

واصل دوبن: "إن العالم المادي يزخر بالتناظرات الجزئية مع العالم اللامادي؛ وبناء عليه، اكتسبت الدوجما البلاغية مسحة من الحقيقة، فالمجاز أوالتشبية يعزز حجة ما ويزين وصفا أدبيا أيضًا. كذلك، يبدو مبدأ القصور الذاتي على سبيل المثال متطابقا في الفيزياء والميتافيزيقا. ففي الفيزياء، حقيقة أن الجسم الضخم يلاقي صعوبة أكبر في الحركه من الجسم الأصغر وأن قوته الدافعة التالية معادلة لهذه الصعوبة – هذه الحقيقة في الفيزياء تماثلها في الميتافيزيقا حقيقة أن العقول ذات القدرات الأكبر تجد صعوبة في حركتها وتشعر بقيود أكبر وتردد في خطواتها الأولى من تقدمها أكبر من العقول ذات القدرات الأقل، على الرغم من أنها أكثر قوة وثباتا وخطورة في حركتها".

مرة أخرى: هل لاحظت في أي مرة أن أي لوحة من اللوحات التي فوق أبواب المحال تجذب الانتباه؟"

قلت: "لم أفكر في المسألة أبدا من قبل".

تابع: "هناك لعبة من الألغاز، تلعب فوق خريطة. يحتاج أحد اللاعبين إلى لاعب آخـــر لكـــي يجد كلمة معطاة، اسم بلدة، أو نهر، أو دولة أو إمبراطورية، أي كلمة، باختصار، فوق سطح الخريطة المتنافر والمربك. يسعى المبتدئ في اللعبة عامة إلى إحراج نظرائه بأن يعطيهم الأسماء ذات الحروف الدقيقة للغاية، في حين أن الخبير في اللعبة يختار الكلمات التي تمتد في حروف ضخمة من أحد أطراف الخريطة للطرف الآخر. هذه الكلمات التي تماثل اللوحات المكتوبة بحروف مضخمة وإعلانات الشارع، تفلت من انتباه اللاعب بفضل وضوحها المفرط. وهنا يتناظر السهو الفيزيقي تناظرا دقيقا مع عدم الإدراك الأخلاقي الذي عبره يجيز الذكاء المرور بتلك الاعتبارات الواضحة جدا والبديهية بداهة ملموسة دون أن يلاحظها. لكن هذه نقطة كما يبدو أعلى من إدراك مدير الشرطة أو أقل منه إلى حد ما. لم يفكر مرة واحدة أن من المحتمل أو من الأرجح أن الوزير قد وضع الرسالة تحت أنف العالم كله مباشرة، بأفضل طريقة تمنع أي جزء من هذا العالم عن رؤيتها".

"لكن كلما تأملت الذكاء الجرىء والمندفع والمميز لـــ د.، أي حقيقة أن الوثيقة في متناول اليد طوال الوقت، في حالة ما نوى أن ينتفع بها في غرض جيد، والدليل الحاسم الذي حصّله مدير الشرطة أنها ليست مخبأة ضمن حدود ذلك البحث العادي لصاحب المقام؛ أصبحت أكثر اقتناعا بأن الوزير لكي يخفي هذه الرسالة لجأ إلى حيلة شاملة وذكية بألا يحاول أن يخفيها أبدًا".

"وإذ اقتنعت بهذه الأفكار، تجهزت بنظارة خضراء العدستين وزرت في إحدى الصباحات الجيدة، بالصدفة تماما فندق الوزير. وجدت د ــ في البيت، يتثاءب ومستلقيا ومتشدقا كالعادة ومتظاهرا بأقصى درجة من درجات الضجر. لعله أكثر إنسان حيوي حقا حتى الآن، لكن هذا فقط حين لا يراه إنسان ما".

"عندما انفردت به، شكوت من عيني الضعيفتين، وآسفت من ضرورة النظارة التي من تحت العدستين مسحت مسحا عميقا الغرفة كلها وبحذر، بينما ركزت ظاهريا على حديث مضيفي".

"وجهت تركيزي إلى طاولة للكتابة ضخمة بالقرب من المكان الذي جلس فيه، والملقى فوقها بعفوية بعض الرسائل المتنوعة وأوراق أخرى مع آلة موسيقية أو آلتين وعدة كتب. مع ذلك، بعد فحص طويل ومترو لم أر ما يثير في الريبة".

"في النهاية، وقعت عيناي وهي تدور في الغرفة على حامل بطاقات من الورق المقوي المخرم المزين، الذي يتدلى معلقا بشريط أزرق قذر مثبتا في زر نحاسي صغير يقع مباشرة تحت منتصف رف المستوقد. على هذا الحامل المقسم إلى ثلاثة أجزاء أو أربعة، خمس بطاقات زيارة أو ست ورسالة وحيدة. هذه الأخيرة كانت ذات أختام كثيرة ومنبعجة. كــانت ممزقة تقريبا إلى جزئين من المنتصف، كما لو بقصد قد تحول عن تمزيقها بداية أو سكن في اللحظة الثانية. كانت

تحمل ختما أسود ضخما يحمل الحروف الأولى من اسم د ـ بوضوح شديد، وموجهة إلى د ــ الوزير نفسه، بخط أنثوي منمنم. كانت مقحومة بين البطاقات بإهمال وحتى بازدراء كما بدا في أقصى قسم من أقسام الحامل".

"ما إن لمحت هذه الرسالة حتى استنتجت أنها هي التي أبحث عنها. بالتأكيد من جميع الجوانب كانت مختلفة اختلافا جذريا عن الرسالة التي قام مديرالشرطة بقراءة وصف دقيق لها علينا. ففي هذه الرسالة كان الختم أسود وضخما مع الحروف الأولى من اسم د ـــ، تلك كان صغيرا وأحمر مع الشعار الدوقي لعائلة س ـ. هذه كانت موجهة إلى الوزير بخط منمنم وأنثوي، تلك كانت موجهة إلى شخصية ملكية بخط بارز وواضح. شكل الحجم وحده نقطة التلاقي بينهما. لكن، تظل، جذرية الاختلافات التي كانت شديدة ومفرطة، أي القذارة، والختم، وحالة التمزيق التي لا تتناسق مع العادات المنهجية الحقيقية لـ د ـ، وتوحي بغرض تضليل الناظر بفكرة أنها وثيقة غير مهمة. هذه الأشياء إلى جانب موقع الوثيقة البارز بروزا شديدا على مرمى نظر أي زائر وبالتالي يتوافق تماما مع الاستنتاجات التي توصلت إليها سابقا- أقول إن هذه الأشياء عززت بقوة الشك في شخص جاء بنية الشك".

"أطلت زيارتي بقدر ما يمكن بينما واصلت نقاشا من أكثر النقاشات حيوية في موضوع أعرف جيدا أنه لن يخفق في جذب

اهتمامه وإثارته. ثبتُ انتباهي حقا على الرسالة. وأثناء فحصي لها حفظت عن ظهر قلب مظهرها الخارجي وترتيبها فوق الحامل ووقعت في النهاية على اكتشاف أنهى أي شك تافه قد يساورني بشأنها. فقد لاحظت أثناء فحصي لحوافها أنها بالية أكثر مما يبدو ضروريا. فقد بدت أطرافها في هيئة مهشمة، تلك التي تظهر في ورقة سليمة طويناها مرة ووضعناها في حافظة ورقية ثم أعدنا طيها مرة أخرى في الاتجاه العكسي عند التغضنات أو الحواف نفسها التي شكلت الطي الأصلي. كان الاكتشاف كافيًا. كان واضحا لي أن الرسالة تم قلبها مثل القفاز إلى الخارج وأعيد ختمها. تمنيت للوزير صباحا جيدا ورحلت على الفور، وقد تركت صندوق نشوني على الطاولة".

ذهبت في الصباح التالي من أجل صندوق النشوء، حيث تابعنا بلهفة شديدة حديث اليوم السابق. وبينما كنا منخرطين في حديثنا دوى انفجار عال كأنه طلقة مسدس تحت نوافذ الفندق مباشرة وتبعته سلسلة من الصرخات المفزعة وصيحات حشد من الناس مرتعبة. اندفع د. إلى النافذة وفتحها على وسعها ونظر خارجها. توجهت في الوقت نفسه إلى حامل البطاقات وأخذت الرسالة ووضعتها في جيبي ووضعت مكانها رسالة مشابهة مزيفة (مشابهة في مظهرها الخارجي) جهزتها بعناية فائقة في سكني، مقلدا الحروف الأولى من اسم د—— بسهولة شديدة بختم مصنوع من الخبز.

"تسبب في الاضطراب الذي وقع في الشارع تصرف مجنون من رجل يحمل بندقية المسكيت. أطلقها بين حشد من النساء والأطفال. وقد ثبت مع ذلك أن الطلقة فارغة بدون رصاصة وقد تركوا الرجل يرحل بوصفه مجنونا أو سكران. عندما رحل، جاء د. من النافذة التي تبعته إليها مباشرة بعد أن أمنت الشيء المعني، ودعته بعد ذلك مباشرة. كان الرجل الذي ادعى الجنون من طرفي".

سألته: "لكن ما هو غرضك من تبديل الرسالة بأخرى شبيهة؟ ألم يكن من الأفضل أن تصادرها بصراحة في الزيارة الأولى وترحل؟"

أجاب دوبن: د. رجل يائس ووقح. كما أن فندقه لا يخلو من رفقاء مكرسين لخدمته. لو أنني قمت بالمحاولة الجريئة التي تقترح لم أكن لأغادر الحضرة الوزارية حيا أبدا. لم يكن ليسمع عني الناس الصالحون في باريس بعد ذلك أبدا. غير أنه لدي هدفا بعيدا عن هذه الاعتبارات أيضًا. أنت تعرف تحيزاتي السياسية. في هذه المسألة عملت بوصفي نصيرا للسيدة المعنية. لقد ظل الوزير قابضا عليها في قبضته لمـــدة ثمـــانية عشر شهرا، والآن أصبح في قبضتها؛ فبما أنه لا يعلم أن الرسالة ليست في حوزته؛ سيواصل ابتزازه لها كما لو أن الرسالة مازالت في حوزته. وهكذا سيسلم نفسه إلى دماره السياسي على الفور حتميا. كما أن انهياره سيصبح غريبا أكثر منه مفاجئا. إن الحديث عن ***Facilis descensus Averni***(1) جيد جدا، لكن في كل أنواع

---

(1) *Virgil's Aeneid.* الأنيادة لفرجيل، الهبوط السهل لأفرنوس

الصعود كما قال كاتالاني[١] عن الغناء من الأسهل الصعود عن الهبوط. في الوقت الحالي لا أحمل تعاطفا - على الأقل لا أشفق- له ذلك الذي يهبط. فهو *monstrum horrendum* وحش رهيب. رجل ذكي بلا مبادئ. أعترف مع ذلك أنني أود لو عرفت طبيعة أفكاره المحددة حين يجبر على فتح الرسالة التي تركتها له في حامل البطاقات بعد أن يهزم ممن سماها مدير الشرطة "شخصية معينة"

"كيف؟ هل وضعت شيئا معينا بها؟"

"عجبا، لا يصح أبدا أن أتركها فارغة، هذا مهين له. ذات مرة في فيينا، قام د. بعمل مؤذ لي، حينها قلت له بروح مداعبة إنني سأتذكر هذا. لهذا بما أنني أعرف أنه سيشعر بالفضول نحو هوية الشخص الذي يفوقه حيلة ودهاء، رأيت أن من المحبط ألا أمنحه مفتاحا لفضوله. فهو على دراية تامة بخطي، ولم أنسخ في منتصف الورقة البيضاء إلا الكلمات التالية:

حبكة مميتة على هذا النحو

إن لم يستحقها أتريس

فثيتيس يستحقها[٢]

ستجد هذه السطور في مسرحية أترى لكريبيلون[٣]

---

(1) *Catalane (1780-1849)* مغني أوبرا إيطالي.

(٢) وردت بالفرنسية.

(٣) انظر جرائم القتل في شارع مورج.

القـط الأسـود

لا أتوقع منكم ولا أسعى إلى أن تصدقوا الحكاية الوحشية التي على وشك أن أسطرها الآن، وإن كانت حكاية عادية للغاية. مجنون أنا إذا توقعت هذا، في الوقت الذي ترفض حواسي نفسها الاعتراف بما عايشته. لكنني لست مجنونا، وواثق تماما أنني لا أحلم. غير أنني سأموت غدا، واليوم أرغب في تحرير روحي من عبء هذه الحكاية. إن غايتي الآنية أن أضع أمام العالم بوضوح وبإيجاز محكم وبدون تعليق، محض سلسلة من الأحداث العادية؛ ففي تعاقبها، روعتني هذه الأحداث. عذبتني؛ دمرتني. ومع ذلك لن أحاول أن أشرحها. فبالنسبة لي لم تقدم لي إلا الرعب، أما لآخرين فستبدو باروكيه[1] أكثر منها مرعبة. لعلي يوما أجد عقلا ما يخفف وهمي إلى المألوف- عقلا ما أكثر هدوءا وأكثر منطقية وأقل قابلية للإثارة من عقلي، لن يرى في الملابسات التي أسردها برهبة أكثر من تتابع عادي لأسباب ونتائج طبيعية جدا.

منذ طفولتي، تميزت بالطواعية والنزعة الإنسانية، بل كانت حتى رقة قلبي جلية إلى حد أنها جعلتني أضحوكة رفاقي. كنت مولعا

---

(١) الباروكي: أسلوب في التعبير الفني ساد في القرن السابع عشر، ويتميز بدقة الزخرفة وغرابتها وبالتعقيد والصور الغريبة في الأدب خاصة.

بالحيوانات على وجه خاص، ودللني والداي بمجموعة متنوعة من الحيوانات الأليفة. قضيت معها معظم وقتي ولم أشعر بالسعادة أبدا مثلما شعرت حين كنت أطعمها وألاعبها. نمت هذه الخصوصية في شخصيتي معي، وفي شبابي، استقيت منها واحدا من أهم مصادر سعادتي الأساسية. فبالنسبة لهؤلاء الذين كنوا عاطفة ما لكلب وفي وذكي، لن أجد مشقة في شرح طبيعة المسرة أو كثافتها التي تنبع عن هذا. ثمة شيء في حب الحيوان غير الأناني والإيثاري يخترق قلب من سنحت له الفرصة لاختبار صداقة الإنسان التافهة وإخلاصه الواهي.

تزوجت في سن مبكرة وسرني أن أجد في زوجتي نزعة إنسانية تتطابق مع نزعتي. وبعد أن لاحظت ولعي بالحيوانات الأليفة المنزلية لم تضع فرصة في تدبير أكثر الأنواع منها لطفا. كان لدينا طيور وسمكة ذهبية وكلب من سلالة جيدة وأرانب وقرد صغير وقط.

هذا القط، كان حيوانا ضخما على نحو لافت للنظر وجميلا، وأسود تماما وذكيا بدرجة مدهشة. في حديث زوجتي، التي في أعماقها مشبعة بالخرافات، عن ذكائه، كانت تشير في مرات عديدة إلى القول الشعبي القديم الذي يرى أن كل القطط السوداء ساحرات متخفيات. لا يعني هذا أنها كانت جادة في أي مرة بصدد هذه النقطة، ولا سبب وراء ذكر هذه النقطة أكثر من أنه اتفق أن تذكرتها الآن فقط.

بلوتو- هذا كان اسم القط- كان حيواني المفضل ورفيق لعبي. أنا وحدي الذي أطعمته، وكان يلازمني أينما ذهبت في أنحاء البيت، بل كان حتى من الصعب أن أمنعه عن اتباعي في الشوارع.

دامت صداقتنا على هذا المنوال لعدة سنوات، حين شهد خلالها مزاجي العام وشخصيتي (أخجل من الاعتراف) بسبب إدماني المسكرات، تحولا جذريا للأسوأ. فيوم بعد يوم تزايدت حدة مزاجي وتقلباته وانفعالي ولامبالاتي بمشاعر الآخرين. لقد سمحت لنفسي أن أستخدم لهجة قاسية مع زوجتي، بل إنني في النهاية، تطاولت عليها جسديا. وبالطبع استشعرت حيواناتي الأليفة التغير الذي طرأ على مزاجي. إنني لم أتجاهلها فقط بل عاملتها معاملة سيئة. ومع ذلك، كنت لا أزال أحمل مودة كافية تجاه بلوتو كبحتني عن أن أسيء معاملته، بما أنني لم أتردد في إساءة معاملة الأرانب والقرد أو حتى الكلب عندما كنت ألاقيها صدفة في طريقي أو حين تبدي نحوي عاطفة ما. غير أن اعتلالي غلبني - أي اعتلال مثل الكحول- وفي النهاية، حتى بلوتو الذي أصبح عجوزا الآن وبالتالي عنيدا، بدأ يعاني من آثار مزاجي المعتل.

في إحدى الليالي بعد أن عدت إلى البيت، من واحد من تلك الأماكن التي أتردد عليها في المدينة، ثملا، تصورت أن القط يتجنب وجودي. قبضت عليه؛ فأصابني بجرح خفيف في يدي بأسنانه خوفا من عنفي. تملكني جنون شيطاني على الفور. فقدت أعصابي. بدا أن

روحي الأصلية غادرت جسدي على الفور، وارتعش كل عصب في جسدي بغل يفوق الغل الشيطاني، غذاه كحول الجن. أخذت من جيب معطفي القصير مطواة وفتحتها وقبضت على القط المسكين من حنجرته ونزعت بروية عينا من عينيه من محجرها! أخجل، بل أحترق، وأرتجف وأنا أكتب هذا العمل الوحشي اللعين.

عندما عاد إليَّ صوابي مع الصباح -عندما تخلصت من أبخرة غضب فسوق الليل - شعرت بمزيج من الرعب والندم على الجريمة التي اقترفتها. لكنه كان على أحسن الأحوال شعورا ضعيفا ملتبسا لم يمس جوهر روحي. انغمست مرة أخرى في الشراب وسرعان ما غرق في النبيذ أي ذكرى لي عن صنيعي.

في الوقت نفسه شفي القط ببطء. منحه محجر العين المفقودة، مظهرا مخيفا، لكن بدا أنه لم يعد يعاني أي ألم. تجول حول البيت كالمعتاد، لكن، وكما هو متوقع، كان يفر في رعب شديد عند اقترابي. كنت لاأزال أحمل كثيرا من رقة قلبي القديمة فأحزنني في البداية هذا الكره الواضح من مخلوق أحبني يوما. لكن سرعان ما تنحى هذا الشعور لإحساس بالاهتياج. ثم حلت في النهاية، كما لو أنه من أجل أن يحل دماري النهائي والأخير، روح الانحراف[١]. لم يفسر الفلاسفة هذه الروح. ومع ذلك لست واثقا من أنني أعيش كما أنا واثق من أن ذلك

---

(١) انظر قصة عفريت الانحراف، حيث يتضح هذا المفهوم أو هذه الفكـــرة لـــدى (بو) أكثر.

الانحراف هو نبضة من النبضات الأولية في قلب الإنسان، هو ملكة أولية غير قابلة للانقسام أو عاطفة من العواطف الأولية التي تقود شخصية الإنسان. من لم يجد نفسه مئات المرات يرتكب فعلا تافها أو غبيا لا لسبب إلا لأنه يعرف أنه لا يجب أن يرتكبه؟ ألا نملك نزعة أبدية، بغض النظر عن تناقضها مع معرفتنا للصواب، لكي ننتهك ذلك الذي هو قانوني لمجرد أننا نفهم أنه قانوني؟ روح الانحراف هذه جاءت لتدمرني نهائيا. لقد كان هذا التوق الغامض للروح لأن تغيظ نفسها- أن تحرِّف طبيعتها الخاصة- أن ترتكب الخطأ من أجل الخطأ فقط- هو الذي حثني على أن أواصل وأن أكمل أخيرا الجرح الذي سببته للحيوان المسالم. ذات صباح وبدم بارد أزلقت أنشوطة حول رقبته وشنقته على فرع شجرة، شنقته بدموع تنساب من عيني وبندم مرير في قلبي، شنقته لأنني عرفت أنه أحبني ولأني شعرت أنه لم يعطني مبررا للعدوان، شنقته لأنني عرفت أنني بهذا الفعل كنت أرتكب خطيئة، خطيئة مميتة ستعرض روحي الخالدة لخطر حرمانها- لو أن هذا ممكن- من رحمة الله الرحيم والجبار.

في ليلة اليوم الذي ارتكبت فيه هذا العمل الوحشي أيقظتني من النوم صرخة حريق. كانت ستائر غرفتي مشتعلة بالنيران، كان البيت كله يحترق. وبصعوبة شديدة، استطاعت زوجتي والخادم وأنا النجاة من الحريق الهائل. كان الدمار شاملا، التهمت النيران كل ثروتي على وجه الأرض؛ ومن ذلك الحين فصاعدا، سأسلم روحي إلى اليأس..

أنا أسمى من الضعف الذي ينشد تأسيس سلسلة من الأسباب والنتائج بين الكارثة والعمل الوحشي. لكنني أسرد تفصيليا سلسلة من الوقائع ولا أرغب في أن أخلف أي حلقة محتملة ناقصة. في اليوم التالي للحريق، زرت بقايا البيت. سقطت الحوائط باستثناء حائط واحد. هذا الحائط كان من الجدران التي تفصل بين حجرات البيت، لم يكن سميكا، وانتصب في منتصف البيت وإليه استندت مقدمة سريري. قاوم طلاء الجص به بدرجة عظيمة فعل الحريق، وهي الحقيقة التي عزوتها إلى أنه حديث الطلاء. كان يتجمع حول هذا الحائط جمع كثير من الناس وبدا أن العديد من الأشخاص يتفحصون جزءا خاصا منه بدقة شديدة وانتباه حماسي. أثار فضولي كلمات مثل "غريب" و"فريد" وتعبيرات أخرى مشابهة. اقتربت ورأيت، صورة قط عملاق كما لو أنها محفورة بنقش بارز خفيف على سطح الجدار الأبيض. كانت منقوشة بدقة رائعة حقا. كان يوجد حبل حول رقبة الحيوان.

عندما رأيت هذا الشبح، لأنني لا أستطيع اعتباره أقل من هذا، تعجبت بشدة وبلغ رعبي أقصاه. لكن في النهاية ساعدني التفكير طويلا على إعطائي فكرة ما عما حدث. تذكرت أنني شنقت القط في حديقة مجاورة للبيت، وعندما انطلقت تنبيهات الحريق، امتلأت هذه الحديقة على الفور بالناس، حيث قام شخص ما منهم بقطع القط من الشجرة، وألقاه عبر نافذة مفتوحة إلى غرفتي. على الأرجح، فعل هذا بنية إيقاظي من النوم. ضغطت الحوائط المنهارة ضحية وحشيتي إلى مادة

الجص المرشوش حديثا، وساعد الجير مع اللهيب والأمونيوم المنبعث من الجثة على إنهاء البورتريه بالشكل الذي رأيته عليه.

على الرغم من أنني بررت لعقلي، إن لم يكن لضميري، بهذه السهولة الواقعة المفزعة التي سردتها توا، لم تعجز عن أن تترك انطباعا عميقا على خيالي. فلأشهر لم أستطع التخلص من شبح القط، وخلال هذه الفترة عاد إلى روحي شعور ما بدا أنه نوع من الندم، لكن لم يكن بالندم. لم يتعد أسفا على فقد الحيوان، وبحثت حولي بين الأماكن الحقيرة التي كنت أتردد عليها دائما حينئذ عن حيوان أليف من النوع نفسه وذى مظهر مشابه إلى حد ما ليحل محله.

ذات ليلة بينما كنت أجلس مخدرا إلى حد ما في وكر مشبوه، جذب انتباهي فجأة شيء أسود يرقد فوق أحد البراميل المعبأة بالجن أو الروم الضخمة التي تشكل الأثاث الرئيسى للغرفة. لقد كنت أنظر بثبات إلى قمة هذا البرميل لعدة دقائق، وما سبب لي الدهشة حينها حقيقة أنني لم أر قبل الآن هذا الشيء فوقه. اقتربت منه ولمسته بيدي. كان قطا أسود، قطا ضخما جدا، في ضخامة بلوتو تماما ويشبهه تقريبا على جميع النواحي إلا في شيء واحد لم يكن في بلوتو شعرة واحدة بيضاء في أي جزء من جسده، لكن هذا القط لديه لطخة ضخمة، على الرغم من أنها غير محددة الشكل، بيضاء تغطي تقريبا منطقة الصدر كلها.

عندما لمسته نهض على الفور وخرخر بصوت عال وتمسح بيدي وبدا سعيدا باهتمامي به. هذا إذن كان المخلوق نفسه الذي كنت أبحث عنه. عرضت على صاحب الأرض على الفور أن أشتريه، لكن هذا الشخص لم يطالبني بمقابل له، لأنه لا يعرف أي شيء عنه، ولم يره من قبل أبدا.

أخذت أربت عليه وعندما تأهبت للذهاب إلى البيت، أظهر الحيوان ميلاً إلى مصاحبتي. سمحت له أن يفعل هذا وأنا أتوقف أحيانا وأربت عليه بينما أتقدم في طريقي. عندما وصل إلى البيت، ألفه على الفور وأصبح المفضل لدى زوجتي.

من جانبي، سرعان ما وجدت نفورا تجاهه ينشأ بداخلي. كان هذا بالضبط عكس ما تنبأت به، لكن- لا أعرف كيف أو لم- ولعه الواضح بي أشعرني في الواقع بالاشمئزاز والإزعاج. وتدريجيا، بلغت مشاعر الاشمئزاز والإزعاج مرارة المقت. تجنبت المخلوق، إحساس ما بالخزي وذكرى صنيعي السابق الوحشي منعاني من أن أسيء إليه جسديا. لعدة أسابيع، لم أضربه أو أعامله بقسوة بأي شكل. لكن تدريجيا، تدريجيا جدا، أصبحت أنظر إليه بنفور لا يوصف وأفر من وجوده الشنيع كما لو أني أفر من أنفاس مصابة بالطاعون.

لا شك في أن ما أضاف إلى كرهي للحيوان هو اكتشافي في الصباح الذي أحضرته فيه إلى البيت أنه مثل بلوتو كان مجردا من

عين من عينيه. هذا الظرف، من ناحية أخرى، لم يزد إلا عطف زوجتي التي تملك، كما ذكرت بالفعل، درجة عالية من الإنسانية التي كانت ذات مرة صفتي المميزة ومصدرا للعديد من أبسط سعاداتي وأنقاها.

ومع ذلك، مع نفوري من هذا القط بدا أن ولعه بي يزيد. لاحق خطواتي بعناد من الصعب أن أجعل القارئ يفهمه. فأينما أجلس يربض تحت مقعدي أو يقفز إلى ركبتي ويغمرني بملاطفته الكريهة. فإذا نهضت لأمشي يأتي بين قدمي وبهذا يكـاد يطـرحني أرضـا تقريبا أو يثبّت مخالبه الطويلة والحادة في ثوبي ويتسلق بهذه الطريقة إلى صدري. في مثل هذه الأوقات، على الرغم من أنني تقت إلى تدميره بتسديد لطمة إليه، امتنعت عن أن أفعل هذا؛ جزئيا، بسبب ذكرى جريمتي السابقة، لكن أساسا – فلأعترف مرة واحدة– بسبب فزعي الشديد من الحيوان.

هذا الفزع لم يكن فزعا من أذى جسدي، ومع ذلك لا أعرف كيف أحدده بطريقة أخرى. أنا أشعر بالخزي من الاعتراف، نعم حتى في هذه الزنزانة، أشعر بالخزي من الاعتراف بأن الرعب والفزع اللذين أثاراهما في الحيوان رسخهما محض وهم لا يمكن فهمه عقليا. لفتت زوجتي انتباهي أكثر من مرة إلى طبيعة علامة الشعر الأبيض التي تحدثت عنها والتي شكلت الفارق الوحيد الواضح بين الحيوان الغريب وذلك الـذي دمـرته. لعـل القارئ يذكر أن هذه العلامة على الرغم من أنها ضخمة فهي ليست محددة الشكل في الأساس. لكن

تدريجيا، ببطء شديد، بدرجات لا يمكن ملاحظتها تقريبا، بدرجات، ناضل عقلي لفترة طويلة لكي يرفضها باعتبارها وهما، اتخذت في النهاية صورة دقيقة واضحة المعالم. كانت صورة شيء أرتجف من أن أسميه ولهذا قبل كل شيء كرهته وفزعت منه ولو كنت أملك الجرأة لتخلصت منه، أقول، إنها صورة الشيء الشنيع المخيف، صورة المشنقة! أداة الحداد والشناعة للرعب والجريمة؛ أداة الكرب والموت!

والآن تجاوز غضبي منه الغضب الإنساني الصرف. وحيوان أعجم- الذي دمرت باحتقار رفيقه- سبب لي، أنا الإنسان المصنوع على صورة الله العلي، هذا القدر من الكرب الذي لا يطاق! للأسف! لم أذق نعمة الراحة بعد ذلك لا نهارا ولا ليلا! فخلال اليوم الأول لم يتركني المخلوق دقيقة وحدي، وفي الثاني، أجفل كل ساعة من أحلام عن خوف لايوصف، لأجد لهاث هذا الشيء على وجهي ووزنه الكبير – كابوسا مجسدا لا قوة لي لكي أنفضه – ضاغطا على قلبي للأبد!

تحت وطأة هذه العذابات ماتت البقايا الضعيفة من الخير بداخلي. أصبحت الأفكار الشريرة رفيقتي الحميمة الوحيدة، أحلك الأفكار وأشرها. تقلبات مزاجي العادية زادت إلى كره لكل الأشياء والبشر، وكانت زوجتي هي أكثر الأشخاص الذين عانوا وتحملوا انفجارات الغضب الشديد المفاجئة والمتكررة وغير المتسامحة التي أطلقت لها العنان بعمى.

ذات يوم اصطحبتني لغرض منزلي ما إلى قبو البيت القديم الذي أجبرنا فقرنا على أن نقطنه. تبعني القط إلى السلم شديد الانحدار وأغاظني إلى حد الجنون بعد أن كاد أن يطرحني على وجهي. رفعت فأسا، وقد نسيت في نوبة غضبي الشديد، الرعب الطفولي الذي كبح يدي حتى الآن، وسددت ضربة إلى الحيوان، كان يمكن أن تكون قاتلة على الفور لو أنها هبطت كما تمنيت. لكن هذه الضربة أوقفتها يد زوجتي. كان تدخلها هو المهماز الذي دفعني إلى ثورة أقل وصف لها شيطانية؛ فسحبت ذراعي من قبضتها ودفنت الفأس في دماغها. سقطت ميتة على الفور بدون أنة.

ما إن ارتكبت هذه الجريمة حتى بدأت على الفور وبروية تامة مهمة إخفاء الجسد. أدركت أنني لن أستطيع نقله من البيت سواء بالنهار أو بالليل دون أن أخاطر بأن يلاحظني أحد من الجيران. ورد العديد من الخطط إلى عقلي. ففي لحظة، فكرت في تقطيع الجثة إلى أجزاء صغيرة وتدميرها بالنار. وفي أخرى، توصلت إلى حفر قبر لها في أرضية القبو. في مرة أخرى، فكرت أن أرميها في بئر الساحة الخلفية، أو حزمها في صندوق على أنها بضائع متخذا الترتيبات الاعتيادية، فأحصل على حمال يأخذها من المنزل. أخيرا، توصلت إلى ما اعتبرته اكتشافا أفضل من كل هذه الخطط. عزمت على أن أردم فوقها حائط القبو مثل رهبان العصور الوسطى الذين كانوا يردمون ضحاياهم في الحائط.

كان القبو مهيأ لمثل هذا الغرض جيدا. فقد كانت حوائطه سيئة البناء وغطيت مؤخرا بجص خشن حالت رطوبة الجو دون أن يجف ويقسو. علاوة على ذلك، كانت هناك بروز في أحد الحوائط بسبب ردم مدخنة ما أو موقد حتى يماثل باقي حوائط القبو. لم أشك في أنني أستطيع نزع الطوب بسهولة عند هذه البقعة ووضع الجثة بها وردم كل شيء مرة أخرى كما من قبل بحيث لا يمكن أن تكتشف أي عين شيئا مريبا.

ولم تخدعني حساباتي. وبواسطة عتلة خلعت كل الطوب وبعد أن أسندت الجسد بعناية إلى الحائط الداخلي ودعمته في هذا الوضع، أرجعت البناء إلى ما كان عليه في الأصل بدون مشقة. كنت قد تدبرت ملاطا ورملا فجهزت بكل الحيطة دهانا لا يمكن تمييزه عن القديم وطليت به بعناية الطوب الجديد. عندما انتهيت شعرت بالرضا من النتيجة؛ فلم يبدو على الحائط أدنى مظهر أنه لمس. ورفعت النفايات من على الأرض بعناية فائقة. نظرت حولي بانتصار وقلت لنفسي:" هنا على الأقل لم يذهب مجهودي عبثا".

كانت خطوتي التالية أن أبحث عن الحيوان الذي كان السبب في كل هذه التعاسة لأنني قررت بصرامة في النهاية أن أقتله. لو أنني قابلته في تلك اللحظة لم يكن هناك شك في مصيره، لكن يبدو أن الحيوان الماهر شعر بالخطر من عنف غضبي السابق وامتنع عن أن يظهر في حالتي المزاجية تلك. من المستحيل أن أصف أو أن أصور إحساس الراحة العميق والسار الذي أثاره غياب المخلوق الكريه في

صدري. لم يظهر خلال تلك الليلة، وهكذا لليلة واحدة على الأقل منذ قدومه إلى البيت نمت بعمق وبهدوء، نعم، نمت على الرغم من ثقل وطأة جريمة القتل على روحي.

مر اليوم الثاني والثالث ومازال معذبي لم يأت. مرة أخرى تنفست مثل رجل حر. لقد فر الوحش رعبا من المبنى للأبد! لن أراه مرة أخرى، كانت سعادتي بالغة! لم يزعجني ذنب عملي الأسود. أجريت بعض التحقيقات لكنني أجبت عنها بسهولة. بل تم تفتيش البيت لكن لم يتم اكتشاف أي شيء بالطبع. وتطلعت إلى هنائي الآتي باعتباره أمرا مضمونا.

في اليوم الرابع من يوم القتل، جاءت مجموعة من الشرطة، إلى البيت فجأة على غير توقع وباشرت مرة أخرى إجراء تفتيش صارم للمبنى والأراضي المحيطة به. لم أشعر بأي ارتباك لأنني كنت مطمئنا إلى سرية المكان الذي أخفيت فيه الجثة. طلب مني الضباط أن أصاحبهم في بحثهم. لم يتركوا ركنا أو زاوية بدون تفتيش. في النهاية، للمرة الثالثة أو الرابعة هبطوا إلى القبو. لم ترتعش عضلة مني. كان قلبي يخفق بهدوء قلب النائم ببراءة. مشيت في القبو من طرفه إلى نهايته. عقدت ذراعي على صدري وتجولت ريحة وجيئة. شعر البوليس بالرضا التام وتأهبوا للرحيل. كانت السعادة في قلبي أقوى من أن أكبحها. تحرقت لكي أقول حتى كلمة واحدة انتصارا وأن أضاعف من يقينهم ببراءتي.

قلت في النهاية بينما يصعدون السلم: "يا سادة أنا سعيد أني ساعدت في تهدئة شكوككم. احترامي وتمنياتي لكم بالصحة. بالمناسبة أيها السادة، هذا - هذا بيت جيد البناء (في رغبة مسعورة لكي أقول أي شيء بيسر، لم أدرك ما قلته أبدًا) بل قد أقول إنه بيت ممتاز البناء. هذه الحوائط- هل ترحلون يا سادة؟ - هذه الجدران مبنية بصلابة"، وحينها بسبب ثورة من الشجاعة فحسب، ضربت بعصا كنت أحملها بقوة فوق الجزء نفسه من الجدار الذي تنتصب وراءه جثة زوجتي.

لكن ليحمني الله ويخلصني من مخالب إبليس. ما إن صمت صدى ضرباتي حتى أجابني صوت من التابوت - صرخة، في البداية جاءت متقطعة ومكتومة مثل نشيج طفل ثم امتدت بسرعة إلى صرخة طويلة وعالية ومتواصلة غير بشرية وشاذة- زعقة عواء وعويل، شبه مرعوبة وشبه منتصرة مثل التي تخرج من الجحيم فقط، من حناجر الملعونين في كربهم ومن شياطين جذلة بسبب عقوبتهم السرمدية.

من الحماقة أن أتحدث عن أفكاري. ترنحت متراجعا إلى الجدار المقابل. ظلت المجموعة على السلالم بلا حركة للحظة بسبب شدة الرعب والرهبة. في اللحظة التالية كانت دستة من الأذرع القوية تنبش الحائط الذي سقط بسهولة. وقفت الجثة منتصبة أمام عيون المفتشين وقد تحللت بالفعل وتخثرت بالدماء. على رأسها بفم أحمر مفتوح وعين وحيدة من نار جلس الحيوان الشنيع الذي حثني دهاؤه على ارتكاب جريمة قتل وسلمني صوته الواشي إلى الجلاد. لقد ردمت الوحش داخل التابوت.

سقوط منزل آشر

قلبه عود متدلٍ

يترنم لحظة لمسه

دي برانجيه[1]

في يوم غائم ومظلم وغامض في خريف العام، بينما تتدلى السحب واطئة قابضة في السماء، كنت أرحل وحيدا على ظهر حصان عبر بقعة موحشة في الريف، وفي النهاية وجدت نفسي، بينما تدنو ظلال المساء، ضمن نطاق بيت آشر السوداوي. لا أعرف كيف حدث هذا، غير أن مع أول لمحة مني للبيت، هيمن عليَّ إحساس من الغم لايحتمل. أقول لايحتمل، لأنه كان شعورا لم يخفف منه أي من تلك العواطف شبه السارة (بسبب شعريتها) التي يتلقى بها غالبا العقل حتى أكثر الصور الطبيعية قسوة في المناطق المنعزلة أو الرهيبة. نظرت إلى المشهد أمامي، إلى المنزل فقط، وإلى معالم المشهد الطبيعي البسيط للأراضي المحيطة به، إلى الجدران المكشوفة للرياح، إلى النوافذ التي تشبه العين المفتوحة الخاوية، إلى نباتات البردى التي

---

(1) De Beranger شاعر (١٧٨٠-١٨٥٧)

تحوطها الأعشاب الضارة، إلى عدة جذوع أشجار بيضاء عفنة- نظرت باكتئاب كامل لا يمكن أن أقارنه بأي إحساس دنيوي مناسب أكثر من يقظة النائم بعد الأفيون- أي بالسقوط المرير إلى الحياة اليومية، بالسقوط الشنيع للحجاب. انتاب قلبي ثلجية، هبوط، سقم، ورهبة أسرت تفكيري لا يمكن أي نخز من الخيال أن يلويها إلى سمو بأى حال. ماذا كانت، توقفت لأفكر- ما هذا الذي أثار أعصابي وأنا أتأمل منزل آشر؟ كان لغزا استعصى عليّ حله، ولا يمكنني أن أتصارع مع الأخيلة المبهمة التي تزحف عليّ بينما أتأمل المشهد. كنت مجبرا على أن أتقهقر إلى النتيجة غير المرضية، توجد بلاشك مجموعة من الأشياء الطبيعية البسيطة جدا التي لها قوة التأثير علينا على هذا النحو، غير أن تحليل هذه القوة لايزال يكمن في طيات اعتبارات تتجاوز قدراتنا على الفهم. فكرت أن مجرد إجراء ترتيب مختلف لأجزاء المشهد، لتفاصيله قد يكفي لتعديل، أو ربما، لإلغاء قدرته على إعطاء انطباع حزين؛ وبناء على هذه الفكرة، وجهت لجام فرسي إلى حافة بركة سوداء وشنيعة تومض وميضا هادئا بقرب المنزل، وحدقت إلى الأسفل، لكن برعدة أكبر من قبل، إلى التفاصيل التي أعيد ترتيبها والمعكوسة لنباتات البردى الرمادية وفروع الأشجار الشبحية والنوافذ التي تشبه العين المفتوحة الخاوية.

ومع ذلك، في هذا القصر الكئيب، اعتزمت الإقامة عدة أسابيع. إن صاحبه، رودريك آشر، كان واحدا من رفاق صباي، لكن مر العديد

من السنوات منذ آخر لقاء لنا. من ناحية أخرى، وصلتني مؤخرا في الجزء القصي من البلاد- رسالة منه- لم تترك لي بسبب طبيعتها الملحة إلحاحا كبيرا إلا أن أحضر شخصيا إجابة عليها. دلت الرسالة على معاناته من هياج عصبي؛ فقد تحدث كاتبها عن مرض جسدي حاد ألم به، عن اضطراب عقلي أغمه، وعن رغبة محمومة في رؤيتي بوصفي أفضل صديق له والوحيد، راجيا أن تخف وطأة مرضه بالبهجة التي تشيعها فيه صحبتي. لقد كان الأسلوب الذي قيل به كل هذا وأكثر بكثير من هذا، لقد كان الحب الواضح الذي تخلل طلبه هو الذي لم يترك لي أي مساحة للتردد، وعليه امتثلت على الفور لاستدعائه الذي مازلت اعتبره استدعاء فريدا جدا.

على الرغم من أننا كنا رفيقين حميمين في صبانا، كنت أعرف عنه القليل في الحقيقة. فتحفظه كان مفرطا. ومع ذلك، كنت أعلم أن عائلته العريقة اشتهرت منذ زمن بعيد بحساسية خاصة في المزاج، ظهرت عبر أزمنة طويلة في أعمال فنية سامية عديدة، وتجلت مؤخرا في أعمال الخير السخية لكن الخفية، كما أيضا في تفانيها المتقد لتعقيدات العلوم الموسيقية الذي فاق تفانيها للجمال الأرثوذكسي، الواضح. عرفت أيضا الحقيقة اللافتة للنظر أن جذع سلالة آشر، التي تمتعت بالعراقة، لم تزهر في أى مرحلة من مراحلها فرعا باقيا، بكلمات أخرى إن العائلة كلها سلسلة نسب واحدة تنحدر من أصل واحد، مع تغير تافه جدا ومؤقت، وظلت هكذا. وبينما أراجع في عقلي

إبقاءهم كاملا على شخصية البيت والأراضي المحيطة به إلى جانب الصفة التي نسبت إليهم، وأتأمل النفوذ المحتمل الذي مارسه أحدهما مع مرور القرون على الآخر، اعتبرت أن هذا العجز عن إنتاج ثمرات ذات قرابة أو صلة بها والانتقال المباشر الناجم عن ذلك، الذي لم ينحرف من الأب إلى الابن، للإرث مع الاسم، هو الذي طابق بين الاثنين بحيث دمج الحق الأصلي في الملكية في اللقب الغريب والملتبس، "منزل آشر"، اللقب الذي يبدو أنه يشمل في عقول الفلاحين الذين يستخدمونه كلا من العائلة وقصر العائلة.

قلت إن التأثير الوحيد لتجربة طفولتي إلى حد ما عمل على تعميق انطباعي الأول الفريد عندما نظرت إلى البركة. لا شك في أن إدراكي بنمو مخاوفي الوهمية السريع - لم لا أسميها هكذا؟ عمل أساسا على تسارع هذا النمو في حد ذاته. أعرف منذ البداية أن هذا هو قانون المفارقة لكل المشاعر التي أساسها الرعب. ولعله لهذا السبب فقط، نما في عقلي عندما رفعت عيني مرة أخرى إلى المنزل نفسه، من صورته المنعكسة في البركة، خيال غريب- خيال سخيف جدا بالفعل لا أذكره هنا إلا لأبين القوة الشديدة للأحاسيس التي تغمني. حاولت بهذا الشكل أن أؤثر على خيالي لكي أصدق أن ثمة أثيرا ما خاصا يغلف القصر كله والأراضى المحيطة، أثيرا لا صلة له بهواء السماء، بل يتبخر من الأشجار المتعفنة والحائط الرمادي والبركة الساكنة، بخار مهلك، غامض، بليد، راكد، بالكاد يمكن تمييزه، رصاصي اللون.

بعد أن نفضت عن روحي ما لابد أنه حلم، فحصت عن كثب الوجه الحقيقي للمنزل. عكس معلمه الرئيسي قدما مفرطا. آثار لطخات العصور عظيمة. انتشرت فطريات دقيقة على الوجه الخارجي كله، متدلية من الأفاريز في شبكة رقيقة متشابكة الخيوط. غير أن هذا لم يتسبب في خراب غير عادي؛ فلم ينهار أي جزء من البيت، وعكس تنافرا كبيرا بين أجزائه الراسخة التي تكيفت تماما والحالة المتفتتة لكل صخرة من صخوره على حدة. في التنافر شبه الكبير ذكرني بالكلية الخادعة في الأشغال الخشبية التي بليت منذ سنوات طويلة في بعض الأقبية المهملة، بدون نسمة من الهواء الخارجي تزعجها. ومع ذلك، بعيدا عن هذه الدلالة على التحلل الشديد، لا يحمل المبنى أي علامة على زعزعته. ربما تكتشف عين المراقب المتمحصة صدعا يمكن تمييزه بصعوبة يشق طريقه عبر الوجه الأمامي للمبنى من سطحه في خط متعرج، حتى يضيع في أمواه البركة الراكدة.

اجتزت بفرسي، بينما ألاحظ هذه الأشياء، طريقا قصيرا مرتفعا عبر أراضي القصر السبخة إلى البيت. أخذ فرسي خادما ينتظرني، ودخلت إلى القاعة مجتازا قنطرة قوطية. ثم، قادني خادم خصوصي ذو خطوات مختلسة في صمت عبر ممرات عديدة مظلمة ومعقدة في تقدمي نحو استوديو سيده. كثير مما قابلته في طريقي ساهم، لا أعرف كيف، في تعميق المشاعر الغامضة التي تحدثت عنها بالفعل. وفي حين أن الأشياء حولي – نقوش الأسقف والنسيج المزخرف الذي يغطي

الحوائط وسواد الأرضيات الأبنوسي وتذكارات شعارات النبالة هائلة الحجم التي صلصلت وأنا أمشي بجوارها- ليست إلا أشياء اعتدت عليها منذ طفولتي أو اعتدت على مثلها، وفي حين أنني لا أتردد في الاعتراف أن كل هذا مألوف لي جدا، فقد أصابتني الدهشة حين وجدت إلى أي حد غرابة الأخيلة التي أثارتها الصور العادية في. على درجة من درجات السلم، قابلت طبيب العائلة- أعتقد أن ملامحه اكتست تعبيرا مختلطا من المكر والحيرة- حياني وهو يرتعش ومر بي. حينئذ، فتح الخادم الخصوصي بابا وقادني إلى مجلس سيده.

كانت الغرفة التي وجدت نفسي فيها ضخمة جدا وعالية. فقد كانت النوافذ طويلة وضيقة وحافتها العلوية لها شكل مستدق، وعلى مسافة شاسعة جدا من أرضية سوداء بلوطية بحيث لا يمكن الوصول إليها كلية من الداخل. أشعة ضعيفة من نور قرمزي اللون شقت طريقها عبر ألواح النوافذ الزجاجية الشعرية، وعملت على أن تحدد معالم الأشياء البارزة تحديدا وافيا، مع ذلك تناضل عين المرء عبثا لكي تبلغ الزوايا الأبعد من الغرفة، أو فجوات السقف المقنطر والمبري. تدلت ستائر داكنة على الحوائط. كان الأثاث العام وفيرا وغير مريح وعتيقا وباليا. تناثر عدد من الآلات الموسيقية والكتب في كل مكان من الغرفة، لكنها فشلت في أن تضفي أي حيوية على المشهد. شعرت أني تنفست جوا من الحزن. تعلق في الغرفة جو من الغم الشديد والعميق والذي لايمكن محوه، وهيمن على كل شيء.

عند دخولي، نهض آشر من فوق أريكة كان يرقد عليها وحياني بدفء حيوي ونشط يحمل، كما اعتقدت في البداية، مودة مبالغة، جهدا متكلفا لرجل ضجر من العالم. مع ذلك، نظرة سريعة إلى ملامحه أقنعتني بصدقه الكامل. جلسنا، ولعدة لحظات، حيث لم يتحدث، نظرت إليه بشعور نصفه شفقة ونصفه رهبة. بالتأكيد لم يحدث أن تغير أي إنسان إلى هذا الحد في فترة قصيرة جدا مثلما تغير رودريك آشر! بصعوبة استطعت أن أحمل نفسي على أن تسلم بتطابق السقيم الذي كان يجلس أمامي مع رفيق صباي المبكر. غير أن ملامح وجهه كانت دائما مميزة، بشرة شديدة الشحوب، عين واسعة وصافية وذات لمعان فائق، شفتان رفيعتان إلى حد ما وشديدتا الشحوب، لكن ذاتا تقويسة جميلة جمالا فائقا، كان الأنف عبري الشكل رقيقا، لكن باتساع في فتحتيه غير مألوف في التكوينات المشابهة، الذقن مصبوبا بنعومة، يعبر في افتقاره إلى البروز، عن ضعف الطاقة المعنوية، الشعر ذا نعومة أكبر من نعومة خيوط العنكبوت وضعيفا. إن هذه الملامح، مع امتداد غير عادي فوق منطقتي الصدغ، صنعت كلها ملامح لاتنسى بسهولة. والآن في المبالغة الصرفة التي تميز هذه القسمات، والتعبير الذي تنزع إلى نقله، طرأ عليها تغير هائل حتى إن الشك أصابني في شخص من أتحدث إليه. لقد أجفلني فوق كل شيء، بل حتى أشعرني بالرهبة، امتقاع لون الجلد شديد الشحوب الحالي والبريق الخارق الحالي في العينين. إن الشعر الحريري أيضا قد ترك ينمو بلاعناية،

وحيث إنه، في نسيجه البري الذي يشبه مخاط الشيطان، طفا عوضا عن أن يسقط حول الوجه، لم أستطع، حتى ببذل جهد أن أربط ملمحه الأرابيسكي[١] مع أي فكرة عن الإنسانية البسيطة.

صعقني على الفور التنافر في أسلوب صديقي، وسرعان ما وجدت أن هذا ينبع من سلسلة من الصراعات الضعيفة والعبثية، للتغلب على رعشة روتينية، على هياج عصبي مفرط. تهيأت لشيء من هذه الطبيعة فعليا، ليس بسبب رسالته بقدر ما كانت ذكرياتي عن ملامح صبيانية معينة فيه، ونتائج نتجت عن تأكيده على حالته الجسدية الخاصة وحساسية مزاجه البالغة. كان أداؤه نشطا وراكدا على التناوب؛ لقد كان يتغير صوته بسرعة من حيرة مرتجفة (عندما تبدو أرواح الحيوانات معلقة تعليقا مؤقتا كلية) إلى نوع من الإيجازية القوية- ذلك النطق الحاد، والخطير والمتمهل والعميق- ذلك النطق الحنجري الرصاصي، المتوازن والمصوغ صياغة تامة، الذي يمكن ملاحظته في السكير التائـــه أو ملتهـــم الأفيـــون المدمن خلال فترات إثارته الحادة.

تحدث على هذا النحو عن هدف زيارتي، وعن رغبته الشديدة في رؤيتي، وعن السلوان الذي يتوقع أن أقدمه له. دخل، بتفصيل ما فيما

---

(١) أرابيسك من الكلمات المفضلة جدا لدى (بو)، والتي منحها مدلولات خاصة به، وهو هنا يصف الشعر وليس الوجه، وقد يريد بهذه الكلمة أن يوحي بالغرابـــة والمرض العقلي والإبداع.

يعتقد أنه طبيعة مرضه. قال إنه شر عائلي ويتعلق ببنية العقل، والذي يأس من أن يجد له علاجا، وأضاف على الفور، أنه محض مرض عصبي سيزول سريعا بلا شك. يتكشف هذا المرض في حشد من الأحاسيس غير الطبيعية، بعض منها كما سردها أثارت اهتمامي وأصابتني بالارتباك، على الرغم من أن التعبيرات التي استخدمها وأسلوبه العام كان لهما وطأة علي. لقد عاني كثيرا من حدة مرضية في كل حواسه، لم يكن يحتمل إلا الطعام الخالي من الطعم، لم يستطع أن يرتدي إلا ملابس من نسيج معين، كل روائح الأزهار قابضة لصدره، تتألم عيناه من أي ضوء حتى باهت، وأصوات معينة فقط، وهي أصوات الآلات الوترية، التي لم تبعث فيه الرعب.

اكتشفت أنه عبد لأنواع شاذة من الرعب. قال:" سوف أهلك، لابد أن أهلك في هذه الحماقة البائسة. لهذا، لهذا وليس لأي شيء آخر سوف أضيع. أخشى من أحداث المستقبل، ليس في حد ذاتها، لكن من نتائجها. أرتعد من التفكير في أي حادث عرضي حتى أشدها تفاهة، الذي قد ينتج عنه هذا الاهتياج غير المحتمل لروحي.. فعليا، لا أحمل داخلي بغضا تجاه الخطر إلا في تأثيره المطلق، الرعب. في حالتي هذه المتوترة، المثيرة للشفقة، أشعر أنه آجلا أو عاجلا سيحل الوقت الذي يجب فيه أن أعتزل الحياة والعقل معا في صراع ما مع الشبح المقيت، الخوف".

علاوة على ذلك، علمت على فترات متقطعة، ومن خلال تلميحات متقطعة وملتبسة، ملمحا فريدا آخر عن حالته الذهنية. كان مكبلا بانطباعات معينة من النوع الخرافي تتعلق بالمنزل الذي يقيم به، الذي لم يغامر بمغادرته لسنوات عديدة - تتعلق بتأثير انتقلت إليه قوته الخرافية في شروط شديدة الإبهام بحيث لايمكن إعادتها هنا- قال إن نفوذ بعض الخصائص التي توجد في شكل القصر فحسب وجوهره استولى على روحه بفضل معاناته الطويلة، تأثير في معنويات كينونته أحدثته البنية الجسدية للحوائط الرمادية وبريجات البركة المعتمة التي يطل عليها القصر كله.

من ناحية ثانية، اعترف، بتردد مع ذلك، أن قدرا كبيرا من الغم الفريد الذي أصابه يمكن إرجاعه إلى أصل أكثر طبيعية وملموس- إلى المرض الحاد والطويل- في الواقع، إلى التفكك الذي يدنو بوضوح، الذي أصاب أخته المحبوبة الرقيقة، رفيقة روحه لسنوات طويلة، قريبته الأخيرة والوحيدة على الأرض. قال بمرارة لن أستطيع أن أنساها: " موتها سيتركه، (هو، اليائس، الضعيف) آخر فرد من سلالة آشر العريقة". أثناء ما كان يتحدث، مرت الليدي مادلين، (هكذا كانت تسمى)، في جزء بعيد من الجناح، واختفت بدون أن تلاحظ حضوري. نظرت إليها باندهاش كامل لايخلو من الرعب، إلا أنني وجدت صعوبة في تفسير هذه المشاعر. إحساس من الخدرغلبني أثناء ما كانت عيناي تتابع خطواتها المنسحبة. في النهاية، عندما انغلق باب عليها، سعت

نظراتي غريزيا وبلهفة إلى ملامح أخيها، لكنه كان قد دفن وجهه في يديه، ولم أستطع أن أرى إلا شحوبا شديدا أكثر بكثير من شحوبه الطبيعي غمر أصابعه النحيلة التي تقطرت عبرها دموع جياشة.

أعيا مرض الليدي مادلين طويلا مهارة أطبائها. كان التشخيص غير المألوف هو فتور في الشعور ثابت، هزال تدريجي للجسد، حالات متكررة على الرغم من أنها سريعة الزوال من إغماء تخشبي جزئي. وحتى اليوم، كانت تتحمل بشجاعة وعزيمة ضغط مرضها، ولم تلجأ إلى السرير في النهاية، لكن في نهاية اليوم الذي وصلت فيه، استسلمت، (كما أخبرني أخوها في اهتياج عصبي عن الوصف)، إلى القوة المنهكة للمرض المدمر، وعلمت أن اللمحة التي حصلت عليها لها من المحتمل لهذا السبب أن تكون آخر ما أحصل عليه؛ لأن الليدي مادلين، على الأقل وهي لاتزال على قيد الحياة لن أراها بعد الآن.

لعدة أيام تالية على هذا لم يذكر اسمها لا آشر ولا أنا، وانشغلت خلال هذه الفترة بالتخفيف من كآبة صديقي. رسمنا وقرأنا معا أو استمعت، كما لو في حلم، إلى جيتاره المتكلم. وهكذا، كلما منحت لي حميمية تزيد بيننا ومازالت تزيد حق الدخول إلى تجاويف روحه، أدركت بمرارة عبث كل محاولة لإبهاج عقل تدفقت منه ظلمة كأنها ملكة ثابتة متصلة على كل أشياء الكون المعنوية والجسدية في شعاع ثابت من الكآبة.

سأحمل دوما في كل مكان ذكرى الساعات المهيبة العديدة التي قضيتها وحيدا مع سيد منزل آشر. مع ذلك سأخفق إذا حاولت نقل لمحة دقيقة عن خاصية الدراسات أو الانشغالات التي جعلتني أنخرط فيها أوعرفني عليها. ألقت مثالية مفككة للغاية ومثيرة وميضا جحيميا فوق كل شيء. ألحانه الحزينة المرتجلة الطويلة سيتردد صداها في أذني إلى الأبد. وفوقها تحمل ذاكرتي بألم انحرافا معينا فريدا وتضخيما للسيماء البرية التي تميز الفالس الأخير لفون فيبر[1]. من اللوحات الزيتية التي تفتق عنها خياله المعقد، والتي غدت لمسة وراء لمسة غامضة ارتجفت منها برعب أكبر، لأنني لا أعرف لم ارتجفت، من بين هذه اللوحات (حية كما هي صورها الآن أمامي) عبثا أن أحاول في نطق الكلمات المكتوبة فحسب كشف جوهرها. ببساطته التامة، وبأهدافه العارية لفت الانتباه وأرهبه. لو حدث أن رسم في أي وقت مخلوق بشري فكرة، فهذا المخلوق هو روديك آشر. بالنسبة لي على الأقل- في ظل الظروف التي أحاطت بي حينذاك - انبثقت من التجريدات النقية التي ناضل وسواس المرض ليرميها فوق قماش لوحته، حدة من الرهبة التي لا تطاق، لا تحمل ظلا لما شعرت به دوما مع ذلك في تأمل أحلام يقظة فوسلي[2] المشعة بالتأكيد، وإن كانت ملموسة.

---

(1) Von Weber (1786-1826) موسيقي ألماني

(2) Henry Fuseli (1741-1825) رسام انجليزي

إحدى الأفكار المجسدة المهولة لصديقي، التي لا ترشح بروح التجريد، يمكن تظليلها في كلمات، مع أنها ستخرج ضعيفة. تصور إحدى لوحاته الصغيرة قبوا طويلا للغاية ومستطيلا ذا حوائط منخفضة الارتفاع وناعمة وبيضاء وبدون انقطاعات أو زخرفة. نقلت خواص مكملة معينة في التصميم الفني للوحة على الإيحاء بأن هذه الحفرة ترقد على عمق مفرط تحت سطح الأرض. لم أر به أي منفذ في أي جزء من امتداده الشاسع، ولم أميز أي مصباح أو أي مصدر صناعي للضوء، ومع ذلك يتدفق فيضان من الأشعة الكثيفة خلاله وتغمره كله في سناء مروع وغيرملائم.

تحدثت بالفعل عن تلك الحالة المرضية لعصب السمع، التي تجعل المريض لا يطيق أي موسيقى باستثناء تأثيرات محددة من الآلات الوترية. لعل الحدود الضيقة التي اقتصر ضمنها على الجيتار، هي التي منحت الميلاد بدرجة كبيرة إلى أسلوب أدائه الرائع. غير أن اليسر المتوقد في أعماله الموسيقية المرتجلة لايمكن تعليله بهذا. لابد أنها كانت في النغمات وفي كلمات أخيلته الجامحة أيضا (لأنه كان كثيرا ما يواكب عزفه ارتجالات لفظية مقفاة)، التي جاءت نتيجة ذلك الهدوء العقلي الحاد والتركيز الذي ألمحت إليه سابقا بما أنني لاحظته فقط في لحظات خاصة من الإثارة الصناعية العالية. حفظت بسهولة كلمات واحدة من تلك القطع الموسيقية المرتجلة. لعلي انبهرت بقوة أكبر بها، كما ألقاها؛ لأني شعرت في التيار التحتي أو الغامض لمعناها

أنني أرى، ولأول مرة في حياتي إدراكا تاما من جانب آشر بترنح عقله النبيل على عرشه. إن الأبيات الشعرية، التي بعنوان "القصر المسكون[١]" تجري تقريبا إن لم يكن بالضبط على النحو التالي:

في واد من أكثر أوديتنا خضرة، بالملائكة الطيبة مسكون، رفع رأسه ذات مرة قصر جميل وفخم ــ قصر مشرق ــ في أراضى خيال الملك، انتصب هناك! لم ينثر ساروفيم من قبل ريشة فوق طراز جميل هذا الجمال!

رايات صفراء، رائعة، ذهبية، على سطحه في الهواء طافت وتدفقت، (هذا ــ كل هذا ــ كان في الزمن الغابر منذ أمد بعيد) ومع كل نسمة رقيقة عبثت، في ذلك اليوم الحلو، بموازاة الأسوار الأرجوانية والشاحبة، هبت رائحة مجنحة.

المتجولون في ذلك الوادي السعيد رأوا، عبر نافذتين مضيئتين، أرواحا متحركة بموسيقية، على ناموس عود رخيم، ملتفين حول عرش، حيث، كان يجلس، ولي العهد[٢] في وضع يلائم مجده تماما، كان حاكم المملكة مرئيا.

وباللؤلؤ والياقوت متوهجا، كان باب القصر الجميل، عبره أتى متدفقا، متدفقا، متدفقا، وومومضا أبدا جيش من الأصداء، واجبها الحلو لم يكن إلا لتشدو فطنة وحكمة مليكها بأصوات فائقة الجمال.

---

(١) قصيدة لــ "بو" في أعماله الشعرية الكاملة بهذا العنوان، نشرت مستقلة فيما بعد.
(٢) ابن الامبراطور: المولود إبان حكم أبيه (خاص بأولاد أباطرة الإغريق)

لكن المخلوقات الشريرة في أثواب الحزن، أغارت على المنزلة العالية للملك. (آه، فلنندب! ـــ لأن الصباح لن يبزغ عليه موحشا!) وملتف حول بيته، المجد الذي تورد وازدهر ليس إلا قصة باهتة الذكرى عن الزمن القديم المدفون.

والمسافرون الآن، في ذلك الوادي، عبر النوافذ حمراء الإضاءة يرون أشكالا ضخمة، تتحرك بروعة على لحن متنافر النغمات، بينما، مثل نهر سريع مروع، عبر الباب الباهت يندفع أبدا حشد بشع ويضحك، لكن لن يبتسم بعد الآن.

سأذكر دائما أن إيحاءات انبثقت عن هذه القصيدة الأغنية قادتنا إلى سلسلة من الأفكار حيث من خلالها أصبح واضحا رأي لآشر سأذكره، ليس بسبب جدته إلى حد كبير(لأن رجالا آخرين رأوا هذا) بقدر ما بسبب عناده في الدلائل التي أكده بها. هذا الرأي، في شكله العام كان قدرة المخلوقات النباتية على الحس. لكن في خياله المفكك، اتخذت الفكرة صفة أكثر جرأة وتجاوزت إلى، في ظل شرط معين، مملكة الأشياء اللاعضوية.

تعوزني الكلمات لكي أعبر عن المدى الكامل أو الحماسة الجادة لمذهبه. إن إيمانه، من ناحية أخرى يتعلق (كما ألمحت سابقا) بالأحجار الرمادية لبيت أسلافه. فقد تصور أن القدرة على الحس بالنسبة للبيت تتجسد في طريقة رصف تلك الأحجار، في ترتيب نسقها كما في نسق

الفطريات العديدة التي تغمرها ونسق الأشجار المتحللة التي تنتصب حول البيت، وفوق كل شيء ثبات هذا النسق طويلا، وتضاعفه في أمواه البركة الساكنة. إن البرهان عليه- برهان القدرة على الحس- يمكن أن يرى كما قال (وهنا أنا أبدأ كما تحدث) في التكثيف التدريجي لكن المحتم لجو خاص بهم حول الأمواه والحوائط. أضاف أن النتيجة يمكن اكتشافها في ذلك النفوذ الصات لكن الملح والرهيب الذي صاغ لقرون مصائر عائلته والذي صنع منه ما أراه الآن- ما كان. تلك الآراء لا تحتاج إلى تعليق ولن أقوم بأي تعليق.

إن كتبنا- الكتب التي شكلت جزءا غير يسير من وجودنا العقلي لسنوات- كانت كما يمكن أن يفترض المرء، تنسجم انسجاما صارما مع خاصية خياله. استغرقنا معا في قراءة أعمال مثل "السنجاب وقطتي" لجـــريسيه[١]، "بلفيجور" لميكيافيللي[٢]، "الجنة والجحيم" لسويدنبورج[٣]، "الرحلة الأرضية لنيكولاس كليم" لهولبرج[٤]، " كشف البخت" لروبرت فلود وجين ي انداجين وديلاشامبر[٥]، "رحلة إلى المسافة الزرقاء" لتيك[٦]؛ "مدينة الشمس" لكامبانيلا. كان أحد كتبنا المفضلة نسخة

---

(1) Gresset (1709-1777) Vairvert et Ma Chartreuse.

(2) Machiavelli (1469-1527) Belfagore.

(3) Swedenborg (1688-1772) Heaven and Hell.

(4) Holberg (1684-1754) Iter Subterraneum.

(5) Flud (1574-1637); Jean D'Indagine, Maria de la Chambre (1594-1669)

(6) Tieck (1773-1853) Journey into the Blue Distance

صغيرة من "تعليمات إلى الرهبان الذين يستجوبون الهراطقة" لامريك دي جيرون الدومينيكي(١)، وفقرات في كتاب بومبونيس ميلا(٢)، عن الإله ساتير الأفريقي وبان، كان يجلس آشر بعد قراءتها ساعات حالما. أما العمل الأساس الذي يثير فيه البهجة كان قراءة كتاب نادر جدا وغريب في قطع ربعي بحروف قوطية – كتيب كنيسة منسية– حراسة الموتى طبقا لجوقة كنيسة مانز(٣).

لم أستطع أن أمنع نفسي عن التفكير في الشعائرية المتطرفة لهذا العمل، وتأثيره المحتمل على وسواس المرض حين صرح لي، ذات مساء، بعد أن أعلمني بحدة أنه لم يعد ثمة وجود لليدي مادلين بعد الآن، بنيته في أن يحتفظ بجثتها لأسبوعين (قبل دفنها الأخير) في قبو من الأقبية العديدة داخل حوائط المبنى. من ناحية أخرى، كان السبب الذي يرد لهذا الإجراء الفريد سببا ينم عن خبرته بالمرض والناس، لم أشعر أن لي حق مناقشته؛ لقد قاد الأخ إلى هذا القرار(هكذا أخبرني) اعتبارات الخاصية غير المألوفة لمرض المتوفاة، والأسئلة الفضولية والمتلهفة من جانب أطبائها، وموقع مقبرة العائلة البعيد والمكشوف. لن أنكر أنني عندما تذكرت الملامح الشريرة للشخص الذي قابلته على السلالم في يوم وصولي إلى المنزل، لم أرغب في معارضة ما اعتبرته في أفضل الأحوال ليس إلا حيطة غير مؤذية وتخلو تماما من الغرابة.

---

(1) Nicholas d Gironne. Directorium Inquisitorium

(2) Pomponius Mela

(3) Vigiloe Mortuorum secundum Chorum Ecclesioe Maguntinoe.

نزولا على طلب آشر، عاونته شخصيا في ترتيبات الدفن المؤقت. وبعد أن كفن الجسد، حملناه وحدنا إلى مرقده. كان القبو الذي وضعنا فيه الجثة (والذي لم يفتح لفترة طويلة حتى إن مشاعلنا التي خنقها إلى حد ما الجو القابض به، لم تمنحنا فرصة لفحصه) صغيرا ورطبا ويخلو تماما من أى وسيلة تسمح بدخول النور إليه، ويرقد على عمق عظيم مباشر تحت ذلك الجزء من المبنى الذي يقع فيه جناح نومي. يبدو أنه استخدم في الأزمنة الإقطاعية البعيدة سجنا للحصن، وفي الأيام اللاحقة، مكانا لتخزين البارود أو مادة أخرى ما سريعة الاحتراق باعتبارها جزءًا من أرضه، وكان الجزء الداخلي برمته من مدخله المقنطر الطويل الذي عبرناه مغطى بالنحاس تماما. كما كان الباب المصنوع من حديد مصمت محصنا بالطريقة نفسها. تسبب وزنه الهائل عندما تحرك في إصدار صوت صرير حاد من مفصلاته.

بعد أن وضعنا حملنا الحدادي على حوامل داخل منطقة الرعب هذه، استبعدنا جزئيا غطاء الكفن الذي لم يتم تثبيته بمسامير بعد، ونظرنا إلى وجه ساكنته. لفت انتباهي تماثل مدهش بين الأخ والأخت، وآشر الذي تكهن ربما بأفكاري غمغم ببعض الكلمات القليلة التي علمت منها أن المتوفاة وهو كانا توأمين، وأن تلك التماثلات ذات الطبيعة غير الواضحة تماما وجدت بينهما دائما. ومع ذلك، لم تطل نظراتنا طويلا إلى المتوفاة؛ لأننا لم نستطع أن ننظر إليها بدون أن نشعر بالرهبة. إن المرض الذي دفن الليدي في ذروة الشباب ترك كما

هو معتاد في كل الأمراض التي تحمل صفة الإغماء التخشبي، المظهر الكاذب لاحمرار ضعيف على الصدر والوجه وتلك الابتسامة المتوانية فوق الشفتين التي تبدو فظيعة في الموت. أعدنا الغطاء وثبتناه، وبعد أن أحكمنا غلق الباب، اتخذنا طريقنا بصعوبة إلى أجنحة الجزء العلوي من المنزل التي لا تقل عتمة كثيرا عن القبو.

والآن بعد أن انقضت عدة أيام من الحزن المرير، حل تغير واضح على ملامح الاختلال العقلي لصديقي. اختفى أسلوبه الروتيني. أهمل انشغالاته الاعتيادية أو نسيها. تجول من غرفة إلى غرفة بخطوات مسرعة وغير منتظمة وبلاهدف. اكتسى شحوب ملامحه غير الطبيعي لونا شاحبا شحوب الموتى، لكن بريق عينيه تلاشى تماما. ولم أعد أسمع الآن البحة العرضية القديمة في نبرة صوته التي سمعتها ذات مرة، وغلفت نطقه رعشة مرتجفة كأنها نتيجة رعب شديد. جاءت لحظات بالفعل اعتقدت أن عقله الذي يعاني من حالة هياج متواصلة، كان مثقلا بسر ثقيل ما، يصارع من أجل أن يمتلك الشجاعة الضرورية لإفشائه. وفي لحظات، كنت مجبرا مرة أخرى على أن أعزو كل هذا إلى أهواء الجنون الغامضة؛ لأنني رأيته يحدق في الفراغ لساعات طويلة، بأقصى انتباه كأنه يصغي إلى صوت ما خيالي. ولم يكن من العجب أن حالته أرعبتني، وأثرت في. شعرت أنه يزحف فوقي، بدرجات بطيئة لكن أكيدة، النفوذ الجامح لمخاوفه المجهولة الخيالية لكن المؤثرة.

وقد كان على وجه الخصوص عند ذهابي إلى السرير في الليلة السابعة أو الثامنة بعد وضع الليدي مادلين في برج محصن، أن عانيت القوة الكاملة لهذه المشاعر. لم يقترب النوم من مرقدي، بينما الساعات تبهت وتبهت. ناضلت من أجل أن أعرف سبب العصبية التي امتلكتني. حاولت أن أصدق أن كثيرا، إن لم يكن كل ما شعرت به، كان يعود إلى النفوذ المشوش لأثاث الغرفة الكئيب، للستائر الداكنة والبالية التي تتلوى بسبب زفرة عاصفة على وشك الهبوب، تتأرجح متشنجة ريحة وجيئة فوق الجدران وتحف باضطراب حول زخارف السرير. هيمنت رجفة لاتقاوم على جسدي وفي النهاية جثم على قلبي كابوس من الإنذار بالخطر لامبرر له تماما. رفعت نفسي مستندا إلى الوسائد بعد أن صارعت في أن أطرح هذا بعيدا عني لاهثا، وحدقت بلهفة داخل ظلام الغرفة الكثيف، وأصغيت- لا أعرف لم، سوى أن روحا غريزية حثتني على ذلك- إلى أصوات خفيضة وغير محددة أتت عبر سكنات العاصفة على فترات زمنية متباعدة، لا أعرف من أين. وحيث إن شعورا حادا من الرعب غير مبرر بل لايحتمل تملكني، ألقيت باستعجال ملابسي فوقي (لأنني شعرت أنني لا يجب أن أنام بعد الآن خلال الليل) وحاولت أن أرفع نفسي من الحالة المثيرة للشفقة التي سقطت فيها بأن أمشي بخطوات واسعة ريحة وجيئة عبر الجناح.

لم أقم إلا بدورات قليلة على هذا النحو، حين استولت على انتباهي خطوات خفيفة فوق السلم المجاور لغرفتي. تعرفت توا عليها

لأنها كانت لآشر. في لحظة بعد ذلك، طرق طرقة لطيفة على بابي، ودخل يحمل مصباحا. كانت ملامحه، كالعادة شاحبة شحوب الموتى، لكن، علاوة على ذلك، كان يوجد في عينيه مرح جنوني، هستيريا مكبوحة بوضوح في سلوكه الكلي. روعني سيماؤه، لكن أي شيء كان أفضل من الوحدة التي احتملتها طويلا، بل إنني حتى رحبت بحضوره باعتباره فرجا.

قال بحدة بعد أن حدق فيما حوله لحظات ما في صمت:" وأنت لم تره؟ لم تره إذن، لكن، توقف! ستراه". بعد أن تحدث على هذا النحو وأطفأ بعناية مصباحه، أسرع إلى واحدة من النوافذ وفتحها على وسعها للعاصفة.

الضراوة العنيفة لعاصفة الرياح التي دخلت رفعتنا تقريبا إلى أعلى من أقدامنا. كانت ليلة عاصفة إلا أنها جميلة جمالا متجهما، وليلة من تلك الليالي الفريدة في رعبها وجمالها على نحو مفرط. فعلى مايبدو جمعت دوامة عاصفية قوتها في المنطقة المجاورة لنا حيث كان يوجد تناوب عنيف ومتكرر في اتجاه الرياح، ولم تحل الكثافة المفرطة للسحب (التي تدلت منخفضة جدا بحيث احتشدت فوق بريجات المنزل) دون أن ندرك السرعة النابضة بالحياة التي بها طارت منطلقة بسرعة من كل ناحية في مواجهة بعضها البعض، بدون أن تبتعد إلى الفضاء. أقول إن حتى كثافتها الشديدة لم تحل دون رؤيتنا هذا- إلا أننا لم نلمح القمر أو النجوم- كما لم يكن يوجد وميض من البرق. لكن كانت

الأسطح السفلية للكتل الضخمة من البخار الفائر والأشياء الأرضية التي تحيطنا مباشرة تومض في ضوء غير طبيعي من زفير غازي خافت وواضح للعين يحوط القصر ويكفنه.

قلت لآشر، زاعقا، بينما أقوده بعنف خفيف بعيدا عن النافذة إلى المقعد:" لايجب، لن تشاهـــد هذا! هذه الظواهر، التي تربكك، ليست إلا ظاهرة كهربائية شائعة، أو ربما لأن أصلها المروع يكمن في الغاز الضار الزنخ المنبعث من البركة. فلنغلق هذه النافذة؛ إن الهواء مبرد وخطر على جسدك. ها هي رواية من الروايات المفضلة إليك. سأقرأها وسوف تسمع، وهكذا سوف نقضي هذه الليلة المروعة معا".

كان عنوان المجلد العتيق الذي رفعته" لقاء الجنون" للسير لانسلوت كاننج، لكنني ادعيت أنه المفضل لدى آشر ساخرا سخرية حزينة من أن تكون حقيقة جادة، حيث إنه في إسهابه الفظ والفقير خياليا لن يكون موضع اهتمام مثالية صديقي السامية والروحية. لقد كان مع ذلك، الكتاب الذي في متناول يدي مباشرة، وقد أطلقت العنان لأمل غامض بأن الإثارة التي تهيج الآن الوسواس المرضي لعلها تجد فرجا (لأن تاريخ المرض عامر بشذوذ مشابه) حتى في أكثر الأعمال حماقة التى سأقرأها. فإذا كان لي أن أحكم بالسيماء المرهقة للحيوية التي أصغى بها أو أصغى ظاهريا لكلمات الحكاية؛ فيصح لي أن أهنئ نفسي على نجاح هدفي.

وصلت إلى الجزء الشهير من القصة، حيث يدخل بطل القصة عنوة إلى منزل الناسك بعد أن يفضي مسعاه إلى اكتساب حق الدخول سلميا إلى الفشل. هنا، تجري كلمات الرواية التي سأتذكرها جيدا،على النسق التالي:

"أثرلد الذي كان شجاعا بالسليقة، والذي كان مع ذلك الآن جبارا بسبب قوة النبيذ الذي شربه، لم ينتظر أكثر من ذلك ليعقد مفاوضات مع الناسك، الذي كان في هدوئه ذا طبيعة عنيدة وحقودة، لكن إذ شعر بالمطر على كتفيه، وخشي هبوب العاصفة، رفع صولجانه دفعة واحدة وبضربات، صنع ثغرة في ألواح الباب الخشبية ليده المكسية بقفاز حديدي، وبينما يسحب الباب بعد ذلك مباشرة بثبات، شقه وحطمه ومزقه إربا، حتى إن ضجيج الخشب الجاف والمكتوم أزعج الغابة وتردد صداه عبرها".

مع نهاية هذه الجملة التي بدأتها، توقفت للحظة، لأنه بدا لي (على الرغم من أنني انتهيت إلى أن خيالي المثار خدعني)، أنه من جزء بعيد جدا من القصر يصل، بوضوح، إلى أذني ما يمكن أن يكون(بتماثل تام في الصفة) صدى (لكنه خامد وغير رنان بالتأكيد) صوت التحطيم نفسه والشق الذي كان يصفه السير لانسلوت بهذه الصفات على وجه الخصوص. لقد كان بلاشك الصدفة فقط التي أسرت انتباهي، لأنه في خضم خشخشة إطارات النوافذ والضجة الممتزجة العادية للعاصفة التي مازالت تشتد، ليس في الصوت ذاته بالتأكيد مايجب أن يثير اهتمامي أويزعجني. واصلت القصة:

لكن البطل أثرلد، بعد أن دخل الآن من الباب، اغتاظ غضبا ودهشة من ألا يرى أي لمحة من الناسك الحاقد، بل عوضا عنه تنين ذو سلوك وضيع وشنيع وذو لسان ناري يشبع رغباته وهو يقوم بالحراسة أمام قصر ذهبي ذي أرض فضية، وفوق الحائط علق ترس من نحاس لامع مع هذه الكلمات الأسطورية:

فاتح هو من يدخل إلى هنا

زافر بالترس هو من يذبح التنين.

ورفع أثرلد صولجانه، وضربه فوق رأس التنين الذي سقط أمامه ولفظ أنفاسه البغيضة بزعقة مروعة ومزعجة، بل كانت ثاقبة حتى إن أثرلد سد أذنيه بيديه بسرور في مواجهة جلبتها المروعة، التي لم يسمع مثلها من قبل أبدا من أي شيء أو عن أي شيء.

هنا توقفت مرة أخرى بحدة، لكن بشعور من الدهشة الكبيرة، حيث لايوجد شك أيا كان، في هذه اللحظة، سمعت فعليا (على الرغم من أنني وجدت صعوبة في أن أعرف من أي اتجاه تصدر) صرخة خفيضة وبعيدة على مايبدو لكنها خشنة، وطويلة غير عادية، أو صوت صرير ما- النظير لما صوره خيالي بالضبط لزعقة التنين غير الطبيعية كما وصفتها الرواية.

على الرغم من أن آلاف الأحاسيس المتضاربة التي هيمن عليها التعجب وأقصى درجات الرعب أزعجتني بسبب وقوع الصدفة الثانية

والأكثر استثناء، فمازلت محتفظا بحضور كاف لعقلي يجنبني أن أقول أي ملاحظة تثير أعصاب رفيقي الحساسة. لم أكن متأكدا أبدًا من أنه لاحظ الأصوات التي أتحدث عنها، على الرغم من أني متيقن أن تبدلا غريبا وقع في سلوكه خلال الدقائق القليلة الأخيرة. فمن مكانه الذي يواجهني، أدار تدريجيا كرسيه، بحيث أصبح يجلس ووجهه يقابل باب الغرفة، وعليه لم أستطع إلا أن أرى جزئيا ملامحه، على الرغم من أني رأيت أن شفتيه ترتجفان كما لو أنه يغمغم بصمت. سقط رأسه فوق صدره؛ إلا أنني عرفت أنه لم يكن نائما من عينه الصارمة المفتوحة على وسعها حين كنت ألقي نظرة سريعة على جانب وجهه، حركة جسده أيضًا كانت تنفي هذه الفكرة؛ لأنه كان يهتز من جانب إلى جانب بأرجحة لطيفة بل ثابتة ومنتظمة. بعد أن لاحظت هذا سريعا، تابعت سرد السير لانسلوت الذي واصل على النحو التالي:

"وحيث إن البطل نجا من غضب التنين المروع وتذكر الترس النحاسي الذي فض السحر الذي كان عليه، أزاح الجثة بعيدا عن طريقه، واقترب ببسالة فوق طريق القلعة الفضي إلى حيث كان الترس فوق الجدار حيث توانى بهدوء ليس بسبب لينه، بل سقط على قدميه فوق الأرض الفضية، بسبب صوت رنين عظيم قوي ورهيب".

ما إن عبرت هذه الألفاظ شفتي حتى- كما لو أن ترسا من النحاس سقط فعليا في هذه اللحظة بقوة على أرض فضية- أصبحت أدرك الصدى الواضح العميق الرنان المقعقع لكن المكتوم على

ما يبدو. قفزت واقفا وأنا متوتر تماما لكن اهتزاز آشر المنتظم لم ينقطع. اندفعت إلى الكرسي الذي كان يجلس فوقه. كانت عيناه تميل بثبات إلى الأمام وهيمنت على قسماته صرامة صخرية. لكن حين وضعت يدي على كتفه أصابت جسده رعدة قوية وارتعشت ابتسامة سقيمة حول شفتيه، ورأيت أنه كان يتحدث في غمغمة خفيضة سريعة هذرية كأنه لايعي حضوري. وحيث إني انحنيت فوقه سمعت في النهاية الفحوى الشنيع لكلماته.

"ألا تسمعه؟ - نعم أسمعه وسمعته. سمعته منذ عدة دقائق، عدة ساعات، عدة أيام، طويلة.. طويلة... طويلة- إلا أنني لا أجرؤ- كم أنا مثير للشفقة - بائس تعس أنا! - لا أجرؤ- لا أجرؤ أن أتحدث! وضعناها حية في القبر! ألم أقل إن حواسي كانت حادة! الآن أقول لك إني سمعتها تتحرك حركات ضعيفة في الكفن. سمعتها، منذ أيام عديدة - عديدة مضت - إلا أنني لا أجرؤ- لا أجرؤ أن أتحدث! والآن - الليلة - أثرلد - ها ها ها!- تحطيم باب الناسك، وصرخة موت التنين، وقعقعة الترس! بل قل على الأحرى انتزاع غطاء كفنها وصرير مفصلات سجنها وصراعها مع قنطرة القبو المغطاة بالنحاس! إلى أين أهرب؟ ألن تكون هنا حالا؟ ألا تسرع لكي توبخني على تسرعي؟ ألم أسمع خطواتها فوق السلالم؟ ألا أميز خفقان قلبها الثقيل والرهيب؟ مجنون!" هنا قفز واقفا بنشاط على قدميه وزعق عاليا كلماته كما لو أنه كان يفرغ روحه فيها "مجنون! أقول لك إنها الآن تقف أمام الباب"

كما لو أن في القوة الخارقة لكلماته تكمن قوة رقيقة - فتحت ببطء الألواح العتيقة الضخمة التي كان يشير إليها المتحدث، في التو فكوكها الثقيلة الأبنوسية. لقد كان صنيع عاصفة الريح المندفعة- لكن من الناحية الثانية، خارج هذه الأبواب انتصب هناك الجسد النبيل والمكفن لليدي مادلين آشر. كان يوجد دماء فوق ثوبها الأبيض ودليل على صراع مرير ما على كل جزء من جسدها الهزيل. للحظة وقفت ترتجف وتلف ريحة وجيئة على العتبة، ثم بصرخة منتحبة خفيضة، سقطت بقوة إلى الداخل فوق جسد أخيها وألقته على الأرض في سكراتها الأخيرة والضارية، جثة وضحية للأهوال التي تنبأ بها.

من هذه الغرفة ومن هذا القصر هربت مذعورا. كانت العاصفة لاتزال في ذروة ضراوتها عندما وجدت نفسي أعبر الطريق القديم القصير عبر أراضي القصر. فجأة انطلق عبر الطريق ضوء شديد والتفت لأرى من أين يمكن أن ينبعث وميض غيرمألوف إلى هذا الحد، لأن ما كان خلفي فقط هو البيت الفسيح وظلاله. كان الشعاع من القمر دموي اللون الكامل، الذي يشع الآن بحيوية عبر ذلك الصدع الذي كان يمكن رؤيته بوضوح فيما مضى، الذي تحدثت عنه من قبل بأنه يمتد من السطح في اتجاه ملتوٍ إلى القاعدة. بينما كنت أنظر اتسع هذا الصدع سريعا وهبت نسمة من الدوامة وبرز أمامي فجأة مدار القمر الكلي ودار عقلي وأنا أرى الجدران العظيمة تندفع متباعدة أحدها عن الآخر وانطلقت صرخة عنيفة مثل صوت آلاف الأمواه وانغلقت ببطء وصمت البركة العميقة والرطبة عند قدمي على بقايا "منزل آشر".

الحفرة والبندول

هنا زمرة نهمة من المعذبين

غذوا طويلا شهوتهم للدماء البريئة

آمن الآن وطننا

دمار الآن السجن الكئيب.

(رباعية ألفت لتكتب فوق بوابات سوق كان ينبغي أن تشيد في موقع منتدى اليعقوبيين[١] في باريس)

كنت مريضا، مريضا حتى الموت بذلك الكرب الممتد، وعندما حرروني في النهاية، وسمحوا لي بالجلوس، شعرت أن حواسي تتخلى عني. جملة- جملة الموت المرعبة- كانت آخر نطق مميز وصل إلى أذني. بعد ذلك بدت أصوات أعضاء محكمة التفتيش مختلطة في همهمة غير محددة حالمة. نقلت إلى روحي فكرة الثورة، لعله بسبب ارتباطها في خيالي بطنين دولاب الطاحون. دام هذا لفترة قصيرة فقط لأنني لم أسمع المزيد منها حاليا. غير أنني رأيت لفترة قصيرة، بأي

(١) اليعقوبيون مجموعة راديكالية خلال الثورة الفرنسية ارتبط اسميهم بعهد الإرهاب، الذي امتد من ١٧٩٣ إلى ١٧٩٤.

رعب مفرط! – رأيت شفاه القضاة بأروابهم السوداء. بدوا لي بيض – أبيض من الملاية التي أتابع من فوقها كلماتهم– ونحيلين حتى إلى حد التشوه، رفيعين بسبب حدة تعبيراتهم الصارمة، حدة تصميمهم الجامد، حدة احتقارهم الشديد لعذاب الإنسان. رأيت أن القرارات التي اعتبرتها القدر لاتزال تصدر عن تلك الشفاه. رأيتهم يتمعجون بأسلوبهم الخاص المميت في الحديث. رأيتهم يصوغون مقاطع حروف اسمي، وارتجفت لأنه لم يتبعه أي صوت. رأيت أيضًا لعدة لحظات من الرعب الهذياني، التموج الناعم وغير المرئي تقريبا لستائر الجوخ التي تكسو حوائط الغرفة. ثم وقع نظري على الشمعات السبع الطويلة على الطاولة. في البداية اكتست مظهر الإحسان وبدت ملائكة بيضاء هيفاء سوف تنقذني. لكن حينئذ فجأة شعرت بغثيان مميت طغى علي وشعرت أن كل عرق في جسدي يرتجف كما لو أنني لمست سلك بطارية مشحونة، في حين أن أشكال الملائكة أصبحت أشباحا خاوية من المعنى برؤوس من الشعلات ولم أر فيها أي فائدة. ومن ثم تسلل إلى خيالي مثل نغمة موسيقية صافية فكرة أن ما يظل عذبا لابد أن يكون في القبر. جاءت الفكرة ناعمة، متسللة، ومضى وقت طويل قبل أن تحصل على استحساني الكامل، لكن عندما توصلت روحي في النهاية إلى الإحساس بها وتصديقها اختفت أشكال القضاة كما لو أنه بفعل السحر من أمامي، وغرقت الشمعات الطويلة في اللاشيء، واختفت شعلاتها تماما، وهيمن سواد الظلام، وبدا أن كل حواسي

يبتلعها هبوط مندفع مجنون كما تهبط الروح إلى حادس[١]. ثم أصبح الكون هو الصمت والسكون والليل.

أغمى علي لكنني مازلت لا أستطيع أن أقول إنني فقدت الوعي كله. لن أحاول أن أعطي تعريفا لما ظل منه أو حتى وصفه. غير أنه لم يضع كله. في أعمق مستويات النوم، لا في الهذيان، لا في الإغماء، لا في الموت، بل حتى في القبر لا يضيع كله. وإلا لن يكون هناك خلود للإنسان. إذ ننهض من أعمق سبات، نمزق لعاب الشمس[٢]. لكن في الثانية التالية (لعله هش جدا ذلك اللعاب) لا نتذكر أننا حلمنا. نمر بمرحلتين أثناء عودتنا إلى الحياة من الإغماء: أولا، تلك التي تتعلق بالإحساس العقلي أو الروحي، ثانيا، تلك التي تتعلق بالجسدي والوجود. من المحتمل لو استطعنا عند وصولنا إلى المرحلة الثانية تذكر انطباعات الأولى، سنجدها بليغة في ذكريات الخليج الذي يقع تحتها. وهذا الخليج هو... ماذا؟ كيف سنفرق ظلاله عن ظلال القبر على الأقل؟ لكن إذا لم نتذكر انطباعات ما سميته بالمرحلة الأولى إراديا، ألا تأتي من تلقاء نفسها على الرغم من هذا بعد انقطاع زمني طويل في حين أننا نندهش عندما تأتي؟ إن من لم يسقط مغشيا عليه أبدا، لن يجد قصورا غريبة ووجوها مألوفة في جمرات تومض، لن يرى في الهواء الرؤى الحزينة تطفو، تلك التي لا يراها العديد، لن

---

(١) مثوى الأموات في الميثولوجيا الإغريقية.

(٢) أو مخاط الشمس، غشاء كنسيج العنكبوت يطير في الهواء حين يصفو الجو.

يتأمل عطور بعض الأزهار الجديدة، لن يتحير عقله مع معنى إيقاع موسيقي ما لم يلفت انتباهه من قبل.

من بين مساع عديدة وعميقة للتذكر، من بين صراعات جادة لتجميع ملمح ما عن حالة العدم الظاهرية التي انحدرت إليها روحي، مرت لحظات حلمت فيها بالنجاح، كانت وجيزة، فترات وجيزة جدا حين استحضرت إلى ذهني ذكريات أقنعني عقلي الصافي من عهد سابق بأنه يمكن أن يكون لها صلة فقط بتلك الحالة من اللاوعي الظاهري. تكشف تلك الظلال عن أشكال طويلة رفعتني وحملتني بصمت إلى الأسفل، وتحملني إلى الأسفل، الأسفل، حتى تقمعني دوخة مروعة إلى التفكير فقط في الهبوط السرمدي. تحكي أيضًا لقلبي عن رعب غامض بسبب سكون قلبي غير الطبيعي. ثم يأتي إحساس بالشلل المفاجئ خلال كل الأشياء. كما لو أن هؤلاء الذين حملوني (قطار شبحي) تجاوزوا في هبوطهم حدود اللاحدود، وتوقفوا بسبب نفاد جهدهم. بعد هذا، تذكرت الركود والانقباض، ثم الجنون، جنون الذاكرة التي تنهمك في الأشياء المحرمة.

تعود فجأة إلى روحي حركة وصوت، الحركة المضطربة للقلب وصوت خفقانه في أذني. ثم وقفة، يصبح كل شيء فيها أبيض. ثم مرة أخرى صوت وحركة ولمسة وإحساس مدغدغ يسود جسدي. ثم وعي محض بالوجود بدون تفكير- الحالة التي دامت طويلا- ثم فجأة، تفكير، ورعب مرجف ومسعى جدي لفهم حالتي الحقيقية. ثم رغبة

قوية للانحدار في عدم الإحساس. ثم إعادة إحياء مندفعة للروح وجهد ناجح للحركة. والآن ذاكرة كاملة للمحاكمة والقضاة والستائر السوداء والجملة والمرض والإغماء. ثم نسيان كامل لكل ما تلى ذلك، لكل ما حدث في اليوم اللاحق برمته، وجدية شديدة في المحاولة أتاحت لي أن أتذكر بضبابية.

حتى الآن لم أفتح عيني. شعرت أنني أرقد على ظهري غير مقيد. مددت يدي فسقطت بثقل على شيء ما رطب وقاس. عانيت من أجل أن تبقى في ذلك المكان عدة دقائق بينما كنت أناضل من أجل أن أتخيل أين أنا وماذا أكون. اشتقت إلى أن أستخدم بصري، لكنني لم أجرؤ. رهبت النظرة الأولى للأشياء حولي. لم يكن أنني خفت من النظر إلى أشياء فظيعة لكن أن أغدو منزعجا خوفا من ألا يكون هناك أي شيء أراه. في النهاية بيأس وحشي ملأ قلبي فتحت عيني سريعا. تحققت أسوأ أفكاري. غلفني سواد ليل سرمدي. ناضلت لكي أتنفس، فقد بدا أن كثافة السواد تقمعني وتخنقني. كان الجو خانقا خنقة لا تحتمل. رقدت ساكنا بهدوء وبذلت مجهودا لأشغل عقلي. استدعيت إلى ذهني إجراءات المحاكمة التفتيشية وحاولت من هذه النقطة أن أستنتج حالتي الحقيقية. لقد صدر الحكم، وبدا لي أن فترة زمنية طويلة جدا انقضت، إلا أنني لم أفترض للحظة أنني ميت. مثل هذا الافتراض بغض النظر عما نقرأه في الأدب غير متساوٍ كلية مع الوجود الحقيقي، لكن أين أنا وبأي حالة كنت؟ يهلك عادة المحكوم عليه بالموت حرقا على العصا، وقد نفذ حكم

من هذه الأحكام في ليلة محاكمتي نفسها، هل أعادوا حبسي في زنزانتي حتى حلول موعد القربان التالي، الذي قد لا يحدث قبل أشهر عديدة؟ رأيت على الفور أن هذا مستبعد. يوجد طلب على الضحايا فوري. علاوة على ذلك، كل الزنزانات في توليدو[1] لها أرضيات صخرية، ولا تخلو تماما من الإنارة.

فكرة مخيفة الآن دفعت الدم سيولا فجأة نحو قلبي، ولفترة وجيزة انتكست مرة أخرى أكثر إلى العدم. عند إفاقتي وثبت على قدمي على الفور مرتجفا ارتجفات متشنجة في كل وتر من جسدي. مددت ذراعي فوقي وحولي في كل الاتجاهات. لم أشعر بشيء، إلا أنني رهبت أن أتحرك خطوة خشية أن أصطدم بحائط من حوائط القبر. انفجر العرق من كل مسام في جسدي ووقف في قطرات باردة كبيرة فوق جبهتي. لم أعد أقدر على تحمل ألم الترقب في النهاية؛ فتحركت إلى الأمام بحذر وقد مددت ذراعي وحدقت جاحظا على أمل أن ألتقط شعاعا ضئيلا من النور. واصلت التقدم لعدة خطوات لكن لايزال كل شيء أسود وفارغا. تنفست بحرية أكبر؛ بدا واضحا أن مصيري لم يكن على الأقل أبشع المصائر.

والآن، بينما مازلت أخطو قدما بحذر هاجم ذاكرتي آلاف الإشاعات الغامضة عن أهوال توليدو. فقد حكيت حكايات غريبة عن

---

(١) جنوب فرنسا

الزنزانات- طالما حكمت عليها بأنها حكايات خرافية- لكنها تظل غريبة ومخيفة فلا يمكن إعادتها إلا همسا. هل تركوني لأهلك من الجوع في عالم الظلام تحت الأراضي هذه، أو أي مصير، لعله أكثر رعبا حتى، ينتظرني؟ أن تكون النتيجة هي الموت، وموت مرير أكثر من المعتاد فأنا أعرف جيدا شخصية قضاتي بحيث لن يساورني الشك في مصيري. ما أزعجني فقط أو شغلني هو الطريقة والساعة.

قابل يدي الممدودتان في النهاية عائقا صلدا ما. كان حائطا من مبنى صخري على ما يبدو، ناعما جدا ولزجا وباردا. تابعته وأنا أخطو بكل الريبة التي أوحتها إليَّ حكايات قديمة معينة. من ناحية أخرى، هذه العملية لم تقدم لي وسيلة صالحة للتأكد من أبعاد زنزانتي لأنني قد أدور دائرة كاملة وأعود إلى النقطة التي انطلقت منها دون أن أعي هذه الحقيقة، حيث إن الحائط متماثل كلية. لذلك بحثت عن السكين الذي كان في جيبي حين قادوني إلى غرفة التحقيقات، لكنه كان قد اختفى وتبدلت ملابسي بإزار صوفي خشن. فكرت أن أغرس نصله في شق دقيق من الحائط حتى أحدد نقطة انطلاقي. مع ذلك كانت الصعوبة تافهة، على الرغم من أنها بدت في البداية صعوبة لا تذلل. مزقت جزءا من حاشية الرداء ووضعت القطعة الممزقة طوليا وبزاوية قائمة مع الحائط. ولم أخفق بعد أن درت حول السجن في أن أصادف هذه الخرقة عندما أكملت الدورة. هكذا فكرت على الأقل، لكنني لم أعتمد على مساحة الزنزانة أو على ضعفي. كانت الأرض رطبة

وزلقة. تمايلت إلى الأمام لبعض الوقت عندما زلت قدمي وسقطت. أغراني إرهاقي الشديد أن أظل ممددا، وسريعا ما غلبني النوم وأنا راقد.

عندما استيقظت ومددت ذراعي إلى الأمام وجدت جانبي رغيف خبز ودلوا مليئا بالمياه. كنت مرهقا جدا حتى أفكر في هذا الظرف، لكنني أكلت وشربت بنهم. بعد ذلك بقليل تابعت جولتي حول السجن وبجهد شاق وصلت أخيرا إلى قطعة الصوف. حتى الفترة التي سقطت فيها أحصيت اثنين وخمسين خطوة وعندما تابعت المشي أحصيت ثماني وأربعين إضافية حين وصلت إلى الخرقة، كانت كلها في الإجمال إذن مائة خطوة، وبما أن الخطوتين تساويان ياردة قدرت أن محيط الزنزانة خمسون ياردة. صادفت مع ذلك عدة زوايا في الحائط، لذلك لم أستطع أن أخمن شكل القبو لأنني لم أمنع نفسي من الافتراض أنه قبو.

كان لدي هدف ضئيل، وبالتأكيد ليس أملا - من هذه الحسابات الدقيقة- غير أن فضولا غامضا حثني على أن أواصلها. عزمت بعد أن تركت الحائط على أن أعبر الزنزانة. في البداية تابعت عبوري بحذر شديد لأن الأرض، على الرغم من أنها تبدو من مادة صلبة، كانت غادرة بسبب قذارتها. مع ذلك، تشجعت في النهاية ولم أتردد في أن أخطو بحسم ساعيا إلى أن أعبرها مباشرة باعتبارها خطا مستقيما بقدر الإمكان. تقدمت عشر خطوات أو اثنتى عشرة خطوة بهذه الطريقة حين اشتبكت بقايا حاشية الإزار الممزقة بين ساقي، دست عليها فسقطت بعنف على وجهي.

في الارتباك الذي سببه سقوطي لم أع على الفور تفصيلة مجفلة لفتت انتباهي مع ذلك خلال عدة ثوان أثناء ما كنت منبطحا بعد. كان ما يلي: ارتكن ذقني إلى أرض السجن لكن شفتي والجزء العلوي من رأسي على الرغم من أنهم على ارتفاع أقل من ذقني لم يلمسوا شيئا. في الوقت نفسه، بدت جبهتي غارقة في بخار بارد ودبق وصعدت إلى أنفي الرائحة المميزة لفطر متعفن. وضعت ذراعي أمامي وارتعدت حين اكتشفت أنني سقطت عند شفا حفرة دائرية حيث لم أملك الوسيلة بالطبع لكي أتأكد من اتساعها في اللحظة نفسها. نجحت في خلع قطعة صغيرة من أحجار الحفرة تحت حافتها وتركتها تسقط في الهاوية. أصغيت لعدة ثوان لأصدائها وهي تندفع على جانبي الهوة أثناء هبوطها. في النهاية كان هناك غطس مكتوم في المياه تلته أصداء عالية. في اللحظة نفسها جاء صوت يشبه فتحا سريعا ثم غلقا سريعا بالمثل لباب فوق رأسي حيث ومض فجأة شعاع ضعيف من الضوء عبر الحلكة وتلاشي فجأة بالمثل.

رأيت بوضوح القدر المشؤوم الذي أعدوه لي وهنأت نفسي على الصدفة الدقيقة التي نجوت بها. فخطوة أخرى قبل أن أسقط لم يكن ليراني العالم بعد ذلك. والموت الذي تجنبته توا كان من النوع نفسه الذي اعتبرته خرافيا وعابثا في الحكايات المتعلقة بمحاكمات التفتيش. كان أمام ضحايا طغيانها اختيار الموت بكروبه الجسدية المباشرة أو الموت بأهواله المعنوية الشنيعة. احتفظوا لي بالأخير. أصبحت

أعصابي متوترة بسبب المعاناة الطويلة حتى إنني ارتجفت عندما سمعت صوتي الخاص وأصبحت من جميع الجوانب شخصا مناسبا لأنواع التعذيب التي تنتظرني.

تلمست طريقي رجوعا إلى الحائط وكل أطرافي ترتجف، معتزما على أن أهلك هناك عن أن أخاطر برؤية أهوال الآبار التي صورلي خيالي الآن العديد منها في مواضع مختلفة في الزنزانة.

لو أنني في حالة ذهنية أخرى ربما امتلكت الشجاعة لأنهي تعاستي على الفور بأن أقفز في واحدة من تلك الهاويات، لكنني كنت الآن الأجبن دائمًا. فأنا لا أستطيع أن أنسى ما قرأته عن تلك الحفر؛ إن الانطفاء المفاجئ للحياة لا يشكل جزءًا من أكثر خططهم هولا.

هياج روحي أبقاني مستيقظا لعدة ساعات طويلة لكنني غفوت مرة أخرى في النهاية. وعند استيقاظي وجدت بجانبي كما من قبل رغيفا ودلو مياه. أحرقني عطش حارق وأفرغت الوعاء. لابد أنه مخدر، لأنني ما إن شربت حتى أصبحت نعسانا نعاسا لم أستطع مقاومته. غشاني نوم عميق، نوم يشبه الموت. لا أعرف بالطبع كم امتد، لكن حين فتحت عيني مرة أخرى كانت الأشياء حولي مرئية. بسبب بريق جحيمي، لم أستطع أن أحدد مصدره في البداية، أن أرى مدى وشكل السجن.

كنت مخطئا تماما بصدد حجمه، لم يتجاوز المحيط الكلي لحوائطه خمسا وعشرين ياردة. أثارت في هذه الحقيقة مقدارا كبيرا من القلق العقيم- بالطبع عقيم لأنه ما الذي يمكن أن يكون أتفه، في ظل الظروف الرهيبة التي تحوطني، من الأبعاد الصرفة لزنزانتي؟ غير أن روحي اهتمت اهتماما جامحا بالتفاهات وشغلت نفسي في محاولات تبرير الخطأ الذي ارتكبته في قياسي. ومضت الحقيقة في النهاية في عقلي. في محاولتي الأولى أحصيت اثنين وخمسين خطوة حتى اللحظة التي سقطت فيها؛ فلابد إذن أنني كنت على بعد خطوة أو خطوتين من قطعة الصوف، في الحقيقة قمت بجولة دائرية في القبو، ثم نمت حينئذ وعندما استيقظت لابد أنني عدت من البداية لهذا حسبت الدائرة ضعف تقريبا ما كانت فعليا. منعني تشوش عقلي عن ملاحظة أنني بدأت دورتي من عند الحائط الذي على اليسار وأنهيتها عند الحائط الذي على اليمين.

كما انخدعت أيضا فيما يتعلق بشكل مساحة الزنزانة الداخلية. ففي أثناء تلمسي طريقي وجدت عدة زوايا ولهذا استنتجت أن القبو يفتقر إلى التناسق في بنائه؛ كم هو مهيمن تأثير الظلام الكامل على المرء الذي يستيقظ من سبات أو نوم. كانت الزوايا ببساطة بعض الانخفاضات على مسافات غير متساوية. كان الشكل العام للسجن مربعا. وما اعتبرته طوبا اتضح الآن أنه حديد أو معدن ما آخر في صفائح ضخمة تسببت خطوط اتصالها أو مفاصلها في تكوين تلك

الانخفاضات. كان السطح الكلي لهذا السياج الحديدي مطليا بالجص طلاء بدائيا بالصور الشنيعة والبغيضة التي نتجت عن خرافات مقابر الرهبان. انتشرت صور العفاريت المهددة مع أشكال للهيكل العظمي وصور أخرى أكثر رعبا حقا على الحوائط قد شوهتها. لاحظت أن الخطوط الخارجية لتلك البشاعات الفائقة بارزة، غير أن ألوانها بدت باهتة وضبابية كما لو أنه بتأثير الجو الرطب. لاحظت الآن الأرض أيضًا التي كانت من الصخر، في المركز تتثاءب الحفرة التي أفلتت من فكيها لكنها كانت الوحيدة في الزنزانة.

رأيت كل هذا بوضوح وبجهد كبير لأن حالتي الجسدية تغيرت تغيرا عظيما خلال النوم. أرقد الآن على ظهري، ممددا تماما على قطع من إطار خشبي منخفض. كنت مقيدا لها بشريط طويل يشبه سير السرج. التف في عدة طيات حول أطرافي وجسدي تاركا رأسي فقط حرا وذراعي اليسرى إلى المدى الذي أستطيع من خلاله ببذل جهد كبير توفير الطعام من طبق خزفي يرقد إلى جانبي على الأرض. رأيت أن الدلو أزيل، الأمر الذي سبب لي الرعب. أقول سبب لي الرعب لأنني كنت أحترق بعطش لا يحتمل. اتضح أن هذا العطش كـــان هـــدف جلاديني أن يثيروه لأن الطعام في الطبق كان لحما متبلا حريفا.

نظرت إلى الأعلى لكي أتفحص سقف السجن. كان على ارتفاع ثلاثين أو أربعين قدما، ومبنيا إلى حد كبير مثل الحوائط الجانبية. لفت

انتباهي كلية شكل غريب جدا في جزء منه. صورة زيتية للزمن كما يرسم عامة، باستثناء أنه بدلا من المنجل، حمل ما أعتقد، من لمحة عرضية، صورة مجسدة لبندول ضخم مثل تلك التي نراها في الساعات القديمة. من ناحية ثانية، ثمة شيء ما في مظهر هذه الآلة دفعني إلى أن أنظر إليها بانتباه أكبر. بينما كنت أحدق مباشرة إلى أعلى إليها (لأن موضعها كان فوقي تماما) تخيلت أنني أراها تتحرك. وسريعا ما تيقنت من هذا التخيل، كان تأرجحها قصيرا وبطيئا بالطبع. راقبتها بخوف لبعض دقائق لكن بتعجب أكبر. نقلت عيني بعد أن تعبت في النهاية من مراقبة حركتها البليدة إلى الأشياء الأخرى في الغرفة.

لفت انتباهي ضجة خفيفة وحين نظرت إلى الأرض رأيت عدة فئران ضخمة تجوس الأرض. خرجت من البئر التي ترقد ضمن حدود بصري إلى اليمين. حتى بينما كنت أحدق خرجت بسرعة في فرق بعيون نهمة وقد فتنتها رائحة اللحم. تطلب هذا الأمر مني جهدا كبيرا وانتباها لإخافتها.

لعل نصف الساعة، بل حتى ساعة كاملة (لأنني لا أستطيع أن ألاحظ الوقت بدقة) مرت قبل أن أرفع عيني إلى الأعلى. ما رأيته حينئذ أربكني وأدهشني. زاد مدى تأرجح البندول ياردة تقريبا. وباعتبارها نتيجة طبيعية كانت سرعته أعظم بكثير أيضا. لكن ما أزعجني حقا كان فكرة أنه هبط هبوطا واضحا. راقبت الآن، برعب لست بحاجة إلى أن أصفه، أن طرفه السفلي كان مكونا من هلال من

الفولاذ اللامع طوله قدم من القرن إلى القرن، كان القرنان إلى الأعلى والحافة السفلية حادة مثل الشفرة. ومثل الشفرة أيضًا بدا ضخما وثقيلا ومستدق الحافة لينتهي إلى هيكل صلب وعريض للأعلى. كان معلقا إلى عصا ثقيل من النحاس وتصدر عن كل جزء منه هسهسة بينما يتأرجح عبر الهواء.

لم يعد عندي شك في المصير المعد لي بعبقرية رهبانية في التعذيب. عرف المحققون إدراكي للحفرة- الحفرة التي قدرت أهوالها إلى متمرد جرىء مثلي- وهى صورة مطابقة للجحيم وقد اعتبرتها الإشاعات أقصى أشكال عقوباتهم. تجنبت القفز إلى هذه الحفرة بمحض الصدفة وعرفت أن تلك المفاجأة أو الوقوع في شرك العذاب شكل جزءا مهمًا من كل بشاعات زنزانات الموت. بما أنني أخفقت في السقوط فلم يكن دفعي إلى الهاوية جزءا من الخطة الشيطانية ولذلك (لم يكن هناك بديل) كان بانتظاري تدمير مختلف وأخف. أخف! ابتسمت نصف ابتسامة في كربي حين فكرت في هذه التطبيقات لهذا المصطلح.

ماذا سأغنم من وراء وصف ساعات رعب أكثر من مميتة، طويلة.. طويلة، أحصيت خلالها الذبذبات المتسارعة للفولاذ، إنشا.. إنشا، شعرة.. شعرة، لهبوط لا أتبينه إلا على فترات زمنية تبدو دهورا، هبوطا إلى الأسفل، ويستمر في الهبوط إلى الأسفل! مرت أيام، لعلها عدة أيام، مرت قبل أن يتأرجح قريبا جدا فوقي كأنه يروح على بعرضه اللاذع. فرضت رائحة الفولاذ الحادة نفسها على أنفي،

صليت- اضجرت السماء بصلواتي من أجل أن يهبط أسرع من هذا. غدوت مجنونا وناضلت من أجل أن أرفع نفسي إلى أعلى مقابل تأرجح حده المعقوف المخيف. ثم سقطت هادئا فجأة ورقدت مبتسما إلى الموت الوامض باعتباري طفلا أمام دمية ما نادرة.

مرت فترة زمنية أخرى من العدم المطبق، كانت موجزة؛ لأنني عندما سقطت مرة أخرى إلى الحياة، لم ألاحظ هبوطا واضحا للبندول، لكن لعلها كانت فترة طويلة أيضًا، لأنني أعرف أن ثمة شياطين يراقبون إغمائي، وقد يكونون قد أوقفوا تأرجحه بسعادة. عند إفاقتي أيضًا شعرت- أوه- أنني مريض جدا، مرض يفوق الوصف، وضعيف كأنه بسبب جوع طويل. حتى وسط كروب تلك الفترة تتوق الطبيعة البشرية إلى الطعام. مددت ذراعي بجهد مؤلم بقدر ما سمحت قيودي وحصلت على البقايا التي رق بها الفئران علي. بينما كنت أضع قطعة منها بين شفتي اندفعت إلى ذهني شبه فكرة عن الفرح، عن الأمل. ما شأني بالأمل؟ كانت كما قلت شبه فكرة، فالإنسان لديه مثلها الكثير التي لا تكتمل أبدا. شعرت أنها كانت عن الفرح، عن الأمل، لكنني شعرت أيضًا أنها هلكت في مهدها. ناضلت عبثا لكي أكملها، لكي أستعيدها. قضت المعاناة الطويلة تقريبا على كل قواي العقلية العادية. كنت معتوها، أحمق.

كان البندول يتأرجح عند الزاوية اليمنى مني. رأيت أن الهلال كان مصمما ليعبر منطقة القلب. سوف يمزق صوف ثوبي، سوف

يعود ويكرر هذا مرة بعد مرة. بغض النظر عن تأرجحه العريض الجامح (ثلاثين قدما أو أكثر) وقوة هبوطه المهسهسة التي تكفي لـــهدم هذه الحوائط نفسها الحديدية، لا يزال هريء ثوبي هو كل ما سينجزه لعدة دقائق. وعند هذه الفكرة توقفت، لم أجرؤ على الذهاب إلى أبعد من هذا. سكنت عندها بانتباه عنيد كما لو أنني أستطيع بهذا إيقاف هبوط الفولاذ عند هذا الحذ. أجبرت نفسي على التفكير في صوت الهلال وهو يمر عبر الملابس، على الإحساس المرعب الفريد الذي يصدره احتكاك القماش في الأعصاب. تأملت كل هذا العبث حتى اقشعر بدني.

إلى الأسفل، إلى الأسفل بثبات، يزحف. سعدت سعادة مجنونة في مقارنة هبوطه بسرعته الطرفية. إلى اليمين- إلى اليسار- بعيدا وباتساع، مع صيحة الروح الملعونة! إلى قلبي بخطوات النمر المختلسة، ضحكت ثم زعقت بينما تزداد هيمنة فكرة ما أو أخرى.

إلى الأسفل، بالتأكيد، بلا توان إلى الأسفل! يتذبذب ضمن ثلاثة إنشات من صدري! ناضلت بعنف، بجنون لكي أحرر ذراعي اليسرى. كانت حرة فقط من الكوع إلى الكف بحيث استطعت أن أوصلها من الطبق إلى فمي بجهد كبير، لكن ليس أبعد من ذلك. لو كان بوسعي أن أمزق الوثاق فوق كوعي لحاصرت البندول وحاولت الإمساك به. كنت سأحاول أيضًا أن أقبض على الكتلة الهابطة بسرعة!

إلى الأسفل، بلا توقف، لايزال يهبط إلى الأسفل، حتما! لهثت وناضلت عند كل تأرجح؛ انكمشت متشنجا عند كل تأرجح منه. تابعت عيناي دورانه للخارج وللأعلي بلهفة يأس عبثي، كانتا تنغلقان بتشنج مع هبوطه على الرغم من أن الموت كم كان سيكون راحة... آه... لاتوصف! لايزال كل عصب في يرتجف من جراء التفكير كيف سيغطس ذلك الفأس القاطع اللامع في صدري. كان الأمل هو من حث العصب على الارتعاش، الجسد على الانكماش. كان الأمل- الأمل الذي ينتصر على الألم المبرح- الذي يهمس إلى المحكوم عليه بالإعدام حتى في زنزانات محاكم التفتيش.

رأيت أن عشر تأرجحات أو اثنتى عشرة ستشبك الفولاذ فعليا بثوبي ومع هذه الملاحظة غشى روحي فجأة الهدوء المجمع لليأس. لأول مرة خلال عدة ساعات أو ربما أيام فكرت. خطر لي الآن أن الرباط أو سير السرج الذي يغلفني كان فريدا. لم أكن مقيدا بحبل منفصل. إن الضربة الأولى من شبيه الشفرة عبر أي جزء من الرباط سوف تفصله بحيث يمكن أن ينحل عن جسدي بمساعدة يدي اليسرى. لكن كم هو مخيف قرب الفولاذ في تلك الحالة! قاتلة نتيجة أي مقاومة ضئيلة أحاولها! علاوة على ذلك أليس من الأرجح أن تابعي الجلاد قد تنبأوا بهذا واستعدوا لهذا الاحتمال؟ أليس من المحتمل أن الرباط يعبر صدري في طريق البندول؟ ورعبا من أن أجد أن أملي الأخير والضعيف عديم الجدوى رفعت رأسي لكي أحصل على رؤية واضحة

لصدري. السير يغلف أطرافي وجسدي بإحكام في كل الاتجاهات ما عدا عند النقطة التي سيمر بها الهلال المدمر.

ما إن أسقطت رأسي رجوعا إلى وضعه الأصلي حتّى ومض في عقلي ما لا أستطيع أن أصفه بأفضل من شبه فكرة خام للحرية التي ألمحت إليها سابقا وطفا جزء منها عبر رأسي بغموض حين رفعت الطعام إلى شفتي الملتهبتين. كانت الفكرة كلها حاضرة الآن، هشة، بالكاد معقولة، بالكاد محددة، لكنها كاملة. تابعت على الفور بالطاقة العصبية لليأس محاولة تنفيذها.

كان المكان المجاور المباشر للإطار المنخفض الذي كنت أرقد فوقه يشغي حرفيا بالفئران لساعات عديدة. كانت وحشية، نهمة، عيونها الحمراء تحملق بغضب بي كأنها لا تنتظر إلا خمودي لتجعلني وجبتها. فكرت: على أي طعام تعودت في البئر؟

لم تترك على الرغم من كل جهودي لمنعها إلا بقايا قليلة من محتويات الطبق. سقطت في تكرارية اعتيادية أو أرجحة يدي حول الطبق وفي النهاية النمطية غير الواعية للحركة جردتها من تأثيرها. في نهمها غرست الحيوانات الضارة أنيابها تكرارا في أصابعي. فركت الرباط ببقايا الطعام الدهني والمتبل في كل مكان منه استطعت أن أصل إليه، ثم بعد أن رفعت يدي عن الطبق رقدت ساكنا حابسا أنفاسي.

في البداية، جفلتْ الحيوانات النهمة وارتعبت من التغيير من توقف الحركة. انكمشت إلى الخلف ولاذ العديد بالبئر. لكن هذا دام فقط لحظة. لم أعول عبثا على شراهتها؛ فبعد أن لاحظت أنني بقيت بلا حركة، قفز واحد أو اثنان من أشجعها فوق الإطار وتشمم سير السرج، اتضح أن هذا إشارة للاندفاع العام، أسرعت جحافل من البئر في فرق جديدة، تعلقت بالخشب واكتسحته وقفزت بالمئات فوق جسدي، لم تزعجها الحركة الدقيقة للبندول، انشغلت بالرباط المدهون بالطعام بعد أن تجنبت ضرباته، ضغطت واحتشدت فوقي في تكدسات متزايدة أعدادها. تلوت فوق حنجرتي، وبحثت شفاهها الباردة عن شفتي، اختنقت تقريبا بضغطها المحتشد والاشمئزاز (لأن العالم لا يحوي وصفا آخر) ملأ صدري وأرجف قلبي ببرودة ثقيلة. إلا أنني شعرت أن الصراع سينتهي في دقيقة. أدركت بوضوح ارتخاء الرباط، وعرفت أنه في أكثر من مكان لابد أنه تمزق بالفعل، وبتصميم فاق تصميم البشر رقدت ساكنا.

لم أخطئ في حساباتي ولم أعان عبثا. وشعرت في النهاية أنني حر. تدلى السير في أربطة من جسدي. غير أن ضربات البندول كانت قد ضغطت على صدري فعليا. كانت قد شقت صوف الرداء، ومزقت تماما ملابسي الداخلية. تأرجح مرتين أخريين وإحساس حاد بالألم ضرب كل عصب في. غير أن لحظة النجاة جاءت، وبحركة من يدي أسرع مخلصوني باضطراب بعيدا. وبحركة ثابتة وحذرة جانبية منكمشا وبطيئا انزلقت من تطويق الرباط وبعيدا عن متناول الحد المعقوف. للحظة على الأقل كنت حرا.

حر! وفي قبضة محكمة التفتيش! وما كدت أخطو خطوة بعيدا عن السرير الخشبي فوق الأرض الصخرية للسجن حين توقفت حركة الآلة الجهنمية، ورأيتها تسحب إلى الأعلى بقوة ما غير مرئية عبر السقف. كان هذا درسا حفظته عن ظهر قلب بيأس. كانت كل حركة من حركاتي مراقبة بلا شك. حر! إنني لم أنجو إلا من موت مبرح لكي أسلم إلى أسوأ من الموت في شكل آخر. أدرت عينيَّ بعد هذه الفكرة بعصبية حولي إلى حواجز الحديد التي تطوقني. كان واضحا أن تغيرا ما غير عادي- تغيرا ما لم أستطع في البداية تمييزه بوضوح- حل بالمكان. لعدة دقائق من التجريد الضبابي والمرتعش انهمكت عبثا في تخمينات مفككة. خلال هذه الفترة أدركت للمرة الأولى مصدر الضوء الفسفوري الذي ينير الغرفة، إنه ينبعث من شق نطاقه نصف إنش يمتد كلية حول السجن في قاعدة الحوائط التي لذلك بدت منفصلة تماما عن الأرض. حاولت أن أنظر خلال الثقب لكن بالطبع كانت محاولتي عبثا.

بينما كنت أنهض من محاولتي اخترق لغز التغيير الذي حل على الغرفة فجأة إدراكي. لاحظت أنه على الرغم من أن حدود الأشكال التي على الحائط كانت واضحة تماما بدت الألوان لامعة وغير محددة. لمعت هذه الألوان لمعانا مجفلا ومكثفا بحيث أضفت على البورتريهات الشبحية والشيطانية منظرا قد يرعب حتى مَنْ هو أعصابه أقوى مني، عيونا شيطانية ذات حيوية وحشية ومخيفة في

آلاف الاتجاهات لم أر أيا منها من قبل وتومض بتوهج ناري لم أستطع أن أجبر خيالي على أن يراه غير حقيقي.

غير حقيقي! حتى عندما كنت أتنفس جاءت إلى أنفي رائحة بخار الحديد الساخن! سادت رائحة خانقة! كان يترسخ مع كل لحظة وميض أعمق في العيون التي تحدق إلى كربي! انتشرت مسحة أغمق من اللون الأحمر القاتم فوق الأهوال المتجسدة من الدم. لهثت! شهقت لكي أتنفس! لا شك في هدف معذبيني، آه أقصى قسوة..آه.. أكثر الرجال شرا! انكمشت بعيدا عن الحديد المشتعل إلى وسط الغرفة. في خضم التفكير في الدمار الناري الذي يتهددني، فكرة برودة البئر غشت روحي مثل البلسم. اندفعت ناحية حافتها المميتة. ألقيت بنظري المتوتر إلى الأسفل. الشعاع الصادر من السطح المنير أضاء أعماقها القصية. إلا أن روحي للحظة رفضت أن تفهم معنى ما رأيته؛ في النهاية اقتحم روحي عنوة- شق طريقه إليها- توهج فوق سطح عقلي المرتعد- أوه! صوت يتحدث! أوه! رعب! أي رعب إلا هذا! وبصرخة اندفعت مبتعدا عن الحافة ودفنت وجهي في يديَّ وأنا أنتحب بمرارة.

زادت الحرارة بسرعة ومرة أخرى رفعت بصري مرتعدا كأنني مصاب بنوبة ملاريا. كان هناك تغير آخر في الغرفة والتغير كان في الشكل. وكما من قبل كان عبثا أن أحاول أن أميز أو أن أفهم ما الذي يحدث. لكنني لم أظل في شكوكي طويلا. هروبي المزدوج أسرع من ثأر أعضاء محكمة التفتيش. كانت الغرفة مربعة. رأيت أن زاويتين

من زواياها أصبحتا الآن حادتين وبالتالي اثنتان منفرجتين. زاد التغير المخيف بسرعة مع قعقعة خفيضة أو صوت نواح ما. في لحظة تغير المكان من شكله إلى شكل المعين. غير أن التغير لم يتوقف عند هذا الحد، لم أمل ولم أرغب في أن يتوقف. كان يمكن أن أعانق الحوائط الحمراء مثل ثوب السلام الأبدي. قلت: "الموت، أي موت إلا موت الحفرة". أحمق أما كان يجب أن أعرف أن الهدف من الحديد المحترق أن يدفعني إلى الحفرة؟ هل يمكن أن أقاوم توهجها؟ أو إذا حتى تحملت هل أستطيع تحمل ضغطها؟ والآن يزداد تسطح المعين أكثر وأكثر بسرعة لم تترك لي لحظة للتأمل. وصل مركزه وبالطبع عرضه الأكبر فوق الخليج المتثائب بالضبط. انكمشت للخلف غير أن الحوائط المغلقة ضغطتني بلا مقاومة مني للداخل. في النهاية لم يعد هناك موطئ قدم لجسدي الذاوي والملتوي على الأرض الصلبة للسجن. لم أعد أناضل غير أن كرب روحي وجد متنفسا في صرخة يأس عالية وطويلة وأخيرة. شعرت أنني أترنح فوق الحافة... قلبت عيني...

ثمة همهمة متضاربة من الأصوات البشرية! ثمة نفخة عالية كأنها تصدر عن عدة أبواق! ثمة صرير خشن كأنه يخرج عن ألف برق! تراجعت الحوائط النارية! أمسكت ذراع ممتدة بذراعي بينما كنت أسقط مغمى علي في الهاوية. كانت ذراع الجنرال لاسال. دخل الجيش الفرنسي توليدو. كانت محكمة التفتيش في قبضة أعدائها.

الدفـن الـمـبـتـسـر

هناك موضوعات معينة تستولي كلية على الاهتمام العام، لكنها أيضا ذات طبيعة مروعة لكي تحقق أهداف الأدب التقليدي. وهذه يجب أن يتجنبها الكاتب الرومانسي الصرف، إذا لم يرغب في أن يزعج قراءه أو يثير اشمئزازهم. ويصبح تناولها ملائما فقط عندما تضفي شدة الحقيقة وجلالها عليها الشرعية وتعززها. فنحن نشعر، على سبيل المثال، بالإثارة العظيمة من حدة "الألم السار" في الروايات عن ممر بيرسينيا، وزلزال ليسبون، وطاعون لندن، ومذبحة سانت بارثولوميو أواختناق المائة وثلاثة وعشرين سجينا في واقعة الثقب الأسود بكالكتا. لكن ما يثيرنا فعليا في هذه الحكايات هو الحقيقة- هو الواقع- هو القصة. فلو أنها محض ضرب من الإبداع لنظرنا إليها باشمئزاز.

ذكرت بعضا قليلا من أشهر النكبات المسجلة وأهيبها. غير أن ما يدمغ الخيال بقوة هو نطاق النكبة الذي لا يقل في أثره عن طبيعتها. لا أحتاج إلى تذكير القارئ بأن من قائمة تعاسات الإنسان الطويلة والغريبة، لعلي انتقيت الأمثلة الفردية التي تطفح بالمعاناة الجوهرية أكثر من أمثلة كوارث الأغلبية العرضية. في الواقع، إن التعاسة الحقيقية- المحنة الجوهرية- استثنائية وليست عامة. حقيقة أن أقصى

درجات الكرب يتحملها الإنسان الفرد، وليس إنسان الجموع أبدا، هي حقيقة لنحمد الله الرحمن عليها!

أن يدفن المرء حيا هو بدون شك أقصى درجات الكرب رعبا التي قد تصيب الجنس البشري. وبما أنها نادرا، نادرا جدا، ما تصيب أي أحد، سوف ينكرها العاقلون. إن الحدود التي تفصل بين الحياة والموت في أفضل الأحوال مظللة وغامضة. فمن يستطيع أن يقول أين تنتهي الأولى وأين يبدأ الثاني؟ نعرف أن هناك أمراضا تتسبب في توقف كلي لكل وظائف الحياة البادية، وأن ذلك التوقف، مع ذلك، مجرد تعليق مؤقت، لو صحت التسمية، ثم تمر فترة ما، ويحرك عنصر غامض خفي مرة أخرى التروس السحرية والعجلات المسحورة. لم يحل الحبل الفضي للأبد ولم ينكسر الوعاء الذهبي انكسارا أبديا. لكن أين كانت الروح في ذلك الوقت؟

من ناحية أخرى، بغض النظر عن النتيجة الحتمية لهذا التعليق المؤقت، أي بغض النظر عن أن هذه الأسباب ***a priori*** لابد أن تؤدي إلى هذه النتائج –أن ينتج عن حوادث تعليق الوظائف الحيوية للجسد المشهورة هذه بديهيا الآن وفيما بعد الدفن المبكر – فبغض النظر عن هذه الاعتبارات لدينا دلائل مباشرة قدمتها الخبرات الطبية والعادية التي تثبت أن عددا كبيرا من حالات الدفن المبكر هذه قد وقعت فعليا. بوسعي أن أحيل القارئ فورا إلى مائة حالة موثقة. وقعت إحدى هذه الحالات ذات الطبيعة الاستثنائية والتي مازالت حية في ذاكرة بعض

قراني منذ فترة ليست طويلة في مدينة بالتيمور المجاورة؛ حيث تسببت في حالة إثارة مؤلمة وكثيفة تجاوزت حدود المدينة التي وقعت فيها الحالة. وقعت زوجة أحد المواطنين المحترمين(محام بارز وعضو الكونجرس) صريعة مرض فجائي وغير مفسر أعيا تماما أطباءها. ماتت بعد معاناة كبيرة أو ظن أطباؤها أنها ماتت. لم يشك أحد فعليا، أو لم يكن لدى أحد السبب في الشك أنها ماتت فعليا. بدا عليها كل المظاهر العادية للموت؛ فقد اكتسى وجهها النحول والذبول المعتاد في الموت، واكتسبت شفتاها الشحوب المجزع المألوف، وفقدت عيناها بريقهما، وفقد جسدها دفئه الطبيعي، وتوقف نبضها. احتفظت عائلتها بجسدها لمدة ثلاثة أيام لم تدفنه، حيث اكتسب خلالها صلابة شديدة. باختصار أسرعوا في إقامة الجنازة بسبب التقدم السريع في علامات ما افترض أنها تحلل الجسد.

وضعت المرأة في مدفن عائلتها الذي لم يمس لثلاث سنوات متتالية. وعند انتهاء هذه الفترة الزمنية فتحت العائلة المدفن لاستقبال تابوت حجري آخر، لكن، للأسف! أي صدمة مخيفة كانت بانتظار الزوج الذي قام هو شخصيا بفتح الباب! فبينما كانت بوابة المدفن تدور نحو الخارج، سقط مخشخشا شيء ما مكسو بقماش أبيض بين ذراعيه. كان هيكل زوجته في كفنها الذي لم يتعفن بعد.

أثبت الفحص الدقيق أن الزوجة عادت للحياة مرة أخرى خلال يومين من دفنها، وأن بسبب كفاحها / مقاومتها داخل التابوت سقط إلى

الأرض من فوق نتوء ما أو رف ما، حيث تحطم التابوت فسمح لها بالفرار منه. وجدوا مصباحا كان مليئا بالزيت ترك بالصدفة داخل القبر فارغا، لعله نفد بسبب التبخر. وفوق أعلى درجة من درجات السلم الذي يفضي إلى الغرفة المخيفة، قطعة كبيرة من التابوت، يبدو أنها طرقت بها الباب الحديدي في محاولة منها لكي تلفت الانتباه إليها. ولعلها غابت عن الوعي أثناء انهماكها هذا، أو ماتت بسبب الرعب الصرف؛ واشتبك كفنها بينما تسقط في قضيب ما حديدي ناتئ. وعلى هذا الوضع ظلت، وتحللت هكذا منتصبة.

في عام ١٨١٠، وقعت حالة من الدفن الحي في فرنسا، إن الملابسات التي واكبتها نجحت نجاحا عظيما في ترسيخ الجزم بأن الحقيقة هي بالفعل أغرب من الخيال. كانت بطلة القصة مدموازيل فيكتورين لافوركاد، وهي شابة فاتنة، تنحدر من عائلة شهيرة وغنية. من بين الذين تقدموا لطلب يدها، أديب فقير أو صحفي من باريس، جوليان بوسيه. أهلته مواهبه ولطفه العام إلى اكتساب اهتمام الوريثة التي كان يعشقها حقا، لكن كريم منشأها حملها على أن تقرر رفضه في النهاية وأن تتزوج السيد رينيل، وهو مصرفي ودبلوماسي رفيع المقام. من ناحية أخرى، بعد الزواج أهملها هذا السيد النبيل، بل، لعله حتى أساء معاملتها تماما. وبعد أن قضت معه بعض سنوات تعسة ماتت، أو على الأقل، ماثلت حالتها الموت تماثلا قويا، بحيث خدعت كل من رآها. دفنت لكن ليس في مدفن تحت الأرض بل في قبر عادي

في بلدتها. حبيبها الذي ملأه اليأس، ولايزال تتوقد بداخله ذكرى عاطفته العميقة، سافر من العاصمة إلى المقاطعة البعيدة التي تقع بها القرية، يدفعه هدف رومانسي أن يُخرج الجثة من القبر ويحصل لنفسه على غدائرها الغزيرة. يصل إلى القبر. وفي منتصف الليل ينبش القبر ويفتحه وتقبض عليه عينا حبيبته المفتوحتان متلبسا بقص شعرها، توقفه عينا حبيبته المفتوحتان. في الحقيقة لقد دفنت السيدة حية. ولم تكن قد غادرتها كلية مظاهر الحيوية واستيقظت من النعاس الذي اعتبر موتا عن خطأ بتربيتات لطيفة من حبيبها. حملها بجنون إلى غرفته المستأجرة في القرية، واستخدم وسائل مساعدة على إعادة صحتها جاءت من ثقافة طبية امتلكها غير هينة. باختصار عادت إلى الحياة. تعرفت إلى منقذها، وظلت معه حتى استعادت بالتدريج تماما صحتها الأولى. لم تكن امرأة ذات فؤاد قاس كما أن هذا الدرس الأخير من الحب كان كافيا لتليين الصخر. ومنحت قلبها لبوسيه. لم تعد فقط إلى زوجها الذي أخفت عنه بعثها للحياة مرة أخرى، بل سافرت مع حبيبها إلى أمريكا. بعد عشرين عاما، عاد الاثنان إلى فرنسا عن اقتناع أن الزمن غير ملامح السيدة تغييرا عظيما بحيث لن يستطيع أصدقاؤها التعرف عليها. كانا على خطأ، مع ذلك، فمع أول لقاء، تعرف السيد رينيل فعليا على زوجته وطالب بها. عارضت السيدة هذه المطالبة ودعمتها حكم المحكمة القضائية بأن قضت بأن الظروف الخاصة بالإضافة إلى مرور سنوات عديدة لم تبطل حق الزوج فقط انطلاقا من مبادئ العدل بل أبطلته قانونيا أيضًا.

صحيفة *Leipsic* الجراحية، وهي دورية ممتازة ذات نفوذ كبير، سيصنع خيرا لو قام صاحب مكتبة أمريكي ما بترجمتها وإعادة طباعتها، أوردت في عددها الأخير حادثا مزعجا جدا من النوعية ذاتها التي يدور حولها الحديث.

وقع ضابط من الجيش ذو جسد ضخم وصحة هائلة من فوق حصان هائج فأصيب بكدمة خطيرة في رأسه أفقدته الوعي في لحظتها، كما انشرخت جمجمته شرخا بسيطا لم يخش الأطباء من جرائه خطرا ملحا. ونجحت عملية لحمها بنجاح. نزف واستعمل أطباؤه وسائل الإسعاف العادية الأخرى. ومع ذلك، تدريجيا؛ سقط في غيبوبة ميؤوس منها؛ وأخيرا اعتقد أطباؤه أنه مات.

كان الجو دافئا ودفن بعجلة غيرلائقة به في واحد من المدافن العامة. أقيمت جنازته يوم الثلاثاء. في يوم الأحد التالي، كانت أرض المدفن كالعادة تعج بالزوار، وعند الظهيرة ثار هياج شديد حين أعلن فلاح أنه شعر أثناء ما كان يجلس فوق قبر الضابط باضطراب ما في تربة المدفن كأنه يوجد شخص ما ينازع تحتها. في البداية، لم يعر أحد الانتباه إلى تأكيدات الرجل، لكن رعبه الواضح وعناده في إصراره على قصته كان لهما في النهاية تأثيرهما الطبيعي على الحشد. استطاعوا تدبر معول بسرعة والقبر الذي كان على عمق ضحل للأسف، في حدود دقائق قليلة انفتح إلى الحد الذي ظهر معه رأس شاغله. بدا حينئذ أنه ميت لكنه جلس تقريبا منتصبا داخل التابوت؛ فقد رفع جزئيا غطاءه خلال نزاعه فيه.

نقل على الفور إلى أقرب مستشفى وأعلنوا هناك أنه لايزال حيا، لكنه يعاني الاختناق بسبب نقص الأكسجين الكافي. بعد عدة ساعات استعاد الحياة وتعرف على بعض من معارفه وتحدث في جمل متقطعة عن كربه في القبر.

اتضح مما حكاه، أنه كان واعيا بالحياة منذ أكثر من ساعة بينما كان مدفونا قبل أن يدخل في الغيبوبة. ردم/طمر قبره بتربة شديدة النفاد بدون إتقان أو إحكام؛ وبالتالي سمح بنفاذ الهواء بالضرورة. سمع خطوات أقدام الحشود فوق رأسه وحاول أن يسمعه أحد بالمقابل. قال إن الضجيج الذي تردد في أرض المدفن هو الذي أيقظه على ما يبدو من نوم عميق، لكن ما إن استيقظ حتى أصبح واعيا تماما بأهوال وضعه الشنيع.

سجل أن هذا المريض كان يتحسن وبدا أنه في سبيله إلى الشفاء النهائي، لكنه سقط ضحية لشعوذات التجارب الطبية. فقد استخدمت البطارية الكلفانية[1] وسيلة في علاجه، ومات فجأة في نوبة نشوة من التي تحدثها البطارية الكهربائية.

ومع ذلك يستدعي، إلى ذاكرتي، ذكر البطارية الكلفانية حالة شهيرة جدا واستثنائية في الموضوع نفسه، حيث برهنت فاعليتها باعتبارها وسيلة في استعادة محام شاب من لندن إلى الحياة، كان قد

---

(١) تحدث تيارا كهربائيا عن طريق التفاعل الكيميائي.

دفن ليومين. حدث هذا في ١٨٣١، وخلق في ذلك الوقت إثارة عميقة في كل مكان كانت الحالة موضوعا للحديث.

مات المريض السيد إدوارد ستابلتون على ما يبدو من حمى التيفود التي صاحبها أعراض شاذة عن الحمى أثارت فضول الأطباء الذين أشرفوا عليه. وعند موته الظاهر طلبوا من أصدقائه الموافقة على إجراء اختبار ما بعد الموت عليه لكنهم رفضوا إعطاء الإذن به. وكما يحدث غالبا عندما يقع هذا الرفض، يعزم الأطباء على إخراج الجثة من قبرها وتشريحها على مهل في عزلة. أنجز الترتيبات بسهولة بعض من نابشي القبور العديدين الذين تزخر بهم لندن. وفي الليلة الثالثة بعد الجنازة، أخرجت الجثة المفترضة من قبر عمقه ثمانية أقدام ووضعت في غرفة في مستشفى خاص.

حين أوحى المظهر الطازج وغير المتحلل للشخص باستخدام البطارية قاموا بالفعل بشق البطن طوليا. وتتابعت التجربة تلو الأخرى ونتجت الآثار المعتادة عنها بدون أي شيء من شأنه أن يميزها باستثناء في مرة أو اثنتين ظهرت درجة أعلى من الحياة في رد الفعل التشنجي الذي ينتج عنها.

تأخر الوقت. كان النهار على وشك الانتهاء ورأوا أن من مصلحتهم في النهاية أن يشرعوا على الفور في تشريح الجثة. من ناحية ثانية، كان من بينهم طالب راغب على الخصوص في اختبار

نظرية تخصه، فأصر على وضع البطارية على واحدة من عضلات الصدر. حدث وتم توصيل سلك البطارية بعجلة، حين نهض المريض بحركة سريعة لكنها غير تشنجية أبدًا من فوق الطاولة وخطا إلى منتصف الغرفة محدقًا فيما حوله باضطراب لعدة ثوان ثم تكلم. ما قاله لم يكن مفهوما، غير أنه نطق كلمات بمقاطع لفظية واضحة. وبعد أن تكلم هوى إلى الأرض.

شلت / جمدت الرهبة الجميع للحظات غير أن خطورة الحالة سرعان ما أعادتهم إلى وعيهم. رأوا أن السيد ستابلون حي على الرغم من أنه في غيبوبة. عند تعرضه للأثير استعاد وعيه. وسرعان ما استعاد صحته، وعاد إلى أصدقائه الذين أحجبت عنهم مع ذلك أي معلومات عن عودته إلى الحياة حتى يزول الخوف من حدوث انتكاسة له. ولعلنا نستطيع تخيل تعجبهم بل اندهاشهم الصاعق.

ومع ذلك فإن الخصوصية في هذا الحادث التي تثير الرعب تنطوي في تأكيدات السيد س. نفسه. فهو يصرح أنه لم يفقد الوعي أبدًا في أي وقت، بل كان واعيا على نحو مشوش ومعتم بكل شيء يحدث له من اللحظة التي أعلن فيها أطباؤه أنه ميت إلى تلك التي سقط فيها غائبا على أرض المستشفى. " أنا حي" كانت الكلمات غير المفهومة التي حاول حين ميز غرفة التشريح أن ينطقها بسبب إحساسه بالهلاك الذي يهدده.

من السهـــل مضاعفة قصص مثل هذه، غير أنني سأمتنع لأنه لا حاجة بالفعل إلى مثلها لإثبات حقيقة أن حوادث الدفن المبكر تقع. عندما نفكر كم هو نادرا، بسبب طبيعة الحالة أن نملك الحق أو السلطة في اكتشافها، لابد أن نعترف أنها قد تحدث تكرارا بدون معرفتنا. في الحقيقة نادرا ما يتم الاقتراب من أرض مقبرة لأي هدف إلى مسافة كبيرة بحيث لا نجد الهياكل العظمية في مواضعها؛ الأمر الذي يوحي بأكثر الشكوك رعبا.

مرعب حقا الشك، لكن الأكثر رعبا هو المصير! بوسعي أن أجزم بلا تردد أنه لا حدث يصلح إلى إثارة أعلى درجات الألم الجسدي والعقلي مثل الدفن قبل الموت. انقباض الرئتين الذي لا يطاق، أبخرة الأرض الرطبة الخانقة، التصاق ثوب الموت، قسوة تطويق البيت الضيق، سواد الليل المطلق، الصمت الذي يهيمن مثل البحر؛ الحضور الخفي لكن المحسوس للدودة المنتصرة[١]، هذه الأشياء مع التفكير في الهواء والأعشاب بالأعلى، مع ذكرى الأصدقاء الذين سيطيرون لإنقاذنا لو فقط علموا بمصيرنا، ونحن نعي تماما أنهم لن يعلموا أبدا بهذا المصير- بأن قسمتنا المحتومة هي الموت الحقيقي- هذه الاعتبارات أقول تحمل إلى القلب الذي مازال يخفق درجة من الرعب المروع وغير المحتمل الذي سوف يتراجع عنه أكثر الأخيلة جرأة. لا نعرف على الأرض شيئا مزعجا مثل هذا، لا نستطيع أن

(١) اسم قصيدة لإدجار آلان (بو).

نحلم بشيء يحمل نصف بشاعته في أسفل درجات عوالم الجحيم. ولهذا كل الحكايات عن هذا الموضوع تثير اهتماما عميقا، ومع ذلك هو اهتمام، يقوم إلى حد كبير وعلى وجه الخصوص على إيماننا بحقيقة المروي، وذلك يعود إلى الرهبة المقدسة التي في الموضوع في حد ذاته. إن ما أنا على وشك أن أحكيه الآن من معرفتي الفعلية، بل من خبرتي الواقعية والشخصية.

لعدة سنوات تعرضت إلى نوبات من اضطراب فريد اتفق الأطباء على تسميته "الإغماء التشنجي" لعدم وجود مصطلح أكثر تحديدا. على الرغم من أن الأسباب المباشرة للإصابة بالمرض والقابلية له بل حتى التشخيص الفعلي له لاتزال غامضة، فإن طبيعته الواضحة والظاهرة مفهومة تماما؛ فاختلافاتها تدرجية في الأساس. فقد يرقد المريض أحيانا ليوم واحد فقط أو حتى لفترة أقصر في نوع من السبات العميق، فاقدا الحس وبلا حركة خارجية. غير أن قلبه ينبض بضعف، ويظل جسده محتفظا بدرجة ما من حرارته، ويظل تورد خفيف في وجنتيه. وعند وضع مرآة عند شفتيه نستطيع أن نستدل منها على حركة بليدة وغير متساوية ومتذبذبة للرئتين. ولكن من ناحية أخرى، قد تمتد فترة الغشية لأسابيع بل حتى أشهر؛ يفشل خلالها الفحص الدقيق وأكثر الاختبارات الطبية صرامة في إثبات أي اختلاف مادي بين حالة المريض وما ندركه عن الموت الكلي. وغالبا ما ينجيه من الدفن المبكر فقط معرفة أصدقائه أنه تعرض سابقا للإغماء التخشبي، والشك الناجم عن الأعراض، وفوق كل شي، عدم ظهور

علامات التحلل على جسده. من حسن الحظ أن مراحل تقدم المرض تدريجية. فتجلياته الأولى لا لبس بشأنها على الرغم من وضوحها التام. وتصبح النوبات مرة بعد مرة أكثر تمييزا، وتستمر كل منها فترة أطول مما سبقتها. وفي هذا يكمن صمام الأمان الأساسي الذي يحميه من الدفن. إن سيئ الحظ الذي سوف تصيبه أول نوبة من طبيعة شديدة وهي نادرة، سيودع حتميا حيا في التابوت.

لا تختلف حالتي الخاصة اختلافا خاصا عن تلك الواردة في الكتب الطبية. أحيانا، وبلا سبب واضح أغرق رويدا، رويدا في حالة من شبه الإغماء أو شبه الغيبوبة، وفي هذه الحالة، أظل، بلا ألم، وبلا قدرة على الحركة أو بعبارة أدق، بلا قدرة على التفكير إلا بوعي بليد معتم في الحياة وفي حضور هؤلاء الذين يحيطون سريري، حتى تعيدني أزمة المرض فجأة إلى الإحساس الكامل. في أوقات أخرى تضربني النوبة بسرعة وبعنف. فأشعر بالغثيان والتخدير وتصيبني رجفة ودوخة وهكذا أسقط منهمكا على الفور. ثم يغدو كل شيء، لأسابيع، فارغا وأسود وصامتا ويصبح الكون عدما. لا يمكن أن أمحق أكثر من هذا. ومع ذلك، أستيقظ من تلك النوبات الأخيرة على مراحل بطيئة مقارنة بمباغتة النوبة. وكما يبزغ النهار بالنسبة إلى المتسول الذي بلا صديق وبلا بيت الذي يجول الشوارع طوال ليلة شتوية موحشة طويلة، يعود إلي، ببطء شديد- بإنهاك شديد- وببهجة شديدة، نور الروح.

من ناحية أخرى، بعيدا عن الغشية، تبدو صحتي العامة جيدة، ولم ألاحظ أنها تأثرت أبدًا بالمرض المتفشي عينه إلا إذا نظرت إلى خاصية من خواص نومي العادي على أنها نتيجة له. فعند استيقاظي من النوم لا أستطيع أبدا أن أسيطر تماما على أحاسيسي على الفور، فأظل لعدة دقائق في تشوش كبير وحيرة؛ تكون ملكاتي العقلية في العموم، وذاكرتي في الخصوص في حالة من التعطل التام المؤقت.

من كل ما عانيته لم أعان جسديا، باستثناء حالة مطلقة من التعكر المعنوي. يغدو خيالي مقبرة لحفظ جثث الموتى أو عظامهم. تحدثت " عن الديدان عن التوابيت عن نقوش الأضرحة". ضعت في أحلام يقظة عن الموت، واستحوذ على تفكيري فكرة الدفن المبكر. هيمن عليَّ الخطر المخيف الذي كنت معرضا له ليلا ونهارا؛ ففي النهار كان عذاب التفكير به مفرطا وفي الليل فائقا. عندما يغمر الظلام المروع الأرض، حينئذ أرتجف مع كل فكرة مرعبة - أرتعش مثل الريش فوق النعش. وعندما لا تعد طبيعتي البشرية تحتمل أن أظل مستيقظا كنت أستسلم إلى النوم بمقاومة شديدة، لأنني كنت أرتجف من التفكير بأنني قد أجد نفسي نزيل قبر عندما أستيقظ. وعندما أغرق في النهاية في النوم، فقط لأندفع نحو عالم من الأخيلة تحلق فوقه بجناحين عريضين سوداوين تظلله فكرة الدفن عينها.

من بين الصور اللامتناهية للغم الذي قهرني في الأحلام لا أختار للتسجيل إلا رؤية مفردة. رأيتني غرقت في غشية من الإغماء التشنجي

ذات عمق أكبر من المعتاد وامتدت فترة أطول. فجأة حطت يد باردة فوق جبهتي وصوت برم وهاذر يهمس كلمة " استيقظ" في أذني.

جلست منتصبا. كان الظلام شاملا. لم أستطع أن أرى شكل ذلك الذي أيقظني. ولم أستطع تذكر لا الفترة التي وقعت فيها في الإغماء ولا المكان الذي أرقد فيه. وبينما بقيت بلا حركة منهمكا في محاولات للم شتات أفكاري قبضت اليد الباردة بقوة على رسغي وهزته بفظاظة بينما يقول الصوت المثرثر مرة أخرى:

"استيقظ! ألم أطلب منك الاستيقاظ؟"

سألت: "ومَنْ أنت؟"

أجاب الصوت نائحا: " لا اسم لي في المنطقة التي أقطن. كنت مخلوقا فانيا لكني الآن عفريت. كنت قاسيا لكني الآن مثير للشفقة. أنت تشعر أنني أزعق. أسناني تصطك وأنا أتحدث، لكن ليس بسبب برودة الليل، الليل الذي بلا نهاية. لكن هذه البشاعة لا تحتمل. كيف تستطيع أن تنام بهدوء؟ لا أستطيع أن أرقد بسبب صرخات هؤلاء المكروبين. هذه المشاهد أكثر مما أستطيع تحمله. انهض! تعالى معي إلى الليل الخارجي ودعني أفتح لك القبور. أليس هذا كربا لامثيل له ؟ انظر!"

نظرت، والهيكل غير المرئي الذي لايزال يقبض على رسغي جعل قبور كل البشرية تفتح، ومن كل منها انبثق الإشعاع الفسفوري الضعيف للتحلل فاستطعت أن أرى داخل الحفر العميقة وأن أشاهد فيها

الأجساد المكفنة في سباتها الحزين والجليل مع الدود. لكن للأسف! كان النائمون حقا أقل بملايين من هؤلاء الذين لم يناموا أبدًا. كان يوجد صراع واهن وقلق عام وحزين، ومن أعماق الحفر التي لا تحصى انبعثت خشخشة سوداوية من أثواب الموتى. ومن هؤلاء الذين بدوا أنهم يرقدون بهدوء رأيت أن عددا كبيرا قد غيروا بدرجة ما الوضع القاسي والمتعب الذين دفنوا عليه في الأصل. وقال لي الصوت مرة أخرى بينما كنت أحدق:

"أليس، أوه، أليس مشهدا جديرا بالشفقة؟" لكن قبل أن أجد كلمات أجيب بها، لم يعد الهيكل يقبض على رسغي، واختفت الأضواء الفسفورية، وأغلقت القبور بعنف مفاجئ، بينما انبعث منها ضجيج صرخات يائسة تقول مرة أخرى: "أليس، يا إلهي، أليس مشهدا جديرا بالشفقة؟"

مثل هذه الفانتازيات التي تتجسد ليلا تمتد نفوذها المرعب بعيدا إلي ساعات اليقظة. أتردد في الركوب أو المشي أو الاشتراك في أي نشاط يمكن أن يحملني خارج البيت. في الحقيقة لم أعد أجرؤ على أن أئتمن على نفسي خارج نطاق هؤلاء الذين كانوا على علم بتعرضي للإغماء التخشبي خشية أن أسقط في واحدة من نوباتي العادية. كنت سأدفن قبل أن يتم التيقن من حالتي الحقيقية. لقد شككت في رعاية أعز أصدقائي وإخلاصه، خشيت من أن يقنعهم امتداد فترة الإغماء أطول

من المعتاد بأنني لن أعود منها. بل تماديت إلى حد أني خشيت من أنه قد يسعدهم أن يعتبروا أي نوبة طويلة جدا سببا كافيا للتخلص مني كلية بما أنني أسبب لهم مشقة. حاولوا عبثا أن يطمأنوني بأكثر الوعود قدسية. انتزعت منهم أغلظ الأقسام، بأنهم تحت أي ظرف كان، لن يدفنوني حتى تتقدم علامات تحلل جسدي تقدما ماديا من شأنه أن يجعل الاحتفاظ بالجثة أطول من هذا ضربا من المستحيل. بل مع هذا أيضا لم يكن ليستجيب رعبي من الموت لصوت العقل، لم يكن ليقبل أي تعزية. انخرطت في سلسلة من الاحتياطات المعقدة، من بينها أن جهزت مدفن العائلة بحيث يسمح بأن يفتح بسهولة من الداخل، وأن يفتح أضأل ضغط على لوح طويل يمتد حتى الضريح الأبواب الحديدية. أقمت ترتيبات ملائمة أيضًا من أجل دخول الهواء والنور، وتوفير أوان ملائمة للطعام والمياه تكون في متناول يدي مباشرة من النعش الذي سيستقبل جسدي. كان هذا النعش مبطنا بطانة تبعث على الدفء وناعمة ومزودا بغطاء مصمم على غرار تصميم باب المدفن مع إضافة الزنبركات التي ستحرره مع أقل حركة من جسدي. وعلاوة على كل هذا، تدلى من سقف القبر جرس ضخم، امتد حبله عبر ثقب في النعش بحيث تتمكن من إمساكه واحدة من يدي الجثة. لكن للأسف! ماذا ينفع الحذر في مصير الإنسان؟ لاتكفي حتى هذه الضمانات جيدة التخطيط لكي تنقذ من أقصى كروب الدفن الحي، التعس المقدر له هذه الكروب!

ها هي الذروة تتحقق- كما تحققت من قبل- فوجدت نفسي أنهض من لا وعي كلي إلى أول إحساس ضعيف وغير محدد بالوجود. ببطء - كالسلحفاة- اقترب الفجر الرمادي الضعيف لنهار العقل. اضطراب بليد، ثبـات فـاتر لألم كليل. لا رعاية - لا أمل - لا مجهود. ثم بعد فترة زمنية طويلة رنين في الأذنين. ثم بعد سقوط أطول، نغمشة أو وخزة في الأطراف. ثم فترة تبدو أبدية من الهمود اللذيذ تناضل خلالها المشاعر المستيقظة لكي تعقل. ثم غرق ثان قصير في اللاوجود. ثم شفاء مفاجئ. في النهاية ارتعاش بسيط لجفن العين وبعدها على الفور صدمة كهربائية من الرعب مميتة وغير محددة تبعث الدم في دفقات من الصدغين إلى القلب. والآن، أول محاولة إيجابية للتفكير. والآن، أول محاولة للتذكر. والآن، نجاح جزئي وسريع الزوال. والآن تستعيد الذاكرة سيادتها فأعرف إلى حد ما حالتي. أشعر أنني لا أستيقظ من نوم عادي؛ أتذكر أنني تعرضت لإغماء تخشبي. وأخيرا مثل هياج المحيط؛ يغمر الخطر الشرس عينه روحي المرتعبة- تغمرها الفكرة الشبحية والدائمة.

لبعض دقائق بعد أن استحوذ عليّ هذا الخيال بقيت بدون حركة. ولم؟ لم أستطع أن أستجمع شجاعتي لكي أتحرك. لم أجرؤ على بذل المجهود الذي كان ينبغي أن يبدد شكوكي بشأن مصيري. ومع ذلك، ثمة شيء ما يهمس في قلبي أنه أكيد. يأس- لم يولده أي نوع من التعاسات من قبل- فقط هو الذي حثني، بعد تردد طويل، على رفع

جفني الثقيلين. رفعتهما. ظلام، ظلام كلي. كنت أعرف أن النوبة انتهت. كنت أعرف أن أزمة اضطرابي مرت منذ فترة طويلة. كنت أعرف أنني استعدت كاملا ملكاتي البصرية، ومع ذلك ظلام مطبق- ظلام كلي- ظلمة الليل الكلية وحدتها التي تستمر إلى الأبد.

حاولت أن أصرخ. وتحركت شفتاي ولساني الجاف المتصلبان معا، لكن لم يصدر صوت عن الرئتين المجوفتين، اللتين تلهثان وتنبضان مع القلب كأنهما مضغوطتان بثقل جبل ما فوقهما عند كل مجهود أو نضال أبذله لكي أتنفس.

عرفت أثناء المجهود الذي حاولته لكي أصرخ عاليا أن فكيَّ ملتصقان كما يحدث للموتى. شعرت أيضًا أنني أرقد فوق شيء ما قاس وأن جانبي كانا مضغوطين أيضًا بشيء ما مشابه. حتى تلك اللحظة لم أكن قد غامرت بتحريك أي طرف من أطرافي، لكنني الآن رفعت ذراعيَّ بعنف، اللتين كانتا تمتدان طوليا فوق جسدي ورسغيَّ متصلبين. صدمتا مادة خشبية قاسية امتدت فوق جسدي على ارتفاع لا يزيد على ستة إنشات من وجهي. لم أعد أشك أنني أرقد داخل نعش في النهاية.

والآن وسط كل تعاساتي اللانهائية، جاء عذبا الأمل البرىء، لأنني فكرت في احتياطاتي. تلويت وبذلت محاولات جسدية لأفتح اللحد عنوة. لم يتحرك. تحسست رسغي بحثا عن حبل الجرس، فلم أجده.

والآن طارت الروح القدس إلى الأبد، وساد اليأس المتجهم منتصرا، فلم يسعني إلا أن أدرك غياب الحشوة التي جهزتها بحرص، ثم هبت فجأة رائحة التربة الرطبة الخاصة القوية. لم أستطع أن أقاوم النتيجة. لم أكن في المدفن. سقطت في نوبة بينما كنت غائبا عن البيت، بينما كنت بين غرباء- أين أو كيف لا أستطيع التذكر- وكانوا هم من دفنوني مثل الكلب- سمروني في نعش عام ما- وغرزوني عميقا، عميقا وإلى الأبد في قبر عادى، بلا اسم.

وإذ هذا الإيمان البشع نفسه هكذا في أعمق بقعة من روحي ناضلت مرة أخرى لكي أصرخ. ونجحت في هذه المحاولة الثانية. زعقة طويلة وحشية ومستمرة أو صرخة من الكرب ترددت أصداؤها عبر عوالم الليل تحت الأراضي.

أجابني صوت أجش: "هاي هاي.. أنت هناك".

قال آخر: "أي شيطان الآن لكي تصرخ هكذا".

قال الثالث: "كفى".

قال الرابع: "ماذا تقصد بصراخك الفظ هذا مثل قطة جبلية؟"

حينئذ حاصرتني وهزتني بدون أي تهذيب لعدة دقائق زمرة من أشخاص غليظي الشكل. لم يوقظوني من نومي، لأنني كنت مستيقظا عندما صرخت لكنهم أعادوا إليَّ ذاكرتي كاملة.

هذا الحادث وقع بالقرب من ريتشموند في فرجينيا. كنت قد قطعت، مع أحد الأصدقاء، بعض أميال بمحازاة نهر جيمس في رحلة استكشافية سريعة. اقترب الليل وباغتتنا العاصفة. كان الملجأ الوحيد المتوفر غرفة في مركب شراعي كان رأسيا في النهر ومحملا بشحنة من السماد. سعدنا بهذا وقضينا الليل على متنه. نمت في مضجع من المضجعين في القارب- لا أحتاج إلى وصف مضاجع المراكب الشراعية ذات الأطنان الستين أو السبعين- لم يحتو المضجع الذي شغلته أي فراش. كان عرضه ثمانية عشر إنشا، وبلغ ارتفاعه من القاع إلى سطح المركب بالضبط المسافة نفسها. وجدت صعوبة بينما أدخل نفسي فيه. مع ذلك نمت بعمـــق وكـــل رؤيتـــي- لأنه لا حلم ولا كابوس- نجمت طبيعيا عن ظروف وضعي، وعن انحراف تفكيري العادي، وعن صعوبة لم شتات حواسي التي أشرت إليها، وخاصة صعوبة استجماع ذاكرتي لفترة طويلة بعد استيقاظي من النوم. كان الرجال الذين هزوني هم طاقم المركب وبعض العاملين الذين اشتركوا في تفريغه، وقد انبعثت رائحة التربة من حمولة المركب. كانت العُصابة التي حول فكي منديلا حريريا ربطت به رأسي عوضا عن قلنسوة نومي الاعتيادية.

ومع ذلك، تلك العذابات التي عانيتها كانت مماثلة في ذلك الوقت لعذابات القبر الحقيقي. كانت مخيفة وشنيعة شناعة لا يمكن تصورها. لكن من الشر ينبع الخير؛ فقد صاغت هولها روحي، لتتغير تغيرا

مفاجئنا. لقد اكتسبت روحي حيوية، اكتسبت شجاعة. رحلت، مارست تدريبات قاسية. تنسمت هواء السماء. فكرت في أشياء أخرى غير الموت. نبذت كتبي الطبية، أحـــرقت "بوشـــان". لم أقرأ "أفكار ليلية"، لا كلام طنان حول فناء الكنيسة -لا حكايات عن البعبع- مثل هذه الحكاية. باختصار، أصبحت رجلا جديدا وعشت حياة الإنسان. منذ تلك الليلة الخالدة طرحت للأبد مخاوفي عن المقابر ومعها اختفى الإغماء التشنجي الذي كان على الأرجح سببا أكثر منه نتيجة له.

تمر لحظات قد يتخذ العالم حتى في عين العقل المتزن شكل الجحيم، غير أن خيال الإنسان ليس كاراثيس[١] لكي يستكشف بدون عقاب يلحقه كل كهف من كهوفه. للأسف! الحشد البشع من القبرية لا يمكن اعتباره خياليا تماما، لكن مثل الشياطين الذين صاحبهم أفراسياب[٢] في رحلته في نهر أوكسس[٣] لابد أن يناموا وإلا سيلتهموننا لابد أن ندعهم ينامون وإلا سنهلك.

---

(1) In William Beckford. Vathek

(٢) في الأسطورة الفارسية الشاهنامة، الفردوسي.

(٣) نهر في آسيا مذكور في الشاهنامة.

حفلة الموت الأحمر التنكرية

دمر "الموت الأحمر" البلاد طويلا. لم يحل من قبل طاعون قاتل وشنيع مثل هذا الطاعون. كان الدم تجسده[١] ودمغته، حمرة الدم وهوله. آلام حادة ودوار مفاجئ ونزيف غزير من مسام الجسد مع الفناء. كانت البقع القرمزية فوق جسد الضحية، وخاصة فوق وجنتيه، هي لعنة الوباء التي تحول دون تلقيه المساعدة وتعاطف رفاقه. كانت النوبة وتطورها ونهايتها حدثا يستغرق نصف الساعة.

غير أن الأمير بروسبير كان سعيدا وشجاعا وحصيفا؛ فعندما خلت أراضيه من نصف سكانها، استدعى للمثول في حضرته ألف صديق معاف وجذل من بين صفوف فرسان البلاط وسيداته، وانسحب إلى مكان منعزل خفي في واحد من أديرته المحصنة. كان مبنى واسعا ورائعا، إبداعًا جسَّد غرابة أطوار الأمير نفسه، لكنه كان ذا ذوق مهيب. كان يطوقه جدار صلب وشامخ. وله بوابات حديدية. وبعد أن دخل رجال الحاشية، أحضروا الأفران والمطارق العملاقة ولحموا المزاليج من داخله؛ فقد عقدوا العزم على ألا يتركوا وسيلة خروج

---

(1) Avatar. في الأسطورة الهندوسية، هذه الكلمة تعني تجسد الإله.

أو دخول لنزوات / لاندفاعات اليأس أو الجنون. كان الدير مليئًا بالمؤن الوفيرة. لعل رجال الحاشية بهذه الاحتياطات قد أعلنوا التحدي في وجه العدوى. فالعالم الخارجي يستطيع أن يعتني بنفسه، في الوقت نفسه كان من الحماقة الحزن عليه أو التفكير به. لقد وفر الأمير كل أشكال المتعة؛ كان يوجد مهرجون، وكان يوجد موسيقيون ارتجاليون، وكان يوجد راقصات باليه، وكان يوجد موسيقيون، وكان يوجد جمال، وكان يوجد نبيذ. كل هذا مع الأمان الذى كان يوجد بالداخل. بالخارج، كان "الموت الأحمر".

مع اقتراب نهاية الشهر الخامس أو السادس من عزلته، وبينما كان الطاعون يتفشى بضراوة قصوى خارج الأسوار، قام الأمير بروسبيرو بتسلية أصدقائه الألف بحفلة تنكرية من أكثر الحفلات استثنائية في روعتها.

لقد كانت صورة مبهجة للحواس تلك الحفلة التنكرية. لكن دعوني أخبركم عن الغرف التي أقيمت بها. كانت سبعا، جناحا إمبراطوريا. في العديد من القصور، مثل هذه الأجنحة تشكل دهليزا طويلا ومستقيما، تنزلق أبوابه ذات المصاريع القابلة للطي رجوعا تقريبا إلى الحوائط على الجهتين، وبهذا لا يحول الباب دون رؤية امتداد الجناح كله. في هذا الجناح الأمر مختلف تماما، كما يمكن أن يتوقع بسبب حب الدوق للغريب. كانت الغرف تفتقر تماما إلى أي نظام في ترتيبها داخل الجناح، بحيث لايكاد البصر أن يرى كاملا غرفة

واحدة على حدة. كان يوجد انعطاف حاد عند كل عشرين أو ثلاثين ياردة، وعند كل انعطاف أثر جديد؛ فعلى اليمين واليسار في منتصف كل حائط نافذة قوطية طويلة وضيقة تطل على الخارج على ممر مغلق يتبع انعطافات الجناح. كانت هذه النوافذ من الزجاج الملون الذي يختلف لونه توافقا مع اللون السائد لزينة الغرفة التي تفتح عليها النافذة. فقد كان الطرف الشرقي مزينا بالأزرق، على سبيل المثال، ونوافذه باللون الأزرق الزاهي. كانت الغرفة الثانية أرجوانية في زخرفتها ونسيج أثاثها، وألواح نافذتها الزجاجية أرجوانية. كانت الثالثة كلها خضراء، وكذلك كانت النافذة. كانت الرابعة مؤثثة وتشرق بالبرتقالي، والخامسة بالأبيض والسادسة بالبنفسجي. كانت الغرفة السابعة مكسوة تقريبا بالأنسجة السوداء المخملية التي تتدلى من كل أنحاء السقف وعلى طول جدرانها وتسقط في طيات ثقيلة على سجادة من الخامة واللون نفسهما. لكن في هذه الغرفة فقط لم تتطابق الألواح الزجاجية مع الزينة. كانت الألواح هنا قرمزية "لون الدم الغامق". والآن، لم يكن هناك في غرفة من السبع أي قنديل أو شمعدان، وسط الزخارف الذهبية المفرطة التي تمتد مبزورة أو تتدلى من السقف. لم يكن هناك أي ضوء من أي نوع ينبعث من مصباح أو شمعة داخل الغرف. لكن في الممرات التي تتلو الجناح، انتصب فيها مقابل كل نافذة حامل ثلاثي القوائم ثقيل يحمل جمرة نار، تلقي بأشعتها عبر الزجاج الملون وتضيء الغرفة إضاءة ساطعة. ينتج عنها حشد من الأشكال المبهرجة

والغريبة. لكن في الغرفة الغربية أو السوداء، كان أثر ضوء النار الذي يتدفق فوق الزخارف السوداء عبر الألواح ذات المسحة الدموية مروعا، وأضفى هيئة وحشية جدا على ملامح الذين دخلوها، بحيث قلة من الحفل هي التي امتلكت الجرأة لوضع قدمها داخل حدودها.

انتصبت في هذه الغرفة أيضًا عند الحائط الغربي ساعة ضخمة من الأبنوس، تأرجح بندولها ريحة وجيئة برنين كئيب وثقيل ورتيب. وعندما يكمل عقرب الساعة دورته الكاملة ويعلن عن الساعة، ينبعث من الرئة الميكانيكية النحاسية للساعة صوت واضح وعالٍ وعميق وموسيقي بإفراط، لكنه ذو نغمة تشديدية وفريدة؛ بحيث مع انقضاء كل ساعة كان يحتم على موسيقي الأوركسترا التوقف عن العزف في أي لحظة منه لكي يصغوا إلى الصوت؛ وبالتالي يجبر راقصي الفالس على التوقف عن أداء حركاتهم المتسلسلة، ويتصاعد قلق وجيز من أفراد الحفل المبتهجين. وأثناء دوي الساعة، لوحظ على الحفل أن الأشخاص الأكثر إحساسا بالدوخة يصبحون شاحبين، وأن الأشخاص الأكثر رزانة والأكبر سنا يمررون أصابعهم فوق أجبنهم كأنهم يعيشون في حلم يقظة ما أو تأمل ما. لكن ما إن تكف الأصداء تماما حتى تسود على الفور الجمع ضحكة جزلة؛ فينظر الموسيقيون إلى بعضهم البعض ويبتسمون كأنه من عصبيتهم وحماقتهم ويهمسون لبعضهم البعض أقساما أن الرنة التالية للساعة لن تثير فيهم أي عاطفة مماثلة؛ ومن ثم، بعد انقضاء ستين دقيقة (التي تضم ثلاثة آلاف وستمائة ثانية من الزمن

الذي يطير)، تدوي مع ذلك رنة أخرى من الساعة، فيحل الاضطراب والارتجاف والتأمل نفسه كما من قبل.

لكن بغض النظر عن هذه الأشياء، كان وقتا مبهجا وقصفا رائعا. كان ذوق الدوق استثنائيا، يملك عينا فنية في اختيار الألوان والتأثير الناجم عنها. لقد احتقر الزخرفة السائدة. كانت تصميماته جزيئة ونارية وتألقت أفكاره بوميض همجي. ظن البعض أنه مجنون. رفاقه لم يعتقدوا هذا. كان من الضروري أن تسمعه وتراه وتلمسه حتى تتأكد أنه ليس مجنونا.

لقد أشرف على جزء كبير من الزخرفة المتحركة للغرف السبع بمناسبة هذا العيد العظيم، وقد كان ذوقه هو الذي حدد شخصيات المتنكرين في الحفلة التنكرية. تيقن من أنها كانت جروتسكية. كانت شخصيات مبهرجة ولامعة وحريفة وشبحية كثيرا، تماثل كثيرا ما جاء في مسرحية " هرناني[1]". كانت توجد أشكال أرابيسكية ذات تجهيزات متنافرة وأعضاء غير مناسبة. كان يوجد خيال مدوخ مثل زي الرجل المجنون. كان يوجد كثير من الجمال، كثير من الإسراف، كثير من الغرابة، شيء ما من الفظاعة، وقدر ليس ضئيلا مما قد يثير الاشمئزاز. ريحة وجيئة في الغرف السبع طاف في الحقيقة حشد من الأحلام. وهذه- الأحلام- تلوت وتمعجت، وقد تلونت بألوان الحجرات وجعلت

---

(١) مسرحية لفيكتور هوجو، *Hernani*

الموسيقى الجامحة للأوركسترا صدى خطواتها. وفي التو تقرع الساعة الأبنوسية التي تنتصب في القاعة المخملية. ومن ثم، للحظة، كل شيء ساكن، وصامت إلا صوت الساعة. تتجمد الأحلام في مكانها. غير أن أصداء الرنة تتلاشى- لم تستمر سوى لحظة- وتطفو وراءها ضحكة شبه مكبوتة خفيفة. ومرة أخرى تعلو الموسيقى وتحيا الأحلام وتتلوى وتتمعج بجذل أكبر من ذى قبل، تتلون بألوان النوافذ العديدة التي تتدفق عبرها أشعة الشمعدان ذو القوائم الثلاث. لكن لم يغامر أي من المتنكرين بدخول الغرفة التي تقع في أقصى غرب الغرف السبع؛ لأن الليل ينحسر ويتدفق فيها نور أحمر عبر ألواح نافذتها ذات الأحمر الدموي، ويثير السواد القاتم لسجادتها الرعب؛ ولذلك الذي سوف تطأ قدمه فوق السجادة السوداء، ستصدر من الساعة الأبنوسية القريبة جلجلة خامدة يقينية يقينا مهيبا أكثر مما يصل من جلجلتها إلى آذانهم، هؤلاء الذين ينغمسون في مباهج الأجنحة الأخرى الأبعد.

غير أن تلك الأجنحة الأخرى كانت أكثر ازدحاما، وفيها ينبض بحيوية قلب الحياة. وحلم اليقظة مضى يدور حتى في النهاية بدأ دوي منتصف الليل. من ثم، كفت الموسيقى كما قلت، وهدأت حركات راقصي الفالس، وساد توقف مزعج لكل الأشياء كما من قبل. والآن هناك اثنتا عشرة قرعة يرددها جرس الساعة، وهكذا زحف إلى تأملات الذين امتازوا بالانتباه فيما بين صفوف هؤلاء الذين يحلمون أحلام يقظة مزيد من الاهتمام. وهكذا أيضًا، لعله قبل أن تغرق تماما

الأصداء الأخيرة للرنة الأخيرة في الصمت، أن وجد العديد من الأشخاص في الحفل وقتا فارغا لكي يعوا إلى حضور فرد مقنع لم يلفت انتباه أي فرد من قبل. وإذ انتشرت همسا إشاعة عن هذا الوجود الجديد، انبثقت في النهاية من الحفل كله همهمة أو غمغمة تعبر عن الاستنكار والدهشة ثم أخيرا عن الرعب، عن الذعر، عن الاشمئزاز.

في جمع من الأشباح كالذي صورته هنا، لن يفترض أي أحد أن ظهورا عاديا يمكن أن يثير هذا الإحساس. في الحقيقة كانت رخصة الحفل التنكري غير محدودة تقريبا، لكن هذا الشخص الذي نتحدث عنه فاق الاصطناع المصطنع[1]، وتجاوز الحدود اللانهائية حتى لزينة الأمير. توجد أوتار في قلوب الأكثر طيشا لايمكن مسها بدون عاطفة. وحتى للضائع الذي يرى الحياة والموت مزحتين متكافئتين، ثمة مسائل لايمكن المزاح بشأنها. ففعليا بدا الآن يشعر الحفل كله شعورًا عميقا ألا يوجد في ملابس ومشية الغريب ظرف أو ملاءمة. كان الشخص طويلا ونحيلا ومكفنا من رأسه إلى قدميه بملابس القبر. كان القناع الذي يغطي الوجه مصممًا تقريبا على شاكلة قسمات جثة متيبسة إلى حد أن نظرة فاحصة عن كثب لن تستطيع أن تكتشف خدعة القناع

---

(1) Heroded Herod

هذه من الجمل المفضلة جدا لدى (بو) ، والمعني هنا هيرودس، وهو اسم لحاكم من حكام فلسطين ورد في عدة أناجيل من الكتاب المقدس. وهذا الاسم العبري يعني عبارة طنانة، لغة طنانة، عواطف مصطنعة. وفي هذا السياق كما سيأتي لاحقا في القصة لايزال الأمير يرى أن هذه المعاناة ليست إلا تجديفا.

بيسر. ومع ذلك كل هذا كان يمكن أن يتحمله الحالمون حتى وإن لم يوافقوا عليه. غير أن الغمغمة قد توغلت بعيدا إلى حد أنها افترضت أنه نموذج الموت الأحمر. فقد كان ثوبه يقطر دماء وينضح جبينه العريض وكل ملامح وجهه بالرعب القرمزي.

عندما وقع نظر الأمير بروسبيرو على هذه الصورة الطيفية (التي تتحرك ببطء وخلسة كما لو بغرض تأدية دورها كاملا بين صفوف الراقصين) رأي الجميع أنه انتفض في اللحظة الأولى مرتعدا بقوة سواء بسبب الرعب أو المقت، لكن في اللحظة التالية امتقع وجهه غضبا.

سأل رجال البلاط الذين يقفون بالقرب منه بصوت أجش:" من يجرؤ على إهانتنا بهذه المحاكاة الساخرة المجدفة؟" اقبضوا عليه وانزعوا عنه قناعه، نحب أن نعرف من الذي سنشنقه عند شروق الشمس من فوق شرفة الحصن.

كان الأمير يقف في الغرفة الشرقية أو الزرقاء عندما قال هذه الكلمات. لقد اندفعت كلماته عالية واضحة عبر الغرف السبع فقد كان الأمير جريئا وقويا وسكتت الموسيقى بتلويحة من يده.

لقد كان في الغرفة الزرقاء حيث وقف الأمير مع مجموعة من رجال البلاط الشاحبين إلى جانبه. في البداية، بينما يتكلم، تحركت هذه المجموعة حركة خفيفة في اتجاه الدخيل الذي كان في لحظتها قريبا في

متناول اليد أيضا والآن أصبح يقترب أكثر بخطوة متأنية راسخة من المتحدث. لكن بسبب الرهبة المجهولة التي ألهمت الحفل كله بالافتراضات المجنونة لم يرفع أي أحد يدا ليقبض عليه، وبالتالي، أصبح في نطاق ياردة من جسد الأمير بلا عائق أمامه، وبينما الجمع العريض كأنه بنبضة واحدة ينكمش من وسط الغرف إلى جدرانها، شق طريقه بسهولة لكن بالخطوة البطيئة المحسوبة نفسها التي ميزته في البداية عبر الغرفة الزرقاء إلى الأرجوانية، وعبر الأرجوانية إلى الخضراء، وعبر الخضراء إلى البرتقالية، وعبرها إلى البيضاء ومنها حتى إلى البنفسجية، قبل أن تقع حركة حاسمة للقبض عليه. حينئذ اندفع الأمير بروسبيرو غاضبا وخجلا من جبنه المؤقت عبر الغرف الست، في حين أن أحدا لم يتبعه بسبب الرعب المميت الذي أسر الجميع. رفع عاليا خنجرا سحبه من غمده واقترب في سرعة عنيفة إلى ثلاثة أو أربعة أقدام من الشخص المتراجع الذي حين وصل إلى طرف الغرفة المخملية التفت فجأة وواجه مطارده. انطلقت صرخة حادة وهوى الخنجر لامعا فوق السجادة السوداء التي هوى عليها فورا بعد ذلك خاضعا ميتا الأمير بروسبيرو. اندفع جمع من الحالمين على الفور وقد جمعتهم شجاعة اليأس الجامحة إلى الجناح الأسود وإذ حاصروا الممثل المسرحي الذي وقف شخصه الطويل منتصبا وباردا في ظلال الساعة الأبنوسية، شهقوا في رعب لايوصف عندما وجدوا أن أكفان القبر وقناع الجثة الذي قبضوا عليه بعنف شديد لا يسكنها أي شكل ملموس.

والآن اعترف الجميع بوجود الموت الأحمر. استسلم الجميع. أتى باعتباره لصًا في الليل. وواحدا بعد الآخر سقط الحالمون في القاعات المخضبة بالدماء / في قاعات أحلامهم المخضبة بالدماء ومات كل واحد منهم ساقطا في وقفته اليائسة. وخمدت حياة الساعة الأبنوسية مع آخر نفس للمرح. وانطفأت شعلات الشمعدان ثلاثي القوائم. وهيمن الظلام والدمار والموت الأحمر هيمنة كلية على كل شيء.

برميل الأمونتيلادو

لقد تحملت آلاف الجروح من فورتانتو بأقصى ما بوسعي، لكن حين جرؤ على إهانتي، أقسمت أن أنتقم منه. وأنت، يامن تعرف طبيعتي جيدا، لن تظن أنني مع قسمي، صرحت له بتهديدي. ففي النهاية سوف أنتقم لنفسي، هذه نقطة حسمتها بوضوح، غير أن الوضوح ذاته الذي اتخذت به قراري، حال دون فكرة الخطر؛ فأنا لايجب أن أعاقبه فقط، بل يجب أن أعاقبه بدون عاقبة تلحق بي. فالخطأ لن يصلح إذا طالت العقوبة مُصلِحَهُ/ فإصلاح الخطأ لن يتحقق إذا طالت العقوبة المصلح. فالانتقام لن يتحقق إذا طالت العقوبة المنتقم. كما لن يصلح على التساوي إذا أخفق المنتقم في أن يشعر مرتكب الخطأ به منتقما.

لابد أن أؤكد أنه لم تصدر مني كلمة ولا تصرف يجعل فورتانتو يرتاب في نواياي الحسنة، فمازلت ، كعادتي، أبتسم في وجهه ولم يدرك أن ابتسامتي الآن كانت بسبب تفكيري في التضحية به.

فورتانتو هذا كان لديه نقطة ضعف، لكن من نواح أخرى كان رجلا يبعث على الاحترام بل حتى الخوف. لقد كان يفخر بخبرته في النبيذ. قليل من الإيطاليين الذين يملكون روحا فنية حقيقية؛ فالأغلبية

منهم يستخدمون حماسهم في انتهاز الفرصة والوقت، لممارسة الاحتيال على الأثرياء البريطانيين والنمساويين. ففيما يتعلق باللوحات الفنية والمجوهرات كان فورتانتو مثل أبناء بلده دجالا، لكن في أمور النبيذ المعتق كان صادقا. وفيما يتعلق بهذه الناحية لم أكن أختلف عنه جوهريا، فقد كنت ماهرا في النبيذ المعتق الإيطالي وأشتري منه كميات كبيرة حينما أستطيع.

كان الوقت غروبا، حين قابلت صديقي، ذات مساء، خلال ذروة جنون الموسم الكرنفالي. بادرني بتحية دافئة للغاية، فقد كان سكران للغاية. كان الرجل يرتدي زي المهرج، وضع زيا مخططا ضيقا، وقبعة قمعية بأجراس. كنت سعيدا جدا برؤيته لأنني اعتقدت أنني لم أكن لأقبض على يديه أبدا.

قلت له: "عزيزي فورتانتو، ما أسعد حظي أن ألقاك، كم تبدو رائعا اليوم! ألم أخبرك بعد، لقد تلقيت برميل نبيذ زعموا لي أنه نبيذ أمونتيلادو لكني أشك في هذا.

قال: "كيف؟ أمونتيلادو؟ برميل؟ مستحيل! وفي ذروة الكرنفال!"

أجبت: "إنني أشك، وبلغت حماقتي أن دفعت ثمن الأمونتيلادو كاملا دون أن أستشيرك في هذه المسألة. لم أستطع أن أعثر عليك، وخشيت أن أخسر الصفقة".

"أمونتيلادو!"

"أشك".

"أمونتيلادو!"

"ولابد أن أحسمه"

"أمونتيلادو"

"بما أنك مشغول، سأذهب إلى لوتشسي. فهو الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يحكم على النبيذ. سيخبرني..".

"لوتشسي لا يستطيع أن يميز الأمونتيلادو عن الشيري[1]".

"ومع ذلك بعض المغفلين يزعمون أن ذائقته تماثل ذائقتك".

"تعالي، فلنذهب".

"إلى أين؟"

"إلى قبوك".

"لا ياصديقي. لن أستغل كرمك. أرى أنك مشغول. لوتشسي."..

"لست مشغولا، تعالى".

"لا يا صديقي. لم أعن انشغالك بل البرد الشديد الذي أرى أنك مصاب به. إن القبو رطب لدرجة لاتحتمل. كما أنه مشبع بالنترات".

---

(١) الأمونتيلادو هو الشيري وهو خمر إسباني الأصل.

"فلنذهب مع ذلك. لاتهتم بهذا البرد. أمونتيلادو! لقد استغلوك. أما لوتشسي فهو لايستطيع أن يميز الشيري عن الأمونتيلادو".

بعد أن قال فورتناتو هذا، أمسك ذراعي. تركته يسرع بي إلى قصري بعد أن وضعت قناعا من الحرير الأسود وضممت معطفي حول جسدي.

لم يكن هناك أحد في البيت، لقد اختفوا سرا ليستمتعوا بالاحتفال. أخبرتهم أنني لن أعود قبل الصباح وأعطيتهم أوامر واضحة بألا يتحركوا من البيت. أعرف أن هذه الأوامر كافية لتضمن اختفاءهم على الفور جميعهم ما إن أدر ظهري إليهم.

أخذت مشعلين وبعد أن أعطيت واحدا إلى فورتانتو، تقدمته عبر عدة أجنحة من الغرف إلى مدخل مقنطر يؤدي إلى القبو. هبطت سلما طويلا وملتويا، بعد أن طلبت منه أن يكون حذرا بينما يتبعني. وصلنا أخيرا إلى نهاية السلم، ووقفنا معا فوق أرض السرداب الرطبة لمنزل مونتريزورس.

كان صديقي يترنح في مشيته وتجلجل قبعته وهو ينقل قدميه خطوة بعد خطوة.

قال: "البرميل؟"

قلت:" لا يزال أبعد، لكن حذار من نسيج العنكبوت الأبيض الذي يومض فوق هذه الجدران المجوفة".

استدار نحوي ونظر إليَّ بعينين غائمتين تقطران دموع السكر.

سأل في النهاية: "نترات؟"

أجبت: "نترات. منذ متى وأنت مصاب بهذا السعال؟"

"أهو أهو..

لم يستطع صديقي المسكين أن يجيب على سؤالي لعدة دقائق.

في النهاية قال: " لا تبال به، سعال خفيف".

قلت وقد اتخذت القرار: " تعالى، سنعود، صحتك غالية. أنت شخص غني ومحترم ومحبوب. أنت سعيد، كما كنت أنا يوما. سيفتقدك الكثيرون. بالنسبة لي لاتشغل بالك. سنعود، ستمرض ولا أستطيع تحمل مسؤولية مرضك. علاوة على ذلك، يوجد لوتشسي".

قال: "يكفي هذا، هذا سعال تافه، لن يقتلني. لن أموت من سعال".

أجبت: صحيح، صحيح، وفعليا لم أقصد أن أشعرك بالخطر بلاداع، لكنك يجب أن تتخذ كل احتياطك. إن كأسا من نبيذ الميدوك الفرنسي سيحمينا من الرطوبة.

هنا خلعت سدادة زجاجة بعجلة شديدة سحبتها من صف طويل من الزجاجات الذي كان يرقد فوق أرض القبو.

اشرب. قلت له وأنا أقدم له النبيذ.

رفعها إلى شفتيه وهو ينظر شزرا. توقف وهز رأسه لي بود بينما تجلجل أجراسه.

قال: "نخب المدفونين الذين يرقدون حولنا".

"أما أنا، فنخب حياتك الطويلة".

مرة أخرى أخذ ذراعي، وواصلنا تقدمنا.

قال: "هذا القبو واسع".

أجبت: "إن آل مونترزورس عائلة عظيمة وكبيرة".

"نسيت شعاركم"

"قدم إنسان ضخمة من الذهب في حقل لازوردي. تسحق القدم حية جرسية أنيابها مغروسة في الكعب".

"وماذا يحمل الشعار؟"

Nemo me impune lacessit "لن يفلت من عقوبتي من أهانني"

قال: "جيد".

التمع النبيذ في عينيه وجلجلت الأجراس. ألهب خيالي نبيذ ميدوك. مشينا عبر جدران من العظام المتكومة إلى جانب براميل صغيرة وضخمة فيما بينها إلى أعمق فجوة في السرداب. توقفت مرة أخرى، وفي هذه المرة نجحت في أن أمسك فورتناتو من ذراعه فوق مرفقه.

قلت: " النترات، يزيد كما ترى. إنه يتعلق مثل الطحالب فوق القبو. نحن أسفل قاع النهر. ترشح قطرات الرطوبة في العظام. تعالى، سنعود قبل أن يفوت الوقت. سعالك..".

قال: "تافه، دعنا نواصل. لكن قبل هذا رشفة من الميدوك".

كسرت قنينة كبيرة من دي جراف[1] وأعطيتها إليه. أفرغها مرة واحدة. ومضت عيناه بضوء رهيب. ضحك وطرح الزجاجة إلى الأعلى بإيماءة لم أفهمها.

نظرت إليه بدهشة. أعاد الحركة- حركة جروتسكية.

قال: "لم تفهم".

أجبت: "كلا".

"إذن أنت لست من الإخوة؟"

"كيف؟"

"أنت لست من الماسونيين"[2]

قلت: "بلى، بلى"

"أنت؟ مستحيل! ماسوني؟"

---

(١) لا يوجد خمر بهذا الاسم، وهي قد تعني مهلك، مميت. *De Grave*

(٢) الماسوني تعني حرفيا البناء الحر.

أجبت: "ماسوني"

قال: علامة

أجبت وأنا أخرج من معطفي مالجا: "هذا".

تعجب قائلا: أنت تمزح، وهو يتراجع بعض الخطوات. لكن دعنا نمشي إلى "الأمونتيلادو".

قلت: فليكن. وضعت المالج مرة أخرى في معطفي وقدمت له ذراعي. ارتكن إليها بكل ثقله. واصلنا طريقنا سعيا وراء الأمونتيلادو. عبرنا خلال سلسلة من السراديب المنخفضة ثم هبطنا ومشينا ثم صعدنا مرة أخرى حتى وصلنا إلى سرداب عميق، تسبب هواؤه الفاسد في أن تتوهج نار المشعلين بدلا من أن تضيء.

عند نهاية السرداب يوجد آخر أقل اتساعا. بطنت جدرانه بالبقايا البشرية التي تكومت حتى سقف القبو على مضمار السراديب العظيمة في باريس. لاتزال ثلاثة جوانب من هذا السرداب مزينة بهذه الطريقة. أما الجدار الرابع فقد أزيحت العظام جانبا وتكومت فوق الأرض بعشوائية على شكل هضبة صغيرة. في الجدار الذي كشفه غياب العظام من أمامه، رأينا سردابا داخليا بعمق أربعة أقدام واتساع ثلاثة وارتفاع ستة أو سبعة أقدام. يبدو أنه لم يشيد لغرض خاص به بل شكل فحسب الفسحة بين عمودي سقف السرداب الضخمين، وبطنه واحد من حوائطه الدائرية المصنوعة من الجرانيت الصلب.

فشلت محاولة فورتناتو الذي رفع مشعله الخافت لتفحص أعماق الفجوة. لم يتح لنا النور الباهت أن نرى نهايته.

قلت: تقدم، هنا الأمونتيلادو. أما بالنسبة للوتشسي...

قاطعني صديقي وهو يتقدم مترنحا إلى الأمام، وأنا أقتفي خطواته: "جاهل".

في لحظة وصل إلى نهاية الكوة، ووقف حائرا بغباء بعد أن أوقفت تقدمه صخرة. في اللحظة التالية قيدته إلى الحائط الجرانيتي. فقد كان عليه مسماران مزدوجا السن على شكل *U* من الحديد يبعدان عن بعضهما البعض حوالي قدمين أفقيا. تتدلى سلسلة قصيرة من واحد منهما وقفل من الآخر. وبعد أن ألقيت السلسلة حول وسطه، لم يستغرقني إلا ثواني قليلة لأحكم غلقها حوله. كان في حالة اندهاش عميق منعته من أن يقاومني. وبعد أن سحبت المفتاح من القفل خرجت من الفجوة.

قلت: مرر يدك فوق الحائط، لن تخفق في الشعور بالنترات. إنه فعلا رطب جدا. مرة أخرى، دعني أحثك على العودة. كلا؟ إذن لابد أن أتركك بالتأكيد. لكن بعد أن أهتم بأمرك تماما.

هتف صديقي الذي لم يفق بعد من دهشته: "أمونتيلادو!"

أجبت: "صحيح، الأمونتيلادو".

انهمكت وأنا أقول هذه الكلمات في البحث بين كومة العظام التي تحدثت عنها. وبعد أن نحيتها جانبا سرعان ما كشفت عن كمية من أحجار البناء والملاط. بدأت بمساعدة هذه المواد والمالج بناء جدار يسد مدخل الكوة.

ما إن انتهيت من الصف الأول من البناء حتى وجدت أن ثمل فورتناتو قد تلاشى بدرجة كبيرة. كانت أولى البوادر على هذا صرخة أنين خافتة من أعماق الكوة. لم تكن صرخة رجل ثمل. ثم ساد صمت طويل وعنيد. بنيت الصف الثاني ثم الثالث ثم الرابع ثم سمعت صليل القيود. استمر الضجيج عدة دقائق فأصغيت إليه بسعادة قصوى بعد أن أوقفت عملي وجلست فوق العظام. وعندما خمد صوت الصليل، تابعت عملي بالمالج وأنهيت بدون مقاطعة الصف الخامس والسادس والسابع. وصل الحائط تقريبا إلى مستوى صدري. توقفت مرة أخرى ورفعت المشعل فوق الجدار المبني وألقيت بعض أشعة النور الباهتة فوق الشخص الذي بداخله.

انفجرت فجأة سلسلة من الصرخات العالية والحادة من حنجرة الهيكل المسلسل، أجفلتني إلى الوراء. للحظة وجيزة ترددت وارتجفت. بعد أن أخرجت خنجري من غمده بدأت أتلمس به الكوة. لكني هدأت بعد أن فكرت في الوضع. وضعت يدي فوق البناء الصلب للسرداب وشعرت بالارتياح. اقتربت من الحائط. أجبت على صرخاته ذلك الذي

يصرخ؛ أصبحت صداها، ساعدته، بل تفوقت عليها في شدتها وقوتها. فعلت هذا فسكن الصارخ.

حل منتصف الليل وكان عملي على وشك الانتهاء. كنت قد أكملت الصف الثامن والتاسع والعاشر. كنت قد أنجزت قسما من الصف الأخير والحادي عشر، ولم يتبق إلا حجر واحد أضعه وأطليه بالجص. عانيت من وزنه ووضعته جزئيا في مكانه المعين. لكن في تلك اللحظة صدرت من الكوة ضحكة خافتة أوقفت شعر رأسي. تبعها صوت حزين استطعت بصعوبة أن أميز فيه صوت النبيل فورتناتو. قال الصوت: ها ها ها مزحة جيدة بالفعل مزحة رائعة. سنضحك كثيرا عليها في القصر ها ها ها ونحن نحتسي نبيذنا ها ها ها.

قلت: الأمونتيلادو

"ها ها ها، نعم الأمونتيلادو. لكن أليس الوقت متأخرا؟ ألا ينتظروننا في القصر. الليدي فورتناتو والبقية؟ دعنا نرحل".

قلت: نعم، فلنرحل.

"حلفتك بالله يا مونترزور"

قلت: "نعم حبا لله"

لكنني أصغيت عبثا إلى إجابة على هذه الكلمات. نفد صبري وناديته بصوت عال:

"فورتناتو"

لا إجابة، ناديته مرة أخرى:

"فورتناتو"

لا إجابة بعد. أدخلت مشعلي عبر الفتحة المتبقية ليسقط ضوؤه بداخلها، فلم أسمع في المقابل إلا جلجلة الأجراس. اعتل قلبي بسبب رطوبة السراديب. أسرعت في الانتهاء من عملي. وضعت الحجر الأخير في مكانه وغطيته بالجص. أعدت بقايا العظام إلى مكانها أمام البناء الجديد، ولم يزعجها أي مخلوق بشري لنصف القرن. فلترقد بسلام.

عـفـريت الانـحــراف

في سياق درس ملكات ونبضات، أي الدوافع الأولى ***prima mobilia*** لروح الإنسان، فشل علماء الفراسة في إيجاد مكان النزعة الطبيعية التي على الرغم من أنها توجد، كما هو واضح، باعتبارها عاطفة جوهرية وأولية وغير قابلة للاختزال أو التبسيط، فقد غفل عنها على قدم المساواة، كل الأخلاقيين الذين سبقوهم. لقد غفلنا عنها كلنا بسبب العجرفة التي يتسم بها العقل البشري. لقد سمحنا لوجودها أن يفلت من إدراكنـــا فقط لنقص إيماننا، نقص ثقتنا، سواء كان إيمانا بسفر الرؤيا أو ثقة بالقبلانية. ببساطة لم تخطر فكرتها على بالنا بسبب أنها من النوافل. لم نر حاجة إلى النبضة، إلى النزعة الطبيعية. لم نستطع أن ندرك ضرورتها. لم نستطع أن نفهم، بمعنى أننا لم نكن لنستطيع أن نفهم لو تجلت لنا فكرة الدافع الأولي ***primum mobile*** في أي وقت، لم نكن لنستطيع أن نفهم بأي طريقة لها أن ترفع أهداف الإنسان سواء الأهداف المؤقتة أو الأبدية. لا يمكن إنكار أن علم الفراسة وكل الميتافيزيقيين بدرجة كبيرة قد لفقوا عملية إجراءات منطقية من السبب لنتيجته. شرع الإنسان المفكر أو المنطقي، فضلا عن الإنسان الواعي أو المتأمل، في تصور غايات لله، في إملاء أهداف على الله. وبعد أن

سبرغور نواياه بما يرضيه، بني من تلك النوايا نظما لا تحصى للعقل. ففي علم الفراسة، على سبيل المثال، حددنا أولا، باعتبارها مسألة طبيعية تماما، أن غاية الإلوهية أن يأكل الإنسان؛ حينئذ عيَّنا للإنسان عضو التغذية، وهذا العضو هو أداة العقاب التي يجبر بها الله الإنسان، أراد أم لم يرد، على الأكل. ثانيا، وبعد أن رسخنا أنها إرادة الله أن يحافظ الإنسان على نوعه، اكتشفنا على الفور عضو النزوع إلى الحب. وهكذا حدث مع النزعة القتالية والنزعة المثالية والسببية والبنائية، هكذا باختصار مع كل عضو سواء كان يجسد نزعة طبيعية أو شعورا أخلاقيا أو ملكة من ملكات العقل المحض. وفي تلك الترتيبات لمبادئ الفعل الإنساني *principia* لم تقم إسهامات سبورزهيميتس[1]، في الأساس، سواء كانت صحيحة أم خاطئة، جزئيا وإجماليا، إلا باتباع خطوات إسهامات أسلافه، الذين استنبطوا وأسسوا كل شيء استقاء من القدر السبقي للإنسان وبناء على خلفية أهداف خالقه.

لو أن التصنيف (إذا كان من الضروري أن نصنف) قام على أساس ما فعله الإنسان في الغالب أو أحيانا، وما اعتاد في بعض المناسبات أن يفعله عوضا عن أن يقوم على أساس ما اعتبرناه بديهيا ما نوى الله له أن يفعله؛ لأصبح تصنيفا أكثر حكمة، أكثر أمانا. إذا كنا

---

(١) جون كاسبر سبورزهيميتس (١٧٧٦-١٨٣٢)، عالم من علماء الفراسة مشهور حين كان هذا المجال ينظر إليه باعتباره علما جادا.

لا نستطيع أن نفهم الله في أعماله الواضحة فكيف إذن في أفكاره التي لا يمكــن أن نتصـــورها التي تستدعي الأعمال إلى أن تكون؟ إذا كنا لا نستطيع أن نفهمه في مخلوقاته الموضوعية، فكيف إذن سنفهمه في أحواله الجوهرية ومراحل خلقه؟

لو أن علم الفراسة طبق الاستقراء؛ كان سينتهي إلى أن يعترف بمبدأ فطري وأولي من مبادئ الفعل الإنساني، شيء ما يحمل سمة التناقض الظاهري، المفارقة، الذي يمكن أن نسميه الانحراف لعوزنا إلى مصطلح مميز أكثر. في سياق المعنى الذي أقصده هو في الحقيقة حركة بدون حافز، حافز غير محرض. فمن خلال حضه نتحرك بدون هدف يمكن إدراكه، أو حتى لايرى هذا باعتباره تناقضا في المصطلحين، فقد نعدل من الفرضية لكي نقول إن من خلال حضه نتحرك، بسبب أننا لا يجب أن نتحرك. نظريا لا يوجد سبب يمكن أن يكون غير عقلاني أكثر من هذا، لكن، في الحقيقة، لايوجد سبب أكثر قوة منه. ففي ظل شروط معينة يصبح من الصعب علي عقول معينة مقاومته تماما. إنني متأكد أكثر من تأكدي أنني أتنفس أن اليقين من أن القيام بفعل ما يعني ارتكاب خطأ أو إثم هو في الغالب القوة التي لاتقهر التي تسيِّرنا، وتسيِّرنا وحدها إلى المقاضاة. كما أن تلك النزعة المهيمنة لفعل الخطأ من أجل الخطأ لن تقبل بالتحليل أو التحلل إلى عناصر خفية. إنها نبضة جوهرية وأولية، ابتدائية. أعرف أن ثمة من سيقول إنه عندما نصر على فعل أفعال بعينها لأننا نرى أنه لا يجب أن نصر علي فعلها، فهذا السلوك ليس إلا تحويرا للسلوكيات التي تنبجس

طبيعيا من النزعة القتالية التي حددها علم الفراسة. لكن نظرة واحدة إلى هذا القول ستبين زيف هذه الفكرة. إن النزعة القتالية في علم الفراسة تملك في جوهرها ضرورة الدفاع عن النفس. إنها درعنا في مواجهة الأذى. فمبدأها يتعلق بتحقيق رفاهيتنا، وهكذا تثار في وقت واحد مع نشوئها الرغبة في تحقيق الصالح. وبناء عليه تثار الرغبة في الصالح بديهيا مع أي مبدأ هو مجرد تحوير للنزعة القتالية إلا في حالة ذلك الشيء الذي أسميه الانحراف، فالرغبة في الرفاهة لن تخمد فقط بل ستثار عاطفة تتناقض تناقضا قويا معها.

أن يلجأ الإنسان لقلبه هو في النهاية أفضل جواب على السفسطة السابقة. فأي شخص يستشير روحه واثقا فيها ويسألها بكل ما في الكلمة من معنى لن ينكر جوهرية النزعة الطبيعية التي أتحدث عنها. فهي غريزية بقدر ما هي مبهمة. لايوجد إنسان حي لم تعذبه في فترة ما رغبة متقدة في تعذيب مستمعه بالمواربة. يدرك المتحدث أنه بهذا يثير الاستياء، ولديه النية أن يرضي مستمعه؛ فهو غالبا مقتضب، دقيق، واضح، تناضل أكثر الكلمات إيجازا ووضوحا لينطقها لسانه، يكبح نفسه بمشقة عن أن يطلقها، يفزع من غضب الذي يخاطبه ويستنكره. ومع ذلك، الفكرة تضربه أن باستخدام تركيب معقد وجمل اعتراضية قد يتولد هذا الغضب. هذه الفكرة الوحيدة كافية. تنمو النبضة إلى أمنية والأمنية إلى رغبة والرغبة إلى توق لا يمكن السيطرة عليه ويطلق المتحدث العنان (مع إحساسه بالندم العميق وشعوره بالخزي، وعلى الرغم من كل العواقب) للتوق.

أمامنا مهمة يجب أن نؤديها بسرعة. نعرف أن العاقبة وخيمة إذا تقاعسنا عن أدائها، تصرخ أهم أزمة في حياتنا بصوت كالبوق يدفعنا إلى مباشرة العمل على الفور، وبذل أقصى مجهود لإنجازه. نتوقد، تتلفنا الرغبة الشديدة في بدء العمل وتنتظر أرواحنا على جمر نتيجته العظيمة. لابد – سوف ينجز اليوم، ومع ذلك ننحيه إلى الغد، ولماذا؟ لا توجد إجابة غير أننا نشعر بالانحراف، نستخدم الكلمة بدون أن ندرك مبدأها. يأتي الغد ومعه قلق شديد، وشغف أكبر إلى أداء واجبنا، لكن مع هذا الاطراد نفسه من التوق تأتي رغبة ملحة، بلا اسم ومخيفة لأنها غير مفهومة، في التأجيل. هذه الرغبة الملحة تكتسب بانقضاء اللحظات القوية. الساعة الأخيرة للعمل في متناول أيدينا. نرتجف من عنف الصراع بداخلنا، من صراع النهائي مع اللانهائي، من صراع الجوهر مع الظل. لكن إذا استمرت المنافسة بهذا الشكل إلى أبعد من هذا، سيهيمن الظل، نحن نصارع عبثا. تدق الساعة؛ إشارة نهاية رفاهيتنا. في الوقت نفسه هي صياح الديك للشبح الذي أرهبنا طويلا. يطير، يختفي، نحن أحرار. تعود الطاقة القديمة. سنجتهد الآن في العمل. للأسف، فات الميعاد!

نقف على حافة المنحدر. نحدق في الهاوية؛ يغشونا الإحساس بالقيء ويصيبنا الدوار تدريجيا. أول نبضة هي أن ننكمش بعيدا عن الخطر. نبقى بلا أي سبب. وبدرجات بطيئة تمتزج رغبتنا في القيء ودوارنا ورعبنا إلى سحابة من الشعور الذي لا نستطيع تسميته.

تدريجيا،، تتخذ هذه السحابة شكلا، مازلنا غير قادرين على فهمه، مثل دخان الزجاجة التي يظهر منها الجني في الليالي العربية. لكن من سحابتنا هذه فوق حافة المنحدر يتجسد شكل أكثر رعبا مــن أي جني أو عفريت في حكاية، ومع ذلك، هو محض فكرة، لكنها مخيفة وتهزنا إلى النخاع بضراوة بهجة هولها. إنها محض فكرة، كيف سنشعر خلال الاندفاع الكاسح لسقوط من ارتفاع شاهق كهذا. وهذا السقوط - هذه الإبادة المندفعة- بسبب أن هذه الصورة هي أكثر الصور وحشية وبشاعة للموت وللمعاناة التي تمثلت في خيالنا في وقت ما، هل لهذا السبب ذاته نرغبه الآن بشدة؟ ولأن عقلنا يردعنا بعنف بعيدا عن الحافة، لذلك، نقترب منها بأقصى رعونة. لا توجد عاطفة تواقة جدا في طبيعتها كعاطفة ذلك الذي يفكر في الغطس وهو يرتعد فوق حافة المنحدر. أن تنغمس للحظة في أي محاولة في التفكير يعني أن تضيع حتميـــا؛ لأن التفكيـــر لا يفعل إلا أن يحثنا على الإقدام، ولذلك أقول لا نستطيع. إذا لم توجد ذراع ودودة تطمئن علينا، أو إذا فشلنا في مجهود مباغت على قهر أنفسنا بعيدا عن الهاوية؛ نغطس ونتحطم.

إذا تفحصنا هذه الأفعال وما يماثلها، سوف نجدها تتولد فقط عن روح الانحراف. نحن نرتكبها فقط لأننا نشعر أنه لا يجب. فيما وراء أو خلف هذا لا يوجد مبدأ واضح، وقد نعزو في الواقع هذا الانحراف إلى تحريض مباشر من إبليس إن لم يكن معروفا أنه يعمل أحيانا على تعزيز الخير.

لقد قلت هذا القدر، لعلي أجيب عن سؤالك بدرجة ما، لعلي أوضح لك لم أنا هنا، لأعين لك سببا ولو كان ضعيفا لارتدائي هذه القيود وإقامتي في هذه الزنزانة للمحكوم عليهم بالإعدام. إن لم أسهب هذا الإسهاب كنت إما ستسيء فهمي كلية أو لعلك، مثل الرعاع، سوف تتخيلني مجنونا. في الواقع، ستدرك بسهولة أنني واحد من الضحايا العديدة التي لاتحصى لعفريت الانحراف.

من المستحيل أن يكون أي إنسان قد أنجز صنيعا ما بترو أكثر عمقا مني. فلأسابيع، ولأشهر، تفكرت في وسيلة القتل. نبذت آلاف الخطط لأنها انطوت على احتمال أن أكشف. في النهاية أثناء قراءتي مذكرات فرنسية وجدت وصفا لمرض مميت تقريبا أصاب مدام بيلو، بواسطة شمعة مسممة بالصدفة. خطرت الفكرة ببالي على الفور. أعرف أن من عادة ضحيتي أن يقرأ في السرير. أعرف أيضا أن شقته ضيقة وسيئة التهوية. لكنني لست بحاجة إلى أن أربكك بتفاصيل خارجة عن الموضوع. لست بحاجة إلى أن أصف الحيل السهلة التي بدلت بها الشمعة التي في الشمعدان الذي في غرفة نومه بشمعة من صنعي. وجد في الصباح التالي ميتا في سريره، وكان حكم المحقق في سبب الوفاة المشتبه بها: "موتا قضاء وقدرا".

بما أنني ورثت أملاكه، فقد صار الحال جيدة معي لسنوات. لم ترد فكرة اكتشافي مرة واحدة على عقلي. وقد تخلصت أنا نفسي بحرص من بقايا الفتيل القاتل. لم أترك أثر ذرة يمكن تجريمي بها

أو حتى تثير الشك في. لا يمكن تصور كم هو عميق الشعور بالرضا الذي بزغ في صدري حين كنت أفكر في أماني المطلق. لفترة طويلة من الزمن اعتدت أن أجد متعة بالغة في هذا الشعور. لقد منحني بهجة حقيقية أكبر من كل المزايا الدنيوية التي تراكمت عن خطيئتي. لكن وصل عهد في النهاية غدا هذا الشعور المبهج، بتسلسل بالكاد استطعت أن ألاحظه، فكرة ملازمة لي طوال الوقت ومنهكة. أنهكتني لأنها لازمتني. لا أستطيع التخلص منها للحظة. أمر شائع أن تتزعج برنين في أذنيك أو بالأحرى من عبء أغنية عادية ما أو نتف غير مؤثرة من أوبرا ما. ولن يخفف من عذابها أن تكون الأغنية في حد ذاتها جيدة أو أن لحن الأوبرا جدير بالتقدير. في النهاية على هذا المنوال سوف أضبط نفسي دائما أفكر مليا في أماني وأكرر في نبرة خافتة عبارة: "أنا آمن".

في يوم من الأيام بينما كنت أمشي في الشارع ضبطت نفسي أتمتم بصوت عال إلى حد ما هذه الألفاظ الاعتيادية. وفي نوبة من النكد أعدت صياغتها على هذا النحو: " أنا آمن، أنا آمن، نعم إذا لم أكن أحمق بما يكفي لأعترف اعترافا صريحا!"

ما إن قلت هذه الكلمات حتى شعرت برعدة باردة تزحف إلى قلبي. كانت لي تجارب مع تلك النوبات من النكد (الذي وجدت مشقة في شرح طبيعته) وتذكرت جيدا أنني لم أقاوم أزماتها بنجاح في أي مرة. والآن إيحائي الذاتي العرضي بأنني قد أكون من الحمق الكافي لأعترف بجريمة القتل التي أنا مذنب بها واجهني كأنه الشبح الذي قتلته نفسه يغريني بالموت.

في البداية بذلت مجهودا لأنفض هذا الكابوس عن روحي. مشيت بنشاط... أسرع... أسرع... في النهاية عدوت. شعرت برغبة مجنونة في الزعيق عاليا. كل موجة متلاحقة من الأفكار غمرتني برعب جديد لأنني للأسف أفهم جيدا، جيدا جدا أن التفكير في موقفي يعني الضياع. مازلت أسرع خطاي. وثبت كالمجنون عبر الشوارع المزدحمة. في النهاية، أحس الناس بالخطر ولاحقوني. شعرت حينها بنفـــاد قـــدري. لو كان باستطاعتي أن أنتزع لساني كنت قد فعلت، لكن تردد صدى صوت خشن في أذني، وأمسكتني قبضة أخشن من كتفي. درت، وشهقت لكي ألتقط نفسي. لدقيقة عانيت كل آلام الاختناق؛ أصبحت أعمى وأصم ودائخا، ثم ضربني على ظهري عفريت شخص ما خفي بكفه العريض. انفجر خارجا السر الذي حبسته طويلا من روحي.

قالوا إنني تحدثت بنطق واضح لكن بتأكيد ملحوظ على الألفاظ وعجلة محمومة كما لو أنني خشيت أن يقاطعني أحد ما قبل أن أنهي الجمل الموجزة لكن الحافلة بالمعاني التي سلمتني إلى الجلاد وإلى الجحيم.

بعد أن حكيت كل ما هو ضروري للحكم القضائي الكامل سقطت منبطحا في إغماء.

لكن لم يجب أن أقول أكثر من هذا؟ اليوم أضع هذه السلاسل وأنا هنا! غدا سأكون بلاقيود، لكن أين؟

جزيـرة الجـنيَّة

لكل مكان مذاقه الخاص- سرفيوس[(١)]

يقول مارمونتل، في "*Contes Moraux*"[(٢)]، الذي نصر في كل ترجماتنا له على تسميته "حكايات أخلاقية" كأننا نسخر من جوهره-: "الموسيقى هي الموهبة الوحيدة بين جميع المواهب التي تقدم المتعة لذاتها؛ فالمواهب الأخرى تحتاج إلى شهود.[(٣)]" إنه بهذا يقصر المتعة المستقاة من الأصوات العذبة بالقدرة على إبداعها. لا تعلو االموسيقى عن أي موهبة أخرى في قابليتها لتقديم المتعة الكاملة حين لايوجد طرف ثان يستحسنها. وتشترك فقط مع المواهب الأخرى في أن لها من الآثار التي يمكن الاستمتاع بها كاملا في العزلة. إن الفكرة التي إما فشل الراوي في إيضاحها تماما أو ضحى بفحواها في صياغتها قربانا لحبه الوطني، هي، بلاشك، الفكرة ذاتها التي تصلح حجة قوية بأن أعلى تثمين نقوم به للموسيقى الراقية عندما نسمعها وحدنا كلية. سيسلم بهذه الفرضية على الفور في شكلها هذا هؤلاء الذين يحبون القيثارة من أجل القيثارة، ومن

---

(1) Maurus Honoratus. القرن الرابع عشر، نحوي.

(١) *Morau* وهي تعني في هذا السياق "مطابق للسائد"، أو بدقة أكبـر "العـادات الحميدة" (بو) *Moeurs* مشتقة من *Jean Francois Marmontel (1723-1799)*

(٣) وردت بالفرنسية

أجل استخدماتها الدينية. غير أنه لاتزال توجد متعة واحدة في متناول الجنس البشري الهابط من السماء، ولعلها واحدة فقط، التي تدين حتى أكثر من الموسيقى للإحساس النادر بالعزلة. أعني السعادة التي نجدها في تأمل الطبيعة. في الحقيقة، إن الإنسان الذي اعتاد أن يشاهد على نحو صحيح مجد الله فوق الأرض، لابد أن يشاهد هذا المجد في العزلة. فبالنسبة لي على الأقل، إن وجود، ليس الحياة الإنسانية فقط، بل الحياة في أي شكل آخر غير الذي في المخلوقات الخضراء التي تنمو فوق تربة الأرض وبصمت، هذا الوجود هو لطخة فوق المشهد الطبيعي، في حالة خصام مع عبقرية المشهد الطبيعي. فأنا أحب حقا أن أنظر إلى الوديان المعتمة، والصخور الرمادية، والمياه التي تبتسم بصمت، والغابات التي تتنهد في سبات قلق، والجبال الشاهقة الآبية التي تتطلع إلى كل شيء عند أقدامها، أحب أن أنظر إليها باعتبارها في حد ذاتها ليست إلا أعضاء كبيرة من كل عريض حي وواع، كل شكله (الكروي) هو الأكمل والأشمل دائمًا، سبيله هو ما بين الكواكب السيارة، خادمه الخنوع هو القمر، وملكته هي الشمس، حياته هي السرمدية، فكره هو فكر الله، متعته هي المعرفة، مصائره تضيع في الاتساع، يدركنا كما ندرك الحيوانات الدقيقة *animalulae* التي تغزو المخ - كل هو كائن، لذلك ننظر إليه باعتباره ماديا وليس حيًا كما تنظر إلينا تلك الحيوانات الدقيقة.

تؤكد لنا أجهزة التليسكوب والأبحاث الرياضية على جميع المستويات- بغض النظر عن رياء جهل الكهنوت- أن الزمان وبالتالي الحجم اعتبار مهم في عين القدير. إن الأفلاك التي تتحرك فيها النجوم هي أفضل الأفلاك المهيأة لحركة أكبر عدد ممكن من الأجساد بدون أن

تتصادم. إن أشكال هذه الأجساد أيضًا خلقت بهذه الدقة، في ظل سطح معين؛ لكي تضم أكبر كمية ممكنة من المادة؛ في حين أن الأسطح نفسها مقدرة على النحو الذي به تتسع لعدد من السكان أكبر مما كان يمكن أن تتسع له لو أنها ذات نسق مختلف. وأن الفضاء ذاته لانهائي لم ترد حجة ضد الكتلة باعتبارها غاية من غايات الله. فلعل كمية لامتناهية من المادة تشغل الفضاء. وإذ نرى بوضوح- بقدر ما تصل أحكامنا العقلية- أن حيوية المادة هي بالفعل مبدأ- المبدأ الرئيسى في عمليات الألوهية- فلن يكون منطقيا أن نتخيل أنها مقصورة على العوالم الدقيقة التي نقتفي أثرها يوميا ولا تمتد إلى المناطق المهيبة. وحيث إننا نجد دورة داخل دورة بلا نهاية، إلا أنها تدور حول مركز بعيد جدا هو الله، ألا يمكن أن نفترض بالقياس حياة داخل حياة، الأصغر داخل الأكبر وكلها ضمن الروح القدس؟ باختصار ألا نخطئ بجنون، غرورا، في الإيمان بأن الإنسان سواء في مصيره الدائم أو المستقبلي، ذو أهمية أكبر في الكون من أهمية " تربة الوادي" الواسعة التي يحرثها ويحتقرها، والتي ينكر عليها الروح لسبب لا يزيد على أنه لا يشاهد حركتها[1].

هذه الأخيلة، ومثلها، غذت تأملاتي بين الجبال والغابات، وبجوار الأنهار والمحيطات بمسحة مما لن يتوانى العالم اليومي في تسميتها غير واقعية. كانت جولاتي بين هذه المشاهد عديدة وبعيدة ووحيدة في الغالب، والاهتمام الذي تهت به عبر العديد من الأودية

(١) يقول بومبيوس ميلا في بحثه عن المد: "إما أن العالم حيوان كبير أو، إلخ". (بو)

المعتمة والعميقة أو حدقت إلى السماء المنعكسة فوق بحيرات لامعة عديدة، اهتمامًا عمقه كثيرا أنني أشرد وأنظر وحدي. من الفرنسي[١] الثرثار الذي قال إشارة إلى العمل المعروف لزيمرمان[٢]: "العزلة شيء جميل، لكن من الضروري أن تجد شخصا ما يقول لك إن العزلة جميلة.[٣]" لايمكن إنكار جمال الإبيغرام، لكن لا محل للضرورة.

كان خلال واحدة من رحلاتي الوحيدة وسط منطقة بعيدة من الجبال الطواقة بجبال وأنهار حزينة وبحيرات جبلية تتلوى أو تنام ضمنها، أن صادفت جدولا وجزيرة. وصلت إليهما فجأة في يونيو المورق وألقيت نفسي فوق العشب تحت فروع شجيرة عطرة مجهولة لعل النعاس غلبني وأنا أتأملها. شعرت أنني يجب أن أنظر إليها هكذا فقط، هكذا كانت الصورة الخيالية التي منحتني إياها.

في جميع الجهات إلا الغرب، حيث كانت الشمس على وشك المغيب، انتصب جدار الغابة الخضراء. بدا أن النهر الصغير الذي يغير مجراه فجأة ويغيب بالتالي عن النظر فورا، لا يجد مخرجا له من سجنه سوى أن يذوب في أوراق الأشجار عميقة الاخضرار في الشرق، في حين أن في الجهة المقابلة (هكذا بدا لي وأنا مستلق وأنظر إلى الأعلى) يتدفق بصمت وبغزارة إلى الوادي شلال ذهبي وقرمزي اللون من ينابيع غروب الشمس في السماء.

---

(١) بلزاك- لا أنكر الكلمات. (بو)

(2) *Johann Zimmerman (1728-1795)* فيلسوف سويسري

(٣) وردت بالفرنسية.

في منتصف المجاز القصير الذي سارت فيه رؤياي الحالمة، جزيرة صغيرة وافرة الاخضرار، تضطجع فوق صدر الجدول.

ضفة وظلال

كل منهما كأنه يتدلى في الهواء

بدت مياهه الثلجية مرآة إلى حد أن من المستحيل أن أعرف عند أي نقطة فوق انحدار المرج الزمردي تبدأ مملكتها الكريستالية.

خول لي موقعي أن أضم في نظرة واحدة الطرفين الشرقي والغربي للجزيرة، ولاحظت اختلافا واضحا فريدا في مظهريهما. كان الغربي ملكا مشعا من الجمال البستاني، يتألق ويخجل تحت عين ضوء الشمس المائل ويضحك مع الأزهار ببراءة. كانت الأعشاب قصيرة، لينة، عذبة العطر، مرصعة بالزنابق. كانت الأشجار رشيقة ومرحة وعالية تلمع، لها أوراق شرقية الشكل بلحاء ناعم ومصقول ومظلل بالألـــوان. ثمـــة حس عميق من الحياة والفرح يشوب المكان كله، وعلى الرغم من أن لا نسائم تهب من السماء، ينبض كل شيء بالحركة بسبب الفراشات اللانهائية التي تمسح المكان ريحة وجيئة التي أعتقد خطأ أنها أزهار التوليب المجنحة[1].

---

(1)Florem putares mare per liquidum aethera. Poe. Commire

لك أن تتخيل زهرة تطوف في الهواءالسائل.

الهواء السائل: هواء في حالة سيولة، يعد بتعريضه لضغط عظيم ثن بتبريده.

Commire (1625-1702) Curiosities of Literature.

كان الطرف الآخر أو الشرقي غارقا في ظل أسود. وميض معتم لكنه جميل وهادئ طغى على كل المخلوقات. كانت الأشجار قاتمة اللون وحزينة الشكل والعلو، تطوي نفسها إلى أشكال حزينة ورزينة وطيفية تثير أفكارا عن الحزن الفانى والموت المبكر. اكتسى العشب باللون الغامق للسرو، وتدلت قمم أنصاله، وتناثرت فيما بينه هنا وهناك رابيات خفية صغيرة، منخفضة وضيقة وليست طويلة جدا لها هيئة القبور، لكنها على الرغم من أن نبتة الفيجن وإكليل الجبل تسلقتها وغطتها، سقطت ظلال الأشجار ثقيلة فوق المياه، وبدت أنها تدفن نفسها فيها تلقح أعماق المياه بالظلام. تخيلت أن كل ظل أثناء هبوط الشمس، يفصل نفسه حزينا عن الجذع الذي منحه الميلاد ويذوب هكذا في الجدول، في حين أن الظلال الأخرى التي تنبثق في كل لحظة عن الأشجار تحتل مكان أسلافها التي دفنت على هذا النحو.

ما إن قبضت هذه الفكرة على خيالي حتى أثارته إثارة كبيرة، وتهت توا في أحلام اليقظة. قلت لنفسي: "لو سحرت يوما جزيرة، فهذا هو. هذا هو مأوى جنيات لطيفة قليلة بقيت من حطام نوعها. هل تلك القبور لها؟ أو أنها تسلم حيواتها الحلوة كما يسلم البشر حيواتهم؟ هل في موتها تهزل حزينة، وهي تسلم إلى الله، رويدا، رويدا وجودها، كما تسلم هذه الأشجار ظلالها ظلا بعد ظل وهي تستنفد جوهرها حتى التحلل؟ ألا يمكن ما تكونه الشجرة الهزيلة بالنسبة إلى المياه التي تتشرب ظلها لتصبح أكثر دكنة، هو ما تمثله حياة الجنية إلى الموت الذي يحيطها؟"

بينما أتسلى على هذا النحو بعينين نصف مغمضتين والشمس تغرق سريعا إلى مرقدها والتيارات الدوامية تتقدم بسرعة تلف وتلف الجزيرة تحمل فوق صدرها رقائق ضخمة متألقة بيضاء من لحاء الجميز، رقائق قد يحولها خيال سريع بسبب أوضاعها متعددة الأشكال فوق سطح المياه، إلى أي شيء يحبه، بينما أتسلى هكذا، ظهر لي أن جنيّة من تلك الجنيات ذاتها التي كنت أفكر بها شقت طريقها ببطء إلى العتمة من النور في الطرف الغربي من الجزيرة. وقفت شامخة في كانو هشة فريدة وحثته بمحض طيف مجذاف. في حين أن هيئتها بدت تدل على الفرح في ظل نفوذ أشعة الشمس المتسكعة، لكن الحزن شوهها عندما مرت عبر الظلال. انزلقت بعيدا ببطء وفي النهاية لفت الجزيرة ودخلت مرة أخرى منطقة النور. واصلت أحث نفسي متسليا:
" إن الدورة التي قامت بها الجنية لتوها هي دورة عام حياتها القصيرة. طافت عبر شتائها وعبر صيفها. اقتربت من الموت عاما، لأنني رأيت أن ظلها سقط عنها حيث ابتلعته المياه المعتمة، لتصبح دكنتها أكثر سوادا".

مرة أخرى ظهر القارب والجنية، لكن لوّن هيئتها اهتمام وعدم يقينية وقدر أقل من الفرح المرن. طافت مرة أخرى من النور إلى العتمة (التي أصبحت على الفور أكثر عتمة)، ومرة أخرى سقط ظلها إلى المياه الأبنوسية وذاب في سوادها. ومرة بعد مرة دارت الدورة حول الجزيرة (بينما الشمس تسرع لسباتها) وتخرج كل مرة إلى النور

بحزن أكبر يلف جسدها بينما تغدو أوهن وأشحب وأبهت، وعند كل عبور إلى العتمة يسقط منها ظل أكثر عتمة، تطغى عليه ظلال أكثر سوادا. لكن في النهاية، عندما رحلت الشمس تماما، ذهبت الجنية التي أصبحت الآن محض شبح لذاتها السابقة، منفطرة القلب مع قاربها إلى منطقة الفيضان الأبنوسي ومن ذلك المكان خرجت إلى حيث لا أعرف لأن الظلام خيم على كل الأشياء ولم أر شكلها السحري بعد الآن أبدا.

البورتريه البيضاوي

كان القصر الذي غامر خادمي الخاص بدخوله عنوة، مفضلا ذلك عن أن يتركني في حالتي المصابة إصابة بالغة أن أقضي الليل في الهواء الطلق، مزيجا من الدكنة والعظمة التي عبست طويلا فيما بين جبال الأبينين[١] بما لا يقل في الحقيقة عما في خيال السيدة رادكليف[٢]. وقد دل مظهره على أنه لم يهجر إلا مؤخرا جدا وإلى حين. أقمنا في أصغر وأقل جناح فخامة الذي يقع في بريج ناء من القصر. اتسمت زخرفته بالترف والأناقة إلا أنها كانت بالية وعتيقة. وغطت جدرانه الأنسجة الملونة ورسومات تذكارات شعارية متنوعة ومختلفة الأشكال، إلى جانب عدد عظيم، على غير المألوف، من اللوحات الزيتية الحديثة المفعمة بالحياة في أطر مترفة من الأرابيسك الذهبي. لعل حمى هذياني جعلتني أهتـم عمـيقا بتـلك اللوحات التي لا تغطي فقط الجدران بل أركانا عديدة جدا استدعت ضرورتها هندسة القصر الغريبة. لهذا رجوت بيدرو أن يغلق نوافذ الغرفة- حيث إن الليل قد حل بالفعل- لكي يشعل الشمعدانات الطويلة التي تنتصب إلى

(١) سلسلة جبال تقع على طول شبه الجزيرة الإيطالية في الشمال الغربى

روائية اتسم أسلوبها بالقوطية كتبت روايات الرعب. *(2) Ann Radcliffe (1764-1823)*

جانب مقدمة السرير، وأن يفتح الستائر السوداء المخملية التي تحوط السرير ذاته علي. آملت أن يساعدني هذا على أن أستسلم، إن لم يكن إلى النوم، فعلى الأقل بالتناوب، إلى تأمل تلك الصور وقراءة مجلد صغير وجدته فوق الوسادة مخصصا لنقدها ووصفها.

طويلا، طويلا قرأت، وبإخلاص، وبإخلاص تمعنت النظر فيها. فمضت الساعات سريعا وببهاء، وحل منتصف الليل الغائر. سبب لي مكان الشمعدان الذي كان بعيدا عن متناول يدي الإزعاج، وعوضا عن أن أوقظ خادمي من النوم نقلته إلى مكان، تسقط أشعته منه تماما فوق الكتاب.

لكن أسفر هذا نتيجة لم أتوقعها كلية. سقطت أشعة الشمعدان العديدة (كان يوجد به أكثر من شمعة) على مشكاة في الغرفة غرقت حتى تلك اللحظة في ظل عميق ألقاه عمود من أعمدة السرير. عليه رأيت خلال النور القوي لوحة لم ألاحظها من قبل. كانت بورتريه فتاة صغيرة أيعنت توا إلى أنوثتها. نظرت إلى اللوحة بسرعة ثم أغلقت عيني. لم فعلت هذا لم يكن حتى واضحا لي في البداية. لكن أثناء ما كانت عيناي مغمضتين، بحثت في عقلي عن السبب الذي دفعني إلى غلقهما على هذا النحو. لقد كانت حركة رد فعل لأكسب وقتا للتفكير، لأتأكد من أن بصري لم يخدعني، لأهدأ وأسكن خيالي حتى أستطيع أن أتأمل اللوحة باتزان وثبات أكبر. وخلال لحظات قليلة جدا نظرت مرة أخرى إلى اللوحة بإمعان.

إن ما رأيته حينها على نحو صحيح لم يترك لي مجالا للشك ولم يكن ليسمح لي بالشك. يبدو أن الوميض الأول للشموع الذي وقع على تلك اللوحة بدد السبات الحالم الذي كان ينسل فوق حواسي ونبهني فزعا إلى الحياة اليقظة.

وكما قلت، كان بورتريه فتاة صغيرة فعليا. كان لرأسها وكتفيها فقط، مرسوما بما يسمى فنيا أسلوب النقش الصغير، الذي قارب الرؤوس الأثيرة لسيلي[١] كثيرا. يذوب الصدر والذراعان إلى نهايات الشعر اللامع تدريجيا في الظلال المبهمة لكن العميقة التي تشكل الخلفية. كان الإطار بيضاوي الشكل ومطليا بالذهب بأناقة وبزخرفة مغربية. وأروع ما في هذه التحفة الفنية هو الرسم ذاته. لكن ليس أسلوب العمل أو الجمال الخالد لقسمات الوجه هو ما أثر في فجأة وباتقاد. لعل خيالي على سبيل المثال لا الحصر ظن الرأس رأس شخص حس تشوشا بسبب نعاسي. ورأيت على الفور أن خصوصيات التصميم، والنقش المنمنم والإطار قد بددت تلك الفكرة في لحظتها، لابد أنها حالت حتى دون أن أتأملها تأملا خاطفا. عندما فكرت بجدية في تلك النقاط مكثت ساعة على الأرجح نصف مضطجع، نصف جالس وكان نظري مثبتا على البورتريه. أخيرا وقد اقتنعت بالسر الحقيقي لتأثيرها، سقطت في السرير. اكتشفت أن رقية الصورة تنطوي في التعبير الذي ينبض بالحياة المطلقة والذى في البداية أجفلني ثم أخيرا

---

(1) *Thomas Sully (1783-1872)* رسام أمريكي

أربكني وجمد مشاعري وروعني. برهبة عميقة أرجعت الشمعدان إلى مكانه السابق. أما وقد حجزت سبب اهتياجي بعيدا عن مرمى نظري، سعيت بتوق شديد إلى المجلد الذي يفند اللوحات والقصص التي وراء رسمها. وبعد أن قلبت الصفحات إلى الصفحة التي تشير إلى البورتريه البيضاوي، قرأت فيها الكلمات الغامضة والغريبة الجذابة التالية:

كانت عذراء ذات جمال نادر ومليئة بالمرح بقدر ما هي فاتنة. وحل الشر لحظة أن رأت الرسام وأحبته وتزوجت منه. هو: متوقد، مجد، صارم ولديه عروس بالفعل، فنه. هي: عذراء ذات جمال نادر ومليئة بالمرح بقدر فتنتها، مبتهجة وباسمة الثغر وعابثة مثل الظبي الصغير، محبة لكل الأشياء وتعتني بها، كارهة فقط الفن الذي هو منافسها، مبغضة فقط لوحة الألوان والفرشاة والأدوات الأخرى صعبة المراس التي تحرمها من قسمات وجه حبيبها. لهذا كان رهيبا لهذه السيدة أن تسمع الرسام يتحدث عن رغبته في أن يرسم بورتريها حتى لعروسه الشابة. لكنها كانت متواضعة ومطيعة، وجلست بخنوع لأسابيع عديدة في غرفة البريج المعتمة التي يتقطرالنور فيها فوق القماش الشاحب فقط من الأعلى. لكنه، الرسام، تفاخر بعمله الذي استمر من ساعة إلى ساعة ومن يوم إلى يوم. وكان رجلا متوقدا وجامحا ومتقلب المزاج، ضاع في أحلام اليقظة؛ لهذا لم يكن ليرى أن النور الذي يسقط واهنا في ذلك البريج المنعزل يُذبل صحة عروسه ومعنوياتها التي تسمرت في موضعها بوضوح إلى الجميع إلا هو. إلا أنها

تبتسم له ولاتزال، بلاشكوى، لأنها رأت أن الرسام (الذي يملك شهرة عالية) يستمتع بعمله بحماس بالغ وعمل ليلا ونهارا لرسمها تلك التي أحبته جدا، لكن التي تغدو يوما بعد يوم أكثر اكتئابا وضعفا. وتحدث بعض الذين رأوا البورتريه بلطف عن التماثل بينهما في كلمات خافته باعتباره معجزة جليلة وبرهانا على حبه العميق لها تلك التي رسمها رسما يفوق الوصف أكثر من أنه برهان على براعته باعتباره رساما. لكن في النهاية، ومع اقتراب العمل من نهايته، لم يسمح لأحد بدخول البريج، لأن الرسام غدا أكثر جموحا في حماسته لعمله، ولا يحول نظره عن قماش اللوحة إلا نادرا حتى لكي ينظر إلى قسمات وجه زوجته. ولم يكن ليرى أن مسحات الألوان التي ينثرها فوق اللوحة كانت ألوانها من وجنتي التي تجلس إلى جانبه. وعندما مرت عدة أسابيع ولم يتبق إلا القليل لينجز باستثناء ضربة من الفرشاة فوق الفم ومسحة لون فوق العين، خفقت روح السيدة مرة أخرى مثل اللهب في تجويف المصباح. ثم ضرب آخر ضربة من الفرشاة ووضع آخر مسحة. وللحظة انتصب الرسام أمام العمل الذي شغله، لكن في اللحظة التالية أخذ يرتعش وشحب لونه وهو يتمعن في اللوحة صرخ مشدوها في صوت عال: "هذه هي الحياة في حد ذاتها"، والتف فجأة لينظر إلى حبيبته: "كانت ميتة!"

الموعد

انتظريني هناك!

لن أخفق في لقائك

في ذلك الوادي العميق

رثاء في زوجته، هنري كنج، أسقف تششستر

أيها الرجل المنحوس والمكتنف بالأسرار! - الحائر في إشراق خيالك، والهاوي في لهيب شبابك! مرة أخرى أشاهدك في خيالي! مرة أخرى يبزغ جسدك أمامي! ليس، أوه، ليس كما أنت، في الوادي البارد والظلال، بل كما يجب أن تكون- تبذر حياة من التأمل الرائع في مدينة الرؤى المظلمة- فينيسيا أثيرتك، فردوس البحر، ونوافذها الواسعة التي تطل بها قصور بالاديان[١] بمعان عميقة ومريرة على أسرار مياهها الصامتة. نعم! أكررها، كما يجب أن تكون. بالتأكيد ثمة عوالم أخرى غير هذا، أفكار أخرى غير أفكار الجماهير، تأملات أخرى غير تأملات السوفسطائي. فمن الذي يعترض على سلوكك؟ ومن يلومك على ساعـات رؤاك، أو ينكر تلك الانشغالات باعتبارها مضيعة للحياة التي لم تكن إلا دفق طاقاتك الأبدية؟

---

(1) *Palladio (1518-1580)* معماري إيطالي

قد كان في فينيسيا، تحت المجاز المقنطر التي تسمى جسر التنهدات، أن قابلت للمرة الثالثة أو الرابعة الشخص الذي أتحدث عنه. إنني أتذكر ملابسات هذا اللقاء بذاكرة مشوشة. إلا أنني أتذكر – آه! كيف لي أن أنسى؟ – منتصف الليل الغائر، وجسر التنهدات، وجمال المرأة والروح الحارسة والغرام الذي يتمشى بطول القناة الضيقة.

كانت ليلة ذات ظلام غير عادي. أعلنت ساعة بياتزا العظيمة الرابعة من الليل الإيطالي. يغلف ميدان كامبيل الصمت والوحشة، وتتلاشى أضواء القصر الدوقي سريعا. كنت عائدا إلى بيتي من البيازتا عن طريق القناة العظيمة. لكن عندما وصل جندولي إلى الجهة المقابلة من مدخل قناة سان ماركو، خرج من أعماقها صوت أنثوي شق الليل فجأة في صرخة عنيفة هستيرية ممتدة. انتفضت واقفا على قدمي جافلا من الصوت، في حين أن قائد الجندول، وقد انزلق مجذافه الوحيد، أضاعه في الظلام الفاحم، بدون فرصة لاستعادته، وبالتالي تركنا لهدي التيار الذي يتجه في هذا المكان من القناة الأكبر إلى الأصغر. ومثل طائر كندور ضخم وأسود الريش، كنا ننحرف ببطء تجاه جسر التنهدات، وإذ ألف مشعل يومض من نافذة القصر الدوقي وبطول سلالمه محولا فجأة تلك الظلمة الغائرة إلى نهار شاحب وغريب.

طفل، وقد أفلت من بين ذراعي أمه، سقط من نافذة علوية في المبنى الشاهق إلى القناة العميقة والمعتمة. انغلقت المياه الهادئة بهدوء على ضحيتها. وعلى الرغم من أن جندولي كان هو الشيء الوحيد

المرئي، كان يبحث عدد من السباحين الشجعان الذين قفزوا إلى الجدول فعليا عبثا على سطحه عن الكنز الذي يمكن إيجاده فقط، للأسف! في اللج. فوق اللوح الحجري الرخامي الأسود العريض عند مدخل القصر وعلى بعد خطوات قليلة من المياه، وقف شخص لن يستطيع أن ينساه أبدا من رآه حينها. كانت الماركيزة أفروديت، محبوبة فينيسيا كلها، بهجة البهجة، الأجمل حين يكون الجمال حاضرا، لكنها مع ذلك الزوجة الشابة لمينتوني العجوز والمخادع، وأم ذلك الطفل الجميل، طفلها الأول والوحيد، الذي كان يفكر وهو يرقد الآن عميقا تحت المياه المظلمة بمرارة في معانقتها الحلوة ويبذل حياته الصغيرة في صراعه لينادي اسمها.

وقفت وحدها. لمعت قدماها الصغيرتان والعاريتان على المرآة الرخامية السوداء تحتها. شعرها الذي لم تكن قد حلته بعد كلية من تصفيفة المساء التي حضرت بها حفلا راقصا، كان يلتف حول رأسها النموذجي في عقصات تشبه طيات زهرة الياقوتية النضرة مجمعا بين وابل من الماسات. ثوب فضفاض ثلجي اللون وشفاف يبدو أنه الغطاء الوحيد تقريبا لجسدها الرقيق. غير أن هواء منتصف الصيف ومنتصف الليل كان حارا وخامدا وساكنا، ولم تبدر عن الجسد الذي اتخذ شكل التمثال حركة تثير حتى طيات ذلك الغلاف الضبابي ذاته الذي التف حولها، كما يلتف الرخام الثقيل بنيوبا[1]. ومع ذلك- وهو

(١) الأم التي حولها زيوس إلى حجر بعد أن قتل أولادها. كانت الدموع تنهمر من التمثال.

أمر غريب- عيناها الواسعتان اللامعتان لم تتحولا إلى الأسفل نحو القبر الذي يرقد فيه مدفونا أملها الوضاء، بل كانتا مأسورتين بانتباه في اتجاه مختلف كلية! أعتقد أن سجن الجمهورية القديمة هو أفخم مبنى في فينيسيا، لكن كيف تستطيع هذه السيدة أن تحدق بثبات كبير فيه وابنها يختنق تحتها؟ تتثاءب أيضا مشكاة معتمة مظلمة في الجهة المقابلة تماما لنافذة غرفتها، ماذا، إذن، عساه يوجد في ظلاله، في هندسته المعمارية، في إفريزاته الجليلة المكسوة باللبلاب لم تتأملها الماركيزة دي مينتوني آلاف المرات من قبل؟ هراء! من الذي لا يتذكر، أنه في أوقات مثل هذه، تضاعف العين مثل المرآة المهشمة صور حزنها، وترى في أماكن نائية لاتحصى البلاء القريب منها؟

وإلى الأعلى من الماركيزة بعدة سلالم وداخل إطار قنطرة البوابة المائية وقف في ملابسه الكاملة هيكل مينتوني نفسه الذي يشبه ساطير[١]، كان يشغل نفسه أحيانا باللعب على أوتار الجيتار وبدا ضجرا إلى حد الموت نفسه، بينما على فترات يعطي توجيهات لاستعادة ابنه. أنا نفسي كنت منصعقا ومشدوها، لم أملك الطاقة لكي أتحرك من وضعي المنتصب الذي اتخذته عند سماعي الصرخة في البداية، ولابد أنني بدوت في عيون الجميع المهتاج مثولا طيفيا ومشؤوما وأنا أطفو في ذلك الجندول الجنائزي بينهم بملامحي الشاحبة وأطرافي المتجمدة.

---

(١) الإله الإغريقي

ضاعت كل الجهود عبثا. خفف العديد من أكثر الباحثين عن الطفل طاقة ونشاطا محاولاتهم واستسلموا إلى أسى متشائم. يوجد أمل قليل للطفل (كم هو أقل بكثير بالنسبة للأم)، لكن في هذه اللحظة، من تلك المشكاة المظلمة التي ذكرت أنها تشكل جزءا من سجن الجمهورية القديم وتواجه نافذة الماركيزة، خطا شخص متلفع في معطف إلى دائرة الضوء، وتوقف لحظة على الحافة اللزقة للمنزل وغطس رأسا إلى القناة. وفي ثانية، كان يقف بالطفل الحي الذي يتنفس في قبضته على اللوح الرخامي العريض إلى جانب الماركيزة حيث انحل معطفه المثقل بالمياه وكشف بسقوطه في طيات حول قدميه للمشاهدين المندهشين عن جسد رشيق للشاب الذي كان يتردد صدى اسمه في معظم أنحاء أوروبا حينذاك.

لم ينطق المنقذ كلمة واحدة. لكن الماركيزة! ستتلقى الآن طفلها، ستضمه إلى قلبها! ستتشبث بجسده الصغير وتغرقه بقبلاتها. لكن للأسف ذراعين أخريين أخذتاه من الغريب، ذراعين أخريين أخذتاه بعيدا وحملتاه بعيدا دون أن يلاحظ أحد ذلك إلى القصر. شفتاها، شفتاها الجميلتان ترتعشان، والدموع تتجمع في عينيها، تلك العينان اللتان ينطبق عليهما وصف بليني لنبات الأقنثا "ناعمتان ومغرورقتان". نعم! دموع تتجمع في تلك العينين، وانظر! المرأة كلها ترتجف حتى روحها، وفي التمثال، دبت الحياة! شحوب الملامح الرخامية، انتفاخ الصدر الرخامي، النقاوة نفسها للقدمين الرخاميتين، لقد اجتاح كل هذا

فجأة خجلا في فيضان من الحمرة الجامحة، ورعشة خفيفة ترجف جسدها الرقيق كالنسمة اللطيفة في نابولي التي ترجف الليلك الفضي الزكي في الأعشاب.

لماذا تحمر خجلا تلك السيدة! على هذا السؤال، لا إجابة إلا إذا كان إهمالها أن تأسر قدميها في حذائها عندما غادرت غرفتها في لهفة الأم الفزعة، ونسيانها تماما أن تلقي على كتفها الفينيسي ثوبا كما هو مطابق للعرف. أي سبب آخر محتمل يمكن لكي تحمر خجلا على هذا النحو- لتلك النظرة المناشدة من هاتين العينين الفاتنتين الواسعتين- لاضطراب صدرها الخافق- لهذه الضغطة المتشنجة من يدها المرتجفة؟ تلك اليد التي سقطت بالصدفة، بما أن مينتوني استدار نحو القصر، على يد الغريب؟ ما هو السبب في نبرتها الخافتة- الخافتة على نحو غريب في تلك الكلمات المبهمة التي نطقتها السيدة بعجلة في توديعه؟ قالت: "لقد انتصرت". قالت، أو لعله هدير المياه الذي خدعني: "انتصرت، بعد ساعة من شروق الشمس، سنلتقي، فليكن إذن!"

خفتت الضجة وتلاشت الأضواء في القصر، والغريب الذي تعرفت عليه الآن وقف وحيدا فوق اللوح الرخامي. كان يرتعش بهياج غير مفهوم وعيناه تنظران حوله بحثا عن جندول. لم يكن بوسعي أقل من أن أعرض عليه جندولي وقد لبى دعوتي اللطيفة. وبعد أن حصلنا على مجذاف عند البوابة المائية، تقدمنا معا باتجاه مسكنه حيث استعاد سريعا رباطة جأشه وتحدث عن تعارفنا الضئيل السابق بمودة عظيمة واضحة.

ثمة أشخاص معينون يسعدني أن أكون دقيقا في وصفهم. إن الشخص الغريب، فلأسميه بهذا الاسم الذي مازال للعالم كله غريبا، واحد من هؤلاء الأشخاص، في الطول لعله أقصر عن أن يكون أطول من الحجم المتوسط، على الرغم من أنه في لحظات الانفعال الشديدة يتمدد جسده فعليا ويناقض هذا التأكيد. التناسق الرشيق الذي يميل إلى النحافة تقريبا في مظهره الجسدي يبرر الحيوية الرشيقة التي أظهرها على جسر التنهدات، أكثر من أنه يبرر تلك القوة الهرقلية التي ذيع عنه أنه يستخدمها ببراعة بلا جهد في مناسبات طارئة ذات خطورة أكبر. له فم وذقن إلهي، وعينان فذتان بريتان واسعتان صافيتان، تتلون ظلالهما من البندقي الصافي إلى الأسود الفاحم الكثيف واللامع، وشعر غزير مموج أسود تشع خلاله جبهة عاجية ذات عرض غير عادي. لم أر ملامح أكثر منها اتساقا على نحو نموذجي باستثناء ربما الملامح الرخامية للإمبراطور كومودس[١]. مع ذلك كانت ملامحه من تلك النوع الذى رآه معظم الناس في فترة ما من حيواتهم ولم يروها أبدا بعد ذلك. فلا خصوصية بها، وليس بها تعبير مهيمن ساكن يرسخ في الذاكرة، فهي ملامح ترى وتنسى فوريا لكنها تنسى برغبة غامضة وملحة في تذكرها مرة أخرى. لا يعني هذا أن روح أي انفعال ما سريع عجزت عن أن تطرح صورتها المميزة الخاصة بها على صفحة ذلك الوجه، بل الأمر هو أن المرآة، الوجه الشبيه بالمرآة، لا تحتفظ بأي أثر للانفعال حين يتلاشى الانفعال.

---

(1) Lucius Coomodus (161-192)

ألح عندما تركته في ليلة مغامرتنا على أن أزوره مبكرا جدا في الصباح التالي لأمر اعتقدت أنه عاجل. بعد شروق الشمس مباشرة، وجدت نفسي تبعا لهذا في قصره- واحد من تلك المباني الضخمة ذات الأبهة الكالحة لكن الرائعة- الذي يطل بشموخ على مياه القناة العظيمة بالقرب من ريالتو. قادني الخادم عبر سلالم عريضة لولبية إلى شقة انفجرت روعتها التي لا تضاهي عبر الباب المفتوح في وهج حقيقي من الأناقة المفرطة أعماني ودوخني.

عرفت أنه غني. تحدثت الإشاعات عن أملاكه بتعبيرات تجرأت على أن أعتبرها مبالغات سخيفة. لكن بعد أن تطلعت فيما حولي، لم أستطع أن أقنع نفسي أن ثراء أي شخص في أوروبا يستطيع أن يوفر الروعة الملكية التي تحترق وتلتهب حولي.

على الرغم من أن الشمس قد أشرقت كما قلت فالغرفة مازالت مضيئة إضاءة باهرة. حكمت من هذا التفصيل/الحالة، كما من سيماء الإرهاق في ملامح صديقي أنه لم يخلد إلى فراشه خلال الليلة السابقة. يبهر تصميم الغرفة في أسلوب بنائها وزخرفتها العين ويثير الذهول الشديد /الانصعاق. فالديكور لم يراع ما يسمى فنيا الانسجام، أو الذوق المحلي. تتنقل العين من شيء إلى شيء ولا تستقـر علـى أي منها، لا على جروتسكية اللوحات اليونانية ولا على تماثيل أفضل النحاتين الإيطاليين المعاصرين ولا على النقوش الضخمة المصرية الفطرية. أجواخ غنية في كل جزء من الغرفة ترتجف مع ذبذبة الموسيقى

الخفيضة السوداوية التي لا يمكن اكتشاف مصدرها. وتخمد الحواس عطور ممتزجة ومتضاربة تفوح من مباخر متدلية بسلاسل ملتوية، ووفرة من ألسنة خفاقة وباهرة من نار زمردية وبنفسجية. تدفقت أشعة الشمس حديثة الميلاد فوق كل شيء، عبر النوافذ، محددة كل لوحها الزجاجي الوحيد بها بمسحة قرمزية. ومضت الأشعة الطبيعية، في آلاف الانعكاسات، بين الستائر التى تتموج من كرانيشها مثل شلالات من الفضة الذائبة، التي اختلطت في النهاية مع الضوء الصناعي في انسجام وتلاطمت في كتلة مختلطة فوق سجادة نفيسة تبرق بلون الذهب الشيلي[1].

"ها ها ها، ها ها ها" ضحك المالك وهو يشير لي إلى كرسي عندما دخلت الغرفة، ورمى نفسه طوليا فوق أريكة. قال: " أفهم" وقد أدرك أنني لا أستطيع أن ألم شتات نفسي من لباقة الترحيب الفريد جدا ***bienseance***. تابع: " أرى أنك مشدوه من شقتي، من تماثيلي، من لوحاتي، من أصالة رؤيتي في أسلوب البناء والتأثيث. ثمل تماما إياه، بعظمتي؟ لكن سامحني يا سيدي العزيز(هنا نغمة صوته هبطت إلى خلاصة المودة عينها)، اعذرني على ضحكي غير الكريم. لقد بدوت مشدوها تماما. علاوة على ذلك، بعض الأشياء مضحكة كلية بحيث لو لم يضحك المرء عليها سيموت. وأن تموت ضاحكا هو أعظم موت

---

(١) يعني الذهب الأحمر، وهو اسم ماركة أنسجة شاعت أيام (بو).

من بين كل موت جليل. إن السير توماس مور[١]- رجل رائع جدا السير توماس مان- لقد مات السير توماس مور ضاحكا، تتذكر. كما أن في "السخافات" لرافيسيوس تيكستور[٢] هناك قائمة طويلة من الشخصيات التي انتهت النهاية الرائعة نفسها. من ناحية أخرى، هل تعرف "واصل شاردا: "أن في أسبرطة (التي هي الآن الباليشوري[٣])، أقول إن في أسبرطة، غرب القلعة بين فوضى خراب بالكاد يمكن أن تلاحظها العين نوعا من الحذاء، تستطيع أن تقرأ فوقه كلمة *AAEM*. بلاشك هي جزء من كلمة ضحك. والآن يوجد في أسبرطة ألف معبد ومدفن لألف إله. كم هو غريب جدا أن مذبح الضحك هو ما نجا من بين الأخري! لكن في الوقت الحالي"، واصل بتحول غريب في نغمة صوته وأسلوبه" لا أملك الحق في أن أتسلى على حسابك. لعلك اندهشت جدا". لا يمكن أن تنتج أوروبا شيئا رفيعا مثل هذا غرفتي الملكية الصغيرة. شققي الأخرى لا تشبه هذه أبدا، محض نماذج متطرفة خالية من النكهة. هذه أفضل من النمط السائد الآن، أليس كذلك؟ لكن ينبغي ألا يعتبرها الآخرون سوى أنها البدعة السائدة، أي، مع هؤلاء الذين يستطيعون تحملها ببذل إرثهم كله. لقد حميتها من مثل هذا التدنيس. باستثناء واحد، أنت الإنسان الوحيد فقط، إلى جانب

---

(1) Sir Thomas more (1478-1535)

(2) Ravisius Textor (1430-1524) , absurdities

(٣) المدينة القديمة

خادمي الخاص وأنا، الذي سمحت له بالحضور داخل أسرار تلك المنطقة الإمبراطورية بما أنها خالية من الذوق كما ترى.

انحنيت معبرا عن شكري، بما أن الإحساس الطاغي من الروعة والعطر والموسيقى جميعا مع غرابة أطوار أسلوبه وحديثه غير المتوقعة منعتني عن التعبير في كلمات عن تقديري لما قد فسرته أنه مجاملة.

تابع وهو ينهض ويتكئ على ذراعي بينما يمشي الهويني في الشقة: "هنا لوحات من اليونانيين إلى الرسام كيمابو[١]، ومن كيمابو إلى رسامي الوقت الحاضر. اخترت العديد منها كما ترى دون أن أراعي آراء خبراء الفن. ومع ذلك، كلها تلائم أن تصبح نسيجا مزينا لغرفة مثل هذه. هنا أيضًا، روائع غير معروفة، وهنا تصميمات لم تنته لرجال كانوا مشهورين في أيامهم، تركتها حدة ذهن الأكاديميين للصمت ولي". قال، وهو يستدير بحدة بينما يتحدث: " ماذا تعتقد في لوحة السيدة بيتا؟"

قلت بكل الحماسة التي في طبيعتي، لأنني كنت أمعن النظر في جمالها الفائق: "إنها لـــ "جيدو"[٢]، كيف استطعت أن تقتنيها؟ هي تجسد في عالم الرسم ماتجسده فينوس في النحت".

(1) *Giovanni Cimabue (1240-1302)* رسام فلورنسي مهم

(2) *Guido de Siena (1250-1275)* رسام مهم

قال وهو يفكر: "إنها لجيدو" ها!، فينوس؟ فينوس الجميلة؟ فينوس ميديشي؟ هي ذات الرأس الصغير والشعر الذهبي؟ جزء من الذراع اليسرى (هنا صوته هبط بحيث أصبحت أسمعه بصعوبة)، وكل اليمنى رممتا، وفي غنج تلك الذراع اليمنى يكمن على ما أعتقد خلاصة التصنع. إليك أيضا فينوس كانوفا[١]،! وتمثال أبوللو هو أيضا نسخة، لاشك في هذا، أحمق أعمى أنا لأنني لا أستطيع رؤية الإلهام المنحوت في أبوللو! لا أستطيع أن أمنع نفسي عن تفضيل أنطنيوس[٢]. ألم يكن سقراط هو الذي قال إن النحات يجد تمثاله في كتلة الرخام، ثم إن مايكل أنجلو لم يأت بجديد في شطري الشعر

لن يرى النحات أبدا فكرة ما

رفض الرخام اللدن أن يهبه إياها[٣]

اعتدنا أو يجب أن نكون قد اعتدنا على أن نرى في أسلوب السيد النبيل الحقيقي اختلافا عن السلوك السوقي بدون أن نستطيع على الفور، بدقة، تحديد مما يتكون ذلك الاختلاف. بعد أن طبقت عمليا هذه الملاحظة بحذافيرها على سلوك صديقي الخارجي؛ شعرت في ذلك الصباح المثير أنها تلائم أكثر مزاجه النفسي وشخصيته. ولم أستطع

---

(1) Antonio Canova (1757-1822) نحات إيطالي مهم

(2) Antinous (110-130) كان المفضل لدى الإمبراطور هارديان سمي على اسمه الكثير من المدن بعد موته.

(٣) (إن أفضل فنان لن يملك تصورا لايحتويه الرخام نفسه)

أن أحدد تلك الخصوصية في روحه التي تبدو أنها تميزه أساسا دون كل البشر الآخرين بأفضل من أن أسميها عادة التفكير المكثف والمتواصل والتي تهيمن حتى على أكثر أعماله تفاهة، والتي تتسلل إلى لحظات عبثه وتتضفر مع ومضات مرحه ذاتها، مثل الأفعى التي تتلوى من عيني الأقنعة المكشرة في إفريزات معابد برسيبوليس.

ومع ذلك، لا يسعني إلا أن ألاحظ مرارا رجفة ما عبر النغمة المختلطة من العبث والرزانة التي يسهب بها مسرعا إلى أمور ذات أهمية ضئيلة، درجة من الاستمتاع العصبي في حركته وحديثه، اهتياجا قلقا في سلوكه الذي بدا لي غير مبرر طوال الوقت وملأني بالحذر في بعض الأحيان. كما أنه كان يتوقف مرارا في منتصف جملة ما يبدو أنه نسى بدايتها وبدا أنه ينصت بانتباه شديد كما لو أنه يتوقع زائرا ما في أي لحظة، أو لأصوات ما لابد أنها موجودة في خياله وحده.

قد كان خلال واحد من أحلام يقظتة هذه أو وقفاته ذات الطبيعة التجريدية أن اكتشفت أثناء ما كنت أقلب صفحة من صفحات التراجيديا الجميلة للشاعر والعالم بوليتيان[1] "أورفيو" (أول تراجيديا باللغة الإيطالية) التي ترقد بالقرب مني على الأريكة، مقطعا مخططا بالقلم. كان مقطعا عند نهاية المشهد الثالث- مقطعا من أكثر المقاطع التي تهز القلب إثارة- مقطعا على الرغم من أن لحنا لغويا ما يشوبه، فلن يقرأه رجل بدون أن يرتعش بعاطفة جديدة عليه ولا امرأة بدون أن تتنهد. كانت

(1) Politian or Angelo Poliziano (1454-1494)

الصفحة كلها مبقعة بدموع ندية، وفي الصفحة المقابلة، كانت السطور الإنجليزية التالية مكتوبة بخط يختلف تماما عن الملامح المميزة لخط صديقي؛ بحيث إنني وجدت صعوبة ما في التعرف على خطه فيها:

كنت بالنسبة لي يا حبي، كل ما تاقت روحي إليه توقا عارما، جزيرة خضراء في البحر ياحبي، ينبوعا وضريحا، مضفرة كلها بفواكه جميلة وزهور، وكل الأزهار كانت ملكي.

آه، حلم براق جدا لكي يبقى! آه، أمل مرصع بالنجوم! أشرق ذلك الذي لم يشرق إلا ليندثر! صوت من عمق المستقبل يصرخ، "اذهب"، لكن فوق الماضي (هاوية معتمة) روحي المحلقة ترقد صامتة، باردة، مشدوهة!

ياللحسرة، يا للحسرة، لأن نور الحياة انتهى بالنسبة إلي " لا مزيد ــ لا مزيد ــ لا مزيد ــ" (مثل تلك اللغة التي تحمل البحر الجليل إلى الرمال فوق الشاطئ) لن تزدهر الشجرة التي دمرها الرعد، ولن يحلق النسر المُبتلى!

وكل أيامي غيابات النشوة، وكل أحلامي الليلية هي ما ترمق عينك المعتمة، وحيث تومض خطوات أقدامك ــ برقصات أثيرية[١]، وبجوار جداول خالدة.

---

(١) نشرت بعد ذلك في أعماله الشعرية. قصيدة إدجار (بو) "إلى تلك التي في الفردوس"

لم يدهشني حقيقة أن هذه السطور كانت مكتوبة بالإنجليزية، هي اللغة التي لم أعرف أن مؤلفها يتقنها. فقد كنت أعرف أيضًا مدى تحصيله المعرفي واللذة الفريدة التي شعر بها في إخفائه عن رصد الآخرين ليندهشوا عند اكتشاف ما هو شبيه بهذا. غير أن مكان تاريخ كتابتها، يجب أن أعترف أنه سبب لي دهشة عظيمة، كان لندن. أقول إنه سبب لي دهشة عظيمة لأنني أتذكر جيدا أن في حديث سابق مع صديقي سألته على وجه الخصوص ما إذا كان قد قابل في أي وقت الماركيزة دي مينتوني في لندن (التي سكنت المدينة قبل سنوات على زواجها)، حين أفهمتني إجابته إن لم أكن مخطئا أنه لم يزر عاصمة بريطانيا العظيمة أبدا. لعلي أورد هنا أيضًا أنني سمعت أكثر من مرة (بدون أن أعطي بالطبع مصداقية إلى الخبر الذي يحتويه) أن الشخص الذي أتحدث عنه لم يكن بالميلاد فقط إنجليزيا بل كان تعليمه أيضًا.

قال دون أن ينتبه إلى ملاحظتي للتراجيديا: "توجد لوحة، لا تزال توجد لوحة واحدة لم ترها" ورمي جانبا ثوبا كشف عن بورتريه بالحجم الطبيعي للماركيزة أفروديت.

ليس بوسع الفن البشري أن يصور جمالها البشري أفضل من هذا. الشكل الأثيري نفسه الذي وقف أمامي الليلة السابقة فوق درجات القصر الدوقي، وقف أمامي مرة أخرى. لكن في تعبير قسماتها، التي كانت تشع كلها في ابتسامة، تتوارى مع ذلك (وهو شذوذ مبهم) تلك الوصمة السوداوية التي سنجد أنها لن تنفصل أبدا عن كمال الجمال.

ترقد ذراعها اليمنى مطوية فوق صدرها. ويدها اليسرى تشير إلى آنية ذات تصميم غريب. قدم واحدة صغيرة جميلة هي المرئية فقط تلمس الأرض لمسا. يطفو زوج من الجناحين الخياليين برقة، بالكاد بوسع المرء أن يرى في الجو اللامع الذي يحيط جمالها ويغلفه. انتقل نظري من اللوحة إلى صديقي والكلمات القاسية لتراجيديا تشابمان[١] "بوسي دامبوا" ترتعش غريزيا فوق شفتي:

ينتصب

ينتصب مثل تمثال روماني!

سيظل منتصبا حتى يحوله الموت إلى رخام.

قال في النهاية: "تعالى" وهو يتجه نحو مائدة من الفضة النفيسة والثقيلة عليها عدة أقداح ملونة بألوان غريبة مع آنيتين من أواني أتروريا ضخمتين على الطراز الاستثنائي لتلك التي في أرضية اللوحة ومليئتين بنبيذ جوهانسبرج، على ما أعتقد. قال بحدة: "تعالى، دعنا نشرب، الوقت مبكر لكن دعنا نشرب. الوقت مبكر بالفعل"، واصل شاردا حين ملاك بمطرقة ذهبية ثقيلة جعل الشقة تدوي بدقة الساعة الأولى بعد شروق الشمس، " مبكر بالفعل لكن ماذا يهم؟ دعنا نشرب، دعنا نسفح لشمسك المقدسة قربانا، التي تتلهف المصابيح الزاهية

---

(1) Chapman's Bussy D'Ambois (1607)

والمشاعل على إخماد أضوائها". وبعد أن سكب لي كأسا مترعة لأشرب نخبه، تجرع في جرعات متتالية سريعة عدة أقداح من النبيذ.

أن تحلم "واصل، بنبرة حديثه المفككة نفسها، بينما يحمل إلى ضوء أحد المشاعل المتقدة واحدة من الآنيتين الرائعتين، كان الحلم هو شغل حياتي، لذلك شكلت لنفسي كما ترى كوخا من الأحلام. هل كان يمكن أن أنصب واحدا أفضل من هذا في قلب فينيسيا؟ ترى من حولك، حقا، خليطا من الزخرفة المعمارية. عفة أيونيا تنتهكها الرذائل العتيقة، وتمتد تماثيل أبى الهول المصرية فوق السجاجيد الذهبية. لكن النتيجة لن تكون متنافرة إلا في عين الجبان وحده. إن الذعر الذي يرهب النوع البشري عن التفكير في الروعة هو التزامه بما يلائم المكان والزمان على وجه خاص. اشتغلت ذات مرة بالزخرفة، لكن تلك الجلالة في هذا العمل الأحمق أثقلت روحي. هذا كله الآن ما يناسب أغراضي. فمثل هذه االمشاعل الأرابيسكية، روحي تتلوى في النار، ويصوغني هذا الهذيان إلى الرؤى الجامحة في أرض الأحلام الحقيقية التي أرحل إليها الآن سريعا". توقف هنا بحدة، وحنى رأسه فوق صدره، وبدا أنه يصغي السمع إلى صوت لم أستطع أن أسمعه. في النهاية، بعد أن انتصب واقفا، نظر إلى الأعلى وهتف بشعر أسقف شيشستر[١]:

---

(1) Bishop of Chicester: (henry king, 1592-1669)
Exequy on the Death of Beloved Wife رثاء لزوجته الحبيبة .

انتظريني هناك!

لن أخفق في لقائك

في ذلك الوادي العميق

في اللحظة التالية وبعد أن أقر لي بقوة النبيذ، رمى نفسه ممتدا فوق الأريكة، سمعت خطوات مسرعة حينها فوق درجات السلم وطرقة عالية على الباب، أسرعت في فتحه خوفا من طرقة ثانية تزعجنا حين اندفع إلى الغرفة وصيف من بيت مينتوني، ونطق متلعثما في نبرة مشوبة بالانفعال الكلمات المفككة "سيدتي- سيدتي، ماتت بالسم ماتت بالسم، أوه! أفروديت الجميلة".

اندفعت إلى الأريكة مشوشا، وحاولت أن أوقظ النائم ليلم بالخبر المجفل. لكني وجدت أطرافه متيبسة، وشفتيه زرقاوين، وعينيه اللتين كانتا تشعان توا، منجذبتين على نحو آسر إلى الموت. ترنحت متراجعا من الذهول إلى الطاولة؛ فوقعت يدي على قدح مصدوع ومسود، ومض فجأة في روحي إدراك بالحقيقة المرعبة كلها.

القلــب الـواشي

حقا! أنا عصبي... كنت عصبيا جدا جدا، عصبية مخيفة، ومازلت، لكن لم تقول عني إنني مجنون؟ لقد صقل المرض حواسي... لم يدمرها... لم يصبها بالعمى. وعلاوة على أي شيء آخر، صقل حاسة سمعي. لقد سمعت كل الأشياء في السماء والأرض. سمعت عدة أشياء في الجحيم. ماذا، أمجنون أنا؟ اصغ! ولاحظ كم أستطيع أن أحكي لك القصة كلها بهدوء.

من المستحيل أن أخبرك كيف خطرت الفكرة على عقلي في البداية، لكن ما إن اقتنعت بها حتى استولت علي ليلا ونهارا. لا هدف منها. لا عاطفة بها. لقد أحببت أبي. لم يظلمني أبدا ولم يهني أبدا. ولم يكن لدي رغبة في ذهبه. أعتقد أنها كانت عينه! نعم، كان هذا السبب! عين من عينيه تشبه عين النسر، عين زرقاء شاحبة بغشاوة فوقها. كلما وقعت علي، يبرد دمي. وهكذا على مراحل، تدريجيا تماما، قررت أن أنهي حياة الرجل العجوز، وأخلص نفسي من عينه للأبد بهذه الطريقة.

هذه هى الخلاصة. تتخيل أنني مجنون. إن المجانين لا يعرفون أي شيء. كان يجب أن تراني. كان يجب أن ترى كيف شرعت في عملي بحكمة، وبأي حيطة وبصيرة وبأي تمويه سلكته في قضاء

عملي! لم أعامل أبي بلطف كما عاملته خلال الأسبوع الذي سبق قتله. وكل ليلة عند منتصف الليل تقريبا، أدير مزلاج باب غرفته وأفتحه، أوه برفق شديد! وحينئذ، عندما أفتحه فتحة تكفي رأسي، أغلق المشكاة، أغلقها تماما بحيث لا يشع أي ضوء منها، ثم أقحم رأسي داخل الغرفة. أوه كنت ستضحك وأنت ترى كيف أقحمه إلى الغرفة ببراعة! تحركت ببطء.. ببطء شديد.. شديد حتى لا أزعج نوم الرجل العجوز. لقد استغرقت ساعة لكي أضع راسي كله داخل فتحة الباب بالقدر الذي أستطيع به رؤيته وهو راقد فوق سريره. ها! هل المجنون يتصرف بهذه الحكمة؟! ثم، عندما يصبح رأسي في الغرفة تماما أفتح المشكاة بحذر، أوه بحذر شديد... بحذر (لأن المفصلات تصر)، فتحتها بالقدر الذي يسقط منها شعاع واحد رفيع على عين النسر. وقد فعلت هذا لسبع ليال، كل ليلة عند منتصف الليل بالضبط، لكنني كنت أجد العين مغلقة دائما. وهكذا كان من المستحيل أن أنفذ العمل، لأنه لم يكن الرجل العجوز هو الذي يغيظني بل عينه الشريرة. وفي كل صباح عندما يطلع النهار، أذهب بجرأة إلى غرفته وأتحدث بشجاعة معه وأنا أناديه باسمه بود وأسأله كيف كانت ليلته. هكذا ترى، أن يشك أنني أنظر إليه أثناء نومه كل ليلة عند الثانية عشرة تماما يعني أنه رجل عويص جدا.

في الليلة الثامنة كنت حذرا أكثر من المعتاد في فتح الباب. إن عقرب الساعة الدقيق يتحرك أسرع من يدي. لم أشعر بمدى قوتي، بمدى حيطتي، مثلما شعرت تلك الليلة. لم أتمالك شعوري بالانتصار.

تخيل أنني هنا أفتح الباب رويدا رويدا ولم يكن ليحلم حتى بأفعالي السرية أو أفكاري. أضحكتني الفكرة وربما سمعني لأنه تحرك في السرير فجأة كما لو أن شيئا أجفله. قد تعتقد الآن أنني تراجعت، لكن لا. كانت غرفته سوداء سواد القار بظلام كثيف (لأنه كان يغلق النوافذ بإحكام خوفا من اللصوص)؛ وهكذا عرفت أنه لا يستطيع أن يرى فتح الباب فأخذت أدفعه بثبات، بثبات.

أدخلت رأسي في الغرفة، وكنت على وشك أن أفتح المشكاة حين انزلق إبهامي على زر القصدير وانتفض الرجل العجوز في السرير صارخا: "من هناك؟"

بقيت ساكنا ولم أقل شيئا. لم أحرك عضلة واحدة لساعة وفي أثنائها لم أسمعه يرقد مرة أخرى. كان لا يزال منتصبا في السرير، كما كنت أفعل ليلة بعد ليلة، ينصت إلى خنفساء الموت (خنفساء تنقر الخشب وتحدث صوتا متكتكا كان يعتبر نذيرا بالموت).

ثم سمعت أنينا خفيفا وعرفت أنه كان أنين الرعب المميت. لم يكن أنين ألم أو حزن، أوه لا! كان الصوت المخنوق الخفيض الذي يرتفع من أعماق الروح عندما تثقل بالرهبة. أعرف الصوت معرفة جيدة. ليال عديدة عند منتصف الليل تماما عندما ينام العالم كله، كان ينبع من صدري، يزيد بصداه المرعب من الأهوال التي أذهلتني. أقول إنني عـرفته جيدا، عرفت بماذا شعر الرجل العجوز وأشفقت عليه

على الرغم من أنني ضحكت في قلبي. عرفت أنه كان يرقد مستيقظا منذ أن سمع أول ضجة خفيفة عندما استدار في السرير. كانت مخاوفه تنمو أمامه منذ ذلك الحين حتى تلك اللحظة. كان يحاول أن يتصور أن لا مبرر لها، لكنه لم يستطع. كان يقول لنفسه "ليس إلا صوت الرياح في المدخنة، فأر يعبر الأرض" أو "صرصار الليل سقسق مرة". نعم، كان يحاول أن يطمئن نفسه بهذه التخمينات، لكنه وجدها عقيمة، عبثا، لأن الموت في اقترابه منه تمشى بظله الأسود أمامه وغلف الضحية. وقد كان النفوذ الحدادي للظل الخفي الذي جعله يشعر - على الرغم من أنه لم ير ولم يسمع- بوجود رأسي في الغرفة.

بعدما انتظرت وقتا طويلا بصبر شديد بدون أن أسمع منه أنه يعود إلى الاستلقاء، قررت أن أفتح قليلا شقة صغيرة جدا.. جدا في المشكاة. فتحتها - لا لن تستطيع أن تتصور إلى أي مدى بخلسة، خلسة- حتى في النهاية انطلق من الشقة شعاع معتم وحيد مثل العنكبوت وسقط على عين النسر.

كانت مفتوحة، على وسعها، مفتوحة على وسعها، وأصبحت غاضبا بينما أحدق بها. رأيتها بوضوح كامل- زرقاء كلها معتمة بحجاب مخيف أرعش نخاع عظامي- لكنني لم أستطع أن أرى شيئا آخر من وجه الرجل العجوز أو جسده؛ لأنني وجهت الشعاع كأنه غريزي بالضبط إلى البقعة الملعونة.

والآن ألــم أقــل لك إن مـــا تحسبه خطأ على أنه جنون ليس إلا حواسا مصقولة، الآن، أقول وصل إلى أذني صوت خفيض، مكتوم سريع مثل الصوت الذي يصدر عن ساعة مغلفة بالقطن. عرفت ذلك الصوت جيدا جدا. كان ضربات قلب الرجل العجوز. لقد زادت من غضبي كقرعات طبلة تحث الجندي على الشجاعة.

لكن حتى حينها حجمت عن التقدم وبقيت ساكنا. بالكاد تنفست. حملت المشكاة ساكنا. حاولت بقدر ما استطعت من ثبات إبقاء الشعاع فوق العين. في الوقت نفسه كان الإيقاع الجهنمي للقلب يزداد. غدا أسرع وأسرع، أعلى وأعلى مع كل لحظة. لابد أن رعب الرجل العجوز أصبح شديدا! أقول غدا أعلى، أعلى كل دقيقة! هل تلاحظ جيدا؟ قلت لك إنني عصبي: أنا هكذا. والآن في هذا الوقت الميت من الليل وسط الصمت المخيف للبيت القديم، ضجة غريبة إلى هذا الحد، سوف تثيرني إلى حد الرعب. مع ذلك، لبعض دقائق أحجمت عن التقدم ووقفت ساكنا. لكن الدقات أصبحت أعلى وأعلى! اعتقدت أن القلب سينفجر. والآن قلق جديد حاصرني، لعل أحد الجيران يسمع هذا الصوت! لقد حانت ساعة الرجل العجوز! بصرخة عالية رميت المشكاة مفتوحة وقفزت إلى الغرفة. صرخت مرة واحدة، مرة واحدة فقط. في لحظة سحبته إلى الأرض، وسحبت السرير الثقيل فوقه. ثم ابتسمت بابتهاج لأنني أنجزت العمل. لكن، لعدة دقائق، دق القلب بسرعة بطيئة مكتومة. لم يغظني هذا مع ذلك، فلن يسمع أحد عبر

الحائط. في النهاية توقف. مات الرجل العجوز. أزحت السرير وتفحصت الجثة. نعم كان ميتا، ميتا تماما. وضعت يدي على القلب وأبقيتها عدة دقائق. لم يكن هناك نبض. كان ميتا تماما. لن تزعجني عينه بعد ذلك.

إذا مازلت تظنني مجنونا، فلن تظنني كذلك بعد أن أصف لك الحيطة العويصة التي أخفيت بها الجسد. تضاءل الليل وعملت بعجلة لكن في صمت. قبل كل شيء، قطعت أوصال الجثة. نزعت الرأس والذراعين والساقين.

ثم خلعت ثلاثة ألواح من أرضية الغرفة ووضعت كل أوصال الجثة بين الأبعاد. ثم أعدت وضع الألواح بذكاء شديد، بمكر شديد بحيث لا يمكن لعين إنسان، حتى عينه، أن تكتشف بها أي شيء خطأ. لم يكن هنـــاك أي شيء يحتـــاج إلـــى التنظيف، لا بقعة من أي نوع، لا بقعة دم في أي مكان. كنت حذرا جدا فحوض الاستحمام قضى عليها جميعها... ها... ها.

عندما انتهيت من هذه الأشغال، كانت الساعة الرابعة، مازال ظلام الليل مثل حلكة منتصف الليل. وبينما يدق جرس الساعة، سمعت نقرا على الباب. هبطت لأفتحه بقلب مبتهج، لأن ماذا هناك لأخافه؟ دخل رجال ثلاثة، قدموا أنفسهم بلطف بأنهم ضباط شرطة. سمع أحد الجيران صرخة خلال الليل فشك في وقوع جريمة قتل، تقدم بالمعلومات التي لديه إلى قسم الشرطة، وهم (الضباط) وكل لهم تفتيش المبنى.

ابتسمت، فماذا لدي لأخاف منه؟ رحبت بالسادة. وقلت لهم إن الصرخة كانت صرختي أثناء نومي من جراء حلم ما. وذكرت لهم أن الرجل العجوز غائب في الريف. أخذت زواري إلى كل أنحاء البيت. دعوتهم أن يبحثوا، يفتشوا جيدا. دعوتهم أخيرا إلى غرفته في النهاية. أريتهم كنوزه مؤمنة، لم يلمسها أحد. وفي حماس ثقتي أحضرت كراسي إلى الغرفة وطلبت منهم أن يرتاحوا هنا من تعبهم بينما أنا نفسي في خضم تهوري الجامح من انتصاري الكامل وضعت مقعدي فوق البقعة نفسها التي ترقد تحتها جثة الضحية.

شعر الضباط بالرضا. أسلوبي أقنعهم. كنت مرتاحا راحة فريدة. جلسوا وبينما كنت أجيب عليهم بابتهاج، دردشوا في أمور مألوفة. لكن، قبل ذلك طويلا، شعرت أنني أشحب ووددت أن يرحلوا. شعرت بصداع وتخيلت رنينا ما في أذني، لكنهم مازالوا يجلسون ويدردشون. أصبح الرنين أكثر وضوحا، استمر وأصبح أكثر وضوحا، تحدثت بحرية أكبر لأتحرر من الشعور، لكنه استمر وأصبح محددا، حتى اكتشفت في النهاية أن الضجة لم تكن في أذني.

بلا شك أصبحت شاحبا جدا، لكنني تحدثت بطلاقة أكبر وبصوت مرتفع. غير أن الصوت زاد، وماذا أستطيع أن أفعل؟ كان صوتا خفيضا مكتوما سريعا، يشبه الصوت الذي يصدر عن ساعة ملفوفة بالقطن. شهقت لكي أحصل على نفس ومع ذلك لم يسمعه الضباط. تحدثت بسرعة أكبر، وبحماسة أكبر، لكن الضجة تزيد

بثبات. نهضت وجادلت في أشياء تافهة بنبرة عالية وحركات عنيفة لكن الضجة تزيد بثبات. لم لم يرحلوا؟ ذرعت الغرفة ريحة وجيئة بخطوات ثقيلة كما لو أن مراقبتهم أثارت غيظي، لكن الضجة تزداد بثبات. يا إلهي! ماذا أستطيع أن أفعل؟ زبدت، غضبت، أقسمت، أرجحت الكرسي الذي كنت أجلس فوقه وحككته فوق الألواح الخشبية، لكن الضجة طغت على كل شيء وازدادت. غدت أعلى وأعلى وأعلى! ومازال الرجال يدردشون بسعادة ويبتسمون. هل يمكن ألا يكونوا سمعوه؟ الله القدير! لا لا سمعوه، شكوا، عرفوا، كانوا يستهزؤون من رعبي! هذا ما ظننته وهذا ما فكرت به. لكن أي شيء أفضل من هذا الألم! أي شيء يمكن لي أن اتحمله أكثر من هذه السخرية، لا أستطيع تحمل هذه الابتسامات الزائفة أكثر من هذا! شعرت أنني يجب إما أن أصرخ أو أموت! والآن، مرة أخرى، اصغ! أعلى- أعلى- أعلى- أعلى

زعقت "أشرار! لا تتظاهروا بعد الآن! إنني أعترف! اخلعوا الألواح هنا.. هنا... دقات قلبه الشنيع!"

نظام الدكتور تار والبروفيسور فزر[1]

خلال خريف ١٨، أثناء جولتي فى أقصى المقاطعات الجنوبية الفرنسية، قادني طريقي إلى مستشفى خاص للمجانين *Maison d Sante*، كنت قد سمعت عنه الكثير في باريس من أصدقائي الأطباء. وبما أنني لم أزر أبدا مكانا ذا طبيعة مماثلة، رأيت أنها فرصة جيدة جدا لا تفوت، وهكذا عرضت على رفيقي في السفر (نبيل تعرفت عليه قبل عدة أيام)، أن نتوقف ساعة أو نحوها، وأن نزور المبنى. اعترض على هذا، بدافع العجلة في المقام الأول، وثانيا بسبب الرعب العادي جدا من رؤية مجنون. من ناحية أخرى، رجاني ألا أدع أي إحساس بالكياسة تجاهه يتضارب مع إشباع فضولي، وقال إنه سوف يقطع الطريق بترو بحيث قد ألحق به خلال اليوم نفسه أو اليوم التالي في أحسن الأحوال. وبينما يودعني فكرت أنه قد تكون هناك صعوبة في الدخول إلى المبنى وذكرت له مخاوفي بصدد هذه النقطة. فأجاب، أنه في الحقيقة ما لم أكن أعرف مدير المستشفى السيد ملارد معرفة شخصية أو أحمل رسالة ما اعتمادية، فقد أجد صعوبة ما في أن أدخله، لأن لوائح هذه المستشفيات الخاصة للمجانين أكثر صلابة من

---

(١) هذان الإسمان يعنيان القار والريش.

قوانين المستشفى العام. وأضاف أنه تعرف منذ عدة سنوات على مالارد وأنه سيساعدني بقدر أن يتقدم إلى الباب ويقدمني إليه، غير أن مشاعره نحو موضوع الجنون لن تسمح بدخوله الدار.

شكرته، وبعد أن عدنا من الطريق الرئيسي، دخلنا طريقا فرعيا مغطى بالحشائش، حيث اختفي خلال نصف الساعة في غابة كثيفة تكسي قاعدة جبل ما. مشينا خلال هذه الغابة الرطبة والمظلمة ميلين تقريبا، حين أصبح المستشفى على مرمى نظرنا. كان قصرا رائعا، كثير منه متهدما، وغير صالح للإيجار بسبب قدمه وإهماله. أثار في مظهره رعبا كاملا واعتزمت بعد أن أوقفت حصاني أن أرجع، ومع ذلك سريعا ما غدوت خجلا من ضعفي وتابعت طريقي.

بينما كنا نصعد إلى طريق البوابة، رأيت أنها مفتوحة قليلا ويلوح عبرها وجه رجل. خلال لحظة، تقدم هذا الرجل وقد بادر رفيقي بالكلام مخاطبا إياه باسمه، وصافحه بحرارة ورجاه أن يترجل. كان السيد مالارد نفسه. كان نبيلا مهيبا وحسن المنظر من المدرسة القديمة، ومهذبا ويحمل سيماء الوقار والكبرياء والهيمنة التي تترك تأثيرا كبيرا بالإعجاب والمهابة.

وبعد أن قدمني صديقي له، ذكر رغبتي في أن أزور المبنى وتلقى تأكيد السيد مالارد أنه سوف يراعيني رعاية كاملة، رحل ولم أره بعد ذلك.

حين رحل، قادني المدير إلى قاعة استقبال صغيرة ونظيفة نظافة مفرطة وتحتوي، من بين دلائل أخرى على الذوق الرفيع، كتبا عديدة، ولوحات زيتية، وأواني أزهار، وآلات موسيقية، ونارا مبهجة تومض في قلبها. وإلى البيانو تجلس امرأة شابة وجميلة جدا، تعزف لحنا لبيلينيا، توقفت عند دخولي واستقبلتني بكياسة لبقة. كان صوتها خفيضا وسلوكها إجماليا يشوبه القهر. اعتقدت أيضا أنني رأيت آثار حزن في ملامحها التي كانت شاحبة شحوبا كبيرا على الرغم من أنه بالنسبة لذوقي لم يكن شحوبا كريها. كانت تلبس ملابس حداد قاتمة وأثارت في صدري شعورا ممزوجا من الاحترام والاهتمام والإعجاب.

سمعت في باريس أن مؤسسة السيد مالارد كانت تدار بالتعبير الدارج" نظام التهدئة"، أي إلغاء كل أنواع العقوبات - حتى إنه نادرا ما يلجأ إلى الحبس- وأن المرضي يتركون بحرية كبيرة، في حين تتم مراقبتهم في سرية، ويسمح لمعظمهم أن يتجولوا حول البيت والأراضي المحيطة به في الملابس العادية التي يرتديها الأشخاص ذوو العقول السليمة.

وبما أنني أحمل هذه الانطباعات أمام عيني، كنت حذرا فيما قلته أمام السيدة الشابة؛ لأنني لم أكن متأكدا أنها سليمة العقل، وفي الحقيقة كان ثمة لمعان قلق ما في عينيها جعلني أشك في أنها ليست سليمة العقل. لذلك حصرت تعليقاتي في نطاق الموضوعات العامة؛ وبمثلها، كما اعتقدت، لن يغضب أي مجنون أو حتى يستفزه. أجابت

بطريقة عقلانية تماما على كل ما قلت، بل إن تعليقاتها النابعة عنها اتسمت بحس جيد سليم، غير أن معرفتي الطويلة بميتافيزيقا الهوس علمتني ألا أثق في هذا الدليل على سلامة العقل أو صحته وواصلت حذري خلال اللقاء فيما يتعلق بتعليقاتي.

توا أحضر خادم أنيق في زي للخدم صينية عليها فواكه ونبيذ ووجبات طعام خفيفة أخرى تناولت منها، غادرت السيدة الغرفة بعد ذلك على الفور. وإذ غادرت حولت عيني بنظرة متسائلة نحو مضيفي.

قال: "لا، أوه لا، هي فرد من عائلتي، ابنة أخي وامرأة على دراية تامة بآداب المجتمع وفنونه".

أجبت: "أعتذر لك ألف مرة على شكي، لكنك تعرف وتعذرني. إن إدارتك الممتازة للأمور هنا معروفة معرفة جيدة في باريس واعتقدت أنه من المحتمل، أنت تفهم..".

"نعم، نعم، لا تقل المزيد، وإلا فأنا نفسي، على الأحري، الذي يجب أن أشكرك على حكمتك الجديرة بالثناء التي أظهرتها. نادرا ما نرى هذا القدر من الحكمة والتدبر في الرجال الشباب؛ فأكثر من مرة وقعت حوادث مؤسفة نتيجة طيش زوارنا. فأثناء ما كان نظامي القديم قائما ومرخصا لمرضاي ميزة التجول هنا وهناك بحرية، غالبا ما كانت تصيبهم نوبات جنون خطيرة بسبب أشخاص غير حكماء كانوا في زيارة قصيرة لمعاينة الدار؛ لهذا كنت مجبرا على فرض نظام

صارم من الإقصاء ولم أسمح بمن لم يكن بوسعي الثقة في تعقله الدخول إلى المبنى".

قلت مرددا كلماته: "أثناء ما كان نظامك القديم مطبقا، هل أفهم إذن منك أن "نظام التهدئة" الذي سمعت عنه كثيرا لم يعد ساريا؟"

أجاب: "لقد مضت عدة أسابيع منذ أن توصلنا إلى نبذه للأبد".

"حقا! أنت تدهشني!"

قال بتنهيدة: "لقد اكتشفنا يا سيدي أن من الضرورة القصوى أن نعود إلى الأعراف القديمة. كان خطر "نظام التهدئة" طوال الوقت مروعا. وتمت المبالغة في مزاياه مبالغة مفرطة. أعتقد يا سيدى أنه قد منح تجربة منصفة في هذه الدار أكثر من أي مكان آخر. لقد فعلنا كل ما يمكن أن توحي به الإنسانية العقلانية. آسف على أنك لم تستطع أن تزورنا في فترة مبكرة بحيث كان يمكن أن تحكم بنفسك. لكنني أفترض أنك ملم بعرف التهدئة، بتفاصيله".

"ليس تماما؛ فما قد سمعته كان من مصادر ثانوية أو مهمشة".

"فلأبسط النظام إذن في مصطلحات عامة مثل التي تلاطف المرضى، تسايرهم، لم نعارض أي أخيلة دخلت دماغ المجنون. على العكس، لم نتساهل فقط معها بل شجعناه عليها. ولهذا أثر أكثر من معظم المعالجات الدائمة. لا توجد أطروحة تلمس العقل الضعيف

للمجنون مثل الدليل غير المباشر *reductio ad absurdum*؛ فعلى سبيل المثال لدينا مجانين يتخيلون أنفسهم دجاجا. كان العلاج أن نصر على الشيء باعتباره حقيقة، باتهام المريض بالغباء لأنه لم يدركها إدراكا كافيا على أنها حقيقة؛ وعليه نمنع عنه أي طعام آخر غير ذلك الذي يقدم للدجاج لمدة أسبوع. وبهذه الطريقة كان قليل من الذرة والحصى يصنع العجائب".

"لكن هل هذا هو النموذج الوحيد على إذعانهم؟

"إطلاقا. نحن نثق كثيرا في الترفيه من النوع البسيط مثل الموسيقى والرقص والتدريبات الجسدية عامة، ولعب الورق وفصول الكتب وهكذا. نحن نميل إلى معالجة كل شخص كما لو أنه يعاني من اختلال جسدي عادي، ولم نستخدم كلمة "جنون" أبدا. والميزة العظيمة هـــي أن يراقب كل مجنون أفعال الآخرين. أن تضع الثقة في فهم أو تصرف رجل مجنون يعني أن تكسبه جسدا وروحا. بهذه الطريقة كنا قادرين على الاستغناء عن جماعة مكلفة من الحراس".

"ولا تطبق أي نوع من أنواع العقوبة أبدا؟"

"ولا نوع".

"ولم تحبس مرضى أبدا؟"

"نادرا جدا؛ فبين الحين والآخر، ترتفع حدة مرض بعض الأشخاص إلى حد الكارثة، أو يتلبسه تحول مفاجئ من العنف، فننقله سرا إلى حجرة سرية خشية أن يؤثر اختلاله على الآخرين، ونبقيه هناك حتى نستطيع أن نصرفه مع أصدقائه، فنحن لا نملك شيئا أمام المجنون المهتاج، وغالبا ما ينقل إلى المستشفيات العامة".

"وقد غيرت الآن كل هذا، وترى أنه من أجل المصلحة؟"

"بالتأكيد. كان للنظام عيوبه، بل حتى مخاطره. إنه الآن مسفه على المستويين النظري والتطبيقي في كل مستشفيات المجانين في فرنسا، وهو أمر يدعو للسعادة".

قلت: " أنا مندهش جدا مما قلت لي؛ لأنني كنت متأكدا أنه في هذه اللحظة لا يوجد منهج آخر من مناهج علاج الجنون موجود في أي قسم من أقسام البلاد".

أجاب مضيفي: "مازلت شابا يا صديقي، وسيأتي الوقت الذي سوف تتعلم فيه أن تحكم بنفسك على ما يحدث في العالم بدون أن تثق في القيل والقال. لا تصدق ما تسمعه وصدق فقط نصف ما تراه. أما فيما يتعلق بمستشفانا فمن الواضح أن جهولا ما أضلك. مع ذلك بعد العشاء بعد أن تكون قد تخلصت تماما من آثار عناء وإرهاق السفر سيسعدني أن أرافقك في جولة في أنحاء الدار وأعرفك على نظام في رأيي وفي رأي كل واحد شهد تطبيقه من أكثر النظم التي اكتشفت حتى الآن فعالية على نحو لا يضاهى".

سألته "اختراعك؟ واحد من اكتشافاتك؟"

فأجاب: "أفخر بالاعتراف بأنه كذلك، على الأقل بدرجة ما".

هكذا تحاورت مع السيد مالارد ساعة أو اثنتين أثناء ما كان يريني الحدائق وبيوت النباتات الزجاجية في المكان.

"أنا لا أستطيع أن أدعك ترى مرضاي، فقط في الوقت الحالي. يعاني العقل الحساس دوما من صدمة ما تقريبا تنتج عن تعرضه لمثل هذه الزيارات، ولا أريد أن أفسد شهيتك للعشاء. أستطيع أن أقدم لك لحم سانت منهولد ***veal a la menehoult*** مع القرنبيط في صلصة نبيذ أبيض، بعد كأس من نبيذ كلوس دي فوجيوت ***Clos d Vougeot*** وستهدأ أعصابك تماما".

عند السادسة، أعلن عن العشاء، وقادني مضيفي إلى صالة طعام ***sale a manger*** ضخمة، حيث اجتمعت صحبة كبيرة العدد، خمسة وعشرون أو ثلاثون في الإجمال. كانوا على مايبدو أشخاصا ذوي مرتبة اجتماعية عالية، بالتـــأكيد ذوي نشأة رفيعة، على الرغم من أن ثيابهم كانت غالية جدا رأيت أنها تتشاطر على نحو ما مع الملابس والحلى التفاخرية للبلاط القديم***vieille cour*** . لاحظت أن ثلث هؤلاء الضيوف على الأقل من النساء، وبعضا منهن لا يلبسن وفقا لما يعتبره الباريسيون الذوق الجيد دائمًا في الوقت الحالي. فبعض النساء على سبيل المثال اللواتي لا يمكن أن يقل عمرهن عن السبعين يتزين

بإسراف من المجوهرات مثل الحلقان والأساور والخواتم، ويرتدين ملابس تفضح صدورهن وتكشف عن أذرعتهن. لاحظت أيضًا أن قليلا جدا من الملابس جيدة الصنع أو على الأقل قليلا جدا تناسب مقاس من ترتديها. وبينما كنت أتطلع حولي اكتشفت البنت المثيرة للاهتمام التي قدمني إليها السيد مالارد في الصّالة الصغيرة، لكن دهشتي كانت عظيمة حين رأيتها ترتدي تنورة مطوقة من العصر الإليزابيثي، مع حذاءين عاليين وقبعة قذرة من الأربطة الخام التي من السهل تشكيل تصميمها، كبيرة جدا عليها، حتى إنها أضفت على ملامحها نمنمة سخيفة. عندما رأيتها في المرة الأولى كانت ترتدي ثياب حداد قاتمة. باختصار اكتست ملابس كل الحفل سيماء من الغرابة جعلتني في البداية أرجع إلى فكرتي الأصلية عن "نظام التهدئة"، أظن أن السيد مالارد كان يعمد إلى خداعي حتى ما بعد العشاء، حتى لا أشعر بعدم الراحة أثناء تناول الطعام حين أجد نفسي أتعشى مع مجانين. غير أنني تذكرت أنني قد علمت في باريس أن أهل المقاطعات الجنوبية هم أناس منغلقون على أنفسهم، بعدد كبير من الأفكار العتيقة، كما أن مخاوفي تلاشت تماما بعد أن تبادلت الحديث مع عدد من أفراد الصحبة.

على الرغم من أن غرفة الطعام نفسها مريحة بما يكفي وذات وسع جيد لم يكن بها أناقة كثيرة؛ فعلى سبيل المثال كانت الأرض غير مغطاة بالسجاد، ومع ذلك، ففي فرنسا، يستغنى دوما عن السجاد. كانت النوافذ أيضًا بلا ستائر، والمصاريع التي كانت مغلقة أحكمت بقضبان

حديدية وضعت بانحراف وفقا لنمط مصاريع المحال العادية. لاحظت أن الشقة هي في حد ذاتها جناح من القصر؛ لهذا كانت النوافذ في ثلاثة جوانب من الشقة متوازية الأضلاع، والباب في الجانب الأخير. كان هناك ما لا يقل عن عشر نوافذ إجمالا.

كانت الطاولة مجهزة تجهيزا رائعا. كانت مزودة بالأطباق وبوفرة بالطعام الشهي. اتسم الإسراف في الطعام بعدم الذوق. كانت هناك لحوم كافية لإطعام العناقيين[1]. لم أرَ في حياتي إنفاقا مبذرا ومبددا لثروات الحياة مثل هذا. من ناحية أخرى افتقر ترتيب الطاولة إلى الذوق، وأزعج عيني المعتادتين على الأضواء الهادئة الوميض الشنيع لحشد شموع في شمعدانات متشعبة وضعت على الطاولة، وفي جميع أرجاء الغرفة حيثما يمكن إيجاد مكان لها. كان يوجد عدة خدم نشطاء في الخدمة، وفي طرف الغرفة القصي جلس سبعة أو ثمانية أشخاص إلى طاولة ضخمة مع كمنجات ونايات وساكسفون وطبلة. هؤلاء الرفقاء أزعجوني جدا على فترات متقطعة خلال الوجبة بتنوع لا نهائي من الضجيج، الذي قصدوا أن يكون موسيقيا، والذي بدا أنه يقدم تسلية كبيرة لكل الحضور باستثنائي.

إجمالا، لم أستطع أن أمنع نفسي من التفكير أن ثمة غموضا شديدا يكتنف كل شيء رأيته، غير أن العالم مصنوع من كل أنواع

---

(١) في الكتاب المقدس، هم عمالقة سكنوا جنوب فلسطين.

الشخصيات مع كل أنماط التفكير وكل أشكال العادات التقليدية. لقد سافرت أيضًا كثيرا بالقدر الذي يجعلني خبيرا تماما في فن ***nil admirari*** "لا شيء يثير الدهشة". لهذا اتخذت مقعدي بهدوء جم على يمين مضيفي وبما أنني كنت أمتلك شهية ممتازة، قدرت الطعام والشراب الذي أمامي حق قدره.

كان الحديث في الوقت نفسه مفعما بالحيوية وعاما، تحدثت السيدات، كالعادة، كثيرا. سرعان ما وجدت أن كل الصحبة تقريبا مثقفون، وكان مضيفي عالما من الحكايات خفيفة الدم في حد ذاته. بدا أنه راغب تماما في أن يتحدث عن منصبه بوصفه مدير مستشفى المجانين، وبالفعل كان موضوع الجنون موضوعا مفضلا لدى جميع الحضور. حكى عديد من القصص المسلية مرجعيتها نزوات المرضى.

قال رجل سمين صغير، يجلس إلى يميني: "كان لدينا رفيق هنا تخيل، ذات مرة، أنه إبريق شاي، وبالمناسبة أليس أمرا فريدا أن تطرأ هذه النزوة الغريبة غير المعقولة الخاصة على عقل المجنون؟ لا يوجد ملجأ للجنون في فرنسا لا يوفر إناء شاي إنسان. كان سيدنا النبيل إبريق شاي من الخزف البريطاني وكان حريصا على أن يصقل نفسه كل صباح بجلد الغزال ومسحوق التبييض"

وبعد ذلك، قال رجل طويل يقابله: "كان لدينا هنا منذ فترة قصيرة شخص أعتقد أن رسخ في عقله أنه حمار وهو أمر- مجازيا-

ستصدق عليه. كان مريضا مثيرا للمشاكل، ويثير ضجة صاخبة حتى نقدر على أن يهدأ. ولم يأكل شيئا لفترة طويلة إلا النباتات الشائكة، لكننا عالجناه من هذه الفكرة بالإصرار على ألا يأكل شيئا آخر. حينئذ، كان يرفس دائما عقبي قدميه هكذا.... هكذا".

"سيد دي كوك، سأكون ممتنة لك لو أحسنت التصرف!" هنا قاطعته سيدة عجوز تجلس إلى جانب المتحدث: "أرجوك احتفظ بقدميك لنفسك! لقد أفسدت قماشي المطرز! هل من الضروري، أرجوك، أن توضح أي ملاحظة لك بهذا الأسلوب العملي؟ صديقنا يستطيع أن يفهمك بدون كل هذا. قسما بشرفي أنت تقريبا حمار عظيم بقدر ما التعس المسكين تخيل نفسه. بحياتي، تمثيلك طبيعي جدا".

أجاب السيد دي كوك مخاطبها: "*Mille pardons mam'selle*" ألف اعتذار يا مدموازيل! ألف اعتذار! لا أقصد الإساءة. مدموازيل لابلاس، سيشرف السيد دي كوك أن يحتسي كأس نبيذ معك".

هنا انحنى السيد دي كوك، وقبّل يد مدموازيل لابلاس بشاعرية عالية وأخذ كأس نبيذ معها.

وجه السيد مالارد حديثه إليّ: "اسمح لي ياصديقي، اسمح لي أن أرسل لك طبق طعام شهيا من لحم عجول مقاطعة سانت منهولت، ستجد أنه رائع روعة خاصة".

في تلك اللحظة تابع ثلاثة من الخدم في وضع فوق الطاولة بكل حرص طبق ضخم أو صينية خشبية، يحتوي ما أظن أنه "*monstrum.horrendum.informe,ingens,cui lumen ademptum*" وحشي ومروع وبلا شكل وعملاق وبلا عين". مع ذلك بعد أن فحصته عن كثب تيقنت أنه كان مجرد عجل مشوي كامل، وموضوع على ركبتيه وبتفاحة في فمه تبعا للنمط الإنجليزي في تزيين الأرانب البرية.

أجبت: " شكرا لا، في الحقيقة أنا لا أميل على وجه الخصوص إلى لحم عجول سانت... ما اسمه؟ لأنني لا أجد أنه يناسب شهيتي تماما. سأغير طبقي مع ذلك وأجرب قطعة من لحم الأرنب".

كانت هناك عدة أطباق جانبية على الطاولة، تحتوي على ما يبدو أنه الأرنب الفرنسي العادي، وهو *morceau* طبق لذيذ جدا أستطيع أن أوصي به.

صرخ المضيف: "بيير، غير طبق هذا السيد النبيل وأعطه شريحة جانبية من *rabbit au-chat* لحم القطة"

قلت "ما هذا؟"

"هذا لحم قطة"

"واو، شكرا، بعد إعادة التفكير لا. سآخذ بنفسي بعضا من لحم الخنزير".

قلت لنفسي إن المرء لا يستطيع أن يعرف ما الذي يأكله على طـــاولات أهـــل المقاطعة هؤلاء. لن آخذ أي شيء من لحم قططهم ولا لحم أرانبهم أيضًا.

قال شخص شاحب، بالقرب من ذيل الطاولة، ملتقطا خيط الحديث من حيث انقطع: "وبعد ذلك، من بين غرائب أخرى، كان لدينا مريض، ذات مرة، يؤكد بإلحاح أنه جبنة قرطبية، ودار في الأنحاء بسكين في يده يستجدي أصدقاءه أن يجربوا شريحة صغيرة من منتصف ساقه".

قاطعه شخص ما قائلا: " كان أحمق كبيرا، لكن لا يقارن بشخص معين كلنا نعرفه باستثناء هذا النبيل الغريب. أعني الرجل الذي اعتبر نفسه زجاجة شمبانيا وتجول دائما بفرقعة وأزيز بهذه الطريقة".

هنا وضع المتحدث بوقاحة كبيرة كما أظن إبهامه الأيمن في خده اليسرى وسحبه بصوت يشبه فرقعة فلينة، ومن ثم بحركة بارعة من اللسان فوق الأسنان أصدر هسهسة حادة وأزيزا استمر عدة دقائق في محاكاة لرغوة الشمبانيا. رأيت أن هذا السلوك لم يسعد السيد مالارد. لكن هذا السيد النبيل لم يقل كلمة وتابع الحديث رجل ضئيل نحيل جدا يرتدي شعرا مستعارا ضخمًا.

قال: "ومن ثم، كان يوجد جاهل اعتبر نفسه، خطأ، ضفدعة، وهو - بالمناسبة يشبهها بدرجة ما.. أتمنى لو أنك رأيته يا سيدي" هنا وجه المتحدث حديثه إليّ: "كان سيسعد قلبك أن ترى السيماء الطبيعية التى يتلبسها. فإذا كان هذا الرجل ليس بضفدعة، فليس بوسعي غير أن أشفق على أنه ليس ضفدعة. كان نقيقه أووووووووووج.. أوووووووووووج! أحلى نغمة في العالم، وعندما يضع مرفقيه على الطاولة هكذا، بعد أن يحتسي كأسا أو اثنتين من النبيذ، وينفخ فمه هكذا ويقلب عينيه هكذا ويرمشهما بسرعة كبيرة هكذا، حينها يا سيدي، أتعهد لك أنك لابد أن تتيه إعجابا بعبقرية الرجل".

قلت: "لا شك لدي".

قال شخص ما آخر: "ومن ثم، كان هناك دالارد الصغير الذي اعتقد نفسه حفنة من النشوق، وكان حقا تعسا لأنه لا يستطيع أن يأخذ نفسه بين إصبعه وإبهامه".

"ومن ثم، كان هناك جولس دوسليبرس، الذي كان عبقريا فذا بالفعل وجن بفكرة أنه ثمرة يقطين. ضايق الطباخ لكي يصنع منه فطائر، وهو الشيء الذي رفض الطباخ أن يفعله بسخط. من جانبي أعتقد أن فطيرة اليقطين في مطعم دوسليبرس ستكون طبقا رئيسيا بالفعل!".

قلت: "أنت تدهشني" ونظرت بتساؤل إلى السيد كالارد

قال هذا النبيــل: "ها! ها! ها! جيد جدا حقا! هو! هو! ها! ها! لا يجب أن تندهش يا صديقي، صديقنا هذا ظريف، وغد لا يجب أن تأخذ كلماته حرفيا".

قال شخص آخر ما من الحفل: "ثم كان هناك بوفون لو جراند، شخصية استثنائية أخرى بطريقته. نما مشوشا بسبب الحب وتخيل نفسه أن لديه رأسين. أكد أن واحدا منهما رأس شيشرون، وتخيل الآخر رأس مركبة، من أعلى الجبين إلى الفم رأس ديموسيوس، ومن الفم إلى الذقن رأس اللورد بروجام. من الجائز أنه كان مخطئا، لكن كان سيقنعك أنه على حق لأنه كان رجلا ذا بلاغة وفصاحة. كان مولعا ولعا خاصا بالبلاغة ولم يحجم عن إظهارها، على سبيل المثال اعتاد أن يقفز فوق طاولة العشاء هكذا و... و...".

هنا وضع صديق إلى جانب المتحدث يده على كتفه وهمس بعدة كلمات في أذنه، توقف بناء عليها عن الكلام بحزن عظيم وغرق في كرسيه.

قال الصديق الذي همس: "وبعد ذلك، كان هناك بولارد الخذروف. أسميه الخذروف لأنه في الحقيقة كان مضحكا، لكنها ليست نزوة غريبة غيرعقلانية تماما أن يحول نفسه إلى خذروف. كنت ستقهقه ضاحكا لو رأيته يدور حول نفسه. كان يدور حول كعب واحد بالساعة بهذه الطريقة.. هكذا..."

هنا أدى الصديق الذي قاطعه للتو بهمس في أذنه الفعل نفسه نحوه.

صرخت سيدة عجوز بأعلى صوتها: "لكن صديقك هذا السيد بولارد كان مجنونا ومجنونا سخيفا جدا في أفضل الأحوال، فمن، اسمح لي أن أسألك، سمع في يوم عن خذروف بشري. إن الأمر سخيف. مدام جوييس كانت شخصية أكثر حساسية كما تعرف. كانت لديها نزوة غريبة غير معقولة، لكنها كانت مفعمة بالفطرة السليمة ومنحت السعادة لمن كان له شرف التعرف بها. وجدت بعد تأمل عميق، أنها، بالصدفة، تحولت إلى دجاجة لكن تصرفت بلياقة. كانت تصفق بجناحيها باستثنائية،... هكذا.... وبالنسبة لصيحتها فقد كانت لذيذة! كوكا دوودل دوو....كوكا دوودل دو.. كوكا دوودل دوو.. دووو... دو وو وو وو!"

هنا قاطعها مضيفنا بغضب: مدام جوييس سأمتن لك لو أحسنت التصـــرف شـــاكرا، فـــإما أن تتصرفي كما يجب أن تتصرف السيدة أو يمكن أن تغادري الطاولة حالا، لك الخيار".

السيدة (التي صعقت لسماعي تخاطب بمدام جوييس بعد وصف مدام جوييس الذي أعطته حالا) احمرت خجلا حتى حاجبيها وبدت مرتبكة ارتباكا كبيرا بسبب التوبيخ. أخفضت رأسها ولم تجب بلفظ واحد. لكن سيدة أخرى وأصغر تابعت الموضوع. كانت سيدتي الجميلة التي قابلتها في الصالة الصغيرة.

تعجبت قائلة: "أوه مدام جوييس كانت حمقاء، لكن كان هناك معنى عميق في النهاية في رأي أوجين سالسافيت. كانت سيدة شابة جميلة جدا خجولة خجلا مؤلما رأت أن الطريقة العادية لارتداء الملابس غير محتشمة ورغبت في أن ترتدي دوما ملابسها بأن تغدو خارج ملابسها عوضا عن داخلها. هو شيء سهل تنفيذه في النهاية. عليكم فقط أن تفعلوا هذا... ثم هذا.... وهذا... ثم هذا...."

هنا صرخت عشرات الأصوات في وقت واحد: "يا إلهي! مدموازيل سلسافيت!"

"ما الذي أنت على وشك أن تفعليه؟ توقفي!... هذا يكفي!... نحن نفهم بوضوح اقتراحك! توقفي! توقفي!" وعدة أشخاص كانوا يقفزون من فوق كراسيهم بالفعل لمنع مدموازيل سالسافيت من أن تأخذ وضع تمثال فينوس أي تتعرى، حين نجحوا في منعها انطلقت فجأة بقوة سلسلة من الصرخات العالية أو الصيحات صادرة من قسم من المبنى الرئيسي للقصر.

تأثرت أعصابي تأثرا كبيرا بالفعل بسبب تلك الصيحات، لكنني أشفقت حقا على بقية الصحبة. لم أر أبدا مجموعة من البشر العاقلين مرعوبين تماما بهذا الشكل في حياتي. أصبحوا شاحبين شحوب الموتى وجلسوا منكمشين في كراسيهم، يرتجفون ويهذون رعبا ويصغون إلى تكرار الصوت. جاء مرة أخرى أعلى وأقرب، ثم مرة ثالثة عاليا جدا،

ومرة رابعة بهدير يخفت بوضوح. مع هذا التلاشي الواضح للضجيج، ارتفعت معنويات الصحبة على الفور، وأصبح الجميع مفعما بالحياة والحكايات كما من قبل. غامرت الآن في السؤال عن سبب هذا الاضطراب.

قال السيد مالارد: "شيء تافه، اعتدنا على هذه الأمور، ولا نأبه بها. إن المجانين بين الحين والآخر يقومون بالصياح في كونشيرتو جماعي. واحد يحث الآخر كما يحدث أحيانا في قطيع من الكلاب في الليل. مع ذلك، يحدث أحيانا أن تتتابع صيحات الكونشيرتو بسبب محاولتهم العفوية للفرار من الحبس، حيث بالطبع لا نخشى أي خطر من هذا القبيل".

"وكم فرد لديك تحت مسؤوليتك؟"

"حاليا لا يزيدون على عشرة"

"سيدات أساسا، على ما أعتقد؟"

"أوه لا، كلهم رجال، وهم رجال أقوياء أيضًا، أؤكد لك".

"بالفعل! طالما فهمت أن أغلبية المجانين من الجنس اللطيف".

"هو هكذا في العموم، لكن ليس دائما. منذ فترة ما كان يوجد هنا سبعة وعشرون مريضا، وفي هذا العدد، ما لا يقل عن ثماني عشرة من النساء، لكن مؤخرا تغيرت الأمور كثيرا كما ترى".

"نعم، لقد تغيرت كثيرا كما ترى" هنا قاطع السيد الذي رفس مقدمة ساق مدموازيل لابلاس.

"نعم، تغيرت كثيرا، كما ترى!" ترنمت الصحبة كلها في وقت واحد.

"امسكوا ألسنتكم، كل واحد منكم!" قال مضيفي في هياج عظيم.

بقيت الصحبة كلها بناء على قوله في صمت مميت لدقيقة تقريبا. بالنسبة لواحدة من السيدات، فقد أطاعت السيد ميلارد حرفيا ومدت لسانها الذي كان طويلا جدا حملته بين يديها بإذعان تام حتى نهاية السهرة.

قلت: "وهذه السيدة اللطيفة، هذه السيدة الطيبة التي كانت تتحدث حالا والتي قالت كوكا دوودل دي دوو، أفترض أنها غير مؤذية أبدًا/ها!"

هتف بقوة وفجأة في دهشة صادقة: "غير مؤذية! عجبا، عجبا! ما الذي تعنيه؟"

قلت وأنا ألمس رأسي: "تأثرت فقط تأثرا خفيفا، سأعتبره أمرا أكيدا أنها ليست مصابة على وجه خاص، على نحو خطير ها؟"

"يا إلهي! ما الذي تصورته؟ هذه السيدة، صديقتي الخاصة القديمة مدام جوييس عاقلة تماما مثلي. تعاني من غرابة أطوار بالتأكيد، لكنك تعلم أن العجائز، كلهم غريبو الأطوار تقريبا!"

قلت: "بالتأكيد، بالتأكيد... وباقي تلك السيدات والرجال..".

قاطعني السيد مالارد، ساحبا نفسه إلى الأعلى بعجرفة، قائلا: "هم أصدقائي والحراس.. أصدقائي الطبيون ومساعدي".

سألت: "ماذا! كلهم ؟ النساء كلهن؟"

قال: "بالتأكيد، لم نكن لنقدر على القيام بكل هذا بدون النساء، فهن أفضل ممرضات للمجانين في العالم، لديهن طريقتهن الخاصة بهن؛ تعرف، فعيونهن اللامعة لها تأثير رائع، شيء مثل روعة الثعبان، تعرف".

قلت: "بالتأكيد، بالتأكيد هن يتصرفن بغرابة قليلة.. ها!، هن مريبات قليلا.. ها! ألا تعتقد هذا؟"

"غرابة، ريبة- عجبا هل تعتقد حقا هذا؟ نحن لا نتميز بالاحتشام المفرط هنا في الجنوب، نتصرف كثيرا كما يحلو لنا، نستمتع بالحياة وكل هذه الأشياء تعرف".

قلت: "بالتأكيد، بالتأكيد".

"لعل هذا النبيذ مسكر قليلا، قوي قليلا، أنت تفهم... ها؟."

قلت: "بالتأكيد، بالتأكيد. وبالمناسبة يا سيدي، هل فهمتك وأنت تقول إن النظام الذي تبنيته مكان نظام التهدئة الشهير كان واحدا من الأنظمة التي تتسم بالصرامة القاسية ؟"

"حجزنا مغلق بالضرورة، غير أن العلاج- العلاج الطبي أعني- مقبول لدى المرضى أكثر من غيره".

"والنظام الجديد من ابتكارك؟"

"ليس تماما. فبعض أجزاء منه يعود إلى البروفيسور تار، الذي سمعت عنه بالضرورة، كما أن هناك تعديلات في خطتي التي يسعدني أن أعترف أنها حق فزرالمشهور، الذي كان لك شرف معرفته معرفة حميمة إن لم أكن مخطئا".

أجبت "أخجل تماما من الاعتراف أنني لم أسمع أبدا عن هذين السيدين من قبل".

هتف مضيفي، ساحبا كرسيه إلى الوراء بحدة ورافعا يديه: "يا للسماء!، بالتأكيد أنا لم أسمعك جيدا! ماذا تقصد أن تقول إيه؟ إنك لم تسمع أبدا بأي من الدكتور تار العالم أو البروفيسور فزر الشهير؟"

أجبت: "أنا مجبر على الاعتراف بجهلي، غير أن الحقيقة يجب أن تظل مصانة فوق أي شيء. ومع ذلك، أشعر بضآلتي الشديدة، لأنني لم أتعرف على أعمال هذين الرجلين الاستثنائيين بلا شك. سأبحث عن كتاباتهما فورا، وأدرسها بعناية فائقة. يا سيد مالارد، لابد أن أعترف أنك جعلتني حقا أخجل من نفسي!"

كان هذا حقيقيا.

قال بطيبة: "لا تقل المزيد، يا صديقي الشاب الطيب"، وهنا كان يضغط على يدي وهو يقول: " شاركني الآن كأسا من السوترنية".

شربنا. تبعت الصحبة مثالنا بدون أن تقتر على نفسها. دردشوا ومزحوا وضحكوا وارتكبوا آلاف السخافات، وزعقت الكمنجات والطبلة وجأرت الساكسفونات مثل ثيران فالاريس[1]، وزاد سوء المشهد كله تدريجيا مع هيمنة النبيذ ليصبح في النهاية شبيها بمكان إبليس في الجحيم[2]. في الوقت نفسه، واصلنا السيد مالارد وأنا مع بعض زجاجات الخمرة والنبيذ حديثنا بأعلى صوت. فالكلمة التي تنطق بطبقة عادية لن تملك فرصة أكبر من صوت السمكة في قاع شلالات نياجرا. قلت وأنا أصرخ في أذنه: "ذكرت شيئا ما قبل العشاء عن الخطر المنطوي في النظام القديم. كيف هذا؟"

أجاب: "نعم، كان هناك أحيانا خطر عظيم بالفعل. لا يوجد تفسير لنزوات المجانين، وفي رأيي كما في رأي د. تار والبروفيسور فزر ليس آمنا أبدا أن تسمح لهم بأن يتجولوا بحرية بدون رفقة. فربما "يهدأ" المجنون كما يقال لفترة من الوقت لكن في النهاية هو ميال إلى أن يصبح صعب المراس. إن اندفاعه أيضا مضروب به المثل وعظيم؛ فلو أن لديه مشروعا ما أو هدفا فهو يخفي خطته بحكمة رائعة،

(١) هي آلة للتعذيب، اخترعها فالاريس هذا أكل لحوم البشر، في الأسطورة اليونانية.

قصر إبليس في الحجيم المخبأ في الصدر. *(2) Pandemonium in petto In Milton*

والحذق الذي يتظاهر به بسلامته العقلية تمثل للخبير في مسائل ما وراء الطبيعة واحدة من المشاكل الفريدة في دراسة الدماغ؛ فالوقت الذي يبدو فيه رجلا مجنونا عاقلا تماما هو الوقت المناسب فعليا لوضعه في قميص المجانين".

"لكن الخطر يا سيدي العزيز الذي كنت تتحدث عنه في خبرتك- خلال إدارتك هذه الدار- هل لديك سبب عملي في التفكير أن الحرية تنطوي على المخاطرة في حالة المجنون؟"

"هنا؟ في خبرتي؟ أستطيع أن أقول نعم؛ فعلى سبيل المثال، لم يمض وقت طويل جدا على حدث فريد وقع في هذه الدار نفسها. كان نظام التهدئة مطبقا حينها وكان المرضى يتجولون بحرية. كانوا يتصرفون جيدا على نحو استثنائي- ومن هذا على وجه الخصوص قد يستطيع أي شخص عاقل أن يعرف أن خطة شيطانية ما تتخمر- من تلك الحقيقة الخاصة، أي أن الرجال كانوا يتصرفون جيدًا على نحو استثنائي. وبالفعل كما قلت لك، وجد الحراس أنفسهم في أحد الصباحات الجيدة مكبلي اليد والقدم وملقين في غرف حيث يتولى أمرهم المجانين أنفسهم الذين اغتصبوا مواقع الحراس كما لو أنهم هم المجانين".

"لا أصدق ما تقوله! لم أسمع بشيء سخيف مثل هذا في حياتي!"

"حقيقة، لقد حدث كل هذا بواسطة رجل غبي- مجنون- الذي بطريقة ما أعتقد أنه ابتكر نظاما أفضل للحكومة أكثر من أي نظام

سمع عنه من قبل- حكومة مجانين أعني. أعتقد أنه رغب في أن يختبر ابتكاره، وهكذا أقنع باقي المرضى للانضمام إليه في مؤامرة للإطاحة بالسلطة الحاكمة".

"وهل نجح حقا؟"

"لا شك في هذا. سرعان ما تبادل الحراس والمحروسون الأماكن. ليس أيا من هذا حتى، لأن المجانين كان مطلقا سراحهم غير أن الحراس حبسوا في غرف على الفور وعوملوا، وأأسف لكي أقول هذا، بطريقة متعجرفة جدا".

"لكنني أعتقد أن ثورة ما ستقوم - ثورة مضادة؛ فهذا الوضع من الأمور لا يمكن أن يدوم طويلا، إن أهل البلد من المناطق المجاورة والزوار الذين يأتون لرؤية المبنى، سوف يشعرون بالخطر".

"لقد أخطأت هذه المرة. كان زعيم التمرد ماكرا؛ فلم يسمح بأي زوار أبدا، باستثناء يوم ما، سيد شاب غبي الطلعة لا يخشى منه، تركه يدخل ليرى المكان - فقط من قبيل التنوع- ولنستمتع معه. وما إن خدعه كما يكفي، تركه يخرج، وطلب منه المغادرة على الفور".

"وكم دام إذن حكم المجانين؟"

"أوه، فترة طويلة جدا، فعليا، شهرا بالتأكيد، هل امتدت فترة حكمهم أكثر من هذا بالضبط- لا أستطيع أن أحدد. أثناء ذلك قضى

المجانين موسما مرحا، يمكن أن تثق فيما أقوله هذا تماما؛ لقد تخلصوا من ملابسهم البالية وتصرفوا بحرية في خزانة ملابس العائلة ومجوهراتها، كانت غرف القصر ممتلئة بالنبيذ وهؤلاء المجانين شياطين يعرفون كيف يشربونه. أؤكد لك أنهم استمتعوا بوقتهم".

"والعلاج- ماذا كانت الأنواع الخاصة من العلاج الذي طبقه القائد؟"

"بالنسبة لهذا، المجنون ليس بالضرورة أحمق كما لاحظت بالفعل، ورأيي الصادق أن علاجه كان أفضل بكثير من ذلك الذي نسخ. كان نظاما ممتازا بالفعل، بسيطا.... نظيفا... لا مشاكل أبدًا... في الواقع كان لذيذا...كان...".

هنا قطعت ملاحظات مضيفي سلسلة أخرى من الصيحات من النوع نفسه مثل تلك التي أربكتنا سابقا. غير أنها بدت، هذه المرة، تصدرعن أشخاص يقتربون بسرعة.

هتفت: "يا للسماء الرحيمة!، بالتأكيد كسر المجانين قيدهم"

أجاب السيد مالارد، وقد أصبح شاحبا جدا الآن: " أخشى أن يكون هذا صحيحا". بالكاد أنهى جملته قبل أن تسمع صرخات عالية ولعنات تحت النوافذ، وبعد ذلك على الفور، أصبح واضحا أن بعض الأشخاص في الخارج كانوا يحاولون الدخول إلى الغرفة. كان الباب يضرب فيما يبدو بمرزبة، وانخلعت مصاريعه وسقطت بعنف هائل.

تبع ذلك مشهد من أكثر المشاهد اضطرابا؛ فقد رمى السيد مالارد نفسه، لدهشتي الشديدة، تحت البوفيه، لقد توقعت أن تكون في يده قدرة على اتخاذ القرار أكبر. أعضاء الأوركسترا الذين كانوا سكارى جدا خلال الخمس عشرة دقيقة الأخيرة بحيث لم يستطيعوا أن يقوموا بواجبهم قفزوا في وقت واحد كلهم على أقدامهم وإلى آلاتهم وزحفوا على طاولتهم، واندلعوا يغنون يانكي دوودل[1] بالإجماع "حيث عزفوها إن لم يكن بالنغمة الصحيحة فعلى الأقل بطاقة غير بشرية خلال الصخب الكلي"

في الوقت نفسه، فوق طاولة العشاء الرئيسية بين الزجاجات والأكواب، قفز السيد الذى منع عن القفز فوقها من قبل. وما إن استقر بدأ خطابا كان بلا شك عظيما لو قدر له أن يسمع فقط. في اللحظة نفسها، الرجل الولع بالخذروف، دار حول نفسه في أرجاء الشقة بطاقة هائلة وبذراعين ممدودتين بزاوية قائمة مع جسده. وبهذا كان له شكل الخذروف في الحقيقة وصدم كل شخص على الأرض تصادف أن وجده في طريقه. والآن أيضًا بعد أن سمعت فرقعة هائلة وأزيز الشمبانيا اكتشفت في النهاية أنها تصدر عن الشخص الذي أدى دور زجاجة من هذا الشراب الرقيق خلال العشاء. ثم بعد ذلك مرة أخرى نقنق الرجل الضفدع كما لو أن خلاص روحه يعتمد على كل نغمة يلفظها. وفي خضم كل هذا، ارتفع النهيق المتواصل للحمار فوق كل

(١) أغنية شعبية راجت أثناء الثورة الأمريكية.

هذا. فبالنسبة لصديقتي العجوز، مدام جوييس، كنت سأبكي حقا على هذه السيدة المسكينة، بدت مشوشة جدا، ومع ذلك فكل ما فعلته هو أن تقف في زاوية بجانب المدفأة وتغني بأعلى صوتها بلا توقف " كوكا دوودل دي دووووو!"

والآن تأتي الذروة، كارثة الدراما. بما أنه لا توجد مقاومة غير الهتاف والصياح والكوكا دودل، أمام انتهاك الحفل من الخارج، فقد تم اقتحام النوافذ العشر سريعا جدا وتقريبا في الوقت نفسه. لكنني لن أنسى أبدا مشاعر التعجب والرعب التي نظرت بها حين اندفع إلى الداخل فيما بيننا جيش كامل تصورت أنه من الشمبانزي أو إنسان الغاب أو البابون الأسود الكبير من رأس الرجاء الصالح يقفزعبر النوافذ وقد اختلط الحابل بالنابل يقاتل ويطعن ويخدش ويزعق.

تلقيت ضربة رهيبة تدحرجت بعدها تحت كنبة ورقدت ساكنا. من ناحية أخرى، بعد أن استلقيت هناك لخمس عشرة دقيقة خلالها أنصتُ بكل أذني لما كان يحدث في الغرفة، توصلت إلى نتيجة مرضية لهذه المأساة. اتضح أن السيد مالارد وهو يحكي لي رواية عن المجنون الذي أثار رفاقه ليتمردوا كان يسرد عمله البطولي فقط. هذا السيد كان مدير المستشفى لسنتين أو ثلاث من قبل لكنه هو نفسه أصابه الجنون وأصبح مريضا. هذه الحقيقة لم تكن معروفة من قبل رفيق سفري الذي قدمني إليه. إن الحراس وهم عشرة في العدد وبعد أن أطيحت بسلطتهم فجأة دهنوا بالقار في البداية وغطوا بالريش بعد

ذلك، ثم حبسوا في غرف تحت الأرض. حبسوا لأكثر من شهر حيث خلالها لم يسمح لهم السيد مالارد، وكان كريما، بالقار والريش فقط (اللذين شكلا "نظامه") بل ببعض الخبز ووفرة من المياه. كان الأخير يضخ لهم يوميا. في النهاية، بعد أن هرب واحد منهم من خلال أنبوب مياه، أطلق سراح الباقي.

رجع تطبيق "نظام التهدئة" مع بعض التعديلات المهمة في القصر، غير أنني لا أستطيع أن أمنع نفسي من الاتفاق مع السيد مالارد أن علاجه كان ممتازا في نوعه. فكما علق عن صحة كان "بسيطا... نظيفا...لا مشاكل به أبدًا، أبدًا".

لابد أن أضيف فقط أنه على الرغم من أنني فتشت كل مكتبة في أوروبا عن أعمال الدكتور تار والبروفيسور فزر أخفقت حتى اليوم تماما في مساعيَّ للحصول على نسخة منها.

الحياة الأدبية لثينجم[1] بوب المحترم

رئيس تحرير "جووسذيرومفوودل[2]" الراحل

بقلمه

أنا أشيخ الآن، وإذ إنني أدرك أن شكسبير والسيد إمونس[3] قد ماتا، فليس من المستحيل أنني أنا حتى قد أموت. لذلك خطر لي أن أتقاعد أيضًا من حقل الأدب، وأكتفي بالمجد الذي حققته فيه حتى الآن. غير أنني أتطلع إلى أن أميز تنازلي عن صولجان الأدب بأن أترك إلى الأجيال القادمة إرثا مهمًا، ولا يسعني أفضل من أن أسطر فقط بداياتي في هذا الحقل. ففعليا، لقد ظل اسمي طويلا ودائما أمام عيون الجماهير، إلى حد أنني لن أقر فقط طواعية بأن الاهتمام الذي أثاره في كل مكان اهتمام طبيعي، لكنني مستعد أن أشبع الفضول الشديد الذي أشعله. ففي الحقيقة إن الذي بلغ المجد، لن يكون أكثر من واجب عليه أن يترك خلفه، أثناء صعوده، علامات طريق لعلها ترشد الآخرين ليصبحوا عظماء. لذلك أنوي في هذه الورقة (التي أنوي أن

---

(1) *Thingumbob:* شيء مجهول أو منسي الاسم

(2) *Goosetherumfoodle*

(3) *Richard Pop Emmons (1788-1837)*

أسميها" وثيقة تسد مسد التاريخ الأدبي الأمريكي") أن أعطي تفاصيل خطواتي الأولى التي وإن كانت ضعيفة ومقلقلة لكنها مهمة حيث في نهايتها بلغت الطريق السريع الذي يؤدي إلى أوج الشهرة البشرية.

ليس ضروريا أن أقول الكثير عن أسلافي الأوائل. احتل أبي، توماس بوب المحترم، لسنوات عديدة قمة مهنته، الذي كان حلاقا تجاريا في مدينة سمج. كان مستودعه ملجأ كل الناس المهمين في المكان وخاصة مجموعة المحررين، وهم الجماعة التي ألهمت كل من حولها بمهابة وخشية عميقتين. ومن جانبي نظرت إليهم باعتبارهم آلهة، ونهلت منهم بشراهة، حصافة العقل الغنية والحكمة التي تدفقت باستمرار من أفواههم الجليلة خلال العملية التي تسمى بـ "أرغا وأزبد". لابد أن اللحظة الأولى من إلهامي الحقيقي يعود تاريخها إلى تلك الفترة خالدة الذكرى، حين تلا عاليا المدير اللامع لمجلة "جاد فلاي[1]"، في الفترات الفاصلة من العملية التي ذكرتها توا، أمام الاجتماع السري لصبيان المهنة، قصيدة فذة في شرف "الزيت الحقيقي الوحيد زيت بوب" (هكذا سمي باسم مخترعه الموهوب، أبي)، وبسبب دفقها الحار كافأت مؤسسة توماس بوب وشركاه محرر الفلاي بهدية سخية فخمة.

نفخت في عبقرية سوناتا المكتوبة لـ "بوب" الزيت، أقول، نفخت فيَّ في البداية الإلهام المقدس. عزمت على الفور أن أصبح

---

(1) Gad-Fly

رجلا عظيما، وأن أبدأ بأن أصبح شاعرا عظيما. في تلك الليلة عينها ركعت على ركبتي عند قدمي أبي.

قلت:" أبي، اسمح لي! لكنني أملك روحا أعلى من رغوة الصابون، إنني أعتزم عزما صارما أن أقاطع المحل. سأغدو محررا – سأغدو شاعرا– سأؤلف سوناتا في زيت بوب. اسمح لي وساعدني لكي أصبح عظيما".

أجاب والدي وهو يرفعني من أذني: "يا عزيزي ثنجم (سميت عند التعميد باسم واحد من الأقارب الأغنياء)، ثنجم، يا ولدي، أنت شخص مميز، وورثت عن والدك العزم. لك رأس ضخم أيضًا ولابد أنه يحتوي عددا من العقول العظيمة. رأيت هذا منذ فترة طويلة، ولهذا فكرت أن تصبح محاميا، ومهنتنا أصبحت مبتذلة، وتلك التي للسياسيين عائدها قليل. إجمالا، رأيك هو الأصوب، فعمل المحرر هو الأفضل، وإذا استطعت أن تصبح شاعرا أيضًا– وعلى فكرة مثل حال أغلب المحررين– حينها فعلا! ستصيب عصفورين بحجر واحد. وتشجيعا مني لك في البداية، سأتيح لك علية وقلما وحبرا وورقا وقاموس شعر ونسخة من "جاد فلاي". أعتقد أنك لا تحتاج إلى أكثر من هذا".

أجبت بحماس: "سأكون شريرا جحودا إذا احتجت إلى أكثر من هذا، إن كرمك لا حدود له، سأرده بجعلك أبا لعبقري".

هكذا أنهيت اجتماعي مع أفضل الرجال وذهبت بحماس فور انتهائه إلى أعمالي الشعرية. وبناء على هذا أسست أحلام ارتقائي الأخير إلى كرسي رئيس التحرير.

في محاولاتي الأولى من التأليف وجدت أن سوناتا إلى بوب الزيت عائق على الأحرى أكثر من أنها مساعدة لي. فروعتها دوختني أكثر من أن تنير لي الطريق. فقد عمل تأملي في روعتها إلى إحباطي عندما أقارنها بمحاولاتي الجهيضة، وهكذا اشتغلت طويلا شغلا ذهب هباء. في النهاية، جاءتني فكرة من تلك الأفكار الأصيلة أصالة استثنائية التي تخترق بين الحين والآخر عقل الإنسان العبقري. كان ما يلـــي، أو بالأحرى هكذا نفذتها. من بين مهملات كشك للكتب قديم، في مكان قصي من البلدة حصلت على عدد من المجلدات العتيقة والمجهولة كلية أو المنسية. باعها لي بائع الكتب في مقابل أغنية. من واحدة منها، التي تبين أن فحواها ترجمة لواحدة من قصائد "الجحيم" لدانتي، نسخت بعناية فائقة فقرة طويلة عن رجل يدعى "أوجولينو[١]" عنده حفنة من الأطفال المزعجين. ومن أخرى، التي تحتوي على عدة مسرحيات جيدة قديمة لشخص ما نسيت اسمه، استخلصت بالطريقة نفسها، وبالدقة نفسها، عددا كبيرا من الشطور الشعرية التي تدور حول "الملائكة" و"كهنة ترنم ترنيمات شكر" و"عفاريت ملعونة[٢]" والمزيد على الشاكلة نفسها.

---

(1) *Ugolino della Ghererdesca* شخصية رئيسية في الجحيم لدانتي

(٢) هاملت

ثم من ثالثة، التي كانت أشعار رجل أعمى أو آخر، سواء كان يونانيا أو إغريقيا[١]، ليس بوسعي تحمل مشقة تذكر كل شاردة أو واردة بالضبط. أخذت حوالي خمسين شطرا تبدأ بـ "حنق أخيل[٢]" و"الزيت[٣]" وشيء ما آخر. وأخيرا من الرابع، الذي أتذكر أنه كان أيضا عمل رجل أعمى، انتقيت صفحة أو اثنتين تدور كلها حول "الهتاف/ الترحيب" و"النور المقدس[٤]" وعلى الرغم من أنه لا يحق لرجل أعمى أن يكتب عن النور، كانت الأبيات الشعرية تلبي احتياجي في أسلوبها.

وبعد أن قمت بإعداد نسخ نظيفة من هذه القصائد، وقعت كل واحدة منها باسم "اوبودلدوك[٥]"، وبعد أن وضعت كلا منها في ظرف منفصل بطريقة جميلة، أرسلت واحدا لكل من المجلات الأربع الرئيسية مع طلب بسرعة النشر والدفع الفوري. مع ذلك فقد كانت نتيجة هذه الخطة التي تدبرتها جيدا (النجاح الذي إذا تحقق؛ كان سيوفر عليَّ كثيرا من المتاعب في الحياة الأخرى) عملت على إقناعي أن بعض المحررين لم ينخدعوا وأطلقوا رصاصة الرحمة (كما يقولون في فرنسا) على أمالي الوليدة (كما يقولون في المدن الخيالية).

---

(1) ***Greek or Choctaw: Greek or Greek***

(٢) الإلياذة

(٣) الكلمة الصحيحة في الإلياذة هي ***Greece***

(٤) الفردوس لميلتون

(5) ***Oppodeldoc:*** اسم رنان

الحقيقة هي أن كل مجلة من المجلات المعنية وجميعها، أجهزت تماما على السيد "أوبودلدوك" في "الملاحظات الشهرية لبريد المجلة"؛ فمجلة هم درم(١) وبخته متبعة هذا النمط:

"أرسل إلينا" أوبودلدوك" (أيا كان) خطبة مسهبة تتعلق بمعتوه يسمي نفسه "أوجولينو"، عنده أطفال عديدون لابد أنه يجلدهم كلهم ويرسلهم إلى النوم بدون عشاء. إن المسألة كلها مملة مللا مفرطا، ناهيك عن أنها مسطحة. أوبودلدوك (أيا كان) خال تماما من الخيال، والخيال في رأينا المتواضع ليس فقط روح الشعر بل أيضا صميم لبه. أوبودلدوك (أيا كان) يملك الوقاحة ليطالبنا، من أجل ثرثرته "سرعة النشر والدفع الفوري". نحن لا ننشر ولا نشتري أي شيء على هذه الشاكلة. من ناحية أخرى، لاشك أنه سيجد سوقا مستعدة لشراء تلك الهــراءات التي يخربشها سواء في مكتب راودي دوو، أو لوليبوب(٢) أو جو وسذيرومفوودل".

لابد من أن أعترف أن كل هذا كان شديد الوطأة على "أوبودلدوك" لكن كان النقد اللاذع هو كتابة كلمة الشعر بحروف مطبعية سوداء؛ ففي هذه الحروف البارزة ما تركته من مرارة لما تحتويه".

---

(1) Hum-Drum

(2) Rowdy-Dow; Lollipop

غير أن "أوبودلدوك" عوقب عقابا شديدا مكافئا في راودي دوو التي جاء بها مايلي:

"تلقينا رسالة من أكثر الرسائل استثناء وغطرسة من شخص (أيا كان) يوقع باسم "أوبودلدوك"، وهو بهذا يدنس عظمة الإمبراطور الروماني الرائع باتخاذه اسمه. وجدنا مرفقا برسالة "أوبودلدوك" (أيا كان) سطورا مختلفة عن لغة من أكثر اللغات السيئة وعديمة المعنى حــول "الملائكة و"الكهنة المترنمة بتــرنيمــات الرحمة"، لغة مثل هذه لا يرتكبها رجل مجنون أقل من نات لي[1] أو أوبودلدوك. وفي مقابل هراء الهراء هذا يطالبنا بتواضع بــ " الدفــع الفوري". لا، يا سيدي، لا نــدفع مقابل شيء على هذه الشاكلة. تقدم إلى هم درم أو لوليبوب أو جوسذيرومفوودل. هذه الدوريات ستقبل بلا شك أي نفايات أدبية قد ترسلها إليها، وستعد بالمثل بلاشك بالدفع في مقابلها".

كان هذا قاسيا بالفعل على "أوبودلدوك المسكين"، لكن في هذا الموقف، وقع ثقل السخرية على كاهل هم درم ولوليبوب وجوسذيرومفوودل، التي أطلقت عليها بسخرية لاذعة اسم دوريات بحروف طباعية مائلة أيضا مما جرحها جرحا عميقا بلاشك.

ولم تقل لوليبوب وحشية، والتي كتبت مايلي:

---

(1) Nathaniel Lee (1649-1692): مسرحي إنجليزي

شخص ما، الذي يتمتع بتسمية أوبودلدوك (يالها من استخدامات مبتذلة متكررة لأسماء الموتى الرائعين) أرسل إلينا أربعين أو ستين بيتا تبدأ بهذه الطريقة:

حنق أخيل

إلى اليونان، ينبوع الكوارث التي لا عدد لها

نود أن نحيط أبودلدوك (أيا كان) علما، بكل احترام، أنه لا يوجد صبي عامل في المطبعة في مكتبنا ليس بوسعه في روتينه اليومي تأليف أبيات أفضل. فأبيات أوبودلدوك هذه لن تقرأ وفقا للموازين العروضية. يجب أن يتعلم أوبودلوك الوزن. لكن إن الذي أقنعه بفكرة أننا (من بين كل الآخرين، نحن!) قد ندنس صفحاتنا بتفاهاته التي تفوق الوصف، سبب يفوق إدراكنا كلية. غريب! إن هذه الثرثرة السخيفة تصلح تماما لـــ هم درم ورودي دوو وجوسذيرومفوودل؛ فهي أشياء تتوافق مع نشر "ألحان الأوزة الأم" باعتبارها أشعارا أصيلة. و"أبودلدوك" (أيا كان) واثق جدا من هرائه إلى حد أنه يطالبنا بالدفع في مقابله. هل "أبودلدوك" (أيا كان) يعرف، هل هو علـــى درايـــة أننـــا لن نأخذ مالا مقابل نشرنا إياها؟

بينما كنت أقرأ هذا شعرت أنني أتضاءل وأتضاءل حتى وصلت إلى النقطة التي يسخر فيها المحرر من القصيدة، لأنني أرسلتها على أنها "نظم" لم يتبق مني شيء. بالنسبة لـــ "أبودلدوك" بدأت أشعر

بالتعاطف تجاه الرفيق المسكين. غير أن جوسذيرومفوودل أظهرت قسوة أكبر من اللوليبوب. كان ما ذكرته جوسذيرومفوودل هو:

واحد من مدعي الشعر، بائس، يوقع باسم "أبودلدوك" من الحماقة بحيث تصور أننا قد ننشر خليطا من الكلام الطنان المفكك والمليء بالأخطاء النحوية وندفع مقابلا له، أرسله إلينا، يبدأ بالشطر التالي الواضح وضوحا تاما:

"برد، نور مقدس، نسل السماوات، الوليد الأول"

"تقول من أكثرها وضوحا، لأن "أبودلدوك" (أيا كان هو) سيكون كريما إذا أخبرنا، ربما، كيف يمكن أن يصبح " البرد" "نورا مقدسا"؛ فنحن نعتبره دائما مطرا ثلجيا. هلا يخبرنا أيضًا كيف يكون المطر الثلجي، في وقت واحد ومعا " نورا مقدسا" (أيا كان هذا) و" نسلا" على السواء؟ حيث إن الكلمة الأخيرة (لو أننا نفهم أي شيء عن اللغة الإنجليزية) تستخدم فقط، بأدب، بالإشارة إلى المواليد في عمر ستة أسابيع. إن الإسهاب في الكلام حول مثل هذه السخافة أمر مناف للعقل على الرغم من أن "أبودلدوك" (أيا كان هو) يملك من الوقاحة الاستثنائية التي جعلته يفترض أننا لن "نقحم" فقط تفاهاته الجاهلة بل ندفع في مقابلها (مطلقا)".

"حسنا – هذا فج! ونحن لا نتصف بدرجة العقل التي تمنعنا عن معاقبة هذا التافه "أبودلدوك" الشاب على غروره وذلك بنشر سيولته

حرفيا، كما كتبها. لم نجد عقوبة أشد من هذا، وكنا سنوقعها لولا الملل الذي قد يصيب قراءنا جراء هذا الفعل".

فليرسل "أبودلدوك" (أيا كان هو) أي تأليف مستقبلي من هذا النوع إلى هم درم أو لوليبوب أو راودي دوو. فسوف " تدرجه"؛ فهذه " تدرج" كل شهر هذه الأشياء بالضبط. أرسلها إليها. نحن لن نسمح لك بإهانتنا وتفلت من العقوبة.

قضى هذا علي، ولم أفهم كيف استطاعت هم درم أو لوليبوب أو راودي دوو البقاء على قيد الحياة. إن وضعها في أصغر مكانة ثانوية ممكنة بـــ "هذه" (كان هذا هو الاستهزاء الذي ألمح بحقارتها ودناءتها) في حين تنتصب متطلعة إليهم في حروف ضخمة ثقيلة! أوه كان هذا شديد المرارة؛ كان علقما؛ كان حنظلا. فلو أنني في مكان دورية من تلك الدوريات فلم أكن لآلو جهدا في مقاضاة جووسنيرومفوودل. كان يمكن أن يتم هذا تحت قانون "منع القسوة في معاملة الحيوانات". أما بالنسبة لـــ "أبودلدوك" (أيا كان هو)، فقدت صبري تجاه هذا الرفيق بحلول ذلك الوقت، ولم أعد أتعاطف معه. كان أحمق بلا شك (أيا كان هو)، ولم يحصل إلا على الرفسة التي يستحقها.

أقنعتني خبرتي مع الكتب القديمة أن: أولا، "الصدق هو أفضل سياسة"، وثانيا، إن لم يكن بوسعي نظم شعر أفضل من السيد دانتي والرجلين المكفوفين الآخرين وباقي أعضاء المجموعة القديمة، فعلى

الأقل، لن أكتب أسوأ منهم. تشجعت لذلك وصممت على أن أتبع "الأصالة الكلية" (كما يقولون على أغلفة المجلات)، أيا كان الثمن الذي سأدفعه في الدراسة والآلام التي سأتكبدها. ووضعت أمام عيني مرة أخرى المقاطع الشعرية الرائعة عن "زيت بوب" لـــ محرر "جاد فلاي" نموذجا، وانتهيت إلى بناء قصيدة غنائية عن الفكرة الرفيعة نفسها، منافسا ما تم فعليا.

لم أجد صعوبة ملموسة مع الشطر الأول، فقد جاء هكذا:

إن كتابة قصيدة غنائية عن "زيت بوب"

غير أنني بعد أن بحثت جيدا في كل القوافي التقليدية المناسبة لــ "بوب" وجدت أنه من المستحيل أن أتابع. في خضم هذه المتاهة لجأت إلى المساعدة الأبوية، وبعد عدة ساعات من التفكير المتروى، بنينا أبي وأنا القصيدة التالية:

إن كتابة قصيدة غنائية عن "زيت بوب"

هى منتهى الأعمال.

توقيع "سنوب"(١).

بالتأكيد هذا التأليف لم يكن ذا طول عظيم، لكن "لا يزال أمامي ما أتعلمه"، كما يقولون في المجلة النقدية ادنبرج، لأن الإطالة المحضة

---

(1) Snob.

للعمل الأدبي لا علاقة لها بجودته. أما بالنسبة لـــفرح المجلات الفصلية بـــ "المثابرة على بذل الجهد" فمن المستحيل على أن أفهم معناه. لذلك، إجمالا رضيت عن نجاح محاولتي البكر، والسؤال الآن يتعلق بـــالذي يجب أن أقوم به. اقترح أبي أنني يجب أن أرسلها إلى جاد فلاي، غير أنه كان لدي سببان منعاني عن تنفيذ هذا الاقتراح؛ خشيت من غيرة المحرر، كما أنني تحققت من أنه لم يدفع للإسهامات الأصلية. لذلك بعد تفكير مترو واف، سلمت المقال إلى صفحات "لوليبوب" الأرفع وانتظرت النتيجة قلقا لكن كنت مذعنا.

في العدد التالي ذاته، تسنى لي التعويض الأدبي بأن أرى قصيدتي نشرت أخيرا، مثل المقال الافتتاحي، بالكلمات التالية المهمة محددة بحروف طباعية مائلة وبين قوسين:

(نلفت انتباه قرائنا إلى المقاطع الشعرية الرائعة الملحقة "زيت بوب". لا نحتاج إلى التنويه برفعتها أو بعناصرها المحركة للقلب؛ فمن المستحيل قراءتها بدون أن تذرف الدموع. إن هؤلاء الذين أصابهم الغثيان من الجرعة الحزينة التي خطها محرر "جاد- فلاي" بريشة الأوزة عن الموضوع الجليل ذاته إذا قارنوا بين القصيدتين سيتحسن حالهم.

ملاحظة: نحن نتوق إلى فض الغموض الذي يغلف "سنوب"، وهو اسم مستعار بوضوح. فهل نطمع في مقابلة شخصية؟)

لم يصل هذا إلى درجة الإنصاف، لكني أعترف أنه أكثر بكثير مما توقعت، انتبهوا، إن اعترافي هذا يلحق ببلادي وبالبشرية العار الدائم. ومع ذلك لم أضع أي وقت، فذهبت إلى زيارة محرر لوليبوب، ووجدته لحسن حظي في البيت. حياني بسيماء من الاحترام العميق، الممزوج قليلا بإعجاب أبوي ورعاية أثارها بداخله بلا شك مظهري الشاب وعدم خبرتي. وبعد أن رجاني الجلوس، دخل فورا في موضوع قصيدتي، غير أن التواضع سيمنعني كلية من تكرار آلاف المجاملات التي أغدقها علي. من ناحية أخرى لم يكن مديح السيد كراب (كان هذا اسم المحرر) مديحا مشوشا متملقا؛ فقد حلل مؤلفي بحرية تامة ومقدرة عظيمة بدون تردد في الإشارة إلى بعض العيوب التافهة مما رفع قدره عندي عاليا. اجتذبت جاد فلاي بالطبع نقده، وأرجو ألا أتعرض أبدا إلى نقد لاذع أو توبيخ مدمر مثل الذي أنزله السيد كراب على تلك السيولة التعسة. تعودت أن أنظر إلى محرر" جاد فلاي" باعتباره إنسانا خارقا، غير أن سرعان ما حررني السيد كراب من وهم تلك الفكرة. فقد سلط الضوء على الشخصية الأدبية والخاصة لفلاي (هكذا أشار السيد ك. بسخرية إلى المحرر المنافس)، فهو، الفلاي، لم يكن أفضل مما هو عليه. فقد كتب أشياء مغمورة، عمل محررا يتقاضى بنسا عن كل سطر، ومهرجا. كما أنه ساذج؛ فقد ألف تراجيديا جعلت البلد كله يقهقه وفارص أغرق الكون في الدموع. علاوة على كل هذا، امتلك من الوقاحة ليكتب ما قصد أن يكون أهجوة ساخرة عن نفسه (السيد

كراب) ومن التهور ليسميه "حمارا". فلو أنني رغبت في أي وقت أن أعبر عن رأيي في السيد فلاي، فإن صفحات "لوليبوب"، أكد لي السيد كراب، تحت أمري تماما. في الوقت نفسه حيث إنني سأهاجم بالتأكيد على صفحات الفلاي لمحاولتي تأليف قصيدة منافسة عن "زيت بوب"، فهو (السيد كراب) سيأخذ على عاتقه أن يدافع عن مصالحي الخاصة والشخصية؛ فإن لم أحسن التصرف برجولة على الفور، فلن تكن غلطته (السيد كراب).

وإذ توقف السيد كراب عن خطابه (حيث وجدت أنه من المستحيل فهم الجزء الأخير)، غامرت بالتلميح إلى المكافأة التي توقعتها عن قصيدتي بسبب الإعلان الذي قرأته على غلاف اللوليبوب أنها "تصرعلى أن يسمح لها بدفع مبالغ عالية لكل الإسهامات التي تقبلها، إذ إنها تنفق في الغالب في مقابل قصيدة قصيرة وحيدة أكثر من التكلفة السنوية الكلية للهم درم وراودى دوو وجوسذير ومفوودل".

وإذ ذكرت كلمة مكافأة، فتح السيد كراب أولا عينيه، ثم فمه لاتساع كبير تماما، فجعل مظهره الشخصي يشبه مظهر بط عجوز مهتاجا اهتياجا عاليا يوقوق، وظل على هذا الوضع (طوال الوقت وفي هذه اللحظة يضغط على جبهته بيديه بشدة كأنه في حالة من التشوش اليائس) حتى أنهيت ما كنت أقوله تقريبا.

وعند انتهائي، غرق في مقعده، كأنه منهك القوى، تاركا ذراعيه تسقطان خامدتين إلى جانبه، لكن كان محتفظا بفمه مفتوحا بصرامة على نمط البط. وبينما قبعت في حالة اندهاش أخرس بسبب سلوكه الذي توجست منه خطرا، قفز فجأة واقفا على قدميه وأسرع نحو حبل الجرس، لكن ما إن وصل إليه بدا أنه غيرٌ نيته (أيا كانت لأنه غاص تحت طاولة ما، وظهر مرة أخرى فورا مع هراوة. كان في خضم رفع هذا النبوت، (منعني ارتباكي عن تصور الغرض من هذا) فجأة حلت ابتسامة عذبة على ملامحه وغرق مرة أخرى بهدوء في كرسيه.

قال: "سيد بوب (لأني كنت قد أرسلت بطاقتي قبل أن أصعد بنفسي)، أعتقد أنك صغير السن جدا؟"

صدّقت على قوله وأضفت أنني لم أنه بعد سنواتي الخمس الثالثة.

أجاب: "آه، جيد جدا! أفهم، لا تقل أي شيء آخر! بما أنك تطرقت إلى مسألة التعويض فملاحظتك دقيقة، في الحقيقة هي ملاحظة مضبوطة للغاية. لكن آه.... آه.... الإسهام الأول، الأول- أقول، لم تتعود المجلة أن تدفع مقابله، فاهم.... إيه؟ الحقيقة، عادة نحن المتلقون في هذه الحالة". (ابتسم السيد كراب ابتسامة رقيقة وهو يشدد على كلمة "المتلقون"). "في أغلب الأحيان، يُدفع لنا لإدراج المحاولة البكر في صفحاتنا، خاصة الشعر. ثانيا، يا سيد بوب، قانون المجلة هو ألا ندفع

أبدا ما يطلق عليه في فرنسا أموالا سائلة، لا شك عندي أنك تفهم ما أعنيــه. ففي خلال فصل أو فصلين بعد نشـــر المقال- أو خلال عام أو اثنين- لا اعتراض لدينا على أن نعطي نقودا ورقية عند الشهر التاسع، بشرط دائما أن نرتب أمورنا بحيث نتأكد تماما من أنها " بروز مفاجئ" في الشهر السادس. آمل حقا يا سيد بوب أن تجد هذه الشروحات مرضية". انتهى هنا السيد كراب واغرورقت عيناه بالدموع.

سارعت في تقديم الاعتذار إذ حزنت حزنا شديدا لأنني تسببت في إيلام رجل بارز وحساس جدا، على الرغم من أنني فعلت هذا ببراءة، وأعدت طمأنته، بأن عبرت عن توافقي الكامل مع آرائه وتقديري الكامل لحساسية وضعه. ورحلت بعد أن قلت هذا في خطاب محكم.

في أحد الصباحات الجميلة، بعد هذا اللقاء مباشرة، "استيقظت فوجدت نفسي مشهورا". إن تثمين حجم شهرتي تقدير جيد سيتحقق بالرجوع إلى آراء المقالات الافتتاحية في ذلك اليوم. فسترون أن تلك الآراء، تضمنتها الملاحظات النقدية لهذه المقالات الافتتاحية عن عدد لوليبوب الذي يحتوي قصيدتي، وهي مثيرة للرضا ومقنعة وواضحة باستثناء ربما الملاحظات الهيروغليفية "سبتمبر. ١٥- ١ 'T."، الملحقة بكل ملاحظة نقدية.

كتبت "أوول" - وهي صحيفة ذات حصافة عميقة ومعروفة بسبب جاذبية أحكامها الأدبية الناشئة عن ترو عميق- ما يلي:

"اللوليبوب! تفوّق عدد أكتوبر من هذه المجلة اللذيذة على أعداده السابقة وأقامت منافسة تحد. ففي جمال طباعتها وأوراقها، وفي عدد أوراقها المصقولة وجودتها، كما في جودة الإسهامات الأدبية التي تحتويها، تقارن "اللوليبوب" بمنافساتها البطيئة كما يقارن هيبريون بساتير. نحن نقر بحقيقة أن "هم درم" و"راودي دوو" و"جوسذيرومفوودل" ممتازة في تبجحاتها، لكن في كل النواحي الأخرى، تربح "اللوليبوب". كيف تستطيع هذه الصحيفة الشهيرة تحمل تكاليفها الهائلة مسألة تتجاوز إدراكنا. فهي توزع بالتأكيد ١٠,٠٠٠ نسخة وزادت قائمة اشتراكها إلى الربع خلال الشهر الماضي، لكن، من جهة أخرى إن المبالغ التي تدفعها باستمرار للإسهامات تفوق التصور. فالبيانات تذكر أن السيد سلياس يتلقى مالا يقل عن سبعة وثلاثين ونصف سنت عن مقاله الفذ في "بيجس". فمع السيد كراب، بصفته رئيس التحرير وأسماء كبيرة على قائمة المساهمين مثل سنوب وسلياس لا يمكن أن توجد كلمة مثل" الفشل" في قاموس "اللوليبوب"، اذهبوا واشتركوا فيها. "سبتمبر، ١٥-١ *T*"

يجب أن أذكر أنني كنت مسرورا بهذه الملاحظة الراقية من صحيفة عالية الشأن مثل "أوول". كان وضع اسمي - أقصد اسمي المستعار- في مركز يسبق اسم سلياس العظيم، مجاملة بقدر ما أستحقها أسعدتني.

لفت انتباهي ثانية تلك الفقرات في "تود"، وهي مطبوعة بارزة للغاية بسبب استقامتها واستقلاليتها، وتحررها التام من التملق الذليل والانتفاع من واهبي مآدب العشاء:

اللوليبوب في عدد أكتوبر بلغت القمة في أن تتقدم زمنيا الدوريات المعاصرة لها، وأن تتفوق عليها تفوقا مطلقا بالطبع في روعة زخرفتها وغنى محتوياتها الأدبية أيضًا. نقر لـــ "هم درم" و"زاودي دوو" و"جوسذيرومفوودل" من ناحية التبجح، لكن في كل النواحي الأخرى تربح "اللوليبوب". كيف تستطيع هذه الصحيفة الشهيرة تحمل تكاليفها الهائلة مسألة تتجاوز إدراكنا؛ فهي توزع بالتأكيد ٢٠٠,٠٠٠ نسخة، وزادت قائمة اشتراكها إلى الثلث خلال الأسبوعين الماضيين، لكن، من جهة أخرى، إن المبالغ التي تدفعها شهريا للإسهامات ضخمة بشكل مخيف. علمنا أن السيد ممبلثامب يتلقى مالا يقل عن خمسين سنتا عن "مرثاة في بريكة موحلة".

من بين المساهمين الأساسيين في العدد الحالي نلاحظ (إلى جانب رئيس التحرير البارز السيد كراب) رجالا عظماء مثل سنوب، سلياس وممبلثامب. وبعيدا عن مسألة المقال الافتتاحي، نعتقد مع ذلك أن أعلى الصفحات قيمة، جوهرة شعرية من تأليف سنوب عن "زيت بوب"، لكن لايجب أن يظن قراؤنا من عنوان هذه الحلية التي لاتضاهي أنها تحمل أي تشابه مع هراء ما عن الموضوع نفسه من تأليف شخص ما وضيع

لا يرقى اسمه لذكره أمام المهذبين. إن القصيدة الحالية "في زيت بوب" خلقت إثارة شاملة وأثارت الفضول فيما يتعلق بصاحب الاسم المزيف بوضوح "سنوب"- الفضول الذي استطعنا لدواعي سرورنا أن نشبعه. إن سنوب هو الاسم المستعار للسيد ثينجم بوب من هذه المدينة، يمت بصلة قرابة للعظيم السيد ثنجم (الذي سمي باسمه)، وهو ذو صلة من ناحية أخرى بأكثر العائلات الشهيرة في الولاية. إن أباه توماس بوب المحترم، تاجر غني. سبتمبر ١٥-١ *T*".

لمس قلبي هذا الاستحسان الكريم، على الأخص لأنه صدر عن مصدر معترف به ويتسم بنقاوة يضرب بها المثل مثل "التود". إن كلمة "هراء" التي خصصت لوصف "زيت بوب"، التي نشرت في مجلة فلاي، اعتبرتها نعتا لاذعا وملائما على نحو فريد. من ناحية أخرى، صدمتني كلمتا "جوهرة" و"حلية" اللتان استخدمتا في الإشارة إلى تأليفي، لأنهما، إلى حد ما، ضعيفتان. لقد رأيت أنهما تفتقران إلى القوة، فهما ليسا صريحتين صراحة وافية (كما نفعل في فرنسا)(١).

ما كدت أنتهي من قراءة "تود" حتى وضع صديق بين يدي نسخة من "مول"، صحيفة يومية، تتمتع بسمعة كبيرة بسبب نفاذ بصيرتها عموما وبسبب أسلوب افتتاحياتها الصريح والصادق والحي/ المعاصر. تحدثت المول عن اللوليبوب كما يلي:

---

(1) Bijou وردت الكلمة بالفرنسية، وهذا هو سبب تعليق السيد ثنجم.

"تلقينا توا عدد أكتوبر من اللوليبوب ويجب أن نقول إننا لم نقرأ من قبل أبدا أي عدد واحد من أي دورية منحنا سعادة عظيمة أعلى/أسمى. نحن نتحدث عن أناة. ينبغي على كل من "هم درم" و"راودي دوو" و"جوسذيرومفوودل" أن تضع أمام عينها المجد. تتفوق تلك المطبوعات على كل شيء في صخب ادعاءاتها، لكن في النواحي الأخرى تربح "اللوليبوب". كيف تستطيع هذه المجلة الشهيرة تحمل تكاليفها الهائلة مسألة تتجاوز إدراكنا. فهي توزع بالتأكيد ٣٠٠,٠٠٠ نسخة، وزادت قائمة اشتراكها إلى النصف خلال الأسبوع الماضي، لكن، من جهة أخرى، إن المبالغ التي تدفعها شهريا للإسهامات هائلة على نحو صاعق. فقد عرفنا من مصدر جيد أن السيد فاتقواك يتلقى مالا يقل عن اثنين وستين سنتا ونصف عن روايته القصيرة المحلية " قماشة غسل الصحون".

إن المساهمين في العدد أمامنا هم السيد كراب(رئيس التحرير البارز)، سنوب، ممبلثامب، فاتقواك، وآخرون. لكن بعد الأشعار الفذة لرئيس التحرير نفسه، نفضل الاندفاق الماسي في قلم شاعر صاعد يكتب باسم سنوب- اسم مستعار نتنبأ أنه سيخمد تألق "بوز" يوما ما. نعلم أن سنوب هو السيد ثنجم بوب، الوريث الوحيد لتاجر غني من هذه المدينة، توماس بوب المحترم وقريب السيد ثنجم المميز. إن عنوان قصيدة السيد ب الرائعة هو "زيت بوب"، وهو عنوان سيئ

الحظ بالمناسبة لأن متشردا وضيعا له علاقة بصحافة السنت[١] أصاب البلدة بالقــرف بالفعــل بهراء في الموضوع نفسه. ومع ذلك لا خطر لو حدث خلط بين القصيدتين. "سبتمبر. ١٥-١ T".

اخترق الاستحسان الكريم لصحيفة ذات رؤية شفافة مثل "مول" روحي ببهجة. كان الاعتراض الوحيد الذي خطر لي أن تعبير "متشرد وضيع" كان من الأفضل كتابته "كريه ووضيع وخسيس وجلف ومتشرد". أعتقد أن هذا كان سيكون له وقع أكثر لباقة/ رشاقة. كانت أيضًا "ماسي الشكل" بالكاد ذات كثافة كافية للتعبيرعما كانت تراه مول عن عبقرية "زيت بوب".

في نسخة ما بعد الظهيرة نفسها التي رأيت فيها تلك الملاحظات في "أوول" و" تود" و" مول[٢]" صدف أن لاقيت نسخة من "دادي لونج ليجز[٣]"؛ وهي دورية مضروب بها المثل بسبب مدى فهمها البالغ. وقد كانت "دادي لونج ليجز" التي تحدثت على النحو التالي:

"اللوليبوب! إن عدد أكتوبر من هذه المجلة الرائعة بين يدي الجمهور بالفعل. لقد تم كشف زيف مسألة التفوق للأبد، وبعد ذلك سيصبح أمرا منافيا للعقل بشدة أن تقوم الهم درم وراودي دوو

---

(١) الصحفي الذي يأخذ سنتا على السطر الذي يكتبه، وهذا يعني أنه صحفي رديء النوع.

(2) Owl, Todd Mole

(3) Daddy-Long-Legs

وجوسذيرمفوودل بأي محاولات تشنجية إضافية للتنافس منافسة معها. لعل هذه الصحف تفوق اللوليبوب في الصياح، لكن في كل النواحي الأخرى تربح اللوليبوب! كيف تستطيع هذه المجلة الشهيرة تحمل مصروفاتها الهائلة كما هو واضح، نقطة تتجاوز الفهم. بالتأكيد يصل توزيعها إلى نصف المليون بالضبط، وزادت قائمة اشتراكها سبعة وعشرين بالمائة، خلال اليومين الماضيين، ولكن من ناحية أخرى، إن المبالغ التي تدفعها إلى مساهميها شهريا تفوق التصور. نحن على علم بحقيقة أن مدموازيل كريباليتيل تلقت ما لايقل عن سبعة وثمانين سنتا ونصف عن حكايتها الثورية القيمة الأخيرة "اليورك تاون كاتي ديد، والبنكر هل كاتي ددنت(١)".

أكثر المقالات براعة في العدد الحالي، بالطبع تلك التي كتبها رئيس التحرير (السيد كراب البارز)، لكن ثمة مساهمين رائعين عديدين يحملون أسماء مثل سنوب ومدموازيل كريباليتيل، وسلياس، والسيدة فيباليتل، وممبلثامب والسيدة سكويباليتل وأخيرا وليس آخرا فاتقواك. نتحدى العالم أن يلد كوكبة غنية هكذا من العباقرة.

نرى أن القصيدة التي تحمل توقيع "سنوب" قد جذبت المديح الكامـــل ونحن ملـــزمون بقول إنها تستحق استحسانا أكثر مما تلقته، لو أن هذا ممكن. إن عنوان هذه القطعة الأصيلة من البلاغة والفن

(1) *The York-Town Katy- Did and the Bunker –Hill Katy –Didn't*

"زيت بوب" لعل واحدا أو اثنين من قرائنا تراوده ذكرى ضعيفة جدا، لكن مقرفة بما يكفي عن قصيدة تحمل العنوان نفسه، جريمة ارتكبها كاتب- بنس، ومتسول وسفاح، له علاقة على ما نعتقد بواحدة من المطبوعات الحقيرة التي يقع مقرها على حدود المدينة، بصفته مساعدا. نرجو القراء، من أجل الله، ألا يخلطوا بين القصيدتين. بلغ إلى مسامعنا أن مؤلف "زيت بوب" هو ثنجم بوب المحترم. نبيل ذو ذكاء عال ومثقف. إن سنوب، هو محض اسم مستعار.

لم أستطع أن أكظم سخطي وأنا أقرأ الأجزاء النهائية من هذا النقد الساخر. لقد كان واضحا أمامي أن أسلوب نعم -لا- ناهيك عن اللطف واللين الكامل، الذي تحدثت به دادي لونجليجز عن ذلك الخنزير، رئيس تحرير جاد- فلاي- أقول إنه كان واضحا أمامي، أن هذا اللطف في الخطاب لايمكن أن يصدر إلا عن تحيز للفلاي؛ حيث كان من الواضح تماما أن نية دادي لونج ليجز أن تعلى من سمعتها على حسابي. ففعليا أي إنسان قد يدرك، بنصف عين أنه إذا كان الغرض الحقيقي لدادي كان ما رغبت أن يظهر، كانت (دادي) ستعبر عن مقصدها بعبارات أكثر مباشرة ولذوعة وتصيب الهدف تماما. إن كلمات "كاتب- بنس" و"متسول" و"سفاح" و"مساعد" نعوت خالية من المعنى عن قصد وملتبسة، بحيث تصبح أسوأ من عدمها عندما تستخدم في وصف مؤلف أسوأ أبيات شعرية قد خطها واحد من النوع البشري.

جميعنا يعرف ما القصد من" الذم بمديح واهن" ومن ناحية أخرى، من يعجز عن أن يرى الغرض المستتر لدادي، من المديح بذم ضعيف؟

مع ذلك، ما اختارت دادي أن تقوله لفلاي ليس من شأني. أما ما قيل عني فهو يخصني. فبعد الأسلوب النبيل الذي عبرت به أوول وتود ومول عن موهبتي، كان أمرا جليلا أن يتم الحديث عني ببرود من شيء مثل دادي لونج ليجز بصفتي "نبيلا ذا ذكاء عال ومثقفا"، نبيلا بالفعل! قررت على الفور إما أن أحصل على اعتذار خطي من دادي لونج ليجز أو اعتذار علني.

فحصت من حولي وقد استغرقني تماما تحقيق هذا الهدف، لكي أعثرعلى صديق أستطيع أن أئتمنه على رسالة بسبب علاقته القوية بدادي/ اشتراكه بدادي/ بسبب أبويته. وبما أن رئيس تحرير اللوليبوب أبدى لي علامات قوية من الاهتمام، توصلت في النهاية إلى أن أتلمس مساعدته في الظرف الحالي.

لم أستطع أبدا أن أعلل، على نحو يرضي عقلي، السيماء الفريدة جدا والتصرفات التي استمع بها السيد كراب تصريحي بنيتي. فمرة أخرى، أدى مشهد حبل الجرس والهراوة ولم يسقط أي قسم من جزء البطة. عند مرحلة معينة اعتقدت أنه ينوي حقا أن يوقوق. مع ذلك خمدت نوبته في النهاية كما من قبل، وبدأ يتصرف ويتحدث بطريقة عقلانية. من ناحية ثانية، رفض التحدي الكتابي وفي الحقيقة، نصحني

ألا أرسلــه أبدا، غير أنه كان نزيها بما يكفي ليعترف أن دادي لونج ليجز ارتكبت خطأ مشينا، خاصة فيما يتعلق بالنعوت التي أطلقتها "نبيل ومثقف"

عند نهاية هذا اللقاء مع السيد كراب، الذي بدا حقا أنه يهتم اهتماما أبويا برفاهتي، اقترح على أن أكسب المال بشرف وفي الوقت نفسه أرفع من شأن سمعتي بأن ألعب أحيانا توماس هاوك لليوليبوب.

رجوت السيد كراب أن يعلمني منْ السيد توماس هاوك، وكيف من المتوقع أن ألعبه.

هنا مرة أخرى فتح السيد كراب عينيه على آخرهما (كما نقولِ بالألمانية)، لكن، إذ إنه في النهاية استعاد نفسه من صدمة عميقة من الدهشة، أكد لي أنه استخدم كلمات " توماس هاوك" لكي يتجنب التعبير العامي، تومي، الذي كان مبتذلا، إلا أن الفكرة الحقيقية كانت تومي هاوك- أو توماهاوك- وأنه يشير بتعبير "لعب توماس هاوك" إلى قطيع المؤلفين اليائسين والتجار الرخيصين والعبوسين والمستهلكين من نواح أخرى.

أكدت لرئيسي لو أن هذا كل ما في الأمر، فأنا أذعن مستسلما تماما لمهمة لعب توماس هاوك. عند هذا رغب السيد كراب مني أن أنهي رئيس تحرير جاد فلاي على الفور، بأشرس أسلوب تمكني منه قدراتي، وباعتباره عينة من قواي. أنجزت هذا في الحال في مقال نقدي عن "زيت بوب" الأصلية، احتل ستا وثلاثين صفحة من اللوليبوب.

وجدت أن لعب توماس هاوك وظيفة أقل إرهاقا من تأليف الشعر، ذلك أنني عملت وفق نظام بالإجمال، وعليه كان من السهل إنجاز الأمر بشكل جيد تماما. كان تدريبي على النحو التالي: اشتريت من مزاد علني نسخا (رخيصة) من "خطابات اللورد بروجام" و"الأعمال الكاملة لكوبت" و"المقاطع اللفظية للهجة العامية" و"فن التوبيخ" و"اللهجة السوقية للبرينتس" (نسخة من القطع الطويل) و"لويس ج. كلارك عن العامية"[1]. جزءت هذه الأعمال كلية بمشط تمشيط الخيل، ثم، وضعت القطع الورقية الممزقة طوليا في منخل، وفرزت بعناية كل ما اعتقدت أنه محترم (قدر ضئيل)، رميت العبارات الصلبة التي بقيت في مذراة فلفل نحاسية كبيرة ذات ثقوب طولية، بحيث تستطيع أن تمر بها جملة كاملة بدون أن يصيبها ضرر جسيم. هكذا أصبح الخليط جاهزا للاستخدام. وعندما طلب مني رسميا لعب توماس هاوك، دهنت ورقة فولوسكاب بزلال بيض ذكر الأوز، ثم مزقت المقالات التي على نقدها بالطريقة التي مزقت بها الكتب- لكن بعناية أكبر، بحيث تصبح كل كلمة منفصلة- ورميت القصاصات الأخيرة مع الأولى، وأغلقت غطاء علبة المذراة، وهززتها، ورششت الخليط فوق الفولوسكاب المدهون،

---

(1) " Lord Brougham's Speeches": Henry Brougham (1778-1868)
" Cobbett's Complete Works": William Cobett (1766-1835)
" New slang-syllabus"
" Prentice' Billingsgate": George D. Prentice
Lewis Gaylord Clark

فالتصق فوقه. كانت النتيجة جميلة تستحق المشاهدة. كانت آسرة. في الواقع لم أقرب أبدا المقالات النقدية التي خلقتها بهذه الوسيلة البسيطة، وكانت من عجائب العالم. في البداية، بسبب الخجل- نتيجة عدم الخبرة- انزعجت قليلا من عدم تناسق معين، بسيماء معين من *bizarre* الغرابة (كما نقول في فرنسا) شاب التأليف. كل العبارات لم تركب.(كما نقول في الأنجلو- ساكسون)؛ فالعديد منها كان منحرفا، بل البعض منها كان مقلوبا رأسا على عقب. ولم تنج واحدة منها من الضرر بدرجة ما مع نتيجة الرش بسبب هذا الحادث الأخير. باستثناء فقرات السيد لويس كلارك، التي كانت قاسية جدا وصلبة كلية بحيث بدت لم يربكها أي موضع متطرف بل بدت سعيدة وراضية على قدم المساواة، سواء على رأسها أم على كعبيها.

من الصعب تحديد ما حل برئيس تحرير جاد-فلاي بعد نشر نقدي عن قصيدته " زيت بوب". إن أكثر استنتاج منطقي هو أنه ندب نفسه حتى الموت. على أي حال، لقد اختفى على الفور من فوق وجه الأرض ولم ير أي شخص حتى خياله منذ ذلك الحين.

وإذ أنجزت هذه المسألة على وجه حسن واسترضيت الأرواح المنتقمة، نلت حظوة كبيرة لدى السيد كراب. فأصبحت أمين سره ومنحني منصبا دائما بصفتي توماس هاوك لليوليبوب، وحيث إنه لا يستطيع في الوقت الحالي أن يتحمل منحي راتبا، سمح لي أن أستفيد بدون قيد من نصائحه.

قال لي في أحد الأيام بعد العشاء: "عزيزي ثنجم، إنني أحترم قدراتك وأحبك كابن لي. ستكون وريثي. عندما أموت سوف أورثك الليوليبوب. في الوقت الحالي، سأجعل منك رجلا – سوف أفعل هذا- شريطة أن تتبع نصيحتي دائما. أول شيء يجب أن تفعله هو أن تتخلص من العجوز الناخر الثقيل".

قلت متسائلا: "الخنزير؟ ها؟ ***aper*** الخنزير البري؟ (كما نقول في اللاتينية) من؟ – أين؟"

قال: "أبوك"

أجبت: "بالضبط، خنزير".

"ثنجم، عليك أن تبني ثروتك، وهذا المتحكم بك حجر رحى حول عنقك، لابد أن نقطعه على الفور. (هنا أخرجت سكيني) لابد أن نقطعه بحسم وإلى الأبد. لن يصلح- لن يصلح. وبعد إعادة النظر من الأفضل أن ترفسه أو تضربه بعصا أو شيء من هذا القبيل".

اقترحت بتواضع: "ما رأيك في أن أرفسه أولا ثم أضربه بعصا بعد ذلك وأنتهي بشمط أنفه؟"

نظر إليَّ السيد كراب نظرة متأملة للحظات ثم أجاب: " أعتقد يا سيد بوب أن ما تقترحه سيفي بالغرض بطريقة جيدة- جيدة فعلا على نحو رائع- أي بقدر ما ينفذ، غير أنه من الصعب بشدة إزالة الحلاقين،

وأعتقد إجمالا بعد أن تقوم بالعمليات التي اقترحتها مع توماس بوب، فمن المستحسن أن تورم بقبضتيك عينيه الاثنتين بعناية فائقة وكلية لكي تمنعه من أن يراك مرة أخرى في أي وقت في تمشية عامة. وبعد أن تقوم بهذا، لا أعتقد حقا أنه يمكنك أن تفعل شيئا آخر. مع ذلك، من العدل أيضًا أن تدحرجه مرة أو مرتين في بالوعة ثم تضعه في مسؤولية الشرطة. وتستطيع في أي وقت في الصباح التالي أن تذهب إلى بيت دار القضاء وتقسم على أنه اعتدى عليك".

تأثرت بشدة بطيبة المشاعر تجاهي شخصيا التي اتضحت في هذه النصيحة الممتازة من السيد كراب، ولم أفشل في الانتفاع بها بعد ذلك. كانت النتيجة أنني تخلصت من العجوز الثقيل وبدأت أشعر باستقلالية قليلة وهيئة النبيل. نقص المال مع ذلك كان مصدر إزعاج لبضعة أسابيع، لكن في النهاية، عندما فتحت عينيَّ بعناية وراقبت كيف تجري المسائل تحت أنفي تماما، أدركت كيف أن الشيء ينجز. لاحظوا أقول " الشيء" *rem* لأنهم قالوا لي إن المعادل اللاتيني له هو المفعول به شيئا. بمناسبة الحديث عن اللاتينية، هل يمكن أن يقول لأي أحد معنى ***quocunque*** أو ما معنى ***modo***؟[١]

كانت خطتي بسيطة للغاية. اشتريت السدس في سنابنج ترتيل بخسا- هذا كل شيء. أنجز الشيء، ووضعت مالا في محفظتي. ثمة

(١) بأى طريقة.

ترتيبات تافهة بعد ذلك، بالتأكيد، لكنها لم تكن جزءا من الخطة. كانت عاقبة، نتيجة. على سبيل المثال، اشتريت قلما وحبرا وورقا واستخدمتها في نشاط محموم. وبعد أن انتهيت على هذا النحو من كتابة مقال، أسميته "فول لول، بقلم مؤلف زيت بوب"، وضعته في ظرف وأرسلته إلى جوسذيرومفوودل، وعلى الرغم من أن هذه الصحيفة أعلنت أنها "ثرثرة" في "ملاحظاتها الشهرية على المراسلات"، أعدت تسمية المقال بـــ "هاي ديدل ديدل" باسم ثنجم بوب المحترم، مؤلف القصيدة الغنائية "زيت بوب"، رئيس تحرير "سنابنج ترتيل". ومع هذا التذييل أعدت وضعه في ظرف إلى جوسذيرومفوودل، وبينما كنت أنتظر ردا، نشرت يوميا في "ترتيل" ستة أعمدة عما يمكن أن يسمى ببحث فلسفي وتحليلي في المزايا الأدبية لجوسذيرومفوودل، إلى جانب شخصية رئيس تحرير جوسذيرومفوودل. في نهاية الأسبوع، اكتشفت جوسذيرومفوودل أنها بسبب خطأ غريب، "خلطت مقالا غبيا بعنوان "هاي ديدل ديدل" كتبه مجهول ما غير معروف يحمل بذرة وميض متألق يتشابه عنوانه مع عمل ثنجم بوب المحترم المؤلف الشهير لـــ "زيت بوب". إن جوسذيرومفوودل" تأسف أسفا عميقا بسبب هذه الحوادث الطبيعية" وتعد، علاوة على ذلك، أن تدرج "هاي ديدل ديدل" العبقرية في العدد القادم من المجلة.

في الحقيقة، لقد اعتقدت، حقا اعتقدت - أعتقد في ذلك الوقت- اعتقدت حينئذ- وليس لدي سبب يجعلني أعتقد شيئا مختلفا الآن- أن

جوسذيرومفوودل ارتكبت خطأ. وبكل النوايا الطيبة في العالم لم أعرف شيئا ارتكب أخطاء عديدة فريدة مثل جوسذيرومفوودل. منذ ذلك اليوم ملت نحو جوسذيرومفوودل، وكانت النتيجة أنني سرعان ما تعمقت في أعماق مزاياها الأدبية ولم أفشل في الإطناب عليها في الترتيل كلما جاءت فرصة مناسبة. ولابد من اعتبارها صدفة خاصة، باعتبارها واحدة من تلك الصدف الرائعة بالتأكيد التي تجعل الإنسان يفكر عميقا. إن هذه الدورة الكاملة في الرأي فقط- هذه ***Bouleversemen*** الشقلبة الكاملة فقط (كما نقول في فرنسا) - وهذا الانقلاب رأسا على عقب (لو سمح لي باستخدام تعبير أقوى إلى حد ما من لغة الشوكتو[١] الأصلية كما حدث) تأييد ولحتجاج بين شخصي من جهة وجوسذيرومفوودل من جهة أخرى، حدث فعليا مرة أخرى في فترة قصيرة بعد ذلك وبالشروط نفسها المشابهة تماما في موقفي وموقف راودي دوو، وفي موقفي وموقف هم درم.

هكذا بضربة معلم من العبقرية حققت انتصاراتي بـــ "مال في محفظتي"، ويمكن أن يقال بناء عليه حقا وإنصافا استهلال مهنة رائعة ومثيرة جعلتني شهيرا وتخولني الآن أن أقول مع شاتوبرياند "لقد صنعت التاريخ".

---

(١) الهنود الحمر في ألاباما

لقد "صنعت التاريخ" بالفعل. فمن العهد اللامع الذي أسجله الآن، أفعالي وأعمالي ملك للإنسان. إن العالم يألفهما. وبالتالي لا أحتاج إلى أن أسرد كيف ارتقيت سريعا، وسقطت وريثا لليوليبوب، كيف دمجت هذه الصحيفة في هم درم، وكيف مرة أخرى اشتريت راودي دوو جامعا على هذا النحو الدوريات الثلاث، وأخيرا كيف عقدت صفقة شراء للمنافسة الباقية الوحيدة ووحدت كل أدب البلاد في مجلة واحدة رائعة معروفة في كل مكان بـــ

راودي دوو، لوليبوب، هم درم، جوسذيرومفوودل.

نعم، لقد صنعت التاريخ ***J'ai fait l' histoire***، شهرتي عالمية، تمتد إلى أطراف الأرض. لا تستطيع أن تلتقط صحيفة عادية لن ترى بها إشارة ما إلى الخالد ثنجم بوب. لقد قال السيد ثنجم بوب هذا، والسيد ثنجم بوب كتب هذا، والسيد ثنجم فعل هذا. لكنني حليم وسأمـــوت بقلـــب متـــواضع. ففي النهايـــة، ما هذا؟ هذا الشيء الذي لا يوصف، الذي سيصر الإنسان على تسميته "عبقرية"؟ إنني أوافق بوفن وهوجارث، إنه ليس إلا اجتهادا في النهاية.

انظروا إليَّ! كيف عملت -كيف كدحت- كيف كتبت! أيتها الآلهة، ألم أكتب؟ لم أعرف كلمة "راحة". التصقت بمكتبي في النهار، وفي الليل استهلكت زيت منتصف الليل تلميذا شاحبا. كان يجب أن تروني- كان يجب. ارتكنت إلى جانبي الأيمن. ارتكنت إلى جانبي الأيسر.

جلست معتدلا. جلست مضطجعا. جلست ورأسي منخفضا (كما يقولون في كيكابوو) حانيا رأسي فوق الصفحة المرمرية. وخلال كل هذا، كتبت. في الفرح وفي الحزن كتبت. في الجوع والعطش كتبت. في الأخبار الجيدة والسيئة كتبت. في شعاع الشمس وشعاع القمر كتبت. ليس من الضروري أن أقول ما كتبت. الأسلوب، هذا هو المهم. أخذته عن فاتقواك- طنين!- أزيز!- وها أنا أمنحكم عينة منه الآن.

المؤلف فى سطور:

إدجار آلان بو (١٨٠٩ – ١٨٤٩)

- أحد الرواد الأمريكيين الأوائل فى الشعر والنقد والقصة القصيرة.
- بدأ كتابة الشعر عندما نشر كتيبات تضم بعض قصائده فى ١٨٢٩، ثم أصدرها كاملة فى طبعة ثانية فى ١٨٣١.
- ذاعت شهرته بعد أن نشر قصته "مخطوط وجد فى زجاجة".
- جمع عددًا كبيرًا من قصصه ونشرها فى ١٨٤٠ فى مجلدين بعنوان "قصص الخيال الجامح".

المترجمة فى سطور:

غادة الحلواني

قاصة ومترجمة

من مجموعاتها القصصية:

- وخزة حفيف، القاهرة دار شرقيات ، ١٩٩٩.
- ولكن كيف ، بيروت، دار الفارابى، ٢٠٠٤.
- محو مؤقت، القاهرة ، دار شرقيات، ٢٠٠٧.

من ترجماتها

شعر المرأة الأفريقية، نماذج من الشعر النسائى"، المشروع القومى للترجمة، ٢٠٠٥.

التصحيح اللغوى: سمـــاح حــامد
الإشراف الفنـــى: حســن كامـــل